

للإمام العالم العلامة أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي

المتوفى ٤٢٧ هـ

تحقيق

الشيخ سيد كسروي حسن

الجزء الثاني

المحتوى:

من أول سورة آل عمران - إلى آخر سورة الأنعام

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م- ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٠٩٦١ ٥+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4410-3
9782745144102 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة آل عمران

روى أنَّها أربعة عشر ألف حرف، وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفًا، وثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة، ومائتا آية.

❖ **فضلها:**

روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ السورة التى يُذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكتهُ حتى تغيب الشمس».

زرّ بن حُبيش عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أُعطى بكل آية منها أمانًا على جسر جهنَّم».

روى عن أبى إسحاق عن سليم بن حنظلة، قال: قال عبد الله بن مسعود: «من قرأ آل عمران فهو غنى».

يحيى بن نعيم عن أبيه عن أبى المعرش عن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تعلَّموا البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، وإنهما يأتيان يوم القيامة فى صورة ملكين شفعاء له جزاءً حتى يدخلاه الجنَّة».

إبراهيم بن أبى يحيى عن أبى الحُرين عن أبى عبد الله الشامى، قال: «من قرأ سورة البقرة وآل عمران فى ليلة الجمعة يبدل له يوم القيامة جناحان يطير بهما على الصراط».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ
مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

أخبرنا محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر الزبير، ومحمد بن مروان عن الكلبي، وعبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس، قالوا: نزلت هذه في وفد نجران، وكانوا ستين راكبًا قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدَّرون عن رأيه، واسمهُ عبد المسيح. والسيد (عالمهم) وصاحب رحلهم واسمه (الأيْهم ويقال: شرحبيل) وأبو حارثة بن علقمة الذي يعتبر حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان قد شرف فيهم ودرَّس كهنتهم من حسن عمله في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرّفوه (وموّلوه وبنوا له) الكنائس لعلمه واجتهاده.

فقدموا على رسول الله المدينة ودخلوا مسجدهُ ـ حين صلى العصر ـ عليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحديد، في جمال رجال بلحارث بن كعب، يقول بعض مَن رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفدًا مثلهم!

وقد حانت صلاتهم فقاموا وصلّوا في مسجد رسول الله ﷺ وصلّوا إلى المشرق.

فكلَّم السيد والعاقب رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: أسلمنا. قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما؛ يمنعكما من الإسلام (ادِّعاؤكما) لله ولدًا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير.

قالا: إن لم يكن ولد لله فمن (أبيه) وخاصموه جميعًا في عيسى عليه السلام، فقال لهما النبي ﷺ: (إنّه لا يكون ولد إلاّ وشبه أباه. قالوا: بلى، قال: ألستم) تعلمون أن ربَّنا حيٌّ لا يموت وأنَّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلاّ ما عُلم؟

قالوا: لا.

قال: فإنّ ربَّنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء وربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟ قالوا: بلى قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملتهُ أمهُ كما تحمل المرأة، ثم وضعتهُ كما تضع

المرأة حملها، ثم غذى كما يغذى الصبى، وكان يُطعم ويشرب ويُحدث، قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا.

فأنزل الله تعالى فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

فقال عزَّ من قائل: ﴿الٓمٓ﴾ قرأ ابن جعفر بن زبير القعقاع المدنى (ا ل م) مفصولاً، ومثلها جميع حروف التهجى المُفتتح بها السور.

وقرأ ابن جعفر الرواسى والأعشى والهرحمى: ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ﴾ مقطوعًا والباقون موصولاً مفتوح الميم. فمن فتح الميم ووصل فله وجهان:

قال البصريون: لالتقاء الساكنين حركت إلى أخف الحركات.

وقال الكوفيون: كانت ساكنة؛ لأن حروف الهجاء مبنية على الوقف فلمّا تلقاها ألف الوصل وأدرجت الألف فقلبت حركتها وهى الفتحة إلى الميم.

ومن قطع فلهُ وجهان:

أحدهما: نية الوقف ثم قطع الهمزة للابتداء، كقول الشاعر:

لتسمعنَّ وشيكًا فى ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

والثانى: أن يكون أجراه على لغة من يقطع ألف الوصل.

كقول الشاعر:

إذا جـــــاوز الاثنين سرَّ فإنه بنت وتكثير الوشاة قمينُ

ومن فصل وقطع فللتفخيم والتعظيم، ﴿ٱللَّهُ﴾ ابتداء وما بعده خبر، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ نعت له، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قرأ إبراهيم بن أبى عبلة: نزل بتخفيف (الزاى)، الكتاب: برفع الباء، وقرأ الباقون: بتشديد الزاى ونصب الباء على التكثير؛ لأنَّ القرآن كان ينزل نجومًا شيئًا بعد شىء والتنزيل يكون مرّة بعد مرَّة، وقال: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ لأنهما نزلتا دفعة ﴿نزل عليك﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالعدل، والصدق، ﴿مُصَدِّقًا﴾: موافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لما قبله من الكتب فى التوحيد، والنبوّات، والأخبار، وبعض الشرائع.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ قال البصريون: أصلها ووديه دوجله وحرقله فحوّلت الواو الأولى تاء وجعلت الياء المفتوحة ألفًا فصارت توراة، ثم كتبت بالياء على أصل الكلمة، وقال الكوفيون: هى تفعلة والعلة فيه ما ذكرنا مثل (توصية)، و(توفية) فقلبت الياء ألفًا كما يفعل طىء، فيقول للجارية: جاراة، وللناصية: ناصاة، وأصلها من قولهم: «ورى الزند» إذا

أخرجت ناره وأولته أنا، قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ (الواقعة: ٧١)، وقال: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ (العاديات: ٢) فتسمى تورية؛ لأنه نور وضياء دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٨) قاله الفراء، وأكثر العلماء، وقال (المؤرج) هى من التورية وهى كتمان الشىء والتعريض لغيره.

ومن الحديث كان رسول الله ﷺ «إذا أراد شيئًا ورَّى بغيره».

وكان أكثر التورية معارض وتلويحًا من غير إيضاح وتصريح، وقيل: هى بالعبرانية «نوروثو» ومعناه: الشريعة.

والإنجيل أفضل من (النجل) وهو الخروج، ومنه سمى الولد «نجلاً» لخروجه.

قال الأعشى:

أنجب أزمان والداه به إذ نجَّلاه فنعم ما نجلا

فسمى بذلك؛ لأن الله تعالى أخرج به دارسًا من الحق عافيًا.

ويقال: هو من المتنجل، وهو سعة الجن، يقال: قطعة نجلا أى: واسعة فسمى بذلك؛ لأنه أصل أخرجه لهم ووسعه عليهم نورًا وضياء، وقيل: هو بالسريانية «انقليون» ومعناه: الشريعة:

وقرأ الحسن الأنجيل بفتح الهمزة، يصححه الباقون بالكسر مثل: الإكليل.

﴿مِن قَبْلُ﴾ رفع على الغاية والغاية ههنا قطع الكتاب عنه كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤) وقال زهير:

وما كان من خير أتوه فإنّما توارثه آباء آبائهم قبل

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هاد لمن تبعه، ولم ينته؛ لأنَّه مصدر وهو فى محل النصب على الحال والقطع.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الفرق بين الحق والباطل، قال السدى: فى الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للمتقين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ذكرًا وأنثى، قصيرًا وطويلاً، أسود وأبيض، حسنًا وقبيحًا، سعيدًا وشقيًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ متقنات مبينات مفصلات.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أى أصله الذى يعمل عليه فى الأحكام ويجمع الحلال والحرام ويفرِّغ لأهل الإسلام، وهنَّ آيات التوراة والإنجيل والقرآن، وفى كل كتاب يرضى به أهل كل دين، ولا يختلف فيه أهل كل بلد.

والعرب تسمى كلَّ شىء فاضل جامع يكون مرجعًا لقوم، كما قيل للَّوح المحفوظ: أم الكتاب، والفاتحة: أمُّ القرآن، ولمكَّة: أم القرى وللدماغ: أمُّ الرأس، وللوالدة: أم، وللراية: أم، وللرجل الذى يقوم بأمر العيال: أم، وللبقرة والناقة أو الشاة التى يعيش بها أهل الدار: أم، وكان عيسى (عليه السلام) يقول للماء: «هذا أبى»، وللخبز: «هذه أُمى»؛ لأنَّ قوام الأبدان بهما.

وإنَّما قال أُم الكتاب ولم يقل أُمَّهات الكتب؛ لأنَّ الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة، وكلام الله واحدٌ.

وقيل: معناه كلمة واحدة فهُنَّ أُم الكتاب كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ (المؤمنون: ٥٠) أى كل واحد منهما آية.

﴿وَأُخَرُ﴾: جمع أخرى ولم يصرف؛ لأنَّه معدول عن أواخر، مثل عُمر، وزفر وهو قاله الكسائى.

وقيل: ترك أخراه؛ لأنَّه نعت مثل جُمع، وكُسع لم يصرفا؛ لأنَّهما نعتان.

وقيل: لأنَّه مبنى على واحدة فى ترك الصرف وواحدة أخرى غير مصروف.

﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: تشبه بعضها بعضًا، واختلف العلماء فى المحكم والمتشابه كليهما فقال قتادة والربيع والضحاك والسدى: «المحكم: الناسخ الذى يُعمل به».

«والمتشابه: المنسوخ الذى يؤمن به ولا يعمل به، هى رواية عطية عن ابن عباس».

روى على بن أبى طلحة عنه قال: «محكمات القرآن ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يؤمر به ويعمل به».

والمتشابه: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به.

زهير بن معاوية عن أبى إسحاق قال: قال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ قال: هى الثلاث الآيات فى سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١) إلى آخر الآيات الثلاث، نظيرها فى سورة بنى إسرائيل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣) الآيات.

وقال مجاهد، وعكرمة: «المحكم: ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه (يصدِّق) بعضها بعضًا».

قد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: المحكم: ما لا يُحتمل من التأويل غير وجه واحد.

والمتشابه: ما احتمل من التأويل أوجهًا.

وقال ابن زبير: من المحكم ما ذكر الله تعالى في كتابه من قصص الأنبياء (عليهم السلام)، وفصلت وتنتهي لمحمد ﷺ وأمَّته، كما ذكر قصة نوح في أربع وعشرين آية منها، وقصة هود في عشر آيات، وقصّة صالح في ثماني آيات، وقصة إبراهيم في ثماني آيات، وقصة لوط في ثماني آيات، وقصة شعيب في عشر آيات، وقصة موسى في آيات كثيرة.

وذكر (آيات) حديث رسول الله ﷺ في أربع وعشرين آية.

والمتشابه: هو ما اختلف به الألفاظ من قصصهم عند التكرير، كما قال في موضع من قصة نوح: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾ (هود: ٤٠) وقال في موضع آخر: ﴿فَٱسْلُكْ﴾ (المؤمنون: ٢٧).

وقال في ذكر عصا موسى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٢٠)، وقال في موضع آخر: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٠٧) ونحوها.

وإن بعضهم قال: «المحكم: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه».

«والمتشابه: ما ليس لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه» وذلك نحو الخبر عن وقت خروج الدجّال، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، ومحوها.

وقال أبو فاختة: «المحكمات التي هنَّ أم الكتاب فواتح السور منها يستخرج القرآن ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ١، ٢) منها استخرجت البقرة، و﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١، ٢) استخرجت آل عمران.

وقال ابن كيسان: «المحكمات حجتها واضحة، ودلائلها لائحة، لا حاجة بمن سمعها إلى طلب معانيها في المتشابه الذي شك علمه، بالنظر فيه يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل».

وقال بعضهم: «المحكم ما أجمع على تأويله، والمتشابه ما ليس معناه واضحًا».

وقال أبو عثمان: المحكم فاتحة الكتاب.

وقال الشعبي: رأيتُ في بعض التفاسير أنَّ المتشابه هو محكم من وجه على معنى (بشدَّة)

. . . . [١]، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (هود: ١).

والمتشابه من وجه فهو أنَّه يشبه بعضه بعضًا فى الحسن ويصدق بعضه بعضًا.

وقال ابن عبَّاس فى رواية شاذان: المتشابه حروف التهجى فى أوائل السور، وذلك بأنَّ حكام اليهود هم حُيى بن أحطب، وكعب بن الأشرف ونظراءهما أتوا النبى ﷺ فقال له حيى:

بلغنا أنَّه أُنزل عليك (آلم) أأُنزلت عليك؟ قال: نعم، فإن كان ذلك حقًا فإنى أعلم من هلك بأُمَّتك وهو إحدى وسبعون سنة فهل أنزلت عليك غيرها؟ قال: نعم وإلى ﴿الٓمٓصٓ﴾ (الأعراف: ١)، قال: هذه أكبر من تلك هى إحدى وستون ومائة سنة فربما غيرها؟ قال: نعم ﴿الٓرۚ﴾ (يونس: ١) قال: هذه أكثر من مائة وسبعين سنة ولقد خلطت علينا فلا ندرى أبكثيره نأخذ أم بقليله؟ ونحن ممَّن لا يؤمن بهذا، فأنزل تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: أى ميل عن الحق، وقيل: شك.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾: اختلفوا فى معنى هذه الآية، فقال الربيع: هم وفد نجران خاصموا النبى ﷺ وقالوا: ألست تعلم أنَّه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الكلبى: هم اليهود (أجهل) هذه الأمَّة باستخراجه بحساب الجمل. وقال ابن جزى: هم المنافقون.

(قال) الحسن: هم الخوارج.

وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: إن لم يكونوا آخرين فالسبابيَّة ولا أدرى من هم.

وقال بعضهم: هم جميع المُحدثة.

وروى حمَّاد بن سلمة وأبو الوليد يزيد بن أبى ميثم وأبوه جميعًا عن عبد الله بن أبى مليكة الفتح عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقال ﷺ: «إذا رأيتم الَّذين يسألون عمَّا تشابه منه ويجادلون فيه الَّذين عنى الله عزَّ وجل فاحذروهم ولا تخالطوهم».

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: طلب الشرك قالهُ الربيع، والسدى، وابن الزبير، ومجاهد: ابتغاء الشبهات واللبس ليضلوا بها جهّالهم.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: تفسيره وعلمهُ دليله قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٧٨).

وقيل: ابتغاء عاقبته، وطلب مدة أجل محمَّد، وأمته من حساب الجمل، دليله قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩) أى عاقبته، وأصلهُ من قول العرب: تأول الفتى إذا انتهى.

قال الأعشى:

على أنّها كانت تأوّل جها تأوّل ربعى السقاب فأصحبا

يقول: هذا السجى لها فانقرت لها وابتغتها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ واختلف العلماء فى نظم هذه الآية وحكمها.

فقال قوم: الواو فى قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ واو العطف، يعنى أن تأويل المتشابه يعلمهُ الله ويعلمهُ الراسخون فى العلم وهم مع علمهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

وهو قول مجاهد والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، واختيار القتيبى قالوا: معناها يعلمونه ويقولون آمنا به فيكون قوله ﴿يَقُولُونَ﴾ حالاً والمعنى: الراسخون فى العلم قائلين آمنَّا به.

قال ابن المفرغ الحميرى:

أضربت حبك من أمامه من بعــــد أيام برامــه

الريح تبكى شجوهـــا والبرق يلمعُ فى الغمامه

أراد والبرق لامعًا فى غمامه وتبكى شجوه أيضًا، ولو لم يكن البرق يشرك الريح فى البكاء لم يكن لذكر البرق ولمعانه معنًى.

ودليل هــذا التأويل قــولهُ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الحشر: ٧). ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ (الحشر: ٨) الآية.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ (الحشر: ٩): أى والذين تبوؤا الدار، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ (الحشر: ١٠). ثم أخبر عنهم أنَّهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ (الحشر: ١٠) الآية.

ولا شك فى أنَّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ وأنَّهم يشاركون الفقراء المهاجرين والأنصار فى الفىء ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ من جملة ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾. فمعنى الآية ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وهم مع استحقاقهم الفىء ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا

﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ (الحشر: ١٠) أى قائلين على الحال. فكذلك ههنا فى ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ أى ويقولون آمنا به.

ومما يؤيد هذا القول أنَّ الله تعالى لم ينزل كتابه إلاّ لينتفع له مبارك، ويدل عليه على المعنى الذى أرادهُ فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص: ٢٩)، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ (الشعراء: ١٩٥).

والمبين الظاهر، وقال: ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ (الأعراف: ٥٢). فوصف جميعهُ بالتفصيل والتبيين وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النحل: ٤٤).

ولا يجوز أن تبين ما لا يعلم، وإذا جاز أن يعرفهُ الرسول ﷺ مع قوله لا يعلمهُ إلاّ الله، جاز أن يعرفهُ الربانيون من أصحابه.

وقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (الأعراف: ٣) ولا تؤمر باتباع ما لا يُعلم؛ ولأنَّه لو لم يكن للراسخين فى العلم هذا لم يكن لهم على المعلمين والجهال فضل؛ لأنهم أيضًا يقولون آمنا به.

﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾: ولأنَّا لم نر من المفسرين على هذه الغاية قومًا وقفوا عن شىء من تفسير القرآن وقالوا: هذا متشابه لا يعلمهُ إلاّ الله، بل أعزوه كله وفسروه حتى حروف التهجى وغيرها.

وكان ابن عباس يقول: فى هذه الآية: أنا من الراسخين فى العلم.

وقرأ مجاهد هذه الآية وقال: أنا ممّن يعلم تأويله.

وروى سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلم ولا أعلم أربعة: غسلين، وحنانًا، والأوّاه، والترقيم. وهذا إنَّما قال ابن عباس فى وقت ثم علمها بعد ذلك وفسرها.

وقال آخرون: الواو فى قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ واو الاستئناف وتم الكلام، وانقطع عند قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾. ثم ابتدأ وقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ عليهم السلام ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ ابتداء وخبره فى يقولون، وهذا قول عائشة وعروة بن الزبير، ورواية طاوس عن ابن عباس، واختيار الكسائى والفراء والمفضَّل بن سلمة ومحمد ابن جرير قالوا: إنَّ الراسخين لا يعلمون تأويله، ولكنهم يؤمنون به. والآية راجعة على هذا التأويل إلى العلم بما فى أجَل هذه الأمة ووقت قيام الساعة، وفناء الدنيا، ووقت طلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى (عليه السلام)، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، وعلم الروح ونحوها مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه.

وقال بعضهم: (اعلم أنّ المتشابه من الكتاب قد) استأثر الله بعلمه دوننا، ونفسّره نحنُ، ولم نتعبد بذلك. بل ألزمنا العمل بأوامره واجتناب نواهيه، ومما يصدق هذا القول قراءة عبد الله أنّ تأويلهُ لا يُعلم إلاّ عند الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به.

وفى حرف. . . . [1] الراسخون فى العلم آمنًّا به.

ودليله أيضًا ما روى عن عمر بن عبد العزيز، أنَّه قرأ هذه الآية ثم قال: انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

وقال أبو نهيك الأسدى: إنَّكم تصلون هذه الآية وإنَّها مقطوعة وهذا القول أقيس العربية وأشبه مظاهر الآية والقصة والله أعلم.

والراسخون: الداخلون فى العلم الذين أتقنوا علمهم، واستنبطوه فلا يدخلهم فى معرفتهم شك، وأصله من رسوخ الشىء فى الشىء وهو ثبوته وأوجب فيه يُقال: (رسخ الإيمان فى قلب فلان) فهو يرسخ رسخًا ورسوخًا وكذلك فى كل شىء ورسخ رصخ، وهذا كما يُقال: مسلوخ ومصلوخ قال الشاعر:

لقد رسخت فى القلب منك مودة ... للنبى أبتْ آياتهـــــا أن تغيرا

وقال بعض المفسّرين من العلماء: الراسخون علمًا: مؤمنو أهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام و (ابن صوريا وكعب).

(قيل:) الراسخون فى العلم هم بعض الدارسين علم التوراة.

وروى عن أنس بن مالك (وأبى الدرداء وأبى أمامة): أن رسول الله ﷺ سُئل مَن الراسخون فى العلم؟ فقال: «منْ برَّت يمينهُ، وصدق لسانهُ واستقام قلبهُ، وعف بطنهُ وفرجهُ، فذلك الراسخ فى العلم».

وقال وهيب: سمعتُ مالك بن أنس يُسأل عن تفسير قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ من هم؟ قال: العالم العامل بما علم تبع له.

وقال نافع بن يزيد: كما أن يُقال الراسخون فى العلم: المؤمنون بالله، المتذللون فى طلب مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا (يحقّرون) من دونهم.

وقال بعضهم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾: من وجد فى عمله أربعة أشياء: التقوى بينهُ وبين الله تعالى، والتواضع بينهُ وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة

(١) بياض بالأصل المخطوط.

بينهُ وبين نفسه .

وقال ابن عباس ومجاهد والسدى بقولهم : ﴿آمنا به﴾ سمّاهم الله تعالى : الراسخين فى العلم ؛ فرسوخهم فى العلم قولهم : ﴿آمنا به﴾ أى بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، ما علمناه وما لم نعلمهُ .

قال المبرد : زعم بعض الناس أن ﴿عِندِ﴾ ههنا صلة ومعناهُ كل من ربنا . ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ بما فى القرآن .

﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ : ذوو العقول ولب كل شيء خالصه (فلذلك قيل للعقل لب) .



﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ : أى ويقول الراسخون كقوله فى آخر السورة : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا﴾ (آل عمران: ١٩١) أى ويقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق والهدى ، كما أزغت قلوب اليهود والنصارى ، والذين فى قلوبهم زيغ .

يُقال : زاغ - يزيغ - إزاغة إذا مال .

وزاغ - تزيغ - زيغًا - وزيوغًا - وزيغانًا إذا حال .

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ : وفقتنا لدينك ، والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك .

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ : وآتنا من لدنك رحمة وتوفيقًا وتثبيتًا للذى نحن عليه من الهدى والإيمان.

وقال الضحاك: تجاوزًا ومغفرة الصدق . . . .[1] على شرط السنة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ : تعطى. وفى الآية ردّ على القدرية.

وروى عن أسماء بنت يزيد: أنَّ رسول الله ﷺ كان يُكثر فى دعائه: «اللهم (يا) مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك».

قالت: فقلتُ: يا رسول الله وإنَّ القلوب لتقلب؟ قال: نعم ما خلق الله من بنى آدم من بشر إلاّ وقلبه بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ فإن شاء أزاغه، وإن شاء أقامه على الحق، فنسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسألهُ أن يهب لنا من لدنه رحمةً إنَّهُ هو الوهاب.

قالت: قلت: يا رسول الله ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى؟

قال: بلى قولى: «اللهم ربَّ محمّد النبى، اغفر لى ذنبى، وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلاّت الفتن ما أحييتنى».

وعن أبى موسى الأشعرى قال: وإنما مثلُ القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض.

خالد بن معدان عن أبى عبيدة بن الجراح: أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب فى اليوم سبع مرات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ : (بالبعث ليوم القيامة) وقيل: اللام بمعنى فى أى يوم.

﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ : لا شك فيه وهو يوم القيامة . . . .[1] عندما قرأ الآية . . . .[1] ولذلك انصرف عن الخطر إلى الخبر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهو مفعال من الوعد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ﴾ قرأ السلمى (يغنى) بالياء المتقدمة من الفعل ودخول (الحائل) بين الاسم والفعل.

وقرأ الحسن (لن يغنى) بالياء وسكون الياء الأخيرة كقول الشاعر:

كفى باليأس من أسماء كافى ... وليس لسقمها إذا طال شافى

وكان حقّه أن يقول: كافيًا، فأرسل الياء، وأنشد الفرّاء فى مثله:

كأن أيديهنّ بالقاع القرق ... أيدى جوار يعاطين الورق

القرق والقرقة لغتان فى القاع.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ومعنى قوله (لن يغنى) : أى لن ينفع ، ولن يدفع وإنما سمى المال غنى ؛ لأنه ينفع الناس ويدفع عنهم الفقر والنوائب.

﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

قال الكسائى وقال أبو عبيدة : معناه عند الله شيئًا ، من بمعنى الحال.

﴿وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ نظم الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم﴾: عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون ، وكفّار الأمم الخالية عاقبناهم فلن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم.

وأما معنى ﴿كَدَأْبِ﴾: فقال (ابن عباس) وعكرمة ومجاهد والضّحاك وأبو روق والسدى وابن زيد : كمثل آل فرعون (مع موسى) يقول كعب اليهود : لكفر آل فرعون والذين من قبلهم.

ربيع والكسائى وأبو عبيدة : كسنّة آل فرعون. الأخفش : كأمر آل فرعون.

قال امرؤ القيس :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

وهذا أصل الحرف يقال : دائب فى الأمر أو دأبه دأبًا ودائب (ودأب ودءوبا) إذا أدمنت العمل ونعيته.

وأدأب السير أدآبًا ، فإنّما يرجع معناه إلى النّساب والحاك والعادة.

قال الشاعر :

❖ لأرتحلن بالفجر ثمّ لأدئبن ❖

قال سيبويه : موضع الكاف رفع ؛ لأن الكاف للتشبيه تقوم مقام الاسم ، وتقديرهُ : دأبهم ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كدأب الأمم الماضية ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعاقبهم.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: نظيره قوله ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ (العنكبوت : ٤٠).

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾: قرأ إسحاق وثابت والأعمش وحمزة والكسائى وخَلَفٌ بالياء فيهما ، الباقون بالتاء ، فمن قرأهما بالياء فعلى الإخبار عنهم أنّهم يحشرون ويقلبون ، ومن قرأهما بالتاء فعلى الخطاب أى قل لهم : إنكم ستغلبون وتحشرون وكلا الوجهين (صحيح) ؛ لأنه لم يوح إليهم ، وإذا كان المخاطب بالشىء غير حاضر وكانت مخاطبته (فى) الكلام بالتاء على الخطاب ، وبالياء على الإخبار والإعلام كما تقول : (قل لغير الله ليضربن ولتضربن).

واختلف المفسرون فى المعنى لهذه الآية من هم؟ فقال مقاتل: هم مشركو مكّة، ومعنى الآية قيل لكفّار مكّة: ستغلبون يوم بدر وتحشرون فى الهجرة، فلما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ للكافرين يوم بدر: «إنَّ الله غالبكم وحاشركم إلى جهنّم»

دليلُ التأويل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٥، ٤٦).

وقال بعضهم: المراد بهذه الآية اليهود.

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: أنَّ يهود أهل المدينة قالوا لمّا هَزَمَ رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر: هذا والله النبى الأمى الذى بشّرنا به موسى ونجده فى كتابنا بنعته وصفته، وأنّه لا تردُّ له راية، وأرادوا تصديقه واتباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى إلى وقفة أخرى به، فلمّا كان يوم أُحد ونكب أصحاب رسول الله ﷺ شكوا وقالوا: لا والله ما هو به فغلبَ عليهم الشقاءة ولم يسلموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة لم تنقضِ فنقضوا ذلك العهد من أجله.

وانطلق كَعب بن الأشرف فى ستين راكبًا إلى أهل مكّة، أبى سفيان وأصحابه، فوافقوهم وأجمعوا أمرهم على رسول الله ﷺ لتكون كلمتنا واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقال محمد بن إسحاق عن رجاله لمّا أصاب رسول الله ﷺ قريشًا ببدر، وقدم إلى المدينة جمع اليهود فى سوق قينقاع فقال: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم قد عرفتم أنِّى نبى مرسل تجدونَ ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم».

فقالوا: يا محمَّد لا يغرنَّك أن لقيت قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحر فأصبت فيهم فرصة، لك والله لو قاتلناك لعرف منا البأس، فأنزل الله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعنى اليهود ستغلبون وتهزمون وتحشرون إلى جهنّم فى الآخرة، وهذه رواية عكرمة، وسعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال أهل اللغة: اشتقاق جهنَّم من الجهنام وهى البئر البعيدة القعر.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ يعنى النار ﴿قَدْ كَانَ﴾ ولم يقل كانت؛ لأنَّ (آية) تأنيثها غير حقيقى، وقيل: ردّها) إلى البيان أى: قد كان لكم بيان فذهبَ إلى المعنى وترك اللفظ كقول امرئ القيس:

برهرهة رأدة رخصة   كخرعوبة البانة المنقطر

ولم يقل المنفطرة؛ لأنَّه ذهب إلى القضيب، وقال الفراء: ذكَّره؛ لأنَّه فرق بينهما بالصفة فلما حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث ذكَّر الفعل وأنَّثه:

إنَّ أمرأً غرَّه منكره واحـدة　　　بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرورُ

وكل ما جاء فى القرآن من هذا النحو، فهذا وجهه، فمعنى الآية ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ : أى عبرة ودلالة على صدق ما أقول لكم ستغلبون.

﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ : فرقتين وجماعتين وأصلها فى الحرب من بعضهم بقى إلى بعض. ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر.

﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : طاعة لله وهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، على عدَّة أصحاب طالوت الَّذين جازوا معه النهر وما جازَ معه إلاّ مؤمن، سبعة وسبعين رجلاً من المهاجرين ومائتين وستة وثلاثين رجلاً من الأنصار.

وكان صاحب راية النبى ﷺ والمبارزين على بن أبى طالب (عليه السلام)، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة، وكانت الإبل فى جيش النبى ﷺ سبعين بعيراً والخيل فرسين: فرس للمقداد بن عمرو الكندى، وفَرس لمرثد بن أبى فهد العنزى، وكان معهم من السلاح: ستة أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وفرقة أخرى ﴿كَافِرَةٌ﴾ : وهم مشركو مكّة ورأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً مقاتلاً وكانت خيلهم مائة فرس، وكان حرب بدر مشهداً شهده رسول الله ﷺ، وكان سبب ذلك أعين بن سفين، واختلف القرَّاء فى هذه الآية، قرأها منهم ﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع على معنى منهما فئة أو إحداهما فئة.

وقرأ الزهرى بالخفض على البدل من الفئتين.

وقرأ ابن السميقع: فما، على المدح.

وقرأ مجاهد: تقاتل بالياء ردَّه إلى القوم وجهان على لفظه، وقرأ الباقون بالتاء.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ قرأ أبو رجاء وأبو الحارث والحسن، وأبو جعفر، وشيبة ونافع ويعقوب وأيوب بالتاء واختاره أبو حاتم، الباقون بالياء، والباقون ممن قرأ بالتاء بمعناه ترونَ يا معشر اليهود والكفار أهل مكّة مثلى المسلمين.

ومن قرأ بالياء فاختلف فى وجهه فجعل بعضهم الخطاب للمسلمين، ثم له تأويلان أحدهما: ما يرى المسلمون المشركين مثلهم فى العدد، ثم ظهر العدد القليل على العدد الكثير

بخمس أمثال فتلك الآية فإن قيل كذا جاز أن يقول مثليهم وهم قد كانوا ثلاثة أمثالهم، فالجواب أن يقول: هذا مثل وعندك عبدٌ محتاج إليه وإلى مثله، احتاج إلى مثلَيه فأنت محتاج إلى ثلاثة، ويقول: معى ألف وأحتاج إلى مثليه فأنت محتاجٌ إلى ثلاثة آلاف، فإذا نويت أن يكون الألف داخلاً فى المثل كان المثل والاثنان ثلاثة.

قاله الفرَّاء: التأويل الآخر أن معناه يرى المسلمون المشركين مثلى عدد أنفسهم قللهم الله فى أعينهم حتى رأتها ستمائة وستة وعشرين، وكانوا ثلاثة أمثالهم تسعمائة وخمسين، ثم قلّلهم فى أعينهم فى حالة أخرى حتى رأتها مثل عدد أنفسهم.

قال ابن مسعود: فى هذه الآية نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضاعفونْ علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا ولا واحداً، ثم قللهم الله فى أعينهم حتى رأتهم عدداً يسيراً أقل عدداً من أنفسهم.

وقال ابن مسعود أيضًا: لقد قللوا فى أعيُننا يوم بدر حتى قلت لرجُل إلى جنبى: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا، وقال بعضهم: الرؤية راجحة إلى المشركين يعنى: يرى المشركون المؤمنين مثليهم قلّلهم الله فى أعينهم قبل القتال يعنى فى أعين المشركين ليجترءوا عليهم ولا ينصرفوا، فلمّا أخذوا فى القتال كثّرهم فى أعينهم ليجبنوا وقلّلهم فى أعين المؤمنين ليجترءوا فذلك قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ (الأنفال: ٤٤) الآية.

محمَّد أبى الفرات عن سعيد بن أبى آوس فى قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ قال: كان المشركون يرون المسلمين مثليهم فلما أسروهم سألهم المشركون كم كنتم؟ قالوا: ثلاثمائة وبضعة عشر، قالوا: ما كنَّا نراكم إلاّ تضاعفون علينا، قال: وذلك ممَّا نصر به المسلمون.

وقرأ السلمي ﴿يُرَوْنَهُم﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله وإن شئت على معنى الظن.

﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أى فى رأى العين نصب ونزع حرف الصفة وإن شئت على المصدر أى ترونهم رأى العين، أى: فى نظر العين يقال: رأيت الشىء رأيًا ورؤية ورؤيا ثلاثة مصادر إلاّ أنَّ الرؤيا أكثر ما يستعمل فى المنام ليفهم فى رأى العين بمعنى النظر إذا ذكر.

وقال الأعشى:

فلما رأى لا قوم من ساعة ... من الرأى ما أبصروه وما أكتمن

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾: يقوى ﴿بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: التى ذكرت ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾: لذوى العقول، وقيل: لمن أبصر الجمعين.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ : جمع شهوة وهى نزوع عن النفس إليه ، وإنَّما حُركت الهاء فى الجمع ليكون فرقًا بين جمع الاسم وبين جمع النعت ؛ لأنَّ النعت لا تحرك نحو : ضخمة ، ضُخمات ، وحبلة حبلات ، والاسم يُحرك مثل : تمرة وتمرات ، هو نفقة الجيل ونفقات ، فإذا كان ثانى الاسم تاء أو واوًا ، فأكثر العرب على تسكينها (استثقالاً) لتحريك الياء والواو كقولك : بيضة وبيضات ، جوزة وجوزات .

وعن أنس بن مالك أنَّ النبى ﷺ قال : «حُفَّت الجنَّة بالمكاره وحُفَّت النَّار بالشهوات» .

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ : بدأ بهنَّ ؛ لأنهنَّ حبائل الشيطان وأقرب إلى الإفتان .

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ : عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قال رسول الله ﷺ للأشعث بن قيس : هل لك من ابنة حمزة من ولد؟ قال : نعم لى منها غلام ولوددت أن لى به جفنة من طعام أطعمها من بقى من بنى حيلة ، فقال النبى ﷺ : لئن قلت ذلك إنَّهم لثمرة القلوب وقرَّة الأعين وإنَّهم مع ذلك لمجبنة مبخلة محزنة .

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ : المال الكثير بعضه على بعض .

ابن كيسان : المال العظيم ، أبو عبيدة : تقول العرب هو أن لا يحدَّ .

وقال الباقون : فلا محدود ، ثم اختلفوا فيه ، فروى أبو صالح عن أبى هريرة أنَّ النبى ﷺ قال : «القنطار : اثنا عشر ألف أوقية» .

وعن يزيد الرقاشى قال : دخلت أنا وثابت وناسٌ معنا إلى أنس بن مالك فقلنا له : يا أبا حمزة ما كان النبى ﷺ يقول فى قيام الليل؟ قال أنس : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ فى ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية أعطى قيام ليلة كاملة ، ومن قرأ مائتى آية ومعه القرآن فقد أدَّى حَقَّه ، ومن قرأ خمسمائة آية إلى أن يبلغ ألف آية كان كمن تصدَّق بقنطار قبل أن يصبح ، قيل : وما القنطار؟ قال : ألف دينار» .

سالم بن أبى الجعد عن معاذ بن جبل قال : القنطار ألف ومائتا أوقية ، وهو قول ابن عمر ومثله روى زر بن حبيش عن أُبى بن كعب : عن رسول الله ﷺ أنّه قال : «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» .

وروى عطية عن ابن عباس وعبد الله بن عمر عن الحكم عن الضحاك : «أنَّ القنطار ألف ومائتا مثقال» .

ومثله روى يونس عن الحسن عن رسول الله ﷺ مرسلاً .

روى حمزة عن أنس عن النبى ﷺ قال : «القنطار ألف دينار» .

سعيد بن جبير عن عكرمة: هو مائة ألف ومائة مَن، ومائة (رطل) ومائة مثقال ومائة درهم، ولقد جاء الإسلام يوم جاء (وبمكة) مائة رجل.

(وعن سفيان عن) إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح قال: القنطار: مائة رطل.

فقال الحكم: القنطار ما بين السماء والأرض من مال.

أبو نظرة: مسك ثور ذهبًا أو فضَّة.

سعيد بن المسيَّب وقتادة: ثمانون ألفًا.

ليث عن مجاهد القنطار: سبعون ألفًا.

شريك: أربعون ألف مثقال.

الحسن: القنطار ديَّة أحدكم.

ومثله روى الوالبي عن ابن عباس وجويبر عن الضحَّاك قال: اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار ديَّة أحدكم.

وعن أبي حمزة الثمالي قال: القنطار بلسان إفريقيا والأندلس ثمانية آلاف جروال من ذهب أو فضة.

وروى الثمالي عن السدي قال: أربعة آلاف مثقال.

قال الثعلبي: ورأيت في بعض الكتب أنّ القناطير (مأخوذة من عقد الشيء وإحكامه) وأصلها من الإحكام يقال: قنطرت الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة المقنطرة.

قال الضحاك: المقنطرة: المحصنة المحكمة.

قتادة: هي الكثيرة المنضدة بعضها فوق بعض كأنّها المدفونة يقال: قنطر إذا كثر.

السدي: المخزونة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير.

قال الفراء: المضعَّفة كأن القنطار ثلاثة والمقنطرة تسعة.

أبو عبيدة: هو مفعللة من القنطار مثل قولك ألف مؤلَّف.

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾: قيل سُمي الذهب ذهبًا؛ لأنه يذهب ولا يبقى، والفضَّة؛ لأنَّه تنفض أي تفرق.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: الخيل جمع هو لا واحد له من لفظه. واحدهُ «فرس» كالقوم والنساء والرهط والجيش ونحوها. واختلف العلماء في معنى «المسومة» فقال مجاهد، وسعيد بن جبير، والربيع: هي الراعية.

ومثله روى عطية عن ابن عباس والحسن: هي المرعيّة يُقال: سامت الخيل تسوم سومًا،

فهى سائمة، وأسمتها أنا إذا تركتها لذلك فهى مسامة، وسوَّمتها تسويمًا فهى مسوَّمة. قال الله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾. (النحل: ١٠).

وفيهُ قول الأخطل:

مثل ابن بزعـة أو كآخر مثله ... أولى لك ابن مسيمة الآجال

يعنى: ابن الإبل.

حبيب بن أبى ثابت، وابن أبى نجيح عن مجاهد: المطهَّمة الحسان، ليث: المصوَّرة، وعن عكرمة: تسويمها حسنها.

السدى: هى الرايع، وكلها بمعنًى واحد.

أبو عبيدة، والحسن، والأخفش، والقتيبى: المعلَّمة. ومثلهُ روى الوالبى عن ابن عباس.

قتادة: شيباتها وألوانها، المؤرَّج المكويَّة، المبرد: المعرفة فى البلدان.

ابن كيسان: اليحلق وكلها قسارية وأصلها من السومة، والمسيما وهى العلامة. يُقال: سومت الخيل تسويمًا إذا علمتها. قال الله تعالى: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

قال النابغة فى صفة الخيل:

بسمر كالقداح مسوَّمات ... عليها معشر أشبها جنَّ

وقال الأعشى:

وفرسان الحفاظ بكل ثغر ... يقودون المسوَّمة العرابا

وقال ابن زيد وأبان بن ثعلب: المسومة: المعدَّة للحرب والجهاد.

قال لبيد:

ولعمرى لقد بلى كليب ... كلَّ قرن مسوَّم القتال

قال الثعلبى: ورأيتُ فى بعض التفاسير: أنَّها الهماليخ.

فصل فى الخيل «صفة خلقها»

روى الحسن بن على عن أبيه على (عليه السلام) قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لما أراد أن يخلق الخلق قال للريح الجنوب: إنِّى خالقٌ منك خلقًا. فأجعله عزًّا لأوليائى، ومذلة على أعدائى، وجمالاً لأهل طاعتى، فقال الريح: اخلق. فقبض منها قبضةً فخلق فيها فرسًا.

فقال له: خلقتك عربيًا وجعلت الخير معقودًا بناصيتك، والغنائم مجموعة على ظهرك، عطفتُ عليك صاحبك، وجعلتك تطيرُ بلا جناح، وأنت للطلب وأنت للهرب، وسأجعل على ظهرك رجالاً يسبّحونى ويحمدوننى، ويهللونى ويكبرونى، تسبحين إذا سبَّحوا، وتهلّلين إذا هلَّلوا، وتكبرين إذا كبروا».

وقال رسول الله ﷺ: «ما من تسبيحة، وتحميدة وتمجيدة، وتكبيرة يكبّرها صاحبها وتسعهُ إلاّ وتجيبه بمثلها».

ثم قال: «لما سمعت الملائكة صفة الفرس عاتبوا خالقها قالت: ربّ نحن ملائكتك نسبّحك، ونحمدك فماذا لنا؟ فخلق اللهُ لها خيلاً بلقاء أعناقها كأعناق البخت، قال: فما أرسل الفرس إلى الأرض فاستوت قدماه على الأرض صهَل، فقيل: بوركتِ من دابّة أذلّ بصهيله المشركين، أذل به أعناقهم، أملأ منه آذانهم، وأرعب به قلوبهم.

فلماَ عرض الله على آدم من كل شيء قال: اختر من خلقى ما شئت، فاختار الفرس. فقال له: اخترت عزّك وعزّ ولدك خالدًا ما خلدوا وباقيًا ما بقوا. (يلقح فينتج منه أولادك أبد الآبدين) بركتى عليك وعليه؛ ما خلقتُ خلقًا أحبَّ إلى منك ومنهُ».

❖ فضلها:

روى أبو صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وعن سعيد بن عروبة عن قتادة عن أنس قال: لم يكن شيءٌ أحب إلى رسول الله ﷺ بعد النساء من الخيل.

وعن أبى ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من فرس عربى إلاّ يؤذن لهُ مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللّهم خولتنى من بنى آدم، وجعلتنى له، فاجعلنى أحب ماله وأهله إليه، أو من أحب ماله وأهله إليه».

❖ شأنها:

عن أبى وهب الحسينى، وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «وارتبطوا الخيل، وامسحوا نواصيها وأكفالها، وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار، وعليكم بكل كميت أغرَّ محجَّل أو أشقر محجل، أو أدهم أغرَّ محجَّل».

وروى أبو زرعة عن أبى هريرة قال: كان النبى يكره الشكال من الخيل.

قال أبو عبد الرحمن: الشكال من الخيل أن يكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة أو

يكون ثلاث قوائم مطلقة، ورجل محجلة، وليس تكون الشكال إلا فى الرجل.

وروى سفيان عن الزهرى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال: «الشؤم فى ثلاثة: المرأة والفرس والدار».

❖ **وجوهها:**

زيد بن أسلم عن أبى صالح التمار عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر. ولرجل وزر، فأما الذى هو له أجر فرجلٌ ربطها فى سبيل الله، فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج والروضة، كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرّفن كانت أن آثارها وأورواثها حسنات له. ولو أنَّها مرَّتْ بنهر فشربت منهُ، ولم يردْ أنْ يسقيها منهُ كان ذلك حسنات لهُ؛ فهى لذلك أجر. ورجلٌ ربطها تقنّنا وتعففًا، ولم ينسَ حق الله فى رقابها وظهرها فهى لذلك ستر. ورجلٌ ربطها فخرًا ورياء ونوى لأهل الإسلام فهى على ذلك وزر».

وعن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيل ثلاثة؛ فرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان؛ فأمّا فرس الرحمن فما اتخذ فى سبيل الله، وقتل عليه أعداء الله، وأما فرس الإنسان فما استبطن ويحمل عليه، وأما فرس الشيطان فما روهب ورُهن عليه وقومر عليه».

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم، جمعٌ لا واحد له من لفظه.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: يعنى الزرع.

﴿ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرت.

﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: لا عتاد المعاد والعقبى.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: أى المرجع مفعل من آب، يؤوب أوبًا مثل المتاب.

زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعتُ عبد الله بن الأرقم وهو يقول لعمر (رضى الله عنه): يا أمير المؤمنين إنّ عندنا حلية من حلية جلود وآنية من ذهب وفضّة فما رأيك فيها. فقال عمر: إذا رأيتنى فارغًا فائتنى، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّك اليوم فارغٌ. قال: فانطلق معهُ، فجىء بالمال. فقال: أبسطهُ قطعًا، فبسط ثم جىء بذلك المال وصبَّ عليه ثم قال: «اللهم إنَّك ذكرتَ هذا المال فقلت: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ ثم قلت ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (الحديد: ٢٣) اللهم إنا لا نستطيع أنْ لا نفرح بما آتينا، اللهم انفقهُ فى حق، وأعوذ بك منهُ، قال: فأتى بابن له يحمله،

يقال له عبد الرحمن، فقال: يا أبه هب لي خاتمًا.

قال: اذهب إلى أمك تسقيك سويقًا، فلم يعطه شيئًا.



﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾: أخبركم.

﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: الذى ذكرت تم الكلام ههنا. ثم ابتدأ فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾: تقع خبر حرف الصلة.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: قرأ العامة بكسر الراء. وروى أبو بكر عن عاصم: بضم الراء من الرضوان فى جميع القرآن وهو لغة قيس وغيلان، وهما لغتان كالعدوان والعُدوان والطِّغيان والطُّغيان.

زيد بن أسلمَ عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى أنَّ رسول الله ﷺ قال: يقول الله عزَّ وجل لأهل الجنة: «يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربَّنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك».

فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك» فيقولون: وأيُّ شىءٍ أفضل من ذلك؟ قال: «أحل

عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدًا».

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾: إن شئت جعلته محل (الذين) على الجر ردًا على قوله ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، وإن شئت رفعته على الابتداء كقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ (التوبة: ١١١). ثم قال فى صفتهم مبتدئًا: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ صدَّقنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: استرها علينا وتجاوزها عنا.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: فى أداء الأمر، وعن ارتكاب الزنى وعلى البأساء والضرَّاء وحين البأس. وإن شئت نصبتها وأخواتها على المدح، وإن شئت خفضتها على النعت.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: فى إيمانهم، قال قتادة: هم قوم صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا فى السر والعلانية ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: المطيعين المصلين.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: أموالهم فى طاعة الله.

وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله ملكًا ينادى: اللهم أعط مُنفقًا خلفًا، وأعطِ ممسكًا تلفًا».

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والكلبى والواقدى: يعنى المصلين بالأسحار. نظير قوله ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٨) أى يصلون.

وقال يعقوب بن عبد الرحمن عن أبى الزهرى قال: قلت لزيد بن أسلم: من المستغفرون بالأسحار؟ قال: هم الذين يشهدون الصبح.

وكذلك قال ابن كيسان: يعنى صلاة الصبح فى المسجد.

وقال الحسن: صلّوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا.

قال نافع: كان ابن عمى يُحيى الليل، ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، وإذا قلت: نعم، فيستغفر الله ويدعو حتى الصبح.

وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعتُ رجلاً فى السحر يتهجّد فى المسجد وهو يقول: ربّ أمرتنى فأطعتك، وهذا سَحَر فاغفر لى. فنظرتُ فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه.

وروى صالح وحماد بن سلمة عن ثابت وأبان وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الله عزَّ وجل يقول: «إنى لأهم بأهل الأرض عذابًا؛ فإذا

نظرتُ إلى عمَّار بيوتي وإلى المتهجدين وإلى المتحابين فيَّ، وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت عنهم».

محمد بن راذان عن أم سعد قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثة أصوات يحبهم الله عزَّ وجلَّ؛ صوت الديك، وصوت الذى يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار».

حمّاد بن سلمة عن سعيد الجريرى قال: بلغنا أنَّ داود نبى الله سأل جبرائيل (عليه السلام): أى الليل أفضل؟ فقال: ما أدرى إلا أنَّ العرش يهتز من السحَر.

وقال سفيان الثورى: إنَّ لله ريحًا يقال لها: الصبحية تهب وقت الأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبّار.

قال سفيان: إنَّهُ إذا كان من أوّل الليل، نادى مناد: ألا ليقم العابدون، فيقومون فيصلّون ما شاء الله، ثم ينادى منادٍ فى شطر الليل: ليقم القانتون، فيقومون كذلك يصلون إلى السحَر.

فإذا كان نادى مناد: ألا ليقم المستغفرون، فيقومون فيستغفرون، ويقوم آخرون يصلون فيلحقون بهم. فإذا طلّع الفجر نادى منادٍ: اللهم ليقم الغافلون فيقومون، من فراشهم كأنهم نشروا من قبورهم.

وقال لقمان لابنه: «يا بُنى لا يكون الديك أكيس منك، ينادى بالأسحار وأنت نائم».

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

عن غالب القطان قال: أتيتُ الكوفة فى تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش وكنت أختلف إليه. فلما كنتُ ذات ليلة أردتُ أنْ أنحدر إلى البصرة قام من الليل يتهجد؛ فمر بهذه الآية ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة، إن الدين عند الله الإسلام قالها مراراً. قلت: لقد سمع. فصلَّيتُ معهُ وودعته، ثم قلت: آية سمعتك تردِّدها فما بلغك فيها؟ قال: والله لا أحدث بها إلى سنة. فلبثت على بابه ذلك اليوم، وأقمت سنة، فلما مضت السنة قلتُ: يا أبا محمد مضت السنة، فقال: حدثنا أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يجىء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: عبدى عهد إلىّ وأنا أحقٌّ من وفى بالعهد. أدخلوا عبدى الجنة».

خالد بن زيد عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية . . . عند منامه خلق الله عزّ وجلّ له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة» .

وعن الزبير بن العوام قال : قلت : لأدنونَّ هذه (العشية) من رسول الله ﷺ، وهى عشية عرفة حتى أسمع ما يقول، فحبستُ ناقتى من ناقة رسول الله ﷺ وناقة رجل كان إلى جنبه . فسمعتهُ يقول : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية . فما زال يردّدها حتى دفع .

يعقوب عن جعفر عن سعيد بن جبير قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا . فلما نزلت ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، خرّوا سجّدًا .

قال الكلبى : قدم حبران من أهل الشام على النبى ﷺ، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة صفة مدينة النبى ﷺ الذى يخرج آخر الزمان! فلما دخلا على النبى ﷺ عرفاهُ بالصفة والنعت . فقالا لهُ : أنت محمد؟ قال : نعم . قالا : وأنت أحمد؟ قال : أنا محمد وأحمد قالا : إنا نسألك عن شىء فإن أخبرتنا به آمنَّا بك وصدّقناك . فقال : بلى . قالا : أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية . . فأسلم الرجلان . واختلف القرّاء فى هذه الآية . فقرأ أبو نهيك وأبو الشعثاء : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ بالرفع والمدّ على معنى : هم شهداء يعنى : الذين مرَّ ذكرهم .

وروى المهلّب عن محارب بن دثار : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ منصوبة على الحال والمدح .

وقرأ الآخرون : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ على الفعل أى بيَّن ؛ لأن الشهادة تبيين .

وقال مجاهد : حكم الله، الفرّاء وأبو عبيدة : قضى الله، المفضَّل : لعلم الله .

ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب، وصنعه المتقن، وأُموره المحكمة من خلقه أنه لا إله إلا هو، وهذا كقول القائل :

ولله فى كل تحريكة وتسكينة أبدًا شاهد   وفى كل شىء لهُ آية تدلُّ على أنَّهُ واحد

وقيل لبعض الأعراب : ما الدليل على أنَّ للعالم صانعًا؟

فقال : إنَّ البعرة تدلُّ على البعير، وآثار القدم تدلُّ على المسير، وهيكل علوى بهذه اللطافة ومركز سفلى بهذه الكثافة ؛ أما يدلاَّن على الصانع الخبير .

قال ابن عباس : «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، وشهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر، فقال : شهد الله أنَّهُ لاَ إله إلا هو» .

وقرأ ابن مسعود : (أنَّ لا إله إلا هو . . .) .

وقرأ ابن عباس: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: بكسر الألف جعلهُ خبرًا مستأنفًا معترضًا في الكلام على توهم الفاء، كأنه قال: فإنَّه لا إله إلاَّ هو، قاله أبو عبيدة والمفضَّل، وقال بعضهم: كسره؛ لأن الشهادة قول وما بعد القول يكون مكسوراً على الحكاية فتقديرهُ قال الله: أنَّهُ لا إله إلاَّ هو.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: قال المفضّل: معنى شهادة الله للإخبار والإعلام، ومعنى شهادة ملائكة الله والمؤمنين الإقرار كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ (الأنعام: ١٣٠) أى أقررنا فنسق شهادة الملائكة، ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ على شهادة الله تعالى.

والشهادتان مختلفتان معنًى لا لفظًا كقوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٥٦) والصلاة من الله «الرحمة» ومن الملائكة «الاستغفار والدعاء»، وأولو العلم: يعنى الأنبياء (عليهم السلام).

وقال ابن كيسان: يعنى المهاجرين والأنصار.

مقاتل: مؤمنو أهل الكتاب، عبد الله بن سلام: وأصحابه، نظيره قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (الإسراء: ١٠٧)، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣).

وقال السدى والكلبى: يعنى علماء المؤمنين كلهم. فقرّب الله تعالى شهادة العلماء بشهادته؛ لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى. والعلماء أعلام الإسلام والسابقون إلى دار السلام وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة.

وروى صفوان عن سُليم عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «ساعة من عالم متّكئ على فراشه ينظر فى علمه خير من عبادة العابد سبعين عامًا».

المسيب بن شريك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلَّموا العلم؛ فإنَّ تعلمهُ لله حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنهُ جهاد؛ وتعليمهُ من لا يعلمهُ صدقة، وتذكره لأهلهَ قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل الجنة والنار، والأنيس فى الوحشة والصاحب فى الغربة، والميراث فى الخلوة، والدليل على السرَّاء والضرَّاء، والسلاح على الأعداء، والقرب عند الغرباء، يرفع الله به أقوامًا ويجعلهم فى الخير قادةً يُقتدى بهم، ويُبيّن آثارهم، ويرمو أعمالهم، ويُنهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفى صلواتهم تستغفر لهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى حيتان البحر وسباع الأرض وأنعامها والسماء ونجومها، ألا فإن العلم خير أنقاب عن الصمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأحرار، ومجالس الملوك،

والفكرُ فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يُعرف الحلال والحرام، وبه توصل الأرحام، إمام العمل والعقل تابعهُ، يُلهم العبد أو يُحرم إذا شقى».

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: أى بالعدل ونظام الآية «شهد الله قائمًا بالقسط». وهو نصب على الحال.

وقال الفرّاء: هو نصب على القطع كأن أصله القائم، وكذلك هو فى (عبد الله) فلما قطعت الألف واللام نصب لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ (النحل: ٥٢).

وقال أهل المعانى فى قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: أى مدبّر، رازق، مُجاز بالأعمال كما يقال: فلان قائم بأمرى: أى مدبّر له متعهد لأسبابه، وقائم بحق فلان: أى بحالّه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: كرّر؛ لأنّ الأولى حلت محل الدعوى، والشهادة الثانية حلت فى محل الحكم.

وقال جعفر الصّادق: الأُولى (وصف وتوحيد) والثانية رسمٌ وتعليم يعنى قولوا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾: يعنى (بالدين الطاعة والملّة) لقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة: ٣).

وفتح الكسائى ومحمد بن عيسى الأصفهانى ألف (إنّ) ردًا على (أنّ) الأُولى فى قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ﴾ يعنى: شهد الله أنّه، وشهد أن الدين عند الله الإسلام، وكسر الباقون على الابتداء. والإسلام (من السلم: الإيمان) والطاعة يُقال: أسلم أى: دخل فى السلم. وذلك كقولهم: أستى وأربع وأمحط وأخبت: أى دخل فيها.

سفيان: قال قتادة: فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ قال: (شهادة) أن لا إله إلا الله. والإقرار بأنّها من عند الله، وهو دين الله الذى شرع لنفسه، وبعث به رسله ودلّ عليه أولياءه ولا يُقبل غيره ولا جزى إلاّ به.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية، قال الربيع: إنّ موسى (عليه السلام) لما حضرته الوفاة دعا سبعين حبرًا من أحبار بنى إسرائيل، واستودعهم التوراة، وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع بن نون.

فلمّا مضى القرن الأول والثانى والثالث وقعت الفرقة بينهم، وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين حتى أوقعوا بينهم الدماء، ووقع الشر والاختلاف وذلك ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ يعنى: بيان ما فى التوراة ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾: أن طلبها للملك والرئاسة والتحاسد والمناقشة؛ فسلط الله عليهم الجبابرة.

وقال بعضهم: أراد ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: فى نبوة محمد ﷺ إلاَّ من بعد ما جاءهم العلم، يعنى: بيان نعته وصفته فى كتبهم.

وقال محمد بن جعفر عن الزبير: نزلت هذه الآية فى نصارى نجران ومعناها: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ هو الإنجيل فى أمر عيسى (عليه السلام)، وفرَّقوا القول فيه إلاَّ من بعد ما جاءهم العلم، بأن الله واحد، وأنَّ عيسى عبدهُ ورسوله ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: أى للمعاداة والمخالفة.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: لا يحتاج إلى عقد وقبض يد.

وقال الكلبى: نزلت فى يهوديين تركوا اسم الإسلام وتسمَّوا باليهودية والنصرانية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ قال: دين الله هو الإسلام بغيًا منهم فلمّا وجدا نظيره قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (البيّنة: ٤) فقالت اليهود والنصارى: لسنا على ما سميتنا به يا محمد إنَّ اليهودية والنصرانية سبّ هو الشرك، والدين هو الإسلام ونحن عليه.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: خاصموك يا محمد فى الدين، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ﴾: أى انقدت (لأمر الله) ﴿لِلَّهِ﴾: وحده بقلبى ولسانى وجميع جوارحى، إنَّما خص الوجه لأنَّهُ؛ أكرم جوارح الإنسان، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشىء فقد خضع له سائر جوارحه التى هى دون وجهه.

وقال الفرّاء: معناه أخلصت عملى لله.

يُقال: أسْلمت الشىء لفلان وسلمتهُ له، أى دفعته إليه.... [1] ومن هذا يُقال: أسلمتُ الغلام إلى.... [1] وفى صناعة كذا. أى أخلصت لها.

والوجه: العمل كقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ (الأنعام: ٥٢): أى قصده وعمله. وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ٢٠).

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾: «من» فى محل الرفع عطفًا على التاء فى قوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ أى: ومن اتبعنى أسْلم كما أسلمت.

وأثبت بعضهم ياء قوله: (اتبعنى) على الأصل، وحذفهُ الآخرون على لفظ ينافى المصحف (إذا وقعت فيه بغير ياء). وأنشد:

كفاك كف مـــا تليق درهمًا جودًا وأخرى تعط بالسيف دمًا

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال آخر:

ليس تخفى يسارتى قدر يوم ولقد يخفى شيمتى إعسارى

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: يعنى العرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾: لفظ استفهام ومعناهُ أمر، أى أسلموا كقوله:

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١): أى نهوا، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾: فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، فقال أهل الكتاب: أسلمنا. فقال للنصارى: أتشهدون أنَّ عيسى كلمة من الله وعبدهُ ورسوله، فقالوا: معاذ الله.

وقال لليهود: إنّ عزيراً هو عبد الله ورسوله، قالوا: معاذ الله فذلك قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾. بتبليغ الرسالة، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: عالم بمن يؤمن بالله ومن لا يؤمن بالله وبأهل الثواب وبأهل العقاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾: يجحدون، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بحجّته وأعلامه، وقيل: هى القرآن وقيل: هم اليهود والنصارى ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قرأ الحسن ﴿وَيُقَتِّلُونَ﴾ بالتشديد فهما على تكثر.

وقرأ حمزة: (وتقاتلون الذين يأمرون) اعتباراً بقراءة مسعود (وقاتلوا الذين يأمرون به)، ووجه هذه القراءة ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقد «قاتلوا الذين يأمرون»؛ لأنهُ غير جائز عطف الماضى على المستقبل وفى حرف. أى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾، قال مقاتل: أراد به ملوك بنى إسرائيل.

وقال معقل بن أبى سكين، وابن جريج: كان الوحى يأتى إلى أنبياء بنى إسرائيل، ولم يكن يأتيهم كتاب فيُذكّرون قومهم فيقتلون. فيقوم رجال ممن اتّبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيُقتلون أيضًا. فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس.

وعن قبيصة بن ذؤيب الخزاعى عن أبى عبيدة الجرّاح قال: قلتُ لرسول الله ﷺ: أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: «رجلٌ قتل نبيًا، أو رجلٌ أمر بالمنكر ونهى عن المعروف»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا فى أول النهار ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عبّاد بنى إسرائيل فأمروا من قبلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعًا من آخر النهار فى ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه فأنزل الآية فيهم».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس القوم قومٌ يقتلون الذين يأمرون

بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وبئس القوم قومٌ يمشي المؤمن فيهم بالتقية والكتمان».

﴿فَبَشِّرْهُم ...﴾ أخبرهم بعذاب أليم، وإنما أُدخل الفاء؛ لأن قوله: (الذين) موضع الجزاء .... (١).

وقيل: أُدخل الفاء على إلغاء أن وتقديرهُ: «الذين يكفرون ويقتلون فبشّرهم بعذاب أليم رجيح.

﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ﴾: ذهبت وبطلت.

وقرأ أبو واقد والجرّاح: «حبطت» بفتح التاء مستقبلة «تحبط» بكسر الباء وأصلهُ من «الحبط» وهو أن ترعى الماشية بلا دليل ورديع، فتنتفخ من ذلك بطونها، وربّما ماتت منهُ، ثم جعل كل شيء يهلك حبطًا.

ومنهُ قول النبي ﷺ: «إنَّ مما يُنبت الربيع ما يقتل حبطًا إذ يلم».

﴿أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: أي نصيبًا وحظًا من الكتاب. يعني: اليهود يُدعون إلى كتاب الله.

واختلفوا في هذا الكتاب الذي أخبر الله تعالى أنَّهم يُدعون إليه فيعرضون عنه. فقال قوم: هو القرآن.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: إنَّ الله عزَّ وجل جعل القرآن حَكَمًا فيما بينهم وبين رسول الله، فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنَّهم على غير دين الهدى فأعرضوا عنه.

وقال قتادة: هم أعداء الله اليهود. دُعوا إلى حكم القرآن واتباع محمد ﷺ فأعرضوا، وهم يجدونهُ مكتوبًا في كتبهم.

السدي: دعا النبي ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال لهُ النعمان بن أبي أوفى: هلم يا محمَّد نخاصمك إلى الأحبار، فقال له رسول الله ﷺ: بل إلى كتاب الله. فقال: بل إلى الأحبار. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الآخرون: هي التوراة.

روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس، قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المقدس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله عزَّ وجل.

فقال له نعيم بن عمر وابن الحارث بن فهد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملّة

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

إبراهيم. قالا: إنَّ إبراهيم كان يهوديًا. فقال لهم رسول الله ﷺ: فأسلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: أنَّ رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا، وكانا فى شرف منهم، وكان فى كتابهم الرجم. فكرهوا رجمهما لحالهما وشرفهما، ورجوا أن يكون عند رسول الله رحمة فى أمرهما، فُرفعوا إلى رسول الله ﷺ فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أبى أوفى ونخرى بن عمر: جُرتَ علينا يا محمد. ليس عليهما الرجم، فقال لهم رسول الله ﷺ بينى وبينكم التوراة فإن فيها الرجم. قالوا: قد أنصفتنا. قال: فمن أعلمكم؟

فقالوا: رجل أعمى يسكن فدك، يُقال له ابن صوريا، فأرسلوا إليه، فقدم المدينة وكان جبرائيل (عليه السلام) قد وصفهُ لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: لأنت ابن صوريا؟ قال: نعم. قال: أنت أعلم اليهود؟ قال كذلك يزعمون، قال: فدعا رسول الله بشىء من التوراة فيها الرجم مكتوب. فقال له: اقرأ. فلما أتى آية الرجم وضع كفهُ عليها وقرأ ما بعدها. فقال ابن سلام: يا رسول الله قد جاوزها ووضع كفهُ عليها، وقام ابن سلام إلى ابن صوريا فرفع كفهُ عنها، ثم قرأ على رسول الله ﷺ: «اليهوديان المحصنان إذا زنيا، وقامت عليهما البينة رجما، وإن كانت المرأة حبلى تربص بها حتى تضع ما فى بطنها». فأمر رسول الله باليهوديين فرُجما، فغضب اليهود لذلك غضبًا شديدًا، وانصرفوا. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

❖ ❖ ❖

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٢﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ حظًا من التوراة.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ فقد علمهم أنَّها فى التوراة.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ﴾ : أى فكيف يصنعون ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ : وهو يوم القيامة.

﴿وَوُفِّيَتْ﴾ : ذكرت.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ : بر أو فاجر.

﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ : أى جزاء ما عملت من خير أو شر.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ : لا ينقصون من حسناتهم ولا يُزداد على سيئاتهم.

روى الضحاك عن ابن عباس، قال: «أوّل راية تُرفع لأهل الموقف ذلك اليوم من رايات الكفار راية اليهود، فيقمعهم الله على رءوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار».

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ ، قد روى الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب (عليه السلام): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لما أراد الله أنْ ينزّل فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٨) ، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تعلقن بالعرش، وليس بينهن وبين الله حجاب، وقلن: يا رب تهبطنا دار الذنوب وإلى من يعصيك ونحن متعلقات بالطيور والعرش. فقال تعالى: وعزَّتى وجلالى ما من عبد قرأكنَّ فى دبر كل صلاة مكتوبة إلاَّ أسكنتهُ حظيرة القدس على ما كان فيه، وإلاَّ نظرتُ له بعينى فى كل يوم سبعين مرة، وإلاَّ قضيت له فى كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلاَّ أعذته من كل عدو ونصرته عليه، ولا يمنعه دخول الجنة إلاَّ الشرك».

وقال معاذ بن جبل: احتبستُ عن رسول الله ﷺ يومًا لم أصلِّ معهُ الجمعة. فقال: يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة؟ قلت: يا رسول الله كان ليوحنا اليهودى علىَّ أوقية (من تبر)، وكان على بابى يرصدنى، فأشفقت أن يحبسنى دونك. فقال: «أتحب يا معاذ أنْ يقضى الله

دينك؟». قلت: نعم يا رسول الله. قال: قل ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾... إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقل: «يا رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها تُعطى منها ما تشاء وتمنع منها ما تشاء، أقضِ عنى دَينى. فإنْ كان عليك ملىء الأرض ذهبًا قضاهُ الله عنك».

قال قتادة: ذُكر لنا أنَّ النبى ﷺ سأل ربه أنْ يجعل مُلك فارس والروم فى أمته، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس، وأنس بن مالك: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم. قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس، هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، قال: خطّ رسول الله ﷺ الخندق فى عام الأحزاب. ثمّ قطع أربعين ذراعًا بين كلّ عشرة، قال: فاحتج المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى، وكان رجلاً قويًا، فقال المهاجرون: سلمان منّا. وقال الأنصار: سلمان منّا.

فقال النبى ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت».

قال عمرو بن عوف: كنتُ أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزنى وستة من الأنصار فى أربعين ذراعًا، فحفرنا حتى بلغنا الصدى أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا. فقلنا يا سلمان: آت إلى رسول الله وأخبره خبر هذه الصخرة. فإمّا أنْ نعدل عنها فإنَّ المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمر، فإنّا لا نحب أن نجاوز خطه.

قال: فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبّة تركية. فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، وكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجىء منها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك فإنّا لا نحب أن نجاوز خطك، قال: فهبط رسول الله مع سلمان الخندق وبقينا نحن التسعة على شفة الخندق. فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، يعنى المدينة، حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فَتْح، وكبّر المسلمون، ثم ضربها ﷺ فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحًا فى جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح، وكبّر المسلمون معه. فأخذ بيد سلمان ورقى. فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد رأيتُ شيئًا ما رأيتُ مثلهُ قط! فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم

فقال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله (بأبينا أنت وأمّنا وقد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج، فرأيناك تكبّر فنكبّر ولا نرى شيئًا غير ذلك) قال: ضربت ضربتى الأولى، فبرق الذى رأيتم، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبرائيل (عليه السلام) أنَّ أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور بصرى من أرض الروم كأنَّها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبرائيل (عليه السلام) أنَّ أمتى ظاهرة عليها. (ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبرائيل أنَّ أمتى ظاهرة عليها) فأبشروا. فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعود صدق بأن وعدنا النصر بعد الحصر. (فطبقت الأحزاب فقال المسلمون: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ (الأحزاب: ٢٢) الآية).

وقال المنافقون: ألا تعجبون يُمنّيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنَّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنَّها تفتح لكم وأنتم إنَّما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أنْ تبرزوا، قال: فأنزل القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب: ١٢) وأنزل الله فى هذه القصة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾.

واختلف النحاة فى وجه دخول الميم فى هذا الاسم وأصلهُ (الله) وفى نصبه.

وقال بعضهم: إنَّما أُدخل الميم فى آخره بدلاً من حرف النداء المحذوف من أوله؛ لأنَّ أصلهُ (يا الله) فحذفت حرف النداء وأُدخلت الميم خلفًا منه.

كما قالوا: فم، ودم، وزر، قم مُحذف وستهم، وما أشبه ذلك من الأسماء والنعوت التى يحذف منها الحرف.

واحتجوا بأنّ نحوها من الأسماء والنعوت إذا حُذف منها حرف أُبدل مكانهُ ميم، ولمّا كان المحذوف من هذا الاسم حرفين كان البدل ميمين، فأدغمت إحداهما فى الأُخرى فجاء التشديد لذلك، وفى سائر أخواتها مخففة؛ لأنَّ المحذوف حرف واحد ثم نُصب لحق التضعيف.

وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: سمعنا العرب يدخل الميم فيه مع ياء النداء وأنشد الفرّاء:

وما عليك أنْ تقولى كلما سبحت أو هللت يا اللّهمّ ما
اردد علينـا شيخنا مسلمًا فإنّنا من خيره لن نعدمـا

قالوا: ونرى أنَّ ما أصله الله فى الدعاء. بمعنى (يا الله) ضُم إليها أمَّ وحذف حرف النداء يُراد يا الله آتنا الخير أى: أقصدنا به ثمّ ضرب فى الكلام حتى اختلطت به. فحذفت الهمزة

استخفافًا كقولهم: هلم إلينا كان أصلهُ هل لم إلينا، أى أقصد أو أسرع. ثم كثرت هذه اللفظة حتى قالوا: لاهم بمعنى اللهم، وربما خفضوا ميمها أيضًا، والله أعلم.

وقال أبو رجاء العطاردى: هذه الميم فى قوله: (اللَّهم): تجمع سبعين اسمًا من أسمائه عزَّ وجلَّ مالك المُلك. قال الله تعالى فى بعض الكتب: أنا الله مالك الملوك ومالك الملك، قلوب الملوك ونواصيها بيدى، فإذا العباد أطاعونى جعلت عليهم رحمة، وإذا العباد عصونى جعلت عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إلىَّ أعطفهم عليكم.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يعنى ملك النبوة، الكلبى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: محمد وأصحابه، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: أبى جهل وصناديد قريش.

وقال معتصم: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: العرب. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: الروم والعجم وسائر الأمم.

السدى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: آتى الله الأنبياء وأمر العباد بطاعتهم. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: نزع من الجبّارين وأمر العباد بخلافهم.

وقيل: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: آدم وولده، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ إبليس وجُنده.

وقيل: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: داود. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: جالوت.

وقيل: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: صخرًا. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: سليمان (عليه السلام) كان يطعم الخبز الجوارى ويأكل خبز الشعير، وكان يلبس المرقعة ولم ينظر أربعين سنة إلى السماء تخشيًا لله.

وكان يدخل المسجد فيرتاد فقيرًا يقعد بجنبه، ويقول: مسكينٌ جالس مسكينًا ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: ملك النفس حتى يغلبهُ هواه ويتخذهُ إلهًا. كما قال الله عزَّ وجل ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية: ٢٣).

وقال الشاعر:

ملكتُ نفسى فذاك ملكٌ ... ما مثله للأنام ملكٌ
فصرتُ حرًا بملك نفسى ... فما لخلق علىَّ ملكٌ

آخر:

من ملك النفس فحر (ضاهى) ... والعبدُ من يملكهُ هواه

وقيل: هو ملك العافية. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (المائدة: ٢٠).

وقال النبي ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه. معافى في بدنه، وعندهُ قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وقيل: هو القناعة. قال النبي ﷺ: «ملوك أمتي القانع يومًا بيوم، فمن أوتي ذلك فلم يقبلهُ بقبوله ولم يصبر عليه شاكرًا قصر عملهُ، وقل عقلهُ».

وعن ابن المبارك قال: دخلت على سفيان الثوري بمكة، فوجدتهُ مريضًا شارب دواء، وبه غمٌّ شديد فسلمتُ عليه، وقلت: ما لك يا عبد الله؟ فقال: أنا مريضٌ شارب دواء وبي غمٌّ شديد، فقلتُ: أعندك بصلة؟ قال: نعم، فقلت: آتيني بها فأتاني بها، فكسرتها ثم قلتُ: شمَّها فشَمَّها؛ فعطس عند ذلك فقال: الحمدُ لله رب العالمين، فسكن ما به، فقال لي: يا ابن المَبارك أنت فقيه وطبيب. أو قال: عالمٌ وطبيب، فقلت لهُ: مجرّب يا أبا عبد الله. قال: فلمّا رأيته سكن ما به وطابت نفسهُ. قلت: إني أريد أنْ أسألك حديثًا. فقال: سلْ ما شئتَ.

فقلت: أخبِرني ما الناس؟ قال: الفقهاء. قلتُ: فما الملوك؟ قال: الزّهاد. قلتُ: فما الأشراف؟ قال: الأتقياء. قلتُ: فما الغوغاء؟ قال: الذين يكتبون الأحاديث ليستأكلوا بها أموال الناس. قلت له: أخبرني رحمك الله: ما السفلة؟ قال: الظلمة. ثم ودّعتهُ وخرجت من عنده. قال: يا ابن المبارك عليك بهذا الخبر فإنهُ موجود رخيص قبل أنْ يغلو فلا يوجد بالثمن.

وقال عبد العزيز بن يحيى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: يعني الملك على المهين وقهر الشيطان. كما قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم».

وقال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: يعني ملك المعرفة، كما آتى السحرة ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، كما نزع من إبليس وبلعام.

الحسين بن الفضل: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: يعني ملك الجنة كما آتى المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (الإنسان: ٢٠)، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: كما نُزع من الكفار وأهل النَّار.

أبو عثمان: أراد (بالملك): توفيق للإيمان والطاعة.

وحكى الأستاذ أبو سعيد الواعظ: أنَّهُ سمع بعض زهّاد اليمن يقول: هو قيام الليل.

الشبلي: الاستغناء بالمكون عن الكونين.

الواسطي: افتخر الملوك بالملك. فأخبرهم الله تعالى أنَّ الملك... [1] عندهم لقوله

(١) بياض بالأصل المخطوط.

تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

قالت الحكماء فى هذه الآية: هذا إخبار عن كمال القدرة. وأنَّ القادر على الكمال هو القادر على الشيء وضده، فأخبر أنَّه قادر على أن يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: قال عطاء: تعز من تشاء: المهاجرين والأنصار، وتذل من تشاء: فارس والروم.

وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: محمداً وأصحابه حين دخلوا مكة وعشرة آلاف ظاهرون عليها، ﴿وتذل من تشاء﴾: أبا جهل وأصحابه حين حزّوا رءوسهم وألقوا فى القليب.

وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالإيمان والمعرفة. ﴿وتذل من تشاء﴾: بالخذلان والحرمان.

وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالتمليك والتسليط. ﴿وتذل من تشاء﴾: بسلب الملك وتسليط عدوه عليه.

الورّاق: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بقهر النفس ومخالفة الهوى. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: باتباع الهوى.

الكيانى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بقهره الشيطان. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: بقهر الشيطان لنا.

وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالقناعة والرضا. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالخزى والطمع.

قال الثعلبى (رحمه الله): وسمعتُ السلمى يقول: سمعت عبد الله بن على يقول: سمعت محمد بن الفضل يقول: سمعت الزبير بن عبد الواحد يقول: سمعت بنان الحمّال يقول: الحرّ عبد ما طمع. والعبد حرٌّ ما قنع.

وقال وهب: خرج الغنى والعز يجولان فلقيا القناعة فاستقرا.

وقال عيسى (عليه السلام) لأصحابه: لأنتم أغنى من الملوك.

قالوا: كيف يا روح الله ولسنا نملك شيئًا؟ قال: أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونها، وعندهم أشياء ولا تكفيهم.

وللشافعى (رضى الله عنه):

ألاَّ يا نفس أنْ ترضى بقوت ... فأنت عزيزة أبدًا غنية
دعى عنكِ المطامع والأمانى ... فكم أمنية جلبت منيَّة

وقال الآخر:

أفادتنى القناعة كل عز ... وهل عزٌّ أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصيّرها مع التقوى بضاعة

وقيل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالإخلاص، ﴿وتذل مَن تشاء﴾: بالرياء.

وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالجنة والرؤيا. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: بالنار والحجاب.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: يعنى الخير والشر، فاكتفى بذكر الخير؛ فإنَّهُ الأفضل والغالب كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ (النحل: ٨١): أى الحر والبرد ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾: (أى تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر) حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة (وهو أطول ما يكون، والليل تسع ساعات).

﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: حتى يكون الليل خمس (عشرة) ساعة، والنهار تسع ساعات فما نقص عن هذا زيدَ فى الآخر نظير قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (الزُّمر: ٥).

قال سعيد بن جبير: يوم وليلة ويوم وليلة عند خلق السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم قرأ: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ قال ابن مسعود وابن جبير ومجاهد وقتادة والضحّاك وإبراهيم والسدى وإسماعيل بن أبى خالد وعبد الرحمن بن زيد: يخرج الحيوان من النطفة وهى ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان.

عكرمة والكلبى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، أى الفرخ من البيضة ويخرج البيضة من الطير.

أبو مالك: يخرج النخلة من النواة، ويخرج النواة من النخلة، ويخرج السنبلة من الحبة والحبّة من السنبلة.

الحسن: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن عبد حى الفؤاد، والكافر عبدٌ ميتُ الفؤاد يدل عليه قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ...﴾ (الأنعام: ١٢٢).

معمر عن الزهرى: أن النبى ﷺ دخل على بعض نسائه، فإذا بامرأة حسنة الهيئة، فقال: من هذه؟ قالت: إحدى خالاتك، فقال: إن خالاتى بهذه البلاد (كثير) أى خالاتى هذه؟ قالت: هذه خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث، فقال: «سبحان الله الذى يخرج الحى من الميت». وكانت امرأة صالحة. وكان مات أبوها كافرًا.

الفرّاء: يخرج الطيب من الخبيث والخبيث من الطيب.

وقال أهل الإشارة: يخرج الحكمة من قلب الفاجر حتى لا تستقر فيه، والسَّقطة من لسان العارف.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: كان الحجّاج بن عمرو وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد ظفروا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن جهيمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومخاطبتهم وملازمتهم فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وقال المقاتلان: نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودَّة لكفار مكة فنهاهم الله عزَّ وجل عن ذلك.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى المنافقين عبد الله بن أُبى وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أنْ يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم.

وروى يوسف بن داود الضبى عن بعضهم، قال: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بالرفع خبرًا عنهم وفيه معنى النهى كقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢).

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت فى عُبادة بن الصامت الأنصارى، وكان بدريًا تقيًا، وكان له حلفاء من اليهود، فلمّا خرج النبى ﷺ يوم الأحزاب، قال عبادة: يا نبى الله إنَّ معى خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معى فاستظهرتهم على العدو، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: أى موالاة الكفار فى نقل الأخبار إليهم، وإظهارهم على عدَّة المسلمين، ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾: وفيه اختصار، أى ليس من دين الله فى شىء.

وقال الحسن والسدى: ليس من الولاية فى شىء، فقد برئ الله منهُ، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: يعنى: إلاَّ أنْ تخافوا منهم مخافة.

وقرأ أبو العالية عن الحسن، والضحاك وأبو رجاء وجابر بن زيد وحميد بن مجاهد: تقية على وزن نقية، (وخالفهما) أبو حاتم قال: لأنهم كتبوها بالياء مثل حصاة ونواة إلاَّ بالألف.

قرأ حمزة والكسائى وخلف: «تقية» بالاحتجاج فكان الياء.

وقرأ الباقون «تقاة» بالتضميم. واختاره أبو عبيدة.

وقرأ الأخفش: «تقأة» مثل تكأة ويؤدة ونحوها، وهى مصدر (أتقى) ومثال تقيهُ تُقاةً وتقية وتقى وتقوى، وإذا قلت: اتقت كان مصدرهُ الاتقاء، وإنَّما قال: «تتقوا» من الأتقياء، ثم قال: «تقاة» ولم يقل أتّقاء؛ لأن العرب إذا كان بالكلمتين واحدًا واختلف ألفاظها أخرجوا مصدر أحد اللفظين مصدر اللفظ الآخر فيقولون: التقيتُ فلانًا لقاءً حسنًا.

وقال القطامى فى وصف غيث :

قد لجّ بجانب الجبلين . . .(١) ركـام يحفر الترب احتفاراً

ولم يقل حفراً قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ (نوح :١٧) . وقال : ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝﴾ (المزمّل :٨) .

وأما معنى الآية فقال المفسرون : نهى الله عزَّ وجلَّ المؤمنين عن ملاطفة الكافرين وموالاتهم ومداهنتهم ومبايعتهم إلاَّ أنْ يكون الكفَّار ظاهرين غالبين ، أو يكون المؤمن فى قوم كفَّار ليس فيهم غيره ، ويخافهم ويداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعًا عن نفسه من غير أنْ يسفك دمًا حرامًا ، أو مالاً حرامًا ، أو يظهر الكافرين على عورة المؤمنين ، فالمتَّقى لا يكون إلاَّ مع خوف القتل وسلامة النية كفعل عمار بن ياسر .

عبد الرحمن بن حرملة عن ابن المسيب ، قال : ورد رجلٌ على النبى ﷺ بالمدينة فقال : ما أرانى إلاَّ قد هلكت ، قال : ما لك؟ قال : قد عذّبنى قريش . فقلت : ما قالوا؟ قال : كيف كان قلبك؟ قال : مطمئن ، قال : فإنْ عادوا لك فعد لهم مثل ذلك ، قالها ثلاث مرات .

المسيب بن عبيدة عن إبراهيم ، قال : قال ابن مسعود : خالطوا النَّاس ونائلوهم وصافحوهم بما يشتهون ، ودينكم لا يكون به ريبة .

وقال صعصعة بن صوحان لأسامة بن زيد : أنا كنت أحب إلى أبيك منك ، وأنت أحبُّ إلىَّ من أبى ولذا أوصيك بخصلتين : خالص المؤمن وخالق الكافر ؛ فإنَّ الكافر يرضى منك بالخلق الحسن ، ويحق عليك أن تُخالص المؤمن .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق أنَّه قال : التقية واجبة ، وإنى لأسمع الرجل فى المسجد يشتمنى فأستر بالسارية منهُ لئلا يرانى . وقال : الرياء مع المؤمن شرك ومع المنافق فى داره عبادة .

وأنكر قوم التقيَّة اليوم :

فقال معاذ بن جبل عن مجاهد : كانت التقيَّة فى جُدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين ، فأمّا اليوم فقد أعزَّ الله عزَّ وجل الإسلام ، فليس ينبغى لأهل الإسلام أنْ يتّقوا من عدوهم .

وقال يحيى البكاء : قلتُ لسعيد بن جبير فى أيام الحجّاج : إنَّ الحسن كان يقول لكم : التقيَّة باللسان والقلب مطمئن بالإيمان . قال سعيد : ليس فى الإسلام تقيَّة إنَّما التقيّة فى أهل الحرب .

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ : أى يخوّفكم الله على موالاة الكفار وارتكاب المنهى ومخالفة المأمور من نفسه.

قال المفسرون: من عذاب نفسه وعقوبته وبطشه.

وقال أهل المعانى: معناه ويحذّركم الله إيَّاه؛ لأن الشيء والنفس والذات والاسم عبارة عن الوجود، ونفس الشيء هو الشيء بعينه كقوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء:٦٦): أى ليقتل بعضكم بعضًا.

وقال الأعشى:

يومًا بأجـــود نائلاً منه إذا نفس البخيل تجهمت سؤالها

أراد إذا البخيل تجهم سؤاله.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ : قلوبكم من مودة الكفّار. ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ : من موالاتهم قولاً وفعلاً، ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ : وقال الكلبى: أى ستروا ما فى قلوبكم لرسول الله من التكذيب، ويظهرون بحربه. وقال: يعلمه الله ويحفظ عليكم حتى يحاربكم به ويعاقبكم عليه، ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ : رفع على الاستئناف كقولهم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ (التوبة: ١٤ - ١٥) بالرفع.

وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ (الشورى: ٢٤)، ثم قال: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ (الشورى: ٢٤): وكيف يخفى عليه موالاتكم الكافرين وميلكم إليهم، مودّة بالقلب: أى معونة بالقلب والفعل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ : نصب يومًا، نزع حرف الصفة أى فى يوم. وقيل: نصب بإضمار فعل، أى: اذكروا واتقوا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ : موفرًا لم يبخس منه شيء. قراءة العامة بنصب الضاد على المفعول قد صدَّهم قوله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ (الكهف: ٤٩): وقرأ عبيد عن عُمير محضرًا بكسر الضاد يريد أن عمله يحضره الجنَّة يسرع به من الحضور أو الحضر.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ : جعل بعضهم خبرًا فى موضع النصب، وأعمل فيها الوجود وجعل ﴿عملت﴾ صلة لها، أى: ويجد عملها، وجَعله بعضهم خبرًا مستأنفًا، وحينئذ يجوز فى ﴿تَوَدُّ﴾ الرفع، والجزم، دليل هذا التأويل: قراءة عبد الله ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ﴾ . ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾ : بين النفس ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ : يعنى بين السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ والأمد: الأجل والغاية التَّى ينتهى

إليها. قال الله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ (الجن: ٢٥)، وقال: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ (الحديد: ١٦).

قال النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقـــة   بسبق الجواد إذا استويا على الأمد

قال السدى: أمدًا بعيدًا أى: مكان بعيد.

مقاتل: كما بين المشرق والمغرب.

قال الحسن: ليس أحدهم أن لا يلقى عمله أبدًا ولا يودَّ لو أن يعلمه.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: أى بالمؤمنين منهم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، قال الحسن وابن جريج: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنَّهم يحبون الله، فقالوا: يا محمَّد إنَّا نحب ربَّنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وجعل اتباع نبيه عَلَمًا لحبه تعالى.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقف النبى ﷺ على قريش وهم فى المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلَّقوا عليها بعض النعام وجعلوا فى آذانها السيوف وهم يسجدون لها. فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملَّة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام. فقالت له قريش: يا محمَّد إنَّا نعبدها حبًا لله، ليقرّبونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى: قل يا محمّد إنْ كنتم تحبّون الله وتعبدون الأصنام ليقرّبوكم إليه فاتبعونى يحببكم الله، وأنا رسوله إليكم وحجته عليكم وأنا أولى بالتعظيم من الأصنام.

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: أنَّ اليهود لمَّا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، أنزل الله هذه الآية، فلمَّا نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود فأبوا أن يقبلوها.

روى محمد بن إسحاق عن محمَّد بن جعفر عن الزبير: قال: نزلت فى نصارى أهل نجران وذلك أنَّهم قالوا: إنَّا نعظم المسيح ونعبده حبًا لله سبحانه وتعظيمًا له، فقال الله: قل يا محمّد: إنْ كنتم تحبّون الله وكان عظيم قولكم فى عيسى حبًا لله سبحانه وتعالى وتعظيمًا له فاتَّبعونى يحببكم الله، أى: اتَّبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله، وحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وقصدهم طاعته ورضاه، وحبه عزَّ وجلَّ للمؤمنين (منّة) عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم وذلك قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال الثعلبى: أنشدنا أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنا أبو أحمد محمد بن إبراهيم الصريمى قال: أنشدنا على بن محمد قال: أنشدنى الحسن بن إبراهيم البجلى لعبد الله بن المبارك:

تعصى الإله وأنت تظهر حبَّه   هذا لعمرى فى الفعال قبيح

لو كان حبّك صادقًا لأطعته ... إنَّ المحب لمن يحبُّ مطيع

عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفّ من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبّ على شىء من الجور أو تبغض على شىء من العدل وهل الدين إلاّ الحبّ فى الله والبغض فى الله قال الله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾.

فلما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن أُبى لأصحابه: إنّ محمّدًا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبّه) كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم، فنزل: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا﴾: أعرضوا عن طاعتهما. ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾: لا يرضى فعلهم ولا شىء لهم ولا يغفر لهم.

وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع الإمام فقد أطاعنى، ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى الإمام فقد عصانى».



﴿۞ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها
من بعض والله سميع عليم (٣٤) إذ قالت امرأت عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا
فتقبل مني إنك أنت السميع العليم (٣٥) فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما
وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم (٣٦) فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا
المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من
يشاء بغير حساب (٣٧) هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع
الدعاء (٣٨) فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة
من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين (٣٩) قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني
الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء (٤٠) قال رب اجعل لي آية قال آيتك
ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار (٤١)
وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢)

﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ : قال ابن عباس : قالت اليهود : نحن أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ونحن على دينهم ومنهاجهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : يعنى : أنَّ الله اصطفى هؤلاء الَّذين قالوا بالإسلام ، وأنتم على غير دين الإسلام ، واصطفى (افتعل) من الصفوة وهو الخالص من كل شيء ، يعنى : اختاروا واستخلصوا آدم أبا البشر ونوحًا شيخ المرسلين ، وآل إبراهيم وآل عمران .

قال بعضهم : أراد بآل إبراهيم وآل عمران : إبراهيم وعمران نفسهما ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ (البقرة:٢٤٨) : يعنى موسى وهارون (عليهما السلام) .

قال الشاعر :

ولا تبك ميتًا بعد ميّت أحبّه على وعبّاس وآل أبى بكر

يعنى : أبا بكر .

قال الباقون : آل إبراهيم : إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإنَّ محمَّدًا (عليه السلام) من آل إبراهيم وآل عمران .

وقال مقاتل : هو عمران بن يصهر بن فاحاث بن لاوى بن يعقوب وآله موسى وهارون .

قال الحسن ووهب بن منبه : هو عمران بن أشهم بن أمون من ولد سليمان بن داود وآله مريم وعيسى .

وقيل : هو عمران بن ماتان ، وامرأته حنّة ، وخصّه من الأنبياء ؛ لأنَّ الأنبياء والرسُل بقضهم وقضيضهم من نسلهم . ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً﴾ : نصب على حال قاله الأخفش .

الفرّاء على (القطع) ؛ لأنَّ الذريَّة نكرة وآل إبراهيم وآل عمران معرفة .

الزجَّاج : نصبٌ على البدل . وقيل : على النكرة أى اصطفى ذريَّة ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ : وقيل على الحال أى بعضها من ولد بعض . وقال أبو روق : بعضها على دين بعض .

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ : قال الحروى : لمّا مات الحسن البصرى وكان مماته عشية الجمعة ، فلمَّا صلَّى النَّاس الجمعة حملوه ، فلم (تترك الصلاة) فى المسجد الجامع بالبصرة منذ كان الإسلام إلاَّ يوم ممات الحسن ، فإن الناس اتّبعوا جنازته فلم يبق أحد يصلى فى المسجد صلاة العصر .

قال الجزائرى : سمعت مناديًا ينادى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه .

الأعمش عن أبى وائل، قال: قرأت فى مصحف عبد الله بن مسعود: أنَّ الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران، فقال ابن عباس ومقاتل: هو عمران بن مايان وليس هو بعمران أبى موسى وبينهما ألف وثلاثمائة سنة، وكان بنو مايان رؤوس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم.

وقال ابن إسحاق: هو عمران بن أشهم بن آمون بن ميشا بن حوقتا بن إحرين بن يونام بن عواريا بن إمضيا بن ياوس بن جربهو بن يارم بن صف شاط بن لمساين بن يعمر بن سليمان بن داود (عليه السلام).

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾: أى جعلت الذى فى بطنى محررًا نذرًا منى لك، والنذر: ما أوجبه الإنسان على نفسه بشريطة كان ذلك أو بغير شريطة.

قال الله فقولى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا﴾ (مريم:٢٦): أى أوجبت.

وقال النَّبى ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه».

قال الأعشى:

غشيتُ لليلى بليل خدورا وطالبتها ونذرت النذورا

ومن هذا قولهم: نذر فلان دم فلان: أى أوجبت على نفسه قتله.

وقال جميل:

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى وحموا لقائى يا بثين لقونى

محرَّرًا: أى عتيقًا خالصًا لله خادمًا للكنيسة حبيسًا عليها مفرغًا لعبادة الله ولخدمة الكنيسة، لا يشغله شىء من الدنيا وكلّما أخلص فهو محرَّر، يقال: حرَّرت العبد إذا أعتقته، وحرَّرت الكتاب إذا أخلصته وأصلحته فلم يبق فيه ما يحتاج إلى إصلاحه، ورجل حرّ إذا كان خالصًا لنفسه ليس لأحد عليه متعلق، والطين الحر الذى خلُص من الرمل والحصاة والعيوب.

ومحرَّرًا: نصب على الحال.

وقال الكلبى وابن إسحاق وغيرهما: فإن الحر رجل إذا حرر وجعل فى الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرحها حتى يبلغ الحلم، ثم يخيّر فإن رغب أن يقيم فيها أقام، وإنْ أحبَّ أن يذهب ذهب حيث شاء، فإن أراد أن يخرج بعد التخير لم يكن له ذلك، ولم يكن أحد من) الأنبياء (والعلماء إلاَّ ومن نسل محرَّرًا ببيت المقدس، ولم يكن محرَّرًا إلاَّ الغلمان، وكانت الجارية لا تكلف ذلك ولا تصلح له لما يمسها من الحيض والأذى، فحرَّرت أُم مريم ما فى بطنها.

وكان القصة في ذلك أنّ زكريا وعمران تزوجا أُختين، وكانت إيشاع بنت فاقود أم يحيى عند زكريا وحنَّة بنت فاقود أم مريم عند عمران، وقد كان أمسك على حنَّة الولد حتى أيست وعجزت، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخًا فتحركت لذلك شهوتها للولد، ودعت الله أن يهب لها ولدًا وقالت: اللهم لك عليَّ إن رزقتني ولدًا أن أتصدَّق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه نذرًا وشكرًا، فحملت بمريم فحرَّرت ما في بطنها ولا تعلم ما هو، فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت! أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى (والأُنثى عورة) لا تصلح لذلك فوقعا جميعًا في همّ من ذلك، فهلك عمران وحنَّة حامل بمريم.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: أي ولدتها وإذا هي جارية، فالهاء في قوله: ﴿وَضَعَتْهَا﴾ راجعة إلى النذيرة أي مريم من حنّة، لذلك أنَّث.

﴿قَالَتْ﴾: عذرًا وكانت ترجو أن تكون غلامًا ولذلك حررت.

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾: اعتذار إلى الله عزّ وجل.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: (ما ظنّت) عن السدي، وقرأ (العامّة بتسكين التاء) وقرأ علي وأبو ميثم النجفي وابن عامر وأبو بكر ويعقوب: ﴿وَضَعْتُ﴾ بضمّ التاء جعلوها من كلام أمّ مريم.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾: في خدمة الكنيسة والعُبَّاد الذين فيها؛ لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس والأذى.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: وهي بلغتهم: (الخادمة والعابدة، وكانت أجمل النساء في وقتها وأفضلها).

روى أبو زرعة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد».

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾: آمنها وأجيرها بك. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: وأولادها.

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: الطريد اللعين المرمي بالشهب.

ابن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلاَّ والشيطان يمسه حين يولد فيستهلُّ صارخًا من مس الشيطان إيّاه إلاَّ مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

سعيد عن قتاد قال: «كل آدمي طعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى ابن مريم وأمه جُعِل بينهما حجاب فأصاب الطعن الحجاب ولم ينفذ إليها منه شيء».

قال: وذكر لنا أنّهما كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بنى آدم.

وقال وهب بن منبه: «لمّا ولد عيسى (عليه السلام) أتى الشياطين إبليس فقالوا: أصبحت الأصنام منكّسة، فقال: هذا الحادث حدث، وقال: مكانكم، فطار حتى جاء خافقى الأرض فلم يجد شيئًا، ثم جاء البحار فلم يجد شيئًا، ثمّ طار أيضًا فوجد عيسى قد ولد، وإذ الملائكة قد حفّت حوله فلم يصل إليه إبليس فرجع إليهم، فقال: إنّ نبيًا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلاّ أنا بحضرتها إلاّ هذه، فأيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بنى آدم من قِبَل الخفة والعجلة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: أى تقبل الله من حنّة مريم ورضيها مكان المحرر، يقال، قبل ولأن الشىء إذا رَضيَه يقبله قبولاً بالفتح مصدر، مثل الزارع والزروع والقبول، ولم يأت غير هذه الثلاثة، والقياس الضم مثل الدخول والخروج، قاله أبو عمر والكسائى والأئمّة، وقال بعضهم: معنى التقبّل: التكفّل فى التربية والقيام بشأنها.

وقال الحسن: قبوله إيّاها أنه ما عذّبها ساعة من نهار ولا ليل.

﴿رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: ولم يقل بتقبّل وهذا النوع يقال له: المصدر على غير المصدر.

قال الفرّاء: مثل قولك تكلمت كلامًا.

قال الفطامى: وخير الأمر ما استقلّت فيه وليس بأن يتبعه اتباعًا.

وقال آخر: وإن مشيتم تعاودنا عوادًا، ولم يقل: تعاودوا.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: ولم يقل: إنباتًا.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ يقول: سلك بها طريق السعداء ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: يعنى سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان. وكانت تنبت فى اليوم كمثل ما ينبت المولود فى عام واحد.

ابن جريج: أنبتها ربها فى غذائه ورزقه نباتًا حسنًا حتى تمت امرأة بالغة تامة.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: قال المفسرون: أخذتها أمّ مريم حين ولدتها، فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد، فوضعتها عند الأحبار أولاد هارون وهم يومئذ يكونون فى بيت المقدس ما يلى الحجة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار؛ لأنّها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها؛ (لأن) عندى خالتها. فقال له الأحبار: لا تفعل ذلك؛ فإنّها لو تركت وحق الناس بها لتركت لأُمها التى ولدتها، ولكنّا نقرع عليها فتكون عند من خرج سهمه، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جارى.

قال السدى: هو نهر الأردن، فألقوا أقلامهم فى الماء، فارتفع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم (ورسبت) فى النهر، قاله ابن إسحاق وجماعة.

وقال السدى وجماعة: بل ثبت قلم زكريا وقام فوق الماء كأنه فى طين وجرت أقلامهم مع جريان الماء (فذهب بها الماء)، فسهمهم وقرعهم زكريا، وكان رأس الأحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ضمّها إلى نفسه وقام بأمرها.

قال ابن إسحاق: فلمّا كفّلها زكريا ضمها إلى خالتها أم يحيى واسترضع لها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابًا: أى غرفة فى المسجد، وجعل بابه إلى وسطها، لا يرقى إليها إلاّ بسلّم مثل باب الكعبة، فلا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها كلّ يوم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾: يعنى وجد زكريا عندها فاكهة فى غير أوانها، فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف غضًا طريًا. ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فإنّها كانت إذا رزقها الله شيئًا وسئلت عنه ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبد الله: أنّ رسول الله ﷺ أقام أيّامًا لم يُطعم طعامًا، حتى شقّ ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه، فلم يصب فى بيت أحد منهنّ شيئًا، فأتى فاطمة رضى الله عنها فقال: «يا بنيّة هل عندك شىء آكلُ فإنّى جائع؟» فقالت: لا والله بأبى أنتَ وأمّى، فلمّا خرج رسول الله ﷺ من عندها، بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم، فأخذته منها ووضعته فى جفنة وغطّت عليه وقالت: لأوثرنّ بها رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة من طعام، فبعثت حسنًا وحسينًا إلى جدّهما رسول الله ﷺ، فرجع إليها، فقالت: بأبى أنت وأمّى يا رسول الله قد أتانا الله بشىء فخبّأته لك، قال: «فهلمّى به»، فأُتى به فكشف عن الجفنة فإذا هى مملوءة خبزًا ولحمًا، فلمّا نظرت إليه بهتت وعرفت أنّها من بركة الله، فحمدت الله تعالى وصلّت على نبيّه، فقال عليه السلام: «من أين لك هذا يا بنيّة؟» قالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد رسول الله ﷺ وقال: «الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيّدة نساء بنى إسرائيل، فإنّها كانت يرزقها الله رزقًا حسنًا فسُئلت عنه ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»)(١).

(١) سقط بالأصل، وهو من كتاب قصص الأنبياء للمصنف (ص٣٧٢-٣٧٤).

فبعث رسول الله ﷺ إلى على رضى الله عنه، ثم أكل رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى ﷺ وأهل بيته جميعًا حتى شبعوا.

قالت فاطمة: وبقيت الجفنة كما هى فأوسعت منها على جميع جيرانى فجعل الله فيها بركة وخيرًا.

قال أهل التفسير: فلما رأى زكريا ذلك قال: إن الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى غلامًا على الكبر، فطمع فى الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا، وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد.

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: أى فعند ذلك. و«هنا» إشارة إلى الغاية كما أن «هذه» إشارة إلى الحاضر.

والكاف: اسم المخاطب وكسرت اللام لالتقاء الساكنين.

قال المفضل بن سلمة: أكثر ما يقال هنالك فى الزمان وهناك فى المكان وقد جعل هذا مكان هذا.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ فدخل المحراب وغلق الأبواب وناجى ربه. ﴿قَالَ رَبِّ﴾: أى يا رب فحذف حرف النداء من أوله والياء من آخره، استغنى بكسر الباء عن الياء. ﴿هَبْ لِى﴾: أعطنى، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: من عندك. وفى لدن أربع لغات: لَدُنْ بفتح اللام وضم الدال وجزم النون وهو أفصحها ولَدُ بفتح اللام وضم الدال وحذف النون ولَدْنَ بفتح اللام وسكون الدال وفتح النون، ولُدْنَ بضم اللام وجزم الدال وفتح النون.

قال الفرّاء: وهى يخصّص بها على الإضافة، وترفع على مذهب مذ، وأنشد قول أبى سفيان بن حرب على الوجهين:

ما زال مهرى مزجر الكلب منهم لدن غدوة حتى دنت لغروب

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: نسلاً مباركًا تقيًا صالحًا رضيًا، والذرية تكون واحدًا أو جمعًا ذكرًا أو أنثى، وهو ههنا واحد يدل عليه قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٥)، ولم يقل أولياء وإنّما أنث طيبة؛ لتأنيث لفظ الذرية.

كما قال الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنث ولدته؛ لتأنيث لفظ الخليفة، فكما قال آخر:

فما تزدرى من حية جبلية سكات إذا مــــا غض ليس بأدردا

فأنث الجبلية؛ لتأنيث لفظ الحية ثم رجع إلى المعنى، فقال: غض؛ لأنه أراد حية ذكراً والحية تكون الذكر والأنثى، وإنّما جوّز هذا فيما لم يقع عليه؛ فلأن من الأسماء كالدابة والذرية والخليفة فإذا سمى بشىء من ذلك رجل هو كان من معنى رجلان، لم يجز تأنيث فعله ولا نعته فلا تقول من ذلك: حدثنا مغير الضبى، ولا يجوز حدثتنا مغيرة الضبية.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أى سامعه وقيلَ مجيبه، لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ (يس: ٢٥): أى فأجيبون. وقولهم: سمع الله لمن حمده: أى أجابه.

وأنشد:

دعوت الله حتى خفتُ ألا يكون الله يسمعُ مـا أقول

أى بكيتُ.

قتادة عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: «أيما رجل مات وترك ذرية طيبة أجرى الله عليه مثل أجر عملهم لا ينقص من أجورهم شيئًا».

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: قرأ يحيى وثابت والأعمش وحمزة والكسائى وخلف: فناديه بالياء، وأبو عمارة وأبو عبيدة، وقرأ الباقون: بالتّاء واختاره أبو حاتم: فإذا تقدم الفعل فأنت فيه بالخيار إنْ شئت أنّث وإن شئت ذكَّرت، إلاّ أنّ من قرأ بالتاء؛ فلأجل تأنيث الملائكة للفظ والجمع مع أن الذكور إذا تقدم فعلهم وهو جماعة كان التأنيث فيه أحسن وأفصح كقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ (الحجرات: ١٤)، ومَن ذكّر خلها.

روى القاسم بن سلام عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم، قال: كان عبد الله يُذكّر الملائكة فى القرآن، قال أبو عبيدة: إنما يرى (أن) الله اختار ذلك خلافًا على المشركين فى قولهم: الملائكة بنات الله فأراد بالتذكير ههنا إكذابهم.

وروى الشعبى أن ابن مسعود قال: إذا اختلفتم فى الياء والتاء فاجعلوها ياءً وذكّروا القرآن.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: إذا كان الحرف فى القرآن تاء وياء فاجعلوها ياء. وأراد بالملائكة ههنا: جبريل وحده؛ وذلك أنّ زكريا الحبر الكبير الذى تعهد بالقربان، وبفتح باب المذبح فلا يدخلون حتى يأذن لهم فى الدخول، فبينا هو قائم فى المسجد عند المذبح يصلى والناس ينتظرونه أن يأذن لهم فى الدخول، إذ هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع منه فناداه وهو جبريل: يا زكريا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ فذلك قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: يعنى

جبريل وحده نظيره قوله فى هذه السورة ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ (آل عمران: ٤٢): يعنى جبريل وحده، وقوله فى النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ (النحل: ٢): يعنى جبريل ما يروح بالوحى؛ لأنّ الرسول إلى جميع الأنبياء جبريل (عليه السلام)، يأتى على قول ابن مسعود، فناداه جبريل﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ : وهذا جائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع كقولهم: ركب فلان فى السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وخرج على بغال البريد، وإنما على بغل واحد، وسمعت هذا الخبر من الناس، وإنما سمع من واحد نظير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ (آل عمران: ١٧٣): يعنى نعيم بن مسعود: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٧٣): يعنى أبا سفيان ونحوها كثرة.

وقال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيسًا فيجوز الإخبار عنه بالجمع؛ لاجتماع أصحابه معه، فلمّا كان جبريل رئيس الملائكة وكل ما يُبعث إلاَّ ومعه جمع منهم فهى على هذا.

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ : يعنى فى المسجد، نظيره قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ (مريم: ١١): أى المسجد، وقوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ (ص: ٢١): أى المسجد، وهو مفعال من الحرب، قيل: سمى بهذا؛ لأنّه يحارب فيه الشيطان، كما قيل: مضمار للميدان الذى تضمر فيه الخيل، وأمال ابن عامر المحراب فى جميع القرآن، وفخّمه الآخرون.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ قرأ ابن عامر وعيسى بن عمرو والأعمش وحمزة: بكسر الألف على إضمار القول تقديره: فنادته الملائكة فقالت: إن الله؛ لأن النداء قول.

وقرأ الباقون: بالفتح بإيقاع النداء عليه كأنه قال: فنادته الملائكة أن الله يُبشرك.

وقرأ عبد الله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ يا زكريا إن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ : اختلف القراء فى مستقبل هذا الفعل وجملها فى القرآن عشرة: موضعين ههنا وفى التوبة ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ (التوبة: ٢١): ومريم وفى الحجر ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر: ٥٣)، و﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ (الحجر: ٥٤) وفى سبحان والكهف ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣، والتوبة: ١١٢)، وفى مريم موضعين: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ (مريم: ٧) و﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (مريم: ٩٧)، وفى حم عسق: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ (الشورى: ٢٣) فهذه عشرة مواضع اتّفقوا على واحد منها أنها مشددة، وهو قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ (الحجر: ٥٤) واختلفوا فى التسعة الباقية فقرأها: حمزة كلها بفتح الباء وجزم الياء وضم الشين وتخفيفها.

وقرأ يحيى بن رثاب والكسائى خمسة منها مخففة، موضعين ههنا وفى سبحان والكهف وعسق.

وخفّف ابن كثير وأبو عمرو منها حرفًا واحدًا وهو قوله: فى حم عسق ﴿ذَٰلِكَ﴾ النبى ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ (الشورى: ٢٣).

وقرأها كلها حميد بن قيس: بضم الياء وجزم الباء وكسر الشين وتخفيفها.

الباقون: بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين وتشديده، فمن خفّف الشين وضم الياء وهو من أبشر يُبشر، قال الشاعر:

يا أُمّ عمرو أبشرى بالبشرى ... مـوتُ ذريع وجراد عظلى

ومن قرأ بتخفيف الشين مع فتح الباء فهو من بشر يبشر، وهو لغة أهل تهامة وقراءة ابن مسعود. قال الشاعر:

نشرت عـوالى إذ رأيتُ حيفة ... ماسك من الحجّاج تعلى كتابها

وقال الفرّاء:

وإذا رأيت الباهشين إلى العلى ... غبرًا أكفهم بقـاع ممحل

فأعنهم وأبشر بمـا بشروا به ... وإذا هم نزلوا بضنك فأنزل

روى عبد الرحمن بن أبى حماد عن معاذ الكوفى، قال: من قرأ يبشرهم مثقلة فإنّه من البشارة ومن قرأ يبشرهم مخفّفة بنصب الياء فإنّه من السرور، يسرّهم، وتصديق هذه القراءة ما روى ابن زيد بن أسلم عن أبيه: أن النبى ﷺ قال لرجل: إن الله يبشرك بغلام فولدت امرأته غلامًا.

ومن قرأ بالتشديد من بشر يُبشر بشيرًا وهو أعرب اللغات وأفصحهم. قال جرير:

يا بشر حق لوجهك التبشير ... هـلا غضبت لنا وأنت أمير

ودليل التشديد: أنّ كلّ ما فى القرآن من هذا الباب من فعل واجب أو أمر فهو بالتثقيل لقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ﴾ (الزمر: ١٧ ـ ١٨)، ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ﴾ (الصافّات: ١١٢)، ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ﴾ (الحجر: ٥٥).

﴿بِيَحْيَىٰ﴾: هو اسم لا يجرى لمعرفته، والمزايد فى أوله مثل: يزيد ويعمر ويشكر وأماله قوم؛ لأجل الياء وفخّمه الآخرون، وجمعُهُ «يحيون» مثل موسون وعيسون، واختلفوا فيه لِمَ سُمى «يحيى».

قال ابن عباس: لأن الله أحيا به عقر أُمه. قتادة: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان. بعضهم: لأن الله أحيا قلبه بالنبوة.

الحسن بن الفضل: لأن الله أحياه بالطاعة حتى لم يعصِ ولم يهم بمعصية.

ما روى عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: ما من أحد إلاَّ ويلقى الله عز وجل قد همّ بخطيئة قد عملها إلاَّ يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يعملها.

قال الثعلبى: (سمعت) الأستاذ أبا القاسم بن حبيب يقول: سُمى بذلك؛ لأنه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

قال النبى ﷺ: «من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة».

قال الثعلبى: وسمعت أبا منصور (الجمشاذى) يقول: عن عمر بن عبيد الله المقدسى: أوحى الله إلى إبراهيم الخليل: أن قل ليسارة وكذلك كان اسمها: إنى مخرج منكما عبداً لا يموت بمعصيتى اسمه حيى فهبى له من اسمك حرفًا، فوهبت له أول حرف من اسمها فصار يحيى وصارت امرأة إبراهيم سارة.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾: نصب على الحال ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: يعنى عيسى (عليه السلام) سُمى كلمة؛ لأن الله قال له: كن من غير أب فكان، فوقع عليه اسم الكلمة؛ لأنه كان بها، ويحيى أول من آمن بعيسى فصدّقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر، وكانا ابنى خالة، ثم قُتل يحيى قبل أن يرفع عيسى (عليهما السلام).

وقال أبو عبيدة وعبد العزيز بن يحيى: بكلمة من الله وآياته، يقول: أنشدنى كلمة فلان: أى قصيدته.

﴿وَسَيِّدًا﴾: من فيعل نحو ساد يسود أصله يسود، وهو الرئيس الذى يتَّبع ويُنتهى إلى قوله.

قال المفضل: أراد سيداً فى الدين.

شريك عن أبى روق عن الضحاك قال: السيد الحسن الخلق.

وروى شريك بإسناده أيضًا عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال: السيد هو الذى يطيع ربه عز وجل.

سعيد بن المسيب: السيد الفقيه العالم. قتادة: سيد فى العلم والصوم، سعيد بن جبير: الحليم، الضحّاك: التقى، عكرمة: الذى لا يغضب، مجاهد: الكريم على الله، ابن زيد: الشريف الكبير، سفيان الثورى: الذى لا يحسد.

روى يوسف بن الحسين الرازى عن ذى النون المصرى قال: الحسود لا يسود.

قال الخليل بن أحمد: مطاعًا.

الزجّاج: هو الذى ينوى وبكل شىء من الخير أقرانه.

أحمد بن عاصم: السيد القانع بما قسم له.

أبو بكر الورّاق: الراضي بقضاء الله تعالى.

محمد بن علي الترمذي: المتوكل على الله.

أبو زيد البسطامي: هو الذي قد عظمت همته ونبل قدره، لم يُحدث نفسه بدار الدنيا، وقيل: هو السخي.

روى ابن الزبير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: جد بن قيس غير أنّه بخيل جبان. قال: وأيُّ داء أدوى من البخل، بل سيدكم عمرو بن جموح.

روى عبد الله بن عباس: أنه كان قاعداً مع رسول الله ﷺ فجاءه بضعة عشر رجلاً عليهم ثياب السفر، فسلموا على رسول الله ﷺ وعلى القوم، ثم قالوا: مَن السيد منكم؟ فقال رسول الله ﷺ: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فعرفوا أنه رسول الله، فقالوا: فما في أمتك سيد، قال: بلى رجلٌ أعطى مالاً حلالاً ورُزِقَ سماحةً، وأدنى الفقراء وقلتْ شكايتهُ.

وروى أن أسد بن عبد الله قال لرجل من بني شيبان: بلغني أن السؤدد فيكم رخيص. فقال: أما نحن فلا نسود إلاّ من يعطينا رحله، ويفرش لنا عرضه، ويعطينا ماله. فقال: والله إن السؤدد فيكم لغال.

﴿وَحَصُورًا﴾: أصله من الحصر وهو الحبس، يُقال: حصرت الرجل عن حاجته إذا حبسته، وحصرت من كذا أحصر إذا امتنع منهُ، وحصر فلان في قراءته إذا امتنع من القراءة فلم يقدر عليها، ومنه إحصار العدو. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨): أي محبسًا. ويقال للرجل الذي يكتم السر ويحبسهُ ولا يظهره حُصر.

قال جرير:

ولقد تسقطني الوشاة فصادفوا حصراً بسرك يا أميم ضنينا

فالحصور في قول ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وقتادة وعَطاء وأبي الشعثاء والحسن والسدي وابن زيد: الذي لا يأتي النساء ولا يقربهنّ، فهو على هذا القول: مفعول بمعنى فاعل يعني: أنه يحصر نفسه عن الشهوات.

وقال سعيد بن المسيب والضحّاك: هو العنّين الذي لا ماء له، ودليل هذا التأويل ما روى أبو صالح عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد

أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلاّ يحيى بن زكريا فإنه كان سيدًا وحصورًا».

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ : ثم أهوى النبى ﷺ بيده إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : «كان ذكره مثل هذه القذاة».

وقال المبرد : الحصور الذى لا يدخل فى اللعب والعبث والأباطيل، وأصله من قول العرب الذى لا يدخل فى الميسر حصور. قال الأخطل :

وشاربُ مربح بالكأس نادمنى لا بالحصـــور ولا فيها بسوار

فلما نادت الملائكة زكريا بالبشارة ﴿قَالَ رَبِّ﴾ : يا سيدى قاله لجبرائيل (عليه السلام)، وهذا هو قول الكلبى وأكثر المفسرين.

وقال الحسن بن الفضل : إنّما قال زكريا لله يا رب لا لجبرائيل.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ : من أين يكون، ﴿لِى غُلَـٰمٌ﴾ : ابن. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ : قال أبو حمزة والفرّاء والمؤرّج بن المفضّل : هذا من المقلوب : أى قد بلغت الكبر كما يقال : بلغنى الجهد : أى أنى فى جهد، ويقول هذا القول لا يقطعنى أى لا يبلغ (بى) ما أريد (أن) يقطعه، وأنشد المفضل :

كانت فريضـــةٌ مـــا زعمت كما كانت الزناء فريضة الرجم

وقيل معناه : وقد نالنى الكبر وأدركنى وأخذ منى وأضعفنى.

قال الكلبى : كان يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة، وقيل : ابن تسع وتسعين سنة، فذلك قوله : ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ : أى عقيم لا تلد، يقال : رجل عاقر وامرأة عاقر، وقد عقُر بضم القاف، يعقر عقرًا وعقارة، وقيل : تكلم حتى أُعقر بكسر القاف يعقر عقرًا إذا أبقى فلم يقدر على الكلام.

وقال عامر بن الطفيل :

ولبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا جبانًا فما عذرى لدى كل محضر

وإنما حذف الهاء؛ لاختصاص الإناث بهذه، وقال به تارة الخليل.

وقال سيبويه : للنسبة أى ذات عقر، كما يقال : امرأة مرضع أى ذات ولد رضيع وكل .... [1] امرأتى عنى عاقر، وشخص عاقر.

وقال عبيد : عاقر مثل ذات رحم، أو خاتم مثل من (ينحب).

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ : فإن قيل : لم تنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعدما بشرته به

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الملائكة أكان ذلك (شك في صدقهم (أم أنّ) ذلك منه استنكاراً لقدرة ربّه)؟ وهذا لا يجوز أن يوصف به أهلُ الإيمان فكيف الأنبياء (عليهم السلام)؟

قيل: إن الجواب عنه ما روى عكرمة والسدي: أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان، فقال: يا زكريا إن الصوت الذي سمعته ليس من الله، إنما هو من الشيطان يسخر بك، ولو كان من الله لأوحاه إليك خفيًا، كما (ناداك) خفيًا وكما يوحى إليك في سائر الأمور، فقال ذلك دفعًا للوسوسة.

والجواب الثاني: أنه لم يشك في الولد وإنما شك في كيفيته والوجه الذي يكون منه الولد فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ﴾ : أي فكيف يكون لي ولد؟ أتجعلني وامرأتي شابين؟ أم ترزقنا ولداً على كبرنا؟ أم ترزقني من امرأتي أو غيرها من النساء؟ قال ذلك مستفهمًا لا منكراً، وهذا قول الحسن وابن كيسان.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ : علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكراً لك.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ : تكف عن الكلام.

﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ : تقبل بكلمتك على عبادتي وطاعتي لا أنه حبيس لسانه عن الكلام، ولكنه نُهي عنه يدُل عليه قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ .

قال بعض أهل المعاني وقال أكثر المفسرين: عُقد لسانه عن الكلام؛ عقوبة له لسؤاله الآية بعد مُساءلة الملائكة إياه، فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام إلاَّ رمزاً: إشارة.

قال الفرّاء: ويكون الرمز باللسان من غير أن يبين، وهو الصوت الخفي شبه الهمس.

وقرأ الأعمش: ﴿رَمَزًا﴾ : بفتح الميم وهو الصلاة كالطلب به.

وقال عطاء: أراد به صوم ثلاثة أيام؛ لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلاَّ رمزاً.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ : يعني جبرائيل وحده.

﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ : بولادة عيسى من غير أب.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ : من (مسيس) الرجل. وقال السدي: كانت مريم لا تحيض. ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ : بالتحرير في المسجد، ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ : عالمي زمانها ولا يحرر غيرها.

﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي﴾ : أطيعي وأطيلي الصلاة، ﴿لِرَبِّكِ﴾ : كلمت به الملائكة شفاهًا.

قال (الأوزاعي): لمّا قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسالتا دمًا وقيحًا.

﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرت من حديث زكريا ومن حديث يحيى ومريم وعيسى، ﴿مِنْ أَنبَآءِ﴾: أخبار، ﴿ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: ردّ الكناية إلى ذلك فلذلك ذكر. ﴿وَمَا كُنتَ﴾: يا محمد، ﴿لَدَيْهِمْ﴾: عندهم، ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ سهامهم وقداحهم للاقتراع فى الماء واحدها: قلم، وقيل: (أقلامهم التى كانوا يكتبون بها) التوراة فألقوا أقلامهم التى كانت بأيديهم فى الماء.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: . . . . . (١).

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: فى كفالتها.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقرأ أبو السماك وهب بن يزيد العدوى: (بكلمة) مكسورة الكاف مجزومة اللام فى جميع القرآن، وهى لغة فصيحة مثل كتف وفخذ.

﴿ٱسْمُهُ﴾: رد كناية إلى عيسى وكذلك ذكر. وقيل: رده إلى الكلام؛ لأن الكلمة والكلام واحد.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ : قال بعضهم : هو فعيل بمعنى المفعول يعنى : أنهُ مُسِح من الأقذار وطهر.

وقيل : مُسح بالبركة.

وقيل : لأنه خرج من بطن أُمه ممسوحًا بالدهن.

وقيل : لأنه مسح القدمين لا أخمص له.

وقيل : مسحه جبرائيل بجناحِه من الشيطان حتى لم يكن للشيطان فيه سبيل فى وقت ولادته.

وقال بعضهم : هو بمعنى الفاعل مثل عليم وعالم، وسمى ذلك لأنهُ كان يمسح المرضى فيبرءون بإذن الله.

قال الكلبى : سمى بذلك لأنه كان يمسح عين الأعمى فيبصره.

وقيل : سمى بذلك لأنه كان يسيح فى الأرض يخوضها ولا يقيم فى مكان، وعلى هذا القول الميم فيه زائدة.

وقال أبو عمرو بن العلاء : المسيح الملك.

وقال أبو تميم النخعى : المسيح الصديق، فإما هو المسِّيح بكسر الميم وتشديد السين، وقال غيره : هذا قول لا وجه له؛ بل الدجال مسيح أيضًا فَعيل بمعنى مفعول لأنه ممسوح إحدى العينين كأنها عين طافية، ويكون بمعنى (السائح) لأنه يسيح فى الأرض فيطوف الأرض كلها إلاَّ مكة والمدينة وبيت المقدس.

قال الشاعر :

❖ إنّ المسيح يقتل المسيحا ❖

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾ : نصب على الحال، أى شريفًا (ذا جاه وقدر).

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى ثواب الله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ صغيرًا قبل (أوان) الكلام.

روى ابن أبى (نجيح) عن مجاهد قال : قالت مريم (عليها السلام) : كنتُ إذا خلوت أنا وعيسى حدّثنى وحدثته. فإذا شغلنى عنه إنسان سبّح فى بطنى وأنا أسمع.

﴿وَكَهْلًا﴾ : قال مقاتل : يعنى إذا اجتمع قبل أن يرفع إلى السماء.

وقال الحسن بن الفضل : (كهلاً) بعد نزوله من السماء.

وقال ابن كيسان : أخبرهما أنّهُ يبقى حتّى يكتهل.

وقيل: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾: صبيًا وكهلاً نبيًا . . . .[١] إلاّ عيسى (عليه السلام)، فكلامه فى المهد معجزة وفى الكهولة دعوة.

وقال مجاهد: ﴿وَكَهْلًا﴾ أى عظيمًا والعرب تمدح بالكهولة لأنّها أعظم فى احتناك السنّ، واستحكام العقل، وجودة الرأى والتجربة.

﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أى فهو من العباد الصالحين.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ يا سيّدى بقولها لجبرائيل ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ يعنى رجل.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ﴾: كما تقولين يا مريم ولكن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: . . . .[١].

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: كما يريد.

قال بعض أهل المعانى: ذكر القول ههنا بيان وزيادة إلى ذكره ليتعارف النّاس به سرعة كون الشىء فيما بينهم.

وقال آخرون: هذا وقع على الموجود فى علمه وإرادته وتحت قدرته وإن كان معدومًا فى ذاته.

ونصب بعض القرّاء النون فى قوله ﴿فَيَكُونُ﴾ على جواب الأمر بالفاء، ورفع الباقون على إضمار هو أى فهو يكون. وقيل: على تكرير الكلام تقديره: فإنّما يقول له كن فيكون.

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾: قرأ أهل المدينة ومجاهد وحميد والحسن وعاصم: بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: قد جرى ذكره عز وجّل.

وقال المبرد: ردّوه على قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ وقرأ الباقون بالنون على التعظيم، واحتجّ أبو عمرو فى ذلك لقوله ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أى الكتابة والخط والعلم.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ﴿وَرَسُولًا﴾: أى ونجعله رسولاً.

﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: فترك ذكره لأن الكلام عليه، كقول الشاعر:

ورأيت بعلك فى الوغى ... متقلدًا سيفًا ورمحا

أى وحاملاً رمحًا.

وأنشد الفرّاء لرجل من عبد القيس:

علفتها تبنًا وماءً باردًا ... حتى شتت همالة عيناها

يعنى سقيتها ماءً باردًا.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله (ورسولاً) مضخمة والرسول حالاً للهاء، تقديره: ويعلّمه الكتاب رسولاً، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى (عليه السلام).

روى محمد بن إسكندر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثت على أثر ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل». فلمّا بعث قال لهم: . . . .(١).

قال الكسائي: وإنّما فتح لأنّه أوقع الرسالة عليه وقيل: بأنّي أو لأنّي.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾: والآية ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: يصدّق قولي ويحقق رسالتي.

قال الخليل والفرّاء: أصلها بآيّة بتشديد الياء فثقل عليهم التشديد فأبدلوا لانفتاح ما قبل التشديد وتقديرها فعلة.

وقال الكسائي: هي في الأصل أيية مثل فاطمة فحذفت إحدى الياءين فلمّا قال ذلك عيسى لبني إسرائيل. قالوا: وما هي؟ قال: إنّي، قول نافع بكسر الألف على الاستئناف وإضمار القول.

وقرأ الباقون بالفتح على معنى بأنّي.

﴿أَخْلُقُ﴾: أي أصور وأقدّر.

﴿لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ﴾: قرأ الزهري وأبو جعفر: كهيّة بتشديد الياء. والآخرون بالهمزة. والهيئة الصورة المهيّأة، وهي من قولهم هيأت الشيء إذا قصرته وأصلحته. وقرأ أبو جعفر (الطاير) بالألف، والباقون بغير ألف.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾: أي في الطين.

﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قرأه العامة على الجمع لأنّه خلق طيرًا كثيرًا.

وقرأ أهل المدينة: (طائرًا) على الواحد ذهبوا إلى نوع واحد من الطير، لأنه لم يخلق غير الخفّاش، وإنّما خصّ الخفّاش لأنه أكمل الطير خلقًا، ليكون أبلغ في القدرة لأن لها ثديًا وأسنانًا وهي تحيض وتطير.

وقال وهب: كان يطير ما دام النّاس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا ليتميز فعل الخلق من خلق الله، وليعلموا أنّ الكمال لله تعالى.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾: أي أشفيهما وأصححهما فقال: أبرأ الله المريض من أبرأ. وبرئ. هو يبرأ. وبرئ. مبرأ. برءوا فيهما جميعًا. واختلفوا في الأكمه:

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فقال عكرمة والأعمش، ومجاهد والضحّاك: (هو الذى) يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل.

ابن عباس وقتادة: هو الذى ولدَ أعمى ولم يبصر ضوءًا قط، الحسن والسّدى: هو المعروف من كلام العرب، يقال: كمُهت عينه تكمه كمهًا وكمهتها أنا إذا أعميتها.

قال سويد بن أبى كاهل:

كمهت عيناه حتى ابيضّتا فهـــو يلحى نفسه لمّا نزع

قال رؤبة:

❖ وكيد مطال وخصم (مَبْده) ❖

هدجنَ فإن تكلم . . . .[1] الأكمه هرّجت بالسبع وقد صحت به، والأبرص الذى به وضح.

وإنما خصّ هذين لأنهما عمياوان وكان (الغالب) على زمن عيسى الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك داعيًا لا دواء له.

وقال وهب: ثم اجتمع على عيسى من المرضى فى اليوم الواحد خمسون ألفًا من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق أتاه عيسى يمشى إليه. إنمّا كان يداويهم بالدّعاء على شرط الإيمان.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: قيل: أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديّقًا فأرسل أخته إلى عيسى أنَّ أخاك عازر يموت فأته وكان بينه وبين داره ثلاثة أيّام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيّام، فقال لأخته: انطلقى بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره وهو فى صخرة مطبقة. فقال عيسى: اللهم ربّ السموات السّبع والأرضين السّبع، إنّك أرسلتنى إلى بنى إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأُخبرهم أنّى أُحيى الموتى بإذنك فأحيى عازر. قال: فقام عازر وودكه تقطر، فخرج من قبره وبقى وولد له.

وابن العجوز مُرّ به ميتًا على عيسى (عليه السلام) على سرير يحمل فدعا الله عيسى (عليه السلام) فجلس على سريره ونُزّل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقى وولد له.

والبنت العاقر قيل له: أتُحييها وقد ماتت أمس؟ فدعا الله فعاشت فبقيت وولد لها.

وسام بن نوح دعا عيسى (عليه السلام) باسم الله الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه. فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا ولكنى دعوتك باسم الله الأعظم. قال: ولم يكونوا

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يشيبون فى ذلك الزّمان. وكان سام قد عاش خمسمائة سنة وهو شاب، ثم قال: مُت. فقال: بشرط أن يعيذنى الله من سكرات الموت. فدعا الله عز وجّل ففعل.

قال الكلبى: كان عيسى (عليه السلام) يحيى الأموات بـ: يا حيّ يا قيّوم.

﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾: أُخبركم، ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾: ممّا أعاينه، ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾: وما ترزمونه، ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾: حتى تأكلوه، وهو يفعلون من دخرت وقرأ مجاهد وأيوب السختيانى: تذخرون، بالذال المعجمة وسكونها وفتح الخاء من ذخر يذخر ذخرًا.

قال الكلبى: فلما أبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى قالوا: هذا سحر، ولكن أخبرنا بما نأكل وما ندّخر وكان يخبر الرجل بما أكل من غدائه وبما يأكل فى عشائه.

وقال السدى: كان عيسى (عليه السلام) إذا كان فى الكتّاب يحدّث الغلمان بما يصنع أبوهم، ويقول للغلام انطلق، فقد أكل أهلك كذا وكذا، ورفعوا لك كذا وكذا، وهم يأكلون كذا وكذا. فينطلق الصبى إلى أهله، ويبكى عليهم حتى يعطوه ذلك الشىء فيقولون له من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر، فحبسوهم فى بيت، فجاء عيسى يطلبهم. قالوا: ليسوا عندنا. فقال: فما فى هذا البيت؟ قالوا: خنازير. قال عيسى: كذلك يكونون. ففتحوا عليهم، فإذا هم خنازير، ففجئنا لذلك فى بأس . . . .[1] بنو إسرائيل، فلمّا خافت عليه أمه حملته على حمير لها، وخرجت به هاربة إلى مصر.

وقال قتادة: إنما هذا فى المائدة وكان خوانًا ينزل عليهم إنّما كانوا كالمنّ والسلوى، وأمر القوم أن لا يخونوا لا يخبئوا لغد، وحذّرهم البلاء إن فعلوا ذلك . . . .[1] وخونوا. فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وما ادخروا منه. فمسخهم الله خنازير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرت لكم.

﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطفها على قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾: لما قبلى.

﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾: من اللحوم والشحوم. وقالوا أيضًا: يعنى كل الذى حرّمَ عليهم من الأطبّاء، و(بعض) يكون بمعنى «كل» ويكون كقول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أى كل النفوس.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال آخر:

أبا منـذر أفنيت فاستبق بعضنـا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض

يريد بعض الشر أهون من كله.

وقرأ إبراهيم النخعى: ﴿حُرِمَ﴾ مثل كرّم أى (صار حرامًا).

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: يعنى ما ذكرنا من الآفات، وأما تعدّيها لأنّها جنس واحد فى (الدلالة) على رسالته.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾: . . . .[1].

وقال أبو عبيد: عَرَفَ.

مقاتل: رأى. نظر.

قرأه ضحّاك: هل تحس منهم من أحد. وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ (الأنبياء: ١٢).

﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾: وأرادوا قتله استنصر عليهم وقال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: قال السدى: كان بسبب ذكر أنّ عيسى (عليه السلام) لمّا (بعثه الله) إلى بنى إسرائيل وأمره بالدعوة نفته بنو إسرائيل وأخرجوه، فخرج هو وأمه يسيحون فى الأرض، فنزل فى قرية . . . .[1] وأحسن إليهم، وكان كبير المدينة جبّارًا معتديًا. فجاء ذلك الرجل يومًا مُغتمًا حزينًا، فدخل منزله، ومريم عند امرأته فقالت: ما شأن زوجك أراه كئيبًا؟ قالت: لا تسألينى. قالت: أخبرينى لعلّ الله يفرّج كربته. قالت: إنّ لنا ملكًا (يجعل على كل رجل يومًا يطعمه هو وجنوده ويسقيهم من الخمر). فإن لم يفعل عاقبهُ، واليوم نوبتنا وليس لذلك (عندنا سعة). قالت: فقولى له لا تهتم، فإنّى آمر ابنى فيدعو له، فيكفى ذلك. فقالت مريم لعيسى فى ذلك. فقال عيسى: إنْ فعلت ذلك كان فى ذلك شر، قالت: لا تبال، فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا.

قال عيسى: فقولى له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك، ففعل ذلك. فدعا الله عيسى فحوّل القدر لحمًا ومرقًا وخبزًا وما فى الخوابى خمرًا لم يرَ النّاس مثله قط. فلمّا جاء الملك أكل فلمّا شرب الخمر قال: من أين هذا الخمر؟ قال: من أرض كذا. قال الملك: فإنّ خمرى أوتى بها من هذه الأرض وليست مثل هذه. قال: هى من أرض أُخرى، فاختلط على الملك فشدد عليه. قال: أنا أخبرك، عندى غلام لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاهُ إيّاه. وإنّه دعا الله

(١) بياض بالأصل المخطوط.

تعالى (فجعل الماء خمرًا) وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيّام. وكان أحبّ الخلق إليه. فقال: إنّ رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمراً ليستجابنّ له حتى يُحيى ابنى، فدعا عيسى فكلّمهُ فى ذلك. فقال عيسى: لا تفعل، فإنه إن عاش كان شراً، فقال الملك: لا أُبالى، أليس أراه، فلا أُبالى ما كان.

فقال عيسى: فإن أحييته تتركونى وأُمّى نذهب حيث نشاء. قال: نعم. فدعا الله فعاش الغلام. فلمّا رآه أهل مملكته قد عاش بادروا بالسلاح وقالوا: أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه. فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتتلوا.

وذهب عيسى وأمّه فمرّا بالحواريين وهم يصطادون السمك. فقال عيسى: ما تصنعون؟ قالوا: نصطاد السمك. قال: أفلا (تمشون) حتى نصطاد النّاس؟ قالوا: كيف ذلك. قال: من أنصارى إلى الله؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله. فآمنوا به وانطلقوا معه. فهم الحواريون وذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

قال السدى وابن جريج والكسائى: مع الله، تقول العرب: الذّود إلى الذّود إبل.

وقال النابغة:

فلا تتركونى بالوعيـــد كأننى ... إلى النّاس مطلى به القار أجرب

أى مع الناس.

وقال آخر:

ولوح ذراعين فى بدن ... إلى جؤجؤ رهل المنكب

أى مع جؤجؤ.

نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ (النساء: ٢): أى مع أموالكم.

وقال الحسن وأبو عبيدة: تعنى فى، أى من أعوانى فى الله؟: أى فى ذات الله وسبيله.

وقال طرفة:

وإن ملتقى الحىّ الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الكريم المضمّد

أى فى ذروة.

وقال أبو ذؤيب:

بأرى التى تأرى اليعـاسيب أصبحت ... إلى شاهق دون السماء ذؤابها درجها

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: اختلفوا فيهم:

فقال السدّى : كانوا ملاّحين يصطادون السمك .

وكذلك روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانوا صيّادين سُمّوا حواريين لبياض ثيابهم .

وقال أبو أرطأة : كانوا قصّارين سمّوا بذلك لأنّهم كانوا يحورون الثياب أى يُبيّضونها .

وقال عطاء : سلّمت مريم عيسى إلى أعمال سرى ، وكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قومًا قصارين وصبّاغين ، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه . فاجتمع عنده ثياب ، وعرض له سفر . فقال لعيسى : إنّك قد تعلّمت هذه الحرفة ، وأنا خارج فى سفر إلى عشرة أيّام ، وهذه ثياب مختلفة الألوان ، وقد أعلمت على كل صنف منها بخيط على اللون الذى يصبغ به فيجب أن تكون فارغًا منها وقت قدومى . فخرج وطبخ عيسى (عليه السلام) جُبًّا واحدًا على لون واحد أدخله جميع الثياب . وقال لها : كونى بإذن الله على ما أُريد منك . فقدم الحوارى والثياب كلها فى جُبّ واحد فقال : ما فعلت؟ قال : قد فرغت منها . قال : أين هى؟ قال : فى الجب . قال : كلّها؟ قال : نعم .

قال : كيف تكون كلها أحمر فى جُبّ واحد؟ فقد أفسدت تلك الثياب . قال : قم فانظر . فأخرج عيسى ثوبًا أحمر وثوبًا أصفر وثوبًا أخضر إلى أن أخرجها على الألوان التى أرادها . فجعل الحوارى يتعجب ويعلم أنّ ذلك من الله ، وقال للنّاس : تعالوا وانظروا إلى ما صنع . فآمن به وأصحابه فهم الحواريون .

وروى يوسف الفريابى عن مصعب قال : الحواريون اثنا عشر رجلاً اتّبعوا عيسى ابن مريم ، وكانوا إذا جاعوا قالوا : يا روح الله جعنا ، فيضرب بيده الأرض سهلاً كان أو جبلاً فيُخرج لكل إنسان منهم رغيفين فيأكلوهما ، وإذا عطشوا قالوا : يا روح الله قد عطشنا ، فيضرب بيده إلى الأرض فيخرجون منه ماء فيشربون . قالوا : يا روح الله من أفضل منّا إذا شئنا أطعمنا وإذا شئنا سقينا وآمنّا بك فاتّبعناك؟ قال : أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه . قال : فصاروا يغسلون الثياب بالكراء .

وقال الضحّاك : سُمّوا حواريين لصفاء قلوبهم .

وقال عبد الله بن المبارك : سُمّوا حواريين لأنّهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وحُسنها . قال الله تعالى : ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الفتح : ٢٩) .

وأصل الحور عند العرب شدة البياض . يقال : رجلٌ أحور وامرأة حوراء ، شديد بياض نفلة العينين . ويقال للدقيق الأبيض : الحوارى ، وكل شىء بيضّته فقد حوّرته . ويقال للبيضاء

من النساء حوارية.

قال ابن (حلّزة):

فقل للحواريات يُبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

وقال الفرزدق:

فقلت: إنّ الحواريات تغطية إذا زيّن من تحت الجلابيب

وقال ابن عون: صنع ملك من الملوك طعامًا. فدعا النّاس إليه، وكان عيسى على قصعة، فكانت القصعة لا تنقص. فقال له الملك: من أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم. قال: إنّى آتك ملكى هذا وأتبعك، فانطلق واتبعه ومن معه فهم الحواريون.

وقال الكلبى وأبو روق: الحواريون أصفياء عيسى وكانوا اثنى عشر رجلاً.

الحسن: الحواريون الأنصار والحوارى الناصر.

النضر بن شميل: الحواريون: خاصة الرجل. عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: الحوارى: الوزير.

وعن روح بن القاسم قال: سألت قتادة عن الحواريين فقال: هم الذين تصلح لهم الخلافة.

والحوارى فى كلام العرب الضامن خاصة الرجل الذى يستعين به فيما ينوبه. يدل عليه ما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ نبىّ حوارى وحواريى الزبير بن العوّام».

وروى أبو سفيان بن معمر قال: قال قتادة: إنّ الحواريين كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والعباس، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عروة، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. قال: الحواريون وأسماؤهم فى سورة المائدة.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: أعوان دين الله ورسوله.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾: من كتابك.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ عيسى.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الذين شهدوا لأنبيائك بالصّدق.

قال عطاء: مع النبىّ لأنّ كل نبى شاهد أُمّته . . . .[1] مع محمّد وأُمّته.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَمَكَرُواْ﴾ : يعنى كبار بنى إسرائيل الذين أحسّ عيسى منهم الكفر ودبّروا فى قتل عيسى. والمكر ألطف التدبير. وذلك أنّ عيسى بعد إخراج قومه إيّاه وأُمّه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهمّوا بقتله وتواطئوا على القتل. فذلك مكرهم به.

وقال أهل المعانى: المكر: السعى فى الفساد فى ستر ومداجاة، وأصله من قول العرب: مكر الليل.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ : قال الفرّاء: المكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة، وهو من الله استدراجه العباد. قال الله تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٢) قال ابن عباس: معناه كلّما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة.

قال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمّى باسم الابتداء كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٥)، وقوله: ﴿وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢).

وقال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قال الثعلبى: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله البغدادى يقول: سأل رجل جُنيدًا كيف رضى المكر لنفسه، وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدرى ما يقول ولكن لسيد بنى . . . .[1] الطبرانية:

فديتك قد جعلت على هواكا فنفسى لا تنازعنى سواكا
أحبك لا ببعضى بل بكلى وإن لم يُبق حبك لى حراكا
ويقبح من سواك الفعل عندى وتفعله فيحسن منك ذاكا

فقال الرجل: أسألك عن آية من كتاب الله وتجيبنى بشعر الطبرانية فقال: ويحك قد أجبتك إن كنت تعقل.

إن تخليته إيّاهم مع المكر به. مكر منه بهم، ومكر الله تعالى خاص بهم فى هذه الآية إلقاء الشبه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى حتى قتل وصلب ورفع عيسى إلى السماء.

قال ابن عباس: إنّ ملك بنى إسرائيل أراد قتل عيسى، وقصده أعوانه. فدخل خوخة فيها كوّة، فرفعه جبرائيل من الكوّة إلى السماء. فقال الملك لرجل منهم خبيث: ادخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى فخرج إلى النّاس فخبّرهم أنّه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وظنّوا أنّه عيسى.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال وهب: طرقوا عيسى فى بعض الليل فأسروه ونصبوا خشبة ليصلبوه؛ فلمّا أرادوا صلبه أظلمت الأرض وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبينه وصلبوا مكانه رجلاً يقال له يهودا وهو الذى دلّهم عليه. وذلك أنّ عيسى جمع الحواريين تلك الليلة وأوصاهم، ثم قال: ليكفرنّ أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة. فخرجوا وتفرّقوا، وكانت اليهود تطلبه. فأتى أحد الحواريين إلى الجنود فقال لهم: ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له مائتى درهم فأخذها ودلّهم عليه فألقى الله عليه شبه عيسى لمّا دخل البيت. فرُفع عيسى، وأُخذ الذى دلّهم عليه فقال: أنا الذى دللتكم عليه، فلم يلتفتوا إلى قوله وقتلوه وصلبوه، وهم يظنّون أنّه عيسى. فلمّا صُلب شبه عيسى جاءت أُم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأ لها ابنة من الجنون. تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى فقال لهما: علام تبكيان؟ فقالتا: عليك. فقال: إنّ الله قد رفعنى ولم يصبنى إلاّ خير وإنّ هذا الصبى شُبّه لهم. فلما كان بعد سبعة أيّام. قال الله عز وجل لعيسى: اهبط على مريم فى المحراب موضع لأمّه فى خبائها فإنّها لم يبك عليك أحد بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها.

ثم لتجمع لك الحواريين حيث هم فى الأرض. دعاه الله تعالى فأهبط الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نوراً فجمعت له الحواريين حيث هم فى الأرض دعاه الله تعالى ثم رفعه إليه وتلك الليلة هى الليلة التى يدخن فيها النّصارى، فلمّا أصبح الحواريون حدّث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ أى أفضل المعاقبين. قال أهل التواريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ودارت بعيسى بيت اللحم من أرض أورشليم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل. ولإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الكلدانيين وأوحى الله عز وجل لأُمّه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاثين سنة وكانت نبوّته ثلاث سنين، وعاشت أُمّه مريم بعد رفعه ستّ سنين.

❖ ❖ ❖

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ اختلفوا فى معنى التوفّى ههنا:

فقال كعب والحسن والكلبى ومطر الوراق ومحمد بن جعفر بن الزبير وابن جريج وابن زيد: معناه: إنّى قابضك.

﴿وَرَافِعُكَ﴾ : من الدّنيا.

﴿إِلَىَّ﴾ : من غير موت، يدلّ عليه قوله ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ (المائدة:١١٧) أى قبضتنى إلى السماء وأنا حىّ؛ لأن قومه إنّما تنصّروا بعد رفعه لا بعد موته. وعلى هذا القول للتوفّى تأويلان:

أحدهما: إنّى رافعك إلىّ وافيًا لن ينالوا منك. من قولهم: توفّيت كذا واستوفيته أى أخذته تامًا.

والآخر: إنّى مسلّمك، من قولهم: توفيت منه كذا أى سلّمته. وقال الربيع بن أنس: معناه أنّى منيمك ورافعك إلىّ من قومك، يدل عليه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ (الأنعام:٦٠): أى ينيمكم؛ لأنّ النوم أخو الموت، وقوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ (الزمر:٤٢).

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: إنّى مميتكم، يدلّ عليه: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ (السجدة:١١)، وقوله ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ (يونس:٤٦) وله على هذا القول تأويلان:

أحدهما: ما قال وهب: توفّى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ورفعهُ.

والآخر: ما قاله الضحّاك وجماعة من أهل المعانى: إنّ فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا، معناه أنى

رافعك إلىّ.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ : ومتوفّيك بعد إنزالك من السماء كقوله عز وجل : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (طه : ١٢٩).

وقال الشاعر :

ألا يا نخلةً من ذات عرق عليك ورحمةُ اللهِ السّلام

أى عليك السلام ورحمة الله.

وقال آخر :

جمعت وعيبًا نخوة ونميمـــة ثلاث خصال لسن من ترعوى

أى جمعت نخوة ونميمة وعيبًا.

وروى أبو هريرة عن النبىّ ﷺ قال : «الأنبياء إخوة لعلاّت شتّى ودينهم واحد، وأنا أولى النّاس بعيسى ابن مريم؛ لأنّه لم يكن بينى وبينه نبى، وإنّه عامل على أُمّتى وخليفتى عليهم، إذا رأيتموه فاعرفوه فإنّه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن شعره ممطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصّرتين يدقّ الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال، وليسلكنّ الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو كلتيهما جميعًا، ويقاتل النّاس على الإسلام حتى يهلك الله فى زمانه الملك كلها ويهلك الله فى زمانه مسيح الضلالة الكذّاب الدجّال، ويقع فى الأرض الأمنة حتى يرتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الأغنام، ويلعب الصبيان بالحيّات لا يضرّ بعضهم بعضًا، ويلبث فى الأرض أربعين سنة».

وفى رواية كعب : «أربعًا وعشرين سنة، ثم يتزوج ويولد، ثم يتوفى ويصلى المسلمون عليه ويدفنونه فى حجرة النبىّ ﷺ».

وقيل للحسن بن الفضل : هل تجد نزول عيسى (عليه السلام) فى القرآن. فقال : نعم. قوله : ﴿وَكَهْلًا﴾ ، وهو لم يكتهل فى الدنيا، وإنّما معناه ﴿وَكَهْلًا﴾ بعد نزوله من السماء.

وعن محمد بن إبراهيم أنّ أمير المؤمنين أبا جعفر حدّثه عن الآية عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «كيف تهلك أمّة أنا فى أوّلها وعيسى فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى أوسطها».

وقال أبو بكر محمد بن موسى الواسطى : معناه أنّى متوفّيك عن شهواتك وحظوظ نفسك، ولقد أحسن فيما قال لأنّ عيسى لمّا رُفع إلى السّماء صار حاله كحال الملائكة.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: قال البشالي والشيباني: كان عيسى على . . . .[1] فهبّت ريح فهرول عيسى (عليه السلام) فرفعه الله عز وجل فى هرولته، وعليه مدرعة من الشعر.

قال ابن عباس: ما لبس موسى إلا الصوف وما لبس عيسى إلا الشعر حتى رفع.

وقال ابن عمر: رأينا النبى ﷺ يتبسم فى الطواف فقيل له فى ذلك. فقال: استقبلنى عيسى فى الطواف ومعه ملكان.

وقيل: معناه رافعك بالدرجة فى الجنّة ومقرّبك إلى الأكرام ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أى مخرجك من بينهم ومُنجيك منهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: قتادة والربيع والشعبى ومقاتل والكلبى: هم أهل الإسلام الذين اتّبعوا دينه وسنّته من أُمّة محمّد؛ فوالله ما اتّبعه من دعاه ربًا ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: ظاهرين مجاهرين بالعزة والمنعة والدليل والحجة.

الضحّاك ومحمد بن أبان: يعنى الحواريّين فوق الذين كفروا، وقيل: هم الرّوم.

وقال ابن زيد: وجاعل النّصارى فوق اليهود. فليس بلد فيه أحد من النّصارى إلا وهم فوق اليهود، واليهود مستذلّون مقهورون، وعلى هذين القولين يكون معنى الاتّباع الادّعاء والمحبة لا اتّباع الدّين والملّة.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فى الآخرة.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: من الدين وأمر عيسى (عليه السلام).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾: بالقتل والسّبى والذّلّة والجزية.

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: بالنار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: قرأ الحسن وحفص ويونس: بالياء، والباقون بالنون.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أى هذا الذى ذكرته.

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

قال النبى ﷺ: هو القرآن. وقيل: هو اللوح المحفوظ، وهو معلّق بالعرش فى درّة بيضاء، والحكيم: هو الحكم من الباطل.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال مقاتل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الآية: وذلك أنّ وفد نجران قالوا: يا رسول الله ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنّه عبد؟ قال: أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول. فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله؟ فأنزل الله عز وجلّ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فى كونه خلقًا من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ فى كونه خلقًا من غير أب ولا أم ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾: تم الكلام.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ﴾: يعنى لعيسى.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾: يعنى فكان.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾:

قال الفرّاء: رفع لخبر ابتداء مضمر يعنى هو الحق أى هذا الحق. وقال أبو عبيدة: هو استئناف بعد انقضاء الكلام وخبره فى قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقيل بإضمار فعل أى حال الحق، وإن شئت رفعته بالضمّة ونويت تقديمًا وتأخيرًا تقديره من ربّك الحق كقولهم: منك يدك، وإن كان مثلاً.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب للنبى ﷺ والمراد أُمّته لأنّه لم يكن ينهاه فى أمر عيسى.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾: خاصمك وجادلك بأمر يا محمد. ﴿فِيهِ﴾: فى عيسى.أ

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: بأنه عبد الله ورسوله.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾: قرأ الحسن وأبو واقد الليثى وأبو السمّاك العدوى: ﴿تَعَالَوْا۟﴾ بضم اللام، وقرأ الباقون بفتحها والأصل فيه تعاليوا لأنّه تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضّمة على الياء فسكنت ثم حذفت وبقيت . . . . (١) ضم فإنّه نقل حركة الياء المحذوفة التى هى لام الفعل إلى اللام.

قال الفرّاء: معنى تعال كأنّه يقول ارتفع.

﴿نَدْعُ﴾: جزم لجواب الأمر وعلامة الجزم فيه سقوط الواو.

﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾: وقيل: أراد نفوسهم، وقيل: أراد الأزواج.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: نتضرّع فى الدعاء. قاله ابن عباس.

مقاتل: نخلص فى الدعاء.

الكلبى: نجهد ونبالغ فى الدّعاء. الكسائى وأبو عبيدة: نلتعن بقول: لعن الله الكاذب منّا، يقال: عليه بهلة الله، وبهلته: أى لعنته.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال لبيد: فى قدوم سادة من قولهم نظر الدهر إليه فابتهل.

﴿فَنَجْعَل﴾: عطف على قوله: نبتهل.

﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ﴾: مصدر. ﴿عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾: منّا ومنكم فى أمر عيسى، فلمّا قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر فى أمرنا ثمّ نأتيك غداً. فخلا بعضهم ببعض، فقالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله يا معشر النّصارى لقد عرفتم أنّ محمداً نبىٌّ مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما لاعن قوم نبيًا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن نعلم ذلك لنهلكنّ. فإن رأيتم إلاّ البقاء لدينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرّجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا رسول الله محتضنًا الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى (رضى الله عنه) خلفها وهو يقول لهم: إذا أنا دعوت فأَمّنوا.

فقال أسقف نجران: يا معشر النّصارى إنّى لأرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة. فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونثبت على ديننا. فقال رسول الله ﷺ فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكُن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم. فأبوا. فقال: فإنّى أُنابذكم بالحرب، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ولكنّا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تُخيفنا ولا تردّنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى سكّة ألفًا فى صفر وألفًا فى رجب. فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك. وقال: والذى نفسى بيده إنّ العذاب قد نزل فى أهل نجران ولو تلاعنوا لُمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتّى الطير على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ إلى ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا عن الإيمان.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الذين يعبدون غير الله ويدعون النّاس إلى عبادة غيره.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية.

قال المفسرون: قدم وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا فى إبراهيم فأتاهم النبى ﷺ فقالوا: يا محمد إنّا اختلفنا فى إبراهيم ودينه فزعمت النصارى أنّه كان نصرانيًا وهم على دينه وأولى النّاس به. وقالت اليهود: بل كان يهوديًا وأنهم على دينه وأولى النّاس به. فقال

لهم رسول الله ﷺ: كلا الفريقين برىء من إبراهيم ودينه بل كان إبراهيم حنيفًا وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام. فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتّخذك ربًا كما اتخذت النصارى عيسى ربًا. وقالت النصارى: والله يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود فى عزير.

فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ عدل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وكذلك كان يقولها ابن مسعود قال: دعا فلان إلى السّواء أى إلى النصف، وسواء كل شىء وسطه. قال الله ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٥٥)، وإنّما قيل للنصف سواء لأن أعدل الأمور وأفضلها أوسطها. وسواء: نعت للكلمة إلا أنّه مصدر والمصادر لا تثنّى ولا تجمع ولا تؤنث. فإذا فتحت السين مدّت، وإذا كسرت أو ضُمّت قصرت. كقوله عز وجّل: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ (طه: ٥٨): أى مستوٍ به ثم فسّر الكلمة فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: محل (أن) رفع على إضمار هى.

قال الزجاج: محلّه رفع (بمعنى أنه لا نعبد)، وقيل: محله نصب بنزع حرف الصفة معناه: بأن لا نعبد إلا الله.

وقيل: محله خفض بدلاً من الكلمة أى تعالوا أن لا نعبد إلاّ الله.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: كما فعلت اليهود والنصارى. قال الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١). قال عكرمة: هو سجود بعضهم لبعض.

وقيل معناه: لا تطع فى المعاصى أحدًا، وفى الخبر: من أطاع مخلوقًا فى معصية الله فكأنّما سجد سجدة لغيره.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ﴾: أنتم لهم ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: مخلصون بالتوحيد، وكتب رسول الله ﷺ هذه الآية إلى قيصر وملوك الروم، «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم... سلام على من اتبع الهدى.

«أمّا بعد... فإنّى أدعوك إلى الإسلام أسلم تسلم. أسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فلن تملكوا إلا أربع سنين، فإن توليت فعليك إثم الإريسيين، يا أهل الكتاب ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية».

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ
لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ
وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى
اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ : وتزعمون أنه كان على دينكم اليهودية والنصرانية، وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل.

﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾ : بعد مهلك إبراهيم بزمان طويل، وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ : بعرض حجّتكم وبطلان قولكم.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ : قرأه أهل المدينة بغير همز ولا مدّ إلا بقدر خروج الألف الساكنة، وقرأ أهل مكّة مهموزًا مقصورًا على وزن هعنتم، وقرأ أهل الكوفة بالمدّ والهمز، وقرأ الباقون بالمدّ دون الهمز.

واختلفوا فى أصله فقال بعضهم: أصله أنتم والهاء تنبيهًا. وقال الأخفش: أصله أأنتم فقلبت الهمزة الأولى هاء كقولهم: هرقت وأرقت.

﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ : مبنى على الكسر، وأصله أولاء فدخلت عليه هاء التنبيه، وفيه لغتان: القصر والمد، ومن العرب من يعضها.

أنشد أبو حازم:

لعمرك أنا والأحاليف هؤلاء لفى محنــة أطفالها لم تفطم

وهؤلاء ههنا فى موضع النداء يعنى يا هؤلاء.

﴿حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ : يعنى فى أمر محمد، لأنهم كانوا يعلمونه مما يجدون من نعته فى كتابهم فحاجّوا به بالباطل.

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ : من حديث إبراهيم فليس فى كتابكم أنّه كان يهوديًا أو نصرانيًا.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ : نزّه إبراهيم (عليه السلام) وبرّأه من ادعائهم فقال:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا﴾ : فالحنيف الذّى يوحّد ويحج ويُضحّى ويختن ويستقبل القبلة وهو أسهل الأديان وأحبّها إلى الله وأهله أكرم الخلق على الله.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ :

قال ابن عباس: قال رؤساء اليهود: والله يا محمد لقد علمت أنّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك، وأنّه كان يهوديًا وما بك إلاّ الحسد لنا، فأنزل الله هذه الآية.

روى محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف عن أصحاب رسول الله ﷺ ويونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رفعه. دخل حديث بعضهم فى بعض. قالوا: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش فى دار الندوة، وقالوا: إنّ لنا فى الذين عند النجاشى من أصحاب محمد ثأرًا بمن قتل منكم ببدر. فاجمعوا مالاً وأهدوه إلى النجاشى لعلّهُ يدفع إليكم من عنده من قومكم، ولينتدب لذلك رجلان من ذوى آرائكم.

فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبى معيط بالهدايا، الأدم وغيره. فركبا البحر وأتيا الحبشة؛ فلمّا دخلا على النجاشى سجدا له، وسلمّا عليه وقالا له: إنّ قومنا لك ناصحون شاكرون ولصلاحك محبّون، وإنّهم بعثونا إليك؛ لنحذّرك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك لأنّهم قوم رجل كذّاب خرج فينا فزعم أنّه رسول الله، ولم يبايعه أحد منّا إلا السفهاء وإنّا كنّا قد ضيّقنا عليهم الأمر. وألجأناهم إلى شعب أرضنا لا يدخل إليهم أحد. ولا يخرج منهم أحد. قد قتلهم الجوع والعطش. فلما اشتد عليه الأمر. بعث إليك ابن عم له ليفسد عليك دينك وملكك ورعيّتك فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم. قالوا: وآية ذلك أنّهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التى يحييك بها النّاس رغبة عن دينك وسنّتك.

قال: فدعاهم النّجاشى فلمّا حضروا صاح جعفر بالباب: يستأذن عليك حزب الله. فقال

النّجاشى : مروا هذا الصائح فليعد كلامه . ففعل جعفر . فقال النجاشى : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمّته . فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه . فقال : ألا تسمع كيف يدخلون بحزب الله وما أجابهم النجاشى . فساءهما ذلك ، ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له .

فقال عمرو : ألا ترى أنّهم يستكبرون أن يسجدوا لك . فقال لهم النّجاشى : ما منعكم ألاّ تسجدوا لى وتحيونى بالتحيّة التى يُحيّينى بها من أتى من الآفاق . قالوا : نسجد لله الذى خلقك وملكك - قال - وإنما كان للملك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان . فبعث الله فينا نبيًا صادقًا ، وأمرنا بالتحية التى رضيها الله لنا . وهو السلام تحية أهل الجنّة . فعرف النّجاشى أن ذلك حق فيما جاء فى التوراة والإنجيل . قال : أيّكم الهاتف : يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر : أنا . قال : تكلّم . قال : إنّك ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم ، وأنا أُحبّ أن أُجيب عن أصحابى فمر هذين الرّجلين أن يتكلّم أحدُهما وينصت الآخر . فتسمع محاورتنا . فقال عمرو لجعفر : تكلّم .

فقال جعفر للنجاشى : سل هذين الرجلين . أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنّا عبيدًا أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم . فقال النجاشى : أعبيد هم يا عمرو أم أحرار؟ قال : لا ، بل أحرار كرام . فقال النجاشى : نجّوا من العبودية ، ثم قال جعفر : سلهما هل أهرقنا دمًا بغير حق فاقتصّ منّا؟ فقال عمرو : لا ولا قطرة . فقال جعفر : سلهما هل أخذنا أموال النّاس بغير حق فعلينا إيفاؤها؟ .

فقال النّجاشى : قل يا عمرو . وإن كان قنطارًا . فعلىّ قضاؤه قال : لا ولا قيراط . قال النّجاشى : فما تطلبون منهم؟ قال عمرو : كنّا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا ، وتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره . ولزمناه نحن فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا .

فقال النجاشى : ما هذا الدين الذى كنتم عليه والدين الذى اتبعتموه؟ قال جعفر : أمّا الدين الذى كنّا عليه فتركناه فهو دين الشيطان وأمره . كنّا نكفر بالله ونعبد الحجارة . وأما الذى تحولنا إليه فدين الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقًا له . فقال النجاشى : يا جعفر تكلّمت بأمر عظيم فعلى رسلك . فأمر النجاشى فضرب بالناقوس . فاجتمع إليه كل قسّيس وراهب . فلمّا اجتمعوا عنده قال النّجاشى : أُنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل على عيسى . هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيًا مرسلاً؟ فقالوا : اللهم نعم . قد بشرنا به عيسى (عليه السلام) فقال : من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر بى . فقال النجاشى لجعفر : هيه : أى هات ماذا يقول لكم هذا الرّجل؟ وما يأمركم به؟ وما ينهاكم عنه؟

فقالوا: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأمر بحسن الجوار، وصلة الرحم، ويأمر للوالدين واليتيم، ويأمر بأن نعبد الله وحده لا شريك له. فقال: اقرأ علىّ شيئًا ممّا يقرأ عليكم. فقرأ عليهم سورة العنكبوت والرّوم. فغاضت أعين النّجاشى وأصحابه من الدمع. وقالوا: يا جعفر زدنا من هذا الحديث الطّيب. فقرأ عليهم سورة الكهف. فأراد عمرو أن يغضب النّجاشى. فقال: إنّهم يشتمون عيسى وأُمّه. فقال النّجاشى: ما تقولون فى هذا؟ فقرأ جعفر عليهم سورة مريم فلمّا أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النّجاشى نفسه من سواكه قدر ما يقذى العين وقال: ما زاد المسيح على ما يقولون.

ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى يقول آمنون مَنْ سبّكم أو آذاكم غرّم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم (عليه السلام) قال عمرو للنّجاشى: ومن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرّهط وصاحبهم الذّى جاءوا من عنده ومن اتبعه، ولكنكم أنتم المشركون.

ثم ردّ النّجاشى على عمرو وأصحابه المال الذى حملوه، وقال: إنّما هديّتكم رشوة إلىّ. فاقبضوها، ولكنّ الله ملّكنى ولم يأخذ منى رشوة. قال جعفر: فانصرفنا فكنّا فى خير دار، وأكرم بلد وأنزل الله ذلك اليوم فى خصومتهم على رسوله وهو فى المدينة. ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾: على مثله.

﴿وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾: يعنى محمداً ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

روى مسروق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ نبى ولاء من النبيين وإنّ وليّى منهم أبى وخليل ربّى ثم قرأ الآية ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾...».

﴿وَدَّت﴾: تمنت.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ..﴾ الآية: نزلت فى معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم، قد مضت هذه القصة فى سورة البقرة.

﴿وَدَّت﴾: تمنت. ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جماعة من أهل الكتاب يعنى اليهود.

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾: يزلّونكم عن دينكم ويردّونكم إلى الكفر. وقال ابن جرير: يهلكونكم كقول الأخطل يهجو جرير بن عطية:

كنت القذى فى موج أكدر مزبد ... قذف الآتى به فضلّ ضلالاً

أى هلك هلاكًا.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ : يعنى اليهود والنّصارى. ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ : يعنى القرآن وبيان نعت محمد ﷺ.

﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ : أنّ نعته مذكور فى التوراة والإنجيل.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ﴾ : تخلطون ﴿ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ : الإسلام باليهوديّة والنصرانيّة.

وقال ابن زيد: التوراة التى أنزل الله على موسى بالباطل الذى غيّرتموه، وحرّفتموه، وضيّعتموه، وكتبتموه بأيديكم.

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ : أنّ محمداً رسول الله ودينه حقّ.

وقرأ أبو مجلز: تلبّسون بالتشديد. وقرأ حسن بن عمير: تلبسوا وتكتموا بغير نون ولا وجه له.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ : الآية.

قال الحسن والسّدى: تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقرى عربية، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا آخر النهار وقولوا: إنّا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه؛ فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه فى دينهم، وقالوا: إنّهم أهل الكتاب وهم أعلم به منّا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، وقالوا: إنّهم أهل.

وقال مجاهد ومقاتل والكلبى: هذا فى تبيان القبلة لما صُرفت إلى الكعبة. فشقّ ذلك على اليهود لمخالفتهم. فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذى أُنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلّوا إليها أول النّهار ثمّ اكفروا آخر النّهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصّخرة لعلّهم يقولون أهل الكتاب هم أعلم منّا فيرجعون إلى قبلتنا، فحذّر الله نبيّه مكر هؤلاء وأطلعه على سرّهم. فأنزل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ : أوّله وسمى الوجه وجهًا لأنّه أحسنه، وأول ما يواجه به الناظر فيرى، ويقال لأول الشيب وجهه.

قال الربيع بن زياد:

من كان مسروراً بمقتل مالك   فليأت نسوتنا بوجه نهار

﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ﴾ : يشكّون. ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ : عن دينهم. ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ : ولا تصدقوا.

﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ : هذا من كلام اليهود أيضًا بعضهم لبعض ولا تؤمنوا ولا تصدّقوا إلا

من تبع دينكم أى وافق ملّتكم وصلّى إلى قبلتكم واللام فى قوله ﴿لِمَن﴾: صلة. يعنى ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم اليهوديّة كقول الله تعالى ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (النمل: ٧٢).

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ الآية: اختلف القرّاء والعلماء فيه، فقرأت العامّة: أن يؤتى بالفتح من الألف وقصرها ووجه هذه القراءة أنّ هذا الكلام معترض بين كلامين وهو خبر عن الله تعالى أنّ البيان وما يدلّ قوله.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ متصل بالكلام الأوّل إخباراً عن قول اليهود بعضهم لبعض، ومعنى الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من العلم والحكمة والحجّة فى المنّ والسلوى، وفلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات. ولا تؤمنوا أن يُحاجّوكم عند ربّكم لأنّكم أصحّ ديناً منه، وهذا معنى قول مجاهد والأخفش.

وقال ابن جريج وابن زيّات: قالت اليهود لسفلتهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وأىّ فضل يكون لكم عليهم حيث علموا ما علمتم وحينئذ ﴿يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: يقولون عرفتم أنّ ديننا حقّ فلا تصدّقوهم لئلاّ يعلموا مثل ما علّمتم ولا يُحاجّوكم عند ربكم، ويجوز أن يكون على هذا القول لا مضمراً كقوله تعالى ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ (النساء: ١٧٦) يكون تقديره ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم لئلاّ يؤتى أحد من العلم مثل ما أوتيتم وألا يحاجّوكم عند ربكم.

وقرأ الحسن والأعمش: إن يؤتى بكسر الألف ووجه هذه القراءة أنّ هذا كلّه من قول الله بلا اعتراض وأن يكون كلام اليهود تاماً عند قوله ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ومعنى الآية: قل يا محمد إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أُمّة محمد أو يحاجوكم، يعنى إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أى عند فضل ربّكم لكم ذلك ويكون (أنّ) على هذا القول بمعنى الجحد والنفى.

وهذا معنى قول سعيد بن جبير والحسن وأبى مالك ومقاتل والكلبى. وقال الفرّاء: ويجوز أن يكون (أو) بمعنى حتّى كما يقال: تعلّق به أو يعطيك حقّك أى حتى يعطيك حقّك.

وقال امرؤ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنّما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

أى حتى نموت.

والمعنى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ما أعطى أحداً مثل ما أُعطيتم يا أُمة محمد من الدّين

والحجّة حتّى يحاجّوكم عند ربّكم.

وقرأ ابن كثير: أن يؤتى بالمدّ وحينئذ يكون فى الكلام اختيار تقديرها: أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة تحسدونهم ولا تؤمنون بهم وهذا قول قتادة والربيع.

وإلاّ هذا من قول الله عز وجّل: قل لهم يا محمد: إنّ الهدى هدى الله لما أنزل كتابًا مثل كتابكم وبعث نبيًا مثل نبيّكم حسدتموه وكفرتم به.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال أبو حاتم: إنّ معناه الآن فحذف لام الجزاء استخفافًا وأُبدلت مدّه كقراءة من قرأ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ (القلم: ١٤) أى الآن كان.

وقوله: أو يحاجّوكم على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين ويكون أو بمعنى أن لأنّهما حرفا شك وجزاء ويوضع أحدهما موضع الآخر وتقدير الآية: وإن يحاجّوكم يا معشر المؤمنين عند ربّكم فقل يا محمد: إنّ الهدى هدى الله ونحن عليه.

ويحتمل أن يكون الجميع خطابًا للمؤمنين ويكون نظم الآية: أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر المؤمنين، فقل إنّ الفضل بيد الله.

وإن حاجّوكم فقل إنّ الهدى هدى الله.

فهذه وجوه الآيات باختلاف القرآن. ويحتمل أن يكون تمام الخبر عن اليهود عند قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيكون قوله ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلى آخر الآية من كلام الله عزّ وجّل. وذلك أنّ الله تعالى مثبّتٌ لقلوب المؤمنين ومشحذٌ لبصائرهم لئلاّ يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم فى دينهم أى: ولا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا لمن تبع دينكم ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل، ولا تصدّقوا أن يحاجّوكم فى دينكم عند ربّكم فيقدرون على ذلك فإنّ الهدى هدى الله وإنّ الفضل بيد الله.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فتكون الآية كلّها خطاب الله عز وجّل للمؤمنين عند تلبيس اليهود عليهم لئلاّ يزلّوا ولا يرتابوا والله أعلم. يدل عليه قول الضحّاك قال: إنّ اليهود قالوا: إنّا نحاجّ عند ربنا من خالفنا فى ديننا فبين الله تعالى أنّهم هم المدحضون أى المغلوبون، وأنّ المؤمنين هم الغالبون.

وقال أهل الإشارة فى هذه الآية: لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإنّ من لا يوافقكم لا يرافقكم.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ : بنبوّته ودينه ونعمته.

﴿مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ : وقال أبو حيّان: إجمال القول يبقى مع رجاء الرّاجى وخوف الخائف.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم
بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا
هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ
الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا
رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا
الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ
مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا
أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا
فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ : الآية: قال أكثر المفسّرين: نزلت هذه الآية فى اليهود كلّهم، أخبر الله تعالى أنّ فيهم أمانة وخيانة. والقنطار عبارة عن المال الكثير،

والدينار عبارة عن المال القليل.

فإن قيل: فأىّ فائدة فى هذه الأخبار وقد علمنا أنّ النّاس كلّهم لم يزالوا كذلك منهم الأمين ومنهم الخائن.

قلنا: تحذير من الله تعالى للمؤمنين أن يأتمنوهم على أموالهم أو يغترّوا بهم لاستحلالهم أموال المؤمنين.

وهذا كما روى فى الخبر: أتراعون عن ذكر الفاجر؟ اذكروه بما فيه كى يحذره النّاس.

وقال بعضهم: الأمانة راجعة إلى من أسلم منهم، والخيانة راجعة إلى من لم يسلم منهم.

وقال مقاتل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾: عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفًا ومائتى أوقية من الذّهب فأدّاه إليه فمدحه الله.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾: فى مخاض بن عازورا وذلك أنّ رجلاً من قريش استودعه ديناراً فخانه.

وفى بعض التفاسير: إنّ الذى يؤدّى الأمانة فى هذه الآية هم النصارى، والذين لا يؤدّونها هم اليهود.

وفى قوله: ﴿تَأْمَنْهُ﴾: قراءتان.

قرأ الأشهب العقيلى: تِيمنهُ بكسر التاء وهى لغة بكر وتميم، وفى حرف ابن مسعود ما لك لا تيمنّا.

وقراءة العامّة تأمنه بالألف. والدينار أصله دنّار فعوّض من إحدى النّونين ياء طلبًا للخفّة لكثرة استعماله، يدلّ عليه أنّك تجمعه دنانير.

وفى قوله ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ وأخواته خمس قراءات.

فقرأها كلّها أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمزة: ساكنة الهاء.

وقرأ أبو جعفر ويعقوب: مختلسة مكسورة. وقرأ سلام: مضمومة مختلسة. وقرأ الزهرى: مضمومة مشبعة.

وقرأ الآخرون: مكسورة مشبعة فمن سكّن الهاء فإنّ كثيراً من النحاة خطّئوه، لأن الجزم ليس فى الهاء إذا تحرك ما قبلها والهاء اسم المكنّى والأسماء لا تجزم.

قال الفرّاء: هذا مذهب بعض العرب يجزمون الهاء إذا تحرّك ما قبلها فيقول: ضربته ضربًا شديدًا، كما يسكّنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع.

وأنشد:

لـمّا رأى أن لا دعه ولا شبع مال إلى أرطأة حقف فاضطجع

وقال بعضهم: إنّما جاز إسكان الهاء فى هذه المـواضع لأنّها وضعت فى موضع الجزم وهو الياء الذاهب، ومن اختلس فإنه اكتفى بالضمّة عن الواو وبالكسر عن الياء وأنشد الفرّاء:

أنا ابن كـــــلاب وابن أوس فمن يكن قناعه مغطيًّا فإنّى لمجتلى

وأنشد سيبويه:

فإن يكن غثًّا أو سمينًا فإنّه سيجعل عينيه لنفسه مغمضًا

ومن أشبع الـهاء فعـلى الأصل لـما كان الحرف ضعيفًا قوى بـالواو فـى الضـم وبـاليـاء فى الكسر.

قال سيبويه: يجىء بعد هاء المذكر واو كما يجىء بعد هاء المؤنّث ألف. ومن ضمّ الهاء فعلى الأصل؛ لأنّ أصل الهاء الضمّة مثل هو، وهُما وهُم، ومن كسر فقال؛ لأنّ قبله ياء وإن كان محذوفًا فلأنّ ما قبلها مكسور.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: قرأ يحيى وثابت والأعمش وطلحة بكسر الدّال، والباقون بالضّم.

من ضمّ فهو من دام. يدوم، ومن لغة العالية. ومن كسر فله وجهان، قال بعضهم: هو أيضًا من دام يدوم إلا أنّه على وزن فعل. يفعل، يقول دمت تدوم مثل مت. تموت، قاله الأخفش. وليس فى الأفعال الثلاثيّة فعل ـ يفعلُ بكسر العين فى الماضى وضمّها فى الغابر من الصحيح الآخر فإنّ فضِل ـ يفضُل، ونعِم ـ ينعُم، ومن المعتلّ مِتُّ ـ أموتُ ودمتُ ـ أدوم وهما لغة تميم.

قال أكثر العلماء: من دام ـ يدام ـ فعل ـ يفعل مثل خاف ـ يخاف، وهاب يهاب.

﴿قَآئِمًا﴾: قال ابن عبّاس: مُلحًا.

مجاهد: مواظبًا. سعيد بن جبير: مرابطًا. قتادة: قائمًا تقتضيه. السّدى: قائمًا على رأسه.

العتيبى: مواظبًا بالاقتضاء وأصله أنّ المطالب للشىء يقوم فيه والتّارك له يقعد عنه، ودلالة قوله: أُمّة قائمة أى: عاملة بأمر الله غير تاركة.

أبو روق: يعترف بما دفعت إليه ما دمت قائمًا على رأسه، فإن سألته إياه فى الوقت حينما تدفعه إليه يردّه عليك وإن أنظرته وأخّرته أنكر وذهب به وذلك الاستحلال والخيانة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾: أى فى حال العرب. نظيره ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى

ﵟٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡﵞ (الجمعة: ٢).

ﵟسَبِيلٞﵞ: إثم وحرج. دليله قوله: ﵟمَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚﵞ (التوبة: ٩١) وذلك أنّ اليهود قالوا لا حرج علينا فى حبس أموال العرب قد أحلّها الله لنا؛ لأنّهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلّون ظلم من خالفهم فى دينهم يقولون لم يجعل الله لهم فى كتابنا حرمة.

الكلبى: قالت اليهود إنّ الأموال كلّها كانت لنا فما كانت فى أيدى العرب منها فهو لنا وإنّما ظلمونا وغصبونا ظلمًا فلا سبيل علينا فى أخذنا إيّاه منهم.

الحسن وابن جريج ومقاتل: بايع اليهود رجالاً من المسلمين فى الجاهلية فلمّا أسلموا تقاضوهم بقيمة أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حقّ ولا عندنا قضاء لكم تركتم الدّين الذى كنتم عليه وانقطع العهد بيننا وبينكم، وادّعوا أنّهم وجدوا ذلك فى كتابهم فكذّبهم الله تعالى فقال: ﵟوَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَﵞ.

وفى الحديث: لما نزلت الآية قال النبى ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى إلا الأمانة فإنّها موفاة إلى البرّ والفاجر».

وروى أبو إسحاق الهمدانى عن صعصعة: أنّ رجلاً سأل ابن عباس فقال: إنّا نصيب فى الغزو من أموال أهل المدينة الدّجاجة أو الشاة قال ابن عبّاس: ويقولون ماذا؛ قال: يقولون: ليس علينا بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﵟلَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞﵞأنهم إذا أدّوا الجزية لم يحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم ثمّ قال الله تعالى ردًا عليهم: ﵟبَلَىٰﵞ: أى ليس كما قالوا ولكن ﵟمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦﵞ: الذى عاهد الله فى التوراة من الإيمان بمحمّد والقرآن وأداء الأمانة.

والهاء فى قوله ﵟبِعَهۡدِهِۦﵞراجعة إلى الله عزّ وجل قد جرى ذكره فى قوله ﵟوَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَﵞ. ويجوز أن تكون عائدة إلى ﵟأَوۡفَىٰﵞ.

ﵟوَٱتَّقَىٰﵞ: من الكفر والخيانة ونقض العهد.

ﵟفَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَﵞ: من هذه صفته.

وعن الحسن: قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من كنّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنّه مؤمن، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان».

وعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من ائتمن على أمانة فأدّاها ولو شاء لم يؤدّها زوجه الله من الحور العين ما شاء».

الحسن عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: «التّاجر الصّدوق الأمين مع النبيين

والصدّيقين والشهداء».

وهب عن حذيفة قال: حدّثنى رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدّثنا: «أنّ الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ونزل القرآن فتعلّموا من القرآن وتعلّموا من أصل السّنة».

ثم حدّثنا عن رفعهما فقال: «ينام الرّجل النومة فينزع الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فتراه منتثراً وليس فيه شىء». ثم أخذ حذيفة حصاة فدحرجها على ساقه قال: فيصبح النّاس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتّى يقال له: فلان رجلاً أمينًا، وحتّى يقال للرّجل: ما أجلده، ما أعقله، وأظرفه وما فى قلبه مثقال حبّة خردل من إيمان. ولقد أتى علىّ حين ولا أبالى أيّكم بايعت لئن كان مسلمًا ليردّن على إسلامه ولئن كان يهوديًا أو نصرانيًا ليردّنّ على ساعيه فأنا اليوم فما كنت لأبايع رجلاً منكم إلاّ فلانًا وفلانًا.

وقيل: أكمل الدّيانة ترك الخيانة، وأعظم الجناية خيانة النّاس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: اختلفوا فى نزول هذه الآية:

فقال عكرمة: نزلت فى أبى رافع وكنانة بن أبى الحقيق وحيى بن أحطب وغيرهم من رؤساء اليهود كتبوا ما عهد الله إليهم فى التوراة فى شأن محمّد ﷺ وبدّلوه وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنّه من عند الله لئلا يفوتهم الرّشى والمآكل التى كانت لهم على أتباعهم.

وقال الكلبى: إنّ ناسًا من علماء اليهود أولى فاقة كانوا ذوى حظ من علم التوراة فأصابهم سنَة. فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه فسألهم كعب: هل تعلمون أنّ هذا الرجل رسول الله فى كتابكم؟ فقالوا: نعم، وما تعلمه أنت؟ قال: لا. قالوا: فإنّا نشهد أنّه عبد الله ورسوله، قال كعب: قد كذبتم علىّ فأنا أريد أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيرًا كثيرًا.

قالوا: فإنّه شبّه لنا. فرويدًا حتى نلقاه. قال: فانطلقوا فكتبوا صفة سوى صفته، ثم أتوا نبى الله ﷺ فكتموه ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: قد كنّا نرى رسول الله فأتيناه، فإذا هو ليس بالنعت الذى نُعت لنا وأخرجوا الّذى كتبوه. ففرح بذلك كعب، ومكرهم فأنزل الله عزّ وجل هذه الآية، نظيرها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (البقرة: ١٧٤) الآية.

وروى منصور بن أبى وائل قال: قال عبد الله: من حلف على عين يستحقّ بها مالاً وهو فيها فاجر لقى الله عزّ وجل وهو عليه غضبان. فأنزل الله تعالى تصديق ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية.

وقال الأشعث بن قيس: فيّ نزلت، وكانت بيني وبين رجل خصومة في بئر فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «شاهداك أو يمينه». فقلت: إنّه إذاً يحلف ولا يبالي. فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على عين يستحق بها مالاً هو فيها فاجر لقي الله تعالى وهو عليه غضبان». فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ...﴾ الآية.

وقال ابن جريج: إنّ الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله ﷺ في أرض كانت في يده لذلك ليعزّره في الجاهلية: فقال رسول الله ﷺ: «أقم بيّنتك؟». قال الرجل: ليس يشهد لي على الأشعث بن قيس أحد. قال: «لك يمينه». فقام الأشعث وقال: أُشهد الله وأُشهدكم أنّ خصمي صادق. فردَّ إليه أرضه وزاده من أرض نفسه زيادة كثيرة مخافة أن يبقى في يده شيء من حقّه فهو لعقب ذلك الرجل من بعده.

وروى باذان عن ابن عباس قال: نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي استعدى عليه عبدان بن أشرع فقضى رسول الله ﷺ بالحلف، فلمّا همّ أن يحلف نزلت هذه الآية. فامتنع امرؤ القيس أن يحلف وأقرّ لعبدان بحقّه ودفعه إليه. فقال رسول الله ﷺ: لك عليها الجنّة.

وقال مجاهد والشعبي: أقام رجل سلعته أوّل النّهار فلمّا كان آخره جاء رجل فساومه فحلف لقد منعها أوّل النّهار من كذا ولولا المساء لما باعها به. فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: أي يستبدلون بعهد الله وإيفاء الأمانة ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ الكاذبة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: ونعيمها وثوابها ولا يكلمهم الله كلامًا ينفعهم ويسرّهم. قاله المفسرون، وقال المفضل: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: بقبول حجّة يحتجّون بها.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: أي لا يرحمهم ولا يعطف عليهم ولا يحسن إليهم ولا يكلمهم خيراً. يُقال: نظر فلان لفلان، ونظر إليه إذا رحمه وأحسن إليه قال الشاعر:

فقلت انظري ما أحسن النّاس كلّهم لبني غلّة صدبان قد شفّهُ الوجد

وعن أبي عمرو الجوني قال: ما نظر الله إلى شيء إلا رحمه؛ ولو قضى أن ينظر إلى (أهل) النّار لرحمهم، ولكن قضى أن لا ينظر إليهم.

روى عبد الله بن كعب عن أبي أمامة الخازني: أنّ رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النّار وحرّم عليه الجنّة»، فقال رجل وإن كان شيئًا يسيراً قال: «وإن كان قضيبًا من أراك».

وروى محمد بن زيد القرشي عن عبد الله بن أبي أمامة الخازني عن عبد الله بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس. والذي

نفسى بيده لا يحلف أحد وإن كان على مثل جناح بعوضة إلا كانت وكنة فى قلبه إلى يوم القيامة».

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ :

رجل على فضل ما بالطريق فمنع ابن السّبيل، ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه ما يريد وفى له وإلاّ لم يف لهُ، ورجل يساوم سلعته بعد العصر. فحلف بالله لقد أعطى بها كذا وكذا فصدّقه الآخر وأخذها.

وروى الحارث الأعور عن على (عليه السلام) قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم واليمين الفاجرة. فإنّها تدع الدّيار بلاقع من أهلها».

وروى معمّر فى رجل من بنى تميم عن أبى الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اليمين الفاجرة تعقم الرحم».

العلاء بن عبد الرّحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب».

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ : يعنى من أهل الكتاب الذين تقدّم ذكرهم وهم اليهود.

﴿لَفَرِيقًا﴾ : طائفة وهم: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصّف، وحيى بن الأحطب، وأبو ياسر وسبعة بن عمرو الشاعر.

﴿يَلْوُونَ﴾ : قرأ أهل المدينة (يلوون) مضمومة الياء مفتوحة اللام مشدّدة الواو على التكثير.

وقرأ حميد: (يلون) بواو واحدة على نية الهمز، ثم ترك الهمزة ونقل حركتها إلى اللام. وقرأ الباقون بواوين ولام ساكنة مخففة ومعناها جميعًا يعطفون ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ : بالتحريف المتعنّت وهو ما غيّروا من صفة محمد ﷺ وآية الرّجم. يقال: لوى لسانه عن كذا أى غيّره، ولوى الشىء عمّا كان عليه إذا غيّره إلى غيره، ولوى فلانًا عن رأيه، إذا أماله عنه، ومنه: لىّ الغريم، قال النابغة الجعدى:

لوى الله علم الغيب عم سواءه ويعلم منه ما مضى وتأخرا

ونظيره قوله: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ...﴾ الآية (النساء: ١٣٥).

﴿بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ﴾ : لتظنّوا ما حرّفوا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ : الذى أنزله الله.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ : أنّهم كاذبون.

وروى جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس: أنّ الآية نزلت فى اليهود والنّصارى جميعًا

والذين هم حرّفوا التوراة والإنجيل، وضربوا كتاب الله بعضه ببعض وألحقوا به ما ليس منه فأسقطوا منه الدين الحنفى، فبين الله تعالى كذبهم للمؤمنين.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآية.

قال الضحّاك ومقاتل: ما كان لبشر يعنى عيسى (عليه السلام) ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يؤتى الحكمة. نزلت فى نصارى أهل نجران.

وقال ابن عباس وعطاء: ما كان لبشر يعنى محمداً ﷺ أن يؤتيه الله الكتاب: يعنى القرآن؛ وذلك أنّ أبا رافع القرظى من اليهود والرئيس من نصارى أهل نجران قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك ربًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى». فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الحسن: بلغنى أنّ رجلاً قال: يا رسول الله نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيّكم واعرفوا الحق لأهله». فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾: يعنى ما ينبغى لبشر، كقوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: ٩٢) وكقوله: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ (النور: ١٦): يعنى ما ينبغى.

وقال أهل المعانى: هذه اللام منقولة وأن بمعنى اللام، وتقدير الآية: ما كان لبشر ليقول ذلك. نظير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ (مريم: ٣٥): أى ما كان الله ليتخذ ولداً وقوله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ (آل عمران: ١٦١) أى ما كان لنبىّ ليغلّ. والبشر جميع بنى آدم لا واحد من لفظه: كالقوم والجيش، ويوضع موضع الواحد والجمع.

﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: يعنى الفهم والعلم، وقيل أيضًا الأحكام عن الله تعالى، نظير قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ (الأنعام: ٨٩).

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾: نصب على العطف، وروى محبوب عن أبى عمرو: ثُمّ يقولُ بالرفع على الاستئناف.

﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: قال ابن عباس: هذه لغة مُزينة تقول للعبيد عباد.

﴿وَلَـٰكِن كُونُواْ﴾: أى ولكن يقول كونوا، فحذف القول.

﴿رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾: اختلفوا فيه: فقال علىّ وابن عباس والحسن والضحّاك: كونوا فقهاء علماء. مجاهد: فقهاء وهم دون الأحبار. أبو رزين وقتادة والسدّى: حكماء علماء، وهى رواية عطية عن ابن عباس. وروى سعيد بن جبير عنه: فقهاء معلّمين.

وقال مرّة بن شرحبيل: كان علقمة من الرّبانيّين الذين يعلّمون النّاس القرآن.

وروى الفضل بن عياض عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير: حكماء أتقياء.

ابن زيد: ولاة النّاس، وقادتهم بعضهم متعبدين مخلصين.

عطاء: علماء حكماء نصباء لله فى خلقه. أبو عبيد: لم يعرف العرب الرّبانيين.

أبو (عبيد): سمعتُ رجلاً عالمًا يقول: الرّباني: العالم بالحلال والحرام والأمر والنهى. العارف بأنباء الأمّة وما كان وما يكون.

المؤرّج: كونوا ربّانيّين تدينون لربكم، كأنّه فعلانى من الربوبية.

وقال بعضهم: كان فى الأصل ربّى، فأدخلت الألف للتضخيم وهو لسان السريانية، ثم أدخلت النون لسكون الألف كما قيل: صنعاني وبحراني وداراني.

المبرّد: الرّبانيون: أرباب العلم واحدها ربّان وهو الذى يرث العلم ويربّب النّاس أى يعلّمهم ويصلحهم فيقوم بأمرهم، والألف والنون للمبالغة. كما قالوا: ريّان وعطشان وشبعان وغوثان ونعسان من النّعاس ووسنان ثم ضُمّ إليه ياء النسبة كما قيل: وقال الشاعر:

لو كنت مرتهنًا فى الحقّ أنزلني   منه الحـديث وربّاني أحبارى

وقد جمع على (رضى الله عنه) هذه الأقاويل أجمع فقال: هو الّذى يُربى علمه بعمله.

وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس: مات ربّاني هذه الأمّة.

﴿بِمَا كُنتُمْ﴾: معناه الوجوب أى: بما أنتم. كقوله ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم:٥): أى وامرأتي، وقوله ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم:٢٩) أى من هو فى المهد صبيًا.

﴿تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: قرأ السلمى والنخعى وابن جبير والضحّاك وأهل الكوفة: تعلّمون بالتشديد من التعليم، واختاره أبو عبيدة، وقرأ الباقون تعلمون بالتخفيف من العلم، واختاره أبو حاتم، وقال أبو عمرو: وتصديقها ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فلم يقل يدرسون وقرأ الحسن تعلّمون، بالتاء والعين وتشديد اللام على معنى تعلمون، وقرأ أبو عبيدة: تدرسون من أدرسَ يدرس. وقرأ سعيد بن جبير: تدرّسون من التدريس. الباقون: يدرسون من الدرس أى يقرأون، نظيره فى سورة الأعراف ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ (الأعراف:١٦٩).

جويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مؤمن ذكر ولا أُنثى حرّ ولا عبد مملوك إلاّ ولله عزّ وجل عليه حقّ واجب أن يتعلّم من القرآن ويتفقّه فيه، ثم تلا هذه الآية﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾».

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: قرأ الحسن وابن أبى إسحاق وعاصم وحمزة: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالنصب عطفًا على قوله﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾.

وقيل: على إضمار أنّ وهو على هذه القراءة مردود على البشر. وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والانقطاع من الكلام الأوّل، يدلّ عليه قراءة عبد الله وطلحة (ولن يأمركم) ثمّ اختلفوا فيه، فقرأ الأكثر على معناه (ولا يأمركم الله). وقال ابن جريج: ولا يأمركم محمد عليه الصّلاة والسّلام، وقيل: ولا يأمركم البشر.

﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾: كقول قريش وبني مليح حيث قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود والنّصارى حيث قالوا في المسيح وعُزير ما قالوا.

﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: على ظهر التعجّب والإنكار، يعني: لا يفعل هذا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾، قرأ سعيد بن جبير (لمّا) بتشديد الميم، وقرأ يحيى بن رئاب والأعمش وحمزة والكسائي بجرّ اللام وتخفيف الميم.

وأما الباقون: بفتح اللام وتخفيف الميم، فمن فتح اللام وخفّف الميم فقال الأخفش: هي لام الابتداء أدخلت على ما الخبر كقول القائل: لزيد أفضل منك، وما آتيتكم والذي بعده صلة له وجوابه في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ فإن شئت جعلت خبر ما. من كتاب الله. وتقول من زائدة معناها: لما آتيتكم كتاب وحكمة، ثم ابتدأ فقال: ﴿ثُمَّ﴾ يعني: ثم يجيئكم، وإن شئت قلت: ثم إن جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم لتؤمنن به.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: اللام لام القسم تقديره: والله لتؤمننّ به. فأكد في أول الكلام بلام التأكيد، وفي آخر الكلام بلام القسم.

وقال الفرّاء: من فتح اللام جعلها لامًا زائدة لقوله: اليمين إذا وقعت على جملة صيّرت فعل ذلك الجزاء على هيئة فعل، وصيّرت جوابه كجواب اليمين، والمعنى: أي كتاب آتيتكم ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به، للاّم في قوله لتؤمننّ به.

وقال المبرّد والزجّاج: هذه لام التحقيق دخلت على ما الجزاء كما تدخل على أن، ومعناه: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به، اللام في قوله لتؤمننّ به جواب الجزاء كقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ (الإسراء:٨٦) ونحوه.

وقال الكسائي: لتؤمننّ: متصل بالكلام الأول وجواب الجزاء في قوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، ومن كسر اللام فهي لام الإضافة دخلت على ما الذي، ومعناه: الذي آتيتكم يعني: أخذ ميثاق النبيين لأجل الذي أمامهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به من بعد الميثاق؛ لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف، وهو كما نقول في الكلام أخذت ميثاقك لتفعلن كذا وكذا كأنك قلت: استحلفتك لتفعلن.

وقال صاحب النظم: من كسر اللام فهو بمعنى بعد يعني: بعدما آتيتكم من كتاب وحكمة، كقول النابغة:

توهّمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

أي: بعد ستة أعوام، ومن شدد الميم فمعناه: حين آتيتكم لقوله تعالى ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾.

قرأ أهل الكوفة: آتيناكم على التعظيم، وقرأ الآخرون: آتيتكم على التفريد، وهو الاختيار لموافقة الخط كقوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾ والقول مثمر فى الآية على الأوجه الثلاثة تقديرها: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين).

واختلف المفسّرون فى معنى هذه الآية، فقال قوم: إنّما أخذ الميثاق على الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضًا، ويأمر بعضهم بالإيمان ببعض، فذلك معنى آخر بالتصديق، وهذا قول سعيد ابن جبير وطاوس وقتادة والحسن والسدّى، يدل عليه ظاهر الآية، وقال على (رضى الله عنه): لم يبعث الله نبيًا. آدم ومن بعده. إلاّ أخذ عليه العهد فى محمد ﷺ، وأمره بأخذ العهد على قومه لتؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنّه، وقال آخرون: إنّما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل منهم النبيين، وهو قول مجاهد والربيع.

قال مجاهد: هذا خلط من الكتاب وهو من قراءة عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب، قالوا: ألا ترى إلى قوله ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وإنّما كان محمد ﷺ مبعوثًا إلى أهل الكتاب دون النبيين.

وقال بعضهم: إنّما أخذ الميثاق على النبيين وأُممهم (ليؤمنن به)، ففرد الأنبياء عن ذكر الأمم لأن فى أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على الأتباع، وهذا معنى قول ابن عباس وهذا أولى بالصواب.

قال الله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أى وقبلتم على ذلك عهدى، نظير قوله تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ (المائدة: ٤١) أى فاقبلوه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (البقرة: ٤٧) أى لا يقبل منها فداء، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (التوبة: ١٠٤) أى يقبلها، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾.

قال الله: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ على أنفسكم وعلى أتباعكم ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم.

قال ابن عباس: فاشهدوا: يعنى فاعلموا، قال الزجّاج: فاشهدوا أى فبينوا لأن الشاهد هو الذى عين دعوى المدّعى، وشهادة الله للنبيين بيّنوا أمر نبوتهم بالآيات والمعجزات، وقال سعيد

ابن المسيب: قال الله تعالى للملائكة: فاشهدوا عليهم، فتكون كناية عن غير مذكور.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإقرار والإشهاد ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ العاصون، الخارجون عن الإيمان.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الآية.

قال ابن عباس: اختصم أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا بينهم من دين إبراهيم (عليه السلام) كل فرقة زعمت أنّه أولى بدينه، قال النبى ﷺ: كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم، فغضبوا وقالوا: والله ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وهى قراءة الحسن وحميد ويعقوب وسلام وسهل وصفوان بالياء لقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقرأ أبو عمرو: يبغون الياء وترجعون بالتاء، قال: لأن الأول خاص والثانى عام؛ ففرّق بينهما لافتراقهما فى المعنى، وقرأ الباقون: بالتاء فيهما على الخطاب لقوله: ﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ خضع وانقاد ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ والطوع الانقياد والاتباع بسهولة من قولهم: فرسٌ طوع العنان، أى منقاد ﴿وَكَرْهًا﴾ والكره: ما كان بمشقة وإباء من النفس، و(كُرهًا) بضم الكاف وهما مصدران وضعا موضع الحال، كأنّه قال: وله أسلم من فى السموات والأرض طائعين وكارهين، واختلفوا فى قوله طوعًا وكرهًا، فروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: «الملائكة أطاعوه فى السماء، والأنصار وعبد القيس أطاعوه فى الأرض».

وقال النبى ﷺ: «لا تسبّوا أصحابى فإنّ أصحابى أسلموا من خوف الله، وأسلم الناس من خوف السيف».

وقال الحسن والمفضّل: الطوع لأهل السموات خاصة، وأهل الأرض منهم من أسلم طوعًا ومنهم من أسلم كرهًا.

ابن عباس: عبادتهم لله أجمعين طوعًا وكرهًا وانقيادًا له.

الربيع عن أبى العالية فى قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: كل بنى آدم أقرّ على نفسه أنّ الله ربى وأنا عبده، فهذا الإسلام لو استقام عليه، فلمّا تكلّم به صار حجة عليه، ثم أشرك فى عبادته فهذا الذى أسلم كرهًا، ومنهم من شهد أنّ الله ربّى وأنا عبده، ثم أخلص العبودية فهذا الذى أسلم طوعًا، وقال الضحّاك: هذا حين أخذ منه الميثاق وأقرّ به.

مجاهد: طوعًا: ظل المؤمن وكرهًا: ظل الكافر، يدلّ عليه قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد: ١٥)، وقوله: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (النحل: ٤٨).

الشعبي: هو استعاذتهم به عند اضطرارهم، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

قتادة: المؤمن أسلم طائعًا والكافر كارهًا؛ فأما المؤمن فأسلم طائعًا فنفعه ذلك وقبل منه، وأما الكافر فأسلم كارهًا في وقت البأس والمعاينة حتى لا يقبل منه ولا ينفعه، يدل عليه قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (غافر: ٨٥).

الكلبي: طوعًا: الذين ولدوا في الإسلام، وكرهًا: الذين أجبروا على الإسلام.

عكرمة: وكرهًا: من اضطرته (الحجة) إلى التوحيد، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت: ٦١).

ابن كيسان: وله أسلم أي خضع من في السموات والأرض فيما صيّرهم عليه وصوّرهم فيه وما يحدث فهم لا يمتنعون عليه، كرهوا ذلك أو أحبوه.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قال: إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت شموسًا فليقرأ في أذنها هذه الآية.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ الآية نزلت في اثني عشر رجلاً ارتدّوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة ولحقوا بمكة كفاراً منهم: الحارث بن سويد الأنصاري أخو الحلاس بن سويد، وطعمة بن أشرف الأنصاري، ومقيس بن صبابة الليثي، وعبد الله بن أنس ابن خطل من بني تميم بن مرة، ووجوج بن الأسلت، وأبو عاصم بن النعمان، فأنزل الله فيهم: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن

تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: لفظه استفهام ومعناه جحد، أى لا يهدى الله. قال الشاعر:

كيف نومى على الفراش ولمّا تشمل الشام غـارة شعـواء

أى لا نوم لى، نظير قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ (التوبة: ٧): أى لا يكون لهم عهد، وقيل: معناه كيف يستحقون العبادة؟ وقيل: معناه كيف يهديهم الله للمغفرة إلى الجنّة والثواب؟

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التوبة: ١٩) أى لا يرشدهم ولا يوفقهم، وهو خاص فيمن علم الله عز وجل منهم، وأراد ذلك منهم، وقيل: معناه: لا يثيبهم ولا ينجيهم (إلى الجنة). ﴿أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ ...﴾ (آل عمران: ٨٧) إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ (آل عمران: ٨٩) وذلك أنّ الحارث بن سويد لما لحق بالكفار ندم، فأرسل إلى قومه أن اسألوا رسول الله هل له من توبة؟ ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٨٩) لما كان، فحملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه، فقال الحارث: إنّك والله ما علمت لصدوق، وأنّ رسول الله ﷺ لأصدق منك، وأنّ الله عز وجل لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى رجل من بنى عمرو بن عوف كفر بعد إيمانه ولحق بالروم فتنصّر، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآيات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ...﴾.

قال الحسن وقتادة وعطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية فى اليهود، كفروا بعيسى (عليه السلام) والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم، ثم ازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن.

أبو العالية: نزلت فى اليهود والنصارى، كفروا بمحمد ﷺ لما رأوه وعرفوه بعد إيمانهم بنعته وصفته فى كتبهم، ثم ازدادوا ذنوبًا فى حال كفرهم. مجاهد: نزلت فى الكفار كلهم، أشركوا بعد إقرارهم بأنّ الله خالقهم، ثم ازدادوا كفرًا أى أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه. الحسن: كلّما نزلت عليهم آية كفروا بها فازدادوا كفرًا قطرب: كما ازدادوا كفرًا بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون.

الكلبى : نزلت فى أحد عشر أصحاب الحارث بن سويد ، لما رجع الحارث قالوا : نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا ، فمتى ما أردنا الرجعة رجعنا ، فينزل فينا ما نزل فى الحارث ، فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكة دخل فى الإسلام من دخل منهم فقبلتْ توبته ، فنزل فيمن مات منهم كافراً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ الآية ، فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ وقد سبقت حكمة الله تعالى فى قبول توبة من تاب؟ قلنا : اختلف العلماء فيه ، فقال بعضهم : لن يقبل توبتهم عند الغرغرة والحشرجة .

قال الحسن وقتادة وعطاء : لن يقبل توبتهم لأنّهم لا يؤمنون إلاّ عند حضور الموت ، قال الله تعالى : ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ...﴾ (النساء : ١٨) الآية .

مجاهد : لن يقبل توبتهم بعد الموت إذا ماتوا على الكفر . ابن عباس وأبو العالية : لن يقبل توبتهم ما أقاموا على كفرهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبًا﴾ أى حشوها ، وقدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها ذهبًا ، نصب على التفسير فى قول الفراء .

وقال المفضّل : ومعنى التفسير أن يكون الكلام تامًا وهو مبهم ، كقولك : عندى عشرون ، فالعدد معلوم والمعدود مبهم ، وإذا قلت : عشرون درهمًا فسّرت العدد ، وكذلك إذا قلت : هو أحسن الناس ، فقد أخبرت عن حسنه ولم تبين فى أى شىء هو ، فإذا قلت : وجهًا أو فعلاً منه فإنّك بيّنته ونصبته على التفسير ، وإنّما نصبته لأنّه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه ، فلمّا خلا من هذين نصب لأنّ النصب أخف الحركات فجُعل لكل ما لا عامل فيه ، وقال الكسائى : نصب ذهبًا على إضمار من ، أى من ذهب كقولهم : وعدل ذلك صيامًا أى من صيام .

﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ : روى قتادة عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : «يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت مفتديًا به؟ فيقول : نعم ، فيقال لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك» ، قال الله : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ .

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾ : يعنى الجنّة ، قاله ابن عباس ومجاهد وعمر بن ميمون والسدّى ، وقال عطية : يعنى الطاعة .

أبو روق : يعنى الخير ، مقاتل بن حيان : التقوى ، الحسن : لن يكونوا أبرارا .

﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ : أى مما تهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبّها إليكم طيّبة بها أنفسكم ، صغيرة فى أعينكم .

مجاهد والكلبى : هذه الآية منسوخة ، نسختها آية الزكاة .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أراد بهذه الآية الزكاة يعنى : حتى تخرجوا زكاة أموالكم ، وقال عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحّاء أشحّاء ، تأملون العيش ، وتخشون الفقر ، وقال الحسن : كل شىء أنفقه المسلم من ماله يبتغي به وجه الله تعالى فإنّه من الذى عنى الله سبحانه بقوله : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى التمرة .

وروى أنّ أبا طلحة الأنصارى كان من أكثر الأنصار نخلا بالمدينة ، وكان أحب أمواله إليه بئر ماء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلمّا نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله إنّ الله يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإنّ أحبّ أموالى إلىّ بئر ماء وإنّها صدقة أرجو برّها وذخرها عند الله عز وجل ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ، ذلك مال رابح لك وقد عرفت ما قلت ، وإنّى أرى أن تجعلها فى الأقربين» .

فقال له : أفعل يا رسول الله ، فقسّمها فى أقاربه وبنى عمّه .

وروى معمّر عن أيوب وغيره قال : لما نزلت : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ جاء زيد ابن حارثة بفرس كانت له يحبّها وقال : هذه فى سبيل الله ، فحمل عليها النبى ﷺ أسامة بن زيد . فكان زيد واجداً فى نفسه وقال : إنّما أردت أن أتصدق به ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّ الله قد قبلها منك» .

وقال حوشب : لمّا نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ قالت امرأة لجارية لها لا تملك غيرها : أعتقك وتقيمين معى غير أنّى لست أشرط عليك ذلك ، فقالت : نعم ، فلمّا أعتقتها ذهبت وتركتها فأتت النبى ﷺ فأخبرته به فقال النبى ﷺ: «دعيها فقد حجبتك عن النار ، وإذا سمعت بسبيى قد جاءنى فأتينى» .

وروى شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قالوا : كتب عمر بن الخطّاب (رضى الله عنه) أن يبتاع جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى ، فقال سعد بن أبى وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته فقال : إنّ الله عز وجل يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتقها .

وروى حمزة بن عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر قال : خطرت على قلبى هذه الآية : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ...﴾ فتذكرت ما أعطانى الله ، فما كان شىء أعجب إلىّ من فلانة فقلت : هى حرة

لوجه الله، ولولا أننى لا أعود فى شىء جعلته لله عز وجل لنكحتها.

ويقال: ضاف أبا ذر الغفارى ضيف فقال للضيف: إنّى مشغول فاخرج إلى أبواء فإنّ لى بها إبلاً فأتنى بخيرها، فذهب وجاء بناقة مهزولة فقال له أبو ذر: جئتنى بشرها، فقال: وجدت خير الإبل فحلها فتذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى مع أنّ الله عز وجل يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وعن رجل من بنى سليم يقال له عبد الله بن سيدان عن أبى ذر قال: فى المال ثلاث شركاء: القدر لا يستأمرك أن تذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت أو فعل، والوارث ينتظرك أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، والثالث أنت فإن استطعت أن لا يكون أعجب إليك مالاً فإنّ الله عز وجل يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنّ هذا الجمل كان مما أحب من مالى فأحببت أن أقدّمه لنفسى.

وروى عن ربيع بن خيثم أنّه وقف سائل على بابه، فقال: أطعموه سكرًا فقيل: ما يصنع هذا بالسكّر فنطعمه خبزاً فهو أنفع له، فقال: ويحكم أطعموه سكّرًا؛ فإنّ الربيع يحب السكّر.

وروى عن الربيع بن خيثم أيضًا أنّه جاءه سائل فى ليلة باردة، فخرج إليه فرآه كأنّه مقرور قال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فنزع برتسًا له وأعطاه إياه وذكر أنّه كساه عروة.

وبلغنا أن زبيدة أم جعفر اتخذت مصحفًا فى تسعين قطعة كتب بالذهب على الرق وجعلت ظهورها من الذهب مرصعة بالجواهر، فبينما هى تقرأ القرآن ذات يوم فقرأت هذه الآية، فلم يكن شىء أحبّ إليها من المصحف، فقالت: علىّ بالصاغة، فأمرت بالذهب والجواهر حتى بيعت وأمرت حتى حفرت الآبار وأشرف الحياض بالبادية.

وقال أبو بكر الورّاق: دلّهم بهذه الآية على الفتوة، وقال: لن تنالوا برّى بكم إلاّ ببرّكم إخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم وما تحبّون، فإذا فعلتم ذلك نالكم برّى وعطفى.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾: أى فإنّ الله يجازى عليه لأنّه إذا علمه جازى عليه، وتأويل (ما) تأويل الشرط والجزاء وموضعها نصب لينفقوا، المعنى: وأى شىء ينفقون فإنّ الله به عليم.

❖ ❖ ❖

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ **الآية.**

قال أبو روق والكلبي: كان هذا حين قال النبي ﷺ: «أنا على ملة إبراهيم».

فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها، فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله» فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرّمه فإنّه كان محرّمًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ المحلل لكم اليوم ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ وهو يعقوب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

واختلف المفسّرون في ذلك الطعام، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وأبو مجلز: هي العروق وكان (سبب) ذلك أنّ يعقوب (عليه السلام) اشتكى عرق النسا،

وكان أصل وجعه ذلك، ما روى جويبر ومقاتل عن الضحاك أنّ يعقوب بن إسحاق كان قد نذر إن وهب الله له اثنى عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحًا أن يذبح آخرهم، فتلقّاه ملك من الملائكة فقال له: يا يعقوب إنّك رجلٌ قوى، هل لك فى الصراع؟ فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه، ثم غمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك، ثم قال: أما إنّى لو شئت أن أصرعك لفعلت، ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنّك قد كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحًا ذبحت آخر ولدك، وجعل الله لك بهذه الغمزة مخرجًا، فلمّا قدمها يعقوب أراد ذبح ابنه ونسى قول الملك، فأتاه الملك فقال: أنا غمزتك هذه الغمزة للمَخرج وقد وفى نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى: أقبل يعقوب (عليه السلام) من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيص وكان رجلا بطّيشًا قويًا، فلقيه ملك فظنّ (يعقوب) أنّه لصّ فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب ثم صعد إلى السماء ويعقوب ينظر إليه، فهاج به عرق النسا ولقى من ذلك بلاء شديداً وكان لا ينام بالليل من الوجع (ويبيت) وله زقاء أى صياح، فحلف يعقوب (عليه السلام) لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقًا ولا طعامًا فيه عرق، فحرّمها على نفسه فجعل بنوه يبتغون العروق يخرجونها من اللحم، وقال أبو العالية وعطاء ومقاتل والكلبى: كان ذلك لحمان الإبل وألبانها.

وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس أن عصابة حضرت رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا أى الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟

فقال رسول الله ﷺ: «أشهدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أنّ يعقوب مرض مرضًا شديداً فطال سقمه عليه، فنذر لله لئن عافاه الله من سقمه ليحرّمن أحبّ الطعام والشراب إلى نفسه، وكان أحبّ الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها». فقالوا: اللهم نعم.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما أصاب يعقوب عرق النسا ووصف له الأطباء أن يجتنب لحوم الإبل، فحرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل، فقالت اليهود: إنّا حرّمنا على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأنّ يعقوب حرّمها وأنزل الله تحريمها فى التوراة فأنزل الله هذه الآية.

وقال الحسن: حرّم إسرائيل على نفسه لحوم الجزور تعبداً لله عز وجل فسأل ربّه عز وجل أن يجيز له ذلك، فحرّمه الله على ولده، وقال عكرمة: حرّم إسرائيل على نفسه زائدة الكبد والكليتين والشحم إلاّ ما على الظهور، وروى ليث عن مجاهد قال: حرّم إسرائيل على نفسه

لحوم الأنعام ثم اختلفوا فى هذا الطعام المحرّم على إسرائيل بعد نزول التوراة، وقال السدى: إنّ الله لما أنزل التوراة حرّم عليهم ما كانوا يحرّمونها قبل نزولها اقتداءً بأبيهم يعقوب (عليه السلام)، وقال عطية: إنّما كان ذلك حرامًا عليهم لتحريم إسرائيل ذلك عليهم وذلك أنّ إسرائيل قال حين أصابه عرق النسا: والله لئن عافانى الله منه لا يأكله لى ولد، ولم يكن ذلك محرّمًا عليهم فى التوراة.

وقال الكلبى: لم يحرّمه الله عليهم فى التوراة وإنّما حرّم عليهم بعد التوراة لظلمهم وكفرهم، وكان بنو إسرائيل كلما أصابوا ذنبًا عظيمًا حرّم الله عليهم طعامًا طيبًا، أو صبّ عليهم رجزًا وهو الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠)، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٦).

وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك علينا حرامًا، ولا حرّم الله عليهم فى التوراة وإنّما هو شيء حرّموه على أنفسهم اتباعًا لأبيهم، وأضافوا تحريمه إلى الله فكذّبهم الله تعالى فقال: قل لهم يا محمد ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ حتى يتبين أنّه كما يقول لا كما قلتم، فلم يأتوا، فقال الله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وروى أنس بن سيرين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فى عرق النسا يأخذ إليّة كبش عربى لا صغير ولا كبير فيقطع صغارًا فيخرج أهالته فيخرج على ثلاث قِسَم، ويأكل كل يوم على ريق النفس، قال أنس: فوصفته لأكثر من مائة فشفاهم الله.

وروى شعبة أنّه رأى شيخًا فى زمن الحجاج بن يوسف يقول لعرق النسا: أقسم عليك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار أو لأحلقنك بموسى، قال شعبة: فإنّه يقول ذلك ويمسح على ذلك الموضع فيبرأ بإذن الله.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية.

قال مجاهد: تفاخر المسلمون واليهود، فقال اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنّها مهاجر الأنبياء فى الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وقرأ ابن السميقع: وضع بفتح الواو والضاد يعنى وضعه الله ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وليس ذلك فى بيت المقدس ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وليس ذلك فى بيت المقدس ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وليس ذلك فى بيت المقدس.

واختلف العلماء فى تأويل قوله ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ فقال بعضهم: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عندما خلق الله السماء والأرض فخلقه الله قبل الأرض بألفى عام، وكان زبدة بيضاء على الأرض فدحيت الأرض من تحتها، هذا قول عبد الله بن عمرو ومجاهد وقتادة والسدى.

وقال بعضهم: هو أوّل بيت وضع: بُنى فى الأرض، يروى أنّ على بن الحسين سُئل عن بدء الطوفان، فقال: إنّ الله تعالى وضع تحت العرش بيتًا وهو البيت المعمور الذى ذكره الله، وقال للملائكة: طوفوا به ودعوا العرش، فطافت الملائكة به وتركوا العرش، وكان أهون عليهم، ثم أمر الله الملائكة الذين يسكنون فى الأرض أن يبنوا له فى الأرض بيتًا على مثاله وقدره، فبنوا، واسمه الضراح، وأمر من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

وقيل: هو أول بيت بناه آدم فى الأرض، قاله ابن عباس.

وقال الضحاك: إنّ أول بيت وضع فيه البركة وأحسن من الفردوس الأعلى.

وروى سماك عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى على (رضى الله عنه) فقال: ألا تخبرنى عن البيت؟ أهو أول بيت كان فى الأرض؟ قال: لا، فأين كان قوم نوح وعاد وثمود، ولكنه أول بيت مبارك وهدىً وضع للناس.

وقيل: إنّ أول بيت وضع للناس يُحج إليه لله، وروى ذلك عن ابن عباس أيضًا، وقيل: هو أول بيت جُعل قبلة للناس.

وقال الحسن والكلبى والفراء: معناه: إن أول مسجد ومتعبد وضع للناس يعبد الله فيه، يدل عليه قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ (يونس: ٨٧) يعنى مساجدهم واجعلوا بيوتكم قبلة، وقوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ (النور: ٣٦) يعنى المساجد.

إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر عن النبى ﷺ أنّه سُئل عن أول مسجد وضع للناس، قال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس»، وسُئل: كم بينهما قال: أربعون عامًا حيثما أدركتك الصلاة فصلّ فثم سُجد للذى ببكة.

قال الضحاك والمدرج: هى مكة، والعرب تعاقب بين الباء والميم، فتقول: سبد رأسه وسمد، واغبطت عليه الحمى واغمطت، وضربة لازم ولازب.

وقال ابن شهاب وضمرة بن ربيعة: بكة: المسجد والبيت، ومكة: الحرم كله.

وقال الآخرون: مكة اسم البلد كله، وبكة موضع البيت والمطاف، وسمّيت بكة لأن الناس يتباكون فيها: أى يزدحمون، يُبكى بعضهم بعضًا، ويصلى بعضهم بين يدى بعض،

ويمر بعضهم بين يدى بعض، لا يصلح ذلك إلاّ بمكة.

قال الراجز:

إذا الشريب أخذته أكه فخلّه حتى يبك بكه

قال عطاء: مرّت امرأة بين يدى رجل وهو يصلى وهى تطوف بالبيت فدفعها، فقال أبو جعفر الباقر: إنّها بكة يبكى بعضهم بعضًا.

وقال عبد الرحمن بن الزبير: سميت بكة لأنّها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها، فلم يقصدها جبار يطلبها إلاّ وقصمه الله، وأما مكة فسميت بذلك لقلة مائها من قول العرب: مكتَ الفصيل ضرع أُمّه وامتكّه إذا امتص كل ما فيه من اللبن، قال الشاعر:

مكّتْ فلم تُبقِ فى أجوافها دررا

عن الحسين عن ابن عباس قال: ما أعلم اليوم على وجه الأرض بلدة تُرفع فيها الحسنات بكل واحدة مائة ألف ما يرفع بمكة، وما أعلم بلدة على وجه الأرض يُكتب لمن صلى فيها ركعة واحدة بمائة ألف ركعة ما يُكتب بمكة، وما أعلم بلدة على وجه الأرض (يُكتب لمن تصدق فيها بدرهم) واحد يكتب له مائة ألف درهم ما يُكتب بمكة، وما أعلم بلدة على وجه الأرض (يُكتب) لمن فيها شراب الأحبار ومصلى الأخيار إلا بمكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة ما مس شيئًا أحد فيها إلاّ كانت تكفير الخطايا إلاّ بمكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة إذا دعا فيها أمن له الملائكة فيقولون: آمين آمين، ليس إلاّ بمكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة . . . .[1] إلاّ بمكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة يكتب لمن نظر إلى الكعبة من غير طواف ولا صلاة عبادة الدهر وصيام الدهر إلاّ بمكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة ورد إليها جميع النبيين (ما قد) صدر إلى مكة، وما أعلم بلدة يحشر فيها من الأنبياء والأبرار والفقهاء والعباد من الرجال والنساء ما يحشرون من مكة أى يُحشرون وهم آمنون يوم القيامة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة ينزل فيها كل يوم من روح الجنّة ورائحتها ما ينزل بمكة حرسها الله.

﴿مُبَارَكًا﴾: نصب على الحال ﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾: لأنه قبلة المؤمنين ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ﴾: قرأ ابن عباس: آية بينة.

﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ آية بينة على الواحد أراد مقام إبراهيم وحده، وقال: أثر قدميه فى المقام آية بينة.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقرأ الباقون: آيات بالجمع أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر، وقد مضى ذكر مقام إبراهيم فى سورة البقرة ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ من أن يهاج فيه، لأنه حرم، وذلك بدعاء إبراهيم (عليه السلام) حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ (البقرة:١٢٦) وكان فى الجاهلية من دخله ولجأ إليه آمن من الغارة والقتل ولم يزده الإسلام إلاّ شدة.

وكتب أبو الخلد إلى ابن عباس: أن أول من لاذ بالحرم الحيتان الصغار والكبار هربًا من الطوفان، وقيل: من دخله عام عمرة القضاء محمد ﷺ كان آمنًا دليله قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (الفتح:٢٧).

وقال أهل المعانى: صورة الآية خبر ومعناها أمر تقديرها: ومن دخله فأمنوه، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧) أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا. وقيل: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ لقضاء النسك معظمًا له عارفًا لحقه متقربًا إلى الله عزّ وجلّ ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ يوم القيامة وهذا كقوله ﷺ: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار» أى فى نهار يوم القيامة.

يدل عليه ما روى جويبر عن الضحاك ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يقول: من حجه ودخله كان آمنًا من الذنوب التى اكتسبها قبل ذلك.

وروى زياد بن أبى عياش عن يحيى بن جعدة فى قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال: من النار.

وقال جعفر الصادق (رضى الله عنه): من دخله على الصفاء كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمنًا من عذابه.

وقال أبو النجم القرشى الصوفى: كنت أطوف بالبيت فقلت: يا سيدى، قلت: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ من أى شىء؟ فسمعت من ورائى (قائلاً) يقول: آمنًا من النار، فالتفت فلم أر شيئًا.

ويدل على صحة هذا التأويل ما روى أبان بن عياش عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات فى أحد الحرمين بعثه الله عزّ وجلّ مع الآمنين».

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران فى الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة».

وروى شقيق بن سلمة عن ابن مسعود قال: وقف النبى ﷺ على ثنية المقبرة وليس هما

يومئذ مقبرة، وقال: «بعث الله من هذه البقعة من هذا الحرم كله سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفًا وجوههم كالقمر ليلة البدر».

وبه عن عبد الرحمن بن زيد العمى عن أبيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتى عام، وتقربت منه الجنة مسيرة مائة عام».

وقال وهب بن منبه: مكتوب فى التوراة: إن الله يبعث يوم القيامة سبعمائة ألف ملك من الملائكة المقربين بيد كل واحد منهم سلسلة من ذهب إلى البيت الحرام فيقول لهم: اذهبوا إلى البيت الحرام فزموه بهذه السلاسل ثم قودوه إلى المحشر فيأتونه فيزمونه بسبعمائة ألف سلسلة من ذهب ثم يمدونه وملك ينادى: يا كعبة الله سيرى فتقول: لست بسائرة حتى أعطى سؤلى. فينادى ملك من جو السماء: سلى تعطى فتقول الكعبة: يا رب شفّعنى فى جيرتى الذين دفنوا حولى من المؤمنين. فيقول الله: قد أعطيتك سؤلك. قال: فيحشر موتى مكة من قبورهم بيض الوجوه كلهم محرمين، فيجتمعون حول الكعبة يلبّون ثم يقول الملائكة: سيرى يا كعبة الله، فتقول: لست بسائرة حتى أعطى سؤلى، فينادى ملك من جو السماء: سلى تعطى، فتقول الكعبة: يا رب عبادك المؤمنين الذين وفدوا إلىّ من كل فجٍّ عميق شعثًا غبرًا، تركوا الأهلين والأولاد والأحباب، وخرجوا شوقًا إلىّ زائرين مسلمين طائعين، حتى قضوا مناسكهم كما أمرتهم، فأسألك أن تؤمنهم من الفزع الأكبر وتشفّعنى فيهم وتجمعهم حولى، فينادى الملك: إن منهم من ارتكب الذنوب بعدك وأصرَّ على الذنوب الكبائر حتى وجبت له النار، فتقول الكعبة: إنما أسألك الشفاعة لأهل الذنوب العظام. فيقول الله: قد شفّعتك فيهم وأعطيتك سؤلك. فينادى مناد من جو السماء: ألا من زار الكعبة فليعتزل من بين الناس. فيعتزلون، فيجمعهم الله حول البيت الحرام بيض الوجوه آمنين من النار يطوفون ويلبون، ثم ينادى ملك من جو السماء: ألا يا كعبة الله سيرى. فتقول الكعبة: لبيك لبيك والخير بيديك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، ثم (يمدّونها) إلى المحشر.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

قال عكرمة: لما نزلت ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ (آل عمران: ٨٥) قالت اليهود: فنحن مسلمون فأمروا أن يحجوا إن كانوا مسلمين، واللام فى قوله (لله) لام الإيجاب والإلزام، أى قد فرض وأوجب على الناس حجّ البيت. قرأ أبو جعفر والأعمش وحمزة والكسائى: حِج، بكسر الحاء فى هذا الحرف خاصة.

وقرأ ابن أبى إسحاق جميع ما فى القرآن بالكسر، وهى لغة أهل نجد.

وقرأ الباقون: بالفتح كل القرآن، وهى لغة أهل الحجاز.

واختيار أبى عبيد، وأبى حاتم، فهما لغتان فصيحتان بمعنى واحد.

وقال الحسن الجعفى الفتح (المصدر) والكسر اسم الفعل، ثم قال: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ اعلم أن شرائط وجوب الحج تسعة أشياء هى: البلوغ والعقل والإسلام والحرية؛ لقول النبى ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبى حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى ينتبه».

ولقوله ﷺ: «إيّما صبى حج ثم بلغ الحنث فعليه حجة أخرى، وأيّما أعرابى حج ثم هاجر فعليه حجة أخرى».

وأراد بالهجرة ههنا: الإسلام وتخلية الطريق، وهى أن يكون الطريق آمنًا مسلوكًا، لا مانع فيه من عدو ونحوه، فإن كان غير مسلوك لم يجب الحج.

والدليل عليه: أنه لو كان محرمًا فحصره العدو، فله أن يحل منه، فإذا جاز له الخروج منه بالحصر فبان بعض الدخول فيه، والقصد إليه مع وجود الحصر أولى وأحرى، وإمكان المسير وهو أن يكون فى الوقت سعة ممكنة فيه الحج، فإذا وجد شرائط الحج وهو . . . .[1] وقد بلغ الحاج إلى (الكرقة) مثلاً، فلا يجب عليه، لأن جعل شرائطه فى وقت تعذر فعله فيه، فهو كالصبى الذى يبلغ فى أثناء نهار الصيام، فلا يجب عليه صوم ذلك اليوم، وزاد كاف وراحلة مبلغة وقوة بدنية واختلف أقاويل الفقهاء فى تفصيل هذه الشرائط الثلاثة:

فقال الشافعى (رضى الله عنه): الاستطاعة وجهان: أن يكون مستطيعًا بدنه واجدًا من ماله ما يبلغه الحج، والثانى: أن يكون معضوبًا فى بدنه لا يثبت على مركبه، وهو قادر على من يطعه إذا أمره أن يُحج عنه بأجرة وغير أجرة، وأما المستطيع بالمال: فقد لزمه فرض الحج بالسنّة، لحديث الخثعمية، فأما المستطيع بنفسه: فهو القوى الذى لا يلحقه مشقة غير محتملة فى الكون على الراحلة، فإن هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج، فإن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما يسقط فرض الحج عنه، فإن كان قادراً على المشى مطيقًا له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد فى طريقه بصنعة مثل الخرز والحجامة ونحوهما، فالمستحب له أن يحج ماشيًا، رجلاً كان أو امرأة.

قال الشافعى: والرجل أقل عذراً من المرأة، لأنه أقوى وهذا على طريق الاستحباب لا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

على طريق الإيجاب ، فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس فى الطريق كرهت له أن يحج ، لأنه يصير كلاً على الناس ، وهذا الذى ذكرت من أن وجود الزاد والراحلة شرط فى وجوب الحج ، وهو قول عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وابنه عبد الله وعبد الله بن عباس ومن التابعين الحسن البصرى وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه والشافعى والثورى وأحمد وإسحاق ، دليلهم ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : ما السبيل إلى الحج ؟ قال : «الزاد والراحلة» .

ومثله روى ابن مسعود وابن عباس وعائشة وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك .

روى الحارث عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : «من ملك زادًا وراحلة تبلغانه إلى بيت الله فلم يحج فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ .

قال ابن عمر : قام رجل فقال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : «الزاد والراحلة» قال : فما الحاج ؟ قال : «(الشعث التفل)» قال : فما أفضل الحج ؟ قال : «العج والثج» .

وقال مالك : إذا قدر على المشى ووجد الزاد والراحلة لزمه الحج بلا خلاف ، وإن لم يجد الزاد والراحلة وقدر على المشى نظر ، فإن كان مالكًا للزاد فعليه فرض الحج لكل حال ، وإن لم يكن مالكًا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه فى الطريق اختلف هذا باختلاف حال الرجل ، فإن كان من أهل المروات وممّن لا يكسب بنفسه لم يجب عليه ، وإن كان ممن يكسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج ، وهكذا إذا كان عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج ، فأوجب مالك على المطيق للمشى الحج إذا لم يكن له زاد وراحلة ، وهذا قول عبد الله ابن الزبير والشعبى وعكرمة .

وقال الضحاك : إن كان شابًا صحيحًا ليس له مال ، فعليه أن يؤاجر نفسه بأكله أو عقبه حتى يقضى حجته ، فقال له قائل : ما كلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت . فقال : لو أن لبعضهم ميراثًا بمكة أكان تاركه بل كان ينطلق إليه ولو حبواً ، كذلك يجب عليه الحج ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ (الحج : ٢٧) أى مُشاة .

قالوا : ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان ، فوجب أن لا يكون من فرض وجوبها الزاد والراحلة كالصلاة والصيام ، فإذا (تقرر) أن وجود الزاد والراحلة شرط فى وجوب الحج على قول أكثر أهل العلم ، فوجب أن يبيّن كيفية اعتبار الراحلة والنفقة ، وذلك يختلف باختلاف أحوال الناس .

وأما الراحلة: فهى ما لا يلحقه مشقة شديدة فى الركوب عليها، وأما النفقة: فإن كان ذا أهل وعيال يجب عليه نفقتهم، فلا يلزمه الحج حتى يكون لهم نفقتهم مدة غيبته لذهابه ورجوعه، لأن هذا الإنفاق فرض على الفور والحج فرض على التراخى، وكان تقديم إنفاق العيال أولى وأهم.

وقال النبى ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيّع من يقوت» فإذا لم يكن له أهل وعيال فلا بد من نفقته لذهابه، وهل يعتبر فيه الرجوع أم لا؟ فيه قولان للفقهاء:

قال بعضهم: لا يعتبر، لأنه ليس عليه كثير مشقة فى تركه القيام ببلده، لأنه لا أهل له فيه ولا عيال له، فكل البلاد له وطن.

وقال الآخرون: يعتبر، وهو الظاهر من مذهب الشافعى، لأنه قال فى الإملاء: لا يجب عليه الحج حتى يكون له نفقته ذاهبًا وجائيًا. فأطلق ولم يفرّق، وهذا أولى بالصواب، لأن الإنسان يستوحش بفراق وطنه كما يستوحش بفراق مسكنه، ألا ترى أن البكر إذا زنى جُلد وغرّب عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن، فإن كان له عقار يستغله أو ثياب أو أثاث ونحوها، لزمه فرض الحج وبيع العقار ورقاب الأموال وصرفها فى الحج فأما المسكن والخادم.

قال الشافعى فى الأم: فإذا كان له مسكن وخادم له نفقة أهله بقدر غيبته لزمه الحج. وظاهر هذا أنه اعتبر أن يكون مال الحج فاضلاً عن الخادم والمسكن، لأنه قدّمه على نفقة أهله، فكأنه قال: بعد هذا كله.

وقال أصحابه: يلزمه أن يبيع المسكن والخادم ويشترى مسكنًا وخادمًا لأهله، فأما إذا كان له بضاعة يتجر بها وربحها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام، ومتى أنفق من أصل البضاعة اختل عليه ربحها ولم يكن ربحها قدر كفايته، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا؟

قال أبو العباس بن شريح: لا يلزمه ذلك وتبقى البضاعة على ما هى عليه ولا يحج من أصلها، لأن الحج إنما يجب عليه فى الفاضل من كفايته.

وقال الآخرون: بل عليه أن يحج من أصل البضاعة، وهو الصحيح المشهور الذى عليه الجمهور، لأنه لا خلاف أنه لو كان له عقار يكفيه غلته لزمه بيع أصل العقار فى الحج، وكذلك البضاعة، وجملته أن فرض الحج يتعلق بما يتعلق به فرض زكاة الفطر، فما وجب بيعه فى زكاة الفطر وجب بيعه فى الحج، فهذا القول فى أحد وجهى الاستطاعة، فأما الوجه الآخر: فهو أن يكون مغصوبًا فى بدنه لا يقدر أن يثبت على مركب بحال، أو يكون فضو الخلقة ابتداء، أو يكون مريضًا مزمنًا شديدًا لا يرجى برؤه، أو يكون شيخًا كبيرًا ضعيفًا ولكن

يكون قادراً على من يطيعه إذا أمره بالحج عنه، فهذا أيضًا مستطيع استطاعة ما. وهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون قادراً على مال يستأجر عليه من يحج، فإنه يلزمه فرض الحج، وهذا قول على بن أبى طالب (رضى الله عنه) روى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يحج: جهّز رجلاً يحج عنك. وإليه ذهب الشافعى والثورى وأبو حنيفة وأصحابه وعبد الله بن المبارك وأحمد بن المبارك وإسحاق.

والثانى: أن يكون قادراً على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحج عنه، فهذا أيضًا يلزمه الحج عند الشافعى وابن حنبل وابن راهويه.

وقال أبو حنيفة: لا يجب عليه الحج ببذل الطاعة بحال.

وقال مالك: إذا كان مغصوبًا سقط عنه فرض الحج أصلاً، سواء كان قادراً على من يحج بالمال أو بغير المال، أو كان عاجزاً فلا يلزمه فرض الحج، ولو وجب عليه الحج ثم عضب وزمن سقط عنه فرض الحج، ولا يجوز أن يحج عنه فى حال حياته بحال بل إن أوصى أن يحج عنه حُج بعد موته عنه من الثلث وكان تطوعًا، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩) فأخبر أنه ليس له إلاّ ما سعى فمن قال له ما سعى غيره، فقد خالف ظاهر الآية ويقول عزَّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وهذا غير مستطيع، لأن الحج هو القصد إلى البيت بنفسه ومن طريق الاعتبار هو أنه غير متمكن من الحج بنفسه، فوجب أن لا يلزمه الحج عن نفسه، كما لو كان مغصوبًا لا مال له، ولأن كل عبادة لا يدخلها النيابة مع القدرة عليها، فوجب أن لا يدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة وعكسه الزكاة، ودليل الشافعى وأصحابه ما روى الزهرى عن سليمان بن يسار عن ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيراً لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة، فهل يجزى أن أحج عنه؟ فقال: «نعم»، فقالت: فهل ينفعه ذلك؟ فقال (عليه السلام): «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أما كان يجزى؟» قالت: نعم، قال: «فدين لله أحق».

فأوجب النبى ﷺ عليه الحج بطاعة ابنته إياه وبذلها نفسها له بأن تحج عنه، فإذا وجب ذلك بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المال الذى يستأجر به أولى، فأما إن بذل له المال دون الطاعة فالصحيح أن لا يلزمه قبوله والحج به عن نفسه ولا يصير ببذل المال له مستطيعًا، وأما من به مرض يرجى زواله كالبرسام والحمى الشديدة وغيرهما فلا يجوز له أن

يحج عنه، لأنه لم ييأس عن الحج بنفسه فلم يحج له، كالصحيح وعكسه المغصوب.

وقال أبو حنيفة: يجوز له أن يحج عن نفسه ولو حج عنه وبرأ سقط عنه فرض الحج والله أعلم.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

قال الحسن وابن عباس وعطاء والضحاك: جحد فرض الحج.

مجاهد: هو ما إن حج لم يره برًا وإن قعد لم يره مأثمًا.

وروى سفيان عن منصور عنه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالله واليوم الآخر، يدل عليه ما روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال فى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ قال: «من كفر بالله واليوم الآخر».

وقال سعيد بن المسيب: نزلت فى اليهود حيث قالت: الحج إلى . . . .[1] واجب.

الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان كلهم فخطبهم، وقال: «إن الله عزّ وجلّ كتب عليكم الحج فحجّوا» فآمنت إليه أهل ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل، وقالوا: لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

عطاء بن السائب: (ومن كفر) بالبيت.

ابن زيد: (ومن كفر) بهذه الآيات التى ذكرها الله فى قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ﴾.

قال السدى: أما من كفر فهو من وجد ما يحج عنه ثم لم يحج حتى مات فهو كفره به.

فصل فى إيجاب الحج

قال النبى ﷺ: «صلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدّوا زكاة مالكم وحجّوا بيت ربكم تدخلوا جنة ربكم».

وقال ﷺ: «حجّوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع فى الثالثة».

وقال ابن مسعود: حجّوا هذا البيت قبل أن تنبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلاّ نفقت.

وروى عبد الرحمن بن أبى سابط عن أبى أُمامة أن النبى ﷺ قال: «من لم تمنعه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا».

وحدثنا موسى بن جعفر عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج لم

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يقبل الله منه يوم القيامة عملاً . . . » .

شعبة عن قتادة عن الحسين قال : قال عمر (رضى الله عنه) : لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى الأمصار فينظرون إلى مَن كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية .

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ إلى ﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى يصرفون عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ .

وقرأ الحسن : تُصدون ، بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان ، صدّ وأصدّ مثل صَل اللحم وأصل ، وخمّ وأخم .

ودليل قراءة العامة قوله تعالى : ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ (سبأ : ٣٢) وقوله : ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الفتح : ٢٥) ونظائرهما .

﴿تَبْغُونَهَا﴾ تطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ زيغًا وميلاً ، والكلام حال على الفعل ، مجازه : لِمَ تصدون عن سبيل الله باغين لها عوجًا .

قال أبو عبيدة : العوج بالكسر فى الدين والقول والعمل ، والعَوج بالفتح فى الجدار والحائط وكل شخص قَائم ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ الآن فى التوراة مكتوب : إن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الإسلام ، وإن فيه نعت محمد ﷺ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ قال زيد بن أسلم : مرَّ شاس بن قيس اليهودى . وكان شيخًا قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الطعن فى المسلمين شديد الحسد لهم . على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة فقال : لقد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شابًا من اليهود كان معه قال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قيلة وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج . ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين عن الركب ، أوس بن قبطى أحد بنى حارثة من الأوس ، وحيان بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددتها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعًا وقالا : قد جعلنا السلاح موعدكم الظاهرة وهى حرة ، وخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضها على بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن

معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم إليه كفاراً الله الله». فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيدهم من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين. فأنزل الله فى شأن شاس بن قيس.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعنى الأوس والخزرج ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعنى شاسًا وأصحابه ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾.

قال جابر بن عبد الله: ما كان من طالع أكره إلينا من رسول الله علينا فأومى إلينا بيده فكففنا وأصلح الله ما بيننا فما كان من شخص أحبُّ إلينا من رسول الله ﷺ فما رأيت قط يومًا أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم، ثم قال على وجه التعجب ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يعنى ولِمَ تكفرون ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ من القرآن ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ محمد ﷺ.

قال قتادة: فى هذه الآية علمان بيّنان: نبى الله وكتاب الله، فأمّا نبى الله فقد مضى وأمّا كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة، فيه حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أى يمتنع بالله ويتمسك بدينه وطاعته ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق واضح.

وقال ابن جريج: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أى يؤمن بالله، وأصل العصم والعصمة المنع، فكل مانع شيئًا فهو عاصم.

قال الفرزدق:

أنا ابن العاصمين بنى تميم إذا مـا أعظم الحدثان نابا

والممتنع معتصم. فقال: اعتصمت الشىء واعتصمت به وهو الأفصح.

قال الشاعر:

يظل من خوفه الملاح معتصمًا بالخيزرانة بعد الأين والنجـد

وقال آخر:

إذا أنت جازيت الإخـاء بمثله وآسيتنى ثم اعتصمت حباليا

وقال حميد بن ثور يصف رجلاً حمل امرأة بذنبه:

ومـا كـاد لما أن علته يقلها بنهضته حتى أكلان واعتصما

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قال مقاتل بن حيان: كان بين الأوس والخزرج فى الجاهلية وصال حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة فأصلح بينهم، فافتخر بعد ذلك منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج، فقال الأوسى: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين، ومنّا سعد بن معاذ الذى اهتز عرش الرحمة له ورضى الله بحكمه فى بنى قريظة، وقال الخزرجى: منّا أربعة أحكموا القرآن: أُبى ابن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم فجرى الكلام بينهما فغضبا، فقال الخزرجى: أما والله لو تأخر الإسلام قليلاً وقدوم النبى ﷺ لقتلنا ساداتكم، واستعبدنا آباءكم ونكحنا نساءكم بغير مهر.

فقال الأوسى: قد كان الإسلام متأخراً زمانًا طويلاً فهلاّ فعلتم ذلك، فقد ضربناكم حتى أدخلناكم الديار، وأنشدا الأشعار وتفاخرا وتأذيا، فجاء الأوس إلى الأوسى والخزرج إلى الخزرجى ومعهم سلاح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فركب حماراً وأتاهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ الآيات، فقرأها عليهم فاصطلحوا.

وقال عطاء: إن رسول الله ﷺ صعد المنبر وقال: «يا معشر المسلمين ما لى أُوذى فى أهلى». يعنى الطعن فى قصة الإفك، وقال: «ما علمت على أهلى إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلى إلاّ معى».

فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله وأكفيك أمره وأنصرك عليه، إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج وكان رجلاً صالحًا ولكنه احتملته الحمية فقال لسعد ابن معاذ: كذبت لعمر الله. فقال سعد: والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ودعوا بالسلاح، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يُشكر فلا يُكفر».

وقال أبو عثمان: أن لا يعصى طرفة عين.

مجاهد: أن يجاهدوا حق جهاده.

ولا تأخذكم فى الله لومة لائم، وتقوموا لله بالقسط وآبائكم وأبنائكم.

الحسن: هو أن تطيعه فيما تعبده.

قال الزجاج: أي اتقوا فيما يحق عليكم أن تتقوه واسمعوا وأطيعوا.

قال المفسرون: فلما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله ومن يقوى على هذا وشق عليهم فأنزل الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) فنسخت هذه الآية.

قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ إلاّ هذا.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قال طاوس: معناه اتقوا الله حق تقاته وإن لم تفعلوا ولم تستطيعوا، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي مؤمنون.

وقيل: مخلصون مفوضون أموركم إلى الله عزّ وجلّ.

وقال المفضل: المحسنون الظن بالله.

وروى الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرّت على أهل الأرض معيشتهم فكيف بمن هو طعامه».

وعن أنس بن مالك قال: لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن من لسانه ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ أصل الحبل السبب الذي يوصل إلى البغية والحاجة، ولذلك سمّى الأمان حبلاً، لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف.

وقال الأعشى بن ثعلبة:

وإذا تجوزها حبال قبيلة ... أخذت من الأخرى إليك حبالها

واختلفوا في الحبل المعنى بهذه الآية:

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وروى الشعبي عن ابن مسعود أنه قال في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال الجماعة.

وقال ابن مسعود: يا أيها الذين آمنوا عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به وإنّ ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير ممّا تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بالعهد.

قتادة والسدي والضحاك: هو القرآن، يدل عليه ما روى عن الحارث أنه قال: دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث، فأتيت عليًا كرم الله وجهه فقلت: ألا ترى أن الناس قد وقعوا في الأحاديث؟ فقال: وقد فعلوا؟ فقلت: نعم، فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» قال: قلت: فما الخروج منها يا رسول الله؟ قال:

«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذا سمعته إلاّ أن قالوا ﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (الجن: ١) من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور».

وروى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع وعصمة من تمسك به ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، فاقرءوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة».

وروى سعيد بن مسروق عن يزيد بن حيان قال: دخلنا على زيد بن أرقم فقلنا له: لقد صحبت رسول الله ﷺ وصليت خلفه؟ قال: نعم، وإنه خطبنا فقال: «إنى تارك فيكم كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة».

وروى عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله يقول: «يا أيها الناس إنى قد تركت فيكم خليفتين إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدى، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله جل جلاله من السماء وعترتى أهل بيتى، ألا وإنّهما لن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض».

فقال مقاتل بن حيان: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ أى بأمره وطاعته.

أبو العالية: بإخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ. ابن زيد: بالإسلام.

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ كما تفرقت اليهود والنصارى.

وروى الأوزاعى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلاّ واحدة» فقيل يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده، وقال: «الجماعة» ثم قرأ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

وروى أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد: نحن حبل الله الذى قال الله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

أخبرنى محمد بن كعب القرظى عن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله رضى لكم

ثلاثًا وكره لكم ثلاثًا: رضى لكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واسمعوا وأطيعوا لمن ولاّه الله أمركم، وكره لكم القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

وعن عبد الله بن بارق الحنفى عن سماك ـ يعنى الحنفى ـ قال: قلت لابن عباس: قوم يظلموننا ويعتدون علينا فى صدقاتنا ألا نمنعهم؟ فقال: لا يا حنفى أعطهم صدقتهم وإن أتاك أهدل الشفتين منتفش المنخرين ـ يعنى زنجيًا ـ فأعطه، فنعم القلوص قلوص يأمن بها المرءوس عروسه ووطنه ـ يعنى امرأته ـ وقربة اللبن يا حنفى الجماعة الجماعة، إنما هلكت الأمم الخالية بتفرقها أما سمعت قول الله: ﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾.

قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره من أهل الأخبار قال: كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة بسبب سمير وحاطب، وذلك أن سميرًا هو سمير بن زيد بن مالك أحد بنى عمرو بن عوف، قيل: حليفًا لملك بن عجلان، (والآخر من) الخزرج يقال له: حاطب بن أبحر من مزينة، فوقعت بين القبيلتين الحرب، فزعم العلماء بأيام العرب أن تلك الحرب والعداوة تطاولت بينهم عشرين ومائة سنة، ولم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم، واتصلت تلك العداوة إلى أن أطفأها الله بالإسلام وألّف بينهم برسوله ﷺ وكان سبب ألفتهم وارتفاع وحشتهم أن سويد بن صامت أخا بنى عمرو بن عوف قدم مكة حاجًا أو معتمرًا وكان سويد إنما تسميه قومه الكامل لجلادته وشعره ونسبه وشرفه وحكمته، فقدم سويد مكة وكان رسول الله ﷺ قد بُعث وأمر بالدعوة إلى الله عزّ وجلّ، فتصدّى له حين سمع به، فدعاه النبى ﷺ إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام.

فقال له سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذى معك؟» قال: مجلة لقمان، يعنى حكمته، فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها علىَّ» فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل، هذا قرآن أنزله الله علىَّ نورًا وهدى». فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعده عنه وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعاث وكان قومه يقولون: قُتل وهو مسلم، ثم قدم أبو الجيش أنس بن رافع ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قوم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم فقال: «هل لكم إلى خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذلك؟ قال: «أنا رسول الله بعثنى الله إلى

العباد أدعوهم ألا يشركوا بالله شيئًا وأنزل علىَّ الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فقال إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا: أى قوم هذا والله خير ممّا جئتم به، فأخذ أبو الجيش أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين بنى الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار يعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع فى كل موسم، فبينا هو عند العقبة إذ لقى رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً، وهم ستة نفر أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء، ورافع بن ملك، وقطبة بن عارف، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟»

قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالى اليهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟».

قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: وكان ممّا صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل أوثان وشرك، وكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا: إن نبيّنا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبى الذى تدعوكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه وصدقوه وأسلموا وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم لك وستقدم عليهم فتدعوهم إلى حربهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز عليك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا. فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم لم تبق لهم دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر من رسول الله حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً وهم أسعد بن زرارة، وعوف ومعوّذ ابنا عفراء ورافع ابن مالك بن العجلانى الخزرجى وذكوان بن عبد القيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة وعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو فهؤلاء خزرجيون، وأبو الهيثم بن التيهان واسمه ملك وعويتم بن ساعدة من الأوس، فلقوه بالعقبة وهى العقبة الأولى

فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء على أن لا يشركوا بالله شيئًا ولا يزنوا إلى آخر الآية ثم قال: إن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئًا من ذلك فأخذتم (بحدّه) فى الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمْركم إلى الله إن شاء عذّبكم وإن شاء غفر لكم، قال: وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب، فلمّا انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم، وكان مصعب يسمى بالمدينة المقرئ، وكان أول مقرئ بالمدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة، فقال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما، فإنّ أسعد ابن خالتى، ولولا ذاك لكفيتك، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدى قومهما من بنى الأشهل، وكلاهما مشركان، فأخذ أسيد بن حضير حرسه ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان فى حائط، فلمّا رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيّد قومه قد جاءك والله، فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس نكلّمه، قال: فوقف عليهما مشتّمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفّهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكرهه، قال: أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن.

قال: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل، وتطهّر ثوبك ثم تشهد بشهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، فقام واغتسل وطهّر ثوبه، وشهد بشهادة الحق، ثم قام وصلّى ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما، فقال: لا نفعل إلاّ ما أحببت.

وفى الحديث أنّ بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه؛ وذلك أنّهم عرفوا أنّه ابن خالتك ليحقروك، فقام سعد مغضبًا مبادرًا للذى ذكره له، فأخذ الحربة منه، ثم قال: والله أراك أغنيت شيئًا، فلمّا رآهما مطمئنين عرف أنّ أسيدًا إنّما أراد أن يسمع منهما، فوقف

عليهما مشتمًا ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، تغشانا فى دارنا بما نكره، وقد قال لمصعب: جاءك والله سيد قومه إن تبعك لم يُخالفك منهم أحد، فقال له مصعب: أوَتقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته قد كفاك ما تكره، قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم فى إشراقه وتسهّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد بشهادة الحق، ثم تصلّى ركعتين، فقام فاغتسل فطهّر ثوبه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير، فلمّا رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلمّا وقف عليه قال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فما أمسى فى دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسيد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء من المسلمين إلاّ ما كان من بنى أمية بن زيد وحطمة ووائل وواقف، كان فيهم أبو قيس الشاعر وكانوا يسمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق قالوا: إنّ مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلاً مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق وهى بيعة العقبة الثانية.

قال كعب بن مالك ـ وكان شهد ذلك ـ: فلمّا فرغا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه، فكنّا نكتم عمّن معنا من المشركين من قومنا أمرنا، وكلّمناه وقلنا له: يا جابر إنّك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنّك ترغب بك عمّا أنت فيه أن نكون حطبًا للنار غدًا، ودعوناه إلى الإسلام فأسلم فأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة وكان تقيًا، فبتنا تلك الليلة فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله ﷺ فنتسلّل مستخفين تسلل القطا، حتى إذا اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى النجّار، وأسماء بنت عمرو بن عدى إحدى نساء بنى سلمة وهى أمّ منيع،

واجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاء ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنّه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثّق له فلمّا جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج. وكانت العرب إنما يسمّون هذا الحى من الأنصار: الخزرج؛ خزرجها وأوسها. إنّ محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا، وهو فى عزّ من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلاّ الانقطاع لكم واللحوق بكم.

فإن كنتم ترون أنكم وافون له ما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنّكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن دعوه فإنّه فى عز ومنعة.

قال: فقلنا: سمعًا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك ولربك ما شئت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام وقال: «أبايعكم على أن تمنعونى عمّا تمنعون منه نساءكم».

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذى بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فَبَايعْنَا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة وإنّا ورثناها كابراً عن كابر.

قال: فاعترض القول. والبراء يكلم رسول الله ﷺ. أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الناس حبالاً. يعنى اليهود. وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك (الله) أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم وأنتم منى وأنا منكم أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم».

وقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبًا كفلاء على قومهم بما فيهم، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام»، فأخرجوا اثنى عشر نقيبًا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس».

قال عاصم بن عمر بن قتادة: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة ابن نضلة الأنصارى: يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ إنّكم تبايعونه على حر الأسود والأحمر، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه، فمن الآن فهو والله خزى فى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون بالعهد له فيما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه، فأول من ضرب على يده البراء بن

معرور، ثم تتابع القوم. قال: فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب هل لكم فى مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا والله زنا العقبة اسمع أى عدو الله، أما والله لأفرغن لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «ارجعوا إلى رحالكم». فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا. فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فغدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، فإنه والله ما حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء وما علمناه. وصدقوا لم يعلموا. وبعضنا ينظر إلى بعض، فقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة كأنى أُريد أن أُشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ. وأنت سيد من ساداتنا. مثل نعلى هذا الفتى من قريش؟

قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إلىّ وقال: والله لتنتعلنّهما، فقال أبو جابر: والله أخفت الفتى فاردد إليه نعليه. قال: قلت: لا أردهما، قال: والله صلح، والله لئن صدق لأسلبنه.

قال: ثم انصرف أبو جابر إلى المدينة، وقد شدّدوا العقد، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشًا فآذوا أصحاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنّ الله قد جعل لكم إخوانًا وداراً تأمنون فيها».

فأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم الأنصار، فكان ممن هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، ثم عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبى خيثمة، ثم عبد الله بن جحش. ثم تتابع أصحاب رسول الله ﷺ إرسالاً إلى المدينة، فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة إلى أن أُذن، فقدم المدينة فجمع الله أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام، وأصلح ذات بينهم بنبيه محمد ﷺ، ورفع عنهم العداوة القديمة، وألّف بينهم، وذلك قوله ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر الأنصار إذ كنتم أعداء قبل الإسلام ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾: فصرتم، نظيره قوله فى المائدة: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٣٠) وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١) وفى حم السجدة ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ

ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٣) وفى الكهف: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ (الكهف: ٤١).

﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾: بدينه الإسلام ﴿إِخْوَٰنًا﴾ فى الدين والولاية، نظيره قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

وعن أبى سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كريز عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا - وأشار بيده إلى صدره - حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

أبو بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، وشبك بين أصابعه.

الشعبى عن النعمان بن بشير أنه قال للنبى ﷺ: المؤمنون كرجل واحد.

قال: «المؤمنون كرجل واحد لجسد إذا اشتكى رأسه تداعى له سائره بالحمى والسهر».

﴿وَكُنتُمْ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾. قال الراجز:

نحن حفرنا للحجيج سجلهْ   نابتة فوق شفاها بقلهْ

ومعنى الآية: كنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلاّ أن تموتوا على كفركم، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإيمان. قال: وبلغنا أنّ أعرابيًا سمع ابن عباس وهو يقرأ هذه الآية فقال: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها. فقال ابن عباس: خذوه من غير فقيه. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.



﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١٠٧ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝١٠٩ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ

ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ
أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا
بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞
لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى ولتكونوا أُمة: من صلة، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ (الحج: ٣٠)، ولم يرد اجتناب رجس الأوثان وإنما فاجتنبوا الأوثان وإنها رجس. واللام فى قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ : الإسلام ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ، وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: سمعنا ابن الزبير يقرأ: (ولتكن منكم أُمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون على ما أصابهم). وروى مثله عن عثمان . . . .(١).

فصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

روى حسان بن سليمان عن النبى ﷺ قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه».

وعن عبد الله بن عمر عن درة بنت أبى لهب قالت: جاء رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: «أأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلهم لأرحامه».

عن ابن عباس قال: قلنا: يا رسول الله، ما نعمل نأتمر بالمعروف حتى لا يبقى من المعروف شىء إلاّ ائتمرنا به، وننتهى عن المنكر حتى لا يبقى من المنكر شىء إلاّ انتهينا عنه، ولم نأمر بالمعروف ولم ننه عن المنكر، فقال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وانهوا عن المنكر وإن

(١) بياض بالأصل المخطوط.

لم تنتهوا عنه كله».

الشعبى عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الفاسق فى القوم كمثل قوم ركبوا سفينة فاقتسموها فصار لكل إنسان منها نصيب فأخذ رجل منهم فأسًا فجعل ينقر فى موضعه، وقال له أصحابه: أى شىء تصنع، تريد أن تغرق وتغرقنا؟ قال: هو مكانى، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا وإن تركوه غرق وغرقوا».

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشنآن الفاسقين؛ فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق، ومن شنأ المنافقين وغضب لله عز وجل غضب الله تعالى له».

وقال أبو الدرداء: لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانًا ظالمًا لا يجلّ كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا ينصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم.

وقال حذيفة اليمانى: يأتى على الناس زمان لئن يكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقال الثورى: إذا كان الرجل مُحبّبًا فى جيرانه محمودًا عند القوم فاعلم أنه مداهن.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ الآية. قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأُمّة. عن عبد الله بن شدّاد قال: وقف أبو أُمامة وأنا معه على رءوس الحرورية بالشام عند باب حمص أو دمشق فقال لهم كلاب النار، كلاب النار. مرتين أو ثلاثة. شرّ قتلى تظل السماء وخير قتلى قتلاهم. (قيل): أشىء من قبل رأى رأيته أو شىء سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: «إن هو من جل رأى رأيته، إنى إذن لجرىء إن لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلاّ مرة أو مرتين. حتى عدّ سبع مرات. ما حدثت به. فقال رجل فإنى رأيتك دمعت عيناك. قال: هى رحمة رحمتهم إنهم كانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، ثم قرأ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ ثم قال: هم الحرورية.

وروى قبيصة عن جابر أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لما نزل بباب من أبواب دمشق يقال له الجابية، حمد الله فأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ كمقامى فيكم ثم قال: «من سرّه بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد».

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ نصب على الظرف، أى فى يوم، وانتصاب الظرف على التشبيه بالمفعول وقرأ يحيى بن وثّاب (تِبيض وتِسود) بكسر التاءين. على لغة تميم. وقرأ

الزهرى: (تبياض وتسواد). فأما الذين (اسوادت).

و(المعنى) تبيض وجوه المؤمنين، وتسود وجوه الكافرين. وقيل: يوم تبيض وجوه المخلصين، وتسود وجوه المنافقين.

وقال عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسود وجوه قريظة والنضير. سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة رفع لكل قوم مما كانوا يعبدونه فيسعى كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، وهو قوله تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ (النساء: ١١٥)، فإذا انتهوا إليه حزنوا فيسود وجوههم من الحزن. ويبقى أهل القبلة واليهود والنصارى لم يعرفوا شيئًا مما رفع لهم، فيأتهم الله عز وجل فيسجد له من كان سجد فى دار الدنيا مطيعًا مؤمنًا، ويبقى أهل الكتاب والمنافقون كأنهم لا يستطيعون السجود ثم يؤذن لهم فيرفعون رءوسهم ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضًا، والمنافقون وأهل الكتاب قيام كأن فى ظهورهم السفافيد فإذا نظروا إلى وجوه المؤمنين وبياضها حزنوا حزنًا شديدًا واسودت وجوههم فيقولون: ربنا سوّدت وجوه من يعبد غيرك فما لنا مسودة وجوهنا فوالله ربنا ما كنا مشركين؟ فيقول الله للملائكة: انظروا كيف كذبوا على أنفسهم.

وقال أهل المعانى: ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها وثواب الله عز وجل، واسودادها حزنها وكآبتها وكسوفها بعملها وبعذاب الله تعالى يدل عليه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦) الآية. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ (يونس: ٢٧)، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢)، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٤).

ثم بين حالهم ومآلهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾، فيه اختصار يعنى: فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ واختلفوا فيه؛ فروى الربيع عن أبى العالية عن أُبىّ بن كعب أنهم كل من كفر بعد إيمانه بالله يوم الميثاق حين أخرجهم من صلب آدم (عليه السلام) وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، فيعرفهم الله عز وجل يوم القيامة بكفرهم فيقول: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ يوم الميثاق.

قال الحسن: هم المنافقون أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم.

وقال يونس بن أبى مسلم: سألت عكرمة عن هذه الآية فقال: لو فسرتها لم أخرج من تفسيرها ثلاثة أيام، ولكنى سأُجمل لك: هؤلاء قوم من أهل الكتاب كانوا مصدقين بأنبيائهم،

مصدقين بمحمد ﷺ قبل أن يبعث ، ولما بعث كفروا به ، فذلك قوله : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ .

وقال الآخرون : هم من أهل ملتنا .

قال الحارث الأعور : سمعت علياً (رضى الله عنه) على المنبر يقول : «إن الرجل ليخرج من أهله فما يؤوب إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به الجنة ، وإنّ الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملاً يستوجب به النار» . ثمّ قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية .

ثم نادى الذين كفروا بعد الإيمان ﴿أَكَفَرْتُم﴾ ، يدل عليه حديث النبى ﷺ : «يأتى على أُمتى زمان يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافراً يبيع دينه بعرض يسير من الدنيا» .

وقال أبو أُمامة الباهلى : هم الخوارج . وقال قتادة : هم أهل البدع كلهم .

ودليل هذه التأويلات قوله : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر : ٦٠) .

وقول النبى ﷺ : «ليردنّ الحوض من صحبتى أقوام حتى إذا رأيتهم اختلجوا دونى ، فلأقولن : أصحابى ، أصحابى ، فيقال لى : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى» .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هؤلاء أهل طاعته والوفاء بعهده ، ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ : جنّة الله ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إلى ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فيعاقبهم بلا جرم .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية .

قال عكرمة ومقاتل : نزلت فى ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ وسالم مولى أبى حذيفة ، وذلك أن ابن الصيف ووهب بن يهوذ اليهوديين قالا لهم : إن ديننا خير مما تدعوننا إليه ونحن خير وأفضل منكم . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين هاجروا مع النبى ﷺ إلى المدينة .

وروى جويبر عن الضحاك قال : هم أصحاب محمد خاصة الرواة الدعاة الذين أمر الله عز وجل بطاعتهم . يدل عليه ما روى السدى أن عمر بن الخطاب قال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ، قال : تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا .

وعن عمران بن الحصين قال : قال رسول الله ﷺ : «طوبى لمن رآنى ولمن رأى من رآنى ولمن رأى من رأى من رآنى» .

الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تسبوا

أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

وقال آخرون: هم جمع المؤمنين من هذه الأمة وقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ يعنى أنتم كقوله: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩) أى من هو فى المهد. وإدخال (كان) وإسقاطه فى مثل هذا المعنى واحد، كقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ (الأعراف: ٨٦) وقال فى موضع آخر: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ (الأنفال: ٢٦).

وقال محمد بن جرير: هذا بمعنى التمام، وتأويله: خلقتم ووجدتم خير أُمة.

وقال: معنا ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ عند الله فى اللوح المحفوظ، ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال قوم: للناس من صلة قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: يعنى أنتم خير الناس للناس. قال أبو هريرة: معناه كنتم خير الناس للناس يجيئون بهم فى السلاسل فيدخلونهم فى الإسلام. قتادة هم أُمة محمد ﷺ لم يؤمر نبى قبله بالقتال فيسبون من سبى الروم والترك والعجم فيدخلونهم فى دينهم، فهم خير أُمة أُخرجت للناس.

مقاتل بن حيان: ليس خلق من أهل الأديان ولا يأمرون من سواهم بالخير وهذه الآية يأمرون كل أهل دين وأنفسهم لا يظلم بعضهم بعضًا، بل يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر؛ فأُمّة محمد ﷺ خير أُمم الناس.

وقال آخرون: قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ من صلة قوله: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ ومعناه ما أخرج الله للناس أُمّة خيراً من أُمة محمد ﷺ فهم خير أُمة أقامت وأُخرجت للناس، وعلى هذا تتابعت الأخبار.

روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنّه سمع النبى ﷺ يقول فى قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «إنكم تتمّون سبعين أُمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل».

وروى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، منها ثمانون من هذه الأُمة».

نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أُمة إلاّ وبعضها فى النار، وبعضها فى الجنّة، وأُمتى كلّها فى الجنة».

ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أُمتى مثل المطر؛ لا يُدرى أوله خير أم آخره».

وعن أنس قال: أتى رسولَ الله أسقف فذكر أنه رأى فى منامه الأُمم كانوا يمنعون على الصراط . . . .[1] حتى أتت أُمة محمد ﷺ غراً محجلين قال: فقلت: من هؤلاء الأنبياء؟

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قالوا: لا، قلت: مرسلون؟ قالوا: لا، فقلت: ملائكة؟ قالوا: لا، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: أُمة محمد ﷺ غرًّا محجلين عليهم أثر الطهور، فلما أصبح الأسقف أسلم.

عن سعيد بن المسيب، عن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحرمت على الأُمم حتى تدخلها أُمتي».

وروى أبو بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أُمتي أُمة مرحومة، إذا كان يوم القيامة أعطى الله كل رجل من هذه الأُمة رجلاً من الكفّار فيقول: هذا فداؤك من النار».

وعن أنس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ فإذا بصوت يجيء من شعب، قال: «يا أنس، انطلق فانظر ما هذا الصوت»، قال: فانطلقت فإذا برجل يصلي إلى شجرة فيقول: «اللهم اجعلني من أُمة محمد المرحومة، المغفور لها، المستجاب لها، المتاب عليها». فأتيت رسول الله ﷺ، فأعلمته ذلك فقال: «انطلق فقل له إن رسول الله يقرئك السلام ويقول: من أنت؟». فأتيته فأعلمته ما قال رسول الله ﷺ، فقال: «أقرئ منّي رسول الله السلام وقل له: أخوك الخضر يقول: . . . .[1] أن يجعلني من أُمتك المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتاب عليها».

وقيل لعيسى (عليه السلام): يا روح الله، هل بعد هذه الأُمة أُمة؟ قال: «علماء حلماء حكماء، أبرار أتقياء، كأنهم من العلم أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله».

وبلغنا أن كعب الأحبار قيل له: لم لم تسلم على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وأسلمت على عهد عمر؟ فقال: لأن أبي دفع إلي كتابًا مختومًا، وقال: لا تفكّ ختمه. فرأيت في المنام أيام عمر (رضي الله عنه) قائلاً قال لي: إن أبي خانك في تلك الصحيفة، ففككتها فإذا فيها نعت أُمة محمد ﷺ: سالوما وعالوما وحاكوما وصافوحا وخاروجا، فسألوه عن تفسيرها، فقال: هو أن شعارهم أن يسلم بعضهم على بعض، وعلماؤهم مثل أنبياء بني إسرائيل، وحكم الله لهم بالجنّة، ويتصافحون فيغفر لهم ويخرجون من ذنوبهم كيوم ولدتهم أُمّهاتهم.

وقال يحيى بن معاذ: هذه الآية مدحة لأُمة محمد ﷺ ولم يكن ليمدح قومًا ثم يعذبهم.

ثم ذكر مناقبهم فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إلى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾. الآية. قال مقاتل: إنّ رءوس اليهود كعبًا وعديًا والنعمان وأبا رافع وأبا ياسر وكنانة وأبو صوريا عمدوا إلى مؤمنيهم عبد الله بن سلام وأصحابه: فآذوهم لإسلامهم، فأنزل الله تعالى

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ يعنى لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلاّ أذى باللسان يعنى وعيداً وطعنًا. وقيل: دعاء إلى الضلالة. وقيل: كلمة الكفر إن يسمعوها منهم يتأذوا بها ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، وهو جزم بجواب الجزاء، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ استأنف لأجل رءوس الآى لأنها على النون، كقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (المرسلات:٣٦). تقديرها: ثم هم لا ينصرون.

وقال فى موضع آخر: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ (فاطر:٣٦)؛ إذ لم يكن رأس آية.

قال الشاعر:

❖ ألم تسأل الربع القديم فينطق ❖

أى فهو ينطق.

قال الأخفش: قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ استثناء خارج من أول الكلام، كقول العرب: ما اشتكى شيئًا إلاّ خيراً، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ:٢٤، ٢٥) ولأن هذا الأذى لا يضرهم. ومعناه لكن أذًى.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾: حيثما وجدوا ولقوا، يعنى: حيثما لقوا غلبوا واستضعفوا وقتلوا فلا يؤمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾: عهد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: محمد والمؤمنين يردون إليهم الخراج فيؤمنونهم. وفى الكلام اختصار، يعنى: إلاّ أن يعتصموا بحبل، كقول الشاعر:

رأتنى بحبليها فصدّت مخافة   وفى الحبل روعاء الفؤاد فروق

أى أقبلت بحبليها.

وقال آخر:

حنتنى حانيات الدهر حتى   كأنى خامل أدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآنى   ولست مقيداً أنى بقيد

يعنى: رآنى مقيداً (بقيد).

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾. الآية. قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبد الله ابن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد وأسد بن عبيد ومن أسلم من اليهود قالت رءوس اليهود: ما آمن بمحمد إلاّ شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خسرتم حيث استبدلتم بدينكم دينًا غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ وسواء يقتضى شيئين اثنين فصاعداً، واختلفوا فى وجه هذه الآية فقال قوم: فى الكلام إضمار تقديره: ليسوا

سواء. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ وأخرى غير قائمة فتزلّ الأخرى لاكتفائه بذكر أحد الفريقين كقول أبى ذؤيب:

عصيت إليها القلب إنى لأمرها مطيع فما أدرى أرشد طلابها

أراد: أرشد أم غيّ، فحذفه لدلالة الكلام عليه.

وهذا قول مجموع مقدم كقولهم: (أكلونى البراغيث) و(ذهبوا أصحابك). وقال: تمام القول عند قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وهو وقف لأن ذكر الفريقين من أهل الكتاب قد جرى فى قولهم: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم قال ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ يعنى المؤمنين والفاسقين، ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾. الآية فهو مردود على أول الكلام، وهو مختار محمد بن جرير والزجاج، قال: وإن شئت جعلت قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ابتداءً لكلام آخر؛ لأنّ ذكر الفريقين قد جرى، ثمّ قال: ليس هذان الفريقان سواءً وهم، ثمّ ابتدأ فقال: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

قال ابن مسعود: معناها لا يستوى اليهود وأُمة محمد القائمة بأمر الله تعالى يعنى الثابتة على الحقّ المستقيم. ابن عباس: أُمّة قائمة مهتدية قائمة على أمر الله لن تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيّعوه. مجاهد: عادلة، السدى: مطيعة قائمة على كتاب الله وفرائضه وحدوده. وقيل: قائمة فى الصلاة. قال الأخفش: أُمة قائمة أى ذو أُمّة قائمة، والأُمة: الطريقة، من قولهم: أممت الشىء أى قصدته. قال النابغة:

❖ وهل يأثمن ذو أُمّة وهو طائع ❖

أى ذو طريقة.

ومعنى الآية ذوا طريقة مستقيمة.

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يقرءون كتاب الله. قال مجاهد: يتبعون، يقال: تلاه، أى اتّبعه. قال الشاعر:

قد جعلت دلوىَ تسيلينني ولا أريد تبع القرين

إنى لم أُردهما . . . .[1].

أى تستتبعنى.

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أى ساعاته، وإحداها إنىٌ مثل نحْى وأنحاء وإنًى مثل معًى.

قال الشاعر:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

حلو ومر كعطف القدح شيمته فى كل إنْى قضاء الليل ينتعل

أى تسليه آناء الليل بأمر مضى فيه ولم يتأخر.

قال الراجز فى اللغة الأخرى:

لله درّ جعفر أى فتى مشمّر عن ساقه كلّ إنى

وقال السدى: آناء الليل جوفه. الأوزاعى عن حسان عطية قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ركعتان يركعهما العبد فى جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن يشق على أمّتى لفرضتهما عليهم».

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أى يصلون؛ لأنّ التلاوة لا تكون فى الركوع والسجود، نظيره قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٦) أى يصلّون وفى القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ (الفرقان:٦٠) أى صلوا، وقوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ (النجم:٦٢). واختلفوا فى نزول الآية ومعناها؛ فقال بعضهم: هى قيام الليل عن مجمع بن يحيى الأنصارى عن رجل من بنى شيبة كان يدرس الكتب فقال: إنا نجد كلامًا من كلام الرب: أيحسب راعى إبل وغنم، إذا جنه الليل انخذل بكن وهو قائم وساجد آناء الليل.

ابن مسعود: هو فى صلاة العتمة، يصلونها ومن حولهم من أهل الكتاب لا يصلونها. عاصم عن رزين عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، قال: «أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله عز وجل ذه الساعة غيركم»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ حتى بلغ قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وروى الثورى عن منصور قال: بلغنا أنها نزلت فى قوم كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء.

وقال عطاء فى قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ الآية. تزيد أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى (عليه السلام) وصدقوا بمحمد ﷺ وكان من الأنصار منهم عدة قبل قدوم النبى ﷺ، منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمّد بن مسلمة وأبو قيس هرمة بن أنس، وكانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقرّون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله عز وجل بالنبى ﷺ فصدقوه ونصروه.

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾، قرأ الأعمش وحمزة ويحيى والكسائى وحفص وخلف: بالياء فيهما، إخبار عن الأمة القائمة. وهى قراءة ابن عباس واختيار أبى عبيدة. وقرأ

الآخرون بالتاء فيهما على الخطاب كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وهي اختيار أبي حاتم. وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعًا: الياء والتاء.

ومعنى الآية ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾: فلن يقدروا ثوابه، ولن يُجحدوا جزاءه بل يُشكر لهم ويجازون عليه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾: المؤمنين.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن
تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن
تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ
شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟
أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾، وإنما خص الأولاد؛ لأنهم أقرب الأنساب إليه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ﴾، إنما جعلهم من أصحابها؛ لأنهم من أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها كصاحب الرجل الذى لا يفارقه، وقرينه الذى لا يزايله. يدل عليه قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، قال يمان: يعنى نفقات أبى سفيان وأصحابه ببدر وأحد على عداوة الرسول ﷺ.

مقاتل: يعنى نفقة سفلة اليهود على علمائهم ورؤسائهم؛ كعب وأصحابه.

مجاهد: يعنى جميع نفقات الكفار فى الدنيا وصدقاتهم. وضرب الله مثلاً فقال: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾، قال ابن عباس: يعنى السموم الحارة التى تقتل، ومنه خلق الله الجان. ابن كيسان: الصر ريح فيها صوت ونار.

سائر المفسرين: برد شديد.

﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ﴾: زرع قوم ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله عز وجل ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾. ومعنى الآية: مثل نفقات الكفار فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها وقت حاجتهم إليها بعدما كانوا يرجون من عائدة نفعها كمثل زرع أصابه ريح بارد أو نار فأحرقته وأهلكته، فلن ينتفع أصحابه منه بشىء بعدما كانوا يرجون من عائدها نفعه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾. الآية. عن أبى أُمامة عن رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ قال: «هم الخوارج» قال ابن عباس: كان

رجل من المسلمين يواصل رجالاً من اليهود؛ لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع؛ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم. مجاهد: نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يصادقون المنافقين ويخالطونهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾: أولياء وأصفياء من غير أهل ملّتكم. والبطانة: مصدر يوضع موضع الاسم فسمى بها الواحد والاثنان والجميع والمذكر والمؤنث، قال الشاعر:

أُولئك خلصـانى نعم وبطانتى وهم عيبتى من دون كلّ قريب

وإنّما قيل لخليل الرجل: بطانة؛ تشبيهًا لما ولى بطنه من ثيابه لحلوله منه فى اطّلاعه من أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه محل ما ولى جسده من ثيابه. ثم ذكر العلة فى النهى عن مباطنتهم وعرفهم ما هم منطوون عليه من الغش والخيانة والبغى والغوائل فقال عز من قائل: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، أى لا يقصّرون ولا يتركون عهدهم وطاقتهم فيما يورّثكم فوق الشر والفساد. يقال: ما ألوته خيرًا أو شرًا أى ما قصرت فى فعل ذلك. ومنه قول ابن مسعود فى عثمان:

❖ ولم تألُ عن خير لأُخرى باديهْ ❖

وقال امرؤ القيس:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطـوب ولا آل

أى مقصرّ فى الطلب.

الخبال: الشر والفساد، قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (التوبة: ٤٧) ونصب ﴿خَبَالًا﴾ على المفعول الثانى؛ لأن الإلوَ تتعدى إلى مفعولين. وإن شئت: المصدر، أى يخبلونكم خبالاً. وإن شئت بنزع الخافض، أى بالخبال، كما يقال أوجعته ضربًا أى بالضرب ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى تمنوا ضرّكم وشركم وإثمكم وهلاككم. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ قراءة العامة بالتاء؛ لتأنيث البغضاء. ومعنى الآية قد ظهرت أمارة العداوة ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بالشتيمة والوقيعة فى المسلمين. وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين. وقيل: هو مثل قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ (محمد: ٣٠).

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ من العداوة والخيانة ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الأزهر بن راشد قال: كان أنس بن مالك يحدّث أصحابه، فإذا حدّثهم بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن يفسّره لهم، فحدثهم ذات يوم وقال: قال رسول الله ﷺ: «لا

تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربيًا».

فأتوا الحسن فأخبروه بذلك، فقال: أما قوله: «لا تنقشوا فى خواتيمكم عربيًا»، فإنه يقول: لا تنقشوا فى خواتيمكم محمدًا. وأما قوله: «لا تستضيئوا بنار المشركين»، فإنّه يقول لا تستشيروا المشركين فى شيء من أُموركم. وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية.

وقال عياض الأشعرى: وفد أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب، فقال: إن عندنا كاتبًا حافظًا نصرانيًا من حاله كذا وكذا. فقال: ما لك قاتلك الله؟ أما سمعت قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ (المائدة: ٥١)؟ هلا اتخذت حنيفيًا! قال: قلت: له دينه ولى دينى، ولى كتابته، لا أُكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلّهم الله ولا أُدنيهم إذ قصاهم الله.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾، (ها) تنبيه، و(أنتم) كناية للمخاطبين من الذكور، ﴿أُوْلَآءِ﴾ اسم الجمع المشار إليه ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ خبر عنهم. ومعنى الآية: أنتم أيها المؤمنون تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التى بينكم من المصاهرة والمحالفة والرضاع والقرابة والجوار، ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ هم؛ لما بينكم من مخالفة الدين. هذا قول أكثر المفسرين. وقال المفضل: معنى ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ تريدون لهم الإسلام، وهو خير الأشياء، ولا تبخلون عليهم بدعائهم إلى الجنة، ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ هم؛ لأنهم يريدونكم على الكفر وهو الهلاك. أبو العالية ومقاتل: هم المنافقون يحبهم المؤمنون بما أظهروا من الإيمان ولا يعلمون ما فى قلوبهم. قتادة: فى هذه الآية والله إنّ المؤمن ليحب المنافق ويلوى إليه ويرحمه، ولو أنّ المنافق يقدر على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾ يعنى بالكتب كلها ولا يؤمنون هم بكتابكم، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ وكان بعضهم من بعض ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ يعنى أطراف الأصابع، واحدتها أَنْمَلة وأَنْمُلة. بضم الميم وفتحها. ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ والحنق؛ لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم. وهذا من مجاز الأمثال وإن لم يكن ثم عضٌّ، قال الشاعر:

إذا رأونى أطـــال الله غيظهم ... عضوا من الغيظ أطراف الأباهيم

وقال أبو طالب:

وقد صالحوا قومًا علينا أشحّة ... يعضّون غيظًا خلفنا بالأنامل

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ ، إن قيل: كيف لا يموتون والله تعالى إذا قال لشىء كن فيكون؟

فالجواب: أن المراد ابقوا بغيظكم إلى الممات فإن مناكم عن الإسعاف محجوبة.

وقال محمد بن جرير: خرج هذا الكلام مخرج الأمر وهو دعاء أمر الله تعالى نبيه ﷺ أنه يدعو عليهم بالهلاك كمداً مما بهم من الغيظ، قل يا محمد: اهلكوا بغيظكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فى القلوب من خير وشر. روى عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء قال: ذكر أصحاب الأهواء فقال والذى نفسى بيده لئن تمتلئ دارى قردة وخنازير أحب إلىّ من أن يجاورنى رجل منهم. يعنى صاحب هوًى، ولقد دخلوا فى هذه الآية: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الآية.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ ، قرأ السلمى بالياء. الباقون بالتاء. يعنى: إن تصبكم أيها المؤمنون ﴿حَسَنَةٌ﴾ بظفركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم وتتابع من الناس فى الدخول فى دينكم وخفض فى معاشكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ : تحزنهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مساءة بإخفاق سريّة لكم، أو إصابة عدو فيكم أو اختلاف يكون منكم، أو حدث ونكبة ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ وتخافوا ربّكم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ : لا ينقصكم ﴿كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ .

واختلفت القراءة فيه؛ فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ . بكسر الضاد (وراء) خفيفة. واختاره أبو حاتم، يقال: ضار يضير ضيراً مثل باع يبيع بيعًا، ودليله فى القرآن: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ (الشعراء: ٥٠). وهو جزم على جواب الجزاء.

وقرأ الضحاك بضم الضاد وجزم الراء خفيفة من (ضار يضور)، وذكر الفرّاء عن الكسائى أنه سمع بعض أهل العالية يقول: لا ينفعنى ذلك ولا يضورنى. وقرأ الباقون: بضم الضاد، والراء مشددة، واختاره. وهو من (ضرّ يضرّ ضرًا)، مثل (ردّ يرد ردا). وفى رائه وجهان:

أحدهما: أنه أراد الجزم وأصله لا يضرركم فأُدغمت الراء فى الراء، ونقلت ضمة الراء الأُولى إلى الضاد وضُمت الراء الأخيرة إتباعًا لأقرب الحركات إليها وهى الضاد؛ طلبًا للمشاكلة كقولهم: مرّ يا هذا.

والوجه الثانى: أن يكون (لا) بمعنى ليس ويضمر الفاء فيه، تقديره: وإن تصبروا وتتّقوا فليس يضركم. قاله الفرّاء وأنشد:

فإن كان لا يرضيك حتى تردنى ... إلى قطرى لا أخالك راضيا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ الأعمش والحسن: بالتاء. الباقون بالياء ﴿مُحِيطٌ﴾ عالم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية. نظم الآية: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا ولكن الله تعالى ينصركم عليهم كما نصركم ببدر وأنتم أذلة، وإن أنتم لم تصبروا على أمرى ولم تتقوا نهيى، فإنه نازل بكم ما نزل بكم يوم أحد حيث خالفتم أمر الرسول ولم تصبروا، فاذكروا ذلك اليومَ أو غدًا بينكم ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ واختلفوا فى هذا اليوم الذى عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ فقال الحسن: هو يوم بدر. وقال مقاتل: هو الأحزاب. وقال سائر المفسرين: هو أحد، وهو أثبت. يدل عليه قوله فى عقبه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهذا إنما كان يوم أُحد.

قال مجاهد والكلبى والواقدى: غدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة فمشى على رجليه إلى أحد، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح إن رأى صدرًا خارجًا قال: «تأخر».

وذلك أن المشركين نزلوا بأُحد. على ما ذكر محمد بن إسحاق والسدى عن رجالهما. يوم الأربعاء، فلما سمع رسول الله ﷺ بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبد الله بن أبى بن سلول. ولم يدعه قط قبلها. واستشاره، فقال عبد الله بن أبى وأكثر الأنصار: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلاّ أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم يا رسول الله؛ فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، فإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فأعجب رسول الله بهذا الرأى.

وقال بعض أصحابه: يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا. فأتى النعمان بن مالك الأنصارى فقال: يا رسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلنّ الجنة. فقال: «بِمَ؟». فقال: بأنى أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنى لا أفر من الزحف، قال: «صدقت». فقتل يومئذ، فقال رسول الله ﷺ: «قد رأيت فى منامى بقرًا فأَوَّلتها خيرًا، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمًا فأَوَّلتها هزيمة ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأَوَّلتها المدينة؛ فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم؛ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا المدينة علينا قاتلناهم فيها».

وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتل فى الأزقة فقال رجال من المسلمين ممن كان ذا سهم يوم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا برسول الله من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ، فلبس لأمته فلما رأوه لبس

السلاح ندموا وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه؟ فقاموا واعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما رأيت. فقال ﷺ: «إنه ليس لنبي أن يلبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

وكان قد أقام المشركون بأُحد يوم الأربعاء والخميس، فراح رسول الله ﷺ بعد يوم الجمعة بعدما صلّى بأصحابه الجمعة، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم خرج إليهم فأصبح بالشعب من أُحد يوم السبت النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان من أمر حرب أُحد ما كان، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قرأ يحيى بن ثاب: (تبوى) المؤمنين خفيفة غير مهموزة من (أبوى يبوى) مثل (أروى يروى). وقرأ الباقون: مهموزة مشددة يقال: بوأت تبوئة، وأبويتهم إبواء، إذا أوطنتهم، وتبوّءوا إذا تواطنوا، قال الله تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ (يونس: ٨٧)، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الحشر: ٩).

والتشديد أفصح وأشهر، وتصديقه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ (يونس: ٩٣)، وقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ (العنكبوت: ٥٨).

وقرأ ابن مسعود: تبْوئ للمؤمنين.

﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، أي مواطن وأماكن، قال الله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ (القمر: ٥٥)، وقال: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ (الجن: ٩). وقرأ أشهب: (مقاعد للقتال). ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾: تجبنا وتضعفا وتتخلّفا عن رسول الله ﷺ، وهم بنو أُسامة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد في ألف رجل، وقيل: تسعمائة وتسعين رجلاً، وقال الزجاج: كان أصحاب رسول الله ﷺ في أُحد وقت القتال ثلاثة آلاف، فخرج رسول الله ﷺ إلى أُحد وقد وعد أصحابه الفتح إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخزل عبد الله بن أُبيّ الخزرجي ثلث الناس فرجع في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال: أُنشدكم الله في نبيكم وفي أنفسكم. فقال عبد الله بن أُبي: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم. وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أُبي فعصمهم الله فلم ينصرفوا، ومضوا مع رسول الله ﷺ، فذكرهم الله عظيم نعمته بعصمته فقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ناصرهما وحافظهما. وقرأ ابن مسعود: (والله وليهم) لأنّ الطائفتين جمع، كقوله: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ (الحج: ١٩). ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقال جابر بن عبد الله: ما يسرنا أنا لهم نهمّ بالذي هممنا، وقد أخبرنا الله أنه ولينا.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ قال الشعبى : كانت بدر بئر رجل يقال له بدر فسميت باسم صاحبها . قال الواقدى : ذكرت قول الشعبى لعبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح فأنكراه وقالا : فلأى شىء سميت الصفراء؟ ولأى شىء سميت الجار؟ هذا ليس بشىء ، إنما هو اسم الموضع . قال : وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفارى فقال : سمعت شيوخنا من بنى غفار يقولون هو ماؤنا ومنزلنا ، وما ملكه قط أحد غيرنا ، وما هو وهؤلاء من بلاد جهينة ، إنما هو من بلاد غفارة .

التقى رسول الله ﷺ والمشركون بها ، وكان أول قتال قاتل فيه نبى الله ﷺ . وقال الضحاك : بدر ماء بمنى على طريق مكة بين مكة والمدينة .

وقد قصدت القول فى غزوات رسول الله ﷺ وسراياه وجيزًا مجملاً ؛ فإنّه باب يعظم نفعه وبالله التوفيق .

ذكر مغازى رسول الله ﷺ

جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه ستّ وعشرون غزوة ، فأول غزوة غزاها غزوة ودّان ، وهى غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط إلى ناحية رضوى ، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ، ثم غزوة بدر الأُولى بطلب كرز بن جابر ، ثم غزوة بدر الكبرى التى قتل الله فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم حتى بلغ الكدر ماءً لبنى سليم ، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم غزوة ذى أمر وهى غزوة غطفان إلى نجد ، ثم غزوة نجران : موضع بالحجاز فوق الفرع ، ثم غزوة أُحد ثم غزوة الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد ، ثم غزوة بدر الأخيرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة بنى قردة ، ثم غزوة بنى المصطلق من بنى جزاعة لقى فيها ، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالاً فصده المشركون ، ثم غزوة خيبر ، ثم غزوة الفتح : فتح مكة ، ثم غزوة حنين لقى فيها ، ثم غزوة الطائف حاصر فيها ، ثم غزوة تبوك .

قاتل منها فى تسع غزوات : غزوة بدر الكبرى ، وهو يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، وأُحد فى شوال سنة ثلاث ، والخندق ، وبنى قريظة فى شوال سنة أربع ، وبنى المصطلق ، وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس ، وخيبر سنة ست ، والفتح فى رمضان سنة ثمان ، وحنين فى شوال سنة ثمان . فأوّل غزوة غزاها بنفسه وقاتل فيها بدر وآخرها تبوك .

ذكر سراياه ﷺ

روى عن مقسم قال: كانت السرايا ستًا وثلاثين، وهى غزوة عبيدة بن الحارث إلى حنا من أسفل ثنية المرة وهو ما بالحجارة، ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية الفايض. وبعض الناس يقدم غزوة حمزة على غزوة عبيدة. وغزوة سعد بن أبى وقاص إلى الخرار من أرض الحجاز، ثم غزوة عبد الله بن جحش إلى نخلة، وغزوة زيد بن حارثة القردة ماء من مياه نجد، وغزوة مرثد بن أبى مرثد الغنوى الرجيع لقوا فيها، وغزوة منذر بن عمرو بئر معونة لقوا فيها، وغزوة أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة من طريق العراق، وغزوة عمر بن الخطاب تربة من أرض بنى عامر، وغزوة على بن أبى طالب اليمن، وغزوة غالب بن عبد الله الكلبى كلب ليث الكديد لقوا فيها الملوح، وغزوة على بن أبى طالب إلى أبى عبد الله بن سعد من أهل فدكَ، وغزوة ابن أبى العوجاء السلمى أرض بنى سليم أُصيب بها هو وأصحابه جميعًا، وغزوة عكاشة بن محصن العمرة، وغزوة أبى سلمة بن عبد الأسد قطن ماء من مياه بنى أسد من ناحية نجد لقوا فيها فقتل فيها مسعود بن عروة، وغزوة محمد بن مسلمة أخى بنى حارثة إلى القرطاء موضع من هوازن، وغزوة بشير بن سعد بن كعب بن مرة لفدك، وغزو بشير بن سعد أيضًا إلى حيان بلد من أرض خيبر، وغزوة زيد بن حارثة الجموم من أرض بنى سليم، وغزوة زيد أيضًا جذام من أرض حسمى لقوا فيها، وغزوة زيد أيضًا إلى طرف من ناحية نخل من طريق العراق، وغزوة زيد أيضًا وادى القرى لقى بنى فزار، وغزوة عبد الله بن رواحة خيبر مرتين إحداهما التى أصاب فيها بشرًا اليهودى، وغزوة عبد الله بن عتيك إلى حنين فأصاب بها أبا رافع بن أبى الحقيق.

وكان رسول الله ﷺ بعث محمد بن مسلمة وأصحابه فيها من أُحد وبدر إلى كعب بن الأشرف فقتلوه، وبعث عبد الله بن أنيس إلى خالد بن سفيان الهذلى وهو بنخلة لرسول الله ﷺ ليغزوه فقتله، وغزوة الأُمراء: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة إلى مؤتة من أرض الشام فأُصيبوا بها، وغزوة كعب بن عمرو الغفارى ذات الطلاح من أرض الشام فأُصيب بها هو وأصحابه جميعًا، وغزوة عيينة بن حذيفة بن بدر الفزارى العنبر من بنى تميم، وغزوة غالب بن عبد الله الكلبى كلب ليث أرض بنى مرة فأصاب بها مرداس بن نهيك وحليفًا لهم من جهينة، قتله أُسامة بن زيد، وهو الذى قال النبى ﷺ لأسامة فيه: «من لك؟

من لك لا إله إلاّ الله؟».

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بُلَى وعذرة، وغزوة أبى قتادة وأصحابه إلى بطن إضم قبل الفتح لقوا فيها، وغزوة الخيط إلى سيف البحر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح وغزوة عبد الرحمن بن عوف.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: جمع ذليل مثل عزيز وأعزة ولبيب وألبّة. وأراد ههنا قلّة العدد، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ واختلفوا فى هذه الآية: فقال قتادة: . . . .[1] يوم بدر أمدهم الله بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. يدل عليه قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٩)، الآية، وقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، فصبر المؤمنون يوم بدر، واتّقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم، فهذا كله يوم بدر. الحسن: فهؤلاء الخمسة آلاف رد للمؤمنين إلى يوم القيامة. وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة إلاّ يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً ومدداً. وقال عمر بن أبى إسحاق: لما كان يوم أُحد انجلى عن رسول الله ﷺ، وبقى سعد بن مالك يرمى، وفتىً شاب ينبل له فلمّا فنى النبل أتاه به فنثره فقال: ارمِ أبا إسحاق ارمِ أبا إسحاق. كرتين. فلما انجلت المعركة سئل عن الرجل فلم يعرف.

وقال الشعبى: بلغ رسول الله ﷺ والمسلمين يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يمدّ المشركين، فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، فلما بلغ الكرز الهزيمة فرجع ولم يأتهم ولم يمدّهم أمدّهم الله أيضًا بخمسة آلاف، وكانوا قد أمدوا بألف.

وقال آخرون: إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته فاتقوا محارمه أن يمدّهم فى حروبهم كلها فلم يصبروا ولم يتقوا إلاّ فى يوم الأحزاب فأمدهم الله تعالى حتى حاصروا قريظة. قال عبد الله بن أوفى: كنا محاصرى بنى قريظة والنضير ما شاء الله أن نحاصرهم فلم يفتح علينا فرجعنا، فدعا رسول الله ﷺ بغسل، فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبرئيل (عليه السلام) فقال: «يا محمد، وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها؟». فدعا رسول الله ﷺ بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله ثمّ نادى فينا فقمنا كالّين متعبين لا نعبأ السير شيئًا حتى أتينا بنى قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة، ففتح الله لنا فتحًا يسيراً وانقلبنا بنعمة الله وفضل.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال قوم: إنما كان هذا يوم أحد، وعدهم الله عز وجل المدد إن صبروا، فلم يصبروا؛ فلم يُمدوا ولا بملك واحد (و) لو أُمدّوا لما هزموا. وهو قول عكرمة والضحاك. وكان هذا يوم أُحد حين انصرف أبو سفيان وأصحابه؛ وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان يخاف أن يدخل المشركون المدينة، فبعث على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فقال: «اخرج على آثار القوم فانظر ما يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد أجبنوا الخيل وركبوا وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأُناجزنهم».

قال على (رضى الله عنه): «فخرجت فى آثارهم أنظر ما يصنعون، فإذا هم قد أجبنوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال: أى ذلك كان فأخفه حتى تأتينى، فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة أقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم لما بى من الفرح وانصرفوا إلى مكة وانصرفنا إلى المدينة، فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ يعنى أن انصرفوا إليكم ودخلوا المدينة. وفى قراءة أُبى (ألا يكفيكم أن يمدكم ربكم)، أى يعطيكم ويعينكم.

قال المفضل: كل ما كان على جهة القوة والإعانة، قيل فيه: أمده يمده إمداداً، وكل ما كان على جهة الزيادة قيل: مدّه يمدّه مداً، ومنه قوله: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (لقمان: ٢٧).

وقال بعضهم: المد فى الشر، والإمداد فى الخير. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥) وقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ (مريم: ٧٩).

وقال فى الخير ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾ (الأنفال: ٩). وقال: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ﴾. وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ (الإسراء: ٦).

وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (المؤمنون: ٥٥). وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ﴾ (الطور: ٢٢)، وقال: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح: ١٢)، ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾. قرأ أبو حيوة: بكسر الزاى، مخففًا، يعنى منزلين النصر. وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف وعمر بن ميمون وابن عامر مشددة مفتوحة الزاى على التكثير. وتصديقه قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ (الأنعام: ١١١).

وقوله: ﴿مُنزَلِينَ﴾. وقرأ الآخرون: بفتح الزاى خفيفة. ودليله قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ (الفرقان: ٢١) وقوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٢٦). وتفسير الإنزال:

جعل الشىء من علو إلى سفل، ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ وهو تصديق لقول الله تعالى وقول رسول الله ﷺ.

﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ لعدوكم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معصية ربكم.

﴿وَيَأۡتُوكُم﴾ من المشركين، ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ قال عكرمة والحسن وقتادة والربيع والسدى وابن زيد: من وجههم هذا، وهو رواية عطية عن ابن عباس. مجاهد والضّحاك وزاذان: من غضبهم هذا، وكانوا قد غضبوا يوم أُحد ليوم بدر ممّا لقوا، وأصل الفور: القصد إلى الشىء والأخذ فيه بحدّه، وهو من قولهم: فارت القدر تفور فوراً وفوراناً إذا غلت ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ (هود: ٤٠، المؤمنون: ٢٧)، قال الشاعر:

تفور علينا قدرهم فيديمها ويفثأُها عنا إذا حَمْيُها غلا

﴿بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: بكسر الواو، واختاره أبو حاتم، وقرأ الباقون: بالفتح، واختاره أبو عبيد، فمن كسر الواو أراد أنّهم سوّموا خيلهم، ومن فتح أراد به أنفسهم، والسّومة: العلامة التى يعلّم بها الفارس نفسه فى الحرب، واختلفوا فى هذه السّمة الموصوفة بها الملائكة فى هذه الآية ما هى، فقال عمير بن إسحاق: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم بدر: «تسوّموا، فإن الملائكة قد تسوّمت بالصوف الأحمر فى قلانسهم ومغافرهم». الضحاك وقتادة: (بالعهن) فى نواصيها وأذنها. مجاهد: كانت مجزوزة أذناب خيلهم وأعرافها ونواصيها (معلّمة)، الربيع: كانوا على خيل بلق، علىّ وابن عباس رضى الله عنهم: كانت عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، هشام بن عروة الكلبى: عمائم صفر مرخاة على أكتافهم.

وقال عبد الله بن الزبير: إن الزبير كانت عليه ملاءة صفراء وعمامة صفراء يوم بدر، فنزلت الملائكة يوم بدر مسوّمين بعمائم صفر.

وروى الزبير بن المنذر عن جدّه أبى أسيد وكان بدريًا قال: لو كان بصرى فرّج عنه، ثم ذهبتم معى إلى بدر لأريتكم الشعب التى خرجت منه الملائكة فى عمائم صفر قد طرحوها بين أكتافهم، وقال عكرمة: كانت عليهم سيماء القتال، السدى: سيماء المؤمنين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ يعنى: هذا الوعد والمدد ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ لتستبشروا به. ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ ولتسكن قلوبكم إليه، فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلّة عددكم.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لأن العزّ والحكم له وهو: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ نظيرها فى الأنفال، ثم قال: واستعينوا بالله وتوكلوا عليه ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا﴾. نظم الآية: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع

طرفًا، أى: ليهلك طائفة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ نظيره قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ (الأنعام:٤٥) أى: أهلك، وفى الأنفال: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال:٧)، وفى الحجر: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (الحجر:٦٦)، السدى: معناه ليهدم ركنًا من أركان الشرك بالقتل والأسر، فقتل من سادتهم وقادتهم يوم بدر سبعين، وأُسر منهم سبعون.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ بالخيبة ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ لم ينالوا شيئًا ممّا كانوا يرجون من الظفر بكم. وقال الكلبى: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أو يهزمهم بأن يصرعهم لوجوههم. المؤرّخ: يخزيهم. النضر بن شميل: يغيظهم، المبرّد: يظفر عليهم، السدىّ: يلعنهم، أبو عبيدة: يهلكهم، قالوا: وأهل النظر يرون التاء منقلبة عن الدال، لأن الأصل فيه يكبدهم، أى: يصيبهم فى أكبادهم بالحزن والغيظ، يقال: قد أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كبده ويقول العرب للعدوّ: أسود الكبد، قال الأعشى:

فما أجشمت من إتيان قوم هم الأعداء والأكباد سود

كأنّ الأكباد لمّا احترقت بشدّة العداوة اسودّت، والتاء والدال يتعاقبان، كما يقال: هرت الثوب وهرده، إذا خرقه، يدل على صحة هذا التأويل قراءة لاحق بن حميد: أو يكبدهم، بالدّال.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية، فقال عبد الله بن مسعود: أراد النبى ﷺ أن يدعو على المدبرين عنه من أصحابه يوم أُحد، وكان عثمان منهم، فنهاه الله عزّ وجلّ عن ذلك وتاب عليهم، فأنزل هذه الآية، وقال عكرمة وقتادة: أَدْمى رجل من هذيل يقال له عبد الله بن قمية وجه رسول الله ﷺ يوم أُحد، فدعا عليه رسول الله ﷺ، وكان حتفه أن سلّط الله عليه تيسًا فنطحه حتى قتله.

وشجّ عتبة بن أبى وقاص رأسه، وكسر رباعيته فدعا عليه، وقال: «اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافرًا» قال: وما حال عليه الحول حتى مات كافرًا، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الكلبى والربيع: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم أُحد، وقد شجّ فى وجهه وأُصيبت رباعيته، فهمّ رسول الله ﷺ أن يلعن المشركين ويدعو عليهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، لعلمه فيهم أن كثيرًا منهم سيؤمنون، يدلّ عليه ما روى أبو بكر بن عياش، عن حميد، عن أنس قال: لمّا كان يوم أُحد شجّ رسول الله ﷺ فى فوق حاجبه وكسرت رباعيته وجرح فى وجهه، فجعل يمسح الدم فى وجهه؛ وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم، ورسول الله ﷺ يقول: «كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى

ربّهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقال سعيد بن المسيّب، والشعبى، ومحمد بن إسحاق بن يسار: لمّا قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيّه». علت عالية من قريش على الجبل، فقال رسول الله: «(اللهم إنه) لا ينبغى لهم أن يعلونا»، فأقبل عمر ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم، ونهض رسول الله إلى صخرة ليعلوها وقد كان ظاهراً بين درعين فلم يستطع، فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة الجنة»، فوقفت هند والنسوة معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأُنوف، حتى أخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشيًا، وبقرت من كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع فلفظتها، ثم علت صخرة مشرفة فصرخت:

نحن جزيناكم بيوم بدر — والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان من عتبة لى من صبر — أبى وعمى وأخى وبكرى
شفيت صدرى وقضيت نذرى — شفيت وحشى من غليل صدرى

قالوا: وقال عبد الله بن الحسن: قال حمزة: اللهم إن لقينا هؤلاء غداً فإنّى أسألك أن يقتلونى ويبقروا بطنى ويجدعوا أنفى وأُذنى، فتقول لى يوم القيامة: فيم فعل بك هذا؟ فأقول: فيك. فلمّا كان يوم أُحد قتل فبقر بطنه وجدعت أُذنه وأنفه، فقال رجل سمعه: أمّا هذا فقد أُعطى فى نفسه ما سأل فى الدنيا، والله يعطيه ما سأل فى الآخرة.

قالوا: فلمّا رأى رسول الله ﷺ والمسلمون ما بأصحابهم من جدع الآذان والأُنوف وقطع المذاكير، قالوا: لئن أدالنا الله عليهم لنفعلنّ بهم مثل ما فعلوا، ولنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قطّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال عطاء: قام رسول الله ﷺ بعد أُحد أربعين يومًا يدعو على أربعة من ملوك كندة: مسرح، وأحمد، ولحى، وأخيهم العمردة، وعلى معن من هذيل، يقال لهم: لحيان، وعلى بطون من سليم وعلى ذكوان وعصبة والقارة، وكان يقول: «اللّهم اشدد وطاءك على مُضر واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»، فأجاب الله دعاه وقحطوا حتى أكلوا أولادهم وأكلوا الكلاب والميتة والعظام المحرقة، فلمّا انقضت الأربعون نزلت هذه الآية.

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أُميّة»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وأسلموا فحسن إسلامهم.

الزهرى عن سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ قال فى صلاة الفجر حين رفع رأسه من الركوع: «ربّنا لك الحمد اللهم العن فلانًا وفلانًا»، دعا على ناس من المنافقين فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية فى بئر معونة وهم سبعون رجلاً من قرّاء أصحاب رسول الله ﷺ أميرهم المنذر بن عمرو، وبعثهم رسول الله ﷺ إلى بئر معونة فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد، ليعلّموا الناس القرآن والعلم، فقتلوهم جميعًا.

عامر بن الطفيل: وكان فيهم عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق فلما قتل رفع بين السماء والأرض، فوَجد رسول الله ﷺ من ذلك وَجدًا شديدًا وحزن عليهم شهرًا فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وهذه الآية وإن كانت لفظًا للعموم، فالمراد منها الخصوص تقديرها: ليس لك من الأمر بهواك شىء. واللام فى قوله: ﴿لَكَ﴾ بمعنى (إلىّ) كقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ (آل عمران: ١٩٣) وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ (الأعراف: ٤٣) ونحوهما.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ ليس لك من الأمر شىء وهو وجه حسن.

وقال بعضهم: (أو) بمعنى (حتى) يعنى: ليس لك من الأمر شىء حتى يتوب عليهم أو يعذبهم.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ إلى ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾.

قرأ أبو جعفر وشيبة مضعَّفة.

عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ هو أن الرجل كأن يكون له على الرجل مال فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول المطلوب أخّر عنّى فأزيدك على مالك فيفعلان ذلك فوعظهم الله تعالى.

فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فى أمر الربا فلا تأكلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ثم خوفهم فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ وفيه دليل على أن النار مخلوقة ردًا على الجهمية، لأن المعدوم لا يكون معدًا ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكى ترحموا فلا تعذبوا ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية.

قال عطاء: إن المسلمين قالوا للنبى ﷺ: بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله عزّ وجلّ منّا وكانوا إذا أذنبوا أصبحت كفارة ذنوبهم مكتوبة فى عتبة بابهم: اجدع أنفك اجدع أذنك افعل كذا وكذا، فسكت عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى سابقوا إلى الأعمال التى توجب المغفرة. وحذف أهل المدينة والشام الواو منه.

واختلفوا فى العلة الجالبة لهذه المغفرة.

فقال ابن عباس: سارعوا إلى الإسلام، أبو العالية وأبو روق: إلى الهجرة، على بن أبى طالب كرم الله وجهه: إلى أداء الفرائض، عثمان بن عفان: الإخلاص، أنس بن مالك: هى التكبيرة الأولى، سعيد بن جبير: إلى أداء الطاعة، يمان: إلى الصلاة الخمس، الضحاك: إلى الجهاد عكرمة: إلى التوبة، مقاتل: إلى الأعمال الصالحة، أبو بكر الوراق: إلى اتّباع الأوامر والانتهاء عن الزواجر، سهل بن عبد الله: إلى السنّة، بعضهم: إلى الجمع والجماعات.

﴿وَجَنَّةٍ﴾ يعنى إلى جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أى عرضها كعرض السموات والأرض كقوله ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (لقمان: ٢٨) أى كبعث نفس واحدة.

قال الشاعر:

حسبت بغام راحلتى عناقًا ... وما هى ويب غيرك بالعناق

يريد صوت عناق.

ودليل هذا التأويل قوله فى سورة الحديد: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١) يعنى لو بسطت ووصل بعضها إلى بعض إنما أخص العرض على المبالغة لأن طول كل شىء فى الأغلب أكثر من عرضه يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها. يدل عليه قول الزهرى إنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلاّ الله كقوله ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا﴾ (الرحمن: ٥٤) فوصف البطانة بحسن ما يعلم من الزينة إذ معلوم أن الظواهر يكون أحسن وأنفس من البطائن.

وقال أكثر أهل المعانى: لم يرد العرض الذى هو ضد الطول وإنما أراد سعتها وعظمها، كقول العرب: هو أعرض من الدهنا، أى أوسع.

وقال جرير:

لجّت أمامة فى لومى وما علمت ... عرض السماوة روحاتى ولا بكرى

وأنشد الأصمعى:

يجبن بنا عرض الفلاة ... وما لنا عليهنّ إلاّ وخدهن سقاء

وقال آخر:

كأنّ بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كفه حابل

وعلى هذا التمثيل لا يريد أنها كالسموات والأرض، بل معناه كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم، لأنهما لا بد زائلتان كقوله: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ

﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ (هود:١٠٧) لأنهم لا بد زائلتان.

وقال يعلى بن مرة: لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص شيخًا كبيرًا قال: قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل فناول الصحيفة رجلاً عن يساره قال: قلت: مَن صاحبكم الذى يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب صاحبى: إنك كتبت إلىّ تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض (أعدّت للمتّقين) فأين النار؟ فقال رسول الله: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار».

وروى طارق بن شهاب: أن ناسًا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه قالوا: أرأيت قولكم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ فأحجم الناس، فقال عمر (رضى الله عنه): أرأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار، وإذا جاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: إنما لمثلها فى التوراة.

وسئل أنس بن مالك عن الجنة: أفى الأرض أم فى السماء؟ فقال: أى أرض وأى سماء تسع الجنة؟ قيل: وأين هى؟ قال: فوق السموات السبع تحت العرش.

وقال قتادة: كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع، وأن جهنم تحت الأرضين السبع.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ يعنى فى العسر واليسر والشدة والرخاء، فأول خُلق من أخلاقهم الموجودة هو الحب والسخاء، ولهذا أخبرنا أحمد ابن عبد الله، (ثنا زيد بن عبد العزيز أبو جابر ثنا جحدر ثنا بقية ثنا الأوزاعى عن الزهرى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ): «الجنة دار الأسخياء».

وروى الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار».

قال رسول الله ﷺ «السخى الجهول أحب إلى الله من العالم البخيل».

عبد السلام بن عبد الله عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «السماح شجرة فى الجنة أغصانها فى الدنيا من تعلق بغصن من أغصانها قادته إلى الجنة، والبخل شجرة فى النار أغصانها فى الدنيا من تعلق بغصن من أغصانها قادته إلى النار».

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أى الجامعين الغيظ عند امتلاء أنفسهم منه، والكافين غضبهم عن إمضائه يردّون غيظهم وحزنهم إلى أجوافهم ويصبرون فلا يظهرون، وأصل الكظم: حبس الشىء عن امتلائه، يقال: كظمت القربة إذا ملأتها، وما يقال لمجارى الماء: كظائم، لامتلائها

بالماء وأخذ بها كظامة، ومنه قيل: أخذت بكظمه، يعنى بمجارى نفسه، ومنه كظم الإبل وهو حبسها جررها فى أجوافها ولا تجتر، وإنما يفعل ذلك من الفزع والجهل.

قال أعشى باهلة يصف رجلاً نحّاراً للإبل وهى تفزع منه:

قد تكظم البزل منه حين تبصره حتى تقطع فى أجوافها الجرر

ومنه قيل: رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئًا غضبًا وغمًا وحزنًا. قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤) وقال: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل: ٥٨) وقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ (القلم: ٤٨) وقال: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ (غافر: ١٨).

وقال عبد المطلب بن هاشم:

فحضضت قومى فاحتبست قتالهم والقوم من خوف المنايا كُظمُ

وفى الحديث: «ما من جرعة أحمد عقبانًا من جرعة غيظ مكظومة».

وروى سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كظم الغيظ وهو يقدر على إنفاذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيّره من أى الحور يشاء».

أنشدنا أبو القاسم محمد بن حبيب قال: أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رميح قال: أنشدنا ابن أبى الزنجى ببغداد قال: أنشدنا العرجى:

وإذا غضبت فكن وقوراً كاظمًا للغيظ تبصر ما تقول وتسمع

فكفى به شرفًا تصبر ساعة يرضى بها عنك الإله وترفع

أى يرفع قدرك.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾.

قال الرباحى والكلبى: عن المملوكين، وقال زيد بن أسلم ومقاتل: عمّن ظلمهم وأساء إليهم، وقال مقاتل بن حيان فى هذه الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال عند ذلك: «إن هؤلاء فى أمتى قليل إلاّ من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الأمم التى مضت».

وعن أبى هريرة أن أبا بكر (رضى الله عنه) كان مع النبى ﷺ فى مجلس، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت والنبى ﷺ يتبسم، ثم ردَّ أبو بكر (رضى الله عنه) بعض الذى قال، فغضب النبى ﷺ وقام فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله شتمنى وأنت تبتسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت، فقال: «إنك حين كنت ساكتًا كان معك ملك يرد عنك فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد يقعده الشيطان، ثمّ قال: يا أبا بكر ثلاث كلّهن

حق: إنه ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلاّ أعز الله نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد به كثرة إلاّ زاده الله قلة، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة إلاّ زاده الله بها كثرة».

وقال عروة بن الزبير:

لن يبلغ المجد أقوام وإن كرمـــوا حتى يذلوا، وإن عزّوا لأقـــوام
ويشتموا فترى الألوان مشرقـــة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال مقاتل: يعنى أن هذه الأشياء إحسان ومن فعل ذلك فهو محسن والله يحب المحسنين.

قال الحسن: الإحسان أن يعمّ ولا يخص كالريح والشمس والمطر.

سفيان الثورى: الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، فإن الإحسان إلى المحسن (مزاجرة) كلمة السوق خُذ وهات.

السقطى: الإحسان أن يحسن وقت الإمكان، فليس فى كل وقت يمكنك الإحسان.

أنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنى أبو العباس عبد الله بن محمد الجمانى:

ليس فى كل ساعة وأوان تتهيأ صنـائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها حـذراً من تعذر الإمكـان

ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت يا جبرئيل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين».

﴿إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

قال ابن عباس: قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منّا، كان أحدهم إذا أذنب ذنبًا أصبحت كفارة ذنبهم مكتوبة فى عتبة بابه اجدع أنفك وأذنك، افعل كذا، فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير من ذلك» فقرأ عليهم هذه الآيات.

وقال عطاء: نزلت هذه الآية فى نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فهل لك فيه؟ قالت: نعم، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبّلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك فأتى النبى ﷺ وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية.

وقال مقاتل والكلبى: آخى رسول الله ﷺ بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف، فخرج الثقفى فى غزاة واستخلف الأنصارى على أهله، فاشترى لهم اللحم ذات

يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها فدخلت المرأة بيتًا فتبعها فاتقته بيدها، فقبّل يدها ثم ندم وانصرف، فقالت له: والله ما حفظت غيبة أخيك ولا نلت حاجتك، فخرج الأنصارى ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه، فلما رجع الثقفى لم يستقبله الأنصارى فسأل امرأته عن حاله.

فقالت: لا أكثر الله فى الإخوان مثله ووصفت له الحال، والأنصارى يسيح فى الجبال تائبًا مستغفرًا، وطلبه الثقفى حتى وجده، فأتى به أبا بكر (رضى الله عنه) رجاء أن يجدا راحة عنده فخرجا، وقال الأنصارى: هلكت، قال: وما أهلكك؟ فذكر له القصة، فقال أبو بكر: ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازى ما لا يغار للمقيم، ثم لقى عمر (رضى الله عنه) فقال: مثل ذلك، فأتيا النبى ﷺ فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً﴾ هى صفة لاسم متروك تقديره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً﴾ يعنى قبيحة خارجة عمّا أذن الله فيه، وأصل الفحش القبيح والخروج عن الحد، ولذلك قيل للمفرط فى الطول إنه فاحش الطول، والكلام القبيح غير (القصد) فالكلام فاحش والمتكلم به مفحش.

قال السدى: يعنى بالفاحشة ههنا الزّنا، يدل عليه ما روى حماد بن ثابت عن جابر ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً﴾ قال: زنى القوم وربّ الكعبة، أو ظلموا أنفسهم بالمعصية.

وقال مقاتل والكلبى: وهو ما دون الزنا من قُبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل.

الأصم: فعلوا فاحشة الكبائر أو ظلموا أنفسهم بالصغائر، وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً وظلموا أنفسهم قولاً.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ قال الضحاك: ذكروا العرض الأكبر على الله عزّ وجلّ، مقاتل والواقدى: تفكروا فى أنفسهم أن الله سائلهم عنه، مقاتل بن حيان: ذكروا الله باللسان عند الذنوب فاستغفروا لذنوبهم.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أى وهل يغفر الذنوب إلاّ الله وما يغفر الذنوب إلاّ الله؛ فلذلك رفع. ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ واختلفوا فى معنى الإصرار:

فقال أكثر المفسرين: معناه لم يقيموا ولم يدوموا ولم يثبتوا عليه، ولكنهم تابوا وأقرّوا واستغفروا.

قتادة: إيّاكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدمًا قدمًا فى معاصى الله، لا تنهاهم مخافة الله عن حرام حرّمه الله، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتى أتاهم الموت وهم على ذلك.

وقال الحسن: إتيان العبد ذنبًا عمداً إصراراً، السدى: الإصرار السكوت وترك الاستغفار، وفى الخبر قال رسول الله ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة».

وروى عبد الرحمن عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس كبيرة بكبيرة مع الاستغفار وليس صغيرة بصغيرة مع الإصرار» وأصل الإصرار الثبات على الشىء.

قال الحُطيئة: يصف الخيل:

عوابس بالشعث الكماة إذا ابتغوا غلالتها بالمحصـــدات أصرّت

أى ثبتت على عدوّها، نظم الآية: ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

قال ابن عباس والحسن ومقاتل وابن يسار: (وهم يعلمون) أنها معصية.

الضحاك: (وهم يعلمون) أن الله يملك مغفرة ذنوبهم.

السدى: (وهم يعلمون) أنهم قد أذنبوا. وقيل: (وهم يعلمون) أن الإصرار ضار، فإن ترك الإصرار خير من التمادى، كما قيل:

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزه إن الجحـــود الذنب ذنبان

وقال الحسين بن الفضل: (وهم يعلمون) أن لهم ربا يغفر الذنوب، وإنما اقتبس هذا من قول النبى ﷺ: «من أذنب ذنبًا وعلم أن له ربًا يغفر الذنوب غفر له وإن لم يستغفر».

وقال ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ: من علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أُبالى».

وقال عبيد بن عمير: فى بعض الكتب المنزلة: يا بن آدم إنك ما دعوتنى وما رجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى.

وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مرَّ رجل ممّن كان قبلكم فى بنى إسرائيل بجمجمة فنظر إليها فحدث نفسه بشىء ثم قال: أنت أنت وأنا أنا، أنت العواد بالمغفرة وأنا العواد بالذنوب ثم خرَّ لله ساجداً، فقيل له ارفع رأسك فأنا العواد بالمغفرة وأنت العواد بالذنوب فرفع رأسه فغفر له».

وقيل: وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غفر لهم وأن التوبة تمحق الحوبة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى﴾ إلى ﴿ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ ثواب المطيعين.

يقال: أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام) أن يا موسى ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل، يا موسى كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى.

وقال شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب.

وقال ثابت البنانى : بلغنى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ الآية إلى آخرها.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، قال ابن زيد : أمثال. المفضّل : أُمم، والسُّنّة الأمّة.

قال الشاعر :

ما عاين الناس من فضل كفضلكم ولا رأوا مثلكم فى سالف السنن

وقال بعضهم : معناه أهل السنن، وقال عطاء : شرائع، الكلبى : قد مضت لكل أمة سنّة ومنهاج إذا ابتغوها رضى الله عنهم، مجاهد : قد خلت من قبلكم سنن بالهلاك فيمن كذب قبلكم، والسنّة فى اللغة : المثال المتبع والإمام المؤتم به، فقال : سنّ فلان سنّة حسنة أو سنّة سيئة إذا عمل عملاً يقتدى به من خير أو شر.

قال لبيد :

من معشر سنّت لهم آباؤهم ولكل قوم سنّة وإمامها

قال سليمان بن قبة :

وإن الأُلى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التآسيا

ومعنى الآية : قد مضت وسلفت منى فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية المكذبة الكافرة سنن بإمهالى واستدراجى إياهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجلى على الذى أجلته لأدلة أنبيائى وإهلاكهم.

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ آخر أمرهم ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ منهم، وهذا فى يوم أُحد. يقول : فإذا أمهلهم واستدرجهم حتى يبلغ أجلى الذى أجلت فى نصرة النبى ﷺ وأوليائه وهلاك أعدائه، هكذا قال ابن إسحاق هذا الذى ذكرت.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ عامة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ من الجهالة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خاصّة.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ
شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ
تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ الآية، هذا تعزية من الله لنبيه ﷺ وللمؤمنين على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أُحد، وحثّ منه إياهم على قتال عدوهم، ونهى عن العجز والفشل فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ أى ولا تضعفوا ولا تخيبوا يا أصحاب محمد على جهاد أعدائكم بما قاتلوكم يوم أُحد من القتل والقرح ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ظهور أعدائكم وعلى ما أصابكم من المصيبة والهزيمة، وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله ﷺ، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ، وعثمان بن شماس وسعد مولى عتبة، ومن الأنصار سبعون رجلاً.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أى لكم تكون العاقبة والنصر والظفر.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعنى إذ كنتم، ولأنكم مؤمنون.

قال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ بالشعب فبينا هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبى ﷺ: «اللهم لا تَعلُ علينا اللهم لا قوة لنا إلاّ بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر» فأنزل الله تعالى هذه الآية، فثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل، فرموا خيل المشركين حتى هزموهم وعلا المسلمون الجبل، فذلك قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

وقال الكلبى: نزلت هذه الآية بعد يوم أُحد، حين أمر رسول الله ﷺ أصحابه بطلب القوم وقد أصابهم من الجراح ما أصابهم، وقال ﷺ: «لا يخرج إلاّ من شهد معنا بالأمس» واشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية، ودليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ (النساء: ١٠٤) الآية.

وقيل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ لما نالكم من الهزيمة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما فاتكم من الغنيمة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقضاء الله ووعده.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الآية.

قال راشد بن سعد: لما انصرف رسول الله ﷺ كئيبًا حزينًا جعلت المرأة تجيء بزوجها وابنها وأبيها مقتولين وهى تلدم فقال رسول الله ﷺ: «هكذا يفعل برسولك؟» فأنزل الله تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ جرح يوم أُحد ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يوم بدر.

وقرأ محمد بن السميقع: قَرَح بفتح القاف والراء على المصدر.

وقرأ الأعمش وعاصم وحمزة والكسائى وخلف: بضم القاف حيث كان، وهى قراءة ابن مسعود.

وقرأ الباقون: بفتح القاف، وهى قراءة عائشة واختيار أبى عبيدة وأبى حاتم، قالا: لأنهما لغة تهامة والحجاز، لغتان مثل الجَهد والجُهد، والوَجد والوُجد.

وقال بعضهم: القَرح بالفتح الجراحات واحدتها قرحة، والقُرح بالضم وجع الجراحة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيومًا عليهم ويومًا لهم وذلك أنّ الله عزّ وجلّ أدال المسلمين من المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وأدال المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا منهم خمسة وسبعين.

قال أنس بن مالك: أتى رسول الله ﷺ يومئذ بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وعليه نيف وسبعون جراحة من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول الله ﷺ يمسحها وهى تلتئم بإذن الله كأن لم تكن، ونظير هذه الآية قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥) يوم أُحد قد أصبتم مثليها يوم بدر، يعنى المثلى والأسرى.

عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: لما كان يوم أُحد صعد أبو سفيان الجبل فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لهم أن يعلونا» قال: فمكث أبو سفيان ساعة ثم قال: أين ابن أبى كبشة أين ابن أبى قحافة أين ابن الخطاب؟ فقال عمر (رضى الله عنه): هذا رسول الله وهذا أبو بكر وها أنا عمر. فقال أبو سفيان: يومًا بيوم وإن الأيام دول والحرب سجال.

فقال عمر: لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

فقال: إنكم لتزعمون ذلك فقد خبنا إذًا وخسرناهم.

قال أبو سفيان: أما إنكم سوف تجدون قتلاكم مثلى ولم يكن ذلك على رأى سراتنا ثم ركبته حمية الجاهلية، فقال: أما إنه إذا كان ذلك لم نكرهه.

قال الثعلبى: أنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنا أبو الحسن الكارزى قال: أنشدنا محمد بن القاسم الجمحى:

أرى الناس قد أحدثوا شيمة ... وفى كل حادثة يؤتمر
يهينون من حقروا فقره ... وإن كان فيهم تقى أو تبر
فيومًا علينا ويومًا لنا ... ويوم نساء ويومًا نسر

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعنى وإنما كانت هذه المداولة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ ليرى الله الذين كفروا

منكم ممّن نافقوا فيهزأ بعضهم من بعض. وقيل: معناه ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأفعالهم موجودة كما علمها منهم قبل أن يكلّفهم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يكرم أقوامًا بالشهادة، وذلك أن المسلمين قالوا: أرنا يومًا كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونلتمس الشهادة. فلقوا المشركين يوم أُحد فاتخذ الله منهم شهداء ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى يطهّرهم من ذنوبهم ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ يفنيهم ويهلكهم وينقصهم ثم عزّاهم فقال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (ويعلم) نصب على الظرف، وقيل: بإضمار أن الخفيفة.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أنهم تمنوا أن يكون لهم يوم كيوم بدر فأراهم الله تعالى يوم أُحد فذلك قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أى أسبابه وآثاره ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية.

قال أهل التفسير وأصحاب المغازى: خرج رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب فى سبعمائة رجل وأمر عبد الله بن جبير - أحد بنى عمر - وعمر بن عوف - وهو أخو خوات بن جبير - على الرماة وهم خمسون رجلاً.

فقال: «أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنّا بالنبل لا نؤتى من خلفنا وإن كان لنا أو علينا، ولا تبرحوا مكانًا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم» فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار وكانت هند تقول:

نحن بنات طـــارق ... نمشى على النمـــارق
الدر فى المخـــانق ... والمسك فى المفـــارق
إن تقبلـــوا نعـــانق ... ونفرش النمـــارق
أو تدبروا نفـــارق ... فراق غير وامـــق

وكان أبو عامر عبد عمرو بن الصيفى أول من لقيهم بالأحابيش وعبيد أهل مكة، فقاتلهم قتالا شديدًا حتى حميت الحرب.

فقال رسول الله ﷺ: «من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى ينحنى» فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى وكان رجلاً شجاعًا يحتال عند الحرب، فلما أخذ السيف اعتمّ بعمامة حمراء وجعل يتبختر ويقول:

أنا الذى عاهـــدنى خليلى ... ونحن بالسفح لدى النخيل
ألاّ أقوم الدهر فى الكيـــول ... أضرب بسيف الله والرسول

فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلاّ فى هذا الموضع» ثم حمل النبى ﷺ وأصحابه على المشركين فهزموهم.

وقتل على بن أبى طالب طلحة بن أبى طلحة وهو يحمل لواء قريش، فأنزل الله نصره على المؤمنين.

قال الزبير بن العوّام: فرأيت هنداً وصواحبها هاربات مصعدات فى الجبل باديات خدادهن ما دون أخذهن شيء، فلما نظرت الرماة إلى القوم قد انكشفوا ورأوا النبى ﷺ وأصحابه ينتهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب. واختلفوا، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: ما بقى من الأمر شيء، ثم انطلقوا عامتهم ولحقوا بالعسكر، فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة ورأوا ظهورهم خالية، صاح فى خيل المشركين ثم حمل على أصحاب النبى من خلفهم، فهزموهم وقتلوهم، ورمى عبد الله بن قمية الحارثى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجّه فى وجهه فأثقله، وتفرّق عنه أصحابه، فأقبل عبد الله بن قمية يريد قتل رسول الله فذب مصعب بن عمير - وهو صاحب راية رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم أُحد وكان اسم رايته العقاب - عن رسول الله ﷺ حتى قتل مصعب دونه، قتله ابن قمية فرجع وهو يظن أنه قتل رسول الله، فقال: إنى قتلت محمداً وصاح صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، ويقال: إن ذلك الصارخ إبليس لعنه الله فانكفأ الناس وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس ويقول: «إلىَّ عباد الله إلىَّ عباد الله» فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه حتى كشفوا عنه المشركين، ورمى سعد بن أبى وقاص حتى اندقت سية قوسه وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست، وقى بها رسول الله ﷺ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردّها رسول الله ﷺ مكانها فعادت كأحسن ما كانت، فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أُبى بن خلف الجمحى وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منّا فقال: «دعوه» حتى إذا دنا منه، وكان أُبى قبل ذلك يلقى رسول الله فيقول: عندى رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها.

قال رسول الله: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلما كان يوم أُحد ودنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه فى عنقه وخدشه خدشة فتدهده عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول: قتلنى محمد، واحتمله أصحابه فقالوا: ليس عليك شيء، فقال: بلى، لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلهم أليس قال لى: أقتلك إن شاء الله، فلو بزق علىَّ بعد هذه المقالة لقتلنى. فما لبث إلاّ يوماً حتى مات بموضع يقال له صرف.

فقال حسان بن ثابت في ذلك:

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أبي حين بارزه الرسول
أتيت إليه تحمل رم عظم ... وتوعده وأنت به جهول
يقول فكيف يحيي الله هذا ... وهذا العظم عار ومستحيل
فآلى حلفه بالله إني ... سأقتله فكان هو القتيل
فابكوا يا بني خلف جميعًا ... رجالاً كلهم رجس ضلول
وقد قتلت بنو النجار منكم ... أمية إذا يغوث: يا عقيل
وتب ابنا ربيعة إذ أطاعا ... أبا جهل لأمهما الهبول

وقال حسان بن ثابت أيضًا:

ألا من مبلغ عني أبيًا ... فقد ألقيت في جوف السعير
تمني بالضلالة من بعيد ... وقول الكفر يرجع في غرور
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظ ... كريم الأصل ليس بذي فجور
له فضل على الأحياء طرًا ... إذا نابت مُلمّات الأمور

قالوا: وفشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قُتل، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبي فيأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم، وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمد قد قُتل فالحقوا بدينكم الأول.

فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك وسمي أنس: يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن ربّ محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء يعني المنافقين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قُتل، ثم إن رسول الله انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس، فأول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك فقال: عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله، فأشار إليّ أن اسكت، فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم النبي على الفرار فقالوا: يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ومحمد هو المستغرق بجميع المحامد، لأن الحمد لا يستوجبه إلاّ الكامل، والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلاّ المستولي على الأمد في الكمال، وأكرم الله عزّ وجلّ نبيّه وصفيّه باسمين مشتقين من اسمه تعالى: محمد وأحمد،

وفيه يقول حسان بن ثابت:

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجد
قد شق له من اسمه ليجله فذو العيش محمود وهذا محمد
نبى أتانا بعد يأس وفترة من الدين والأوثان فى الأرض تعبد
فأرسله ضوءًا منيرًا وهاديًا يلوح كما لاح الصقيل المهنّد

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألم تروا كيف صرف الله عنى لعن قريش وشتمهم يسبون مذمّمًا وأنا محمد».

وروى على بن الحسين بن على بن أبى طالب عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمّيتم الولد محمدًا فأكرموه وأوسعوا له فى المجلس ولا تقبحوا له وجهًا فما من قوم كانت لهم مشورة فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه فى مشورتهم إلاّ خيرًا لهم وما من مائدة وضعت فحضرها من اسمه أحمد أو محمد إلاّ قدّس فى كل يوم ذلك المنزل مرتين».

وعن حميد الطويل قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبى ﷺ فى السوق، فقال رجل: يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال الرجل: إنما أدعو ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «تسمّوا باسمى ولا تكنّوا بكنيتى».

وروى محمد بن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجمعوا بين اسمى وكنيتى أنا أبو القاسم الله يعطى وأنا أقسم» ثم رخص فى ذلك لعلى وابنه.

وروى ليث عن محمد بن بشير عن محمد بن الحنفية عن على (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ولدَ لك غلام نحلته اسمى وكنيتى».

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ على فراشه ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ رجعتم إلى دينكم الأول الكفر ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرتد عن دينه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده وإنما يضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ المؤمنين.

روى الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى، وأن رسول الله والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربّه، كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله وليقطعن أيدى رجال وأرجلهم، يزعمون أن رسول الله ﷺ مات قال: فأقبل أبو بكر (رضى الله عنه) حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلّم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على

رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجّى ببردة خيبر، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبّله ثم قال: بأبي أنت وأُمي، أما الموتة التي كتبها الله عزّ وجلّ عليك فقد ذقتها ثم لم تصبك بعدها موتة أبدًا، ثم ردَّ الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: على رسلك يا عمر فأنصت قال: فأبى إلاّ أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾. فقال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: فأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلاّ أن سمعت أن أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله قد مات.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني وما ينبغي لنفس أن تموت.

وقال الأخفش: اللام في قوله: ﴿لِنَفْسٍ﴾ مقتولة تقديره: ما كانت نفس لتموت (إلاّ بإذن الله) بعلم الله، وقيل: بأمره.

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ يعني أنّ لكل نفس أجلاً هو بالغه ورزقًا مستوفيه، لا يقدر أحد على تقديمه وتأخيره.

قال مقاتل: من اللوح المحفوظ، ونصب الكتاب على المصدر يعني: كتب الله كتابًا مؤجلاً، كقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الإسراء: ٢٨) وصنع الله وكتاب الله عليكم، وقيل: هو إغراء أي: آمنوا بالقدر المقدور.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يعني ومن يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاءً لعمله، ونظيرها قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ﴾ (الشورى: ٢٠) الآية.

وقال أهل المعاني: الآية مجملة ومعناها: نؤته من نشاء ما قدرناه له، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ (الإسراء: ١٨) نزلت في الذين تركوا المركز يوم أُحد طلبًا للغنيمة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يعني الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قُتلوا ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الموحدين المطيعين. والقراءة بالنون لقوله تعالى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

قرأ الأعمش: وسيجزي بالياء، يعني الله سبحانه.

وعن عمر بن الخطاب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».



﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر: (كاين) مقصوراً بغير همزة ولا تشديد حيث وقع.

وقرأ مجاهد وابن كثير وشيبة: (وكأين) مهموزًا ممدودًا مخففًا على وزن فاعل، وهو اختيار أبي عبيد، اعتبارًا بقول أُبي بن كعب لزر بن حبيش: (كأين) بعد سورة الأحزاب. فقال: كذا آية.

وقرأ ابن محيصن: (كأى) ممدودًا بغير نون.

وقرأ الباقون: (وكأيّن) مشدودًا بوزن كعَيّن، وهي لغة قريش واختيار أبي حاتم، وكلها لغات معروفة بمعنى واحد.

وأنشد المفضل:

وكائن ترى في الحي من ذي صداقة ... وغيران يدعو ويله من حذاريا

وقال في التشديد:

كأين من أناس لم يزالوا ... أخوهم فوقهم وهم كرام

وجمع الآخر بين اللغتين، فقال:

كأين أبدنا من عدوّ يغزنا ... وكأين أجرنا من ضعيف وخائف

ومعناه كم، وهي كاف التشبيه ضمت إلى أي الاستفهام، ولم يقع التنوين صورة في الخط إلاّ في هذا الحرف خاصة.

(قُتل): قرأ قتادة وابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب (قتل): وهي قراءة ابن عباس واختيار أبي حاتم.

وقرأ الآخرون: ﴿قَـٰتَلَ﴾، وهي قراءة ابن مسعود واختيار أبي عبيد، فمن قرأ ﴿قَـٰتَلَ﴾ فلقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ ويستحيل وصفهم بأنهم لم يُهنوا بعدما قُتلوا، ولقول سعيد بن جبير: ما سمعنا أن نبيًا قط قُتل في القتال.

وقال أبو عبيد: إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قُتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قُتل خاصة لم يدخل فيه غيرهم، فقاتل أعم.

ومن قرأ (قتل) فله ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون القتل واقعًا على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قراءة (قتل) فيكون في الآية إضمار معناه ومعه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ كما يقال: قتل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه، ويقول: خرجت معي تجارة، أي ومعي.

والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومعه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني فلان، وإنما قتلوا بعضهم ويكون قوله: ﴿فَمَا

﴿وَهَنُواْ﴾ راجعًا إلى الباقين الذين لم يقتلوا.

والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير.

﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، قرأ ابن مسعود وأبو رجاء والحسن وعكرمة: (رُبيون) بضم الراء، وهى لغة بنى تميم.

الباقون: بالكسر، وهى اللغة الفاشية (العالية).

والربيون جمع الرِّبية وهى الفرقة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع.

السدى: جموع كثير.

قال حسان:

وإذا معشر تجافوا عن الحق حملنـــا عليهـم رُبيـا

ابن مسعود: الربيون الألوف، الضحاك: الربية الواحدة ألف، الكلبى: الربية الواحدة عشر ألف، الحسن: فقهًا علمًا صبرًا، ابن زيد: هم الأتباع، والرابيون: هم الولاة، والربيون: الرعية وقال بعضهم: هم الذين يعبدون الرب، والعرب تنسب الشىء إلى الشىء فيغير حركته.

كما يقول بصرىٌّ منسوب إلى بصرة، فكذلك ربّيون نسوب إلى الربّ، وقال بعضهم: مطيعون منيبون إلى الله فما وهنوا.

قرأه العامة: بفتح الهاء، وقرأ قعتب أبو السماك العدوى: بكسر الهاء، فمن فتحه فهو من وَهن يهن وهنًا، مثل وعد يعد وعدًا، قاله المبرد وأنشد:

إن القداح إذا اجتمعن فرامَها بالكسر ذو جَلد وبطش أيد

عزّت ولم تكسر وإن هى بددت قالوهن والتكسير للمتبـــدد

ومن كسر فهو من وَهِن يهن، مثل وَرم يرم قاله أبو حاتم.

فقال الكسائى: هو من وهن يوهن وهَنًا، مثل وجل يوجل وجلاً.

قال الشاعر:

طلب المعـاش مفرق بين الأحبة والوطن ومصير جلد الرجال إلى الضّراعة والوهن

ومعنى الآية: فما ضعفوا عن الجهاد لما نالهم من ألم الجراح، وقيل: الأصحاب وما عجزوا لقتل نبيهم.

قال قتادة والربيع: يعنى ما ارتدّوا عن بصيرتهم ودينهم، ولكنهم قاتلوا على ما قاتل عليه نبيهم حتى لحقوا بالله، السدى: وما ذلّوا، عطاء: وما تضرّعوا، مقاتل: وما استسلموا وما

خضعوا لعدوهم، أبو العالية: وما جبنوا، المفضل والقتيبى: وما خشعوا، ومنه أخذ المسكين لذله وخضوعه وهو مفعيل منه، مثل معطير من العطر ومنديل من الندل، وهو دفعه من واحد إلى آخر، وأصل الندل السوق، ولكنهم صبروا على أمر ربّهم وطاعة نبيّهم وجهاد عدوهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾.

قرأ الحسن وابن أبى إسحاق: (قولهم) بالرفع على اسم كان وخبره فى قوله: (أن قالوا).

وقرأ الباقون: بالنصب على خبر كان والاسم فى (أن قالوا) تقديره: وما كان قولهم إلاّ قولهم كقوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ (الأعراف: ٨٢) و﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ (الجاثية: ٢٥) ونحوهما، ومعنى الآية: وما كان قولهم عند قتل نبيّهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ يعنى خطايانا الكبار، وأصله مجاوزة الحد ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ كيلا تزول ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهلاّ فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقرأ الجحدرى: فأثابهم الله من الثواب، ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ النصرة والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الأجر والجنة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعنى اليهود والنصارى، فقال على (رضى الله عنه): يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يرجعوكم إلى أول أمركم الشرك بالله تعالى ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فتنقلبوا مغبونين ثم قال ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم وحافظكم على دينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝ سَنُلْقِى﴾.

قال السدى: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحد متوجهين نحو مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ثم إنّهم ندموا وقالوا: بئسما صنعنا، قتلناهم حتى لم يبق منهم إلاّ الشريد وتركناهم رجعوا. فلما عزموا على ذلك قذف الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عمّا همّوا به. وستأتى هذه القصة بتمامها إن شاء الله وما نزّل الله تعالى فيها.

﴿سَنُلْقِى﴾ قرأ أيوب السختيانى: سنلقى بالله يعنى الله عزّ وجلّ لقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾، قرأ الباقون: بالنون على التعظيم أى سنقذف، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف وثقل عينه، أبو جعفر وابن عامر والكسائى ويعقوب، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم وخففها الآخرون.

﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ هو (ما) المصدر، تقديره بإشراكهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبيانًا وعذرًا وبرهانًا ثم أخبر عن مصيرهم فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مقام الكافرين.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾، قال محمد بن كعب القرظى: لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم بأُحد، فقال ناس من أصحابه: من أين أصابنا وقد وعدنا بالنصر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ الذى وعد بالنصر والظفر، وهو قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٢٥) الآية، وقول رسول الله للرماة: «لا تبرحوا مكانكم فإنا لا نزل غالبين ما ثبتم»، والصدق يتعدى إلى مفعولين كالمنع والغصب ونحوهما، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جعل أُحدًا خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل حنينًا وهو جبل عن يساره، وأقام عليه الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا».

وأقبل المشركون وأخذوا فى القتال، فجعل الرماة يرشقون بالنبل والمسلمون يضربونهم بالسيف حتى ولوا هاربين وانكشفوا منهزمين، فذلك قوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أى تقتلونهم قتلاً ذريعًا سريعًا شديدًا.

قال الشاعر:

حسسناهم بالسيف حسًّا فأصبحت ... بقيتهم قد شردوا وتبددوا

وقال أبو عبيدة: الحس الاستيصال بالقتل، يقال: جراد محسوس إذا قتله البرد، وسَنَة حسوس إذا أتت على كل شىء.

قال رؤبة:

إذا شكونا سنة حسوسًا ... تأكل بعد الأخضر اليبيسا

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، قال بعض أهل المعانى: يعنى إلى أن فشلتم، جعلوا (حتى) غاية بمعنى إلى، وحينئذ لا جواب له.

وقال الآخرون: هو بمعنى فلما وفى الكلام تقديم وتأخير قالوا: وفى قوله: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ مقحمة زائدة، ونظم الآية: حتى إذا تنازعتم ﴿فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ وفشلتم أى جبنتم وضعفتم، ومعنى التنازع الاختلاف، وأصله من نزع القوم الشىء بعضهم من بعض، وكان اختلافهم أن الرماة تكلموا حين هُزم المشركون وقالوا: انهزم القوم فما مقامنا، وقال بعضهم: لا تجاوزوا أمر رسول الله ﷺ فثبت عبد الله بن جبير فى نفر يسير دون العشرة وانطلق الباقون ينهبون، فلما نظر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل إلى ذلك، حملوا على الرماة فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح فصارت دبورًا بعدما كانت صبا، وانتفضت صفوف المسلمين، فاختلطوا وجعلوا يقتتلون على غير شعار، فقتل بعضهم بعضًا

وما يشعرون من الدهش، ونادى إبليس ألا إن محمداً قد قتل، وكان ذلك سبب هزيمة المؤمنين.

﴿مِنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾يا معشر المؤمنين ما تحبون هو الظفر والغنيمة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾يعنى الذين تركوا المركز فأقبلوا إلى النهى ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾يعنى الذين ثبتوا مع ابن جبير حتى قتلوا.

وقال عبد الله بن مسعود: ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أُحد فنزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾أى ردّكم عنهم بالهزيمة ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة، قاله أكثر المفسرين، ونظيره: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ (البقرة: ٥٢).

وقال الكلبى: يعنى تجاوز عنكم فلم يؤاخذكم بذنبكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾يعنى ولقد عفونا عنكم إذ تصعدون هاربين.

قرأه العامة: ﴿تُصْعِدُونَ﴾بضم التاء وكسر العين.

وقرأ أبو رجاء العطاردى وأبو عبد الرحمن والحسن وقتادة بفتح التاء.

وقرأ ابن محيصن وشبل: إذ يصعدون ويلوون بالياء، يعنى المؤمنين. ثم رجع إلى الخطاب فقال: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾على البلوى.

قال أبو حاتم: يقال: أصعدت إذا مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا ارتقيت فى جبل أو غيره، والإصعاد السير فى مستوى الأرض وبطون الأودية والشعاب، والصعود الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدّرج، قال المبرد: أصعد إذا أبعد فى الذهاب.

قال الأعشى:

ألا أى هذا السائلى أين أصعدت فإنّ لها من بطن يثرب موعــــداً

وقال الفراء: الإصعاد الابتداء فى كل سفر والانحدار والرجوع منه يقال: أصعدنا من بغداد إلى مكة وإلى خراسان وأشباه ذلك، إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر وانحدرنا إذا رجعنا.

وأنشد أبو عبيدة:

لقد كنت تبكين على الإصعاد فاليوم سرحت وصاح الحادى

ودليل قراءة العامة قول النبى ﷺ للمنهزمين: «لقد ذهبتم فيها عريضة».

وقرأ أُبى بن كعب: إذ تصعدون فى الوادى، ودليل فتح التاء والعين ما روى أنهم صعدوا

فى الجبل هاربين وكلتا القراءتين صواب، فقد كان يومئذ من المنهزمين مصعد وصاعد. وقال المفضل: صعد وأصعد وصعّد بمعنى واحد.

﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ يعنى ولا يعرجون ولا يقيمون على أحد منكم، لا يلتفت بعض إلى بعض هربًا.

وقرأ الحسن: ولا يلون بواو واحدة اتباعًا للخط، كقولك: استحببت واستحبت على أحد.

قال الكلبى: يعنى على محمد ﷺ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أى فى آخركم ومن ورائكم إلىَّ عباد الله فأنا رسول الله من بكّر فله الجنة، يقال: جاء فلان فى آخر الناس وآخرة الناس وأخرى الناس وأُخراة الناس وأُخريات الناس، فجاز لكم جعل الإنابة بمعنى العقاب وأصلها فى الحسنات كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الانشقاق: ٢٤).

قال الشاعر:

أخاف زيادًا أن يكون عطـاؤه أداهم سودا أو محدرجة سمرا

يعنى بالسود: القيود والسياط وكذلك معنى الآية، جعل مكان الثواب الذى كنتم ترمون غمًّا بغمّ.

قال الحسن: يعنى بغم المشركين يوم بدر.

وقال آخرون: الباء بمعنى على، أى غمًّا على غمٍّ، وقيل: غمًّا بغم، فالغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والغم الثانى ما نالهم من القتل والهزيمة، وقيل: الغم الأول انحراف خالد ابن الوليد عليهم بخيل من المشركين، والغم الثانى حين أشرف عليهم أبو سفيان، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهمًا فى قوسه فأراد أن يرميه فقال: «أنا رسول الله» ففرحوا حين وجدوا رسول الله ﷺ، وفرح النبى حين رأى فى أصحابه من يمتنع، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فأقبل أبو سفيان وأصحابه حتى وقفوا بباب الشعب، ثم أشرف عليهم، فلما نظر المسلمون إليهم، همّهم ذلك وظنّوا أنهم سوف يميلون عليهم فيقتلونهم، فأنساهم هذا ما نالهم، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تُقتل هذه العصابة لا تعبد فى الأرض» ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم فنزلوا سريعًا.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الفتح والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ (ما) فى موضع خفض

أى: ولا على ما أصابكم من القتل والهزيمة حين أنساكم ذلك هذا الغم، وهمّكم ما أنتم فيه غمًّا قد أصابكم قبل.

فقال الفضل: (لا) صلة معناه: لكى تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة لكم فى خلافكم إياه، وترككم المركز كقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (الحديد: ٢٩).

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾، روى عبد الله بن الزبير بن العوام عن أبيه قال: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف أرسل الله علينا النوم، والله لا نسمع قول مصعب بن عمير والنعاس يغشانى ما أسمعه إلاّ كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا، فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ يا معشر المؤمنين وأهل اليقين، ﴿أَمَنَةً﴾ يعنى أمنًا، وهى مصدر كالعظمة والغلبة، وقرأ ابن محيصن: أمنة بسكون الميم.

﴿نُّعَاسًا﴾ بدل من الأمنة ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، قرأ ابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائى وخلف: (تغشى) بالتاء ردًّا إلى الأمنة، وقرأ الباقون: بالياء ردًّا إلى النعاس، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم، قال أبو عبيد: لأن النعاس يلى الفعل، فالتذكير أولى به ممّا بعد منه.

قال ابن عباس: آمنهم يومئذ بنعاس يغشاهم بعد فرق، وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام، ونظيره فى سورة الأنفال فى قصة بدر.

روى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال: رفعت رأسى يوم أُحد فجعلت ما أرى أحدًا من القوم إلاّ وهو يميد تحت جُحفته من النعاس.

قال أبو طلحة: وكنت ممّن أُلقى عليه النعاس يومئذ، وكان السيف يسقط من يدى فآخذه، ثم يسقط السوط من يدى من النوم فآخذه.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ يعنى المنافقين، وهب بن قشير وأصحابه، وهو رفع على الابتداء وخبرها فى قوله: ﴿يَظُنُّونَ﴾ ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى حملتهم على الهمّ، يقال: أمر مهم، ومنه قول العرب: همّك ما أهمّك.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أى لا ينصر محمدًا، وقيل: ظنوا أن محمدًا قد قتل ﴿ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ أى كظن أهل الجاهلية والشرك ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾ أى ما لنا، لفظ استفهام ومعناه هل ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ يعنى النصر ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

قرأ أبو عمرو ويعقوب: (كلّه) على الرفع بالابتداء وخبره فى قوله: (لله) وصار هذا الابتداء والجملة خبرًا لإنّ، كما يقول: إن عبد الله وجهه حسن، فيكون عبد الله مبتدأ ووجهه

ابتداء ثانيًا وحسن خبره، وجملة الكلام خبر للابتداء الأول.

وقرأ الباقون: (كله) بالنصب على البدل، وقيل: على النعت.

وروى مجاهد عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ يعنى به التكذيب بالقدر، وذلك أنهم يظنون فى القدر، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ يعنى القدر خيره وشرّه من الله وهو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ وذلك أنّ المنافقين قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولما قتل رؤساؤنا، فقال الله: قل لهم: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ لخرج.

وقال ابن أبى حيوة: (لبُرِّز) بضم الباء وتشديد الراء على الفعل المجهول.

﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾، قرأ قتادة: القتال ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم، ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ﴾ ليختبر الله ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ﴾ يخرج ويطهّر ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فى القلوب من خير أو شر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ انهزموا ﴿مِنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين والمشركين ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾.

قال المفضل: حملهم على الزلل، وهو استفعل من الزلّة وهى الخطيئة.

وقال القتيبى: طلب زلتهم، كما يقال: استعجلت عليه، أى طلبت عجلته، واستعجلته طلبت عمله، وقيل: أزل واستزل بمعنى واحد.

وقال الكلبى: زيّن لهم الشيطان أعمالهم حينما كسبوا، أى بشؤم ذنوبهم، قال المفسرون: بتركهم المراكز، وقال الحسن: ما كسبوا قبولهم من إبليس وما وسوس إليهم من الهزيمة.

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وروى إبراهيم بن إسحاق الزهرى، أن جعفر بن عون حدثهم أن زائدة حدثهم عن كليب ابن وائل قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان أكان شهد بدرًا؟ قال: لا، قال: أكان شهد بيعة الرضوان؟ قال: لا، قال: أفكان من الذين تولّوا يوم التقى الجمعان؟ قال: نعم، فقيل له: إن هذا يرى أنك قد عبته، فقال: علىّ به، أمّا بدر فإن رسول الله ﷺ قد ضرب له بسهمه، وأما بيعة الرضوان فقد بايع (له) رسول الله ﷺ ويد رسول الله ﷺ خير من يد عثمان، وأما الذين تولوا يوم التقى الجمعان . . . .[1] فاذهب فاجهد علىّ جهدك.



(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ
كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ
مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ
كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ
يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ
اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ
اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ
لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى المنافقين عبد الله بن أُبى وأصحابه، ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فى النفاق، وقيل: فى النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ساروا وسافروا فيها لتجارة أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ غزاة فقتلوا، والغزى جمع منقوص لا يتغير لفظها فى رفع وخفض ونصب، واحدها غاز مثل قائم وقوم، وصائم وصوم، وشاهد وشهد وقائل وقول، ومن الناقص مثل هاب وهبى وعاف وعفى.

﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾ يعنى قولهم وظنهم حزنًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾

والحسرة الاغتمام على فائت كان تقدر بلوغه .

قال الشاعر :

فواحسرتى لم أقض منهما لبانتى ولم أتمتع بالجـــوار وبالقرب

ثم أخبر أن الموت والحياة إلى الله لا يتقدمان لسفر ولا يتأخران لحضر فقال : ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

قرأ ابن كثير وطلحة والأعمش والحسن وشبل وحمزة والكسائى وخلف : (يعملون) بالياء ، الباقون : بالتاء .

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ .

قرأ نافع وأكثر أهل الكوفة ما كان من هذا الباب : بكسر الميم ، وقرأ الآخرون : بالضم ، فمن ضمّه فهو من قال : يموت كقولك من كان يكون كنت ، ومن قال يقول قلت ، ومن كسر فهو من مات يمات متّ كقولك من خاف يخاف خفت ومن هاب يهاب هبت .

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فى العاقبة ﴿وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الغنائم .

قرأه العامة : (تجمعون) بالتاء لقوله : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ ، وقرأ حفص : الياء على الخبر عن الغائبين ، يعنى خير ممّا يجمع الناس من الأموال .

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ فى العاقبة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أى فبرحمة من الله (ما) صلة كقوله عزّ وجلّ : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ (المائدة : ١٣) و﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ (المؤمنون : ٤٠) و﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ (ص : ١١) .

وقال بعضهم : يحتمل لأن تكون (ما) استفهامًا للتعجب تقديره : فبأى رحمة من الله ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أى سهّلت لهم أخلاقك وكثر احتمالك ، ولم يسرع إليهم فيما كان منهم يوم أُحد .

يقال : لانَ له يَلين لينًا وليانًا إذا رقّ له وحسن خلقه .

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ يعنى جافيًا سيئ الخلق قاسى القلب قليل الاحتمال ، يقال : فظظت تفظ فظاظة وفظاظًا فأنت فظ ، والأنثى فظة ، والجمع فظاظ .

وأنشد المفضل :

وليس بفظ فى الأدانى والأولى يؤمون جـــدواه ولكنه سهل

وقال آخر :

أموت من الضر فى منزلى وغيرى يموت من الكظـة

ودنيا تجود على الجاهلين وهى على ذى النهى فظة

﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ ، قال الكلبى : فظًا فى القول غليظ القلب فى الفعل .

﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لنفروا وتفرقوا عنك يقال : فضضتهم وانفضوا ، أى فرقتهم فتفرقوا .

قال أبو النجم يصف إبلا :

مستعجلات القبض غير جرد ينفض عنهنّ الحصى بالصّمد

وأصل الفض الكسر ، ومنه قولهم : لا يفضض الله فاك ، قال أهل الإشارة فى هذه الآية : منه العطاء ومنه الثناء .

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ما أتوا يوم أُحد ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حتى أشفعك فيهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أى استخرج آراءهم فاعلم ما عندهم ، وهو مأخوذ من قول العرب : وشرت الدابة وشورته ، إذا استخرجت جريه وأعلمت خبره وتفنن لما يظهر من حالها مستوراً ، وللموضع الذى يشور فيه أيضًا يتولد ، وقد يكون أيضًا من قولهم : شرت العسل واشترته فهو مشور ومشار ومشتار إذا أخذته من موضعه واستخرجته منه .

وقال عدى بن زيد :

فى سماع يأذن الشيخ له وحديث مثل ماذى مشار

واختلف العلماء فى المعنى الذى لأجله أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه وتتابع الوحى عليه ووجوب طاعته على أمته بما أحبوا وكرهوا .

فقال بعضهم : هو خاص فى المعنى وإن كان عامًّا فى بعض اللفظ ، ومعنى الآية : وشاورهم فيما يسر عندك فيه من الله عهد ، ويدل عليه قراءة ابن عباس : وشاورهم فى بعض الأمر .

قال الكلبى : يعنى ناظرهم فى لقاء العدو ومكان الحرب عند الغزو .

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعنى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقال مقاتل وقتادة والربيع : كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا فى الأمر شقّ عليهم ، فأمر الله النبى ﷺ أن يشاورهم فى الأمر الذى يريده ، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم وأطيب لأنفسهم ، وإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم وأن القوم إذا عزموا وأرادوا بذلك وجه الله تعالى عزم الله لهم على الأرشد .

قال الشافعى (رضى الله عنه) : ونظير هذا قول النبى ﷺ : «البكر تستأمر فى نفسها» إنما

أمرنا باستئذانها لاستطابة نفسها وأنها لو كرهت كان للأب أن يزوجها.

وكمشاورة إبراهيم (عليه السلام) ابنه حين أمر بذبحه.

وقال الحسن: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده، ودليل هذا التأويل ما روى أبو حازم عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شقى عبد قط بمشورة وما سعد باستغناء برأى»، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فبالله وكتابه ورسوله غنى عن المشورة، ولكن الله عزّ وجلّ أراد أن تكون بيّنة فلا يبرم أمر الدين والدنيا حتى تشاوروا، وقد أثنى الله على (أهل) المشاورة فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨).

روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا كان أُمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ولم يكن أمركم شورى بينكم فبطن الأرض خير من ظهرها».

أنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنى عمى:

إذا كنت فى حاجة مرسلاً فأرسل حكيمًا ولا توصه
وإن ناب أمر عليك التوى فشاور لبيبًا ولا تعصه
ونص الحديث إلى أهله فإن الوثيقة فى نصه
إذا المرء أضمر خوف الإله تبين ذلك فى شخصه

وأنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنا أبو بكر محمد بن المنذر الضرير، قال أبو سلمة المؤدب:

شاور صديقك فى الخفى المشكل واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذلك نبيّه فى قوله شاورهم وتوكل

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على مشاورتهم.

وقرأ جعفر الصادق (رضى الله عنه) وجابر بن زيد: (فإذا عزمتُ) بضم التاء أى عزمت لك ووفقتك وأنشدتك فتوكل على الله، والتوكل التفعل من الوكالة يقال: وكّلت الأمر إلى فلان فتوكل أى ضمنه وقام به، فمعنى قوله: (توكل) أى قم بأمر الله وثق به واستعنه.

فصل فى التوكل

اختلفت عبارات العلماء فى معنى التوكل وحقيقة المتوكل:

فقال سهل بن عبد الله رحمة الله عليه: أول مقام التوكل، أن يكون العبد بين يدى الله

كالميت بين يدى الغاسل، يقلّبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير، والمتوكل لا يسأل ولا يرد ولا يحبس.

أبو تراب النخشبى: التوكل الطمأنينة إلى الله عزّ وجلّ. بشر الحافى: الرضا، وعن ذى النون وقد قال له رجل: يا أبا الفيض ما التوكّل؟ قال: خلع الأرباب وقطع الأسباب. فقال: زدنى فيه حالة أخرى. فقال: إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية.

وقال إبراهيم الخواص: حقيقة التوكل إسقاط الخوف والرجاء ممّا سوى الله، ابن الفرجى: رد العيش لما يوم واحد وإسقاط غم غد، وعن على الروذبارى قال: مراعاة التوكل ثلاث درجات:

الأولى منها: إذا أعطى شكر وإذا مُنع صبر.

والثانية: المنع والإعطاء واحد.

والثالثة: المنع مع الشكر أحب إليه، لعلمه باختيار الله ذلك له.

وروى عن إبراهيم الخواص أنه قال: كنت فى طريق مكة، فرأيت شخصًا حسنًا فقلت: أجنىٌّ أم إنسىٌّ؟ فقال: بل جنىٌّ. فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى مكة. قلت: بلا زاد؟ قال: نعم، فينا أيضًا من يُسافر على التوكل. فقلت له: ما التوكل؟ قال: الأخذ من الله.

ذو النون أيضًا: هو انقطاع المطامع.

سهل أيضًا: معرفة معطى أرزاق المخلوقين ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون السماء عنده كالصفر والأرض عنده كالحديد، لا ينزل من السماء مطر ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن الله لا ينسى ما ضمن له من رزقه بين هذين.

وعن بعضهم: هو أن لا يعصى الله من أجل رزقه.

وقال آخر: حسبك من التوكل أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير الله ولا لرزقك خازنًا غيره ولا لعملك شاهداً غيره.

الجنيد (رحمه الله): التوكل أن تقبل بالكلية على ربّك، وتعرض عمن دونه.

النورى: هو أن يفنى تدبيرك فى تدبيره، وترضى بالله وكيلاً ومدبراً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ٨١) وقيل: هو اكتفاء العبد الذليل بالربّ الجليل، كاكتفاء الخليل بالخليل حين لم ينظر إلى عناية جبرئيل.

وقيل: هو السكون عن الحركات اعتماداً على خالق الأرض والسموات.

وقيل لبهلول المجنون: متى يكون العبد متوكلاً؟ قال: إذا كان النفس غريبًا بين الخلق،

والقلب قريبًا إلى الحق.

وعن محمد بن عمران قال: قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: أربع خلال: علمت أن رزقى ليس يأكله غيرى فلست أُشغل به، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أُبادره، وعلمت أنى بعين الله فى كل حال فأنا مستحٍ منه.

وعن أبى موسى (الوبيلى) قال: سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل فقال لى: لو أدخلت يدك فى فم التنين حتى تبلغ الرسغ، لم تخف مع الله شيئًا.

قال أبو موسى: (ذهبت) إلى أبى يزيد البسطامى: أسأله عن التوكل، فدخلت بسطام ودفعت عليه الباب فقال لى: يا أبا موسى ما كان لك فى جواب عبد الرحمن من القناعة حتى تجيء وتسألنى؟ فقلت: افتح الباب، فقال: لو زرتنى لفتحت لك الباب، (وإذا) جاء الجواب من الباب فانصرف: لو أن الحيّة المطوقة بالعرش همّت بك لم تخف مع الله شيئًا.

قال أبو موسى: فانصرفت حتى جئت إلى دبيل فأقمت بها سنة، ثم اعتقدت الزيارة فخرجت إلى أبى يزيد فقال: زرتنى مرحبًا بالزائرين (لا) أخرجك، قال: فأقمت عنده شهرًا لا يقع لى شيء إلاّ أخبرنى قبل أن أسأله فقلت له: يا أبا يزيد أخرج وأريد فائدة منك أخرج بها من عندك.

قال لى: اعلم أن فائدة المخلوقين ليست بفائدة، حدثتنى أُمّى أنها كانت حاملة بى وكانت إذا قدمت لها القصعة من حلال امتدت يدها وأكلت، وإذا قدمت من حرام جفت فلم تأكل، اجعلها فائدة وانصرف. فجعلتها فائدة وانصرفت.

وروى طاوس اليمانى (رحمه الله) قال: رأيت أعرابيًّا قد جاء براحلة له فأبركها وعقلها، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن هذه الراحلة وما عليها فى ضمانك حتى أخرج إليها. فخرج الأعرابى وقد أخذت الراحلة وما عليها، فرفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إنه ما سرق منى شيء وما سرق إلاّ منك. فقال طاوس: فنحن كذلك مع الأعرابى إذ رأينا رجلاً من رأس أبى قبيس يقود الراحلة بيده اليسرى ويمينه مقطوعة معلقة فى عنقه، حتى جاء إلى الأعرابى وقال له: هاك راحلتك وما عليها. فقيل له: وما حالك؟ فقال: استقبلنى فارس على فرس أشهب فى رأس أبى قبيس فقال: يا سارق مدّ يدك فمددتها فوضعها على حجر ثم أخذ آخر فقطعها به وعلقها فى عنقى وقال: انزل فرد الراحلة وما عليها إلى الأعرابى.

وعن أبى تميم الجيشانى قال: سمعت عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله

حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا» .

روى محمد بن كعب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله عزّ وجلّ ومن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق ممّا فى يديه» .

وكان عمر (رضى الله عنه) يتمثل بهذين البيتين:

هوّن عليك فإن الأمور بأمر الإله مقاديرها
نفس ليأتيك مصروفها ولا عادك عنك مقدورها

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعينكم الله من عدوكم ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فى يوم بدر ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ يترككم ولا ينصركم، والخذلان: القعود عن النصرة والاستسلام للهلكة والمكروه، ويقال للبقرة والظبية إذا تركت ولدها وتخلفت عنه: خذلت فهو خذول.

قال طرفة:

خذول تراعى ربربًا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدى

وأنشد:

نظرت إليك بعين جارية خذلت صواحبها على طفل

وقرأ أبو عبيد بن عمير: (وإن يُخذلكم) بضم الياء وكسر الذال، أى نجعلكم مخذولين ونحملكم على الخذلان والتخاذل كما فَعلتم بأُحد.

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أى من بعد خذلانه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ الآية.

روى عكرمة ومقسم عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: أخذها رسول الله ﷺ.

وروى جويبر بن الضحاك عنه: أن رسول الله ﷺ لما وقع فى يده غنائم هوازن يوم حنين غلّه رجل بإبرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الكلبى ومقاتل: نزلت فى غنائم أُحد حين ترك الرماة المركز، وطلبوا الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول النبى ﷺ: من أخذ شيئًا فهو له، وأن لا يقسّم الغنائم كما لم يقسّم يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا فى الغنائم، فقال النبى ﷺ: «ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى؟» قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفًا، فقال النبى ﷺ: «بل ظننتم أن نغل ولا نقسم» فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى بعضهم عن الضحاك عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث طلائع فغنمت، فقسمها رسول الله ﷺ ولم يقسم للطلائع، فلما قدمت الطلائع قالوا: قسم الفىء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية.

قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت على النبى (عليه السلام) وقد غلّ طوائف من أصحابه.

وفى بعض التفاسير: أن الأقوياء ألحّوا عليه يسألونه عن المغنم، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ فيعطى قومًا ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية ولا يحرم أحدًا.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: هذا فى الوحى يقول: ما كان لنبى أن يغل ويكتم شيئًا من وحى الله عزّ وجلّ رغبة أو رهبة أو مداهنة، وذلك أنهم كانوا يكرهون ما فى القرآن من عيب دينهم وسب آلهتهم، فسألوه أن يطوى ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

فأما التفسير فقرأ السلمى ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وعاصم: (يَغَل) بفتح الياء وفتح الغين، وهى قراءة ابن عباس واختيار أبى عبيدة.

وقرأ الباقون: بضم الياء وفتح الغين وهى قراءة ابن مسعود واختيار أبى حاتم، فمعناه أن يخون، والمراد به الأمة.

وقال بعض أهل المعانى: اللام فيه منقولة، معناه: ما كان النبى ليغل، وما كان الله عزّ وجلّ أن يتخذ من ولد، أى ما كان الله ليتخذ من ولد.

وقال بعضهم: هذا من ألطف التعريض لها بأن (برأ ساحة) النبى ﷺ من الغلول، دلّ على أن الغلول فى غيره، ونظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤) وهذا معنى قول السدى.

وقال المفضل: معناه ما كان يظن به ذلك ولا يشبهه ولا يليق به، فاحتج أهل هذه القراءة بقول ابن عباس: كيف لا يكون له أن يغل وقد كان النبى من الأنبياء يقتل.

ومن قرأ بضم الياء فله وجهان:

أحدهما: أن يكون من الغلول، أى ما كان النبى أن يغل، أى أن يخان، يعنى أن تخونه أُمّته.

والوجه الآخر: أن يكون من الإغلال، معناه ما كان لنبى أن يخون أو يُنسب إلى الخيانة أو يوجد خائنًا أو يدخل فى جملة الخائنين، فيكون أغل وغلل بمعنى واحد، كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ (الأنعام: ٣٣) وقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ (الطارق: ١٧).

وقال المبرد: تقول العرب: أكفرت الرجل بمعنى جعلته كافراً ونسبته إلى الكفر وحملته عليه ووجدته كافراً وألحقته بالكافرين.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، قال الكلبى: يمثل له ذلك الشىء فى النار ثم يقال له: انزل فخذه، فينزل فيحمله على ظهره، فإذا بلغ موضعه وقع فى النار ثم كلفه أن ينزل إليه فيخرجه فيفعل ذلك.

وروى أبو زرعة عن أبى هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره وقال: «لا ألقينَّ أحدكم يجىء على رقبته يوم القيامة بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثنى؟ فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، ولا ألقينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول: يا رسول الله أغثنى؟ فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، ولا ألقينَّ أحدكم بصامت يقول: يا رسول الله أغثنى؟ فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، ولا ألقينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثنى؟ فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، ولا ألقينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخنق يقول: يا رسول الله أغثنى؟ فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك».

وحدث سالم بن أبى الجعد عن عبد الله بن عمرو قال: كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له كركرة فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هو فى النار» فوجدوا عليه عباءة قد غلّها.

حدث الزهرى عن عروة عن أبى حميد الساعدى قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له أبو اللبيبة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أُهدى له، فقام النبى ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال العامل يبعث فيجىء فيقول هذا لكم وهذا أهدى إلىَّ، أفلا يجلس فى بيت أبيه أو أمّه وينظر ما يُهدى إليه، والذى نفس محمد بيده لا يبعث أحد منكم فيأخذ منه شيئًا إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة له خوار أو شاة يثغر. ثم رفع يديه حتى رأيت عفرة إبطيه فقال: اللهم قد بلغت».

وعن زيد بن خالد: أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر فذكروا لرسول الله ﷺ فقال: «صلّوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال: «إن صاحبكم غلَّ فى سبيل الله» ففتشنا متاعه لذلك، فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوى درهمين.

وعن أبى هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر فلم يغنم ذهبًا ولا ورقًا إلاّ الثياب والمتاع قال: فتوجه رسول الله ﷺ نحو وادى القرى وقد أُهدى لرسول الله ﷺ رجل يقال له

مدعم فبينا مدعم يحطّ رجل رسول الله إذ جاءه سهم فقتله ، فقال الناس : هنيئًا له الجنة .

فقال رسول الله ﷺ : «كلاّ والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا» فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «شراك من نار أو شراكان من نار» .

وعن عبيد الله بن عمير قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى فى الناس فيجيئون بغنائمهم فيجمعه ويقسمه ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنّا أصبنا من الغنيمة فقال : «أسمعت قد نادى ثلاثًا؟» قال : نعم ، قال : «فما منعك أن تجىء به» فاعتذر إليه ، فقال : «كن أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبله عنك» .

وعن صالح بن محمد بن مائدة قال : دخلت مع مسلمة أرض الروم ، فأُتى برجل قد غَلّ فسئل سالم عنه فقال : سمعت أبى يحدث عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال : «إذا وجدتم الرجل قد غلّ فاحرقوا متاعه واضربوه» قال : فوجدنا فى متاعه مصحفًا ، فسأل رجل سالمًا عنه فقال : بعه وتصدق بثمنه .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد حرقوا متاع الغال وضربوه وفى بعض الروايات ومنعوه سهمه .

وعن صالح بن محمد قال : غزونا مع الوليد بن هشام ومعنا سالم بن عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز فغلّ رجل متاعًا ، فأمر الوليد بمتاعه فأحرق وطيف به ولم يعطه سهمه ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بترك الغلول ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فغلّ ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ۝ هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ يعنى ذو درجات ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ .

وقال ابن عباس : يعنى أن من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلف المنازل عند الله تعالى ، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والثواب العظيم ، ولمن باء بسخط من الله المهانة والعذاب الأليم .

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ۝ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

قال بعضهم : لفظ الآية عام ومعناها خاص ، إذ ليس حى من أحياء العرب إلاّ وقد قلّدوا رسول الله ﷺ وليس فيهم نسب إلاّ بنى تغلب ، فإن الله طهّره منهم لما فيهم من دنس النصرانية إذ ثبتوا عليها ، وبيان هذا التأويل قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (الجمعة : ٢) .

وقال الآخرون : ﴿هُوَ﴾ أراد به المؤمنين كلهم ، ومعنى قوله : ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالإيمان والشفقة

لا بالنسب كما يقول القائل: أنت نفسى، يدل عليه قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) الآية.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ وقد كانوا من قبل بعثه، وهو رفع على الغاية ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ أَوَلَمَّآ﴾ أو حين ﴿أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أُحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ ببدر، وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين وقتل المسلمون منهم يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله ﷺ فينا والوحى ينزل علينا وهم مشركون.

وروى عبيدة السلمانى عن على قال: جاء جبرئيل (عليه السلام) إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيّرهم بين أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فذكر رسول الله ﷺ ذلك للناس فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا، لا بل نأخذ فداءهم فنتقوى بها على قتال عدونا، منّا عدتهم فليس فى ذلك ما نكره، قال: فقتل منهم يوم أُحد سبعون رجلاً عدد أُسارى يوم بدر، فمعنى قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ على هذا التأويل أى: بأخذكم الفداء واختياركم القتل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بأُحد من القتل والجرح والهزيمة والمصيبة ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وقدره وعلمه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى ليميّز، وقيل: ليرى، وقيل: لتعلموا أنتم أن الله عزّ وجلّ قد علم ما فيهم وأنتم لم تكونوا تعلمون ذلك ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأجل دين الله وطاعته ﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ عن أهلكم وبلدتكم وحريمكم.

وقال السدى والفراء وأبو عون الأنصارى: أى كثروا سواد المسلمين، ورابطوا إن لم تقاتلوا، كون ذلك دفعًا وقمعًا للعدو ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ وهم عبد الله بن أُبى وأصحابه الذين انصرفوا عن أُحد وكانوا ثلاثمائة، قال الله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ﴾ أى إلى الكفر ﴿يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَـٰنِ﴾ أى فى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك أنهم كانوا ينكرون الإيمان ويضمرون الكفر، فبيّن الله عزّ وجلّ نفاقهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ فى النسب لا فى الدين، وهم بهذا واحد ﴿وَقَعَدُواْ﴾ يعنى وقعد هؤلاء القاعدون عن الجهاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وانصرفوا عن محمد وقعدوا فى بيوتهم ﴿مَا قُتِلُواْ قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾ فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ إن الحذر لا يغنى عن القدر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ﴾ الآية .

قال بعضهم : نزلت هذه الآية فى شهداء بدر ، وكانوا أربعة عشر رجلاً ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين ، وقال آخرون : نزلت فى شهداء أُحد ، وكانوا سبعين رجلاً ، أربعة من المهاجرين ، حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار.

وروى ابن الزبير وعطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لما أُصيب إخوانكم يوم أُحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر تزور أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلمّا وجدوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله تعالى لهم من الكرامة .

قالوا : يا ليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما صنع الله بنا ، كى يرغبوا فى الجهاد ولا ينكلوا عنه ، فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ﴾ إلى قوله ﴿أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال قتادة والربيع : ذُكر لنا أنّ رجلا من أصحاب النبى ﷺ قال : يا ليتنا نعلم ما فعل

بإخواننا الذين قتلوا يوم أُحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية فقال: جعل الله عزّ وجلّ أرواح شهداء أُحد فى أجواف طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، قال: فاطلع الله تعالى عليهم اطلاعة فقال: هل تشتهون من شىء فأزيدكموه؟ قالوا: ربّنا ألسنا نسرح فى الجنة فى أيّها شئنا، ثم اطلع عليهم الثانية فقال: هل تشتهون من شىء فأزيدكموه؟ فقالوا: ربّنا أليس فوق ما أعطيتنا شيئًا إلاّ أن نحب أن تعيدنا أحياء، ونرجع إلى الدنيا فنقاتل فى سبيلك فنقتل مرة أخرى فيك قال: لا. فقالوا: فتقرئ نبيّنا منّا السلام وتخبره بأن قد رضينا ورضى عنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال جابر بن عبد الله: قتل أبى يوم أُحد وترك علىَّ بنات فقال رسول الله ﷺ: «ألا أُبشرك يا جابر» قلت: بلى يا نبى الله قال: «إنّ أباك حيث أُصيب بأُحد أحياه الله وكلمه كلامًا فقال: يا عبد الله سلنى ما شئت قال: أسألك أن تعيدنى إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانيًا، فقال: يا عبد الله إنى قضيت أن لا أعيد خليقة إلى الدنيا. قال: يا ربِّ فمن يبلّغ قومى ما أنا فيه من الكرامة. قال الله تعالى: أنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

حميد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرّها أن ترجع إلى الدنيا ولها الدنيا وما فيها إلاّ الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أُخرى».

وقال بعضهم: نزلت فى شهداء بئر معونة، وكان سبب ذلك على ما روى محمد بن إسحاق بن يسار عن أبيه عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك وغيرهم من أهل العلم قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنّة ـ وكان سيد بنى عامر بن صعصعة. على رسول الله ﷺ المدينة وأهدى إليه هدية، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها وقال: «يا أبا براء أنا لا أقبل هدية مشرك فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك» ثم عرض عليه، وأخبره بما له فيها وما وعد الله المؤمنين من الثواب، وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال: يا محمد إن أمرك هذا الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول الله ﷺ: «إنى أخشى عليهم أهل نجد» فقال أبو براء: أنا لهم جار. أى هم فى جوارى. فابعثهم ليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى

ساعدة فى سبعين رجلاً من خيار المسلمين، فيهم الحارث بن الصمة وحَرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى ونافع بن ورقاء الخزاعى وعامر بن فهير مولى أبى بكر، وذلك فى صَفَر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحد، فساروا حتى نزلوا بين معونة. وهى أرض بين أرض بنى عامر. وحرة بنى سليم، فلما نزلوها قال بعضهم لبعض: أيّكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال حَرام بن ملحان: أنا، فخرج بكتاب رسول الله ﷺ أبى عامر بن الطفيل وكان على ذلك الماء، فلما أتاهم حَرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل فى كتاب رسول الله ﷺ فقال حرام: يا أهل بئر معونة إنى رسول رسول الله إليكم وإنى أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله.

فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر فزت وربّ الكعبة. ثم استصرخ عامر بن الطفيل بنى عامر على المسلمين، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً. فاستصرخ قبائل من بنى سُليم عصبة ورعيل وذكوان فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوهم فى رجالهم، فلما رأوهم أخذوا السيوف ثم قاتلوهم حتى قتلوا من آخرهم إلاّ كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان فى سرح القوم عمرو بن أميّة الضمرى ورجل من الأنصار أحد بنى عمرو بن عوف، فلم ينبههما على مصاف أصحابهما إلاّ الطير يحوم على العسكر فقالا: والله إن لهذا الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا إليه فإذا القوم فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة، فقال الأنصارى لعمرو بن أميّة: ماذا ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر، فقال الأنصارى: لكنى لا أرغب بنفسى عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمّه، فقدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال رسول الله: «هذا عمل أبى براء قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا» فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة.

وروى محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة: أن عامر بن الطفيل كان يقول: من الرجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه، قالوا: هو عامر بن فهيرة.

قالوا وقال حسان بن ثابت يحرض أبى براء على عامر بن الطفيل:

فتى أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوايب أهل نجد
نهكم عامر بأبى براء ليخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعى فما أحدثت فى الحدثان بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء وخالك ماجد حكم بن سعد

وقال كعب بن مالك فى ذلك:

لقد طارت شعاعًا كل وجه خفارة ما أجار أبو براء
بنى أم البنين أما سمعتم دعاء المستغيث مع النساء
وتنويه الصريخ بلى ولكن عرفتم أنه صدّق اللقاء

فلما بلغ ربيعة من البراء قول حسان وقول كعب بن مالك، حمل على عامر بن الطفيل وطعنه فخر عن فرسه فقال: هذا عمل أبى براء، إن متُّ فدمى لعمى ولأتبعنّ به وإن أعش فسأرى فيه الرأى. وقال إسحاق بن أبى طلحة حدثنى أنس بن مالك قال: أنزل الله تعالى فى شهداء بئر معونة قرآنًا بلّغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربّنا فرضى عنّا ورضينا عنه، ثم نسخت ورفعت بعدما قرأناها زمانًا وأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية.

وقال بعضهم: إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور تحسروا على الشهداء وقالوا: نحن فى النعمة والسرور وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا فى القبور، فأنزل الله عزّ وجلّ تنفيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تظنن وروى هشام عن أهل الشام (يحسبن) بالياء. وقرأ الحسن وابن عامر: (الذين قتّلوا) مشددًا، (أمواتًا) كموت من لم يقتل فى سبيل الله، ونصب أمواتًا على المفعول الثانى، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين، فإذا قلت: حسبت زيدًا، لا يكون كلامًا تامًا حتى تقول: قائمًا أو قاعدًا ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ تقديره: بل هم أحياء.

وقرأ ابن أبى عبلة: أحياءً نصبًا أى أحسبهم أحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وقال بعضهم: يعنى أحياء فى الدنيا حقيقة، وقيل: (فى العالم) وقيل: بالثناء والذكر، كما قيل:

موت التقى حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

وقيل: ممّا هم أحياء.

﴿رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ويأكلون ويتنعمون كالأحياء، وقيل: إنه يكتب لهم فى كل سنة ثواب غزوة ويشتركون فى فضل كل مجاهد يكون فى الدنيا إلى يوم القيامة، لأنهم سلوا أمر الجهاد،

فيرجع أجر من يقتدى بهم إليهم، نظيره قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ (المائدة: ٣٢) الآية، وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، كأرواح الأحياء من المؤمنين الذين باتوا على الوضوء. وقيل: لأن الشهيد لا يبلى فى القبر ولا تأكله الأرض.

يقال: أربعة لا تبلى أجسادهم: الأنبياء والعلماء والشهداء وحملة القرآن.

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة: أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاريين ثم السلميين، كانا قد خرّب السيل قبرهما وكانا فى قبر واحد وهما من شهداء أُحد، وكان قبرهما ممّا يلى السيل، فحفر عنهما ليغيّروا عن مكانهما فوجدا لم يتغيرا، كأنهما ماتا بالأمس، وكان قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين يوم أحد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة. وقيل: سمّوا أحياءً لأنهم لا يغسّلون كما لا يغسل الأحياء.

وقال النبى ﷺ: «زمّلوهم فى كلومهم ودمائهم، اللون لون الدم والريح ريح المسك».

وقال عبيد بن عمر: إن رسول الله ﷺ حين انصرف يوم أُحد مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا ثم قرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ﴾ (الأحزاب: ٢٣) الآية، ثم قال ﷺ: «إن رسول الله يشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم وسلّموا عليهم، فوالذى نفسى بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلاّ ردّوا عليه، يرزقون من ثمار الجنة وتحفها».

﴿فَرِحِينَ﴾ نصب على الحال والقطع من قوله ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

وقرأ ابن السميقع: (فارحين) بالألف، وهما لغتان كالفرة والفارة والحذر والحاذر والطمع والطامع والبخل والباخل.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من ثوابه ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون، وأصله من البشر، لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور فى بشرة وجهه ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء فى الدنيا على منهاجهم من الإيمان والجهاد، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا لحقوا بهم فصاروا من كرائم الله عزّ وجلّ إلى مثل ما صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون.

وقال السدى: يؤتى الشهيد بكتاب فيه من تقدم عليه من إخوانه وأهله فيقال: تقدم فلان

عليك يوم كذا وتقدم فلان يوم كذا، فيستبشر حين يقدم عليه كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني بأن لا خوف ﴿عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ﴾ يعني وبأن الله في محل الخفض على قوله: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

وقرأ الكسائي والفرّاء والمفضل ومحمد بن عيسى: (وإن الله) كسر الألف على الاستثناء، ودليلهم قراءة ابن مسعود (والله) (لا يضيع أجر المؤمنين).

قال الكلبي بإسناده: إن العبد إذا لقي العدو في سبيل الله، فتح له باب من السماء وأطلعت عليه زوجتاه من الحور العين، فإذا أقبل على العدو يقاتلهم قالتا: اللهم وفقه وسدّده، وإذا أدبر عن العدو قالتا: اللهم اعف وتجاوز، فإذا قتل يباهي الله عزّ وجلّ به الملائكة فيقول لهم: انظروا إلى عبدي بذل نفسه ودمه ابتغاء مرضاتي، فتقول الملائكة: يا ربّ أفلا تذهب فتنصره على من يريد قتله؟ فيقول لهم: خلّوا عن عبدي، فقد سهر ونصب في طلب مرضاتي، أحبَّ لقائي وأحببت لقاءه. فينزل إليه زوجتاه من الحور العين، ويأمر الله الملائكة أن يأتوه من آفاق الأرض، فيحبونه ويبشرونه بالجنة والكرامة من الله تعالى، فإذا فعلوا ذلك بعث الله إليهم: أن خلوا بين عبدي وبين زوجته حتى يستريح، فتقول زوجتاه: لقد كنا إليك بالأشواق، ويقول لهما مثل ذلك.

وعن الحسين بن علي (عليه السلام) قال: بينما علي بن أبي طالب يخطب الناس ويحثهم على الجهاد إذ قام إليه شاب وقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله؟ قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على ناقته العصباء ونحن منقلبون من غزوة، فسألته عمّا سألتني عنه فقال ﷺ: «الغزاة إذا همّوا بالغزو كتب الله تعالى لهم براءة من النار، فإذا تجهزوا لغزوهم باهى الله تعالى بهم الملائكة، فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان والبيوت، ويخرجون من ذنوبهم كما تخرج الحية من سلخها، يوكل عزّ وجلّ بكل رجل منهم أربعين ألف ملك يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ولا يعمل حسنة إلاّ ضعفت له، وكتب له كل يوم عبادة ألف رجل يعبدون الله عزّ وجلّ ألف سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا، اليوم مثل عمر الدنيا، فإذا صاروا بحضرة عدوّهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إياهم، فإذا برزوا لعدوّهم وأشرعت الأسنّة وفوّقت السهام وتقدم الرجل إلى الرجل حفّتهم الملائكة بأجنحتها ويدعون الله لهم بالنصرة والتثبت، ونادى مناد: الجنة تحت ظلال السيوف، فتكون الضربة والطعنة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد في اليوم الصائف، وإذا زال

الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتى يبعث الله تعالى إليه زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد الله له من الكرامة ، وإذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض : مرحبًا بالروح الطيب التى أُخرجت من البدن الطيب أبشر فإن لك ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ويقول الله تعالى : أنا خليفته فى أهله ، من أرضاهم فقد أرضانى ومن أسخطهم فقد أسخطنى ، ويجعل الله روحه فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث تشاء تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة بالعرش ، ويعطى الرجل منهم سبعين غرفة من غرف الفردوس ، سلوك كل غرفة ما بين صنعاء والشام يملأ نورها ما بين الخافقين ، فى كل غرفة سبعون بابًا ، على كل باب سبعون مصراعًا من ذهب ، وعلى كل باب سبعون غرفة مسبلة ، وفى كل غرفة سبعون خيمة ، فى كل خيمة سبعون سريرًا من ذهب قوائمها الدر والزبرجد ، مزمولة بقضبان الزمرد ، على كل سرير أربعون فراشًا ، غلظ كل فراش أربعون ذراعًا ، على كل فراش زوجة من الحور العين ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة : ٣٧) .

فقال الشاب : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن العروبة؟ قال : «هى الغنجة الرضية المرضية الشهية ، لها ألف وصيف وسبعون ألف وصيفة ، صفر الحلى بيض الوجوه ، عليهن تيجان اللؤلؤ ، على رقابهم القناديل ، بأيديهم الأكواب والأباريق ، وإذا كان يوم القيامة يخرج من قبره شاهرًا سيفه تشخب أوداجه دمًا ، اللون لون الدم والرائحة رائحة المسك ، يخطو فى عرصة القيامة . فوالذى نفسى بيده لو كان الأنبياء على طريقهم لترجّلوا لهم ، ممّا يرون من بهائهم ، حتى يأتوا إلى موائد من الجواهر فيقعدون عليها ، ويشفع الرجل منهم فى سبعين ألف من أهل بيته وجيرته ، حتى أن الجارين يتخاصمان أيهما أقرب جوارًا فيقعدون معى ومع إبراهيم على مائدة الخلد ، فينظرون إلى الله فى كل يوم بكرة وعشية» .

وروى مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامى : رجل كانت له صحبة قال : قال النبى ﷺ : «يُعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه : يكفّر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوَّج من الحور العين ، ويؤمن الفزع الأكبر وعذاب القبر ، ويحلّى بحلية الإيمان» .

ثابت بن أسلم البنانى عن أنس بن مالك قال : كان النبى ﷺ فى بعض غزواته فأتاه رجل أسود فقال : يا رسول الله إنى أسود قبيح الوجه منتن الريح لا مال لى ، فإن قاتلت هؤلاء حتى أُقتل فأين أنا؟ قال : «فى الجنة» قال : فحمل عليهم فقاتل حتى قُتل ، قال : فجاء رسول الله (عليه السلام) حتى وقف على رأسه فقال : «لقد بيّض الله وجهك وطيّب ريحك وأكثر مالك»

ثم قال: «لقد رأيت زوجتيه من الحور العين في الجنة تنازعانه جبة له من صوف، ليدخلا بينه وبين جبته».

أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيد من القتل في سبيل الله إلاّ كما يجد أحدكم مسَّ القرصة».

وفي غير هذا الحديث: «عضة نملة أشد على الشهيد من مس السلاح».

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يصونهم عن القتل والزلازل والأسقام، يطيل أعمارهم في حسن العمل، ويحسن أرزاقهم ويُحييهم في عافية ويقبض أرواحهم في عافية على الفرش، ويعطيهم منازل الشهداء».

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية، وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا عن المسلمين من أُحد فبلغوا الروحاء، ندموا على انصرافهم وتلاوموا وقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى لم يبق منهم إلاّ الشريد، تركتموهم ارجعوا فاستأصلوهم، فبلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ فأراد أن يذهب العدو ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فقال: «ألا عصابة تشدد لأمر الله تطلب عدوها فإنها أنكأ للعدو وأبعد للسمع» فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من الجروح والقروح الذي أصابهم يوم أُحد، ونادى منادي رسول الله: ألا لا يخرجن فيها أحد إلاّ من حضر يومنا بالأمس، فكلمه جابر بن عبد الله فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال لي: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجلٌ فيهم، ولست بالذي أُوثرك على نفسي بالجهاد مع رسول الله ﷺ فتخلف على أخواتك، فتخلفته عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرعبًا للعدو ليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فينصرفوا، فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً، حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثلاثة أميال.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت لعبد الله بن الزبير: يا بن أُختي أما والله إن أباك وجدّك يعني أبا بكر والزبير لمن الذين قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾.

وروى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السايب: أن

رجلاً من أصحاب النبى ﷺ من بنى عبد الأشهل كان شهد أُحدًا، قال: شهدت أُحدًا أنا وأخ لى فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذّن رسول الله بالخروج فى طلب العدو قلنا: لا تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ فوالله ما لنا دابة نركبها وما منّا إلاّ جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحًا من أخى وكنت إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، فمرَّ على رسول الله ﷺ معبد الخزاعى بحمراء الأسد، وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئًا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك فقال: يا محمد والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء، قد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا: قد أصبنا جلّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرّن على بقيتهم فنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه لطلبكم فى جمع لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على صنيعهم، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أرَ مثله قط، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنأتى على بقيتهم. قال: فإنى والله أنهاك عن ذلك فقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيه أبياتًا.

قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تهدّ من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا خرق معاذيل
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لمّا سمعوا برئيس غير مخذول
فقلت: ويٌ لابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل
إنى نذير لأهل السير ضاحية ... ولكل ذى إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وحش قنابله ... وليس يوصف ما أثبت بالقيل

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، ومرَّ به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة نريد الميرة.

قال: فهل أنتم مبلّغون محمدًا عنى برسالة أرسلكم بها وأُحمّل لكم إبلكم هذه زبيبًا بسوق عكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم، قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. وانصرف أبو سفيان إلى مكة ومرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد

فأخبروه بالذى قال أبو سفيان.

فقال رسول الله وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم انصرف رسول الله ﷺ بعد الثالثة إلى المدينة وقد ظفر فى وجهه بمعاوية بن المغيرة بن العاص وأبى غرة الجمحى، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة: نزلت هذه الآيات فى غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان قال يوم أُحد حين أراد أن ينصرف: يا محمد موعدنا بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله» فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية من الظهران، ثم ألقى الله عزّ وجلّ الرعب فى قلبه قبل الرجوع، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمراً فقال له أبو سفيان: يا نعيم إنى واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقىَ بموسم بدر الصغرى، وإن هذه عام جدب ولا يصلحنا إلاّ عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لى أن لا أخرج إليها، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا، فيزيدهم ذلك جرأة، ولأن يكون الخلف من جهتهم أحبّ إلىّ من أن يكون من قبلى، فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنّا فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندى عشرة من الإبل أضعها لك على يدى سهيل بن عمرو يضمنها.

قال: فجاء سهيل فقال له نعيم: يا أبا يزيد أتضمن لى هذه الفرائض فأنطلق إلى محمد وأثبطه. قال: نعم، فخرج نعيم حتى قدم المدينة فوجد الناس يتجهزون بميعاد أبى سفيان، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: واعدنا أبو سفيان موسم بدر الصغرى أن نقتتل بها.

قال: بئس الرأى رأيتم، أتوكم فى دياركم وقراكم فلم يفلت منكم إلاّ شريد، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم، والله لا يفلت منكم أحد. فكره أصحاب رسول الله الخروج، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لأخرجنّ ولو وحدى» فأما الجبان فرجع وأما الشجاع فإنه تأهب للقتال وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى وافوا بدر الصغرى، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون: قد جمعوا لكم. يريدون أن يرعبوا المسلمين، فيقول المؤمنون: حسبنا الله ونعم الوكيل، حتى لقوا بدراً، وهو ماء لبنى كنانة وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام. فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان، وقد انصرف أبو سفيان من مجنة إلى مكة، فسماهم أهل مكة جيش السويق وقالوا: إنما خرجتم تشربون السويق، فلم يلق

رسول الله ﷺ وأصحابه أحدًا من المشركين ببدر، ووافوا السوق وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوها وأصابوا الدرهم والدرهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين. فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ومحل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفض على صفة المؤمنين تقديره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المستجيبين لله والرسول ومعنى الاستجابة: الإجابة والطاعة، نظيره قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ (سورة البقرة:١٨٦) فليطيعوا لى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أى نالهم الجراح والكلوم، وتم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بطاعة رسول الله وإجابته إلى الغزو ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ معصيته وطاعته ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب كثير ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ومحل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفض أيضًا مردود على الذين الأول، وأراد (بالناس) نعيم بن مسعود فى قول مجاهد ومقاتل وعكرمة والواقدى، وهو على هذا التأويل من العام الذى أُريد به الخاص، نظيره قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ (النساء:٥٤) يعنى محمدًا وحده، وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ (غافر:٥٧) يريد الرجال وحده.

وقال ابن إسحاق وجماعة: يريد (بالناس) الركب من عبد القيس وقد مضت قصتهم.

وقال السدى: لما تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه للمسير إلى ميعاد أبى سفيان، أتاهم المنافقون وقالوا: نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم فعصيتمونا، وقد أتوكم فى داركم وقاتلوكم وظفروا، فإن أتيتموهم فى ديارهم لا يرجع أحد منكم. فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقيل: (الناس) ساروا الناس فى هذه الآية هم المنافقون.

وقال أبو معشر: دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة، فسألهم أصحاب رسول الله ﷺ عن أبى سفيان فقالوا: قد جمعوا لكم جموعًا كثيرة فاجتنبوهم. فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعنى أولئك القوم من بنى هذيل ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعنى أبا سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِيمَـٰنًا﴾ يعنى تصديقًا ويقينًا وقوة وجرأة.

ذكر بعض ما ورد فى الأخبار فى زيادة الإيمان ونقصانه

روى مالك عن نافع عن ابن عمر قال: قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار».

عطاء: إنما مجادلة أحدكم فى الحق، فيكون له فى الدنيا بأشد من مجادلة المؤمنين لربّهم

فى إخوانهم الذين أدخلوا النار. قال: فيقولون: ربّنا إخواننا كانوا يصلّون معنا ويصومون معنا ويحجّون معنا فأدخلتهم النار. قال: فيقول: اذهبوا فأخرجوا من قد عرفتم منهم، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم فيقولون: ربّنا قد أخرجنا من أمرتنا. قال: ثم يقول لهم: أخرجوا من كان فى قلبه وزن دينار من الإيمان، ثم من كان فى قلبه وزن نصف دينار، حتى يقول فمن كان فى قلبه ذرة.

وعن سهل بن حنيف قال: سمعت أبا سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علىّ وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدى ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض علىّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره» قالوا: فماذا أولت يا رسول الله؟ قال: «الدين».

وعن هذيل بن شرحبيل عن عمر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض أو بإيمان هذه الأمة لرجح به».

وعن ابن سابط قال: كان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: تعالوا نؤمن ساعة تعالوا نزدد إيماننا، تعالوا نذكر الله تعالى.

وعن عبد الله بن عمرو بن هند قال: قال على كرم الله وجهه: إن الإيمان يبدأ نقطة بيضاء فى القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت بياضًا، حتى يبيضّ القلب كله، وإن النفاق يبدأ نقطة سوداء فى القلب، وكلما ازداد النفاق ازدادت سوادًا، حتى يسود القلب كله، والذى نفسى بيده لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض القلب ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود القلب.

وعن عمير بن حبيب بن خماشة قال: الإيمان يزيد وينقص. فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا ربّنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيقنا فذلك نقصانه.

وعن محمد بن طلحة عن زبيد عن زر قال: كان عمر ممّا يأخذ الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: قم بنا نزدد إيمانًا.

وعن محمد بن فضيل عن أبيه عن سماك عن إبراهيم عن علقمة أنه كان يقول لأصحابه: امشوا بنا نزدد إيمانًا.

وعن الحارث بن عمير عن أبى الدرداء قال: الإيمان يزيد وينقص.

وعن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأبى هريرة قالا : الإيمان يزداد وينقص .

الحارث بن الحصين عن أبى الدرداء قال : الإيمان يزداد وينقص .

أبو حذيفة : إن عمر بن عبد العزيز قال : الإيمان يزيد وينقص .

سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال : ما نقصت أمانة عبد قط إلاّ نقص من إيمانه .

وعن عثمان بن سعيد الدارمى قال : سألت محمد بن كثير العبدى عن الإيمان فقال : هو قول وعمل يزيد وينقص ، قلت : أكان سفيان يقوله؟ قال : نعم بلا شك .

وقال : سألت أبا حذيفة موسى بن مسعود عن الإيمان قال : هو قول وعمل يزيد وينقص ، قلت : أكان سفيان يقوله؟ قال : نعم .

قال : وسألت عارم بن الفضل عن الإيمان ، فقال : هو قول وعمل يزيد وينقص ، قلت : أكان حماد بن يزيد يقوله؟ قال : نعم .

قال : وسألت أبا الوليد الطيالسى عن الإيمان ، فقال : قول وعمل ونية ، قلت : أيزداد وينقص؟ قال : نعم .

قال : وسألت سليمان بن حرب عن الإيمان ، فقال مثل ذلك .

قال : وسمعت مسلم بن إبراهيم يقول : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

قال : وسألت على بن عبد الله المدينى عن الإيمان ، قال : قول وعمل ونية ، قلت : أينقص ويزداد؟ قال : نعم يزداد وينقص حتى لا يبقى منه شىء .

قال : وسألت عمر بن عون الواسطى عن الإيمان فقال مثل ذلك . قال : وسمعت يحيى بن يحيى يقول : الإيمان قول وعمل والناس يتفاضلون فى الإيمان . قال : وسألت أحمد بن يونس عن الإيمان . قال : هو عمل يزيد وينقص .

قال : وسألت عبد الله بن محمد (الطفيل) وكان مُتّقيًا عن الإيمان فقال : هو قول وعمل يزيد وينقص ، فأروه عنى .

قال : وسألت أبا بويه الجيلى عن الإيمان فقال : قول وعمل يزيد وينقص .

قال : وسمعت محبوب بن موسى الأنطاكى يقول : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، ومن كره الاستثناء فقد أخطأ السنّة . قلت : أكان أبو إسحاق الفزارى يقوله؟ قال : كان أبو إسحاق يخرج من المصيصة من لا يقول الإيمان يزيد وينقص .

قال: وسمعت محبوب بن موسى يقول: سمعت يوسف بن أسباط يقول: الإيمان يزيد وينقص.

قال: وسمعت الحسين بن عمر السجستاني يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

قال الحسن: وكان وكيع بن الجراح وعمر بن عمارة وابن أبي برزة وزهير بن نعيم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي كافينا وثقتنا، والنون والألف مخفوضتان بالإضافة كقولك: حسب زيد درهم، لأن حسب اسم وإن كان في مذهب الفعل ألا ترى ضمة الثانية.

قال الشاعر:

فتملأ بيتنا أقطًا وسمنًا وحسبك من غنًى شبع وريّ

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي الموكول إليه الأمور، فعيل بمعنى مفعول.

قال الواقدي: ونعم الوكيل أي المانع. نظيره قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٦) أي مانعًا، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٥).

عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان آخر ما تكلم به رسول الله إبراهيم (عليه السلام) حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل».

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: قضى رسول الله ﷺ بين رجلين فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل.

فقال النبي ﷺ: «إن الله يحمد على الكيس ويلوم على العجز، وإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ فانصرفوا ورجعوا، نظيره قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يوسف: ٦٢) أي رجعوا.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بعافية لم يلقوا بها عدوًا وبراء جراحهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ بربح وتجارة، وهو ما أصابوا من السوق فربحوا ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يصبهم قتل ولا جرح ولا ينالهم سوء ولا أذى ولا مكروه ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ في طاعة الله وطاعة رسوله، وذلك أنهم قالوا: هل يكون هذا غزوًا؟ فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني ذلك الذي قال لكم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، من فعل الشيطان ألقى في أفواههم

أن يرهبوهم ويجبنوا عنهم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أى يخوفكم بأوليائه، أى أولياء إبليس حتى يخوّف المؤمنين بالكافرين.

وقال السدى: يعظم أولياءه فى صدورهم ليخافوهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ (الكهف: ٢) أى ببأس، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ (غافر: ١٥) و﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ (الشورى: ٧). أى بيوم الجمع يخوف الناس أولياءه، كقول القائل: ويعطى الدراهم ويكسى الثياب، بمعنى هو يعطى الناس الدراهم ويكسى الناس الثياب. يدل عليه قراءة ابن مسعود: (يخوف الناس أولياءه).

وروى يحيى بن اليمان عن طلحة عن عطاء أنه كان يقرأ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

وروى محمد بن مسلم بن أبى وضاح قال: حدثنا على بن خزيمة قال: فى قراءة أُبى بن كعب: يخوفكم بأوليائه.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بوعدى فإنى المتكفل لكم بالنصر والظفر ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾.

قرأ نافع: (يُحزنك) بضم الياء وكسر الزاى، وكذلك جميع ما فى القرآن من هذا الفعل، إلاّ التى فى الأنبياء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ (الأنبياء: ١٠٣) فإنه بفتح الياء وضم الزاى، وضده أبو جعفر، وقرأ ابن محيصن كلها بضم الياء وكسر الزاى.

الباقون كلها بالفتح وضم الزاى، وهما اختيار أبى عبيد وأبى حاتم، وهما لغتان، حزن يحزن وأحزن يحزن إلاّ أن اللغة العالية الفصيحة: حزن يحزن وأحزنته قال الشاعر:

❖ مضى صحبى وأحزننى الديار ❖

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

قرأه العامة: هكذا، وقرأ طلحة بن مصرف: يسرعون.

قال الضحاك: هم كفار قريش، وقال غيره: هم المنافقون يسارعون فى الكفر بمظاهرة الكفار.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بمسارعتهم فى الكفر ومظاهرتهم أهله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نصيبًا فى ثواب الآخرة، فلذلك خذلهم حتى سارعوا فى الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفى هذه الآية ردّ على القدرية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ استبدلوا الكفر بالإيمان ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فإنهم

يضرون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

قراءة حمزة وأبى بحترى . بالتاء .

الباقون: بالياء، فمن قرأ بالياء فـ (الذين) فى محل الرفع على الفاعل تقديره: ولا يحسبن الكفار أن إملاءنا خير لهم.

ومن قرأ بالتاء، قال الفراء: هو على التكرير فى المعنى، ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا ولا تحسبن إنما نملى، لأنك إذا أعلمت الحسبان فى الذين لم يجز أن يقع على إنما، وهو كقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ (محمد:١٨) يعنى هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم بغتة، وقيل: موضع إنما نصب على البدل من الذين.

كقول الشاعر:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنــــه بنيـان قـوم تهـدّما

فرفع (هلك) على البدل، من الأول، والإملاء الإمهال والتأخير والإطالة فى العمر والإنساء فى الأجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم:٤٦) أى حينًا طويلاً ويقال: عشت طويلاً، أى تمليت حينًا، وأصله من الملاوة والملا وهما الدهر.

قال الشاعر:

وقد أرانى للغوالى مصيداً ملاوة كأن فوقى جلدا

والملوان: الليل والنهار.

قال تميم بن مقبل:

ألا يا ديـــار الحـــــى بالسبعان أمل عليها بالبلى

ثم قال ﴿إِنَّمَا نُمْلِي﴾ نمهلهم ﴿لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ نزلت هذه الآية فى مشركى قريش.

قال مقاتل: قال عطاء: فى قريظة والنضير.

وعن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله أى الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قال: فأى الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله».

وقال ابن مسعود: ما من نفس برّة ولا فاجرة إلاّ والموت لها، فأما الفاجرة فمستريح ومستراح منه، وقرأ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية، وأما البرّة فقرأ ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران:١٩٨).

❖ ❖ ❖

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، اختلفوا فى نزولها:

فقال الكلبى: قالت قريش: يا محمد تزعم أن من خالفك فهو فى النار، والله عليه غضبان وأن من اتبعك على دينك فهو من أهل الجنة والله عنه راضٍ، فأخبرنا من يؤمن بك ومن لا يؤمن بك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال السدى: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علىَّ أُمَّتى فى صورها فى الطين كما عرضت على آدم (عليه السلام) وأُعلمت من يؤمن بى ومن لا يؤمن» فبلغ ذلك المنافقين واستهزءوا وقالوا: زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر به ممّن لم يخلق بعد، ونحن معه ولا يعرفنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقام على المنبر خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال (القوم) حملونى وطعنوا فى حلمى، لا تسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة إلاّ أنبأتكم».

فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال: يا رسول الله من أبى؟ فقال: «حذافة»، فقام عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) فقال: يا رسول الله رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبك نبيًا فاعف عنّا عفا الله عنك.

فقال النبى ﷺ: «فهل أنتم منتهون، فهل أنتم منتهون؟» ثم نزل عن المنبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فقالت أم حذافة له: ويحك ما أردت إلاّ أن تعرضنى لرسول الله. فقال: كان الناس قد أذونى فيك فأحببت أن أسأل رسول الله ﷺ فإن كانوا صدقوا رضيت وسكت، وإن كذبهم رسول الله ﷺ كفّوا عنى.

وقال أبو العالية: سأل المؤمنون أن يُعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمنين والمنافقين، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ واختلفوا فى حكم الآية ونظمها:

فقال بعضهم: الخطاب للكفار والمنافقين من الكفر والنفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبى وأكثر المفسرين.

وقال آخرون: الخطاب للمؤمنين الذى أخبر عنهم، ومعنى الآية: ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق، حتى يميز الخبيث من الطيب، وعلى هذا القول هو من خطاب التلوين، رجع من الخبر إلى الخطاب كقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (يونس: ٢٢).

وكقول الشاعر:

يا لهف نفسى كان جلدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر

وهذا قول أكثر أهل المعانى، واللام فى قوله: ﴿لِيَذَرَ﴾ لام الجحد، وهى فى تأويل كى، ولذلك نصب ما بعدها حتى يميّز.

قرأ الحسن وقتادة وأهل الكوفة: بضم الياء والتشديد وكذلك التى فى الأنفال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم.

الباقون: بفتح الياء مخففًا.

يقال: بأن الشىء يميّزه ميزًا وميّزه تميّزًا، إذا فرّقه وامتاز وانماز هو بنفسه.

قال أبو معاذ يقال: مزت الشىء أميزه ميزًا إذا فرقت بين شيئين، فإذا كانت أشياء قلت: ميّزتها تمييزًا، ومثله إذا جعلت الشىء الواحد شيئين، قلت: فرّقت بينهما، ومنه فرق الشعر، فإن جعلت أشياء قلت: فرقه وفرقها تفريقًا، ومعنى الآية: حتى يميز المنافق من المخلص فيميّز الله المؤمنين يوم أُحد من المنافقين، حيث أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول الله ﷺ.

قتادة: حتى يميّز المؤمن من الكافر بالهجرة والجهاد، ونظيرها فى سورة الأنفال. ابن كيسان ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الإقرار حتى نفرض عليهم الجهاد والفرائض التى

فيها تخليصهم، ليميّز بها بين من يثبت على إيمانه ممّن ينقلب على عقبيه.

الضحاك: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، يا معشر المنافقين والمشركين حتى يفرّق بينكم وبين من فى أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين.

وقال بعضهم: حتى يميّز الخبيث وهو المذنب، من الطيب وهو المؤمن، يعنى حتى يحط الأوزار من المؤمن ما يصيبه من نكبة ومحنة ومصيبة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ لأنه لا يعلم الغيب أحد غيره ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ يختار ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بالغيب فيطلعه على بعض علم الغيب، نظيره قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦ ـ ٢٧).

وقال السدى: وما كان الله ليطلع محمداً ﷺ على الغيب ولكن الله اجتباه ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وروى الفضل بن موسى عن رجل قد سمّاه قال: كان عند الحجاج منجم فأخذ الحجاج حصيات لم يعدّهن وقال للمنجم: كم فى يدى؟ فحسب فأصاب المنجم، ثم اعتقله الحجاج، فأخذ حصيات لم يعدّهن فقال للمنجم: كم فى يدى؟ فحسب وحسب ثم أخطأ ثم حسب أيضًا فأخطأ، فقال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها فى يدك؟ قال: فما الفرق بينهما؟ قال: إن ذلك أحصيته فخرج عن حد الغيب فحسبت وأصبت، وإن هذا لم يعرف عددها فصار غيبًا ولا يعلم الغيب إلاّ الله.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ﴾.

من قرأ بالياء جعل هو (ابتداء) وجعل الاسم مضمراً وجعل الخبر خيراً بحسبان تقديره: ولا يحسبن الباخلون البخل خيراً لهم، فاكتفى بذكر (يبخلون) من البخل كما تقول فى الكلام: قد قدم زيد فسررت به، وأنت تريد سررت بقدومه.

قال الشاعر:

إذا نهى السفيه جرى إليه ... وخالف والسفيه إلى خلاف

أى جرى إلى السفه ونظير هذا قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ (الأنفال: ٣٢) هو ابتداء والحق خبر كان، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ (سبأ: ٦).

ومن قرأ بالتاء فعلى التكرير والبدل، كما ذكرنا فى آية الإملاء، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعنى البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾.

قال المبرد: السين فى قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سين الوعيد وتأويلها: سوف يطوقون، واختلفوا فى معنى الآية:

فقال قوم: معناها فجعل ما بخل به وما يمنعه من الزكاة حيّة تطوق فى عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه، تقول: أنا مالك، فلا يزال كذلك حتى يساق إلى النار ويغل، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وأبى (وائل) وابن مالك وابن فرعة والشعبى والسدى، ويدل عليه ما روى أبو وائل عن عبد الله عن النبى ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلاّ جُعل له شجاع فى عنقه يوم القيامة» ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداق ذلك من كتاب الله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

وعن رجل من بنى قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه يسأله من فضل الله إيّاه فيبخل به عنه إلاّ أخرج الله له من جهنم شجاعًا يتلمظ حتى يطوقه» ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يكون له مال فيمنعه من حقه ويضعه فى غير حقه إلاّ مثله الله شجاعًا أقرع منتن الريح لا يمر بأحد إلاّ استعاذ منه حتى دنا من صاحبه، فإذا دنا من صاحبه قال: أعوذ بالله منك، قال: لمَ تستعيذ منى وأنا مالك الذى كنت تبخل به فى الدنيا فيطوقه فى عنقه فلا يزال فى عنقه حتى يدخله الله جهنّم».

وتصديق ذلك فى القرآن ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

فقال إبراهيم النخعى: معناه يُجعل يوم القيامة فى أعناقهم طوقًا من نار.

مجاهد: يكلفون يوم القيامة أن يأتوا ممّا بخلوا به فى الدنيا من أموالهم يوم القيامة.

المؤرج: يلزمون أعمالهم مثل ما يلزم الطوق بالعنق، يقال: طوق فلان عمله مثل طوق الحمامة.

عن يسار بن سعد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مانع الزكاة يوم القيامة فى النار».

هشام بن عروة عن أبيه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تخالط الصدقة مالاً إلاّ أهلكته».

عن عكرمة عن جبير بن مهاجر عن أبى بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حبس قوم الزكاة إلاّ حبس الله عنهم القطر».

وعن الحسن البصرى قال: كان أعرابى صاحب ماشية، وكان قليل الصدقة فتصدق بعريض من غنمه، فرأى فيما يرى النائم كأنما وثبت عليه غنمه كلها فجعل العريض يحامى

عنه، فلما انتبه قال: والله لئن استطعت لأجعلن أتباعك كثيراً. قال: وكان بعد ذلك يقسم.

قال الثعلبي: أنشدنا أبو القاسم الحسين بن محمد قال: أنشدنا أبو بكر محمد بن عبد الله قال: أنشدنا العلائي قال: أنشدني المهدي بن سابق:

يا مانع المال كم تضمن به   أتطمع بالله في الخلود معه

هل حمل المال ميت معه   أما تراه لغيره جمعه

ابن سعيد عن ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ ونبوته، وأراد بالبخل كتمان العلم الذي أتاهم الله، يدل عليه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النساء: ٣٧) الآية، ومعنى قوله ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يحملون وزره وإثمه كقوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ (الأنعام: ٣١)، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني أنه الباقي الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون ويرثهم، نظيره قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ (مريم: ٤٠).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بالياء، الباقون: بالتاء.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

قال الحسن ومجاهد: لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة: ٢٤٥) قال اليهود: إن الله فقير يستقرض منّا ونحن أغنياء، (والقائل فنحاص بن عازوراء) عن ابن عباس.

وروى الحسن: أن قائل هذه المقالة حيي بن أخطب.

قال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق: كتب النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، فدخل أبو بكر (رضي الله عنه) ذات يوم بيت مدارسهم فوجد ناسًا كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم، ومعه حبر آخر يُقال له: أشيع، فقال أبو بكر (رضي الله عنه) لفنحاص: اتق الله وأسلم إنك لتعلم أن محمداً قد جاءكم بالحق من عند الله ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧) فآمن وصدّق وأقرض الله قرضًا حسنًا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب.

قال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربّنا يستقرضنا أموالنا ولا يستقرض إلاّ الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقًا فإن الله إذًا لفقير ونحن أغنياء، ولو كان غنيًا ما أعطيناه ربّي، فغضب أبو بكر (رضي الله عنه) وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد

الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله.

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «ما الذى حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله إن عدوّ الله قد قال قولاً عظيمًا، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله عزّ وجلّ ردًا على فنحاص وتصديقًا لأبى بكر (رضى الله عنه) ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ من الإفك والفرية على الله عزّ وجلّ فنجازى به.

وقال مقاتل وابن عبيد: سيحفظ عليهم، الكلبى: سنوجب عليهم فى الآخرة جزاء ما قالوا فى الدنيا، الواقدى: سيؤمن الحفظة من الكتاب، نظيره قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٤).

قرأ حمزة والأعمش والأعرج: بياء مضمومة.

﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ برفع اللام (ويقول) بالياء، اعتبارًا بقراءة عبد الله ويقال ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أى النار، والنار اسم جامع للملتهبة منها وغير الملتهبة، والحريق اسم للملتهبة منها، وهو بمعنى المحرق كما يقال: عذاب أليم وضرب وجيع.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيعذب بغير ذنبه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ الآية.

قال الكلبى: نزلت فى كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وزيد بن تابوه وفنحاص بن عازوراء وحيى بن أخطب، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً وأنزل علينا كتابًا، فإن الله قد عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ يعنى وسمع الله قول الذين قالوا، ومحل (الذين) خفض ردًا على الذين الأول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أى أمرنا وأوصانا فى كتبه على ألسنة رُسله.

﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أى لا نصدق رسولاً يزعم أنه جاء من عند الله ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ فيكون ذلك دلالةً على صدقه، والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله عزّ وجلّ من زكاة وصدقة وعمل صالح، وهو فعلان من القربة مثل الرفعان من الرّفع (والغنيان) من الغنى، ويكون اسمًا ومصدرًا فمثال الاسم: السلطان والبرهان، ومثال المصدر: العدوان والخسران.

وكان عيسى بن عمر يقرأ: قُرُبان بضم الراء والقاف كما يقال فى جمع ظلمة: ظُلُمات،

وفى جمع حجرة: حُجُرات.

قال المفسرون: كانت القرابين والغنائم تحل لبنى إسرائيل، فكانوا إذا قرّبوا قربانًا وغنموا غنيمة فإن تقبل منهم ذلك جاءت نار بيضاء من السماء لا دخان لها ولها دوى وحفيف، فتأكل ذلك القربان وتلك الغنيمة وتحرقهما، فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يقبل بقى على حاله.

وقال عطاء: كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطائب اللحم فيضعونها فى وسط البيت والسقف مكشوف، فيقوم النبى فى البيت ويناجى ربّه، وبنو إسرائيل خارجون حول البيت، فتنزل نار فتأخذ ذلك القربان فيخر النبى ساجدًا فيوحى الله عزّ وجلّ إليه بما شاء.

قال السدى: إن الله تعالى أمر بنى إسرائيل فى التوراة: من جاءكم من أحد يزعم أنه رسول فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان، قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ من القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ يعنى زكريا ويحيى وسائر من قتلوا من الأنبياء، وأراد بذلك أسلافهم، فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم، ومعنى الآية تكذيبهم يا محمد إياك مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء مع الإتيان بالقربان والمعجزات، ثم قال معزيًا نبيه ﷺ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ وبالزبر أى الكتب المزبورة يعنى المكتوبة أصلها من زبرت أى كتبت، واحدها زبور مثل رسول ورسل، وكل كتاب فهو زبور.

قال امرؤ القيس:

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يمانى

وقال بعضهم: هو الكتاب الحسن حكاه المفضل وأنشد:

عرفت الديار كخط الدوىّ يحبره الكاتب الحميرى

وقرأ ابن عامر: وبالزبر بزيادة باء، وكذلك هو فى مصاحفهم.

وقال عكرمة ومقاتل والواقدى: يعنى بالزبر أحاديث من كان قبلهم، نظيرها فى سورة الحج والملائكة.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ الواضح المضىء ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

قرأه العامة: بالإضافة، وقرأ الأعمش: (ذائقة) بالتنوين، (الموت) نصبًا، وقال: لأنها لم

تذق بعد.

وقال أمية بن الصلت:

من لم يمت عبطة يمت هدما للموت كأس والمرء ذائقها

أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله عزّ وجلّ آدم (عليه السلام) اشتكت الأرض إلى ربّها لما أخذ منها، فواعدها أن يرد منها ما أُخذ منها، فما من أحد إلاّ يدفن في الثرى التي خُلق منها».

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ توفون جزاء أعمالكم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ نجا وأُزيل ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بما يرجو ونجا ممّا يخاف ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يعني منفعة ومتعة، كالفأس والقدر والقصعة ثم يزول ولا يبقى، قاله أكثر المفسرين.

وقال عبد الرحمن بن سابط: كزاد الراعي، الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل له.

قتادة: هي متاع متروكة توشك أن تضمحل بأهلها، فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم، والغرور الباطل، ونظيرها في سورة الحديد.

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويأتي الناس ما يحب أن يؤتى إليه».

أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها فاقرءوا إن شئتم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾».

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

قال عكرمة ومقاتل والكلبي وابن جريج: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وفنحاص، وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) إلى فنحاص بن عازوراء سيد بني قينقاع يستمده وكتب إليه كتابه، وقال لأبي بكر: «لا تفتت عليَّ بشيء حتى يرجع»، فجاءه أبو بكر (رضي الله عنه) وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال: قد احتاج ربّكم إلى أن يمده، فهمَّ أبو بكر أن يضربه بالسيف ثم ذكر قول النبي ﷺ «لا تفتت عليَّ بشيء حتى يرجع»، فكفَّ ونزلت هذه الآية.

وقال الزهرى: نزلت فى كعب بن الأشرف وذلك أنه كان يهجو رسول الله ﷺ ويسب المؤمنين ويحرض المشركين على النبى وأصحابه فى شعره وينسب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال النبى ﷺ: «من لى بابن الأشرف».

فقال محمد بن سلمة الأنصارى: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فافعل إن قدرت على ذلك» فرجع محمد بن سلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلاّ ما تعلق نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال: «لم تركت الطعام والشراب؟» قال: يا رسول الله قد قلت قولاً ولا أدرى هل أفى به أم لا؟

قال: «إنما عليك الجهد» فقال: يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول، قال: «قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك» فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلاحة بن وقش. وهو أبو نائلة وكان أخا كعب من الرضاعة. وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عبس بن جبر فمشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: «انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم».

ثم رجع رسول الله ﷺ وذلك فى ليلة مقمرة، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه فقدّموا أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا الشعر وكان أبو نائلة يقول الشعر ثم قال: ويحك يا بن الأشرف إنى قد جئتك بحاجة أريد ذكرها لك فاكتم علىَّ. قال: افعل. قال: كان قدوم هذا الرجل بلاء، عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة، وانقطعت عنا السبل حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس.

فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد أخبرتك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى هذا.

فقال أبو نائلة: إن معى أصحابًا أردنا أن تبيعنا طعامك ونرهنك ونوثق لك ونحسن فى ذلك. قال: ترهنونى أبناءكم؟ قال: إنّا نستحى أن يعير أبناؤنا. فقال: هذا رهينة وسق وهذا رهينة وسقين.

قال: أترهنوننى نساءكم؟ قالوا: أنت أجمل الناس ولا نأمنك، وأى امرأة تمتنع منك لجمالك، ولكنّا نرهنك الحلقة - يعنى السلاح - ولقد علمت حاجتنا اليوم إلى السلاح.

فقال: نعم ائتونى بسلاحكم، فأراد أبو نائلة أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها، فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفته، وأخذت امرأته بناحيتها وقالت: إنك رجل محارب وإن صاحب الحرب لا ينزل فى مثل هذه الساعة.

قال: إن هؤلاء لو وجدونى نائمًا ما أيقظونى وإنه أبو نائلة أخى.

قالت: فكلمهم من فوق الحصن. فأبى عليها إلاّ أن ينزل إليهم، فتحدث معهم ساعة ثم قالوا: يا ابن الأشرف هل لك أن نتامشى إلى شعب العجوز فنتحدث فيه بقية ليلتنا هذه. قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود رأسه ثم شم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيب عروس قط. قال: إنه طيب أم فلان، يعنى امرأته ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة فعاد لمثلها، ثم أخذ بفود رأسه حتى استمكن ثم قال: اضربوا عدو الله فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا.

قال محمد بن سلمة: فذكرت معولاً فى سيفى، فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلاّ أوقدت عليه نارًا. قال: فوضعته فى ثندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس فى رأسه بجرح أصابه بعض أسيافنا. قال: فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث ونزفه الدم فوقفنا ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلى، فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل كعب وجئنا برأسه إليه، وتفل على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت اليهود لوقعتنا بعدو الله، فقال رسول الله ﷺ: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه» فوثب محيصة بن مسعود على سنينة رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله، وكان حويصة بن مسعود إذ ذلك لم يسلم، وكان أسنّ من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه وهو يقول: أى عدو الله قتلته، أما والله لربّ شحم فى بطنك من ماله. فقال محيصة: والله لو أمرنى بقتلك من أمرنى بقتله لضربت عنقك قال: فوالله إن كان لأول إسلام حويصة، فقال: لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى قال: نعم. قال: والله إن دينًا بلغ بك هذا لعجب فأسلم حويصة، فأنزل الله فى شأن كعب بن الأشرف ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لتخبرن واللام للتأكيد، وفيه معنى القسم، والنون لتأكيد القسم.

﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالحوادث والعاهات والخسران والنقصان.

﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالأمراض، وقيل بمصائب الأقارب والعشائر.

قال عطاء: هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم وباعوا رباعهم وعذبوهم.

قال الحسن: هو ما فرض عليهم فى أموالهم وأنفسهم من الحقوق، كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعنى اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾

يعنى مشركى العرب، ﴿أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ من حق الأمور وجدّ الأمور وخيرها، قال عطاء: من حقيقة الإيمان.



﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فى أمر محمد ﷺ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

قرأ عاصم وأبو عمر وأهل مكة: بالياء فيهما واختاره أبو عبيد.

الباقون: بالتاء واختاره أبو حاتم، فمن قرأ بالتاء فعلى إضمار القول، أى قال: ليبيننه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم﴾ (آل عمران: ١٨١) ومن قرأ بالياء فلقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ طرحوه وضيعوه وتركوا العمل به.

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى المأكل ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

قال قتادة: هذا لميثاق الله أخذ على أهل مكة ممّن علم شيئًا فليعلّمه، وإيّاكم وكتمان العلم فإنه هلكة.

وقال محمد بن كعب: لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ولا لجاهل أن يسكت على جهله، قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل: ٤٣).

ثابت البنانى عن أبى رافع عن أبى هريرة أنه قال: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشىء، ثم تلا هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾. أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علمًا عن أهله أُلجم يوم القيامة لجامًا من نار».

وعن الحسن بن عمارة قال: أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألقيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدثنى؟ فقال: أما علمت أنى قد تركت الحديث فقلت: إما أن تحدثنى وإما أن أُحدثك. فقال: حدثنى. فقلت: حدثنى الحكم بن عيينة عن نجم الجزار قال: سمعت عليًا (عليه السلام) يقول: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا» قال: فحدثنى بأربعين حديثًا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ يحسبن بالياء، قرأه حميد بن كثير وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وأبو عمرو، وغيرهم بالتاء، فمن قرأه بالياء فمعناه: ولا يحسبن الفارحون منجيًا لهم من العذاب، ومن قرأ بالتاء فمعناه: ولا تحسبن يا محمد الفارحين بمفازة من العذاب، وخبره فى الباء.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء، وفتح الباء إعادة تأكيد.

وقرأ الضحاك وعيسى: (لا تحسبن) بالتاء وضم الباء، أراد محمداً وأصحابه.

وقرأ محمد وابن كثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر: بالياء وضم الباء خبراً عن الفارحين، أى فلا يحسبن أنفسهم، واختلفوا فيه فيمن نزلت هذه الآية.

روى عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى: أن رجالاً من المنافقين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يقولون: يا رسول الله لو خرجت إلى الغزو لغزونا معك، فإذا خرج (عليه السلام) خلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم النبى ﷺ اعتذروا إليه فيقبل عذرهم وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

وروى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن رافع بن خديج: أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان وهو يومئذ أمير المدينة فقال مروان لرافع: فى أى شىء أُنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾؟ فقال رافع: أنزلت فى أناس من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ فى سفر تخلفوا عنه، فأنكر مروان وقال: ما هذا؟ فجزع رافع من ذلك وقال لزيد بن ثابت:

أنشدك الله هل تعلم ما قال رسول الله ﷺ؟ قال زيد: نعم، فخرجا من عند مروان، فقال زيد لرافع وهو يمزح معه: أما تحمد فيما شهدت لك وقال رافع: وأى شىء هذا؟ أحمدك على أن تشهد بالحق؟ قال زيد: نعم قد حمد الله على الحق أهله.

وقال عكرمة: نزلت فى فنحاص وأشيع وأشباههما من الأحبار، يفرحون بإضلالهم الناس، وبنسبة الناس إياهم إلى العلم، وقولهم إنهم علماء وليسوا بأهل علم لم يحملوهم على هدى ولا خير.

الضحاك والسدى: هم يهود أهل المدينة كتبوا إلى يهود اليمن والشام وأطراف الأرض: أن محمداً ليس برسول فاثبتوا على دينكم. فاجتمعت كلمتهم على الكفر بمحمد والقرآن ففرحوا بذلك وقالوا: الحمد لله الذى جمع كلمتنا فنحن على دين إبراهيم ونحن أهل العلم الأول، وليسوا كذلك.

مجاهد: هم اليهود فرحوا بإعجاب الناس تبديلهم الكتاب، وجهدهم إياه عليه.

سعيد بن جبير: هم اليهود فرحوا بما أعطى الله إبراهيم وهم براء من ذلك.

وروى ابن أبى مليكة عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أنّ مروان بن الحكم قال لمولاه: يا أبا رافع اذهب إلى ابن عباس وقل له: إن كان كل امرئ منا يفرح بما أوتى وأحب أن يحمد لما لم يفعل معذبًا لنغدين جميعًا. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية، إنما دعاء رسول الله اليهود فسألهم عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما قد سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بكتمانهم إياه ذلك، فنزلت هذه الآية.

قتادة ومقاتل: أتت يهود خيبر لنبى الله ﷺ فقالوا: نحن نعرفك ونصدقك وإنّا على رأيكم ونحن لك ردأ، وليس ذلك فى قلوبهم، فلما خرجوا من عنده قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ قالوا: عرفناه وصدقناه، فقال لهم المسلمون: أحسنتم هكذا فافعلوا، فحمدوهم ودعوا لهم فأنزل الله لهم هذه الآية.

وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم قال: نزلت فى ناس من اليهود جهّزوا جيشًا إلى رسول الله ﷺ وأنفقوا عليهم، وقرأها إبراهيم (بما أوتوا) ممدودًا أى أعطوا.

وقرأ سعيد بن جبير (أتوا) أى أعطوا.

قال الله ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

عن عطاء بن أبى رباح قال: دخلت مع ابن عمر إلى عائشة رضى الله عنها فقال ابن عمر:

أخبرينى بأعجب ما رأيت من رسول الله؟ فبكت فأطالت ثم قالت: كل أمر رسول الله عجب، أتانى فى ليلتى فدخل معى فى لحافى حتى ألصق جلده بجلدى، ثم قال: يا عائشة هل لك أن تأذنى لى فى عبادة ربّى عزّ وجلّ؟ فقلت: والله يا رسول الله إنى لأحبّ قربك وأحبّ هواك قد أذنت لك، فقام عليه الصلاة والسلام إلى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حجره، ثم رفع يده فجعل يبكى حتى رأيت الدموع قد بلت الأرض، فأتاه بلال بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال: يا رسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً» ثم قال: «وما لى لا أبكى وقد أنزل الله تعالى فى هذه الليلة علىّ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. الآية. ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

وعن محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يسوّك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

عمرو بن موسى عن قتادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «أشدّ آية فى القرآن على الجن ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾» الآية.

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ فقالوا: عصاه ويده البيضاء للناظرين. وسألوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى. فأتوا النبى ﷺ فقالوا: ادع لنا ربّك يجعل لنا الصفا ذهبًا، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾.

قال على وابن عباس والنخعى وقتادة: هذا فى الصلاة يصلى قائمًا، فإن لم يستطع فقاعداً فإن لم يستطع فعلى جنبه، يسر من الله وتخفيف.

وقال سائر المفسرين: أراد به ذكر الله تعالى، ووصفهم بالمداومة عليه، إذ الإنسان قلما يخلو من معنى هذه الحالات الثلاث، نظيره قوله فى سورة النساء.

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله».

ويروى عن النبى ﷺ أنه قال: «ذكر الله تعالى علم الإيمان وبرء من النفاق وحصن من الشيطان وحرز من النيران».

وقال الله تعالى لموسى (عليه السلام): يا موسى اجعلنى منك على بال ولا تنس ذكرى على كل حال، وليكن همّك ذكرى فإنّ الطريق إلىّ.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنّ لها صانعًا قادرًا ومدبرًا حكيمًا.

روى حماد عن على بن زيد عن أبى الصلت عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ لما أُسرى به إلى السماء السابعة فإذا ريح ودخان وأصوات قال: فقلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: هذه الشياطين يحرقون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب.

وكان ابن عور يقول: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية، كما يحدث الماء الزرع والنبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة. وحكى أن سفيان الثورى صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء فلما رأى الكواكب غُشى عليه. وكان سفيان يبول الدم من طول حزنه وفكره.

زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل مستلقى على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لى ربًا وخالقًا اللهم اغفر لى فنظر الله إليه فغفر له».

وقال أبو الأحوص: بلغنى أن عابدًا يعبد فى بنى إسرائيل ثلاثين سنة. وكان الرجل منهم إذا تعبّد ثلاثين سنة أظلته غمامة. ولم ير شيئًا، فشكى ذلك إلى والده. فقال له: يا بُنى فكّر هل أذنبت ذنبًا منذ أخذت فى عبادتك؟ قال: لا، ولا أعلمنى هممت به منذ ثلاثين سنة. قال: يا بنى بقيت واحدة إن نجوت منها رجوت أن يظلك؟ قال: وما هى؟ قال: هل رفعت طرفك إلى السماء ثم رددته بغير فكرة؟ قال: كثير. قال: من ههنا أتيت. ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ ذهب به إلى لفظ الخلق ولو ردّه إلى السموات والأرض، لقال: هذه باطلاً عبثًا هزلاً، بل خلقته لأمر عظيم.

وانتصاب (الباطل) من وجهين: أحدهما: بنزع الخافض، أى للباطل وبالباطل. والآخر: على المفعول الثانى.

﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أهنته.

وقال المفضل: أهلكته، وأنشد:

أخزى الإله من الصليب عبيده واللابسين قلانس الرهبـان

وقيل: فضحته، نظيره قوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ (هود:٧٨). واتخذ القائلون بالوعيد

هذه الآية جُنّة، فقالوا: قد أخبر الله سبحانه أنه لا يخزى النبى والذين آمنوا معه ثم قال: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فوجب أن كل من دخل النار فليس بمؤمن وأنه لا يخرج منها.

واختلف أهل التأويل فى هذه الآية:

فروى قتادة عن أنس فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ قال: إنك من تخلد فى النار.

وروى الثورى عن رجل عن ابن المسيب فى قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فقال: هذه خاصة لمن لا يخرج منها.

وروى أبو هلال الرّاجى عن قتادة فى قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ إنك من تخلد فى النار، ولا نقول كما قال أهل حروراء، حدثنا بذلك أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج قوم من النار».

وقال بعضهم: (إنك من تدخل النار) من خلد فيها ومن لم يخلد فقد أخزيته بالعذاب والهلاك والهوان. قال عمرو بن دينار: قدم علينا جابر بن عبد الله فى عمرة، فانتهيت إليه أنا وعطاء فقلت له: (ربّنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته)، قال: وما إخزاؤه حين أحرقه بالنار إن دون ذلك لخزيًا.

وقال أهل المعانى: الخزى يحتمل الحياء، يقال: خزى يخزى، خزاية إذا استحيا.

قال ذو الرمّة:

خزاية أدركتـــه عنــد جوليـــه ... من جانب الحبل مخلوطًا بها الغضب

وقال القطامى فى الثور والكلاب:

حرجًا وكر كرور صاحب نجدة ... خزى الحرائر أن يكون جبانًا

أى يستحى، فخزى المؤمنين الحياء، وخزى الكافرين الذل والخلود فى النار.

﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ يعنى محمداً ﷺ ينادى للإيمان أى إلى الإيمان، كقوله: ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟﴾ (الأنعام: ٢٨).

وقيل: اللام بمعنى أجل.

قال قتادة: أخبركم الله عزّ وجلّ عن مؤمنى الإنس كيف قالوا وعن مؤمنى الجن كيف قالوا، فأما مؤمنو الجن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ (الجن: ١ ـ ٢) وأما مؤمنو الإنس فقالوا ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أى فى جملة الأبرار ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا

﴿وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ على ألسنَة رسلك كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨١).

وقرأ الأعمش: (رسلكَ) بالتخفيف.

﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ لا تعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولا تهنّا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ يعني قيل: ما وجه قولهم: (ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) وقد علموا وزعموا أن الله لا يخلف الميعاد، والجواب عنه: أن لفظه الدعاء، ومعناه الخبر تقديره: (واغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) ولا تخزنا، وتؤتينا ما وعدتنا على ألسن رسلك من الفضل والرحمة والثواب والنعمة، وقيل معناه: واجعلنا ممّن تؤتيهم ما وعدت على ألسنة رسلك ويستحقون ثوابك، لأنهم ما تيقنوا استحقاقهم لهذه الكرامة، فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها، ولو كان القوم قد شهدوا بذلك لأنفسهم، لكانوا قد زكّوها وليس ذلك من صفة الأبرار.

وقال بعضهم: إنما سألوا ربّهم تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء وإعزاز الدين، لأنها حكاية عن أصحاب النبى ﷺ قالوا: قد علمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر والظفر على الكفار، ولكن لا صبر لنا على حكمك، فعجّل خزيهم وانصرنا عليهم.

ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من وعده الله على عمل ثوابًا فهو منجز وعده، ومن أوعد على عمل عقابًا فهو فيه بالخيار».

عن الأصمعى قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: سألنى عمرو بن عبيد: أيخلف الله وعده؟ قلت: لا. قال: فيخلف الله وعيده؟ قلت: نعم. قال: ولِمَ؟ قلت: لأن فى خلفه الوعد علامة ندم وفى خلفه الوعيد إظهار الكرم، ثم أنشأ يقول:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتى ... ولا أختبى من خشية المتهدد
إنى وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر آل عمران كل ليلة.

وعن يزيد بن أبى حبيب: أن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) قال: من قرأ فى ليلة ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها كتبت له بمنزلة قيام ليلة.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

روى أبو بكر الهذلى عن الحسن قال: ما زالوا يقولون: ربّنا ربّنا حتى استجاب لهم ربّهم.

وروى عن الصادق أنه قال: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا. أنجاه الله ممّا يخاف وأعطاه ما أراد. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: اقرءوا إن شئتم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا

﴿وَقُعُودًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾.

فأما نزول الآية: فقال مجاهد: قالت أم سلمة: يا رسول الله إنى أسمع الله يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء بشىء، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال: وقالت الأنصار: هى أول ظعينة قدمت علينا ﴿أَنِّي﴾ أى بأنى أو لأنى، نصب بنزع الخافض.

وقرأ عيسى بن عمر: (إنى) بكسر الألف، كأنه أضمر القول أو جعل الاستجابة قولاً.

﴿لَآ أُضِيعُ﴾ لا أحبط ولا أبطل ﴿عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

قال الكلبى: يعنى من الدين والنصرة والموالاة، وقيل: حكم جميعكم فى الثواب واحد، وقيل: كلكم من آدم وحواء.

الضحاك: رجالكم بشكل نسائكم فى الطاعة ونساؤكم بشكل رجالكم فى الطاعة، نظيرها قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١).

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ أى فى طاعتى، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة وآذوهم ﴿وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾.

قرأ محارب بن دثار: (وقتلوا) بفتح القاف وقاتلوا.

وعن يزيد بن حازم قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقرأ: (وقَتلوا وقُتلوا) يعنى أنهم قتلوا من قتلوا من المشركين ثم قتلهم المشركون.

وقرأ أبو رجاء والحسن وطلحة: (وقاتلوا وقتّلوا) مشدداً.

قال الحسن: يعنى أنهم قطّعوا فى المعركة.

وقرأ عاصم وأبو عبيد وأهل المدينة: (وقاتلوا وقتلوا) يريد أنهم قاتلوا ثم قتلوا.

وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى وخلف: (وقتلوا وقاتلوا) ولها وجهان: أحدهما وقاتل من بقى منهم، تقول العرب: قتلنا بنى تميم، وإنما قتلوا بعضهم. والوجه الآخر: بإضمار (قد) أى وقتلوا وقد قاتلوا.

قال الشاعر:

❖ تصابى وأمسى علاه الكبر ❖

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

قال الكسائى: نصب (ثوابًا) على القطع، وقال المبرد: مصدر ومعناه: لآتينهم ثوابًا.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ يدعو يوم القيامة بالجنة ويأتى بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيل الله وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى ادخلوا الجنة، فيدخلونها بغير حساب ولا عذاب، فتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون: ربّنا نسبح الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا، يقول الله عزّ وجلّ: هؤلاء عبادى الذين أوذوا فى سبيلى، فيدخل عليهم الملائكة يقولون: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

❖ ❖ ❖

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ نزلت فى مشركى العرب، وذلك أنهم كانوا فى رخاء ولين من العيش وكانوا يتجرون ويتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما يرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت هذه الآية.

وقال الفراء: كانت اليهود تضرب فى الأرض فتصيب الأموال، فأنزل الله ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾.

وقرأ يعقوب: (يغرنك) وأخواتها ساكنة النون.

وأنشد:

لا يغرنك عشاء ساكن　　　قد يوافى بالمنيات السحر

﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: ضربهم وتصرفهم فى البلاد للتجارات والبياعات وأنواع المكاسب والمطالب، والخطاب للنبى ﷺ والمراد به غيره، لأنه لم يغيّر لذلك.

قال قتادة فى هذه الآية: والله ما غرّوا نبى الله ولا وكّل إليهم شيئًا من أمر الله تعالى حتى قبضه الله على ذلك، نظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ (غافر: ٤)، ثم قال:

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أى هو متاع قليل بُلغة فانية ومتعة زائلة ، لأن كل ما هو فانٍ فهو قليل .

الأعمش عن عمارة عن يزيد بن معاوية النخعى قال : إن الدنيا جعلت قليلاً فما بقى منه إلاّ القليل من قليل .

روى سفيان عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن المستورد الفهرى قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «ما الدنيا فى الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بِمَ يرجع» .

وقال ﷺ : «ما الدنيا فيما مضى إلاّ كمثل ثوب شق اثنين وبقى خيط إلاّ وكان ذلك الخيط قد انقطع» .

﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ مصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ .

قرأ أبو جعفر : بتشديد النون ، الباقون : بتخفيفه .

﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ .

قرأ الحسن والنخعى : (نزلاً) بتخفيف الزاى استثقالاً لضمتين ، وثقّله الآخرون ، والنزل الوظيفة المقدرة لوقت .

قال الكلبى : جزاءً وثوابًا من عند الله ، وهو نصب على التفسير ، كما يقال : هو لك صدقة وهو لك هبة ، قاله الفراء .

وقيل : هو نصب على المصدر ، أى انزلوا نزلاً ، وقيل : جعل ذلك نزلاً .

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ من متاع الكفار .

الحسن عن أنس بن مالك قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير مزمول بالشريط ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، ودخل عليه عمر وناس من أصحابه فانحرف النبى ﷺ انحرافة فرأى عمر (رضى الله عنه) أثر الشريط فى جنبه فبكى ، فقال له : «ما يبكيك يا عمر ؟» فقال عمر : وما لى لا أبكى وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا وأنت على الحال الذى أرى .

فقال له النبى ﷺ : «يا عمر ألم ترض أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» قال : بلى . قال : «هو كذلك» .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية ، اختلفوا فى نزولها :

فقال جابر بن عبد الله وابن عباس وأنس وقتادة : نزلت فى النجاشى ملك الحبشة . واسمه

أضحمة وهو بالعربية عطية. وذلك أنه لما مات نعاه جبرائيل لرسول الله فى اليوم الذى مات فيه.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم».

قالوا: ومن هو؟ قال: «النجاشى»، فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى، وصلى عليه ركعتين وكبّر أربع تكبيرات واستغفر له، وقال لأصحابه: «استغفروا له».

فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

عطاء: نزلت فى أربعين رجلاً من أهل نجران من بنى الحارث بن كعب، واثنى وثلاثين من أرض الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فآمنوا بالنبى ﷺ.

ابن جريج وابن زيد: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه، مجاهد: نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعنى التوراة والإنجيل ﴿خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين متواضعين، وهو نصب على الحال والقطع ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى لا يحرّفون كتبهم ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل المأكلة والرئاسة، كما فعلت رؤساء اليهود ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾.

قال الحسن: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على دينكم فلا تدعوه لشدة ولا رخاء ولا سرّاء ولا ضرّاء.

قتادة: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على طاعة الله.

الضحاك ومقاتل بن سليمان: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على أمر الله عزّ وجلّ.

مقاتل بن حيان: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على فرائض الله.

زيد بن أسلم: على الجهاد.

الكلبى: على البلاء.

قالت الحكماء: الصبر ثلاثة أشياء: ترك الشكوى، وصدق الرضا، وقبول القضاء.

وقيل: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنّة.

﴿وَصَابِرُوا۟﴾ يعنى الكفار، قاله أكثر المفسرين.

قال عطاء والقرظى: ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ الوعد الذى وعدكم، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ يعنى المشركين، وأصل

الرباط أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم، ثم قيل ذلك لكل مقيم فى ثغر يدفع عمّن وراءه وإن لم يكن له مركب، قال الله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا حامد (الخازرنجى) يقول: المرابطة اعتقال المبارزين فى الحرب، وأصل الربط الشد، ومنه قيل للخيل: الرباط، ويقال: فلان رابط الجأش، أى قوى القلب.

قال لبيد:

❖ رابط الجأش على كل وجل❖

قال عبيد: داوموا واثبتوا.

عن سمط بن عبد الله البجلى عن سلمان الفارسى: أنهم كانوا فى جند المسلمين، فأصابهم ضرّ وحصر فقال سلمان لصاحب الخيل: ألا أحدّثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فيكون لك عونًا على الجند، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رابط يومًا أو ليلة فى سبيل الله كان عدل صيام شهر وصلاته الذى لا يفطر ولا ينصرف من صلاة إلاّ لحاجة، ومن مات مرابطًا فى سبيل الله أجرى الله له أجره حتى يقضى بين أهل الجنة وأهل النار».

الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رابط يومًا فى سبيل الله جعل الله عزّ وجلّ بينه وبين النار سبعة خنادق، كل خندق منها كسبع سموات وسبع أرضين».

وفيه قول آخر وهو ما روى مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن صالح قال: قال لى سلمة بن عبد الرحمن: يا بن أخى هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾؟ قال: قلت: لا. قال: إنه يا بن أخى لم يكن فى زمان النبى ﷺ غزو يرابط فيه، ولكنّه انتظار الصلاة خلف الصلاة. ودليل هذا التأويل ما روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط».

وقال أصحاب اللسان فى هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ عند صيام النفس على احتمال الكرب ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ على مقابلة العناء والتعب ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ فى دار أعدائى بلا هرب ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بهمومكم من الالتفات إلى السبب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدًا بلقائى على بساط الطرب.

السرى السقطى: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على الدنيا، رجاء السلامة ﴿وَصَابِرُواْ﴾ عند القتال بالبينات والاستقامة ﴿وَرَابِطُواْ﴾ هى النفس اللوامة ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ ما يعقب لكم الندامة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ غداً على بساط الكرامة.

وقيل: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على بلائى ﴿وَصَابِرُواْ﴾ على نعمائى ﴿وَرَابِطُواْ﴾ فى دار أعدائى ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ محبة من سواى ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ غداً بلقائى.

وقيل: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على الدنيا ﴿وَصَابِرُواْ﴾ على البأساء والضراء ﴿وَرَابِطُواْ﴾ فى دار الأعداء ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ إله الأرض والسماء ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فى دار البقاء.



سُورَةُ النِّسَاءِ

مدنية، وهى ستة عشر ألف وثلاثون حرفًا

وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة ومائة: وست وسبعون آية

عن أبى أمامة عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ورث ميراثًا، وأعطى من الأجر كمن اشترى محررًا وبرئ من الشرك وكان فى مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعنى آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعنى حواء، ونظيرها فى سورة الأعراف والزّمر ﴿وَبَثَّ﴾ نشر وأظهر ﴿مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ

﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تسألون به، وخففه أهل الكوفة على حذف إحدى التاءين تخفيفًا كقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ﴾ (المائدة: ٢) ونحوها، ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾.

قرأه العامة: بالنصب أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وقرأ النخعى ويحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف وقتادة والأعمش وحمزة: بالخفض على معنى وبالأرحام، كما يقال: سألتك بالله والرحمن، ونشدتك بالله والرحمن، والقراءة الأولى أصح وأفصح، لأن العرب لا يكلأ بنسق ظاهر على المعنى، إلاّ أن يعيدوا الخافض فيقولون: مررت به وبزيد، أو ينصبون.

كقول الشاعر:

❖ يا قوم ما لى وأبى ذؤيب ❖

إلاّ أنه جائز مع قوله، وقد ورد فى الشعر.

قال الشاعر:

فاليوم قربت تهجـونا وتشتمنا   اذهب فما لك والأيام من عجب

وأنشد الفراء لبعض الأنصار:

نعلق فى مثل السوارى سيوفنا   وما بينها والكعب غوط نفانف

وقرأ عبد الله بن يزيد المقبرى: (والأرحام) رفعًا على الابتداء، كأنه نوى تمام الكلام عند قوله ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ كما يقال: زيد ينبغى أن يكرم، ويحتمل أن يكون إغراء، لأن من العرب من يرفع المغرى.

وأنشد الفراء:

أيـن قومًا منهـــم عميـر   وأشباه عمير ومنهم السفاح

لجـــديرون باللقاء إذا قال   أخو النجدة السلاح السلاح

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ أى حافظًا، قيل: بمعنى فاعل ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ الآية.

قال مقاتل والكلبى: نزلت فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال، فمنعه عمه فترافع إلى النبى ﷺ فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع إليه ماله.

قال النبى ﷺ: «من يوق شح نفسه ويطع ربّه هكذا فإنه يحل داره» يعنى جنته، فلما قبض الفتى ماله أنفقه فى سبيل الله، فقال النبى ﷺ: «ثبت الأجر وبقى الوزر».

فقالوا: يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر فكيف بقى الوزر؟ وهو بقى فى سبيل الله.

فقال: «يثبت الأجر للغلام ويبقى الوزر على والده، ﴿وآتوا﴾ خطاب لأولياء اليتيم والأوصياء».

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ فلا يتم بعد البلوغ، ولكنه من باب الاستعارة، كقوله: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٠) ولا سحرة مع السجود، ولكن سمّوا بما كانوا عليه قبل السجود، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أى من كانوا يتامى إذا بلغوا وآنستم منهم رشدًا، نظيره: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ يعنى لا تستبدلوا مالهم الحرام عليكم بأموالكم الحلال لكم، نظيره قوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ (المائدة: ١٠٠) واختلفوا فى معنى هذا التأويل وكيفيته:

فقال سعيد بن المسيب والنخعى والزهرى والسدى والضحاك: كان أولياء اليتامى وأوصياؤهم يأخذون الجيد والرفيع من مال اليتامى، ويجعلون مكانه الردىء والخسيس، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة، ويأخذ الدرهم الجيدُ ويطرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم، فذلك تبدلهم فنهاهم الله تعالى عنها.

عطاء: لا تربح على يتيمك الذى عندك وهو غر صغير.

ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورّثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث.

وقال ابن زيد: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ (النساء: ١٢٧) لا يورثوهن شيئًا فنصيبه من الميراث طيب وهذا الذى أخذه خبيث. مجاهد وباذان: لا تعجل الرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أى مع أموالكم، كقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤).

وأنشد المفضل سلمة بن الخرشب الأنصارى:

يسدون أبواب القباب بضمر   إلى غنن مستوثقات نقاب الأواصر

أى مع غنن.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أى إثمًا عظيمًا، وفيه ثلاث لغات:

قرأه العامة: حُوبًا بالضم، وهى لغة النبى ﷺ وأهل الحجاز، يدل عليه ما روى أبو عبيد عن عباد بن عباد عن واصل مولى ابن عيينة قال: قلت لابن سيرين كيف يُقرأ هذا الحرف: إنه كان حوبًا أو حَوبًا؟ فقال: إن أبا أيوب أراد أن يطلق أم أيوب، فقال له رسول الله ﷺ: «إن طلاق أم أيوب حُوب».

وقرأ الحسن: (حوبًا) بفتح الحاء وهى لغة تميم.

وقرأ أُبى بن كعب: (حابًا) على المصدر، مثل القال، ويجوز أن يكون اسمًا مثل الراد والنار، ويقال للذنب حُوب وحَوب وحاب وللأذناب، كذلك يكون مصدرًا واسمًا، فقال: حاب يحوب حُوبًا وحَوبًا وحابًا وحباية إذا أثم.

قال أبو معاذ: نزلنا منزلاً قريبًا من مدينة، فرمى رجلاً غطاية صغيرة (فقيل له): يا حاج لا تقتلها فتصيب حوبًا إنها لا تؤذى، ومنه قيل للقاتل حائب، حكاه الفراء عن بنى أسد.

وقال أمية بن السكن الليثى وكان ابنه قد هاجر بغير إذنه:

وإن مهاجرين تكنفاه غداتئذ لقد خطئا وحابا

وقال آخر:

عض على شبدعه الأريب فظل لا يلحى ولا يحوب

وقال آخر:

وابن ابنها منا ومنكم وبعلها خزيمة والأرحام وعثاء حوبها

أى شديد إثمها.

وقال آخر:

فلا تبكوا علىَّ ولا تحنوا بقول الإثم إن الإثم حوب

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية، اختلف المفسرون فى تنزيلها وتأويلها:

فقال بعضهم: معناها وإن خفتم ألاّ تعدلوا يا معشر أولياء اليتامى فيهن، إذا تزوجتم بهن فانكحوا غيرهن من الغرائب اللواتى أحلهن الله لكم.

وروى الزهرى عن عروة عن عائشة قال: قلت لها ما قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ فقالت: يا بن أخى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من صداقها فنهى أن تنكحوهن إلاّ أن تقسطوا لهن فى إكمال الصداق، وأُمروا أن ينكحوا ما سواهنّ من النساء.

قال الحسن: كان الرجل من أهل المدينة يكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له تزويجها فيقول لها: لا أدخل فى رباعى أحدًا كراهة أن يدخل غريب فيشاركه فى مالهنّ، فربما يتزوجهن لأجل مالهن ومن لا يعجبنه ثم نسى صحبتهن ويتربص بهن أن يمتن فيرثهن، فعاب الله عزّ وجلّ ذلك وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

عكرمة: كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدمًا لما

يلزمه من مؤن نسائه، مَالَ على مال يتيمته التى فى حجره فأنفقه فقيل لهم: امسكوا عن النساء ولا تزيدوا على أربع حتى لا يخرجكم إلى أخذ أموال اليتامى، وهذه رواية طاوس عن ابن عباس، ومعنى رواية عطية عنه.

وقال بعضهم: كانوا يتحرجون ويتحوبون عن أموال اليتامى ويترخصون فى النساء ولا يتعددون فيهن ويتزوجون ما شاءوا، فربما عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما سألوا عن حال مال اليتامى أنزل الله ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الآية، وأنزل أيضًا هذه الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ يقول: كما خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى وهمّكم ذلك، كذلك فخافوا فى النساء أن لا تعدلوا فيهن ولا تتزوجوا أكثر ممّا يمكنكم إمساكهنّ والقيام بحقهن، لأن النساء كاليتيم فى الضعف والعجز، فما لكم تراقبون الله عزّ وجلّ فى شىء وتعصونه فى مثله، وهذا قول سعيد ابن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسدى، ورواية الوالبى عن ابن عباس.

وقال الحسن أيضًا: تحرجوا من نكاح اليتامى كما تحرجوا من أموالهم، فأنزل الله هذه الآية، ورخص فيهن وقصر بهن على عدد، فعليكم العدل فيهن، فإن خفتم يا معشر الأولياء فى اليتامى التى أنتم ولاتهن ألاّ تقسطوا، فأنكحوهن ولا تزيدوا على أربع، لتعدلوا، فإن خفتم ألاّ تعدلوا فيهن فواحدة.

قال ابن عباس: قصر الرجال على أربع من النساء من أجل اليتامى.

مجاهد: معناه إن تحرجتم من ولاية اليتامى فأموالهم إيمانًا وتصديقًا، فكذلك تحرجوا عن الزنا، فانكحوا النساء الحلال نكاحًا طيبًا، ثم بيّن لهم عددًا محصورًا وكانوا يتزوجون ما شاءوا من غير عدد، فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ أى أن لا تعدلوا.

وقرأها إبراهيم النخعى: (تَقسطوا) بفتح التاء وهو من العدل أيضًا.

قال الزجاج: قسط وأقسط واحد، إلاّ أن الأفصح أقسط إذا عدل، وقسط إذا جار، وإن حملت قراءة إبراهيم على الجور وجعلت لا لغوًا صحّ الكلام، واليتامى جمع لذكران الأيتام.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا﴾:

قرأ إبراهيم بن أبى عبلة: (مَن) لأن ما لما لا يعقل ومَن لما يعقل، ومن قرأ (ما) فله وجهان:

أحدهما: أن ردّه إلى الفعل دون العين تقديره: فانكحوا النكاح الذى يحل لكم من النساء، وهذا كما تقول: خذ من رفيقى ما أردت والإخوان، تجعل (ما) بمعنى (من)، والعرب تعقب ما من ومن ما.

قال الله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ (الشمس: ٥) وأخواتها، وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ (النور: ٤٥) الآية.

وحكى أبو عمرو بن العلاء: أن أهل مكة إذا سمعوا الرعد قالوا: (سبحان ما يسبّح له الرعد)، وقال الله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣).

﴿طَابَ﴾ حل ﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وقرأ ابن أبى إسحاق والجحدرى والأعمش (طاب): بالإمالة وفى مصحف أُبىّ: (طيب) بالياء، وهذا دليل الإمالة.

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ معدولات عن اثنين وثلاث وأربع، فلذلك لا يصرفن، وفيها لغات موحد ومثنى ومثلث ومربع، وأحاد وثناء وثلاث ورباع، وأحد وثنى وثلث وربع، مثل عمر وزفر.

وكذلك قرأ النخعى فى هذه الآية، ولا يزاد من هذا البناء على الأربع إلاّ بيت جاء عن الكميت:

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الرجال خصالاً عشاراً

يعنى طعنت عشرة.

قالوا: وههنا بمعنى (لو للتحقيق) كقوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ (سبأ: ٤٦) وقوله ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (فاطر: ١) وهذا إجماع الأمة، وخصائص النبى ﷺ غير مشتركة.

الكلبى عن خميصة بنت الشمردل: أن قيس بن الحارث حدثها أنه كان تحته ثمانى نسوة حرائر، قال: فلما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله قد أنزل الله عليك تحريم تزوج الحرائر إلاّ أربع حرائر وأنا تحتى ثمانى نسوة، قال: «فطلّق أربعًا وأمسك أربعًا». قال: فرجعت إلى منزلى فجعلت أقول للمرأة التى ما تلد منى يا فلانة أدبرى وللمرأة التى قد ولدت يا فلانة أقبلى، فيقول للتى طلق أنشدك الله والمحبة قال: فطلقت أربعًا وأمسكت أربعًا.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خشيتم، وقيل: علمتم ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ بين الأربع ﴿فَوَٰحِدَةً﴾.

قرأ العامة: بنصب.

وقرأ الحسن والجحدرى وأبو جعفر: (فواحدةٌ) بالرفع، أى فليكفيكم واحدة، أى واحدة كافية، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يعنى الجوارى والسرارى، لأنه لا يلزمكم فيهن من الحقوق

والذى يلزمكم فى الحرمة، ولا قسمة عليكم فيهن ولا وقت عليكم فى عددهن، وذكر الأيمان بيان تقديره ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾.

وقال بعض أهل المعانى: (أو ما ملكت أيمانكم) أى ما ينفذ فيه أقسامكم جعله من يمين الحلف لا يمين الجارحة، واحتج بقوله ﷺ: «لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم».

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبى ﷺ فى قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ قال: «ألاّ تجوروا».

وروى هشام بن عروة عن عائشة أيضًا عن النبى ﷺ فى قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أن لا تميلوا، وأكثر المفسرين على هذا.

قال مقاتل: هو لغة جرهم، يقال: ميزان عائل، أى مائل. وكتب عثمان بن عفان (رضى الله عنه) إلى أهل الكوفة فى شىء عاتبوه فيه: أنى لست بميزان لا أعول.

وأنشد عكرمة لأبى طالب:

بميزان صدق لا يغل شعيرة   له شاهد من نفسه غير عائل

وقال مجاهد: ذلك أدنى ألاّ تضلوا. وقال الفراء والأصم: أن لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم، وأصل العول المجاوزة، ومنه عول الفرائض. وقال الشافعى: أن لا تكثر عيالكم. وما قال هذا أحد غيره. وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله.

قال أبو حاتم: كان (الشافعى) أعلم بلغة العرب منّا ولعله لغة.

قال الثعلبى: قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمرو الدورى عن هذا وكان إمامًا فى اللغة غير مدافع فقال: هى لغة حمير.

وأنشد:

وإنّ الموت يأخذ كل حىّ   بلا شك وإن أمشى وعالا

أى كثرت ماشيته وعياله.

قال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ عن لاحن لحنًا.

وقرأ طلحة بن مصرف: ألاّ تعيلوا، وهو قوة قول الشافعى. وقرأ بعضهم: ألاّ تعيلوا من العيلة أى لا تفتقروا.

قال الشاعر:

ولا يدرى الفقير متى غناه   ولا يدرى الغنى متى يعيل

وقرأ طاوس: لا تعيلوا من العلة.

روى بشير بن نهيك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل».

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

قال الكلبي وجماعة من العلماء: هذا خطاب للأولياء، وذلك أن ولي المرأة كان إذا زوّجها غريبًا حملوها إليه على بعير ولا يعطونها من مهرها شيئًا، فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيرًا، وإن كانت غريبة حملها على بعير إلى زوجها ولم يعطها شيئًا غير ذلك البعير، ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئًا لك النافجة، يريدون أنه يأخذ مهرها إبلاً فيضمها إلى إبله فينتفجها أي يعظمها ويكثرها.

قالت بعض النساء في زوجها:

❖ لا تأخذ الحلوان من بناتها ❖

تقول: لا يفعل ما يفعله غيره، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك وأمرهم بأن يدفعوا الحق إلى أهله.

قال الحضرمي: كان أولياء النساء يعطي هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته لا مهر بينهما، فنهوا عن ذلك وأمرهم بتسميته وأمروا المهر عند العقد.

قال رسول الله ﷺ: «لا شغار في الإسلام».

وقال آخرون: الخطاب للأزواج أُمروا بإيفاء نسائهن مهورهنّ التي هي أثمان فروجهنّ، وهذا أصح وأوضح بظاهر الآية وأشبه، لأن الله تعالى خاطب الناكحين فيما قبله، وهذا أصل خطابهم. والصَّدُقات المهور واحدها صدقة بفتح الصاد وضم الدال على لفظ الجمع، وهي لغة أهل الحجاز وتميم. يقول صُدقة بضم الصاد وجزم الدال، فإذا جمعوا قالوا: صُدقات بضم الصاد وسكون الدال، وصُدُقات بضم الصاد والدال مثل ظلمة وظلمات، وظلمات نظيرها المثلات، لغة تميم مثلة ومثلات ومَثُلات بفتح الميم وضم الثاء واحدتها مثلة على لفظ الجمع لغة الحجاز.

﴿نِحْلَةً﴾ قال قتادة: فريضة واجبة، ابن جريج وابن زيد: فريضة مسمّاة. قال أبو عبيد: ولا تكون النحلة مسماة معلومة، الكلبي: عطية وهبة، أبو عبيدة: عن طيب نفس، الزجاج: تدينًا، وفيه لغتان: نحلة ونَحلة، وأصلها من العطاء وهي نصب على التفسير وقيل على المصدر.

روى مرثد بن عبد الله عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج».

وعن يوسف بن محمد بن عبد الحميد بن زياد بن صهيب عن أبيه عن جده صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «من أدان بدين وهو مجمع أن لا يفى به لقى الله عزّ وجلّ سارقًا، ومن أصدق امرأة صداقًا وهو مجمع على أن لا يوفيها لقى الله عزّ وجلّ زانيًا».

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ يعنى فإن طابت نفوسهنّ بشىء من ذلك فوهبن منكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها، فخرجت النفس مفسرة، ولذلك وحد النفس، كما يقال: ضاق به ذرعًا وقرَّ به عينًا، قال الله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ (العنكبوت: ٣٣).

وقال بعض نحاة الكوفة: لفظها واحد ومعناها جمع، والعرب تفعل ذلك كثيرًا.

قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيص وأما جلدها فصليب

وقال آخر:

❖ فى حلقكم عظم وقد شجينا ❖

وقال بعض نحاة البصرة:

❖ إذا ما دنا الليل المضى بذى الهوى ❖

والهوى مصدر، والمصادر لا تجمع ﴿فَكُلُوهُ﴾ أى خذوه واقبلوه ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ قال الحضرمى: إن أُناسًا كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم فى شىء ممّا ساق إلى امرأته، فقال الله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ من غير إكراه ولا خديعة فكلوه هنيئًا مريئًا أى سائغًا طيبًا، وهو مأخوذ من هنّات البعير إذا عالجته بالقطران من الجرب، معناه فكلوه هنيئًا شافيًا معافيًا، هنأنى الطعام يهنينى بفتح النون فى الماضى وكسره فى الغابر يهنينى يهنانى على الضد وهى قليلة، والمصدر منهما هنؤ يقال: هنأنى ومرأنى بغير ألف فيهما، فإذا أفردوا قالوا: أمرأنى بالألف وقيل الهنىء الطيب المتاع الذى لا ينغصه شىء، والمرىء المحمود العاقبة التام الهضم الذى لا يضر ولا يؤذى، يقول: لا تخافون فى الدنيا مطالبة ولا فى الآخرة تبعة، يدل عليه ما روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه سأل عن هذه الآية: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ قال: «إذا جادت لزوجها بالعطية غير مكرهة لا يقضى به عليكم سلطان ولا يؤاخذكم الله تعالى به فى الآخرة».

روى إبراهيم بن عيسى عن على بن على عن أبى حمزة قال: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا إثم فيه ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾

لا داء فيه فى الآخرة.

وروى شعبة عن على قال: إذا ابتلى أحدكم شىء فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها ثم يشتر به عسلاً، فليشربه بماء السماء فيجمع الله له الهنىء المرىء والشفاء والماء المبارك.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ الآية.

اختلفوا فى هؤلاء السفهاء من هم؟

فقال قوم: هم النساء.

قال الحضرمى: عمد رجل فدفع ماله إلى امرأته فوضعته فى غير الحق، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

مجاهد: نهى الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم وبين سفهاء من كن أزواجًا أو كن بناتًا أو أُمهات.

جويبر عن الضحاك: النساء من أسفه السفهاء، يدل على صحة هذا التأويل ما روى على ابن زيد عن القاسم عن أبى أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنما خلقت النار للسفهاء. يقولها ثلاثًا. ألا وإن السفهاء النساء إلاّ امرأة أطاعت قيّمها».

أبان عن ابن عياش عن أنس بن مالك قال: جاءت امرأة سوداء جريئة المنطق ذات ملح إلى رسول الله ﷺ فقالت: بأبى وأمى أنت يا رسول الله قُل فينا خيراً مرة واحدة، فإنه بلغنى أنك تقول فينا كل شرّ. قال: «أى شىء قلت لكُنّ؟» قالت: سمّيتنا السفهاء فى كتابه وسمّيتنا النواقص.

فقال: «وكفى نقصانًا أن تدعن من كل شهر خمسة أيام لا تصلين فيهنّ، أما يكفى إحداكنّ إذا حملت كان لها كأجر المرابط فى سبيل الله، وإذا وضعت كانت كالمتشحط بدمه فى سبيل الله، وإذا أرضعت كان لها بكل جرعة كعتق رقبة من ولد إسماعيل، وإذا سهرت كان لها بكل سهرة تسهرها كعتق رقبة من ولد إسماعيل، وذلك للمؤمنات الخاشعات الصابرات اللاتى لا يكفرن بالعشير». قالت السوداء: يا له فضلاً لولا ما تبعه من الشرط.

وروى عاصم عن مورق قال: مرّت امرأة بعبد الله بن عمر لا شارة وهيبة فقال لها ابن عمر: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾. وقال معاوية بن قرة: عوّدوا نساءكم فإنهن سفيهات، إن أطعت المرأة أهلكتك.

وقال آخرون: هم الأولاد، وهى رواية عطية عن ابن عباس.

قال الزهري وأبو مالك: لا تعط ولدك السفيه مالك الذي هو قوامك بعد الله فيفسده، وقال بعضهم: هم النساء والصبيان. قال الحسن: هي امرأتك السفيهة وابنك السفيه.

قتادة: أمر الله بهذا المال أن يُخزن فيحسن خزائنه ولا تملكه المرأة السفيهة ولا الغلام السفيه فيبذره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ (البقرة:١٨٨).

عبيد عن الضحاك: ولا تعطوا نساءكم وأبناءكم أموالكم فيكونوا عليكم أربابًا.

ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خوّلك الله تعالى وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وبنيك، فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم.

الكلبي: إذا علم الرجل أن امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد، فلا ينبغي له أن يسلط واحدًا منهما على ماله ليفسده.

وقال السدي: لا تُعط المرأة مالها حتى تتزوج وإن قرأت التوراة والإنجيل والقرآن، ولا تعط الغلام ماله حتى يحتلم.

وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مال اليتيم يكون عندك، يقول: لا تؤته إياه، وأنفق عليه حتى يبلغ، فإن قيل على هذا القول: كيف أضاف المال إلى الأولياء فقال: (أموالكم) وهي أموال السفهاء؟ قيل: إنما أضاف إليهم لأنها الجنس الذي جعله الله أموالاً للناس كقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ (التوبة:١٢٨) وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٥٤) ردّها إلى الجنس، أي الجنس الذي هو جنسكم.

وقال محمد بن جرير: إنما أضيفت إلى الولاة لأنهم قوامها ومدبروها، والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله، هو المستحق للحجر بتضييعه ماله وإفساده وسوء تدبيره.

روى الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه، ورجل أعطى سفيهًا ماله وقد قال الله ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أي الجهال بموضع الحق.

﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى﴾.

قرأ الحسن والنخعي: اللاتي، وهما بمعنًى واحد.

وأنشد:

من اللواتي والتي واللاتي زعمن أني كبرت لذاتي

فجمع بين ثلاث لغات .

قال الفراء : العرب تقول فى جمع النساء : اللاتى ، أكثر مما يقولون : التى ، ويقولون فى جمع الأموال وسائر الأشياء : التى ، أكثر ممّا يقولون : اللاتى ، وهما جائزان .

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ قرأ ابن عمر (قَوامًا) بالواو وفتح القاف كالدوام ، وقرأ عيسى بن عمر (قوامًا بكسر القاف على الفعل ، لأن الأصل الواو .

وقال الكسائى : هما لغتان ومعناهما واحد ، وكان أبو حاتم يفرّق بينهما فيقول : القوام بالكسر الملاك ، والقوام بالفتح امتداد القامة .

وقرأ الأعرج ونافع : (قيّمًا) بكسر القاف .

الباقون : (قيامًا) وأصله قوامًا فانقلب الواو ياءً ، لانكسار ما قبلها ، مثل صيام ونيام ، وهن جميعًا ملاك الأمر وما يقوم به الإنسان ، يقال : فلان قوام أهل بيته ، وأراد ههنا قوام عيشكم الذى تعيشون به .

وقال الضحاك : به يقام الحج والجهاد وأعمال البر ، وهى فكاك الرقاب من النار .

وقال بعضهم : أموالكم التى تقومون بها قيامًا .

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أى أطعموهم ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ لمن يجب عليكم رزقه ويلزمكم نفقته ، والرزق من الله عزّ وجلّ عطية غير محدودة ، ومن الناس الإجراء الموظف بوقت محدود ، يقال : رزق فلان عياله كذا وكذا ، أى أجرى عليهم ، وإنما قال : فيها ، ولم يقل : منها ، لأنه أراد أن يجعل لهم فيها رزقًا ، كأنه أوجب عليهم ذلك . ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عدة جميلة .

وقال عطاء : (قولاً معروفًا) إذا ربحت أعطيتك كذا وإن غنمت فى غزاتى جعلت لك حظًا .

الضحاك : ردوا عليهم ردًا جميلا .

وقيل : هو الدعاء .

قال ابن زيد : إن كان ليس من ولدك ولا ممّن يجب عليك نفقته فقل له قولاً معروفًا ، قل له عافانا الله وإيّاك بارك الله فيك .

وقال المفضل : قولاً لينًا تطيب به أنفسهم ، وكل ما سكنت إليه النفس أحبته من قول أو عمل فهو معروف ، وما أنكرته وكرهته ونفرت منه فهو منكر ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الآية ، نزلت فى ثابت بن رفاعة وفى عمه ، وذلك أن رفاعة توفى وترك ابنه ثابتًا وهو صغير ، فأتى عمُ ثابت إلى النبى ﷺ فقال : إن ابن أخى يتيم فى حجرى فما يحل لى من ماله ، ومتى أدفع إليه ماله ،

فأنزل الله تعالى ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أى اختبروهم فى عقولهم وأبدانهم وحفظهم أموالهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أى مبلغ الرجال والنساء ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ أبصرتم، قال الله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٢٩).

قال الشاعر:

آنست نبأة وأفزعها القناص عصرًا وقد دنا الإمساء

وفى مصحف عبد الله: فإن أحسنتم بمعنى أحسستم، فحذف إحدى السينين كقولهم: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ (الواقعة: ٦٥).

قال الشاعر:

خلا إن العتاق من المطايا أحسن به فهنّ إليه شوس

﴿مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا﴾: قرأه العامة: بضم الراء وجزم الشين. وقرأ السلمى وعيسى: بفتح الراء والشين، وهما لغتان.

قال المفسرون: يعنى عقلاً وصلاحًا وحفظًا للمال وعلمًا بما يصلحه.

قال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبى: إن الرجل يأخذ بلحيته وما بلغ رشده فلا يدفع إلى اليتيم ماله وإن كان شيخًا، حتى يؤنس منه رشده.

قال الضحاك: لا يُعطى اليتيم وإن بلغ مائة سنة حتى يعلم منه إصلاح ماله.

❖ ذكر حكم الآية:

اعلم أن الله تعالى علق زوال الحجر عن اليتيم الصغير وجواز دفع ماله إليه بشيئين: البلوغ والرشد، بعد أن أمر الأولياء بالابتلاء.

ومعنى الابتلاء على ما ذكره جماعة من الفقهاء: الصغير لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون غلامًا أو جارية، فإن كان غلامًا رُدَّ النظر فى نفقة الدار إليه شهرًا أو إعطائه شيئًا نزرًا يتصرف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه فيه، وإن كان جارية رُدَّ إليها ما يُرد إلى ربّة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه، وفى الاستغزال والاستقصاء على الغزالات فى دفع القطن وأجرته واستيفاء الغزل وجودته، فإن رشدا وإلاّ بقيا تحت الحجر حتى يؤنس رشدهما، فأما البلوغ فإنه يكون بأحد خمسة أسباب، ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء واثنان يختص بهما النساء، والتى يشترك فيها الرجال والنساء: فالاحتلام وهو إنزال المنى، فمتى أنزل واحد منهما فقد بلغ، سواء كان من جماع أو احتلام أو غيرهما، والدليل عليه قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ (النور: ٥٩) وقول النبى ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «خذ من كل

حالم ديناراً أو عدله من المعافر».

واختلف العلماء فيه، فقال الشافعى وأبو يوسف ومحمد: إذا استكمل الصبى خمس عشرة سنة أو أنبت حكمنا ببلوغه.

وقال أبو حنيفة: إن كانت جارية فبلوغها سبع عشرة سنة، وعنه فى الغلام روايتان:

إحداهما: تسع عشرة سنة، وهى الأشهر وعليها النظر.

وروى اللؤلؤى عنه: ثمانى عشرة سنة. وقال مالك وداود: لا يبلغ بالسن ثم اختلفا، فقال داود: لا يبلغ بالسن ما لم يحتلم ولو بلغ أربعين سنة، وقال مالك: بلوغه بأن يغلظ صوته أو تنشق أرنبته.

والدليل على أن حدّ البلوغ بالسن خمس عشرة سنة حديث عبد الله بن عمر قال: عرضت على رسول الله ﷺ عام أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى فلم يرنى بلغت، وعرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى الله فى المقاتلة.

والإنبات وهو أن ينبت: فى الغلام أو الجارية الشعر الخشن حول الفرج.

وللشافعى فى الإنبات قولان:

أحدهما: أنه بلوغ، والثانى: دلالة البلوغ.

وقال أبو حنيفة: لا يتعلق بالإنبات حكم، وليس هو ببلوغ ولا دلالة عليه.

والدليل على أن البلوغ بالإنبات متعلق بما روى عطية القرظى عن سعد بن معاذ أن النبى ﷺ حكّمه فى بنى قريظة قال: مكثت أكشف عنهم فكل من أنبت قتلته، ومن لم ينبت جعلته فى الذرّية.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

قال عطية: فكنت ممّن لم ينبت فجعلنى فى الذرّية.

وأما ما يختص به النساء: فالحيض والحبل، يدل عليه ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يقبل صلاة حائض إلاّ بخمار» فجعلها مكلفة بالحيض، وهذا القول فى حدّ البلوغ.

فأما الرشد: فقد اختلف الفقهاء فيه، فقال الشافعى: هو أن يكون صالحًا فى دينه مُصلحًا فى ماله، والصلاح فى الدين أن يكون متجنبًا للفواحش التى يفسق بها وتسقط عدالته، كالزنا واللواط والقذف وشرب الخمر ونحوها.

وإصلاح المال: أن لا يضيعه ولا يبذّره ولا يغبن فى التصرف غبنًا فاحشًا، فالرشد شيئان: جواز الشهادة وإصلاح المال وهذا قول الحسن وربيعة ومالك.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: إذا بلغ عاقلاً مصلحًا لماله، زال الحجر عنه بكل حال، سواء كان فاسدًا فى دينه أو صالحًا فيه. فاعتبروا صلاح المال ولم يعتبروا صلاح الدين.

ثم اختلفوا فيه إذا بلغ عاقلاً مفسدًا لماله:

فقال أبو يوسف ومحمد: لا يزول الحجر عنه ويكون تصرفه باطلاً إلاّ النكاح والعتق، ويبقى تحت الحجر أبدًا إلى أن يظهر رشده.

وقال أبو حنيفة: إذا بلغ عاقلاً زال الحجر عنه، فإن كان مفسدًا لماله منع من تسليم ماله إليه حتى يبلغ خمسًا وعشرين سنة، فإذا بلغها يسلّم المال إليه بكل حال، سواء كان مفسدًا له أو غير مفسد. وقيل: إنّ فى مدة المنع من المال إذا بلغ مفسدًا ينفذ تصرفه على الإطلاق، وإنما منع من تسليم المال إليه احتياطًا لماله، فقال: وجه تحديده بخمس وعشرين سنة أنه قد يُحبل منه لاثنتى عشرة سنة ثم يولد له لستة أشهر ثم يُحمل لولده باثنتى عشرة سنة ثم يولد له لستة أشهر فيصير جدًا.

قال: وأستحى أن أحجر على من يصلح أن يكون جدًا، وإذا حصل البلوغ والرشد دفع المال إليه سواء تزوج أو لم يتزوج.

وقال مالك: إن كان صاحب المال جارية وتبلغ رشيدة، فالحجر باق عليها، وتمنع من مالها حتى تتزوج، وإذا تزوجت يسلّم مالها إليها، ولا يجوز لها أن تتصرّف فى مالها بغير إذن زوجها حتى تكبر وتجرّب ثم حينئذ يبعد تصرفها بغير إذنه، وإطلاق فى الغلام. والذى يدل على فساد هذا المذهب ما روى أن النبى ﷺ خطب يوم العيد ثم نزل فذهب إلى النساء فوعظهن فقال: «تصدقن ولو من حليكنّ» فكنّ يتصدقنّ فجعلت المرأة تلقى حرصها وسخاءها، فأمرهنّ عليه السلام بالصدقة وقبلها منهنّ، ولم يفصل بين متزوجة وغير متزوجة ولا بين من تصدقت بإذن زوجها أو بغير إذنه، فهذا القول فى الحجر على الصغير، وبيان حكم قوله: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، فأما قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ الآية.

حكم الكلام فى الحجر على السفيه

فاختلف العلماء فيه:

فقال أبو حنيفة ونفر: لا حجر على حر بالغ عاقل بوجه، ولو كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرًا. وهو مذهب النخعى، واحتجوا فى ذلك بما روى قتادة عن أنس: أن حيان بن منقذ

كان يخدع فى البيع فأتى أهله النبى ﷺ فقالوا: إن حيان بن منقذ يعقد وفى عقده ضعف فاحجر عليه.

فاستدعاه النبى ﷺ فقال له: «لا تبع» فقال: لا أصبر عن البيع، فقال له: «إذا بايعت فقل لا خلابة ولك الخيار ثلاثًا».

فلما سأله القوم الحجر عليه على ما كان فى تصرفه من الغبن ولم يفعل، ثبت أنه لا يجوز.

قال الشافعى: إن كان مفسدًا لماله ودينه أو كان مفسدًا لماله دون دينه حجر عليه، وإن كان مفسدًا لدينه مصلحًا لماله فعلى وجهين:

أحدهما: يحجر عليه: وهو اختيار أبى العباس بن شُريح.

والثانى: لا يحجر عليه، وهو اختيار أبى إسحاق المروزى، والأظهر من مذهب الشافعى، وهو الذى ذكرناه من الحجر على السفيه، قول عثمان وعلى والزبير وعائشة وابن عباس وعبد الله بن جعفر، ومن التابعين شُريح وبه قال من الفقهاء: مالك وأهل المدينة والأوزاعى وأهل الشام وأبو يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق وأبو ثور، وادّعى أصحابنا الإجماع فى هذه المسألة، ما روى هشام بن عروة عن أبيه: أنّ عبد الله بن جعفر ابتاع أرضًا سبخة بستين ألف درهم، فغبن فيها فأراد علىّ أن يحجر عليه، فأتى ابن جعفر إلى الزبير فقال: إنى اشتريت وإن عليًّا يريد أن يأتى حبر المؤمنين فيسأله أن يحجر علىّ.

فقال الزبير: أنا شريكك فى البيع، فقال: علىٌّ عثمان.

وقال على: إن ابن جعفر اشترى كذا وكذا احجر عليه.

وقال الزبير: أنا شريكه فى البيع، فقال عثمان: كيف أحجر على رجل فى بيع شريكه فيه الزبير. فثبت من هذه القصة إجماع الصحابة على جواز الحجر، لأن عبد الله بن جعفر خاف من الحجر، والزبير احتال له فيما يمنعه منه، وعلىّ سأل ذلك عثمان، وعثمان اعتذر إليه فى الامتناع منه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ يا معشر الأوصياء والأولياء بغير حقها ﴿إِسْرَافًا﴾ والإسراف مجاوزة الحد والإفراط والخطأ ووضع الشىء فى غير موضعه، يقال: مررت بكم فسرقتكم، أى فسهوت عنكم وأخطأتكم.

قال جرير:

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ... ما فى عطائهم من ولا سرف

أى خطأ، يعنى أنهم يصيبون من مواضع العطاء ﴿وَبِدَارًا﴾ مبادرة ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ أن فى محل

النصب يعنى لا تبادروا كبرهم ورشدهم حذرًا أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم، ثم بيّن ما يحل لهم من مالهم، فقال عز من قائل: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا﴾ عن مال اليتيم ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عن مال اليتيم، فلا يجوز له قليلاً ولا كثيرًا، والعفة الامتناع ممّا لا يحل ولا يجب فعله، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ (النور: ٣٣).

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا﴾ محتاجًا إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهده ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ واختلف العلماء فيه:

فقال بعضهم: المعروف القرض، نظيره قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ (النساء: ١١٤) يعنى القرض، ومعنى الآية: تستقرض من مال اليتيم فإذا أيسر قضاه، فإن لم يقدر على قضائه فلا شيء عليه.

وقال به سعيد بن جبير وعبيدة السلمانى وأبو العالية، وأكثر الروايات عن ابن عباس.

قال مجاهد: ليستسلف منه فيتجر فيه فإذا أيسر أدى، ودليل هذا التأويل ما روى إسرائيل وسفيان عن إسحاق عن حارثة بن مصرف قال: قال عمر بن الخطاب: ألا إنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة مال اليتيم إن استغنيت استعففت فإن افتقرت أكلت بالمعروف وإن أيسرت قضيت.

وقال الشعبى: لا تأكله إلاّ أن تضطر إليه كما تضطر إلى الميتة.

وقال آخرون: (بالمعروف) هو أن يأكله من غير إسراف ولا قضاء عليه فيما يأكل، ثم اختلفوا فى كيفية هذا الأكل بالمعروف:

فقال عطاء وعكرمة والسدى: يأكل بأطراف أصابعه ولا يسرف فى الأكل، ولا يكتسى منه.

وقال النخعى: لا يلبس الحلل ولا الكتان، ولكن ما سدَّ الجوعة ووارى العورة.

وقال بعضهم: هو أن يأكل من ثمر نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا، فإن أكله فلا بد من أن يرده، وهذا قول الحسن وجماعة.

قال قتادة: كان اليتيم يكون له الحائط من النخل فيقوم وليّه على صلاحه وسقيه فيصيب من ثمرته ويكون له الماشية، فيقوم وليه على صلاحها وعلاجها فيصيب من جزازها وعوارضها، فأما رقاب المال وأصولها فليس له أن يستهلكها.

وقال الضحاك: المعروف ركوب الدابة وخدمة الخادم وليس له أن يأكل من ماله شيئًا.

وروى بكر بن عبد الله بن الأشج عن القاسم بن محمد قال: حضرت ابن عباس، فجاءه

رجل فقال: يا بن عباس إن لى أيتامًا ولهم ماشية، فهل علىَّ جُناح فى رسلها وما يحل لى منها؟ فقال: إن كنت ترد نادتها وتبغى ضالتها وتهنأ جرباها وتلوط حوضها وتفرط لها يوم وردها، فاشرب من فضل ألبانها عنهم غير مضر بأولادها ولا تنهكها فى الحلب.

قال بعضهم: المعروف هو أن يأخذ من جميع ماله، إذا كان يلى ذلك بقدر قيامه (وخدمته) وعمله وأُجرته، وإن أتى على جميع المال ولا قضاء عليه، وهذا طعمة من الله تعالى له وبه.

قالت به عائشة وجماعة من العلماء، وقال محمد بن كعب القرظى ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: عن مال اليتيم ولا تأكل منه شيئًا وأجره على الله ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يتقرم بتقرم البهيمة، وينزل نفسه بمنزلة الأجير فيما لا بد له منه والتقرم: الالتقاط من نبات الأرض وبقلها، ودليل هذا التأويل ما روى ابن أبى نجيح عن الحسن العوفى عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن فى حجرى يتيمًا أفأضربه؟ فقال: «ممّا كنت ضاربًا منه ولدك» قال: يا رسول الله أفآكل من ماله؟ قال: «بالمعروف غير متأثل من ماله ولا واقيًا مالك بماله».

وأصل المعروف ما تيسر على الإنسان فطابت نفسه به، قال الله تعالى: ﴿مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٤١).

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ هذا أدب من الله تعالى، ليعلم أن الولى قد أدى الأمانة وينقطع عنه الظنّة وتزول عنه الخصومة وليس بفريضة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسبًا ومجازيًا وشاهدًا.



﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ
وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ
ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ
مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ
وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ

فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، وذلك أن أوس بن ثابت الأنصارى توفى وترك امرأة يقال لها: أم كحة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصيّاه. واختلف فى اسميهما فقال الكلبى وقتادة: عرفطة، وقال غيره: سويد وعرفجة. فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئًا. وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرًا، وإنما كانوا يورثون الرجال الكبار، فكانوا يقولون: لا نعطى إلاّ من قاتل على ظهر الخيل وجاز القسمة. قال: فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ وهو فى مسجد الفضيح فقالت: يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك علىّ بنات له ثلاثًا وأنا امرأته وليس عندى ما أنفق عليهن، وقد ترك أبوهن مالاً حسنًا وهو عند سويد وعرفجة، فلم يعطيانى ولا بناته من المال شيئًا وهنّ فى حجرى، ولا يطعمن ولا يسقين ولا يرفع لهن رأس. فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرسًا ولا يحمل كلأ ولا ينكأ عدوًا.

فقال رسول الله ﷺ: «انصرفوا حتى أنظر ماذا يحدث الله لى فيهن» فانصرفوا فأنزل الله تعالى هذه الآية. ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ يعنى الذكور من أولاد الميت وأقربائه نصيب وحظ وسهم ممّا ترك الوالدان والأقربون من الميراث، والإناث لهن حصّة من الميراث.

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ المال ﴿أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ حظًا معلومًا واجبًا، نظيرها فيما قال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ

مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ١١٨) وهو نصب لخروجه مخرج المصدر كقول القائل: لك عليَّ حق حقًا واجبًا، وعندى درهم هبة مقبوضة، قاله الفراء.

وقال أبو عبيدة: هو نصب على الخروج، الكسائى: على القطع، الأخفش: جعل ذلك نصيبًا فأثبت لهم فى الميراث حقًا، ولم يبيّن كم هو.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة: «لا تفرّقا من مال أوس بن ثابت شيئًا، فإن الله تعالى جعل لبناته نصيبًا ممّا ترك ولم يبين كم هو، حتى ننظر ما ينزل الله عزّ وجلّ فيهن»، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فلما نزلت أرسل رسول الله إلى سويد وعرفجة: «أن ادفعا إلى أم كحة الثمن ممّا ترك وإلى بناته الثلثين، ولكما باقى المال».

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ يعنى قسمة المواريث ﴿أُوْلُواْ الْقُرْبَىٰ﴾ الذين لا يرثون ﴿وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أى فأرضوهم من المال قبل القسمة، واختلف العلماء فى حكم هذه الآية:

فقال قوم: هى منسوخة. وقال سعيد بن المسيب والضحاك وأبو مالك: كانت هذه قبل آية المواريث، فلما نزلت آية الميراث جعلت الميراث لأهلها الوصية ونسخت هذه الآية، وجعلت لذوى القربى الذين يحزنون ولا يرثون واليتامى والمساكين، وهذه رواية العوفى عن ابن عباس.

وقال آخرون: هى محكمة، وهو قول الأشعرى والنخعى والشعبى والزهرى ورواية عكرمة ومقسم عن ابن عباس. وقال مجاهد: واجبة على أهل الميراث ما طابت بها أنفسهم.

قتادة عن الحسن: ليست بمنسوخة ولكن الناس شحوا وبخلوا.

وروى عبد الرزاق عن معمّر عن هشام بن عروة: أن أباه أعطاه من ميراث مصعب حين قسم ماله، قاله الحسن.

وقال التابعون: كانوا يعطون التابوت والأوانى وباقى المتاع والثياب، والشىء الذى يستحى من قسمته، فإن كان بعض الورثة طفلاً، فاختلفوا:

فقال ابن عباس والسدى وغيرهما: إذا حضر القسمة هؤلاء، فإن كان الميّت أوصى لهم بشىء أنفذت لهم وصيته، وإن كانت الورثة كبارًا رضخوا لهم، وإن كانت صغارًا اعتذروا إليهم، فيقول الولى والوصى: إنى لا أملك هذا إنما هو لهؤلاء الضعفاء الصغار الذين لا يعقلون ما عليهم من الحق، ولو كان لى من الميراث شىء لأعطيتكم، وإن يكبروا فسيعرفوا

حقكم، وإن ماتوا فورثناهم أعطيناكم حقكم، وهذا هو القول المعروف.

وقال سعيد بن جبير: هذه الآية ممّا يتهاون به الناس، هما وليان: ولىّ يرث وهو الذى يعطى ويكسى، وولىّ لا يرث وهو الذى يقال له قول المعروف.

وقال بعضهم: ذلك حق واجب فى أموال الصغار والكبار، فإن كانوا كباراً تولوا إعطاءهم، وإن كانوا صغاراً تولى إعطاء ذلك وليّهم.

روى محمد بن سيرين: أن عبيدة السلمانى قسّم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت فصنع طعامًا لأهل هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالى.

روى قتادة عن يحيى بن يعمر قال: تلك آيات محكمات مدنيات تركهن الناس، هذه الآية وآية الاستئذان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ (النور: ٥٨) وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال بعضهم: هذا على الندب والاستحباب لا على الحَتم والإيجاب، وهو أول الأقاويل بالصواب.

وقال ابن زيد وغيره: هذا فى الوصية لا فى الميراث، كان الرجل إذا أوصى قال: فلان ماله أمر أن يوصى بثلث ماله لمن سمّى الله فى هذه الآية.

وروى ابن أبى مليكة عن أسماء بنت عبد الرحمن وأبى بكر والقاسم بن محمد بن أبى بكر: أخبرا أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسّم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حيّةٌ، قالا: فلم يترك فى الدار مسكينًا ولا ذا قرابة إلاّ أعطاهم من مال أبيه، وتلا هذه الآية ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾.

قال القاسم: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: ما أصاب، ليس ذلك له إنما ذلك فى الوصية.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾ الآية.

قال أكثر المفسرين: هذا فى الرجل يحضره الموت فيقول من بحضرته عند وصيته: انظر لنفسك فإن أولادك ورثتك لا يغنون عنك شيئًا، فقدّم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلانًا كذا وفلانًا كذا حتى يأتى على عامّة ماله ويستغرقه ولا يبقى لورثته شيئًا، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك وأمرهم أن يأمروه أن يُبقى لولده ولا يزيد فى وصيته على الثلث ولا يجحف بورثته، كما لو كان هذا الميت هو الموصى، لسرّه أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة مع ضعفهم، ويجرهم إلى التصرّف والحيلة.

وقال مقسم الحضرمى: الرجل يحضره الموت فيقول له من بحضرته: اتق الله وأمسك عليك مالك فليس أحد أحق بمالك من أولادك، وينهاه عن الوصية لأقربائه ولليتامى والفقراء، ولو كان هذا هو الموصى لسرّه أن يوصى لهم.

وقال الكلبى: هذا الخطاب لولاة اليتامى يقول: من كان فى حجره يتيم فليحسن إليه، فليقل وليفعل خيراً وليأت إليه ما يحب أن يفعل بذريته من بعده. وهى رواية عطية عن ابن عباس.

وقال الشعرى: كنّا بالقسطنطينيّة أيام مسلمة بن عبد الملك وفينا ابن محبرين وابن الديلمى وهانئ بن مكتوم، وجعلنا نتذاكر ما يكون فى آخر الزمان، فضقت ذرعًا لما سمعت فقلت لابن الديلمى: يا أبا بشير علىّ ودّى أنه لا يولد لى ولد أبدًا قال: فضرب بيده على منكبى وقال: يا ابن أخى لا تفعل فإنه ليست من قسمة كتب الله لها أن تخرج من صلب رجل إلاّ وهى خارجة شئنا أو أبينا، ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجّاك الله منه، وإنْ تركت ولدًا من بعدك حفظهم الله فيك؟ قلت: بلى فتلا هذه الآية، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ والسديد العدل والصواب من القول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية.

قال مقاتل بن حيان: نزلت فى رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد، ولّى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله عزّ وجلّ فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ حرامًا بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أخبر عن ماله وأخبر عن حاله، والعرب تقول للشىء الذى يؤدى إلى الشىء: هذا كذا لما يؤدى إليه، مثل قولهم: هذا الموت، أى يؤدى إليه.

وقال النبى ﷺ فى الشارب من أوانى الذهب والفضة: «إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم».

وقال (عليه السلام): «البحر نار فى نار» أى عاقبتها كذلك، وذكر البطون تأكيدًا كما يقال: نظرت بعينى وقلت بلسانى وأخذت بيدى ومشيت برجلى ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ وقودًا.

قرأه العامة بفتح الياء، أى يدخلون، تصديقها إلاّ من هو صال الجحيم، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ (الليل: ١٥).

وقرأ أبو رجاء والحسن وابن عامر وعاصم وأبو جعفر: بضم الياء، أى يدخلون النار ويحرقون نظيره قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (المدثر: ٢٦) وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ (النساء: ٣٠).

وقرأ حميد بن قيس: (وسيُصلّون) بضم الياء وتشديد اللام، من التصلية، لكثرة الفعل، أى مرّة بعد مرّة، دليله قوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ (الحاقة: ٣١) وكل صواب، يقال: صَلَيت

الشىء إذا شويته.

وفى الحديث: أتى بشاة مصلية، فأصليته ألقيته فى النار، وصليته مرّة بعد مرّة، وصُلِيت بكسر اللام دخلت النار وتصلّيت استدفأت بالنار. قال الشاعر:

وقـد تصليت حرَّ حربهم كما تصلّى المقرور من قرس

وقال السدى: يبعث آكل مال اليتيم ظلمًا يوم القيامة، ولهب النار ودخانه يخرج من فيه وأذنيه وأنفه وعينيه، يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم.

وقال النبى ﷺ: «رأيت ليلة أُسرى بى قومًا لهم مشافر كمشافر الإبل إحداهما عالية على منخريه وأخرى على بطنه، وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها، ثم يخرج من أسافلهم، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: الذين يأكون أموال اليتامى ظلمًا».

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾.

فصل فى بسط الآية

اعلم أن الوراثة كانت فى الجاهلية بالرجولية والقوة، وكانوا يورثون الرجال دون النساء والأطفال، فأبطل الله عزّ وجلّ ذلك بقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ وكانت الوراثة أيضًا فى الجاهلية، وبدأ الإسلام بالمحالفة قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ (النساء: ٣٣) يعنى الحلفاء ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ (النساء: ٣٣) وأعطوهم حظهم من الميراث، ثم صارت بعد الهجرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ (الأنفال: ٧٢) فنسخ هذا كله وصارت الوراثة على وجهين: بالسبب والنسب، فأما السبب فهو النكاح والولاء، وهذا علم عريض لذلك.

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالفرائض فإنها نصف العلم وهو أول علم ينزع من أمتى».

ولا يمكن معرفة ذلك إلاّ بمعرفة الورثة والسهام، وقد أفردت فيه قولاً وجيزاً جامعًا كما يليق بشرط الكتاب والله الموفق للصواب.

اعلم أن الميت إذا مات يبدأ أولاً بالتجهيز ثم بقضاء ديونه ثم بإنفاذ وصاياه، فما فضل يقسّم بين الورثة، والورثة على ثلاثة أقسام:

منهم من يرث بالفرض، ومنهم من يرث بالتعصيب، ومنهم من يرث بهما جميعًا، فصاحب الفرض: من له سهم معلوم ونصيب مقدّر، مثل البنات والأخوات والأمهات والجدّات والأزواج والزوجات، وصاحب التعصيب: من يأخذ جميع المال عند عدم أصحاب

الفروض، أو يأخذ الفاضل منهم ويكون محرومًا إذا لم يفضل من أصحاب السهام شيء، مثل الأخ والعم ونحوهما، والذى يرث بالوجهين: هو الأب مع البنت وبنت الابن، يأخذ نصيبه المقدر وهو السدس، ثم يأخذ ما فضل منهما وجملة الورثة سبعة عشر، عشرة من الرجال: الابن وابن الابن وإن سفل والأب وأب الأب وإن علا والأخ وابن الأخ والعم وابن العم والزوج ومولى العتاق، ومن النساء سبع: البنت وبنت الابن والأم والجدّة والأخت والزوجة ومولاة العتاق، والذين لا يسقطهم من الميراث أحد الستة، الأبوان والولدان والزوجان.

والعلة فى ذلك: أنه ليست بينهم وبين الميت واسطة، والذين لا يرثون بحال ستة: العبد والمدبّر والمكاتب وأم الولد وقاتل العمد وأهل الملتين، والسهام المحدودة فى كتاب الله عزّ وجلّ ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس.

والنصف فرض خمسة: بنت الصلب، وبنت الابن إذا لم يكن بنت الصلب، والأخت للأب والأم، والأخت للأب إذا لم يكن الأخت للأب والأم، والزوج إذا لم يكن للميت ولد ولا ولد ابن.

والربع فرض اثنين: الزوج إذا كان للميت ولد أو ولد ابن، والزوجة والزوجات إذا لم يكن للميت ولد ولا ولد ابن.

والثمن فرض واحد: الزوجة والزوجات إذا كان للميت ولد أو ولد ابن.

والثلثان فرض كل اثنين فصاعداً ممّن فرضه النصف.

والثلث فرض ثلاثة: الأم إذا لم يكن للميت ولد ولا ولد ابن ولا اثنان من الإخوة والأخوات إلاّ فى مسألتين: إحداهما زوج وأبوان، والأُخرى امرأة وأبوان، فإن للأم فيهما ثلث ما يبقى بعد نصيب الزوج، وهو فى الحقيقة سدس جميع المال، والزوجة وهو ربع جميع المال، وفرض الاثنين من ولد الأم ذكورهم وإناثهم سواء، وفرض الجدّ مع الإخوة والأخوات إذا كانت المقاسمة خيراً له من الثلث.

والسدس فرض سبعة: بنت الابن مع بنت الصلب، والأخت للأب مع الأخت للأب والأم، والواحد من ولد الأم، والأم إذا كان للبنت ولد، وولد ابن أو اثنان من الإخوة والأخوات، وفرض الجدة والجدات وفرض الأب مع الولد وولد الابن . . . .[1] مع الابن وابن الابن، وأما العصبات فأقربهم البنون ثم بنوهم ثم بنو بنيهم وإن سفلوا . . . .[1]

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أخواتهم للذكر مثل حظ الأُنثيين، ثم الأب وله ثلاثة أحوال: حال ينفرد بالتعصيب، وهو مع عدم الولد وولد الابن، وحال ينفرد بالفرض، وهو مع الابن أو ابن الابن، وحال يجمع له الفرض والتعصيب، وهو مع البنت وابنة الابن، ثم الجد إن لم يكن له إخوة، وإن كان له إخوة قاسمهم، ثم الإخوة والأخوات للأب والأم، ثم الإخوة والأخوات للأب يقسمون المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، والواحدة منهن عصبة مع البنات، وسائر العصبات ينفرد ذكورهم بالتعصيب، دون الإناث، ثم بنو الإخوة للأب والأم، ثم بنو الإخوة للأب، ثم الأعمام للأب والأم، ثم الأعمام للأب، ثم بنو الأعمام للأب والأم، ثم بنو الأعمام للأب، ثم أعمام الأب كذلك، ثم أعمام الجد، على هذا الترتيب لا يرث بنو أب أعلى وبنو أب أقرب منهم موجود، ثم مولى العتق، ثم عصبته على هذا الترتيب، فهذه جملة من هذا العلم.

رجعنا إلى تفسير الآية، اختلف المفسرون فى سبب نزولها:

فأخبر محمد بن المنكدر أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: مرضت فعادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر (رضى الله عنه) وهما يتمشيان، فأُغشى على فدعا بماء فتوضأ ثم صبّه علىَّ فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أمضى فى مالى؟ كيف أصنع فى مالى؟ فسكت رسول الله ﷺ فنزلت فىَّ آية المواريث.

وقال عطاء: استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أُحد وترك امرأة وابنتين وأخًا، فأخذ الأخ المال فأتت امرأة سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هاتين ابنتا سعد، وإن سعدًا قُتل يوم أحد معك شهيدًا، وإن عمّهما أخذ مالهما ولا ينكحان إلاّ ولهما مال، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعى فلعل الله سيقضى فى ذلك» فأقامت حينًا ثم عادت وشكت وبكت، فنزل على رسول الله ﷺ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ إلى آخرها.

فدعا رسول الله ﷺ عمّهما وقال: «أعط بنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك»، فهذا أول ميراث قُسّم فى الإسلام.

وقال مقاتل والكلبى: نزلت فى أم كحة وقد مضت القصة.

وقال السدى: نزلت فى عبد الرحمن أخى حسان الشاعر، وذلك أنه مات وترك امرأة وخمس أخوات، فجاء الورثة فأخذوا ماله ولم يعطوا امرأته شيئًا، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله آية المواريث.

وقال ابن عباس: كانت المواريث للأولاد وكانت الوصية للوالدين والأقربين، فنسخ الله ذلك، وأنزل آية المواريث، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يرض بملك مقرب ولا نبى مرسل

حتى تولى قسم التركات وأعطى كل ذى حق حقه ألا فلا وصية للوارث» وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ أى يعهد إليكم ويفرض عليكم ﴿فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ﴾ أى فى أمر أولادكم إذا متم ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ يعنى المتروكات ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فصاعداً يعنى البنات ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ و(فوق) صلة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ (الأنفال: ١٢).

﴿وَإِن كَانَتۡ﴾ يعنى البنت ﴿وَٰحِدَةً﴾.

قرأه العامة: نصب على خبر كان، ورفعهما أهل المدينة على معنى: إنْ وقعت واحدة، وحينئذ لا خبر له.

﴿فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ ثم قال: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾ يعنى لأبوى الميت، كناية عن غير المذكور ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ﴾ أو ولدان، والأب ههنا صاحب فرض ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾ قرأ أهل الكوفة: (فلإمه) بكسر الهمزة، وقرأ الباقون: بالضم على الأصل.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٌ﴾ اثنين كانا أو أكثر ذكراناً أو أناثاً ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ هذا قول عامة الفقهاء، وكان ابن عباس لا يحجب الأم عن الثلث إلى السدس بأقل من ثلاثة إخوة، وكان يقول فى أبوين وأخوين: للأم الثلث وما بقى فللأب، اتبع ظاهر اللفظ.

وروى: أن ابن عباس دخل على عثمان فقال: لمَ صار الأخوان يردان الأم إلى السدس، وإنما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٌ﴾ والأخوان فى لسان قومك ليسا بإخوة؟ فقال عثمان: هل أستطيع نقض أمر قد كان قبلى وتوارثه الناس ومضى فى الأمصار. وقول ابن عباس فى هذا غير مأخوذ به، وأما الآية فإن العرب توقع اسم الجمع على التثنية، لأن الجمع ضمٌّ شىء إلى شىء، فأقل الجموع اثنان وأقصاها لا غاية له، قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ (التحريم: ٤).

وتقول العرب: ضربت من زيد وعمرو رءوسهما فأوجعت من إخوتك ظهورهما.

وأنشد الأخفش:

لما أتتنا المرأتان بالخبر ... أن الأمر فينا قد شهر

قال الثعلبى: وأنشدنى أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنى أبو سعيد أحمد بن محمد بن رمح الزيدى:

ويُحيى بالسلام غنى قوم ... ويبخل بالسلام على الفقير

أليس الموت بينهمـا سـواء إذا ماتوا وصاروا فى القبور

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم: (يوصَى) بفتح الصاد، الباقون: بالكسر وكذلك الآخر.

واختلفت الرواية فيهما عن عاصم، والكسر اختيار أبى عبيد وأبى حاتم لأنّه جرى ذكر الميت قبل هذا، قال الأخفش: وتصديق الكسر يوصين ويواصون.

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾.

قال مجاهد: فى الدنيا، وقرأ بعضهم: (أيهما أقرب لكم نفعًا) أى رفع بالابتداء، ولم يعمل فيه الـ (ما) قبله، لأنه استفهام و(أقرب) خبره و(نفعًا) نصب على التمييز، كأنه يقول: لا يدرون أى الوارثين والموروثين أسرع موتًا فيرثه صاحبه، فلا تتمنوا موت الموروث ولا تستعجلوه.

وقال ابن عباس: أطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، لأن الله عزّ وجلّ يشفّع المؤمنين بعضهم فى بعض، فإن كان الوالد أرفع درجة فى الجنة من ولده رفع الله إليه ولده فى درجته ليقرّ بذلك عينه، وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته ليقرّ بذلك عينيهما.

قال الحسن: لا تدرون بأيّهم أنتم أسعد فى الدين والدنيا.

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ﴾ يعنى وللزوجات ﴿ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ نظم الآية: وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة، وهو نصب على المصدر، وقيل: على الحال، وقيل: على خبر ما لم يسمّ فاعله، تقديرها: وإن كان رجل يورث ماله كلالة.

وقرأ الحسن وعيسى: (يورِث) بكسر الراء (جعلا) فعلاً له.

واختلفوا فى الكلالة:

فقال الضحاك والسدى: هو الموروث. سعيد بن جبير: هم الورثة. النضر بن شميل: هو المال. واختلفوا أيضًا فى معناه وحكمه:

فروى أنس عن النبى ﷺ أنه سئل عن الكلالة، فقرأ آخر سورة النساء، فردّ عليه السائل فقال ﷺ: «لست بزائدك حتى أُزاد».

وروى شعبة عن عاصم الأحول قال: سمعت الشعبى يقول: إن أبا بكر (رضى الله عنه) قال فى الكلالة: أقضى فيها قضاءً وإن كان صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمن الشيطان ومنى والله برىء منه: هو ما دون الوالد والولد، يقول: كل وارث دونهما كلالة قال: فلما كان عمر (رضى الله عنه) بعده قال: إنى لأستحى من الله أن أُخالف أبا بكر: هو ما خلا الوالد والولد.

وقال طاوس: هو ما دون الولد. والحكم: هو ما دون الأب. عطية: هم الإخوة للأُم. عبيد بن عمير: هم الإخوة للأب. وقيل: هم الإخوة والأخوات.

قال جابر بن عبد الله: قلت يا رسول الله إنما يرثان أُختان لى فكيف بالميراث؟ فنزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

وقال الأخفش: كل من لم يرثه أب أو أم فهو كلالة.

وقال أهل اللغة: هو من تكللهُ النسب إذا أحاط به كالإكليل.

قال امرؤ القيس:

أصاح ترى برقًا أريك وميضه ... كلمع اليدين فى حبى مكلل

فسمّوا كلالة، لأنهم أحاطوا بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم، وإحاطتهم به أنهم ينسبون معه.

قال الفرزدق:

ورثتم قناة الملك غير كلالة ... عن ابنى مناف عبد شمس وهاشم

وقال بعضهم:

وإن أبا المرء أحمى وله ... ومولى الكلالة لا يغضب

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ ولم يقل: (ولهما) وقد مضى ذكر الرجل والمرأة على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما كانا فى الحكم سواء، ربّما أضافت إلى أحدهما وربما أضافت إليهما جميعًا، يقول: من كان عنده غلام وجارية فليحسن إليه وإليها وإليهما كلها جائز، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ (البقرة: ٤٥) ونظائرها، وأراد بهذا الأخ والأُخت من الأم، يدل عليه قراءة سعد بن أبى وقاص: وله أخ أو أخت من الأم ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ بينهم بالسوية ذكورهم وإناثهم سواء ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

قال على (عليه السلام): إنكم تقرءون الوصيّة قبل الدين وبدأ رسول الله بالدين قبل الوصية. وهذا قول عامة الفقهاء، ومعنى الآية الجمع لا الترتيب ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ مدخل الضرر

على الورثة .

قال الحسن : هو أن توصى بدين ليس عليه ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ .

وقرأ الأعمش : (غير مضار وصية من الله) على الإضافة .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ .

قال قتادة : إن الله عزّ وجلّ كره الضرار فى الحياة وعند الموت ونهى عنه وقدر فيه ، ولا يصلح مضارة فى حياة ولا موت . وفى الخبر من قطع ميراثه فى الجنة ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .



﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعنى الزنا ، وفى مصحف عبد الله الفاحشة ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ يعنى من المسلمين ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾ عليها بالزنا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فاحبسوهن ﴿فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وإنما كان هذا قبل نزول الحدود ، كانت المرأة فى أول الإسلام لو أذنبت حبست فى البيت حتى تموت ؛ وإن كان لها زوج كان مهرها له ، حتى نزلت قوله : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ (النور : ٢) .

فقال رسول الله ﷺ: «خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام».

فنسخت تلك الآية بعض هذه الآية، وهو الإمساك فى البيوت وبقى بعضها محكمًا وهو الاستشهاد ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ يعنى الرجل والمرأة، المذكر والمؤنث إذا اجتمعا قلب المذكر على المؤنث، والهاء راجعة إلى الفاحشة.

قال المفسرون: فهما البكران يزنيان ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ قال عطاء وقتادة والسدى: يعنى عيّروهما وعنفوهما باللسان: أما خفت الله أما استحيت الله حين أتيت الزنا، وأشباهه. مجاهد: سبّوهما واشتموهما. ابن عباس: هو باللسان واليد كأن (يوذى) بالتعيير والضرب بالنعال.

﴿فَإِن تَابَا﴾ من الفاحشة ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ العمل فيما بعد ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ ولا تؤذوهما، وإنما كان قبل نزول الحدود، فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية والإمساك من الآية الأولى بالرجم للسيب والجلد والنفى للبكر، والجلد فى القرآن والنفى والرجم فى السنة.

روى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى: إنما أخبراه أن رجلين اختصما إلى النبى ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله. وقال الآخر وهو أفقههما: أجل يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله وائذن لى فى أن أتكلم؟ فقال: «تكلم». فقال: إن ابنى كان عسيفًا على هذا. قال مالك: والعسيف الأجير. فزنا بامرأته، فأخبرونى أن على ابنى الرجم، فافتديت منه مائة شاة وبجارية، ثم إنى سألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، أما غنمك وجاريتك فردٌّ عليك، وجلد ابنك مائة وتغريبه عامًا».

وأمر أنيس الأسلمى أن يأتى امرأة الرجل فإن اعترفت رجمها، فاعترفت فرجمها.

روى الزهرى عن أبى سلمة عن عروة بن الزبير: أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غرّب فى الزنا ولم تزل تلك السنّة حتى غرَّب مروان فى إمارته.

وروى الزهرى عن أبى سلمة عن جابر بن عبد الله: أن رجلاً من أسلم جاء إلى النبى ﷺ فاعترف عنده بالزنا: فأعرض عنه ثم اعترف فاعترض حتى شهد على نفسه أربع مرات، فقال النبى ﷺ: «إنك مجنون؟» قال: لا، قال: «أحصنت؟» قال: نعم، فأمر به النبى ﷺ فرجم بالمصلّى، فلما أذاقته الحجارة فرَّ، وأدرك فرجمه حتى مات.

فقال النبى ﷺ فيه خيراً ولم يصل عليه.

سليمان بن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله طهّرنى، قال: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه» قال: فرجع غير بعيد وقال مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له النبى ﷺ: «ممَّ أطهرك؟» قال: من الزنا، قال رسول الله ﷺ: «إنك مجنون؟» وأخبر أنه ليس به جنون، فقال: «أَشَرِبَ خمرًا»، فقام رجل فاستشمه فلم يجد منه ريح خمر.

فقال النبى ﷺ: «أزنيت أنت؟» قال: نعم فأمر به النبى ﷺ فرجم، وجاء النبى فقال: «استغفروا لماعز بن مالك»، فقالوا: أيغفر الله لماعز بن مالك؟ فقال النبى ﷺ: «لقد تاب ماعز توبة لو قسّمت بين أمة لوسعتها».

وروى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال: لقد خشيت أن يطول الناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنا، إذا أحصن وقامت البينة أو الحمل أو الاعتراف، وقد قرأتها: الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: يعنى التوبة التى يقبلها الله، فتكون على بمعنى عند، أقامه مقام صفة.

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبا بكر بن عياش يقول: (على) ههنا بمعنى (من) يقول: إنما التوبة من الله للذين يعملون السوء بجهالة، اختلفوا فى معنى الجهالة:

فقال مجاهد والضحاك: هى العمد.

وقال الكلبى: لم يجهل أنه ذنب ولكنه جهل عقوبته.

وقال سائر المفسرين: يعنى المعاصى كلها، فكل من عصى ربّه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته.

قتادة: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أنّ كل شىء عُصىَ به ربّه فهو جهالة، عمداً كان أو غيره.

وقال الزجاج: معنى قوله: ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية، نظيرها فى الأنعام ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ (الأنعام: ٥٤)، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ معناه قبل أن يحبطون السوء بحسناته فيحبطها.

قال السدى والكلبى: القريب ما دام فى صحته قبل المرض والموت.

عكرمة وابن زيد: ما قبل الموت فهو قريب.

أبو مجلز والضحاك: قبل معاينة ملك الموت.

أبو موسى الأشعرى: هو أن يتوب قبل موته بفواق ناقة.

زيد بن أسلم عن عبد الرحمن (السلمانى) قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم».

قال الثانى: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم».

قال الثالث: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة».

فقال الرابع: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه».

خالد بن (سعدان) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه» ثم قال: «إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه» ثم قال: «إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة تاب الله عليه» ثم قال: «إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه» ثم قال: «إن الساعة لكثير، من تاب قبل موته قبل أن يُغرغر بها تاب الله عليه».

المسيب بن شريك عن عمرو بن عبيد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لما هبط إبليس قال: وعزتك وعظمتك لا أُفارق ابن آدم حتى يفارق روحه جسده فقال الله عزّ وجلّ: وعزتى وعظمتى لا أحجب التوبة عن عبدى حتى يغرغر».

وعن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الشيطان قال وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، قال الربّ تبارك وتعالى: وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفروا لى».

قال الثعلبى: وسمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول: سمعت أبا بكر الرازى يقول: سمعت محمد بن عبد الجبار يقول: يقال للتائب المخلص فى توبته ولو بمقدار ساعة من النهار أو بمقدار نفس واحد قبل موته: ما أسرع ما جئت.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعنى المعاصى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ووقع فى

النزع ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ فحينئذ لا يقبل من كافر إيمانه ولا من عاص توبته ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ موضع (الذين) خفض يعنى ولا الذين يتوبون ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى هيّئنا، والاسم منه العتاد.

قال عدى بن الرقاع:

تأتيه أسلاب الأعزة عنـــوة قسرًا ويجمع للحروب عتادها

وقال للفرس المعد للحرب: عتّد وعتد.

وقال الشاعر الجعفى:

حملوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتى يعـدو بها عتد وأى

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ أى على كره منهن.

قال المفسرون: كان أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الإسلام، إذا مات رجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من جنسه فليلقى ثوبه على تلك المرأة أو على خبائها، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق، إلاّ بالصداق الأول الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها، ولم يعطها منه شيئًا، وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج فطوّل عليها وضارها، لتفتدى نفسها بما ورثت من الميت، أو تموت هى فيرثها، وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها ولى زوجها ثوبهُ فهى أحق بنفسها، فكانوا يفعلون ذلك حتى توفى أبو قيس بن صلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: (حصن).

وقال مقاتل بن حيان: اسمه قيس بن أبى قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارّها بذلك لتفتدى بمالها، وكذلك كانوا يفعلون إذا ورث أحدهم نكاحها، فإن كانت جميلة موسرة دخل بها، وإن لم تكن جميلة طوّل عليها لتفتدى منه، فأتت كبيشة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه وقد أضرّنى حصن وطوّل علىّ فلا هو ينفق على ولا يدخل بى ولا يخلى سبيلى، فقال لها رسول الله ﷺ: «اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله» قالت: فانصرفت وسمعت بذلك النساء فى المدينة، فأتين رسول الله ﷺ وهو فى مسجد الفضيح فقلن: يا رسول الله ما نحن إلاّ كهيئة كبشة غير أننا لم ينكحنا الأبناء وينكحنا بنو العم فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ الآية.

وقرأ الكسائى والأعمش ويحيى بن وثاب: بضم الكاف ههنا وفى التوبة.

والباقون: بالفتح.

قال الكسائى: هما لغتان. وقال الفراء: الكره والإكراه، والكره المشقة، فما أُكره عليه فهو كَره بالفتح، وما كان من قبل نفسه فهو كُره بضم الكاف.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ كفعل أهل الجاهلية.

وعن الضحاك: نزلت هذه الآية فى الرجل تكون فى حجره اليتيمة، فيكره أن يزوجها لأجل مالها، فتكون تحته العجوز ونفسه تشوق إلى الشابة، فيكره فراق العجوز بتوقع وفاتها ليرثها مالها وهو معتزل لفراشها.

وقال ابن عباس: هذا فى الرجل تكون لهُ المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيطوّل عليها ويضارّها لتفتدى بالمهر أو تردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك، ثم قال:

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم وعضلهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن، واختلفوا فى الفاحشة:

فقال بعضهم: هى الزنا. قال الحسن: إن زنت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع. قال عطاء: كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها، فنسخ ذلك بالحدود.

وقال ابن مسعود والضحاك وقتادة: هى النشوز.

جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ خطب الناس فقال: «اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وقوله: ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾ بفتح الياء قاله ابن عباس وعاصم وابن كثير، الباقون: بالكسر.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

قال الحسن: رجع إلى أول الكلام يعنى ﴿وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النساء: ٤)، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وقال بعضهم: هو أن يصنع بها كما يصنع له.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وهو ولد صالح أو يعطفه الله عليها بعد ذلك، كذا قاله المفسرون.

مكحول الأزدى قال: سمعت ابن عمر يقول: إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط

على ربه عزّ وجلّ، فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خير له.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ ما لم يكن من قبلها نشور ولا إتيان فاحشة ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ وهو المال الكثير، وقد مرَّ تفسيره ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أى من القنطار شيئًا ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهام نهى وتوبيخ ﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ انتصابها من وجهين: أحدهما بنزع الخافض، والثانى بالإضمار، تقديره: تصيبون فى أخذه بهتانًا وإثمًا مبينًا، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ على معنى الاستعظام، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ (البقرة:٢٨) ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

قال المفسرون: أراد المجامعة، ولكن الله كريم يكنى بما شاء عمّا شاء، وأصل الإفضاء الوصول إلى شىء من غير واسطة.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾.

قال الحسن وابن سيرين والضحاك وقتادة والسدى: هو قولهم عند العقد: زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

مجاهد: هو كلمة النكاح التى يُستحل بها الفروج وهى كقوله: نكحته.

الشعبى وعكرمة والربيع: هو قوله: أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

فصل فيما ورد من الأخبار فى الرخص فى مغالاة المهر لقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾

عن عطاء الخراسانى قال: خطب عمر إلى على ابنته أم كلثوم وهى من فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: إنها صغيرة، فقال عمر: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلاّ نسبى وصهرى» فلذلك رغبت فيها.

فقال على (رضى الله عنه): إنى مرسلها إليك حتى تنظر إلى صغرها فأرسلها إليه، فجاءته فقالت: إن أبى يقول لك هل رضيت النحلة. فقال: رضيتها. قال: فأنكحه ابنته وصدقها عمر أربعين ألف درهم.

وعن ابن سيرين: أن الحسن (رضى الله عنه) تزوج بامرأة، فبعث إليها بمائة جارية مع كل جارية ألف درهم.

وروى مرشد بن عبد الله البرنى عن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ قال: «خير

النكاح أيسرهُ» وقال ﷺ لرجل: «أترضى أن أُزوجك فلانة؟» قال: نعم، قال للمرأة: «أترضين أن أزوجك فلانًا؟» قالت: نعم، فزوج أحدهما بصاحبه، فدخل عليها الرجل ولم يفرض لها صداقًا ولم يعطها شيئًا، وكان ممّن شهد الحديبية وله سهم بخيبر، فلما حضرته الوفاة قال: إن رسول الله ﷺ قد زوّجني بفلانة ولم أفرض لها صداقًا ولم أعطها شيئًا، وإني قد أعطيتها من صداقها سهمي بخيبر، فأخذ سهمها ذلك فباعته بمائة ألف.

وعن ضمرة بن حبيب أن أم حبيبة كانت بأرض الحبشة مع جعفر بن أبي طالب (رضى الله عنه) وأن رسول الله زوجها فأصدق عنه النجاشي أربعمائة دينار.

وبه عن ابن سيرين عن ابن عباس أنه تزوج سليمة السلمية على عشرة آلاف درهم.

حماد بن سلمة عن ابن بشر أن عروة البارقي تزوج بنت هانئ بن قبيصة على ألف درهم.

وعن غيلان بن جرير أن مطرفًا تزوج امرأة على عشرة ألف أواق.

فصل فيمن كره ذلك، والكلام فى أقل المهر

عن ابن سيرين قال: حدثنا أبو العجفا السلمى، قال: سمعت عمر وهو يخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا لا تغالوا فى صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم به النبى ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه ولا امرأة من بناته فوق اثنتى عشرة أوقية، ألا وإن أحدكم ليغلى بصدقة امرأة حتى يُبقى لها عداوة فى نفسه، فيقول: كانت لك حلق القربة أو عرق القربة.

عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من يُمن المرأة تيسير صداقها وتيسر رحمها».

قال عروة: وأنا أقول من عندى من أول شؤمها أن يكثر صداقها.

سعيد بن يسار عن أبى هريرة قال: كان صداقنا مُذ كان فينا رسول الله ﷺ عشرة أواق وهو أربعة دراهم.

ثابت البنانى عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن أثر صفرة وقال: «ما هذا؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. فقال النبى ﷺ: «بارك الله لك أولم ولو بشاة».

يقال : هى خمسة دراهم .

وعن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إنى قد وهبت نفسى لك فقامت قيامًا طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : «هل عندك من شىء تصدقها إياه؟» قال : ما عندى إلاّ إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : «إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك فالتمس شيئًا» فقال : ما أجد شيئًا . فقال : «التمس ولو خاتمًا من حديد» ، فالتمس فلم يجد شيئًا ، فقال له رسول الله ﷺ : «هل معك من القرآن شىء؟» قال : نعم ، سورة كذا وسورة كذا ، لسور سمّاها ، فقال رسول الله ﷺ : «زوجتك بما معك من القرآن» .

وعن عبد الله بن عامر عن أبيه : أن رجلاً تزوج امرأة على نعلين فقال له رسول الله ﷺ : «أرضيت مالك بهاتين النعلين؟» قال : نعم فأجازه رسول الله ﷺ .

وعن أبى حدرد الأسلمى قال : أتيت النبى ﷺ أستعينه فى مهر امرأة فقال : «كم تصدقها؟» قلت : مائتى درهم . فقال : «لو كنتم تغرفون من بطحان ما زدتم» .

مسلم بن رومان عن أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «من أعطى فى صداق ملء كفيه سويقًا أو تمرًا فقد استحل» .

وعن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ تزوج بامرأة على عشرة دراهم .

أحمد بن حنبل عن الحسن بن عبد العزيز قال : كتب إلينا ضمرة عن إبراهيم بن عبد الله الكنانى أن سعيد بن المسيب زوج ابنته على درهمين .

وكيع عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى شيبة عن جدّه قال : قال رسول الله ﷺ : «من استحل بدرهم فقد استحل» قال وكيع : فى النكاح .

وعن عبد الله بن يزيد مولى الأسود أن رجلاً تسرَّ جارية له فكرهها ، فقال له رجل : هبها لى ، فوهبها له فذكر ذلك لسعيد بن المسيب ، فقال : إن الهبة لم تجز لأحد بعد رسول الله ﷺ ولو أصدقها سوطًا لحلت .

المغيرة عن إبراهيم قال : السنة فى الصداق الرطل من الورق ، كانوا يكرهون أن يكون مهر الحرائر مثل مهور البغايا بالدرهم والدرهمين ، ويحبون أن يكون عشرين درهمًا .

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ
نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم
بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا
مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم
بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ
ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ
غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ نزلت في حصن بن أبي قيس تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن، وفي الأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه، وفي صفوان بن أمية بن خلف تزوج بامرأة أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب، وفي منصور بن مازن تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة، وفي (أبي مكيل) العدوي تزوج امرأة أبيه.

وقال الأشعث بن يسار: توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالت: إني أعدك ولدًا وأنت من صالح قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته، فقال لها رسول الله ﷺ: «ارجعي إلى بيتك» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟

﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

(ما) بمعنى من، وقيل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ النكاح يعنى ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ اسم الجنس ليدخل فيه الحرائر والإماء، أما الحرائر فتحرم بالعقد، والإماء بالوطء.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قال المفضّل: يعنى بعد ما سلف فدعوه واجتنبوه.

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا زكريا العنبرى يقول: معناه كما قد سلف ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ يورث بغض الله، والمقت أشد البغض ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس ذلك طريقًا. كانت العرب يقولون لولد الرجل من امرأة أبيه مقيت ومقى، وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن عمرو بن أمية.

السدى عن عدى بن ثابت عن البراء قال: لقيت خالى ومعه الراية فقلت: أين تريد؟ فقال: أرسلنى رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج بامرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه أو أقتله.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ هى جمع أم، والأم فى الأصل أمهة على وزن فعلة، مثل قبرة وحمرة فسقطت الهاء فى (التوحيد وعادت) فى الجمع كقولهم: شاه ومياه.

قال الشاعر:

❖ أمهتى خندف والروس أبى ❖

وقيل: أصل الأم أمة، وأنشدوا:

تقبلتها عن أمة لك طالما ... تثوب إليها فى النوائب أجمعا

فيكون الجمع حينئذ أمهات. ومثاله فى الكلام عمّة وعمّات.

وقال الراعى:

كانت نجائب منذر ومحرق ... أماتهن وطرقهن فحيلا

فحرم الله تعالى فى هذه الآية نكاح أربع عشرة امرأة: سبعًا بنسب وسبعًا بسبب، فأما النسب قوله: ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ فهى أمهات النسب ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ جمع البنت ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ جمع الأخت ﴿وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ﴾ جمع العمّة والخالة ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾.

وأما السبب فقوله: ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وهى أمهات الحرمة كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦) ثم قال: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ (الأحزاب: ٥٣). وقرأ عبد الله: (واللائى) بغير تاء كقوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ (الطلاق: ٤).

قال الشاعر:

من اللائى لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

عروة عن عائشة عن النبى ﷺ قال: «ما حرمته الولادة حرمه الرضاع».

ومالك بن أنس عن عبد الله بن أبى بكر عن عميرة عن عائشة عن النبى ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

الأعمش عن سعيد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على كرم الله وجهه قال: قلت يا رسول الله مالك تنوق فى قريش وتدعنا قال: «وعندك أحد؟» قلت: نعم بنت حمزة، قال رسول الله ﷺ: «إنها لا تحل لى إنها ابنة أخى من الرضاعة».

وهب بن كيسان عن عروة عن عائشة: أن أبا القعيس. وهو أفلح. استأذن على عائشة بعد آية الحجاب، فأبت أن تأذن له فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «ائذنى له فإنّه عمك فقالت: إنما أرضعتنى المرأة ولم يرضعنى الرجل، قال: «إنه عمك فليلج عليك».

وإنما يحرم الرضاع بشرطين اثنين أحدهما: أن يكون خمس رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفى رسول الله ﷺ وهى ممّا يقرأ من القرآن.

وروى عبد الله بن الحارث عن أم الفضل: أن نبى الله ﷺ سُئل عن الرضاع فقال: «لا تحرم الأملاجة ولا الأملاجتان».

قال قتادة: المصة والمصتان.

والشرط الثانى: أن يكون من الحولين، وما كان بعد الحولين فإنه لا يحرم، وكان أبو حنيفة يرى ذلك بعد الحولين ستة أشهر.

ومالك: بعد الحولين شهرًا، والدليل على أن ما بعد الحولين من الرضاع بقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣) وليس بعد الكمال والتمام شىء، وقول النبى ﷺ: «لا رضاع بعد الحولين، وإنما الرضاع ما أنبت اللحم وأنشر العظم».

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أم المرأة حرام دخل بها أو لم يدخل، وهو قول أكثر الفقهاء، وعليه الحكم والفتيا، وقد شدد أهل العراق فيها حتى قالوا: لو وطأها أو قبّلها أو لامسها بالشهوة حرمت عليه ابنتها. وعندنا إنما يحرم بالنكاح الصحيح، والحرام لا يحرم الحلال، وكان ابن عباس يقرأ (وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن) ويحلف بالله ما نزل إلاّ هكذا ويقول: هى بمنزلة الربائب، فلما كانت الربائب لا يحرمن بالعقد على أمهاتهن دون الوطء، كذلك أمهات النساء لا يحرمن بالعقد على بناتهن دون الوطء، وهو قول على وزيد وجابر وابن عمر وابن الزبير قالوا: نكاح أمهات النساء اللواتى لم يدخل بهن حلال، والقول الأول هو الأصح.

قال ابن جريج : قلت لعطاء : الرجل ينكح المرأة ثم يراها ولا يجامعها حتى يطلقها ، أيحل له أُمّها؟ قال : لا ، هى مرسلة دخل بها أو لم يدخل . فقلت له : كان ابن عباس يقرأ : (وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن) قال : لا .

وروى عمرو بن المسيب عن أبيه عن جدّه عن النبى ﷺ قال : «إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل وإذا تزوج الأم ولم يدخل ، بها ثم طلقها فإن شاء تزوج بالبنت» .

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ جمع الربيبة وهى بنت المرأة ، قيل لها : ربيبة ، لتربيته إياها ، فعيلة بمعنى مفعولة ﴿ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ أى فى ضمانكم وتربيتكم ، يقال : فلان فى حجر فلان إذا كان يلى تربيته ، ويقال : امرأة طيبة الحجر إذا لم تُربّ ولدًا إلاّ طيب الولد .

قال الكميت :

الكرمات (نسبة) فى قريش (وسواهم) والطيبات الحجورا

ومنه قيل للحظر حجر ، والأصل فيه الناحية ، يقال : فلان يأكل فى حجره ويريض حجره .

﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أى جامعتموهن ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو متن عنكم .

روى الزهرى عن عروة : أن زين بنت أبى سلمة وأمها أم سلمة زوج النبى ﷺ أخبرته أن أم حبيبة بنت أبى سفيان أخبرتها أنها قالت : يا رسول الله انكح أختى قالت : فقال لى رسول الله ﷺ : «أو تحبين ذلك؟» قلت : نعم ليست لك بمخلية وأحب من يشاركنى فى خير أختى . فقال النبى ﷺ «إنّ ذلك لا يحلّ لى» . فقلت : والله يا رسول الله إنّا لنتحدث أنك تريد أن تنكح درّة بنت أبى سلمة فقال : «بنت أم سلمة؟» فقلت : نعم ، قال : «والله إنها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى إنها لبنت أخى من الرضاعة أرضعتنى وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضن علىَّ بناتكن ولا أخواتكن» .

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ يعنى أزواج أبنائكم ، والذكر حليل ، وجمعه أحلّة وأحلاّء ، مثل عزيز وأعزة وأعزّاء ، وإنما سمّى بذلك لأن كل واحد منهما حلال لصاحبه ، يقال : حلّ وهو حليل ، مثل صحّ وهو صحيح ، وقيل : سمّى بذلك لأن كل واحد منهما يحلّ حيث يحلّ صاحبه من الحلول وهو النزول ، وقيل : لأن كلّ واحد منهما يحل إزار صاحبه ، من الحل وهو ضد العقد .

قال الشاعر:

يدافع قومًا على مجدهم	دفاع الحليلة عنها الحليلا
يدافعـــه يومهـــا تارة	ويمكنه رجلها أن يشـولا

﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ دون من تبنيتموهم.

قال عطاء: نزلت فى محمد ﷺ حين نكح امرأة زيد بن حارثة.

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ حرّتين كانتا بالعقد أو أمتين بالوطء ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾.

قال عطاء والسدى: يعنى إلاّ ما كان من يعقوب (عليه السلام)، فإنه جمع بين ليا أم يهوذا وراحيل أُم يوسف وكانتا أُختين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية.

قال عمرو بن مرّة: قال رجل لسعيد بن جبير: أما رأيت ابن عباس حين يُسأل عن هذه الآية ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فلم يقل فيها شيئًا، فقال سعيد: كان لا يعلمها.

وقال مجاهد: لو أعلم من يفسّر فى هذه الآية لضربتُ إليه أكباد الإبل، قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

قال المفسرون: هذه السابعة من النساء اللواتى حُرّمن بالسبب.

قرأه العامة: (والمحصَنات) بفتح الصاد، يعنى فى زوال الأزواج أحصنهنّ أزواجهن.

قال أبو سعيد الخدرى: نزلت فى نساء كُنَّ يهاجرن إلى رسول الله ﷺ ولهنّ أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين، ثم يقدم أزواجهن مهاجرين، فنهى المسلمين عن نكاحهنّ ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ يعنى السبايا اللاتى سبين ولهم أزواج فى دار الحرب، فحلال لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء.

فقال أبو سعيد الخدرى: بعث رسول الله ﷺ يوم حنين جيشًا إلى أوطاس، فلقوا العدو فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين، فكرهوا وطأهنّ وتأثموا من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقرأ علقمة: (والمحصِنات) بكسر الصاد، ودليله قول عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وعبيدة وأبى العالية والسدى، قالوا: والمحصنات فى هذه الآية والعفائف ومعناها: والعفائف من النساء عليكم حرام إلاّ ما ملكت إيمانكم منهن بنكاح أو ملك يمين وثمن، وقيل: معناه الحرائر.

قال الباقر ويمان: معناه والمحصنات من النساء عليكم حرام ما فوق الأربع، إلا ما ملكت

أيمانكم فإنه لا عدد عليكم فيهن.

وقال ابن جريج: سألنا عطاء عنها فقال: معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أن تكون لك أَمة عند عبد لك قد أحصنها بنكاح وتنزعها منه إن شئت.

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ نصب على المصدر، أي كتب الله عليكم كتابًا، وقيل: نصب على الإغراء، أي الزموا واتقوا كتاب الله عليكم.

وقرأ ابن السميقع: (كتب الله عليكم) أي أوجب، وهذه أربع عشرة امرأة، محرمات بالكتاب.

فأما السنّة: فقد حرّمت امرأتين، وهو ما روى هشام عن محمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تنكح المرأة على عمّتها ولا على خالتها».

﴿وَأَحِلَّ لَكُم﴾ قرأ أبو جعفر وأهل الكوفة: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ بضم الألف.

الباقون: بالنصب، وهي قراءة علي وابن عباس واختيار أبي عبيد وأبي حاتم، فمن رفع فلقوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾، ومن نصب، فللقرب من ذكر الله في قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾.

﴿مَّا وَرَآءَ﴾ ما سوى ﴿ذَالِكُمْ﴾ الذي ذكرت من المحرمات ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ بدل من (ما) فمن رفع أحلّ فـ (إن) عنده في محل الرفع، ومن نصب فـ (إن) عنده في محل النصب.

قال الكسائي والفراء: موضعه نصب في القراءتين بنزع الخافض، يعني: لأن تبتغوا وتطلبوا.

﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ إما بنكاح وصداق أو بملك وثمن ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ مُتعففين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ زانين، وأصله من سفح المذي والمني ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ اختلف في معنى الآية: فقال مجاهد والحسن: يعني ممّا انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح.

﴿فَـَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن، فإذا جامعها مرّة واحدة فقد وجب لها المهر كاملاً.

وقال آخرون: هو نكاح المتعة، ثم اختُلف في الآية أمحكمة هي أم منسوخة؟

فقال ابن عباس: هي محكمة ورخّص في المتعة، وهي أن ينكح الرجل المرأة بولي وشاهدين إلى أجل معلوم، فإذا انقضى الأجل فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها وليس بينهما ميراث.

قال حبيب بن أبي ثابت: أعطاني ابن عباس مصحفًا فقال: هذا على قراءة أُبي، فرأيت في المصحف (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى).

وروى داود عن أبى نضرة قال : سألت ابن عباس عن المتعة فقال : أما تقرأ سورة النساء؟ قلت : بلى ، قال : فما تقرأ : (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمّى)؟ قلت : لا أقرأها هكذا. قال ابن عباس : والله لهكذا أنزلها الله ، ثلاث مرّات .

وروى عيسى بن عمر عن طلحة بن مصرف أنه قرأ : (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمّى) .

وروى عمرو بن مرّة عن سعيد بن جبير : أنه قرأها : (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمّى) .

وروى شعبة عن الحكم قال : سألته عن هذه الآية : ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ أمنسوخة هى؟ قال : لا . قال الحكم : قال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنا إلاّ شقى .

أبو رجاء العطاردى عن عمران بن الحصين قال : نزلت هذه الآية (المتعة) فى كتاب الله ، لم تنزل آية بعدها تنسخها ، فأمرنا بها رسول الله ﷺ وتمتعنا مع رسول الله ﷺ ولم ينهنا عنه ، وقال رجل بعد برأيه ما شاء!

قال الثعلبى : قلت ولم يرخص فى نكاح المتعة إلاّ عمران بن الحصين وعبد الله بن عباس وبعض أصحابه وطائفة من أهل البيت ، وفى قول ابن عباس .

يقول الشاعر :

أقول للرّكب إذ طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك فى فتوى ابن عباس
هل فى رخصة الأطراف ناعمة ... تكون مثواك حتى مرجع الناس

وسائر العلماء والفقهاء والصحابة والتابعين والسلف الصالحين على أن هذه الآية منسوخة ومتعة النساء حرام .

وروى الربيع بن بسرة الجهنى عن أبيه قال : كنّا مع رسول الله ﷺ فى عمرته فشكونا إليه العزبة ، فقال : «يا أيها الناس استمتعوا من هذه النساء» ثم صبحت غاديًا على رسول الله فإذا هو يقول : «يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء إلاّ إن الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة» .

وقال خصيف : سألت الحسن عن نكاح المتعة ، فقال : إنما كان ثلاثة أيام على عهد رسول الله ﷺ ثم نهى الله عزّ وجلّ عنه ورسوله ﷺ .

وقال الكلبى : كان هذا فى بدء الإسلام ، أحلّها رسول الله ﷺ بثلاثة أيام ثم حرمّها ،

وذلك أنه كان إذا تم الأجل الذى بينهما أعطاها أجرها الذى كان شرط لها، ثم قال: زيدينى فى الأيام فأزيدك فى الأجر، فإن شاءت فعلت ذلك، فإذا تم الأجل الذى بينهما أعطاها الأجر وفارقها، ثم نسخت بآية الطلاق والعدة والممات.

وروى الزهرى عن الحسن وعبد الله ابنى محمد بن على بن أبى طالب عن أبيهما أن عليًا قال لابن عباس: نهى رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل الحمر الأهلية.

وروى الفضل بن دكين عن البراء بن عبد الله القاص عن أبى نضرة عن ابن عباس أن عمر (رضى الله عنه) نهى عن المتعة التى تذكر فى سورة النساء فقال: إنما أحل الله ذلك على عهد رسول الله ﷺ والنساء يومئذ قليل، ثم حرّم عليهم بعد أن نهى عنها.

وعن سالم بن عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه فقال: ما بال رجال ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله ﷺ عنها لا أجد رجلاً ينكحها إلاّ رجمته بالحجارة.

وقال النبى ﷺ: «هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث».

وقال ابن أبى مليكة: سألت عائشة عن المتعة فقالت: بينى وبينهم كتاب الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ﴾ (المؤمنون ٥ ـ ٦).

وعن عائشة: والله ما نجد فى كتاب الله إلاّ النكاح والاستبراء. وقال ابن عمر: المتعة سفاح.

عطاء: المتعة حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير.

قال الثعلبى: سمعت أبا القاسم بن جبير يقول: سمعت أبا على الحسين بن أحمد الخياط يقول: سمعت أبا نعيم بن عبد الملك بن محمد بن عدى يقول: سمعت . . . .[1] يقول: الشافعى يقول: لا أعلم فى الإسلام شيئًا أحل ثم حرّم ثم أحل ثم حُرّم غير المتعة.

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أى مهورهن، سمّى المهر أجرًا، لأنه ثمن البضع وأجر الاستمتاع ألا تراهُ يتأكد بالخلوة والدخول.

واختلفوا فى حدّه، فأكثره لا غاية له، وأما أقلّه فقال أبو حنيفة: لا مهر دون عشرة دراهم أو قيمتها من الذهب، لأن الله عزّ وجلّ قال: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ ولا يطلق اسم المال على أقل من هذا القدر.

وعند الشافعى: لا حدّ له، فأجاز الشىء الطفيف حتى القبضة من الطعام، وكذلك كل

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عمل أوجب أجرًا قليلاً كان أو كثيرًا، والسورة من كتاب الله عزّ وجلّ أو آية لقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

وعن سلمة بن وردان قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سأل رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه، فقال: «يا فلان هل تزوجت؟» قال: لا، وليس عندى ما أتزوج به، قال: «أليس معك ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١) ؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ (النصر: ١)؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (الكافرون: ١)؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزال: ١)؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك آية الكرسى؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «تزوج تزوج تزوج».

وقد ذكرت حجج الفريقين فيما قيل:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ يعنى فيما تفتدى به المرأة نفسها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ فضلاً وسعة.

المسيب بن شريك عن عمران بن جرير عن النزال بن سبرة عن ابن عباس قال: من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحُرّم عليه نكاح الإماء.

﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ الحرائر، وقرأ الكسائى: (المحصِنات) بكسر الصاد، كل القرآن إلاّ فى أول هذه السورة، الباقون: بالفتح.

﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ إلى قوله ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ سادتهن ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من غير ضمار ﴿مُحْصَنَـٰتٍ﴾ عفائف ﴿غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ زانيات ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أحباب يزنون بهن فى السر.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ قرأ أهل الكوفة: بفتح الألف، على معنى حفظن فروجهن، وقرأ الآخرون: بالضم، على معنى أنهنّ أُحصنّ بأزواجهنّ ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ يعنى الزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ الحرائر إذا زنين ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعنى الحدّ، نظيره: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ (النور: ٨) وهو خمسون جلدة وتغريب نصف سنة على الصحيح من مذهب الشافعى، ويحتاج أن يغرّب الزانى إلى موضع يقصر إليه الصلاة، وللسيد إقامة الحدّ بالزنا على عبده وأمته.

سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يغيرها، فإن عادت فليجلدها ولا يغيرها، فإن عادت فليجلدها ولا يغيرها، فإن عادت الرابعة

فليبعها ولو بضفير أو حبل».

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعنى نكاح الإماء عند عدم الطول ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يعنى الإثم والضرر بغلبة الشهوة ﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ عن نكاح الإماء متعففين ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

عن يونس بن مرداس وكان خادمًا لأنس قال: كنت بين أنس وأبى هريرة، فقال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبّ أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر».

فقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحرائر صلاح البيت والإماء فساد البيت».

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أى أن يبيّن، (اللام) بمعنى أن، والعرب تعاقب بين لام كى وبين أن فتضع إحداهما مكان الأُخرى كقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (الشورى: ١٥) وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٧١)، ثم قال فى موضع آخر: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٦)، وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (الصف: ٨)، ثم قال فى موضع آخر: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٢).

وقال الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

يريد أن أنسى، ومعنى الآية: يريد الله أن يبيّن شرائع دينكم ومصالح أمركم.

الحسن: يعلمكم ما تأتون وما تذرون. عطاء: يبين لكم ما يقربكم منه. الكلبى: ليبيّن لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾ شرائع ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فى تحريم الأمهات والبنات والأخوات، كما ذكر فى الآيتين. هكذا حرّمها على من كان قبلكم من الأمم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبيّن لكم، قاله الكلبى.

وقال محمد بن جرير: يعنى يرجع بكم من معصيته التى كنتم عليها قبل هذا إلى طاعته التى أمركم بها فى هذه الآية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده من أمر دينهم ودنياهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى تدبيره فيهم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إن وقع تقصير منكم فى أمره ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا﴾ عن الحق ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بإتيانكم ما حرّم عليكم، واختلفوا فى الموصوفين باتباع الشهوات من هم:

فقال السدى: هم اليهود والنصارى.

وقال بعضهم: هم اليهود، وذلك أنهم ينكحون بنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرّمهما الله قالوا: إنكم تحلّون بنات الخالة والعمّة، والخالة والعمّة عليكم حرام، فانكحوا بنات الأخ

والأخت كما تنكحون بنات الخالة والعمّة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

مجاهد: هم الزناة، يريدون أن تميلوا عن الحق فتكونوا مثلهم تزنون كما يزنون.

ابن زيد: هم جميع أهل الكتاب فى دينهم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فى نكاح الأمة، إذا لم تجدوا طول الحرة وفى كل أحكام الشرع ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ فى كل شىء.

طاوس والكلبى وأكثر المفسرين: يعنى فى أمر الجماع لا يصبر على النساء ولا يكون الإنسان فى شىء أضعف منه فى أمر النساء.

قال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من ابن آدم إلاّ أتاه من قبل النساء، وقد أتى علىّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عينىّ وأنا أعشى بالأخرى، وأن أخوف ما أخاف علىّ فتنة النساء.

مالك بن شرحبيل قال: قال عبادة بن الصامت: ألا تروننى لا أقوم إلاّ رفدًا ولا آكل إلاّ ما لوق لى وقد مات صاحبى منذ زمان، وما يسرنى أنى خلوت بامرأة لا تحل لى وأن لى ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتينى الشيطان فيحكيه علىّ أنه لا سمع له ولا بصر.

قال الحسن: هو أن خلقه من ماء مهين بيانه قول الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ (الروم: ٥٤).

ابن كيسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ يستميله هواه وشهوته ويستطيشه خوفه وحزنه.

قال ابن عباس: ثمانى آيات فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (النساء: ٢٦)، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ (النساء: ٢٨)، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ (النساء: ٤٨)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠)، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ (النساء: ١٤٧).

❖ ❖ ❖

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ

ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا
فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ
لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ
وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالحرام يعني الربا والقمار والقطع والغصب والسرقة والخيانة.

وقال ابن عباس: هو الرجل يشترى من الرجل الثوب فيقول: إن رضيت أخذته وإلاّ رددته ورددت معه درهمًا، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ يعني لكن إذا كانت تجارة استثناء منقطع، لأن التجارة ليست بباطل.

قرأ أهل الكوفة: (تجارة) بالنصب وهو اختيار أبي عبيد.

وقرأ الباقون: بالرفع وهو اختيار أبي حاتم، فمن نصب فعلى خبر كان تقديره: إلاّ أن تكون الأموال تجارة.

كقول الشاعر:

❖ إذا كان طاعنًا بينهم وعناقًا ❖

ومن رفع فعلى معنى إلا أن تقع تجارة وحينئذ لا خبر له. كقول الشاعر:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

ثم وصف التجارة فقال: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ يرضى كل واحد منهما بما في يديه.

قال أكثر المفسرين: هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد عقد المبيع حتى يتفرقا من مجلسهما الذي تعاقدا فيه، كقول النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا».

وقال ﷺ: «البيع عن تراض بالخيار بعد الصفقة ولا يحلّ لمسلم أن يغش مسلمًا».

وروى حكيم بن حزام عن النبى ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، فإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما».

وابتاع عمر بن جرير فرسًا ثم خير صاحبه بعد البيع، ثم قال: سمعت أبا هريرة يقول: هذا البيع عن تراض.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعنى إخوانكم، أى لا يقتل بعضكم بعضًا.

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبى عن جدّى عن على بن الحسين الهلالى قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول: سأل الفضل بن عياض عن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظ نفسه فكأنه قتلها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

عبد الرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص أنه قال: لما بعثه رسول الله عام ذات السلاسل قال: احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمّمت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟».

قلت: نعم يا رسول الله إنى احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك وذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا.

وعن الحسن: أن الحارث بن عبد الله خلا بالنفر من أصحابه وقال: إن هؤلاء ولغوا فى دمائهم فلا يحولنّ بين أحدكم وبين الجنة ملء كف من دم مسلم أهراقه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلاً ممّن كان قبلكم خرجت به قرحة بيده فأخذ حزة فحزّها بيده حتى قطعها فما رقأ دمها حتى مات فقال ربّكم تعالى: بادرنى ابن آدم بنفسه فقتلها فقد حرمت عليه الجنة».

سماك عن جابر بن سمرة: أن رجلاً ذبح نفسه فلم يصل عليه النبى ﷺ.

حماد بن زيد عن عاصم الأسدى: ذكر بأن مسروق بن الأجدع أتى صفين فوقف بين الصفين ثم قال: يا أيها الناس أنصتوا، ثم قال: أرأيتم لو أنّ مناديًا ناداكم من السماء فسمعتم كلامه ورأيتموه فقال: إن الله ينهاكم عمّا أنتم فيه، أكنتم مطيعيه؟ قالوا: نعم. قال: فوالله لنزل بذلك جبرئيل على محمد فما زال يأتى من هذا ثم تلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ

﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ الآية ثم انساب فى الناس فذهب.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرت من المحرمات ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ ندخله فى الآخرة ﴿نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّنًا ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية.

اختلفوا فى الكبائر التى جعل الله اجتنابها تكفيرًا للصغائر.

فروى عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: «أن تزنى بحليلة جارك» هذا الحديث من قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ (الفرقان: ٦٨) الآية.

صالح بن حيان عن أبى بُريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضول الماء بعد الرى».

الشعبى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكبائر الإشراك بالله، واليمين الغموس، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التى حرّم الله، وقول الزور. أو قال: شهادة الزور».

سفيان عن سعد بن إبراهيم عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمرو قال: من الكبائر أن يشتم الرجل والديه. قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أُمّه فيسب أُمّه.

أبو الطفيل عن ابن مسعود قال: الكبائر أربع: الإشراك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله.

عكرمة عن عمار قال: حدثنا طيسلة بن على النهدى قال: سألت ابن عمر عن الكبائر، فقال: هى تسع قلت ما هن؟ قال: الإشراك بالله تعالى، وقتل المؤمن متعمدًا، وعقوق الوالدين المسلمين، وأكل الربا، وأكل أموال اليتامى، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف، والسحر، واستحلال الميتة قبلكم أحياءً وأمواتًا.

وقال جعفر الصادق: الكبائر ثلاث: تركك ملتك، وتبديلك سنّتك، وقتالك أهل صفقتك.

وقال فرقد المسيحى: قرأت فى التوراة: أُمهات الخطايا ثلاث وهى: أول ذنب عصى الله به الكبر، وكان ذلك لإبليس عليه اللعنة، والحرص، وكان ذلك لآدم (عليه السلام)، والحسد، وكان لقابيل حين قتل هابيل.

عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الكبائر أولهنّ: الإشراك بالله، وقتل النفس بغير حقها وأكل الربا وأكل مال اليتيم بدارًا أن يكبر والفرار من

الزحف ورمى المحصنة والانقلاب على الأعراب بعد الهجرة فهذه سبع».

سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن رجلاً سأله عن الكبائر السبع، قال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى السبع إلاّ أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

على بن أبى طلحة الوالبى عن ابن عباس قال: الكبائر عشرون: الشرك بالله عزّ وجلّ، وعقوق الوالدين، وقتل المؤمن، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله، والسحر، والزنا والربا، والسرقة، وأكل مال اليتيم، وترك الصلاة، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وقتل الولد خشية أن يأكل معك، والحسد، والكبر، والبهتان، والحرص، والحيف فى الوصية، وتحقير المسلمين.

السدى عن ابن مالك قال: ذكروا الكبائر عند عبد الله فقال عبد الله: افتحوا سورة النساء، وكل شىء نهى الله عنه حتى ثلاث وثلاثين آية فهو كبيرة، ثم قال: مصداق ذلك ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية.

وقال ابن سيرين: ذكر عند ابن عباس الكبائر فقال: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، حتى الطرفة وهى النظرة.

سعيد بن جبير عنه: كل شىء عصى الله فيه فهو كبيرة، فمن عمل شيئًا منها فليستغفر، فإن الله لا يخلد فى النار من هذه الأمة إلاّ راجعًا عن الإسلام أو جاحد فريضة أو مكذبًا بقدر.

على بن أبى طلحة عنه: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب.

سعيد بن جبير: كل ذنب نسبه الله إلى النار وأوعد عليه النار فهو كبيرة.

الحسن: الموجبات للحدود.

الضحاك: ما وعد الله تعالى عليه حداً فى الدنيا وعذابًا فى الآخرة.

الحسين بن الفضل: ما سمّاه الله فى كتابه القرآن كبيرًا أو عظيمًا، نحو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٢)، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١)، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٨)، ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٦)، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٣).

مالك بن معول: الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل الشينة.

وكيع: كل ذنب أصرّ عليه العبد فهو كبيرة، وليس من الكبائر ما تاب منه العبد واستغفر منه.

أحمد بن عاصم الأنطاكى: الكبائر ذنوب العمد، والسيئات الخطأ، والنسيان، والإكراه،

وحديث النفس، المرفوعة من هذه الأمة.

سفيان الثورى: الكبائر ما فيه المظالم بينك وبين العباد، والصغائر ما بينك وبين الله تعالى، لأن الله كريم يغفره، واحتجّ بقول النبى ﷺ: «ينادى يوم القيامة مناد من بطنان العرش يا أُمّة محمد إن الله عزّ وجلّ يقول: أمّا ما كان لى قبلكم فقد وهبتها لكم وبقى التبعات، فتواهبوا وادخلوا الجنة برحمتى».

المحاربى: الكبائر ذنوب المذنبين المستحلين مثل ذنب إبليس، والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم.

السدى: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبار والسيئات مقدماتها، وتبعاتها ما يجتمع فيه الصالح والفاسق، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها.

قال النبى ﷺ: «العينان تزنيان واليدان تزنيان ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه».

وقال قوم: الكبيرة ما قبح فى العقل والطبع مثل القتل والظلم والزنا والكذب ونحوها، والصغيرة ما نهى الله عنه شرعًا وسمعًا.

وقال: كل ذنب يتجاوز عنه بفضله يوم القيامة فهو صغيرة، وكل ذنب عذّب عليها بعدله فهو كبيرة. وقيل: الكبائر الذنوب الباطنة والسيئات الذنوب الظاهرة.

وقال بعضهم: الصغائر ما يستحقرونه العباد والكبائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته.

وقال أنس بن مالك: إنكم تعملون أعمالاً هى أدق من الشعر فى أعينكم كنّا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر.

وقال بعضهم: الكبائر الشرك وما يؤدّى إليه، وما دون الشرك فهو من السيئات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨).

فصل فى تفصيل أقاويل أهل التأويل فى عدد الكبائر مجموعة من الكتاب والسنة مقرونة بالدليل والحجة

أحدها: الإشراك بالله لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ (المائدة: ٧٢).

الثانى: الإياس من روح الله لقوله: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ (يوسف: ٨٧) الآية.

والثالث: القنوط من رحمة الله لقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦).

والرابع: الأمن من مكر الله لقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩).

والخامس: عقوق الوالدين لقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

والسادس: قتل النفس التى حرّم الله لقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ (النساء: ٩٣).

والسابع: قذف المحصنة لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ (النور: ٢٣) الآية.

والثامن: الفرار من الزحف لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ (الأنفال: ١٥) الآية.

والتاسع: أكل الربا لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: ٢٧٥) الآية.

والعاشر: السحر لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ (البقرة: ١٠٢) الآية.

والحادى عشر: الزنا لقوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (الفرقان: ٦٨).

والثانى عشر: اليمين الكاذبة لقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (آل عمران: ٧٧).

والثالث عشر: منع الزكاة لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ (التوبة: ٣٤) الآيتين.

والرابع عشر: الغلول لقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٦١).

والخامس عشر: شهادة الزور لقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ (البقرة: ٢٨٣) الآية.

والسادس عشر: الميسر وهو القمار لقوله: ﴿وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ (المائدة: ٩٠).

والسابع عشر: شرب الخمر لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ (المائدة: ٩٠) الآية.

والثامن عشر: ترك الصلاة متعمدًا لقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٣٨) الآية.

والتاسع عشر: قطيعة الرحم لقوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١) وقوله: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ (محمد: ٢٢، ٢٣).

والعشرون: الحيف من الوصية لقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ (البقرة: ١٨٢) الآية.

والحادى والعشرون: أكل مال اليتيم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ (النساء: ١٠) الآية.

والثانى والعشرون: التغرب عند الهجرة لقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران: ١٤٤).

والثالث والعشرون: استحلال الحرم لقوله: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٢)، وقوله:

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ (الحج: ٢٥).

والرابع والعشرون: الارتداد لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ (محمد: ٢٥) الآية.

والخامس والعشرون: نقض العهد لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ (الرعد: ٢٥).

فذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ﴾.

وقرأ ابن مسعود: كبر ما تنهون عنه، على الواحد، وفيه معنى مع ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة ومن رمضان إلى رمضان ومن الحج إلى الحج، كما قال ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنب الكبائر».

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وهى الجنة.

وقرأ عاصم وأهل المدينة: (مدخلاً) بفتح الميم وهو موضع الدخول.

وقرأ الباقون: بالضم على المصدر، معنى الإدخال.

وروى عن أبى هريرة وعن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر ثم قال: «والذى نفسى بيده» ثلاث مرات ثم سكت فأقبل كل رجل منّا يبكى حزنًا ليمين رسول الله ﷺ ثم قال: «ما من عبد يأتى بالصلوات الخمس ويصوم رمضان ويجتنب الكبائر إلاّ فتحت له أبواب الجنة يوم القيامة حتى أنها لتصطفق» ثم تلا ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية.

يقال: جاءت وافدة النساء إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أليس الله ربّ الرجال والنساء وأنت رسول الله إليهم جميعًا، فما بالنا يذكر الله الرجال ولا يذكر النساء؟ نخشى أن لا يكون فينا خير ولا لله فينا حاجة؟ فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥) الآية، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (النحل: ٩٧).

وقيل: لمّا جعل الله للذكر مثل حظ الأُنثيين فى الميراث، قالت النساء: نحن أحوج إلى أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم، لأنا ضعفاء وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منّا، فنزّل الله هذه الآية.

وقال مجاهد: قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث، فليتنا رجال فنغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال، فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة والسدى: لما نزل قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، قال الرجال: إنا لنرجو أن يفضل علينا النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث، فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء. وقالت النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال فى الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم فى الدنيا، فأنزل الله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ من الثواب والعقاب ﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ كذلك، قاله قتادة، وقال أيضًا: هو أن الرجل يجزى بالحسنة عشرة والمرأة تجزى بها عشرًا.

وقال ابن عباس: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الميراث، وللنساء نصيب منه ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، والاكتساب على هذا القول بمعنى الإصابة والإحراز، فنهى الله تعالى عن التمنى على هذا الوجه لما فيه من دواعى الحسد.

قال الضحاك: لا يحل لمسلم أن يتمنى مال أحد، ألم يسمع الذين قالوا: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ (القصص: ٧٩) إلى أن قال: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ (القصص: ٨٢) حين خسف بداره وأمواله يقولون: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ (القصص: ٨٢).

وقال الكلبى: لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا امرأته ولا خادمه ولا دابته، ولكن ليقل: اللهم ارزقنى مثله، وهو كذلك فى التوراة، وذلك قوله فى القرآن: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

قرأ ابن كثير وخلف والكسائى: (وَسلوا الله) وسل وفسل بغير همزة فنقل حركة الهمزة إلى السين. الباقون: بالهمزة.

قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإنه يحبّ أن يُسأل وأن من أفضل العبادة انتظار الفرج».

أبو صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من لم يسأل الله عزّ وجلّ من فضله غضب عليه».

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: سلوا ربّكم حتى الشبع من لم يُيسّره الله لم يتيسّر.

وقال سفيان بن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلاّ ليعطى.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ أى ولكل واحد من الرجال والنساء موالى، أى عصبة يرثونه ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ من ميراثهم له، والوالدون والأقربون على هذا التأويل هم الموروثون، وقيل: معناه ولكل جعلنا موالى، أى قرابة من الذين تركهم، ثم فسّر الموالى فقال: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أى هم الوالدان والأقربون خبر مبتدأ محذوف فالمعنى: من تركه الوالدان

والأقربون، وعلى هذا القول هم الوارثون ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ فى محل الرفع بالابتداء، والمعاقدة هى المعاهدة بين اثنين.

وقرأ أهل الكوفة: عقدت خفيفة بغير ألف أراد عقدت لهم ﴿أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ وقرأت أم سعد بنت سعد بن الربيع: (عقّدت) بالتشديد يعنى وثقته وأكدته، والأيمان جمع يمين من اليد والقسم، وذلك أنهم كانوا يضربون صفقة البيعة بأيمانهم، فيأخذ بعضهم بيد بعض على الوفاء والتمسك بالعهد ويتحالفون عليه، فلذلك ذكر الأيمان.

قتادة وغيره: أراد بالذين عاقدت أيمانكم الحلفاء، وذلك أن الرجل فى الجاهلية كان يعاقد الرجل فيقول: دمى دمُك وهدمى هدمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك وترثنى وأرثك وتطلب لى وأطلب لك وتعقل عنى وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف، وعاقد أبو بكر مولى له فورثه لذلك قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أى وأعطوهم حظهم من الميراث، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥).

وقال إبراهيم ومجاهد: أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والعقل والرفد، ولا ميراث، وعلى هذا القول تكون الآية غير منسوخة لقوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١)، ولقول رسول الله ﷺ: «أوفوا للحلفاء بعهودهم التى عقدت أيمانكم».

ولقوله (عليه السلام) فى خطبته يوم فتح مكة: «ما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به فإنه لم يزده الإسلام إلاّ شدة ولا تحدثوا حلفًا فى الإسلام».

وروى عبد الرحمن بن عوف، أنّ رسول الله ﷺ، قال: «شهدت حلف المطيبين وأنا غلام مع عمومتى، فما أحب أن لى حمر النعم وإنّى أنكثه»، وقال ابن عباس وابن زيد: نزلت هذه الآية فى الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ، من المهاجرين والأنصار حين أتوا إلى المدينة، وكانوا يتوارثون تلك المؤاخاة، ثم نسخ الله ذلك بالفرائض.

وقال سعيد بن المسيّب: نزلت فى الذين كانوا يتبنّون أبناء غيرهم فى الجاهلية، ومنهم زيد مولى رسول الله ﷺ، فأمروا فى الإسلام (أن) يوصوا إليهم عند الموت بوصية، وردّ الميراث إلى ذوى الرحم، وأبى الله أن يجعله يجعل للمدّعى ميراثًا ممّن ادّعاهم وتبنّاهم، ولكن جعل الله لهم نصيبًا فى الوصية، فذلك قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ وقال أبو روق: نزل قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾. الآية.

فى أبى بكر الصديق، وابنه عبد الرحمن، وكان كافرًا، أن لا ينفعه ولا يورثه شيئًا من ماله، فلمّا أسلم عبد الرحمن أُمر أن يؤتى نصيبه من المال.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. الآية. قال مقاتل: نزلت هذه الآية فى سعيد بن الربيع بن عمرو. وكان من النقباء. وفى امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير. وهما من الأنصار. وذلك أنها نشزت فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ، فقال: أفرشته كريمتى ولطمها، فقال النبى ﷺ: «لتقتصَّ من زوجها»، فانصرفت مع أبيها لتقتصَّ منه، فقال النبى ﷺ: «ليرجعوا، هذا جبرئيل»، وأُنزلت هذه الآية، وقال النبى ﷺ: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا، فالذى أراد الله خير»، ورُفع القصاص.

وقال الكلبى: نزلت فى أسعد بن الربيع وامرأته بنت محمد بن مسلم، وذكر نحوها أبو روق: نزلت فى جميلة بنت عبد الله بن أُبى، وفى زوجها ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنّها نشزت عليه فلطمها، فأتت النبى ﷺ تستعدى، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أى مسلّطون على تأديب النساء ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فليس بين الرجل وامرأته قصاص فيما دون النفس، فلو شجّ رجل امرأته، أو جرحها لم يكن عليه قود، وكان عليه العقل إلاّ التى يقتلها فيُقتل بها، قاله الزهرى وجماعة من العلماء، وقال بعضهم: ليس بين الزوج والمرأة قصاص إلاّ فى النفس والجرح.

والقوّامون: البالغون فى القيام عليهن بتعليمهنّ وتأديبهنّ وإصلاح أمرهنّ ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قيل: بزيادة العقل، وقيل: بزيادة الدّين واليقين، وقيل: بقوة العبادة، وقيل: بالشهادة، قال الله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، قال القرطى: بالتصرّف والتجارات، وقيل: بالجهاد، قال الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة: ٤١)، وقال للنساء: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، الربيع: الجمعة والجماعات، قال الحسن: بالإنفاق عليهنّ، قال الله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

وقال بعضهم: يمكن للرجل أن ينكح أربع نسوة، ولا يحلّ للمرأة غير زوج واحد، وقيل: هو أنّ الطلاق إلى الرجال وليس إليهنّ منه شىء، وقيل: بالدّية، وقيل: بالنبوّة، وقيل: الخلافة والإمارة، إسماعيل بن عياش . . . .[1] عن بعض أشياخه رفعه قال: قال رسول الله ﷺ: «المرأة مسكينة ما لم يكن لها زوج».

فقيل: يا رسول الله، وإن كان لها مال؟ قال: «وإن كان لها مال، الرجال قوّامون على النساء».

سعيد عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إن

(١) بياض بالأصل المخطوط.

نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها، ثم تلا ﷺ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ يعني لغيب أزواجهنّ إذا غابوا، وقيل: سرّهم ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي بحفظ الله لهنّ، وقرأ أبو جعفر بفتح الهاء، ومعناه: بحفظ من الله في الطاعة، وهذا كقوله عليه السلام: «احفظ الله يحفظك»، و(ما) على القراءتين مصدريّة، كقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ (يس: ٢٧)، أي يغفر لي ربّي.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن، وأصله من الحركة ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾، فإن نزعن عن ذلك وإلاّ ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾، وقيل: ولّوهنّ ظهوركم في المضاجع، فإن نزعن وإلاّ ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا غير مبرح ولا شائن.

ابن أبي ليلى عن داود بن علي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «علّق السوط حيث يراه أهل البيت». هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحدانا ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها.

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي لا (تطلبوا) عليهنّ بالذنوب، قال ابن عيينة: لا تكلفوهن الحبّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ۝ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ أي خلافًا بين الزوجين، ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ يتوسطون، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ يعني الزوجين وقيل: الحكمين، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ بالصلاح والألفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾.

وعن عبيدة السلماني قال: جاء رجل وامرأة عليًا (عليه السلام)، مع كل واحد منهما قيام من النّاس، فقال عليٌّ: «ما شأن هذين؟». قالوا: وقع بينهما شقاق. قال عليٌّ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قال: فبعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فقال عليٌّ للحكمين: «هل تدريان ما عليكما؟ إنّ عليكما إنْ رأيتما أن يُجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن يُفرقا فرقتما»، قالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما عليّ فيه ولي، فقال الرجل: أمّا الفرقة فلا، قال عليٌّ: «كذبت والله، لا تنقلب منّي حتى تقرّ بما أقرّت به».

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحّدوا الله وأطيعوه، قالت الحكماء: العبودية ترك العصيان، وملازمة الذلّ والانكسار، وقيل: العبودية أربعة أشياء: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرّضا بالموجود، والصبر على المفقود.

﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ برًا بهما وعطفًا عليهما. وقرأ ابن جني: (إحسانٌ)

بالرفع ، أى وجب الإحسان بهما ، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ عن أبى هريرة أن رجلاً شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : «إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم وأطعمه» .

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ : قرأ العامة بالخفض عطفًا على الكلام الأول ، وقرأ ابن أبى عبلة : ﴿وَٱلْجَارِ﴾ وما يليه نصبًا . و﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ذو القرابة ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ البعيد الذى بينك وبينه قرابة ، وقال الضحاك : هو الغريب من قوم آخرين ، وقرأ الأعمش والفضل : (والجار الجنب) بفتح الجيم وسكون النون ، وهما لغتان : رجل جَنْب وجُنُب وجانب وأجنب وأجنبىٌّ ، إذا لم يكن قريبًا ، وجمعها أجانب ، وقال الأعشى :

أتيت حريثًا زائرًا عن جنابة فكان حريث فى عطائى جامدا

أى عن غربة من غير قربة ، ومنه يقال : اجتنب فلان فلانًا ، إذا بعد منه ، ومنه قيل للمجنب : جنب لاعتزاله الصّلاة ، وبُعده من المسجد حتى يغتسل ، وقال نوف البكالى : الجار الجُنب هو الكافر ، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ يعنى الرفيق فى السفر ، قال ابن عباس ومجاهد وأبو جعفر وعكرمة وقتادة ، عن سعيد بن معروف بن رافع ، عن أبيه ، عن جدِّه قال : قال رسول الله ﷺ : «التمسوا الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق» .

وقال بعضهم : الجار الجُنب هو الجار اللاصق داره بدارك ، فهو إلى جنبك ، وقال على وعبد الله وابن أبى ليلى والنخعى : هو المرأة تكون معه إلى جنبه . ابن زيد وابن جريج : هو الذى يلزمك ويصحبك رجاء برِّك ورفدك . وقال ابن عباس : إنّى لأستحى أن يطأ الرجل بساطى ثلاث مرات لا يُرى عليه أثر من برّى . وقال المهلّب : إذا غدا عليكم الرجل وراح ، فكفى به مسألة وتذكرة بنفسه . وقد قال النبى ﷺ : «إنّ خير الأصحاب عند الله عز وجلّ خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره» .

عثمان بن عطا ، عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس بمؤمن من لا يؤمن جاره بوائقه ، فأيّما رجل أغلق أبوابه دون جاره ، فخافه على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن» . قالوا : يا رسول الله ، وما حق الجار؟ قال : «إن دعاك أجبته ، وإن أصابته فاقة عُدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عُدته ، وإن أصابه مصيبة عزّيته ، وإن توفى شهدت جنازته ، ولا تستعلُ عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلاّ بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلاّ أن يُغرف له منها ، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها ، وإن لم تفعل فأدخلها سرًا ، ولا يَخرج ولدك بها فيغيظ ولده» .

ثم قال ﷺ: «الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق، ومنهم من له حقّان، ومنهم من له حق واحد؛ فأما صاحب الثلاثة الحقوق: فالمسلم الجار ذو الرحم، له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم، وأمّا صاحب الحقّين: فالمسلم الجار له حق الإسلام وحق الجار، وأمّا صاحب الحق الواحد، فالمشرك الجار، له حق الجوار، وإن كان مشركًا».

أبو هشام القطان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من آذى جاره فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن حارب جاره فقد حاربنى، ومن حاربنى فقد حارب الله عزّ وجلّ».

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡۗ﴾ يعنى المماليك، عن أبى أُمامة أن رسول الله ﷺ دفع إلى أبى ذر غلامًا، فقال: «يا أبا ذر أطعمه مما تأكل واكسُه مما تلبس»، قال: لم يكن له سوى ثوب واحد فجعله نصفين، فراحَ إلى نبى الله ﷺ، فقال: «ما شأن ثوبك هذا؟»، فقال: إن الفتى الذى دفعته إلىّ أمرتنى أن أُطعمه مما آكل وأكسوه مما ألبس، وإنه لم يكن معى إلاّ هذا الثوب فناصفته، فقال رسول الله ﷺ: «أُشير عليك بأن تعتقه»، ثم قال رسول الله: «ما فعل فتاك؟» قال: ليس لى فتًى فقد أعتقته، قال: «آجرك الله يا أبا ذر».

الأعمش عن عتيق عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الغنم بركة، والإبل عزّ لأهلها، والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة، والعبد أخوك فإن عجز فأعنه».

وعن على (رضى الله عنه) قال: «كان آخر كلام رسول الله ﷺ الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالًا فَخُورًا﴾.

❖ ❖ ❖

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٍ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾ فى محل النصب رداً على (مَنْ) وقيل: (المختال الفخور)، ﴿يَبْخَلُونَ﴾ البخل فى كلام العرب: منع الرجل سائله ما لديه من فضل عنه، وفى الشرع: منع الواجب، وفيه أربع لغات: البَخَل بفتح الباء والخاء وهى قراءة أنس بن مالك وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحمزة والكسائى وخلف والمفضل ولغة الأنصار. والبَخْل ـ بفتح الباء وسكون الخاء ـ وهى قراءة قتادة وعبد الله بن سراقة، وأيّوب السجستانى، والبُخُل. بضم الباء والخاء ـ وهى قراءة عيسى بن عمرو. والبُخْل ـ بضم الباء وجزم الخاء ـ وهى قراءة الباقين، واختيار أبى عبيد وأبى مسلم لأنها اللغة العالية، وفى الحديد مثله. وكلُّها لغات، ونظيره فى الكلام: (أرض جَرز، وجُرُز، وجُرْز).

واختلف العلماء فى نزول الآية ومعناها، فقال أكثرهم: نزلت فى اليهود؛ كتموا صفة محمد ﷺ، ولم يبيّنوها للنّاس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم فى التوراة.

يمان عن أشعث عن جعفر عن سعيد بن جبير: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، قال هذا فى العلم ليس للدنيا منه شىء.

قال ابن عباس وابن زيد: نزلت فى كردم بن زيد وأُسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع ويحيى بن يعمر وحيى بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخالطونهم وينصحونهم، فيقولون لهم لا تنفقوا أموالكم؛ فإنّا نخشى عليكم الفقر، ولا ندرى ما يكون، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعنى المال.

وقال يمان: يعنى يبخلون بالصدقة. الفضل بن فضالة، عن أبى رجاء قال: خرج علينا عمران بن حصين فى مطرف من خزّ لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ إذا أنعم على عبد نعمة، أحبَّ أن يُرى أثر نعمته عليه».

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ إلى الأخير، محل الذين نصب عطفًا على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾. وإن شئت جعلته فى موضع الخفض عطفًا على قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ نزلت فى اليهود، وقال السدى: فى المنافقين، وقيل: فى مشركى مكة المتفقين على عداوة رسول الله ﷺ.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ صاحبًا وخليلاً، وهو فعيل من الاقتران، قال عدى ابن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ فبئس الشيطان قرينًا، وقد نصب على التميز، وقيل: على الحال، وقيل:

على القطع بإلقاء الألف واللام منه، كما نقول: نعم رجلاً عبد الله، تقديره: نعم الرجل عبد الله، فلمّا حذف الألف واللام نصب، كقوله ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٠)، ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ (الأعراف: ١٧٧)، و﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩)، ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ (الفرقان: ٦٦)، ﴿وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩)، ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ (غافر: ٣٥، الصف: ٣). قال المفسرون: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ أى يقول: ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٨).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ وما الذى عليهم ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخر الآية، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله؟ فإنّ الله لا يظلم. أى لا يبخس. ولا ينقص أحدًا من خلقه من ثواب عمله شيئًا مثقال ذرّة مثلاً، بل يجازيه بها ويثيبه عليها وهذا مثل أن يقول: إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة، فكيف بأكثر منها؟ والمراد من الكلام: لا يظلم قليلاً، لأن الظلم مثقال ذرّة لا ينتفع به الظالم، ولا يبين ضرره فى المظلوم. وقيل: . . . .[1]، ودليله من التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ (يونس: ٤٤) فى الدنيا.

واختلفوا فى الذرّة، فقال ابن عباس: هى النملة الحمراء الصغيرة، لا تكاد تبين فى رأى العين. وقال يزيد بن هارون: وزعموا أنّ الذرة ليس لها وزن، ويحكى أنّ رجلاً وضع خبزًا حتى علاه الذرّة يستره، فلم يزد على وزن الخبز شيئًا. ودليل هذا التأويل ما روى بشير بن عمرو عن عبد الله أنّه قرأ: (إنّ الله لا يظلم مثقال نملة).

يزيد بن الأصم عن ابن عباس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، قال: أدخل ابن عباس يده فى إناء ثم رفعها، ثم نفخ فيها، ثم قال: كلٌّ واحدة من هؤلاء ذرّة، وقال بعضهم: أجزاء الهباء فى الكوّة كلّ جزء منها ذرّة. وقيل: هى الخردلة.

وفى الجملة هى عبارة عن أقلّ الأشياء وأصغرها، روى أنس أنّ النبى ﷺ قال: «إنّ الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة، وأمّا الكافر، فيطعم بها فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، لم يكن له حسنة».

قتادة: كان بعض أهل العلم يقول: لئن يفضل حسناتى على سيئاتى وزن ذرّة أحبُّ إلىّ من أن يكون لى الدنيا جميعًا.

عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار يوم القيامة، وأمنوا فما مجادلة أحدكم صاحبه فى الحق يكون له فى الدنيا بأشدّ من

(١) بياض بالأصل المخطوط.

مجادلة المؤمنين لربّهم فى إخوانهم الذين أُدخلوا النار» ، قال : «يقولون : ربّنا إخواننا كانوا يُصلّون معنا ، ويصومون معنا ، ويحجّون معنا ، فأدخلتهم النار؟ فيقول الله عزّ وجلّ: اذهبوا وأخرجوا من عرفتم ، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم ، لا تأكل النار صورهم ، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من أخذته إلى كعبه ، فيخرجونهم فيقولون : ربّنا أخرجْنا من أَمرتَنا ، ثم يقول تعالى : أخرجوا من كان فى قلبه وزن دينار من الإيمان ، ثم من كان فى قلبه وزن نصف دينار ، حتى يقول : من كان فى قلبه مثقال ذرّة» .

وقال أبو سعيد : فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ...﴾ .

قال : «فيقولون : ربّنا قد أخرجنا من أمرتنا ، فلم يبقَ فى النار أحد فيه خير» . قال : «ثم يقول الله عزّ وجلّ: شفعت الملائكة ، شُفع الأنبياء ، وشُفع المؤمنون ، وبقى أرحم الراحمين» ، قال : «فيقبض قبضة من النار . أو قال : «قبضتين» . ممن لم يعملوا له عزّ وجلّ خيراً قط ، قد احترقوا حتى صاروا حمماً ، قال : فيؤتى بهم إلى ماء يقال له ماء الحياة فيصبّ عليهم فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، فيخرجون وأجسادهم مثل اللؤلؤ فى أعناقهم الخاتم : (عتقاء الله عزّ وجلّ) ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شىء فهو لكم عندى أفضل من هذا» .

قال : «فيقولون : ربّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين!» . قال : «فيقول : إن لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون : ربّنا وما أفضل من ذلك؟» قال : «فيقول : رضائى عنكم فلا أسخط عليكم أبداً» .

وقال آخرون : هذا فى الخبر عن ابن . . . . [1] عن عبد الله بن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين ، ثم نادى مناد من عند الله : ألا من كان يطلب مظلمة إلى أخيه فليأخذ . قال : فيفرح والله المرء أن يكون له الحق على والده وولده أو زوجته أو أخيه ، فيأخذ منه ، وإن كان صغيراً ، ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون:١٠١) ، فيؤتى بالعبد وينادى مناد على رءوس الأشهاد الأولين والآخرين : هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق ، فليأت إلى جنبه ثمّ يقال له : آت هؤلاء حقوقهم . فيقول : من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله تعالى لملائكته : انظروا فى أعماله الصالحة فأعطوهم منها ، فإن بقى مثقال ذرّة من حسنة ، قالت الملائكة : ربّنا أنت أعلم بذلك منهم ، أعطينا كلّ ذى حق حقه وبقى له مثقال ذرّة من حسنة ، فيقول للملائكة : ضاعفوها

(١) بياض بالأصل المخطوط .

لعبدى وأدخلوه بفضل منّى الجنّة، ومصداق ذلك فى كتاب الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

وإن كان العبد شقيًا، فتقول الملائكة: إلهنا فنيت حسناته وبقيت سيئاته، وبقى طالبون كثير، فيقول عزّ وجلّ: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ثم صكّوا له صكًا إلى النار.

فمعنى الآية على هذا التأويل: لا يظلم مثقال ذرّة للخصم على الخصم، بل يثيبه عليها ويضاعفها له، وذلك قوله ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ قراءة العامة ﴿حَسَنَةٗ﴾ بالنصب على معنى: وإن يكن زنةُ الذرّة. وقرأها أهل الحجاز رفعًا، بمعنى أن يقع أو يوجد حسنة، وقال المبرّد: معناه وإن تك حسنة باقية يضاعفها.

وقرأ الحسن: (نضاعفها) - بالنون - الباقون: بالياء، وهو الصحيح؛ لقوله: ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ﴾ وقرأ أبو رجاء وأهل المدينة يُضعّفها. الباقون: يُضْعفها وهما لغتان معناهما التكثير. وقال أبو عبيدة: يضاعفها معناه يجعلها أضعافًا كثيرة، ويضعّفها بالتشديد يجعلها ضعفين.

﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ﴾ أى من عنده، قال الكسائى: فى (لدن) أربع لغات لدن، ولدى ولدُ ولدُنْ. ولمّا أضافوها إلى أنفسهم شدّدوا النون.

﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وهو الجنّة. عن أبى عثمان قال: بلغنى عن أبى هريرة أنه قال: إنّ الله عزّ وجلّ يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة، قال أبو هريرة: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعطيه ألفى ألف حسنة»، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾، إلى ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

وقال: «إذا قال الله: أجرًا عظيمًا، فمن بعد يدرى قدره؟».

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ يعنى فكيف يصنعون إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد حق منها، يشهد عليهم بما عملوا، ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾؟ نظيره فى البقرة والنحل والحج.

عاصم عن زر عن عبد الله قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ». فقرأت سورة النساء، حتى إذا بلغت، ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ دمعت عينا رسول الله ﷺ، وقال: «حسبنا».

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بفتح التاء وتشديد السين، على معنى: تتسوّى فأُدغمت التاء بالسين، وقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصمًا بفتح التاء وتخفيف السين، على حذف تاء تفعل، كقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ (هود: ١٠٥)،

وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول، قالوا: سُوِّيت بهم الأرض وصاروا هم والأرض شيئًا واحدًا، وقال قتادة وعبيدة: يعنى لو تحركت الأرض فساروا فيها، وعادوا إليها كما خرجوا منها، ثم تسوى عليهم حتى تعلوهم، ابن كيسان: ودوّا أنهم لم يبعثوا طرًا، وإنما نقلوا من التراب وكانت الأرض مستوية بهم. الكلبى: يقول الله عزّ وجلّ للبهائم والوحش والطير والسباع: كن ترابًا فتسوّى بها الأرض، فعند ذلك يتمنى الكافرون لو كانوا ترابًا يمشى عليهم أهل الجمع، بيانه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ (النبأ: ٤٠).

قال الثعلبى: وحكى أُستاذنا أبو القاسم الحسين أنّه سمع من تأول هذه الآية: يعدل بهم ما على الأرض من شىء فدية، بيانه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ (المعارج: ١١) الآية.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾: قال عطاء: ودّوا لو تسوّى بهم الأرض، وأنّهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ ولا نعته، وقال آخرون: بل هو كلام مستأنف، يعنى ويكتمون الله حديثًا؛ لأنّ ما عملوا لا يخفى على الله عزّ وجلّ، ولا يقدرون على كتمانه، الكلبى وجماعة: لا يكتمون الله حديثًا لأنّ خزنة جهنم تشهد عليهم.

سعيد بن جبير: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: أشياء تختلف علىّ فى القرآن، أهو شك فيه؟ قال: لا، ولكن اختلاف فى آيات الاختلاف عليك من ذلك، فقال: اسمع، الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣)، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقد كتموا، فقال ابن عباس: أمّا قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا يومَ القيامة أنّ الله يغفر لأهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنشهد فجحد المشركون، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاء أن يغفر لهم فيختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ الحسن: إنّها مواطن، ففى موطن لا يتكلمون ولا يسمع إلا همسًا، وفى موطن يتكلمون ويكذبون، ويقولون: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وما كنّا نعمل من سوء، وفى موطن يعترفون على أنفسهم، وهو قوله عزّ وجلّ ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ (الملك: ١١)، وفى موضع آخر يسألون الرحمة، وإنّ آخر تلك المواطن أنّ أفواههم تختم، وجوارحهم تتكلم، وهو قوله تعالى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يشربون الخمرة، ويشهدون الصلاة وهم نشاوى، فلا يدرون كم يُصلّون، ولا يدرون ما يقولون في صلواتهم، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ نشاوى من الخمر، جمع سكران، وقرأ النخعي: (جُنُبًا) وهما لغتان.

﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وتقرءون في صلاتكم، وكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصّلاة، حتى نزل تحريم الخمر في سورة المائدة. سلمة بن نبيط عن الضحاك بن مزاحم: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾، قال: لم يعنِ سكر الخمر، إنّما يعني سكر النوم.

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو في

الصّلاة ، فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنّه إذا صلّى وهو ينعس ، لعلّه يذهب فيستغفر فيسبّ نفسه» .

هشام بن عروة أيضًا عن أبيه عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا نعس الرجل وهو يصلّى ، فلينصرف فلعلّه يدعو على نفسه وهو لا يدرى» .

همام بن منبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه ، فلم يدرِ ما يقول ، فليضطجع» .

وروى عن عبيدة السلمانى فى هذه الآية أنّه قال : هو الحاقن ، دليله قوله ﷺ : «لا يصلينّ أحدكم وهو يدافع الأخبثين» .

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ نصب على الحال ، يعنى ولا تقربوا الصلاة وأنتم جُنب ، وقرأ إبراهيم النخعى : (جُنْبًا) بسكون النون ، يقال : رجل جنب ، ورجلان وامرأتان جُنب ، ورجال ونساء جُنب ، والفعل منه أجنب ـ يجنب ، وأصل الجنابة البُعد ، فقيل له : جنب لأنّه يجتنب حتى يتطهر ، ثم استثنى فقال : ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ واختلفوا فى معناها ، فقال بعضهم : إلاّ أن يكونوا مسافرين ولا يجدون الماء فيتيمّموا ، وهذا قول علىّ وابن عباس وابن جبير وابن زيد ومجاهد والحكم والحسن بن مسلم وابن كثير .

وقال الآخرون : معناه إلاّ مجتازين فيه للخروج منه مثل أن ينام فى المسجد ، فيجنب ، أو يكون الماء فيه ، أو يكون طريقه عليه ، فرخص له أن يمرّ عليه ولا يُقيم ، وعلى هذا القول تكون الصلاة بمعنى المصلّى والمسجد كقوله ﴿صَلَوَاتٌ﴾ (البقرة : ١٥٧) أى موضع الصلوات ، وهذا قول عبد الله وابن المسيّب وابن يسار والضحاك والحسن وعكرمة وإبراهيم وعطاء الخراسانى والنخعى والزيدى ، يدلّ عليه ما روى الليث عن يزيد بن أبى حبيب أنّ رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد ، فيصيبهم الجنابة ، ولا ماء عندهم فيريدون الماء ولا يجدون ممرًا للماء إلاّ فى المسجد ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية .

وأصل العبور : القطع يقال : عبر الطريق والنهر إذا قطعهما وجال فيهما .

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ جمع مريض . إسماعيل عن أبيه عن الحسين عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ألا إنّ مسجدى حرام على كلِّ حائض من النساء ، وعلى كلِّ جُنب من الرجال إلاّ على محمد وأهل بيته على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام» .

وأراد به مرضًا يضرّه مساس الماء كالجدرى والجروح والقروح ، أو كسر قد وضع عليه الجبائر ، فإنّه رخّص له فى التيمّم ، هذا قول جماعة من الفقهاء ، إلاّ ما ذهب إليه عطاء

والحسن أنه لا يتيمّم مع وجود الماء، واحتجا بقوله تعالى ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، وهذا واجد الماء.

وهذا غلط، لما روى عطاء عن جابر قال: خرجنا فى سفر وأصاب رجلاً معنا حجر فشجّه فى رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لى رخصة؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسلَ، فمات، فلمّا قدمنا على رسول الله ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، هلاّ سألوا إذا لم يعلموا، فإنّما شفاء العيّ السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيمّم ويعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده».

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ طويلاً كان أو قصيراً، فله التيمّم عند عدم الماء، فإذا لم يكن مرض ولا سفر لكنه عدم الماء فى موضع لا يُعدم فيه الماء . . . .[1]، مثل أن يكون فى مصر فانقطع الماء عنه رأسًا، أو فى قرية فانقطع ماؤها، ففيه ثلاثة مذاهب: ذهب الشافعى ومحمد بن الحسن إلى أنّ عليه التيمم والصّلاة ويعيد الصّلاة، وذهب مالك والأوزاعى وأبو يوسف إلى أنّه يتيمّم ويصلّى ولا إعادة عليه، وذهب أبو حنيفة إلى أنّه لا يتيمّم ولا يصلّى، ولكنّه يصبر حتى يجد الماء ويتوضأ ويصلّى.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ قرأ الزّهرى: (من الغيط)، والغيط والغوط والغائط كلُّها بمعنًى واحد، وهى الخبت المطمئن من الأرض، وقال مجاهد: هو الوادى، الحسن: الغور من الأودية، وتصوّب. المؤرّخ: قرارة من الأرض يحفها الكرم ويسترها، وجمعها غيطان، والفعل منه (غاط يغوط)، مثل (عاد يعود). وتغوّط يتغوّط، إذا أتى الغائط، وكانوا يتبرّزون هناك فكنّى عن الحدث بالغائط مثل العذرة والحدث، وهو ههنا كناية عن حاجة البطن.

﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قرأ حمزة والكسائى وخلف: (لمستم). بغير ألف ههنا، وفى المائدة. وهو اختيار أبى عبيد، وقرأ الباقون بالألف فيهما وهو اختيار أبى حاتم.

واختلف المفسّرون فى معنى اللمس والملامسة، فقال قوم: المجامعة، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وقال سعيد بن جبير: ذكروا اللمس فقال ناس من الموالى: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: هو الجماع، فأتيت ابن عباس فذكرت له، فقال: من أىّ الفريقين كنت؟ قلت: من الموالى. قال: غُلب فريق الموالى، إنّ اللمس والمسّ والمباشرة الجماعُ، لكنّ الله يكنّى عمّا يشاء بما يشاء، وعلى هذا القول إنّما كنّى عن اللمس بالجماع؛ لأنّ اللمس يوصِّل إليه، كما يقال للسّحاب: سماء، وللمطر: سماء وللكلأ سماء لأنّ بالسحاب

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يوصل إلى المطر، وبالمطر يوصل إلى الكلأ، قال الشاعر:

إذا سقط السَّماء بأرض قوم ... رعيناه وإنْ كانوا غضابا

وقال الآخرون: هو التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع، وهو قول ابن مسعود وابن عمر وأبى عبيدة ومنصور وعبيدة والشعبى والنخعى وحماد والحكم.

واختلف العلماء فى حكم الآية على خمسة مذاهب، فقال الشافعى: إذا أفضى الرجل بشىء من بدنه إلى شىء من بدن المرأة سواء كان باليد أو بغيرها من أعضاء الجسد تعلّق نقض الطهارة به، وهو قول ابن مسعود وابن عمر والزهرى وربيعة.

وقال الأوزاعى: إن كان اللمس باليد نقض الطهر، وإن كان بغير اليد لم ينقضه، فأجراه مجرى مسّ الفرج.

وقال مالك والليث بن سعد، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه: إذا كان اللمس للشهوة نقض، وإنْ كان لغير شهوة لم ينقض، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: إنْ كانت ملامسة فاحشة نقضت وإلاّ لم تنقض، والملامسة الفاحشة: ما تحدث الإفساد.

وذهبت طائفة إلى أنّ الملامسة لا تنقض الطهارة بحال، وبه قال من الصحابة ابن عباس، ومن التابعين الحسن البصرى، وإليه ذهب محمد بن الحسين.

وعن الثورى روايتان: إحداهما هذا، والثانية مثل (قول مالك بدليل الشافعى من الآية) أنّ الملامسة باليد ما روى عن النبى ﷺ أنّه نهى عن بيع الملامسة، واللمس أكثر ما يستعمل فى لمس اليد، وأنشد الشافعى:

لمست بكفى كفّه طلب الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفّه يُعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعدانى فأنفقت ما عندى

روى الزهرى، عن سالم، عن أبيه، قال: جسها بيده من الملامسة، ويدل عليه ما روى عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ أنّ رجلاً سأل النبىّ ﷺ عن الرجل ينال من امرأة لا تحل له ما يناله من امرأته إلاّ الجماع، فقال: «يتوضّأ وضوءًا حسنًا»، فثبت أنّ اللمس ينقض الوضوء.

احتج من لم يوجب الوضوء بالملامسة نفسها، بما روى مالك عن أبى النضر عن أبى سلمة عن عائشة قالت: كنت أنام بين يدى رسول الله ﷺ ورجلاى فى قبلته، فإذا سجد غمزنى فقبضت رجلىّ، فإذا قام بسطتها والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح.

وروى عبد الرحمن بن القاسم عن القاسم عن عائشة قالت: إن كان رسول الله ﷺ يصلّى وأنا لمعترضة بين يديه اعتراض الجارية حتى إذا أراد أن يوتر مسّنى برجله.

وروى الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فجعلت أطلبه بيدي فوقعت يدي على قدميه وهما منصوبتان وهو ساجد يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من غضبك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وفي بعض الأخبار: فلما فرغ من صلاته قال لي: «يا عائشة أتاك شيطانك؟»، قالوا: فلمسته عائشة وهو في الصلاة فمضى فيها.

ولأجل هذه الأخبار خصّ من ذكرنا مسّ الشهوة بنقض الوضوء. روى أبو روق عن إبراهيم التيمي عن عائشة أنّ النبي ﷺ كان يُقبّل بعض أزواجه ثم يصلّي ولا يتوضأ.

وأمّا الغسل وكيفية الملامسة على مذهب الشافعي فهو على ثلاثة أوجه: لمس ينقض الوضوء قولاً واحدًا، ولمس لا ينقض الوضوء، ولمس مختلف فيه، فالذي ينقض الوضوء ملامسة الرجل المرأة الشابة. . . .(١) متعمدًا حية كانت أو ميتة، والذي لا ينقضه ملامسة الشعر والسنّ والظفر، والذي اختلف فيه هو أن يلمس فتاة صغيرة، أو امرأة كبيرة، أو واحدة من ذوات محارمه ممن لا يحلّ له نكاحها، وفيه قولان: أحدهما ينقض الوضوء لأنه لمس متعمد . . . .(١)، والثاني لا ينقض لأنّه لا تدخل للشهوة فيه، يدلّ عليه ما روى عن أبي قتادة السلمي الأنصاري أنّ رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أُمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ لأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها وإذا قام رفعها. وهذا حكم الملامسة إذا لم يكن حائل، فأمّا إن كانت من دون حائل فإنها تنقض الطهارة سواء كان الحائل صفيقًا أو رقيقًا، هذا قول الجمهور.

وقال مالك: ينقضها إن كان رقيقًا ولا ينقضها إن كان صفيقًا، وقال الليث وربيعة: ينقضها سواء كان صفيقًا أو رقيقًا، والدليل على أنّها لا تنقض الوضوء إذا كانت من دون حائل ظاهر الآية ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ﴾ فإذا لمسها مع الحائل فما لمسها وإنّما لمس الحائل، وعليه أنّه لو حلف ألاّ يلمسها ولمسها من وراء حائل لم يحنث.

فهذا كلّه حكم اللامس، وأما الملموس فهل ينتقض به طهره أم لا؟ فعلى قولين للشافعي: أحدهما: أنّه ينتقض لاشتراكهما في الالتذاذ.

والثاني: لا ينتقض لخبر عائشة: «فوقعت يدي على أخمص قدمي رسول الله ﷺ» والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ اعلم أنّ التيمّم من خصائص هذه الأُمة لما روى ربعي

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن خمّاش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ «فُضّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، جُعلت الأرض لنا مسجداً، وجُعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء».

وأما بدء التيمّم فأخبر مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة، وهشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنّا مع رسول الله ﷺ بالأبواء، حتى إذا كنّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى وكنت استعرتها من أسماء، فضلّ، فأخبرت رسول الله ﷺ فأمر بالتماسه فالتُمس، فلم يوجد، فأناخ رسول الله ﷺ فباتوا ليلتهم تلك، وأقاموا على النجاسة وليسوا على ماء وليس عندهم ماء، فأتى الناس أبا بكر، فقالوا: ألا ترى إلى عائشة حبست رسول الله ﷺ على غير ماء؟ فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى قد نام فعاتبنى، وقال: ما شاء الله! وقال: قبّحها الله من قلادة حبست الناس على غير ماء وقد حضرت الصلاة، ثم طعن بيده على خاصرتى فما منعنى من التحريك إلاّ أنّ رسول الله ﷺ كان واضعًا رأسه على فخذى، فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله عزّ وجلّ آية التيمّم.

قالت: فبعثت البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته، فقال أُسيد بن حضير: ما هى بأوّل بركتكم يا آل أبى بكر جزاكم الله خيراً، فوالله ما نزل بكِ أمر قط تكرهينه إلاّ جُعل لكِ وللمسلمين فيه خيرٌ.

فأباح الله تعالى التيمّم بخمس شرائط:

أحدها: دخول وقت الصلاة، فلا يجوز التيمّم إلاّ بعد دخول وقت الصّلاة، وقد يجمع بالتيمم بين صلاتى فرض، هذا قول علىّ وابن عباس وابن حمزة ومذهب مالك والشافعى والليث بن سعد وأحمد بن حنبل، قالوا: لأنها طهارة ضرورة، فقسناها على المستحاضة، ولأنّ النبى ﷺ قال: «فأينما أدركتكم الصّلاة فتيمّموا وصلّوا».

وروى أبو إسحاق عن الحريث عن علىٍّ رضى الله عنه قال: «تيمّموا لكلِّ صلاة».

وروى ابن المهدى عن عاصم الأحول عن عمرو بن قيس قال: بل تتيمم لكلِّ صلاة وإن لم تحدث.

وذهبت طائفة إلى أنّ التيمم كالطهارة بالماء يجوز تقديمه على وقت الصلاة ويصلّى من الحدث الأكبر إلى الحدث لمسًا من الفرائض والنوافل، وهو قول سعيد بن المسيّب والحسن والثورى وأبى عبيدة واحتجوا بقول النبى ﷺ «الصّعيد الطيّب وضوء المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج».

والشرط الثانى من الشرائط المبيحة للتيمم: طلب الماء، وكيفيّة الطلب أن يطلبه فى رحله فإنْ لم يجد طلب من أصحابه، فإنْ لم يجد عندهم طلبَ يمينًا وشمالاً ووراء وأمام، فإن كان هناك تلّ صعد ونظر، فإنْ رأى إنسانًا قادمًا فليتعرّف منه، فإنْ تيمم قبل الطلب لم يصح عند أكثر الفقهاء.

وقال أبو حنيفة: طلب الماء ليس بشرط فى جواز التيمم بل مستحب، فإن تيمم قبله أجزأه، لأنه لو كان شرطًا فيه لكان شرطًا فى النافلة لعدم الماء، ولما كان التيمم للنافلة دون طلب الماء جاز أيضًا للفريضة دونه، دليلها قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، ولا يقال: لم يجز إلاّ لمن طلب الماء، والدليل عليه أنّه لو وكّل وكيلاً ليشترى له شيئًا فإن لم يجد فخيّره فاشترى الشىء الثانى قبل طلبه الأول ضمن.

والشرط الثالث: إعوازه بعد طلبه، فأمّا إذا كان بينه وبين الماء حائل من لص أو عدو أو سبع أو جمل صائل أو نار ونحوها فهو عادم للماء، وكذلك إن كان عليه ضرر فى إتيانه مثل أن يخاف على رحله إن غاب عنه، وكذلك إن كان الماء فى بئر ولم يمكنه الوصول إليه.

والشرط الرابع: العذر من مرض أو سفر لقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

والمرض له ثلاثة أضرب: مرض لا يضرّ استعمال الماء معه، فلا يجوز التيمم معه، وضرب يخاف معه من استعمال الماء التلف فيجوز معه التيمم، وكذلك إن كان على قرحه دم يخاف إن غسله التلف تيمّمَ، وأعاد إذا قدر على غسل الدم، وضرب يخاف باستعماله الماء الزيادة فى العلّة بطء البرء، والمتعيّن فيه أوجه:

الأول: أنه يجوز التيمم، وهو مذهب أبى حنيفة.

والثانى: أنه لا يجوز فإنْ كانت الجراحة فى بعض جسده دون بعض، غسل ما لا ضرر عليه وتيمّم، ولا يجزيه أحدهما دون الآخر، وقال أبو حنيفة: إذا كان أكثر بدنه لزمه الوضوء واستعمال الماء، ولم يُجزِه معه التيمم ولا دونه، وإن كان أكثر بدنه جريحًا يسقط عنه فرض الوضوء والغسل ويجزيه التيمم فى الجميع.

قال: (ولا يجوز الجمع بين استعمال الماء فى بعض الأعضاء والتيمم فى بعضها)، وكذلك لو وجد الجُنب أو المحدث من الماء ما لا يسع المحدث لوضوئه، ولا الجُنب لأغساله، وللشافعى فيه قولان:

أحدهما: أنه يسقط فرض استعماله الماء ويكفيه التيمم، وهو مذهب أبى حنيفة ومالك والمزنى.

والقول الثانى: يلزمه استعمال القدر الذى وجده، والتيمم كما حدّثته، وإن كان جُنبًا غسل به أى أعضائه شاء ثم تيمّم على الوجه واليدين، وإن كان محدثًا غسل وجهه ثم يديه على الترتيب ثم تيمّم لما لم يغسل من أعضاء الوضوء، حتى لو غسل جميع أعضاء وضوئه وبقيت لمعة من رجله لم يصبها ماء فإنه يتيمّم لها.

وإن انكسر بعض أعضائه فجبرها، فإنه لا يعدو فى الجبائر موضع الكسر، ولا يضعها إلاّ على وضوء كالخفين، فإن وضعها على الطهارة فله أن يمسح على الجبيرة ما دام العذر باقيًا ثم هل يلزمه إعادة الصلوات التى صلاّها بالمسح على الجبائر أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: عليه الإعادة.

والثانى: لا إعادة عليه، وهو اختيار المزنى، والدليل عليه ما روى زيد بن على عن أبيه عن جده أن حزمًا انكسر إحدى زنديه فأمره النبى ﷺ أن يمسح على الجبائر، قال الشافعى: إن صح حديث علىّ قلت به، وهذا مما أستخير الله فيه. وإن وضعها على غير الطهارة وعدا بها إلى غير موضع الكسر ينظر؛ فإن لم يخشَ تلف يديه أو عضو من أعضائه نزعها، وإن خاف على ذلك لم ينزعها، ولكنه يغسل ما يقدر عليه، ويعيد الصلاة إذا قدر على نزعها.

وأمّا السفر فهو أقل ما يقع عليه اسم سفر، طالت أو قصرت؛ لأنّ الله تعالى لم يفرّق بينهما، دليله ما أخبر الشافعى عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر: أنّه أقبل من الجُرف حتى إذا كان بالمدينة تيمّم فمسح وجهه ويديه وصلّى العصر، ثم دخل المدينة والشمس مرتفعة، فلم يُعد الصلاة، والجرف قريب من المدينة.

والشرط الخامس: النية المكنونة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾عنى: اقصدوا ترابًا طيبًا، واختلف العلماء فى الممسوح به فى التيمم على أربعة مذاهب:

قال أبو حنيفة: يجوز التيمم بالأرض ومما كان من جنسها، وإن لم يعلق بيده منها شىء، فأجاز بالكحل والزرنيخ والنورة من الجصّ والحجر المسحوق، بل وحتّى الغبار، وحتى فيما لو ضرب يده على صخرة ملساء فمسح أجزاه، فأمّا إن تيمّم بسحالة الذهب والفضة والصفر والرصاص والنحاس لم يجزه، لأنّه ليس من جنس الأرض.

قال مالك: يجوز بالأرض وبكل ما اتّصل فيها، فأجاز التيمم بأجناس الأرض والشجر، فقال: لو ضرب يده على غيره ثم مسح بها أجزأه.

وقال الأوزاعى والثورى: يجوز بالأرض وبكلٍّ ما عليها من الشجر والحجر والمدر وغيرها

حتى قالا: لو ضرب يديه على الجمد والثلج أجزأه، واحتجوا بما روى عبد الرحمن بن هرمز عن عمير مولى ابن عباس أنه سمعه يقول: أقبلت أنا وعبد الله بن يسار مولى ميمونة، حتى دخلنا على أبى جهيم الحارث بن الصمة الأنصارى، فقال أبو جهيم: أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر الجمل فلقيه رجل فسلّم عليه فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم ردّ عليه.

وذهب الشافعى إلى أن الممسوح به تراب طاهر ذو غبار تعلّق باليد وهو الاختيار لهذا؛ لأن الله عزّ وجلّ قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فالصعيد اسم التراب، والطيب اسم لما ينبت، فأمّا ما لا ينبت من الأرض فليس بطيّب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ (الأعراف: ٥٨)، ولقول النبى ﷺ «جُعلتْ لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً»، فخصّ التراب ذلك، والله أعلم.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وقد مضى الكلام فى الممسوح به، فأما قدر الممسوح وكيفية التيمم، فاختلف الناس فيه على خمسة مذاهب:

فقال الزهرى: تمسح على الوجه واليدين إلى الآباط والمناكب، واحتجّ بما روى عبد الله ابن عتبة عن ابن عباس عن عمار بن ياسر عن النبى ﷺ أنّه كان فى سفر ومعه عائشة فضلّ عقدها، فاحتبسوا فى طلبه يومًا، قال: فنزلت آية التيمم، فضربوا بأيديهم إلى الأرض، ثم رفعوا أيديهم، ولم يقبضوا من التراب شيئًا، فمسحوا وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ثم بطون أيديهم إلى الآباط.

وقال ابن سيرين: ثلاث ضربات: ضربة للوجه، وضربة لليدين، وضربة للمرفقين، وبه قال من الصحابة عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله، ومن التابعين الحسن البصرى والشعبى، ومن الفقهاء أبو حنيفة وحنبل ومالك والليث، رضى الله عنهم، واحتجوا بما روى الأعرج عن أبى الصمّة أنّ رسول الله ﷺ تيمّم فمسح وجهه وذراعيه.

وروى أبو أمامة وابن عمر أنّ النبى ﷺ قال: «التيمّم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين».

وروى ربيع بن سبرة عن أبيه عن جده عن أسلع قال: قال لى رسول الله ﷺ «ارجل بنا يا أسلع. فقلت: أنا جُنب. فسكت، إلى مكة فنزلت آية التيمّم، فقال: «يكفيك هذا» فضرب بكفّيه الأرض ثم نفضهما ثم مسح ذراعيه؛ ظاهرهما وباطنهما. وقال علىٌّ - كرم الله وجهه -: «هو ضربتان: ضربة للوجه وضربة للكفين».

وذهبت طائفة إلى أنه ضربة واحدة للوجه والكفين، وهو قول سعيد بن المسيّب، والأوزاعى وأحمد وإسحاق، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾، قالوا واليد على الإطلاق يتناول الكفّ إلى الكوع، بدليل أنّ السارق تقطع يده إلى الكوع، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨)، فاحتجوا بما روى سعيد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمار بن ياسر أنّ رسول الله ﷺ قال فى التيمم: «ضربة للوجه والكفين، والتيمّم من الجنابة كالتيمّم من الحدث».

فإذا عدم الجنب الماء تيمّم كما يتيمّم المحدث بلا خلاف فيه إلاّ ما روى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود أنهما قالا: لا يحقّ للجُنب التيمّم، ولكنه يصبر إلى أن يجد الماء فيغتسل، وقال مفسراً قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أراد اللمس باليد دون الجماع.

وروى الأعمش عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن عبد الرحمن بن أزى أنّ رجلاً سأل عمر عن جُنب لا يجد الماء، فقال: لا يصلّى حتى يجد الماء، فقال عمار بن ياسر: أما تذكر حين بعثنا رسول الله ﷺ أنا وأنت وأجنبت فتمعكت فى التراب، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «قد كان يكفيك أن تفعل كذا وكذا». وضرب بيده على الأرض فمسح وجهه وبدنه فقال: اتّقِ الله يا عمار، فقال: إن شئت لم أذكره أبدًا.

وروى عمار بن ياسر عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن عبد الرحمن بن أزى، قال: كنت عند عمر رضى الله عنه، فسأله أعرابى فقال: إنّا نمكث الشهر والشهرين لا نجد الماء، فقال: أمّا أنا فلو كنت لم أصلّ، فقال عمار بن ياسر: أما تذكر يا أمير المؤمنين أنى كنت أنا وأنت فى الإبل؟ فقال: بلى. قال: فأنت أجنبت فتمعكت فى التراب فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فضحك، وقال: «كان يجزيك هكذا». وبسط عمّار كفيه، ووضعهما على الأرض ثم نفض إحداهما بالأُخرى فمسح بهما وجهه، ووصل الكفين بشىء من الذراعين يسير، فقال عمر: اتّقِ الله يا عمار. فقال: يا أمير المؤمنين لو شئت لم أتفوّه به أبدًا، قال: لا بل نولّيك (ما تولّيت).

وروى الأعمش عن شقيق قال: كنت جالسًا مع عبد الله وأبى موسى، فقال أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن، الرجل جُنب فلا يجد الماء أُيصلّى؟ فقال: لا، فقال: أما تذكر قول عمار لعمر: بعثنا النبى ﷺ أنا وأنت فأجنبت فتمعّكت فى التراب، فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «كان يكفيه هكذا».

وضرب بيديه الأرض فمسح وجهه ويديه فقال: لم أر عمر قنع بذلك، قال: فما يصنع

بهذه الآية ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؟ فقال: أما إنّا لو رخّصنا لهم فى هذا لكان أحدهم إذا وجد برد الماء تيمّم بالصعيد، قال الأعمش: فقلت لشقيق فلم يكن هذا إلاّ حبًّا له، قال: يدلّ على أن صلاة الجُنب بالتيمّم جائز، ما روى ابن عوف عن أبى رجاء، قال: سمعت عمران بن حصين يقول: إنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصلِّ فى القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلّى مع القوم؟». فقال: يا رسول الله أصابتنى جنابة ولا ماء، قال: «عليك بالصعيد فإنّه يكفيك».

وروى مسلم عن أبى رجاء عن عمران بن حصين قال: صلّيت خلف النبى ﷺ وكان رجل جُنب، فأمره النبى ﷺ أن يتيمّم ويصلّى، فلمّا وجد الماء أمره النبى ﷺ أن يغتسل ولم يأمره أن يعيد.

عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين».

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعنى يهود المدينة، وقال ابن عباس: نزلت فى رفاعة بن زيد بن السائب ومالك بن دخشم، كانا إذا تكلّم رسول الله ﷺ لويا لسانيهما وعاباه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ مختصر تقديره: ويشترون الضّلالة بالهدى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ﴾ يا معشر المؤمنين، وقرأ الحسن تُضَلّوا، ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ أى عن السبيل.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ منكم، فلا تستنصحوهم فإنهم أعداؤكم، ويجوز أن يكون ﴿أَعۡلَمُ﴾ بمعنى عليم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ (الروم: ٢٧)، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، فإنّ شئت جعلتها متصلة بقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من الذين هادوا)، وإنّ شئت جعلتها منقطعة عنها مستأنفة، ويكون المعنى: من الذين هادوا مَن يحرّفون، كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ (الصافات: ١٦٤) أى من له مقام معلوم، وقال ذو الرمّة:

فظلوا ومنهم دمعُـهُ سابق له وآخر يذرى دمعة العين بالمهل

يريد: ومنهم من دمعه.

﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيّرون، ﴿ٱلۡكَلِمَ﴾ وقال على بن أبى طالب (رضى الله عنه): «الكلام عن مواضعه، يعنى صفة محمد ﷺ، وآية الرجم»، وقال ابن عباس: كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ ويسألونه عن الأمر فيخبرهم، ويرى أنّهم يأخذون بقوله، فإذا انصرفوا من عنده حرّفوا

كلامه. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أى غير مقبول منك، وقيل: هو مثل قولهم: اسمع لا سمعت.

﴿وَرَٰعِنَا﴾: وارعنا، وقد مضت القصة فى سورة البقرة، ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا﴾ قدحًا ﴿فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ مكان راعنا ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أصوب وأعدل، ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خاصة باليهود، ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعنى القرآن، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ قال ابن عباس: كلّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار اليهود منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسد، فقال لهم: «يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنّكم تعلمون أنّ الذى جئتكم به لحقّ»، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد وأنكروا وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ قراءة العامة بكسر الميم، وقرأ أبو رجاء بضمّها، وهما لغتان، قال ابن عباس: يجعلها كخفّ البعير أو كحافر الدابة. قتادة والضحاك: نعميها، ذكر الوجه والمراد به العين ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أى نحوّل وجوهها إلى ظهورها، ونجعل أبصارها من جهة أقفائها، وهذه رواية عطية عن ابن عباس. الفرّاء: الوجوه منابت للشعر كوجوه القردة، لأنّ منابت شعور الآدميين فى أدبار وجوههم. القتيبى: نمحو آثارها وملامحها من عين وحاجب وأنف وفم، فنردّها على أدبارها أى كالأقفاء.

فإن قيل: كيف جاز أن يهدّدهم بطمس وجوههم إن لم يؤمنوا، ثم لم يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك؟

فالجواب أن نقول: جعل بعضهم هذا الوعيد باقيًا منتظرًا، فقال: لا بد من طمس وجوه اليهود أى بالمسخ قبل الساعة، وهذا قول المبرّد، وقال بعضهم: كان هذا وعيدًا بشرط، فلمّا أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه رفع الباقين، وقيل: لمّا أُنزلت هذه الآية، أتى عبد الله بن سلام رسول الله ﷺ قبل أن يأتى أهله فأسلم، وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهى فى قفاى. وقال النخعى: قرأ عمر هذه الآية على كعب الأحبار، فقال كعب: يا ربّ أسلمت، يا ربّ أسلمت مخافة أن يشمله وعيد هذه الآية.

وقال سعيد بن جبير: الطمس أن يرتدّوا كفارًا فلا يهتدوا أبدًا. الحسن ومجاهد: من قبل أن نُعمىَ قومًا عن الصراط وعن بصائر الهدى، فنردّها على أدبرها حتى يعودوا إلى حيث جاءوا منه بدءًا، وهو الشام. وأصل الطمس: المحو والإفساد والتحويل، ومنه يقال: رسم

طاسم، وطامس أي دارس، والريح تطمس الأثر أي تمحوه وتعفوه.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ فنجعلهم قردة وخنازير ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في المشركين: وحشي بن حرب وأصحابه، وقال: إنّه لما قَتل حمزة، وكان قد جُعل له على قتله أن يعتق، ولم يوفَ له بذلك فلمّا قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنّا قد ندمنا على الذي صنعنا وإنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنّا سمعناك تقول وأنت بمكة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (الفرقان: ٦٨)، وقد دعونا مع الله إلـهًا آخر، وقتلنا النفس التي حرّم الله، وزنينا، ولولا هذه الآية لاتبعناك، فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ (الفرقان: ٧٠) الآيتين. فبعث بهما رسول الله ﷺ إلى وحشي وأصحابه، فلمّا قرءوها كتبوا إليه: هذا شرط شديد نخاف ألاّ نعمل عملاً صالحًا فلا نكون من (أهل) هذه الآية، فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ ٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فبعث بها إليهم فقرءوها، فبعثوا إليه: إنا نخاف ألاّ نكون من أهل مشيئته، فنزلت: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ (الزمر: ٢٣)، فبعث بها إليهم فلما قرءوها دخل هو وأصحابه في الإسلام، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ فقبل منهم، ثم قال النبي ﷺ لوحشي: «أخبرني كيف قتلت حمزة؟»، فلما أخبره قال: «ويحك غيّب وجهك عنّي»، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في اليهود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ ٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فمشيئته لأهل التوحيد. أبو مجلز، عن ابن عمر: نزلت في المؤمنين، وذلك أنّه لمّا نزلت ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ (الزمر: ٢٣). الآية. قام رسول الله ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل، فقال: والشرك بالله؟ فسكت ثم قام إليه مرّتين أو ثلاثًا، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، فأُثبتت هذه في الزمر وهذه في النساء.

المسيب بن شريك، عن مطرف بن الشخير قال: قال ابن عمر: كنّا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل منّا على كبيرة شهدنا أنّه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ ٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فأمسكنا عن الشهادات.

عن جابر بن عبد الله أنّ النبي ﷺ قال: «(لا تزال) المغفرة تحل بالعبد ما لم يرفع الحجاب». قيل: يا رسول الله، وما وقوع الحجاب؟ قال: «الإشراك بالله» ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية.

مسروق عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل

الجنّة ولم يضرّه معه خطيئة، كما لو لقيه وهو يشرك به شيئًا دخل النار ولم تنفعه حسنة». وعن عليّ (رضى الله عنه) قال: «ما فى القرآن أرجى إلىّ من هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الآية، قال الكلبى: نزلت فى رجال من اليهود، أتوا بأطفالهم إلى النبى ﷺ منهم عدى بن عمرو والنعمان بن أوفى وصهيب بن زيد، فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال: «لا»، فقالوا: والله ما نحن إلاّ كهيئتهم، ما عملناه بالنهار كفّر عنّا بالليل، وما عملناه بالليل كفّر عنا بالنهار، فكفّرهم الله تعالى، وأنزلت هذه الآية: الحسن والضحاك وقتادة وسفيان والسّدىّ: نزلت فى اليهود والنصارى ممن قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨) وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ (البقرة: ١١١).

مجاهد وعكرمة: هو أنّهم كانوا يقدّمون أطفالهم فى الصّلاة يزعمون أنهم لا ذنب لهم، فتلك التزكية. عطية عن ابن عباس: هو أنّ اليهود قالوا: إنّ آباءنا وأبناءنا تُوفوا، فهم سيشفعون لنا ويزكوننا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال عبد الله: هو تزكية بعضهم لبعض، وعن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن الرجل ليغدو من بيته ومعه دينه، فيلقى الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضراً ولا نفعًا، فيقول: والله إنّك لذيت لذيت، فلعله لا يخلو منه شىء، فيرجع إلى بيته وما معه من دينه شىء، ثم قرأ عبد الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى﴾ أى يطهّر من الذنوب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ . . . .[1] لذلك ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهو ما يكون فى شق النواة، وقيل: هو ما فتلته بين إصبعيك من الوسخ فيكون فعيلاً بمعنى مفعول قال الشاعر:

يجمع الجيش ذا الألوف فيغزو ثم لا يرزأ العدوّ فتيلا

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ يحيكون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فى تفسيرهم كتابه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قرأ السلمىّ: (ألم تره) فى كلّ القرآن، وهى لغة قوم لا يكتفون من الجزم بحذف الحرف حتى يسكنوا حركته، كقول الشاعر:

من يهـده الله يهتدْ لا مضل له ومن أضل فما يهديه من هادى

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ اختلفوا فيهما، فقال عكرمة: هما صنمان كان المشركون

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يعبدونهما من دون الله. أبو عبيدة: هما كلّ معبود من حجر أو مدر أو صورة أو شيطان، يدل عليه قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ (الزمر: ١٧).

عطية عن ابن عباس: الجبت: الأصنام، والطاغوت: تراجمة الأصنام الذين يكونون بين أيديهم يفترون عنها الكذب ليضلوا النّاس، وقيل: الجبت: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأصنام، لكل صنم شيطان يفسّر عنها فيغترّ بها النّاس. أبو عمرو الشّعبى ومجاهد: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. زيد بن أرقم: الجبت: الساحر، ويقال له: الجبس، قلبت سينه تاء، والطاغوت: الشيطان، يدلّ عليه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

قال محمد بن سيرين ومكحول: الجبت: الكاهن، والطّاغوت: الساحر، وهو رواية الوالبى عن ابن عباس. سعيد بن جبير وأبو العالية، الجبت: شاعر بلسان الحبشة، والطّاغوت: الكاهن. عكرمة: كان أبو هريرة كاهنًا فى الجاهلية ممن أقرّ إليه ناس ممّن أسلم، فنزلت هذه الآية. الضحاك والكلبى ومقاتل: الجبت: حيى بن أخطب، والطاغوت: كعب ابن الأشرف ودليله قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾.

حكى أبو القاسم الحسين، عن بعضهم أنّ الجبت إبليس، والطاغوت أولياؤه، عن قطر بن قبيصة، عن مخارق عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الطرق والطيرة والعيافة من الجبت، والجبت كلّ ما حرّم الله، والطّاغوت هو ما يُطغى الإنسان».

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ قال المفسّرون: خرج كعب بن الأشرف فى سبعين راكبًا من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشًا على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش، فقال أهل مكة: إنّكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب ونحن أُمية، ولا نأمن أن يكون هذا مكرًا منكم، وإن أردت أن نخرج معك، فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، ففعل ذلك، فذلك قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ ثم قال كعب لأهل مكة: ليجىء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فلنلزق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ البيت لنجهدنّ على قتال محمد ففعلوا ذلك، فلمّا فرغوا قال أبو سفيان: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أمّيون لا نعلم فأيّنا أهدى طريقًا وأقرب إلى الحق؟ أنحن أم محمد؟ فقال كعب: اعرضوا علىَّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحاج الكرماء ونسقيهم الماء ونقرى

الضيف ونفكّ العانى ونصل الرحم ونعمّر بيت ربّنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودين محمد الحديث. فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلا ممّا عليه محمد، فأنزل الله الآية ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾: يعنى كعبًا وأصحابه، يؤمنون بالجبت والطاغوت يعنى الصنمين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أبى سفيان وأصحابه: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ محمد وأصحابه ﴿سَبِيلًا﴾ أى دينًا.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ يعنى ألهمْ، والميم صلة ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ ﴿مِّنَ الْمُلْكِ﴾ وهذا على وجه الإنكار، يعنى ليس لهم من الملك شىء، ولو كان لهم من الملك ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ﴾ محمداً وأصحابه ﴿نَقِيرًا﴾ من حسدهم وبخلهم وبغضهم. رفع قوله (يؤتون) . . . .(١).

وفى قراءة عبد الله: فإذًا لا يؤتوا الناس بالنصب . . . .(١).

واختلفوا فى النقير، فقال ابن عباس: هو النقطة فى ظهر النواة، ومنها: . . . .(١).

مجاهد: حبّة النواة التى وسطها.

الضحّاك: يعنى النواة الأبيض الذى يكون وسطها. أبو العالية: هو نقر الرجل الشىء بطرف إصبعه، كما ينقُر الدرهم وقال: سألت ابن عباس عنه فوضع طرف الإبهام على باطن السبابة ثم رفعها وقال: هذا هو النقير.



﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ۝﴾

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾ يعنى اليهود ﴿ٱلنَّاسَ﴾: قال قتادة: يعنى العرب حسدوهم على النبّوة وبما أكرمهم الله تعالى به محمد ﷺ.

عن محمد بن كعب القرظى قال: سمعت عليًّا (عليه السلام) على المنبر فى قوله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال: هو رسول الله وأبو بكر وعمر (عليهم السلام).

وقال آخرون: المراد بالناس هنا يعنى رسول الله ﷺ، حسدوه على ما أحل الله له من النساء؛ وذلك ما روى على بن على عن أبى حمزة الثمالى فى قوله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعنى بالناس فى هذه الآية نبىّ الله، قالت اليهود: انظروا إلى هذا النبى، والله ما يشبع من طعام، لا والله ما له همّ إلاّ النساء، لو كان نبيًا لشغله أمر النبوة عن النساء، فحسدوه على كثرة نسائه وعيّروه بذلك فقالوا: لو كان نبيًا ما رغب فى كثرة النساء، فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعنى بالحكمة النبوّة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فأخبرهم بما كان لداود وسليمان من النساء، فوبّخهم لذلك، فأقرت اليهود لنبى الله (عليه السلام) أنّه اجتمع عند سليمان ألف امرأة، ثلاثمائة مهرية وسبعمائة سرية، وعند داود مائة امرأة. فقال لهم رسول الله ﷺ: ألف امرأة عند رجل، ومائة امرأة عند رجل أكثر أو تسع نسوة؟ وكان يومئذ تسع نسوة عند رسول الله ﷺ فسكتوا.

قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ يعنى بمحمد ﷺ، يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أعرض عنه فلم يؤمن به ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وقودًا.

قال السدى: (الآيتان) راجعتان إلى إبراهيم (عليه السلام)؛ وذلك أنه زرع ذات سنة وزرع الناس، فهلكت زروع الناس وزكا زرع إبراهيم، واحتاج الناس إليه، وكانوا يأتون إبراهيم

(عليه السلام) يسألونه، فقال لهم: من آمن بالله أعطيته، ومن أبى منعته، فمن آمن به أتاه الزرع ومن أبى لم يعطه.

عن عمرو بن ميمون الأودى قال: لمّا تعجل موسى (عليه السلام) إلى ربّه عزّ وجل، مرّ برجل غبطه لقربه من العرش، فسأل عنه، فقال: يا ربّ من هذا؟ فقيل له: لن يخبرك اسمه، وسيخبرك بعمله، كان لا يمشى بالنميمة، ولا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعقّ والديه.

أبو زياد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

وعن يوسف بن الحسين الرازى قال: سمعت ذا النون يقول: الحسود لا يسود.

الأصمعى قال: قال سفيان لمغنى: إنَّ الله يقول: «الحاسد عدوّ نعمتى غير راض بقسمتى بين عبادى».

قال الثعلبى: وأنشدت لمنصور الفقيه فى معناه:

ألا قل لمن كان لى حاسداً أتدرى على من أسأت الأدبْ

أسأت على الله فى فعله إذا أنت لم ترضَ لى ما ذهبْ

جزاؤك منه الزيادات لى وأن لا تنال الذى تطلب

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ ندخلهم ناراً، وقرأ حميد بن قيس: نصليهم بفتح النون: أى نسوّيهم، وقيل: معناه نَصليهم. فنصب ناراً عى هذه القراءة بنزع الخافض تقديره بنار.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ غير الجلود المحترقة. قال ابن عبّاس: يُبدّلون جلوداً بيضاً كأصناف القراطيس. نافع عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قال عمر: أعدْها، فأعادها، قال معاذ بن جبل: عندى تفسيرها: بدّلت فى ساعة مائة مرّة قال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول.

هشام عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قال: تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرّة كلّما أكلتهم فأنضجتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

المسيّب عن الأعمش عن مجاهد قال: ما بين جلده ولحمه ودمه دود فأجلدت كجلدة حمر الوحش.

الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون

ذراعًا وضرسهُ مثل أُحد».

فإن قيل: كيف جاز أن يعذّب جلد لم يعصه قلنا: إنّ المعاصى والألم واقع على نفس الإنسان لا الجلد، لأن الجلود إنما تألم بالأرواح، والدليل على من يقصد تعذيب الأبدان لا يعذّب الجلود قوله: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، لم يقل ليذوق العذاب.

وقيل: معناه: يبدّل جلودًا هى تلك الجلود المحترقة، وذلك أنّ غير على ضربين: غير تضاد، وغير تناف، وغير تبديل، فغير تضاد مثل قولك للصّائغ: صغ لى من هذا الخاتم خاتمًا غيره فيكسره ويصوغ لك خاتمًا، فالخاتم المصوغ هو الأول ولكن الصياغة تغيّرت والفضّة واحد.

وهذا كعهدك بإخٍ لك صحيحًا ثم تراه بعد ذلك سقيمًا مدنفًا فتقول: فكيف أنت؟ فيقول: أنا على غير ما عهدت، فهو هو، ولكن حالهُ تغيّرت، ونظير هذا قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ٤٨) وهى تلك الأرض بعينها إلاّ أنها قد بُدّلت جبالها وآكامها وأنهارها وأشجارها، وأنشد:

فما النّاس بالنّاس الذين عهدتهم ولا الدّار بالدّار التى كنت أعرف

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا نصير محمد بن محمد بن مزاحم يقول: سمعت مزاحم بن محمد بن شاردة الكشى يقول: سمعت جابر بن زيد يقول: سمعت وكيع بن الجراح يقول: سمعت إسرائيل يقول: سمعت الشعبى يقول: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: ألا ترى ما صنعت عائشة ذمَّت دهرها وذلك (أنها) أَنشدت بيتى لبيد:

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

يتلذّذون مجانة ومذلّة ويعاب قائلهم وإنْ لم يشغب

فقالت: رحم الله لبيد وكيف لو أدرك زماننا هذا.

فقال له ابن عباس: لئن ذمّت (عائشة) دهرها لقد ذمت عاد دهرها، وذلك أنه وجد فى خزانة عاد بعدما هلكت سهم كأطول ما يكون من رماح عليه مكتوب:

وليس لى أحناطى بذى اللوى لوى الرمل من قبل النفوس معاد

بلاد بها كنا ونحن من أهلها إذ الناس ناس والبلاد بلاد

البلاد باقية كما هى إلاّ أن أحوالها وأحوال أهلها تنكرت وتغيرت.

وقالت الحكماء: كما إن الجلد يلى قبل البعث فأنشئ كذلك تبدل (ورجع).

وقال السدىّ: إنما تبدل الجلود جلودًا غيرها من لحم الكافر، يعيد الجلد لحمًا ويخرج من اللحم جلدًا آخر لم يبدّل بجلد لم يعمل خطيئة.

وقيل: أراد بالجلود سرابيلهم من قطران سميت بها للزومها جلودهم على (المجاورة) كما يقال للشيء (الخاص) بالإنسان هو جلدة ما بين (عظمه) ووجهه فكلما احترقت السرابيل عذّب قال الشاعر:

كسا اللؤم تيمًا خضرة فى جلودها فويل لتيم من سرابيلها الخضر

فكنّى عن جلودهم بالسرابيل.

قال عبد العزيز بن يحيى: إن الله تعالى أبدل أهل النار جلودًا لا تألم ويكون (رماده) عذاب عليهم فكلّما أُحرق جلدهم أبدلهم الله تعالى جلدًا غيره.

يكون هذا عذابًا عليهم كما قال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ (إبراهيم: ٥٠) فتكون السرابيل تؤلمهم ولا يألم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

كثيف لا يسخنه الشمس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ نزلت فى عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار وكان سادن الكعبة، فلما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله ﷺ المفتاح، فقيل: إنّه مع عثمان، فطلب منه على (رضى الله عنه) فأجاب: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) يد،، فأخذ منه المفتاح وفتح الباب، ودخل رسول الله ﷺ وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ عليًّا أن يردّ المفتاح إلى عثمان، فأوعز إليه ففعل ذلك على (رضى الله عنه).

فقال له عثمان: يا على كرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال له: بما أنزل الله تعالى فى شأنك؟ وقرأ عليه هذه الآية.

فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، وأسلم، فجاء جبرائيل رسول الله ﷺ إنه ما دام هذا البيت أول لبنة من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان وهو اليوم فى أيديهم.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾ أى نعم الشىء أى ﴿يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

اختلفوا فيهم، فقال عكرمة: أولى الأمر منكم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ويدلّ عليه ما روى مالك بن أنس عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله ﷺ

قال: «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر إن لى وزيرين فى السماء ووزيرين فى الأرض أما فى السماء جبرئيل وميكائيل، وفى الأرض أبو بكر وعمر».

وهما عندى بمنزلة الرأس من الجسد ومثلهما فى الدنيا بالرأفة فمثل أبى بكر كمثل إبراهيم وعيسى، قال إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ (إبراهيم: ٣٦).

وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (المائدة: ١١٨) الآية.

ومثل عمر كمثل موسى ونوح قال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (يونس: ٨٨).

وقال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦).

وقال أبو بكر (الورّاق): هُم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى (عليهم السلام)، ويدلّ عليه ما روى (هشيم) عن ابن بشير عن أبى (الزبير عن) جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدى فى أُمتى فى أربع فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى».

وروى سعيد بن جمهان عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد، جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه، ثم جاء عثمان بحجر فوضعه فقال: هؤلاء ولاة الأمر من بعدى.

عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بالإحسان، دليل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ (التوبة: ١٠٠) الآية.

بكر بن عبد الله المزنى: هم أصحاب رسول الله ﷺ يدلّ عليه قول النبىّ ﷺ: «أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم».

وعن الحسن: أنّ رسول الله ﷺ قال: «مثل أصحابى فى الناس مثل الملح فى الطعام فلما ذهب فسد الطعام».

جابر بن عبد الله والحسن والضحاك ومجاهد والمبارك بن فضالة وإسماعيل بن أبى خالد: هم الفقهاء والعلماء أهل الدين والفضل الذين يعلّمون الناس معالم دينهم ويأمرونكم بالمعروف وينهونكم عن المنكر، وأوجب الله طاعتهم على العباد.

هذه رواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس هو دليل هذا التأويل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) الآية.

فقال أبو الأسود الدؤلى: ليس شىء أعزّ من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

ابن كيسان: أُولو العقل والرأى الذين (يهتمّون) بأمور الناس.

قال ابن عباس : أساس الدين بنى على العقل وفرضت الفرائض على العقل ، وربُّنا يُعرف بالعقل ويتوسل إليه بالعقل ، والعاقل أقرب إلى ربه من جميع المجتهدين بغير عقل ، ولمثقال ذرّة من (بر) العاقل أفضل من جهاد الجاهل ألف عام .

وعن إسماعيل بن عبد الملك قال : قال (الثورى) : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : إذا رأيت عاقلاً فكن له خادمًا .

ميمون بن مهران ومقاتل والسدى (والشعبى) : أمراء السرايا .

(سعيد بن جبير) عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى سرية إلى حى من أحياء العرب وكان معه عمار بن ياسر فسار خالد حتى إذا دنا من القوم عرّس لكى ينصحهم فأتاهم (النذير) وهربوا غير رجل كان قد أسلم فأمر أصحابه تهيئوا للمسير فثم انطلق حتى أتى عسكر خالد فدخل على عمار فقال : يا أبا اليقظان إنى مسلم وإن قومى لما سمعوا بكم هربوا وأقمت كلامى ونافعى ذلك أو أهرب كما هرب قومى .

فقال : أقم فإنّ ذلك نافعك ، فانصرف الرجل إلى أهله وأمرهم بالمقام ، فأصبح خالد وقام على القوم فلم يجد غير ذلك الرجل فأخذه وأخذ ماله فأتاه عمار فقال : خلِّ سبيل الرجل فإنه مسلم وقد كنت آمنته وأمرته بالمقام .

فقال خالد : إنك تجير علىَّ وأنا الأمير ، فقال : نعم . أجير عليك وأنت الأمير ، وكان فى ذلك منهما كلام ، فانصرفوا إلى النبى ﷺ فأخبروه خبر الرجل فآمنه النبى ﷺ وأجاز أمان عمار ونهاه بعد ذلك الخروج على أمير بغير إذنه .

قال : فاستبّ عمار وخالد أمام النبى ﷺ فأغلظ عمار لخالد وغضب خالد وقال : يا رسول الله أتدع هذا العبد يسبنى فوالله لولا أنت ما سبّنى عمار .

وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة .

فقال رسول الله ﷺ : «يا خالد كف عن عمار فإنه من يسبّ عمارًا يسبّه الله ومن يبغض عمارًا يبغضه الله» ، فقام عمار وتبعه خالد فأخذ بثوبه وسأله أن يرضى عنه فرضى عنه .

وأنزل الله هذه الآية وأمر بطاعة أولى الأمر .

وقال أبو هريرة وابن زيد : هم الأمراء والسلاطين لما أُمروا بأداء الأمانة فى الرعيّة ، لقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (أمرت الرعية) بحسن الطاعة لهم .

وقال علىّ كرم الله وجهه : «حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة ، فإذا فعل ذلك حق على الرعية أن يسمعوا له ويطيعوا ويجيبوا إذا دعوا» .

قال الشافعي (رضى الله عنه): إن من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة وكانت تأنف أن يعطى بعضها بعضًا طاعة الإمارة، فلما دانت لرسول الله ﷺ بالطاعة لم تكن ترى ذلك يصلح لغير رسول الله ﷺ فأُمروا أن يطيعوا أولى الأمر.

وقال عكرمة: أمهات الأولاد أحرار بالقرآن.

قيل له: أى القرآن قال: أعتقهن عمر بن الخطاب. ألم تسمع قول الله تعالى ﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وأن عمر من أولى الأمر! وأنه قال: أعتقها ولدها وإن كان سقطًا.

عبد الرحمن بن الأعرج وهمام بن منبه وأبو صالح كلهم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى».

وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء فإذا مات نبى قام نبى وإنه ليس بعدى نبى».

فقال رجل: فما يكون بعدك؟ قال يكون خلفاء (ويكثر).

قالوا: وكيف نصنع؟ قال: «(أدوا) بيعة الأول فالأول، وأدّوا إليهم ما لهم فإن الله سائلهم عن الذى لكم».

علقمة بن وائل عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ ورجل يسأله: أرأيت إن كان علينا أُمراء يمنعوننا حقّنا ويسألوننا حقّهم، فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا فإنّ عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حمّلتم».

وعن أبى أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى حجة الوداع: وهو على (الجدعاء) يعنى ناقته فدعا فى الركاب يتطاول.

قال: «ليسمع الناس فقال: ألا تسمعون؟ يطول بها صوته فقال قائل من طوائف الناس: ما تعهد إلينا يا رسول الله؟ فقال: «اعبدوا ربكم وصلّوا خَمْسكم وصوموا شهركم وأدّوا زكاة أموالكم وأطيعوا أُولى الأمر تدخلوا جنة ربكم».

مكحول عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ أطع كل أمير وصل خلف كل إمام ولا تسبّنّ أحدًا من أصحابى».

هشام عن أبى صالح عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «سيليكم بعدى ولاة فيليكم البر ببرّه والفاجر بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا فى كلّ ما وافق الحقّ وصلّوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم».

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ اختلفتم ﴿فِي شَيۡءٖ﴾ من أمر دينكم اختلاف الآراء فيتعاطى كلّ واحد ما يرى خلاف رأى صاحبه وأصله من النزع كان المتنازعان يتحازبان ويتحالفان، ومنه قال: مناوأة: منازعة.

قال الأعشى:

نازعتم قضب الريحان متكئًا ... وقهوة مرّة راووقها خضل

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعنى إلى كتاب الله والرسول ما دام حيًا، فإذا مات فإلى سنّته، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أى ذلك الردّ خير لكم ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ جزاء وعاقبة، والتأويل ما يؤول للأمر.

أبو المليح الهذلى عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «اعلموا بالقرآن، أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه وآمنوا به ولا تكفروا بشىء منه، وما اشتبه عليكم، فردّوه إلى الله وإلى أولى العلم من بعدى كيما يخبروكم، وآمنوا به وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وما أنزل إليكم من ربكم وليسعكم القرآن وما فيه من البيان فإنّه شافع مشفّع وكامل مصدّق وله بكلّ حرف نور يوم القيامة».

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

قال الحسن: انطلق رجل يحاكم آخر إلى النبى ﷺ فقال الآخر: لا بل انطلق إلى وثن بيت فلان (فأنزل) الله هذه الآية.

قال الشعبى: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودى: أحاكمك إلى محمّد، وقال المنافق: لا، فجعل اليهودى يدعو إلى المسلمين لأنّه علم أنهم لا يقبلون الرشوة ولا يجورون فى الحكم، وجعل المنافق يدعو إلى اليهود لأنّه علم أنّهم يقبلون الرشوة ويميلون فى الحكم فاختلفا. ثم اتّفقا على أن يأتيا كاهنًا فى جهينة فيتحاكما إليه فأنزل الله تعالى هذه الآية.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى رجل من المنافقين يقال له بسر، كان بينه وبين يهودى خصومة، فقال: انطلق بنا إلى محمّد وقال المنافق بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذى سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودى أن يخاصمه إلاّ إلى رسول الله ﷺ فلمّا رأى المنافق ذلك أتى معه رسول الله ﷺ فاختصما إليه، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر (رضى الله عنه) فأقبلا إلى عمر، فقال اليهودى: اختصمت أنا وهذا إلى محمّد فقضى لى عليه فلم يرضَ بقضائه وزعم أنه يخاصم إليكم وأنه تعلق بى فجئت معه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم.

فقال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد وقال. هكذا أقضى بين من لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسول الله ﷺ وهرب اليهودى ونزلت هذه الآية.

وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق.

وقال السدى: كان ناس من اليهود أسلموا وأبى بعضهم وكانت قريظة والنضير فى الجاهلية إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلاً من بنى النضير قتل به وأخذ ديته مائة وسق تمر وإذا قتل رجل من بنى النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستّين وسقًا من تمر وكانت النضير وهم حلفاء الأوس أكثر وأشرف من قريظة وهم حلفاء الخزرج.

فلما جاء الله بالإسلام وهاجر النبى ﷺ إلى المدينة. قتل رجل من بنى النضير رجلاً من قريظة فاختصموا فى ذلك.

فقالت بنو النضير: قد كنا وأنتم اصطلحنا فى الجاهلية على أن نقتل منكم ولا تقتلون منا، وعلى أن ديتكم ستون وسقًا والوسق ستون صاعًا وديتنا مائة وسق فنحن نعطيكم ذلك.

وقالت الخزرج: هذا شىء كنتم قلتموه فى الجاهلية لأنكم كثرتم وقللنا، فقهرتمونا ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد وليس لكم علينا فضل، وقالت بنو النضير: لا بل نحن على ما كنا.

فقال المنافقون منهم: انطلقوا إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى ومالك بن خزيمة، وقال المسلمون من الفريقين: لا بل إلى النبى ﷺ، فأبى المنافقون فانطلقوا إلى أبى بردة ليحكم بينهم.

فقال: أعظموا اللقمة. يعنى الرشوة. فقالوا: لك عشرة أوسق قال: لا. بل مائة وسق ديتى فإنى أخاف إن نصرت النضيرى قتلتنى قريظة أو أنصر قريظة قتلتنى النضير، فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأنزل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة: ١٧٨) وقوله ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (المائدة: ٤٥) الآية فدعا النبى ﷺ كاهن (أسلم) إلى الإسلام فأتى وانصرف فقال النبى ﷺ لابنيه: «أدركا أباكما فإنّه إن جاوز عقبة كذا لم يسلم أبدًا» فأدركاه فلم يزالا به حتى انصرف وأسلم، فأمر النبى ﷺ مناديًا ينادى ذلك الكاهن أسلم قد أسلم، فذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ يعنى الصنم، وقيل: الكاهن، وقيل: كعب بن الأشرف، وقيل: حيى بن أخطب.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ إعراضًا فكل الفعل بمصدره كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤) وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ يعنى فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى عقوبة صدودهم، هذا وعيد وتهديد وتم الكلام. ثم ابتدأ الخبر عن فعلهم يعنى يتحاكمون إلى الطاغوت وهم يكفرون بالله ومعنى قوله ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أى يحيوك.

وقيل: أراد بالمصيبة قتل صاحبهم وذلك أنّ عمر (رضى الله عنه) لما قتل المنافق جاءوا قومه يطلبون الدية ويحلفون «إن أردنا» ما أردنا بكون إن بمعنى إذ وبمعنى ما، أى ما أردنا بالترافع إلى عمر. ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

قال الكلبى: إلاّ إحسانًا فى القول وتوفيقًا صوابًا.

ابن كيسان: حقًّا وعدلاً نظيرها ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (التوبة: ١٠٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ فى الملأ ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ وقيل: فأعرض عنهم وعظهم باللسان ولا تعاقبهم، وقيل: توعّدهم بالقتل إن لم يتوبوا من الشرك أعرض عنهم وعظهم يعنى فى الملأ. ﴿وَقُل لَّهُمْ ... قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ فى السر والملأ، وقيل: هذا منسوخ بآية القتال.



﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ

أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

روى الصادق عن علي (عليهما السلام) قال: قدم علينا امرؤ عندما دفنّا رسول الله ﷺ ثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبي عليه الصلاة والسلام وحثا على رأسه من ترابه وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت من الله فوعينا عنك وكان فيما أنزل الله عليك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ فقد ظلمت نفسي فجئتك لتستغفر لي فنودي من القبر أنه قد غفر لك.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية.

نزلت في الزبير بن العوام وخصمه، واختلف في اسمه، فقال الصالحي: ثعلبة بن الحاطب، وقال الآخرون: حاطب بن أبي بلتعة وذلك أنهما اختصما إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحزة كانا يستقيان به النخل فقال ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الرجل، فقال: يا رسول الله أكان ابن عمتك؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ أرسل يا زبير ثم احبسْ الماء حتى ترجع الجدد فاستوف حقك ثم أرسل إلى جارك.

وكان رسول الله ﷺ أشار إلى الزبير بالسقي له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله ﷺ استوعب الزبير حقه في صريح الحكم. ثم خرجا فمرّا على المقداد، فقال: لمن كان القضاء بالسقاية؟ فقال: قضى لابن عمته، ولوى شدْقَه.

ففطن به يهودي كان مع المقداد، فقال: قَاتل الله فلولا يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه كانوا أقضى منهم، وايمُ الله لقد أذنبنا ذنبًا مرة واحدة في حياة موسى (عليه السلام) فدعانا موسى إلى التوبة منه، وقال: فاقتلوا أنفسكم ففعلنا مع ذلك فقتلنا سبعين ألفًا في طاعة ربنا حتى رضي عنا.

فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إن الله ليعلم مني الصدق لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت، فأنزل الله تعالى في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وليِّه شِدْقه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وقال مجاهد والشعبي: نزلت في قصة بشر المنافق واليهودي اللذين اختصما إلى عمر

(رضى الله عنه) وقد مضت القصة.

قوله ﴿فَلَا﴾ يعنى ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثم لا يرضون بحكمك ويصدون عنك ثم استأنف القسم فقال ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويجوز أن يكون لا صلة كقولهم وهم ممن يحكموك أى يجعلوك حكمًا ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أى اختلف واختلط من أُمورهم والتبس عليهم حكمه، ومنه الشجر لاختلاف أعضائه وقل يعطى الهودج شجار لتداخل بعضها فى بعض.

قال الشاعر:

نفسى فداؤك والرماح شواهر والقوم فى ضنك للقـاء قيام

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أى ضيقًا وشكًّا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ومنه قيل للشجر الملتف الذى لا يكاد يوصل إليه حرج وحرجة وجمعها حراج.

وقال الضحاك: أى إثمًا يأتون بإنكارهم لما قضيت ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى يخضعوا وينقادوا إليك انقيادًا ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ فرضنا وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ما أمرنا بنى إسرائيل: ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ كما أمرناهم بالخروج من مصر ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أرجع الهاء إلى فعل القتل والخروج لأن الفعل وإن اختلفت أجناسه فمعناه واحد ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذه الآية نزلت فى قول ثابت بن قيس وكان هو من القليل الذى استثنى الله عز وجل ورفع القليل على ضمير الفاعل بأنهم فعلوه وقلّ على التكرار تقديره: ما فعلوه، تم الكلام. ثم قال: إلاّ أنه فعله قليل منهم. كقول عمر بن معدى كرب:

فكلُّ أخ مفارقه أخـوه لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

وقرأ أُبى بن كعب وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق وابن عامر (قليلاً) بالنصب، وكذا هو فى مصاحف أهل الشام على (النصب) وقيل: فيه إضمار تقديره إلاّ أن يكون قليلاً منهم.

قال الحسن ومقاتل: لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار وابن مسعود وناس صحبوا رسول الله ﷺ وهم القليل: والله لو أمرنا لفعلنا، فالحمد لله الذى عافانا، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «إن من أُمتى لرجالاً الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى».

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ تحقيقًا وتصديقًا لإيمانهم.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثوابًا.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾: نزلت هذه الآية فى ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغير

لونه وقلّ لحمه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا ثوبان ما غيّر لونك؟».

فقال: يا رسول الله ما بى مرض، ولا وجع، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك، وتوجّست وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وأنى وإن أدخلت الجنة، كنت فى منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذلك حين لا أراك أبدًا.

فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين».

وقال قتادة ومسروق بن الأجدع: إنّ أصحاب محمد ﷺ قالوا: ما ينبغى لنا أن نفارقك فإنا لا نراك إلاّ فى الدنيا فأما فى الآخرة فإنك ترفع فوقنا بفضلك فلا نراك، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ فى الفرائض ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ فى السنن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ وهم أفاضل أصحاب محمد ﷺ ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الذين استشهدوا فى سبيل الله ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من صلحاء أمة محمد ﷺ.

قال عكرمة: النبيون: محمّد، والصديقون: أبو بكر الصديق، والشهداء عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، والصالحون سائر أصحابه. ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ يعنى دومًا فى الجنة كما يقول: نعم الرفقا هم.

والعرب تضع الولى فى معنى الجمع كثيرًا، كقوله: نحن منكم قبلاً، ويولون الدبر أى الأدبار، ويقولون: ينظرون من طرف خفى.

وقوله ورفيقًا نصب على خبر ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ (إحسان) ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ يعنى بالآخرة وثوابها.

وقيل: بمن أطاع رسول الله وأحبه، وفى هذه الآية دلالة على خلافة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) وذلك أن الله تعالى لما ذكر مراتب أوليائه فى كتابه بدأ بالأعلى منهم، وهم النبيون فجعل الروضة الأعلى للنبيين فلم يجز أن يتقدمهم فيها أحد وثنى بذكر الصديقين فلا يجوز أن يتقدمهم أحد غير النبيين ولأن يكون من النبى صديق فوهم، وقد أجمع المسلمون على تسمية أبى بكر صديقًا كما أجمعوا على تسمية محمد رسول الله ولم يجز أن يكونوا غالطين فى تسميتهم محمد الرسول كذلك لا يجوز أن يكونوا غالطين فى تسمية أبى بكر صديقًا فإذا صح أنه صديق وأنه ثانى رسول الله ﷺ فلم يجز أن يتقدّمه بعده أحد والله أعلم،

وفى قوله ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنّهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم بل نالوها بفضل الله خلافًا، لما قالت المعتزلة: إن العبد إنما ينال ذلك بفعله فلما أحسن الله على عباده بما آتاهم من فضله فكان لا يجوز أن يثنى على نفسه بما لم يفعله، فثبت ذلك على بطلان قولهم ثم علّمهم مباشرة الحروب، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ من عدوكم أى عدتكم وآلاتكم من السلاح ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥) والحِذر والحَذر واحد، كالمثل والمَثل، والعدل والعَدل، والشِّبه والشَّبه، ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ أى اخرجوا ﴿ثُبَاتٍ﴾ أى سرايا متفرقين كسرية بعد سرَية وجماعة بعد جماعة، والثبات الجماعات فى تفرقه واحدها ثبة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ أى مجتمعين كلّكم مع سلم واستدل أهل القدر بهذه الآية.

بقوله ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ قالوا: لولا أن الحذر يمنع عنهم مكائد الأعداء ما كان لأمره بالحذر إياهم معنى.

فيقال لهم: الائتمار لأمر الله والانتهاء عن نهيه واجب عليهم لأنهم به يسلمون من معصية الله عز وجل لأن المعصية تزل، فائتمروا وانتهوا عمّا نهوا عنه.

وليس فى هذه الآية دليل على أن حذرهم ينفع من القدر شيئًا، وهذا كقول النبى (صلى الله عليه وآله وسلم): «اعقلها وتوكّل».

والمراد به طمأنينة النفس لا أن ذلك يدفع القدر، كذلك فى أخذ الحذر فهو الدليل على ذلك، أن الله تعالى أثنى على أصحاب رسول الله ﷺ بقوله حاكيًا عنهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة: ٥١) وأمر بذلك رسول ﷺ، كان يصيبهم غير ما قضى عليهم ما كان هذا منى.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾. قال بعضهم: نزلت هذه الآية فى المؤمنين لأن الله خاطبهم بقوله ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ وقد فرق الله بين المؤمنين والمنافقين بقوله ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ (المجادلة: ١٤).

وقال أكثر أهل التفسير: إنّها نزلت فى المنافقين وإنما جمع (منهم) فى الخطاب من جهة الجنس والسبب ومن جهة الإيمان من ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أى ليثاقلن ويتخلفنّ عن الجهاد والغزو.

وقيل: معناه ليصدّقن غيره، وهو عبد الله بن أُبىّ المنافق وإنما دخلت (اللام) فى (من) لمكان (من) كما تقول: إنّ فيها لأخاك فاللام فى (ليبطئن) لام القسم وهى صلة لمن على اعتماد شبه باليمين كما يقال هذا الذى ليقومن وأرى رجلاً ليفعلن.

﴿فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أى قتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾ عهد ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أى حاضرًا فى تلك الغزاة فيصيبنى مثل ما أصابهم، يقول الله ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ أى معرفة.

وقال معقل بن حيان: معناه كأن ليس من أهل دينكم وأن نظم الآية وقوله ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾ متصل بقوله ﴿فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ ﴿وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أى فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المنافق قول نادم حاسد: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ فى تلك الغزاة ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أى آخذ نصيبًا وافرًا من الغنيمة.

وقوله (فأفوز) نصب على نحو التمنى بالفاء، وفى التمنى معنى يسرنى أن أفعل ما فعل كأنه متشوق لذلك النصيب، كما يقول: وددت أن أقوم فمنعنى أُناس ثم نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن أُحد.



﴿۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ أى أنهم يختارون الحياة الدنيا على الآخرة ومعنى يشرون يشترون، يقال شريت الشىء أى اشتريت، وحينئذ يكون حكم الآية: آمنوا ثم قاتلوا، لأنه لا يجوز أن يكون الكافر مأمورًا بشىء مقدم على الإيمان.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية فى المؤمنين المخلفين ومعناه (فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يبتغون الحَيَاةَ الدُّنْيَا بالآخِرَةِ).

ثم قال: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ﴾ أو من يستشهد أو يعذب أو يظفر ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ فى كلا الوجهين ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ يعنى الجنة ثم خصَّ المؤمنين على السعى فى تخليص المستضعفين مثل ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَـٰتِلُونَ﴾ أى تجاهدون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعنى فى طاعة الله ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ فى موضع الخفض.

قال الكلبى: عن أبى صالح عن ابن عباس ومعناه عن المستضعفين وكانوا بمكة يلقون من المشركين أذى كثيراً وكانوا يدعون ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَـٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ يعنى مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ أى التى من صفتها أن أهلها ظالمون مشركون وإنّما خفض الظالم لأنه نعت الأهل فلما عاد الأهل إلى القرية كان فعل ما أضيف إليها بمنزلة فعلها كقوله: مررت بالرجل الواسعة داره، ومررت برجل حسنة عينه.

﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ يمنعنا من المشركين فأجاب الله دعاءهم.

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة جعل الله لهم النبى وليًّا فاستعمل عليها عتّاب بن أُسيد.

فجعله الله لهم نصيراً وكان ينصف للضعيف من الشديد نصرهم الله به وأعانهم وكانوا أعز بها من الظلمة قبل ذلك.

وفى هذه الآية دليل على إبطال قول من زعم أنّ العبد لا يستفيد بالدعاء معنى لأن الله تعالى حكى عنهم أنّهم دعوه وأجابهم وآتاهم ما سألوه ولولا أنّه أجابهم إلى دعائهم لما كان لذكر دعائهم معنى، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى طاعته ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ أى فى طاعة الشيطان ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ﴾ أيها المؤمنين ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ﴾ أى حزبه وجنده ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ﴾ ومكره وصنيعه ومكر من اتّبعه ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ كما خذلهم يوم بدر. ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾.

قال الكلبى: نزلت فى عبد الرحمن بن عوف الزهرى والمقداد بن الأسود الكندى وقدامة ابن مظعون الجهنى وسعد بن أبى وقاص الزهرى وكانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة فيشكون إلى رسول الله ﷺ ويقولون يا رسول الله ائذن لنا فى قتال هؤلاء فإنّهم آذونا فيقول لهم: «كفّوا أيديكم، فإنى لم أُومَر بقتالهم».

فلما هاجروا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين وأمرهم رسول الله ﷺ بالمسير إلى بدر فلما عرفوا أنه القتال كرهه بعضهم وشق عليهم فأنزل الله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ بمكة عن القتال ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ بالمدينة أى فرض

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ يعنى مشركى مكة ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ﴾ أى أكبر ﴿خَشْيَةً﴾.

وقيل: وأشد خشية كقوله آية ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ لمَ فرضت علينا القتال ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يعنى الموت ألا تركتنا إلى أن نموت بآجالنا.

واختلفوا فى قوله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ فقال قوم: نزلت فى المنافقين لأن قوله ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أى لمَ فرضت، لا يليق بالمؤمنين، وكذلك الخشية من غير الله.

وقال بعضهم: بل نزلت فى قوم من المؤمنين لم يكونوا راسخين فى العلم، وأهل الإيمان يتفاضلون فى الإيمان منهم الكامل الذى لا يخرجه إيمانه من غلبة الطبع عليه. ومنهم من ينقص عن تلك الحالة فينفّر نفسه عمّا يؤمر به فيما يلحقه فيه الشدة.

وقيل: نزلت فى قوم كانوا مؤمنين فلما فرض عليهم الجهاد نافقوا عن الجهاد من الجبن، وتخلفوا عن الجهاد.

ويدلّ عليه أن الله لا يتعبد الكافر والمنافق بالشرائع بل يتعبدهم أولاً بالإيمان ثم بالشرائع فلما نافقوا نبّه الله على أحوالهم.

وقد قال الله مخبراً عن المنافقين ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ (المنافقين: ٣).

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا﴾ أى منفعتها والاستمتاع بها ﴿قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ﴾ يعنى وثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل ﴿لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشرك بالله ونبوة الرسول ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

قال ابن عباس وعلى بن الحكم: الفتيل الشق الذى فى بطن النواة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ﴾ أى ينزل بكم ﴿الْمَوْتُ﴾ نزلت فى قول المنافقين لما أُصيب أهل أحد، ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران: ١٥٦) فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

قتادة: فى قصور محصنة، عكرمة: مجصّصة مشيّدة مُزيّنة، القتيبى: مطولة.

الضحاك عن ابن عباس البروج: الحصون والآطام والقلاع.

وفى هذه الآية ردّ على أهل القدر، وذلك أنّ الله حكى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران: ١٥٦) وقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ ردَّ على الفريقين بقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ فعرّفهم بذلك أن الآجال متى انقضت فلا بد من زوال الروح، ومفارقتها الأجسام.

فإن كان ذلك بالقتل، وإلاّ فبالموت. خلافًا لما قالت المعتزلة من أن هذا المقتول لو لم يقتله هذا القاتل لعاش، فوافق قولهم هذا الكفار، فردَّ الله عليهم جميعًا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ الآية.

نزلت فى المنافقين واليهود، وذلك أنهم قالوا لما قدم رسول الله ﷺ المدينة: ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا، ومزارعنا، منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعنى اليهود والمنافقين، أى خصب وريف ورخص فى السعر ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعنى الجدب وغلاء السعر وقحط المطر ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أى من قوم محمد وأصحابه.

وقال بعضهم: معناه إن تصبهم حسنة يعنى الظفر والغنيمة، يقولوا هذه من عند الله فإن تصبهم سيئة يعني بالقتل والهزيمة، يقولوا هذه من عندك، أنت الذى حملتنا عليه يا محمد ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أى الحسنة والسيئة كلها من عند الله.

ثم عيّرهم بالجهل.

فقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يعنى المنافقين واليهود ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أى ليسوا يفقهون قولاً إلاّ التكذيب بالنعمة.

قال الفراء: قوله فما لهؤلاء القوم كذبوا فى الكلام، حتى توهّموا أن اللام متصلة بها، وأنهما حرف واحد، ففصلوا اللام فى هؤلاء فى بعض المصاحف، ووصلوها فى بعضها والاتصال بالقراءة، ولا يجوز الوقوف على اللام لأنّها لام خافضة.

❖ ❖ ❖

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝﴾

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أى: من خير ونعمة ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أى بلية وأمر تكرهه ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أى، من عندك وأنا الذى قدرتهما عليك، الخطاب للنبى ﷺ، والمراد به

غيره، نظيره.

قوله ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ (الشورى: ٣٠).

قال رسول الله ﷺ: «ما من خدش بعود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

وروى الهروي عن سفيان بن سعيد عمن سمع الضحاك بن مزاحم يقول: ما حفظ الرجل القرآن ثم نسيه إلاّ بذنب، ثم قرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) قال: فنسيان القرآن أعظم المصائب.

وقال بعضهم: هذه الآية متصلة بما قبله، وتقديره: فما لهؤلاء القوم لم يكونوا يفقهون حديثًا حتى يقولوا: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيّئة فمن نفسك؟ وتعلق أهل القدر بهذه الآية وقالوا: نفى الله السيئة عن نفسه بقوله ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ ونسبها إلى العبد، فيقال لهم: إن ما حكى الله تعالى لنبيه من قول المنافقين، أنهم قالوا إذا أصابتهم حسنة، هذه من عند الله، فإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك، لم يرد به حسنات الكسب، ولا سيئاته، لأن الذي منك فعل غيرك بك لا فعلك، ولذلك نسب إلى غيرك.

كما قال ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ﴾ (آل عمران: ١٢٠) ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ (الأعراف: ١٣١) وكل هذه سبب من الأسباب لا من الكسب ألا ترى أنه نسبها إلى غيرك، ولم يذكر بذلك ثوابًا ولا عقابًا، فلما ذكر حسنات العمل والكسب وسيئاتهما نسبهما إليك وذكر فيها الثواب والعقاب. كقوله ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠) وكأن ما حكى الله عن المنافقين من قولهم في الحسنات والسيئات لم يكن حسنات الكسب ولا سيئاته، ثم عطف عليه قوله ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى نفسك فلم يكن بقوله ﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ مثبتًا لما قد نفاه، ولا نافيًا لما قد أثبته، لأن ذلك لا يجوز على الحكيم جل جلاله، لكن من السبب الذي استحق هذه المصيبة، وكان ذلك من كسبه، ومنه قوله ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ (الشورى: ٣٠) فجعل هذه المصيبة جزاءً للفعل فإذا أوقع الجزاء لم يوقعه إلاّ على ما نسبه إلى العباد، كقوله ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) وقوله ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (التوبة: ٨٢) ليس فيه دليل على أنه لا يريد السيئة ولا يفعلها ولكن ما كان جزاءً، فنسبته إلى العبد على (طريق) الجزاء.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾ يا محمد ﴿رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على إنك رسول صادق.

وقيل فيك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن الحسنة والسيئة كلها من الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وذلك أن النبى ﷺ كان يقول: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أحبّنى أحبّه الله»، فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلاّ أن نتّخذه ربًا، كما فى حديث النصارى لعيسى، فأنزل الله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أمر به فقد أطاع الله ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عنه ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى حافظًا ورقيبًا.

وقال القتيبى: محاسبًا، فنسخ الله تعالى هذه الآية الشريفة، وأمره بقتال من خالف الله ورسوله ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يعنى المنافقين وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ، إنّا آمنّا بك فمرنا من أمرك طاعةً، وهم يكفرون به فى السر، وقوله (طاعة) مرفوعة على معنى منّا طاعة وأمرك طاعة وكذلك قوله: ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ﴾ (النور: ٥٣) مرفوعة أى قولوا: سمعًا وطاعة، وكذلك قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٠) وليست مرتفعة إليهم بل منى مرتفعة على الوجه الذى ذكرت. ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أى خرجوا ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أى زوّر وموّه وقيل هنا. فقال قتادة والكلبى: بيّت أى غيّر وبدّل الذى عهد إليهم النبى ﷺ ويكون السبب معنى التبديل.

قال الشاعر:

بيّت قولى عبد المليك قاتله الله عبدًا كفورًا

وقال القتيبى وأبو عبيدة: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أى قالوا وقدروا ليلاً غير الذى أعطوك نهارًا، وكل شىء قدر بليل من شر فهو تبييت.

قال عبيدة بن الهمام:

أتونى فلم أَرض ما بيّتوا وكانوا أتونى بشىء نكر
لأنكح أيمهم منذرًا وهل ينكح العبد حر بحر

وقال النمر بن تولب:

هبت لتعذلنى بليل أسمعى سفهًا تبيتك الملامة فاهجعى

وقال أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش: يقول العرب للشىء إذا قدر قد بيّت، يشبهونه تقدير بيوت (الشعر).

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أى ما يغيرون ويزورن ويقدرون:

الضحاك عن ابن عباس: يعنى ما تسرّون من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يا محمد فلا تعاقبهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى كفيلاً، وثقةً، وناصراً بالانتقام لك منهم، فنسخ الله تعالى

قوله ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ (التوبة: ٧٣) بالسيف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ (التوبة: ٧٣) بالكلام الغليظ.

فإن قيل: ما وجه الحكمة فى (أعدائه) ذكر مهلهم. ثم قال (بيت طائفة منهم) فصرف الخطاب من (جلهم) إلى بعضهم.

يقال: إذ إنما عَبر عن حال من علم الله وبقى على كفره ونفاقه، فأما من علم أنه يرجع عن ذلك فإنه صفح عن ذكرهم، وقد قيل: إنه غير عن حال من أحوالهم قد تستّر فى أمره، فأما من سمع وسكت فإنه لم يذكرهم، وفى قوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ دليل على إبطال قول من زعم أنّ السنّة تعرض على الكتاب لم يعمل بها وذلك أن كل ما نص الله عز وجل عليه فإنّما صار فرضًا بالكتاب، فإذا عدم النص من الكتاب، وورد به السنّة فوجب اتباعها، ومن خالفها فقد خالف رسول الله ﷺ، ومن خالف رسول الله فقد خالف الله، لأن فى طاعة الرسول طاعة الله، فمن زعم أنه لم يقبل خبره إلاّ بعد أن يعرض على كتاب الله، فقد أبطل كلّ حكم ورد عنه ما لم ينصّ عليه الكتاب.

وأما قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ ففيه دليل على أنّ من لم يعتقد الطاعة فليس بمطيع على الحقيقة، وذلك أن الله تعالى لمّا تحقّق طاعتهم فيما أظهروه، فقال: ويقولون ذلك لأنّه لو كان للطاعة حقيقة إلاّ بالاعتقاد لحكم لهم بها (فثبت) أنه لا يكون المطيع مطيعًا، إلاّ باعتقاد الطاعة مع وجودها.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعنى أفلا يتفكّرون فى القرآن، فيرون بعضه يشبه بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا، وإن أحدًا من الخلائق لم يكن يقدر عليه فسيعلمون بذلك أنه من عند الله إذ ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ أى تفاوتًا وتناقضًا ﴿كَثِيرٗا﴾ هذا قول ابن عباس.

وقال بعضهم: ولو كان هو من عند غير الله لوجدوا فيه أى فى الإخبار عما غاب عنهم. ما كان وما يكون اختلافًا كثيراً، يعنى تفاوتًا بينًا. إذ الغيب لا يعلمه إلاّ الله فيعلم بذلك أنه كلام الله وأنّ محمدًا رسول الله صادق، وفى هذه الآية دليل على أنّ القرآن غير مخلوق إذ هو معرى عن الإخلاق من كل الجهات ولو كان مخلوقًا لكان لا يخلو من اختلاف وتفاوت.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلبوا أو غُلبوا بادر المنافقون إلى الاستفسار عن حال السرايا فيفشون ويحدّثون به قبل أن يحدّث به رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ﴾ يعنى المنافقين، ﴿أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ كالهزيمة والقتل. ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ أى أشاعوه وأفشوه ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾

أى وإن لم يحدّثوا به ولم يفشوه حتى يكون النبى ﷺ هو الذى يحدّث به ويفشيه، وأولى الأمر أهل الرأى من الصحابة، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم.

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾.

الكلبى عن أبى صالح وابن عباس، وعلى بن الحكم عن الضحاك: يستنبطونه أى يتّبعونه.

وقال عكرمة: يحرصون عليه ويسألون عنه، وقال ابن عبيدة والقتيبى: يخرجونه، ويقال: استنبط استنبطه الماء إذا أخرجه.

(جويبر) عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ إنّ المنافقين كانوا إذا أمُروا بالقتال لم يطيعوا الله فيما أمرهم به، وإن نهاهم عن محارمه لم ينتهوا عنها، وإن أفضى الرسول إليهم سرًّا أذاعوا به إلى العدوّ ليلاً بتكتّم، فأنزل الله تعالى ردا عليهم ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ يعنى أمورهم فى الحلال والحرام ﴿إلى الرسول﴾ فى التصديق به والقبول ﴿وإلى أولى الأمر منهم﴾ يعنى حملة الفقه والحكمة ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ يعنى الذين يفحصون عن العلم، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى معناه لاتّبعتم الشيطان كلّكم.

قال الضحاك: هم أصحاب محمد ﷺ، يأمرهم بأمر من أمور الشيطان.

قال ابن عباس: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى بالقليل الذى امتحن الله قلوبهم يعنى على هذا القول يكون قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مستثنى من قوله ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾.

وقال بعضهم: فى الآية تقديم وتأخير معناه: لعلمه الذين يستنبطونه إلاّ قليلاً.

وقال بعضهم: معناه: إذا أذاعوا به قليلاً لم يذع ولم يفش، وهكذا قال الكلبى: واختار الفرّاء أيضًا هذا القول. وقال: لأنّ علم الله فاعتبر علمه المستنبط وغيره، والإذاعة قد تكون فى بعضهم دون بعض لذلك استحسن الاستثناء من الإذاعة، وفى هذه الآية دليل ممن يحبون القول بالاجتهاد عند عدم النص.

قال الله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فالعلم محيط بالاستنباط، ليس تلاوة.

وإذا كان إدراكه بالاستنباط، فقد دل بذلك على أن من العلم ما يدرك بالتلاوة والرواية وهو النص.

ومنه ما يدرك منه ومن المعنى، وحقيقة الاعتبار والاستنباط من القياس للحكم بالمعانى

المودعة فى النصوص غير الحكم بالنصوص ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لما التقى هو وأبو سفيان بن حرب يوم أُحد وكان من هربهم ما كان، ورجع أبو سفيان إلى مكة فواعد رسول الله ﷺ موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد قال الناس: اخرجوا إلى العدو.

فكرهوا ذلك كراهة شديدة أو بعضهم، فأنزل الله تعالى ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أى لا تدع جهاد العدو وإنصاف المستضعفين من المؤمنين ولو وحدك.

وقيل: معناه: لا تلزم فعل غيرك ولا تؤخذ به ولم يرد بالتكليف الأمر لأنه يقتضى على هذا القول ألا يكون غيره مأمورًا بالقتال.

والفاء فى قوله (فقاتل) جواب عن قوله ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤) فقاتل ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال أى حثّهم على الجهاد ورغّبهم فيه، فتثاقلوا عنه ولم يخرجوا معه إلى القتال، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين راكبًا حتى أتى موسم بدر، فكفّ بهم الله تعالى بأس العدو ولم يوافقهم أبو سفيان ولم يكن له أن يُوافق، فانصرف رسول الله ﷺ وأصحابه.

وذلك قوله ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ أى لعل الله ﴿أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أى قتال المشركين وصولتهم حين ولّيتم وهى من الله واجب، حيث كان، وقد جاء فى كلام العرب بمعنى اليقين.

قال ابن مقبل:

ظنّى أنهم كعسى، وهم بنتوفة　　　يتنازعون جوائز الأمثال

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أى أشد صولة وأعظم سلطانًا وأقدر على ما يريد ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أى عقوبة.

فإن قيل: إذا كان من قولكم: إن عسى من الله واجب فقد قال الله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ونحن نراهم فى بأس وشدة، فأين ذلك الوعد؟ فيقال لهم: قد قيل: إن المراد به الكفرة الذين كفّ بأسهم فى بدر الصغرى، والحديبية بقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (الفتح: ٢٤) الآية، فإن كان ظاهرها العموم فالمراد منها الخصوص.

وقيل: أراد به المدة التى أمر الله فيها القتال لزوال الكفر بقوله ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣) فعند ذلك يكف بأس الذين كفروا، وهو الوقت. حتى ينزل فيه (المهدى) فيكون حكمًا قسطًا ويظهر الإسلام على الدين كله.

وقيل: إن ذلك فى القوم قذف الله فى قلوبهم الرعب وأخرجهم من ديارهم وأموالهم بغير

قتال من المؤمنين لهم وهذا بأس قد كفّه الله عن المؤمنين.

وقد قيل: إنه أراد به اليهود والنصارى وهم يعطون الجزية وتركوا المحاربة، وقد كف بأسهم عن المؤمنين إذا صاروا يؤدّون الجزية صاغرين.



﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً﴾ أى يحسن القول فى الناس ويسعى فى إصلاح ذات البين ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ﴾ أى حظ ﴿مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً﴾ فيسيء القول فى الناس ويمشى بينهم بالنميمة والغيبة. ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾.

قال ابن عباس وقتادة: الكفل الوزر والإثم، وقال الفراء وأبو عبيدة: الحظ والنصيب، مأخوذ من قولهم: اكتفلت البعير إذا (أدرت) على سنامه أو موضع من ظهره كساءً وركبت عليه.

وقيل له: اكتفل لأنه لم يستعمل الظهر كلّه وإنما شغل شيئًا من الظهر.

وقال مجاهد: شفاعة حسنة وشفاعة سيئة شفاعة الناس وهم البعض.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: مقيتًا أى مقتدراً مجازيًا بالحسنة حسنة يقال: أقات أى اقتدر.

قال الشاعر:

وذى ضغن كففت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتًا

وأنشد النضر بن (شميل):

ولا تجزع وكن ذا حفيظه فإنى على ما ثناه لمقيت

المبرد: قتّ الشيء أقوته وأقيته أى كفَفته أمر قوته، ومجاهد: شاهداً، وقال قتادة: حافظًا، والمقيت للشيء الحافظ له.

وقال الشاعر، فى غير هذا المعنى:

ليت شعرى وأشعرن إذا ما قربوها منشورة ودعيت

إلىّ الفضل أم علىّ إذا حوسبت إنّى على الحساب مقيت

أى موقوف عليه وقال الفرّاء: المقيت المقتدر أن يعطى كل رجل قوته.

وجاء فى الحديث: وكفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت ويقيت، ثم نزل فى قوم بخلوا برد السلام ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ على المسلمين أى زيدوا عليها كقول القائل: السلام عليكم فيقول: وعليكم السلام ورحمة الله ونحوها، ومن قال لأخيه المسلم: السلام عليكم كتب له بها عشر حسنات، فإن قال: السلام عليكم ورحمة الله كتبت له عشرون حسنة، فإن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة، وكذلك لمن ردّ من الأجر.

قال ابن عباس: ومن يسلم عشر مرات فله من الأجر عتق رقبة وكذلك لمن ردَّ السلام عشر مرات ﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ بمثلها على أهل الكتاب وأهل الشرك فإن كان من أهل دينه فليزد عليه بأحسن منها، وإن كان من غير أهل دينه فليقل وعليكم لا يزيد على ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من رد السلام مثله أو بأحسن منه ﴿حسيبًا﴾ أى حاسبًا مجازيًا.

وقال مجاهد: حافظًا. أبو عبيدة: كافيًا مقتدراً، يقال: حسبى كذا أى كفانى.

واعلم أن بكل موضع وجد ذكرٌ كان موصولاً بالله فإن ذلك صلح للماضى، والخبر هو المستدل، فإذا كان لغير الله فإنه يكون على خلاف هذا المعنى.

ثم نزل فى الذين أنكروا البعث ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، واللام فى قوله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام القسم ومعناه، والله الذى لا إله إلاّ هو أعلم منكم فى الموت وفى إحيائكم إلى يوم القيامة.

وسمّيت القيامة قيامة، لأن الناس يقومون من قبورهم. قال الله تعالى ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ (المعارج:٤٣) وقيل: سميت قيامة لقيامهم إلى الحساب. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المطففين:٦) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أى قولاً ووعداً ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية.

نزلت هذه الآية فى ناس من قريش، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فأسلموا فأقاموا بها ثم ندموا على ذلك وأرادوا الرجعة، فقال بعضهم لبعض: كيف نخرج؟ قالوا: نخرج كهيئة البدو فإن فطن بنا قلنا: خرجنا نتنزّه، وإن غفل عنّا مضينا، فخرجوا بهيئة المتنزهين، حتى باعدوا من المدينة. ثم كتبوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إنّا على الذى فارقناك عليه من الإيمان والتصديق بالله وبرسوله، ولكنا (اجتوينا) المدينة، واشتقنا إلى أرضنا. ثم إنّهم خرجوا فى تجارة لهم، على الشام، فبلغ ذلك المسلمين، فقال بعضهم: ما يمنعنا أن نخرج إلى هؤلاء الذين رغبوا عن ديننا، وتركوا هجرتنا، وظاهروا على عدوّنا، فنقتلهم ونأخذ مالهم! وقالت طائفة منهم: كيف تقتلون قوماً على دينكم، إن لم يذروا ديارهم، وكان هذا بين يدى رسول الله ﷺ، وهو ساكت لا ينهى واحداً من الفريقين، حتى نزلت هذه الآية والآيات بعدها، فبين الله تعالى للنبى ﷺ شأنهم.

وقال زيد بن ثابت: نزلت فى ناس رجعوا يوم أحد عن النبى ﷺ وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا نقتلهم، فنزلت فيهم هذه الآية وقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة» يعنى المدينة.

وقال قتادة: ذكرهما أنهما كانا رجلين من قريش بمكة تكلّما بالإسلام ولم يهاجرا إلى النبى ﷺ، لقيهما ناس من أصحاب رسول الله ﷺ مقبلين إلى مكة فقال بعضهم: إنّ دماءهما وأموالهما حلال، وقال بعضهم: لا، (جلّ ذلك منا) فأنزل الله تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية.

وقال عكرمة: هم ناس ممن قد صبوا ليأخذوا أموالاً من أموال المشركين فانطلقوا بها إلى اليمامة فاختلف المسلمون فيهم فنزلت فيهم هذه الآية.

وقال مجاهد: هم قوم خرجوا مع النبى ﷺ إلى المدينة ثمّ ارتدّوا بعد ذلك واستأذنوا رسول الله ﷺ ليأتوا بضائع لهم يتاجرون فيها، فخاف المسلمون منهم فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، فبيّن الله تعالى نفاقهم.

وقال الضحاك: هم قوم أظهروا الإسلام بمكة فلما هاجر رسول الله ﷺ لم يهاجروا فاختلف المسلمون فيهم، فنزلت هذه الآية ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أى صرتم فى المنافقين فئتين فمحلّ ومحرّم، ونصب فئتين على خبر صار، وقال بعضهم: نصب على إلاّ. ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أى أهلكهم، ولكنهم تركوهم بكفرهم وضلالتهم بأعمالهم غير الزاكية يقال: أركست الشىء ركسته أى نكسته ورددته، وفى قراءة عبد الله: وإنى والله أنكسهم، وقال ابن رواحة:

أركسوا فى فتنة مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟﴾ أى ترشدوا إلى الهدى ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وقيل: معناه: أيقولون إنّ هؤلاء يهتدون والله قد أضلّهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن الهدى ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أى دينًا وطريقًا إلى الهدى ﴿وَدُّوا۟﴾ أى تمنّوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ شركاء فى ذلك مثلهم كفارًا، ثمّ أمرهم بالبراءة منهم فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الثانية معكم.

قال عكرمة: هى هجرة أخرى وبيعة أخرى، والهجرة على ثلاثة أوجه: أما هجرة المؤمنين أوّل الإسلام فمضى فى قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ (الحشر: ٨) وقوله ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٠٠)، وأما هجرة (المؤمنين) فهى الخروج فى سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابرًا محتسبًا. قال الله ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأما هجرة المؤمنين فهى أن يهجروا ما نهى الله عنه كما قال رسول الله ﷺ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن التوحيد والهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ يقول اسروهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ يعنى فى الحل والحرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يعنى ما ينافى العون والنصرة، وقوله ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ (القلم: ٩) لم يرد به جواب التمنى لأن جواب التمنى بالفاء منصوب بما أراد به الفسق على من نزل ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وودّوا لو تكونون سواء مثل قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم: ٩) أى ودّوا لو تدهن وودّوا لو تكفرون، ومثله ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ﴾ (النساء: ١٠٢) أى ودّوا لو تغفلون وودّوا لو تميلون، ثم استثنى طائفة منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ﴾ أى يتصلون بقوم وينتسبون إليهم يقال: اتصل أى انتسب، وفى قول النبى ﷺ: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه» أى من ادعى بدعوى الجاهلية.

قال الأعشى:

إذا اتصلت قالت لبكر بن وائل وبكر سبتها والأنوف رواغم

أى إذا انتسب.

ويقال: يصلون من الوصول أى يلحقون إليهم إلى قوم ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى عهد وهم (الأسلميون وذلك أن رسول الله ﷺ، وادع هلال بن عويمر الأسلمى عند خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه حتى أتى ويرى، ومن وصل إلى هلال من قومه أو غيرهم ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل الذى لهلال.

الضحاك عن ابن عباس: أراد بالقوم الذين بينهم وبينكم ميثاق. بنى بكر بن زيد مناة وكانوا فى الصلح والهدنة وقوله ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أى ضاقت صدروهم عن قتالكم، وهم بنو مدلج جاءوا المؤمنين ﴿أَوْ يُقَـٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ يعنى من آمن منهم، ويجوز أن يكون معناه: أنهم لا يقاتلوكم ولا يقاتلوا قومهم فعلم المؤمنون لا عليكم ولا عليهم ولا لكم.

وقال بعضهم: وبمعنى الواو. كأنه يقول: إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق وجاءوكم ضيقت صدورهم عن قتالكم، والقتال معكم، وهم قوم هلال الأسلميون وبنى بكر بن زيد (مناة) وقوله ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أى قد حصرت، كقول العرب أى ذهب (نظره) يريدون قد ذهب.

قال الفراء: سمع الكسائى بعضهم يقول: أصبحت فنظرت إلى ذات (البساتين).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ يعنى سلط الله المشركين على المؤمنين عقوبة ونقمة.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ عند القتال، ويقال يوم فتح مكة فهم يقاتلوكم مع قومهم ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أى المسالمة والمصالحة ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى حجة فى قتالهم، وعلى دينهم فأمر الله رسوله بالكف عن هؤلاء ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ غيرهم.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: هم أسد وغطفان (قدموا) المدينة، وكانوا قد تكلموا بالإسلام، وأقروا بالتوحيد دينًا وهم غير مسلمين.

وكان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا أسلمت؟ فيقول: هذا الرد بهذا العقرب والخنفساء.

وإذا لقوا محمدًا وأصحابه قالوا: إنا على دينكم، يريدون بذلك الأمن فى الفريقين جميعًا، فذلك قوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ ولا تعرضوا لهم ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ ولا تعرضوا لهم يرضونكم ويرضونهم.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : التوحيد ، الذين كانوا بهذه الصفة ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ يعنى إذا دعوا إلى الشرك رجعوا وعادوا إليه ودعوا عليه .

ثم بيّن لرسوله ﷺ أمرهم فقال ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أى فإن لم يكفوا عن قتالكم ويعتزلوكم حتى تسيروا . . . .[1] ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أى المقاد والصلح ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ أى أهل هذه الهدنة ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أى عهداً وحجة بيّنة فى قتالهم .

❖ ❖ ❖

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ بمكة قبل أن يهاجر رسول الله إلى المدينة وأسلم معه ، ثم خاف أن يظهر إسلامه لأهله ، وأن يبلغ أهل مكة إسلامه ، فخرج هاربًا من مكة إلى المدينة ، ثم قدمها فكان أطمًا من آطامها فتحصن فيه ، فجزعت لذلك أمه جزعًا شديداً ، حين بلغها إسلامه ، وخروجه إلى المدينة ، فقالت لابنها الحارث وأبى جهل بن هشام وهما أخواه لأمه : والله لا يظلنى سقف

(١) بياض بالأصل المخطوط .

ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى تأتونى به ، فخرج فى طلبه وخرج معهم الحارث بن زيد بن أبى أنيسة من الكعبة إلى المدينة ، فأتوا بالمدينة ، فأتوا عياشًا وهو فى الأطم «يعنى الجبل» فقالا له : انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك ، وقد حَلفت أن لا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا حتى ترجع إليها . ذلك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شىء ولا نحول بينك وبين دينك ، فلما ذكروا له خرج إليهم ثم حلفوا بالله ، فنزل إليهم فأخرجوه من المدينة ، ثم أوثقوه بنسع فجلده كل رجل منهم مائة جلدة ، ثم قدموا به على أمه وهى أسماء بنت مخرمة ، فلما دخل قالت : والله لا أفكك من وثاقك حتى تكفر بالذى آمنت به .

ثم تركوه متروكًا موثقًا فى الشمس ما شاء الله ثم أعطاهم الذى أرادوا فأتاه الحارث بن زيد ، فقال له : يا عياش هذا الذى كنت عليه ، فوالله لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كانت ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقاله ، وقال : والله لا ألقاك خاليًا أبدًا إلاّ قتلتك ، ثم إن حارثًا بعد ذلك أسلم وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وكان عياش يومئذ حاضرًا ، ولم يشعر بإسلامه فبينا عياش حاضر إذ لقى الحارث بن زيد ولما رآه حمل عليه فقتله فقال الناس : أى شىء (صنعت) إنه قد أسلم ، فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله قد كان أمرى وأمر الحارث ما قد علمت وإنى لم أشعر بإسلامه حتى قتلته ، فنزل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ أى لا ينبغى لمؤمن ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ وليس معنى قوله ﴿وَمَا كَانَ﴾ على النفى وإنما هو على التحريم والنهى كقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (الأحزاب : ٥٣) .

ولو كان ذلك على النفى لما وجدت مؤمنًا قتل مؤمنًا قط لأنّ ما نفى الله لم يجز وجوده . كقوله تعالى ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَآ﴾ (النمل : ٦٠) ولا يقدر العباد على إنبات شجرها البتة .

وقوله تعالى ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ عندنا ليس من الأول للمعنى .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ البتة إلاّ أن المؤمن قد يخطئ فى القتل وكفّارة خطئه ما ذكر بعده .

قال أبو عبيدة : العرب تستثنى الشىء من الشىء فليس منه على اختصار وضمير ، أى ليس مؤمنًا على حال ، إلاّ أن يقتل مخطئًا فإن قتله مؤمنًا فعليه ، كذا وكذا ، ومثله قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ (النجم : ٣٢) واللمم ليس من الكبائر ومعناه إلاّ أن يلم بالفواحش والكبائر أى يقرب منها .

ومثله قول جرير:

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ على الأرض إلاّ ذيل برد مرجّل

فكأنه قال: لم يطأ على الأرض إلاّ أن يطأ ذيل البرد فليس هو من الأرض.

وقال أبو خراش الهذلى:

أمست سقام خلاء لا أنيس به إلاّ السباع ومرّ الريح بالغرف

الغرف متجر يعمل فيها الغرابيل، وسقام واد لهذيل وكان أبو عمر الهذلى يرتع ذلك ومثله قوله الشاعر:

وبلدة ليس بها انيس إلاّ اليعافير وإلاّ العيس

يقول: إلاّ أن يكون بها اليعافير والعيس.

وقال بعضهم: إلاّ ههنا معنى لكن فكأنه قال ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ ولا عمداً إلاّ بحال. لكن إن قتله خطأ فكذا وكذا وهذا كقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً﴾ (النساء: ٢٩) معناه لكن تجارة عن تراض منكم.

وقوله ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أى فعليه تحرير أى إعتاق ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

قال المفسرون: المؤمنة المصلية المدركة التى حصّلت الإيمان، فإذا لم تكن المؤمنة جبرها الصغيرة المولود فما فوقه ممن ليس بها زمانة ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ أى كاملة إلى أهل القتيل الذين يرثهم ويرثونه ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أى يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ الآية على القاتل ولا دية لأهل القتيل، لأنهم كفار محاربون ومالهم فى المسلمين وليس بينهم وبين الله عهد، ولا ذمّة وذلك أن الرجل كان يسلم ولا يسلم من تبعه غيره وقومه حرب للمسلمين فيصيبه الرجل.

وروى حمّاد عن عطاء بن السائب عن ابن عباس قال: كان الرجل يسلم، ثم يأتى قومه وهم مشركون، فيمرّ بهم جيش من جيش النبى ﷺ فيقتل فيمن يقتل فيعتق قاتله رقبة ولا دية له، فنزلت هذه الآية ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وليست له دية، وكان الحارث بن زيد قتل مؤمنًا من قوم كانوا حربًا لرسول الله ﷺ، وكان فيه تحرير رقبة ولم يكن فيه دية ولكنّه لم يكن بين رسول الله ﷺ وبين قومه عهد ثم قال ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ أى عهد فأصبتم رجلاً منهم ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على الفاعل ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لا تفرق بين صيامه ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وجعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن قتله خطأ ﴿حَكِيمًا﴾ فيمن حكم عليه.

والدية فى الخطأ، مائة من الإبل، عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون حقّة، وعشرون جذعة، ويكلف العاقلة غير إبله وجعل دونها، وإن لم يكن فى بلده إبل كلف إبل أقرب البلدان إليه، فإن أعوزت الإبل فقيمتها بالدنانير أو بالدراهم كما قوّمها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وكان قد كلف الأعرابى الذهب والورق لأنه لم يجد الإبل ويؤخذ ذلك من القروى لإعواز الإبل.

فقال الشافعى فى القديم: على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثنا عشر ألف درهم.

وأما (أسنان) المغلظة فى شبه العمد والعمد إذا ردّ إلى الدية ليربطون خلفه، . . . . [1] حقّة، وثلاثون جذعة.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية نزلت فى معين بن ضبابة الكنانى، وذلك أنه وجد أخاه هشام ابن ضبابة قتيلاً فى بنى النجار وكان مسلمًا فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأرسل معه رسول الله ﷺ رجلاً من بنى فهر، فقال له: ايت بنى النجار؟ وأقرئهم السلام وقل لهم: إن رسول الله يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن ضبابة فيقتص منه وإن لم تعلموا له قاتلاً أن تدفعوا له ديته فأبلغهم الفهرى ذلك عن رسول الله ﷺ فقالوا: سمعًا وطاعة لله ولرسوله والله ما نعلم له قاتلاً ولكن نؤدى ديته قال: فأعطوه مائة من الإبل ثم انصرفا راجعين إلى المدينة وبينهما وبين المدينة قريب غَرَّهُ الشيطان قال: فوسوس إليه، فقال: أى شىء صنعت تقبل دية أخاك فيكون عليك سبّة اقتل الذى معك فيكون نفسًا مكان نفس ومعك الدية.

قال: فغفل معين الفهرى فرماه بصخرة فشدخ رأسه، ثم ركب بعيرًا منها وساق بقيّتها راجعًا إلى مكة كافرًا، فجعل يقول فى شعره:

قتلت به فهرًا وحملت عقله ... سراة بنى النجار، أرباب فارع

وأدركت ثأرى واضطجعت موسّدًا ... وكنت إلى الأوثان، أوّل راجع

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ بكفره، وارتداده عن الإسلام.

❖ حكم هذه الآية:

فقالت الخوارج والمعتزلة: إنّها نزلت فى المؤمن إذا قتل مؤمنًا وهذا الوعيد لاحق به.

وقال المرجئة: إنّها نزلت فى كافر قتل مؤمنًا، فأما المؤمن إذا قتل مؤمنًا فإنه لا يدخل النار.

وقالت طائفة من أصحاب الحديث: إنها نزلت فى مؤمن قتل مؤمنًا وواعد عليه ما لبث إلاّ

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أن يتوب أو يستغفر.

وقالت طائفة منهم: كل مؤمن قتل مؤمنًا فهو خالد فى النار غير مؤبد ويخرج منها بشفاعة وجزاء وزعموا أنه لا توبة لمن قتل مؤمنًا متعمدًا.

وعندنا أن المؤمن إذا قتل مؤمنًا متعمدًا فإنه لا يكفر بفعله ولا يخرج عن الإيمان، إلاّ إذا فعل ذلك على جهة الاستحلال والديانة.

فأما إذا لم يفعله على جهة الاستحلال والديانة فإنّ ديته قتيلاً ممن قتله وذلك كفارة له، فإن كان تائبًا من ذلك ولم يكن منقاداً ممن قيل كانت التوبة لهذا كفارة له.

وإن خرج من الدنيا بلا توبة ولا قود فأمره إلى الله إن شاء غفر له وأرضى خصمه بما شاء، وإن شاء عذبه على فعله ثم يخرجه بعد ذلك إلى الجنة التى وعدها إن شاء الله لا يخلف وعداً وترك المجازاة بالوعيد يكون تفضلاً، وترك المجازاة بالوعد يكون خلفًا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والدليل على أن المؤمن لا يصير بقتله المؤمن كافراً ولا خارجًا من الإيمان أنّ الله تعالى حين ذكر إيجاب القصاص سمّى القاتل مؤمنًا بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة:١٧٨).

والقصاص لا يكون إلاّ فى قتل العمد فسمّاهم مؤمنين وآخى بينهم كقوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ (البقرة:١٧٨) فلم يرد به إلاّ أخوة الإيمان، والكافر لا يكون أخًا للمؤمن.

ثم قال ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة:١٧٨) وذلك لا يلحق الكفار ثم أوجب على المعتدين بعد ذلك عذابًا أليمًا بقوله ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٨).

ولم يرد مع مثلها الغضب، ولا التخليد فى النار ولا يسمى هذا العذاب ناراً، والعذاب قد يكون ناراً وقد يكون غيرها فى الدنيا، ألا ترى إلى قوله ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ (التوبة:١٤) يعنى القتل والأسر، والدليل عليه قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (المائدة:٦) مخاطبًا المقاتلين فخاطب به المصلين ولو كان القتل يخرجهم من الإيمان، لجاز مخاطبتهم به لذلك قال الله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ (الحجرات:٩) واقتتال الطائفتين كان على العمد أو على الخطأ، والدليل عليه أيضًا ما روى عن النبى ﷺ أنه كان يبلّغ أصحابه على أن لا يشركوا بالله شيئًا ولا يقتلوا النفس التى حرم الله إلاّ بالحق وعلى ما فى القرآن ممن فعل من ذلك شيئًا، فكان عليه أجر فهو كفارة له، ومن كفر بالله فأمره إلى الله عز وجل إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ولو كان القاتل خارجًا عن الإسلام. لم يكن لقول النبى ﷺ معنى، وروى أنّ مؤمنًا قتل مؤمنًا

متعمّدًا على عهد رسول الله ﷺ فلم يأمر القاتل بالإيمان من فعله ولو كان (كافرًا) أو خارجًا عن الإيمان لأمره أولاً بالإيمان.

وقال لطالب الدم: أتعفو؟ قال: لا ثم قال أتأخذ الدية؟ قال: لا، فأمره بقتله ثم أعاد عليه مرتين أو ثلاثة حتى قبل الدية ولم يحكم عليه القاتل بالكفر، ولو كان ذلك كفرًا لبينهُ رسول الله ﷺ لأن بكفر كان قد حَرُمَ بها أهله على، ولم يجز على الرسول الإغفال عنه لأنه الناصح، الشفيق، المبعوث بالتأديب والتعليم.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «ثلاثة من أهل الإسلام. الكفّ عمّن قال: لا إله إلاّ الله لا نكفره بذنب (ولا نخرجه من الإسلام بعمل)، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن تقوم الساعة، والإيمان بالأقدار».

ودليل آخر على أن القاتل لا يصير كافرًا بالقتل وهو أن الكفر من الجحود وأيضًا الشرك إضافة، والقاتل لم يجحد ولم قبول الفرائض ولا أضاف إلى الله شركاء، ولو جاز أن يكون كافرًا من لم يأت بالكفر فجاز أن يكون مؤمنًا من لم يأت بالإيمان . . . .[1].

وقد تكلفت الخوارج والمعتزلة بهذه الآية.

وقيل: إن المؤمن إذا قتل مؤمنًا متعمدًا يدخل فى النار مؤبدًا لأنّ الله تعالى قال: ﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾.

يقال لهم: إن هذه الآية نزلت فى كافر قتل مؤمنًا متعمدًا.

وقد ذكرنا القصة فيه وسياق الآية وروايات المفسرين (لها) على أنّا لو سلّمنا أنّها نزلت فى مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا، فإنا نقول لهم: لمَ قلتم إن الخلود هو التأبيد، خبرونا عن قول الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ (الأنبياء: ٣٤) فما معنى الخلد ههنا فى النار، يقولون: إن المراد به التأبيد فى الدنيا، والدنيا تزول وتفنى.

ومثله قوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٤) وكذلك قوله ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ (الهُمَزة: ٣) إنما يعنى فى الدنيا أفتقولون إنّه أراد به التأبيد؟

فإن قالوا: لا ولا بد منه، فيقال لهم: قد ثبت أن معنى الخلود هو معنى التأبيد، فكذلك يقول العرب: لأُودعنَّ فلانًا فى السجن، أفتقولون إنه أراد به التأبيد والسجن ينقطع ويفنى؟

وكذلك المسجون يدخل ويخرج منه فإن قالوا: إن الله لما قال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ دلَّ على كفره لأن الله لا يغضب إلاّ على من كان كافرًا أو خارجًا من الإيمان.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قلنا: إن هذه الآية لا توجب عليه الغضب لأن معناه ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أن يغضب عليه ويلعنه، وما ذكر الله من شيء وجعله جزاء لشيء فليس يكون ذلك واجبًا كقوله ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المائدة: ٣٣) وكم محارب لله ولرسوله لم يحلّ به شيء من هذه المعانى. إلى أن فارق الدنيا. ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠).

ولم يقل: أجزى بكل سيئة بسيئة مثلها.

ولو كان المعنيان فى ذلك سواء لم يكن إذًا لقوله ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ (المائدة: ١٥) معنى، فكذلك ههنا.

ولو كان ذلك على معنى الوجوب.

كان لقوله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ (الأنبياء: ٢٩) ووجدنا فى لغة العرب أنه إذا قال القائل: جزاؤه كذا ثم لم يجازه لم يكن كاذبًا، وإذا قال: أجزيه، ولم يفعل كان كاذبًا، فعلم أن بينهما فرقًا واضحًا يدل على صحة هذا التأويل.

ما روى العلاء بن المسيب عن عاصم بن أبى النجود عن ابن عباس.

قوله ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أى فى جزائه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وروى شعبة عن يسار عن أبى صالح قال: فهو جزاؤه إن جازاه فهو جزاؤه.

روى الحجاج بن الأسود عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: فى قوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ قال: جزاؤه إن جازاه (قال: فليس) قوله ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ من الأفعال الماضية.

ومتى قلتم: إن المراد منه فجزاؤه ذلك أن جازاه كان من الأفعال المستقبلة؟ يقال لهم: قد يرد الخطاب بصفة الماضى والمراد المستقبل.

وهو قوله ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ (الكهف: ٩٩). ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ (الكهف: ٤٧) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ (ق: ٢٣) كل ذلك يكون مستقبلاً، وقد يرد بلفظ المستقبل، والمراد به الماضى كقوله ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ (البروج: ٨).

بمعنى إلاّ أن آمنوا، ومثله كثير، وقد قيل فى تأويل هذه الآية: إن هذا الوعيد ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ مستحلاً لقتله، وأما قوله: من زعم أنه لا توبة له فإنه خارج من الكتاب والسنّة. وذلك يغفر الله لهم الذنوب.

وأمر بالتوبة منها فقال ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ (النور: ٣١) ونحوه من الآيات. ولم يفصل بين ذنب وذنب، وإذا كان الله قابل التوبة من الكفر فقبول التوبة من القتل أولى.

قال الله ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ (الفرقان: ٦٨) إلى قوله ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ (البقرة: ٦٢) وقال إخوة يوسف ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٩) ثم قال: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمًا صَـٰلِحِينَ﴾ (يوسف: ٩) يعنى بالتوبة وسُئل النبى ﷺ: أمن كل ذنب يقبل التوبة؟ فقال: نعم، فإن قيل: فلم يقولون فى الأخبار التى وردت أنّ القاتل لا توبة له؟ قيل: تأويلها إن صح الخبر بها على أنه إذا لم يرتكب ذنبًا ولم يستغفر الله منه ويدل على هذا ما حدّث:

خالد بن دهقان عن أبى زكريا قال: سمعت أم (الدرداء) تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلاّ من مات مشركًا أو قتل مؤمنًا متعمدًا».

قال خالد بن دهقان: فقال هانئ بن كلثوم: سمعت محمود بن ربيع يحدّث عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من قتل مؤمنًا ثم اغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً».

قال خالد: سألت يحيى بن الغسانى عن قوله: اغتبط بقتله، قال: هم الذين يقتتلون فى الفتنة فيقتل أحدهم فيرى أنه على هدى ولا يستغفر الله منه أبدًا.

سفيان عن أبى حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لا أعلم للقاتل توبة إلاّ أن يستغفر الله.

وروى أبو الأشهب عن سليمان بن على الكلبي عن الحسن أنه قرأ هذه الآية ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾ (المائدة: ٣٢) إلى قوله ﴿جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢). هات يا أبا سعيد، أى علينا كما كانت على بنى إسرائيل.

فقال: إى والله الذى لا إله إلاّ هو ما جعل دماء بنى إسرائيل أكرم من دمائنا، فإن قيل: فما تقولون فيما روى سفيان عن المغيرة بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ قال: ما (نسخها) شىء.

وروى الحجاج عن ابن جريج عن القاسم بن أبى (بزة) أنه سأل سعيد: هل لمن قتل مؤمنًا من توبة؟ فقال: لا، فنزلت عليه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ (الفرقان: ٦٨) إلى قوله ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ (الفرقان: ٧٠).

قال سعيد: فقرأها علىّ ابن عباس كما قرأتها علىّ فقال: هذه مكّية نسختها أية مدنية التى فى سورة النساء.

وروى أبو الزناد عن خارجة بن زيد عن أبيه زيد بن ثابت قال: لما نزلت هذه الآية التى فى الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ (الفرقان: ٦٨) إلى قوله ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ (الفرقان: ٧٠)

عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت في سورة النساء ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآية فنسخت الغليظة اللينة يقال: إن الغليظة نزلت بعد اللينة بستة أشهر.

نقول ومن الله التوفيق: إن قول المفسرين واختلافهم في الآيتين أيهما أنزلت قبل، وقوله: إن واحدة منها ناسخة والأخرى منسوخة فلا فائدة منه إذ ليس سليمًا سبيل الناسخ والمنسوخ، لأن النسخ لا يقع في الأخبار، وإنما يقع في الأحكام والآيتان جميعًا (خبر أنّ).

فإن تكن الآية التي أنزلت في النساء أولاً فإنها مجملة لم يستوف حكمها بالنص.

وفسر حكمها في الآية التي في الفرقان.

وإن كانت هي في الفرقان نزلت متقدمة. ثم أُنزلت التي في النساء فإنه استغنى بتفسير ما في القرآن عن إعادة تفسيرها في النساء والله أعلم.

وأما قول من زعم أن من وافى القيامة وهو مرتكب الكبائر. وهو مؤمن لم يضره ذلك فإنه (رادّ) لكتاب الله تعالى لأن الله تعالى قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨)، فلم يطلق المغفرة لما دون الشرك بل ردّه إلى المشيئة ليعلم أن منه ما يكون مغفوراً أي ما يكون صاحبه معذوراً ثمّ يخرج من النار فلا يؤبد فيها، ويؤيد ذلك قضية الشفاعة وغيرها.

فدلت هذه الدلائل على بطلان قول الوعيدية والمرجئة، وصحة قولنا، فهذا حكم الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رجل من بني مرة بن عوف بن سعد (بن ذبيان) يقال له: مرداش بن نهيك وكان من أهل فدك وكان مسلمًا لم يسلم من قومه غيره، فسمعوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدهم وكان على السرية يومئذ رجل يقال له غالب بن فضالة الليثي فهربوا وأقام الرجل لأنه كان على دين المسلمين.

فلما رأى الخيل خاف أن تكون من غير أصحاب رسول الله ﷺ، فألجأ غنمه إلى عاقول في الجبل وصعد هو إلى الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبّرون، فلما سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب رسول الله ﷺ فكبّر فنزل وهو يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أُسامة بن زيد بن حارثة فقتله وأخذوا غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه الخبر فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجدًا شديداً.

وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر.

فقال رسول الله ﷺ: «قتلتموه إرادة ما معه» ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على أسامة بن زيد فقال: يا رسول الله استغفر لى وقال: «فكيف بلا إله إلاّ الله» قالها رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

قال أُسامة: فما رآنى رسول الله ﷺ بعدها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلاّ يومئذ ثم إن رسول الله ﷺ استغفر لى بعد، ثلاث مرات. فقال: أعتق رقبة.

وبمثله قال قتادة: وروى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس. قال: مرّ رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ معه غنم فسلّم عليهم فقالوا: ما سلم عليكم إلاّ متعوّذًا، فعمدوا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وروى المبارك عن الحسن أنّ أُناسًا من المسلمين لقوا أُناسًا من المشركين فحملوا عليهم فهزموهم قال: فشدَّ رجل منهم وتبعه رجل وأراد متاعه فلما غشيه بالسيف قال: إنى مسلم إنى مسلم وكذّبه ثم أوجره السنان فقتله وأخذ متاعه.

قال: وكان والله قليلاً نزرًا.

قال: فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: أقتلته بعدما زعم أنه مسلم!، فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذًا، فقال رسول الله ﷺ «فهلاّ شققت عن قلبه؟».

قال: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «لتنظر صادقًا كان أو كاذبًا» قال أوكنت أعلم ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما ينبئ عنه لسانه» قال: فما لبث القاتل أن مات ودفن فأصبح. وقد وضع إلى جنب قبره، ثم عادوا فحفروا له فأمكنوا ودفنوه فأصبح وقد وضع إلى جنب قبره مرتين أو ثلاثًا فلما رأى أصحاب رسول الله ﷺ أن الأرض لا تقبله أخذوا رجله وألقوه فى بعض تلك الشعاب، قال: فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال الحسن: أما ذاك ما كان أن تكون الأرض (تحبس) من هو شر منه ولكن وعظًا لقوم أن لا يعودوا إلى مثل فعله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى إذا سرتم فى الأرض مجاهدين ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ يعنى المؤمن من الكافر، ومن قرأ بالتاء والثاء أى قفوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنًا﴾ لأن تحية المؤمن السلام بها يتعارفون وبها يحيى بعضهم بعضًا.

قال: ابن سيرين: إنما قال: ﴿إِلَيۡكُمُ﴾ لأنه سلّم عليهم رجل فقتلوه ومن قرأ السّلام فمعناه المقادة يعنى يطلبون بذلك الغنم والغنيمة وسلب وعرض الدنيا منافعها ومتاعها، ويقال:

العرض ما سوى الدراهم والدنانير ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يعنى ثوابًا كثيرًا لمن ترك قتل المؤمن ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ تأمنون فى قومكم من المؤمنين بلا إله إلاّ الله قبل الهجرة فلا تخيفوا من قالها، فنهاهم أن يخيفوا أحدًا بأمر كانوا يأمنون بمثله وهم فى قومهم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالهجرة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أن تقتلوا مؤمنًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ﴿خَبِيرًا﴾.

روى معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، قال: حرّم الله على المؤمن أن يقول لمن عهد أن لا إله إلاّ الله: لست مؤمنًا، كما حرّم عليهم الميتة فهو آمن على ماله ودمه فلا يردّوا عليه قوله (وهو مؤمن).

زعم ابن (سيرين) هو القول بهذه الآية.

وقالوا لما قال الله ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ منعهم من قبلهم بعد إظهارهم الإسلام ولم يكن ذلك إلاّ قولهم فلولا أن الإيمان هو القول، وذلك أن القوم لما شكّوا فى حال أصله كان هذا القول منه تعوذًا فقتلوه والله تعالى لم يجعل إلى عبده غير الحكم بالظاهر.

وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله» وليس فى ذلك أن الإيمان هو الإقرار فقط. ألا ترى أنّ المنافقين كانوا يقولون هذا القول. ثم لم يكن ذلك إيمانًا منهم.

وقد تبين من معنى هذه الآية أن النبى ﷺ قال: «هلا شققت عن قلبه» فثبت أن الإيمان هو الإقرار وغيره، وأنّ حقيقة التصديق بالقول، ولكن ليس للعبد حكم إلاّ على ما سمعه منه فقط، وفى هذه الآية ردٌّ على أهل القدر وهو أنّ الله تعالى أخبر أنه منّ على المؤمنين من بين جميع الخلق. ممن خصّهم بالتوفيق فصاروا مخصوصين بالإيمان وأنّ الله لو خلق الخلق كلّهم للإيمان. كما زعمت القدرية فما معنى اختصاصهم بالمنة من بين الخلق كلّهم، وبالفصل بينهم وبين من قال إنّ المتنعم فى الإيمان بالله إذا كانوا مساوين لغيرهم فى جميع المعانى فأقروا ولم يعاندوا كما عاند غيرهم منع مساواتهم لهم فى جميع المعانى.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ الآية.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: لما ذكر الله فضيلة المجاهدين على القاعدين عن غيرهم فى الجهاد أتى عبد الله بن أم مكتوم وعبد الله بن جحش الأسدى. وليس الأزدى. وهما عميان فقال: يا رسول الله ذكر الله فضيلة المجاهدين على القاعدين فأمر بالجهاد وحالنا على ما ترى ونحن نلبى الجهاد فهل لنا من رخصة فنزل ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ فى البصر فهم من الذين جاهدوا مع المجاهدين لزمانتهم.

وروى مجاهد عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن أم مكتوم: اللهم أنزل عذرى، فنزلت ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ فوضعت بينهم وكان بعد ذلك يغزو ويقول ادفعوا إلىّ اللواء ويقول: أقيمونى بين الصفين فإنى لا (أستطيع) أن أفرّ.

معمر عن ابن شهاب عن زيد بن ثابت قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى وقد أملى علىّ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعرض ابن أم مكتوم قال: فبقيت فخذ رسول الله على فخذى حتى كادت تتحطّم ونزلت عليه ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ وبقية الآية ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن الغزو أو الجهاد، الذين هم غير أولى الضرر وهم أولى الزمانة والضعف فى الدين والبصر، والضرر مصدر، يقال: رجل ضرير من الضرر.

وروى معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: أولى الضرر.

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أى ليس المؤمنون القاعدون عن الجهاد من غيرهم والمؤمنون المجاهدون غير أولى الضرر فإنهم يساوون المجاهدين، لأن الضرر أقعدهم عنه والضرر رفع على نعت القاعدين، ونُصبَ على الاستثناء ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أى فضيلة ﴿وَكُلًّا﴾ يعنى المجاهد والقاعد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ومن يجاهد .... [1] من فضل المجاهدين فقال ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال: كان يقال: الإسلام درجة، والهجرة فى سبيل الله درجة، والجهاد فى الهجرة درجة والقتل فى الجهاد درجة.

وقال ابن.... [1] فى هذه الآية: هى سبعون درجة ما بين كل درجتين عدد سبعين خريفًا.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا
ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية. نزلت فى ناس من أهل مكة دخلوا فى الإسلام ولم يهاجروا، منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة. وقيس بن الوليد بن المغيرة وأنهم أظهروا الإيمان وأسرّوا النفاق فلما كان يوم بدر خرجوا مع المشركين إلى حرب المسلمين فلما التقى الناس ورأوا قلة المؤمنين قالوا: غرّ هؤلاء دينهم، فقتلوا يوم بدر فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وهزموهم، فذكر الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أى يقبض أرواحهم ملك الموت.

وقوله ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ إن نَصَبتَ جعلته ماضيًا فيكون فى موضع النصب وإن نصبت أمسى فيكون على مستقبل ومعنى (تتوفاهم) وأراد بالملائكة ملك الموت لأن الله تعالى قد يحمل الخطاب فى موضع ويفسره فى موضع فيكون الحكم للمفسر فيرد عهد الله وقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يحتمل أن يكون أراد به ملك الموت واحتمل أن يكون غيره لكنه لمّا فسّره فى موضع آخر بقوله ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (السجدة: ١١) علم أن المراد بقوله ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملك الموت والله أعلم.

فإن قيل: فلم أخرجه بلفظ الجماعة؟ قيل: قد يرد الخطاب بلفظ الجمع والمراد به الواحد كقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ ولا عليك إن الله واحد.

ومثله فى القرآن كثير وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ظالمى أنفسهم بالشرك، والنفاق، ونصب

ظالمي على الحال من ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ في حال تحملهم أى شركهم ﴿قَالُواْ﴾ يعنى الملائكة.

﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أى فيماذا كنتم سؤال تقريع وتوبيخ ويجوز أن يكون معناه: فيمن كنتم أفى المشركين أم فى المسلمين؟

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ أى مقهورين عاجزين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعنى أرض مكة فأخرجونا معهم كارهين ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعنى الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ﴾ يعنى أرض المدينة ﴿وَٰسِعَةً﴾ أى آمنة ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ فتضلّوا بها وتخرجوا من بين أظهر مكة.

وروى سليمان بن عمرو عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ قال إذا عمل بالمعاصى فى أرض فأُخرج منها.

وروى سليمان بن عمرو عن عباد بن منصور بن الناجى عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب به الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ».

فأكذبهم الله عز وجل وإنّما أنّهم كانوا مستطيعين الهجرة فقال ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ﴾ أى منزلهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أى بئس المصير إلى جهنم.

ثم استثنى أهل مكة منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ يعنى المؤمنين المخلصين المقهورين بمكة لم يستطيعوا الهجرة ومنعوا من اللحوق بالنبى ﷺ ويتجهزون للحوق به ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ والمستضعفين نصب على الاستثناء من مأواهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لا يقدرون على حيلة ولا قوة ولا نفقة للخروج منها ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ لا يعرفون طريقًا إلى الخروج منها وقال: إنّما يعنى طريق المدينة قال ابن عباس: كنت أنا وأمى من الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً وكنت غلامًا صغيراً ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذين هم بهذه الصفة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أى يتجاوز ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وفى هذه الآية دليل على إمكان قول مَنْ قال إن الإيمان هو الإقرار فقط وذلك أن هؤلاء القوم كانوا قد أضمروا الإقرار فلم ينفعهم ذلك بعد أن لم تكن سرائرهم موافقة لأقوالهم ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى فى طاعة الله ﴿يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

مجاهد: مراغمًا كثيراً: أى متزحزحًا على كره.

على بن أبى طلحة: عن ابن عباس، وعلىّ بن الحكم عن الضحاك: المراغم: السهول من الأرض إلى الأرض.

أما السعة فسعة من الرزق، وبه قال مقاتل بن حيان.

وقال أبو عبيدة: المراغم والمهاجر واحد، يقال: راغمت قومى وهاجرتهم وهو المضطر، والمذهب فى الأرض.

قال النابغة الجعدى:

كطـــود يلاذ بأركانه عزيز المراغم والمهرب

وقال الشاعر:

إلى بلد غير دانى المحـل بعيد المراغم والمضطرب

قال القيسى: فأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج من قومه مراغمًا أى مغاضبًا لهم ومهاجرًا أى مقاطعًا عن دينهم، وقيل للمذهب مراغم وللمصير للنبى ﷺ هجرة لأنها كانت هجرة الرجل قومه.

وقيل: إن أصله من الرغام وهو التراب أى راغمته أى هاجرته ولم أبال وإن رغم أنفه أى ألصق بالتراب.

فلما نزلت هذه الآيات سمعها رجل من بنى ليث شيخ كبير (وضيئًا) يقال له: جندع فقال: والله ما أنا ممن استثنى الله وإنى لأجد حيلة وإن لى من المال ما يبلغنى المدينة وأبعد منها، والله لا أبقى الليلة بمكة، أخرجونى، فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به إلى التسنيم فأدركه الموت بها فصفق يمينه على شماله. ثم قال: هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات شهيدًا فأتى خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: لو وافى المدينة لكان مهاجرًا، وقال المشركون وضحكوا منه ما أدرك هذا ما طلب، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه إلى مهاجره ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ أى وجب ثوابه ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإيجابه ذلك على نفسه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ بما كان منه فى حال الشرك ﴿رَّحِيمًا﴾ بما كان منه فى الإسلام.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى هاجرتم فيها ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أى حرج وإثم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعنى من الأربع ركعات إلى ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ أى علمتم ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فى الصلاة ﴿إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ مجاهرًا بعداوته وقال (. . . .)[1] عدوًا بمعنى أعداء، والله أعلم.

قوله ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾. تمام الكلام ههنا.

ثم أصبح يقصر صلاة المسافر واو العطف فقال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يريد فإن

(١) بياض بالأصل المخطوط.

خفتم وهو حرف شرط وفى القرآن مثل هذا كثير أى خفى الخبر بتمامه ثم عطف عليه حرف منفصل عنه فى الباطن وهو فى الظاهر كالمتصل كقوله ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝﴾ (يوسف: ٥١) الآية.

هذا اعتراف امرأة العزيز ثم وصل بها حكاية أُخرى عن يوسف وهو قوله ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢) لأن بعد الاعتراف بالذنب لا معنى لقولها ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢).

وفى التفسير: أنَّ يوسف لما قال هذه المقالة. قال له جبرئيل (عليه السلام) ولا حين هممت؟ وعندئذ قال يوسف ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ (يوسف: ٥٣) ومثل قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨) وقال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٦٨) افتتاح كلام آخر يريد به النفى لأنه لو كان متصلاً بأول الكلام كان معناه .... [1].

قال: وحَمْل الآية على نحو ما أشرنا إليه من النظم يفيد زيادة معنى وهو وجوب القصر فى السفر من غير خوف، نص الآية لأنك متى ما فصلت قوله تعالى ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ متصلاً بذكر قصر الصلاة لزمك أن تقول قصر الصلاة فى السفر من غير خوف بالسنّة وأن السنّة ناسخة الكتاب، قيل: على زيادة معنى مع استقامة نظمها أولى من حملها على غيرها.

❖ **حكم الآية:**

اختلف أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم فى إتمام الصلاة فى السفر أربع ركعات ولكن أُبيح له القصر تخفيفًا عنه وإليه ذهب الشافعى، ورجّح الوجوب طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبى رباح عن عائشة رضى الله عنها قالت: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ بعسفان فى غزوة بنى لحيان.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس وجابر قالا: إن المشركين لما رأوا أن رسول الله ﷺ وأصحابه (قاموا إلى) صلاة الظهر يصلّون جميعًا ورسول الله ﷺ يؤمهم ندموا على تركهم إلاّ كانوا كبرًا عليهم فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هى أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم يعنى صلاة العصر. وإذا رأيتموهم قد قاموا فيها فشدّوا عليهم فاقتلوهم.

فلما قاموا إلى صلاة العصر نزل جبرئيل (عليه السلام) فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف فإن الله يقول ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ مقيمًا يعنى شهيداً معهم ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ إلى آخر الآية قال: فعلمه جبرئيل صلاة أُخرى.

فلما قام النبى ﷺ إلى الصلاة وقف أصحابه صفين ثم كبر فكبروا جميعًا، ثم إن الصف الآخر استقبلوا العدو بوجوههم يحمون النبى وأصحابه، فصلى رسول الله ﷺ بالصف الذى معه ركعة وسجدتين ثم قاموا وكبروا وراءهم من غير أن يتكلموا إلى مصاف أصحابهم ونكص آخرون حتى قاموا خلف رسول الله ﷺ فصلى بهم ركعة وسجدتين ثم تشهد وسلم ثم قام الصف الذى خلفه فرجعوا إلى مصاف أصحابهم، وكانت لرسول الله ﷺ ركعتان وأربع سجدات والقوم ركعة وسجدتين وصلى كل إنسان منهم لنفسه ركعة وسجدتين.

كيفية صلاة الخوف

اختلف العلماء فى كيفية صلاة الخوف.

فقال الشافعى: إذا صلى فى سفر صلاة الخوف من عدو غير مأمون، صلى الإمام بطائفة ركعة وطائفة فجاءه العدو فإذا فرغ العدو قام فلبث قائمًا وأطال وأتم الطائفة للركعة التى بقيت عليها يقرأ بأم القرآن وسورة، ويخفف ويسلم وينصرف فيقف وجاءه العدو، ويأتى الطائفة الأُخرى فيصلى بها الإمام الركعة الثانية التى بقيت عليه فيقرأ فيها بعد إتيانهم بأم القرآن وسورة قصيرة ويثبت جالسًا وتقوم الطائفة تتم لنفسها الركعة التى بقيت عليها بأم القرآن وسورة قصيرة ثم تجلس مع الإمام كل واحدة منهما مع إمامها ما أحدثت الأُخرى منه.

واحتج بقول الله تعالى. ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية.

فاحتج أيضًا بأن النبى ﷺ فعل ذلك يوم ذات الرقاع.

وروى معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال: هذا فى الصلاة عند الخوف يقيم الإمام ويقوم معه طائفة منهم وطائفة يأخذون أسلحتهم ويقفون بإزاء العدو فيصلى الإمام بمن معه ركعة ثم يثبت قائمًا فيقوم القوم فيصلون لأنفسهم الركعة الثانية ثم ينصرفون حتى يأتوا بأصحابهم فيقفون موقفهم. ثم يقبل الآخرون فيصلى بهم الإمام الركعة الثانية ثم يجلس الإمام فينظرهم فيقوم القوم فيصلون لأنفسهم الركعة الثانية ويشهدون ثم يسلم بهم الإمام، فهكذا صلى رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع.

ويدل على صحة هذا التأويل أيضًا حديث سهل بن أبى خيثمة فى صلاة الخوف وكان من أصحاب النبى ﷺ قال: يقوم الإمام فى صلاة الخوف ويقوم صف خلفه وصف موازى العدو

فيصلى بهؤلاء ركعة. قال: فإذا صلى بهم ركعة قاموا مكانهم والإمام قائم فيصلوا ركعة ثم ذهب هؤلاء إلى مصاف أولئك وجاء أولئك فيصلى بهم ركعة. ثم قاموا مكانهم فصلّوا ركعة.

قال الشافعي: فإن كانت صلاة المغرب فإن صلّى ركعتين بالطائفة الأولى فيثبت قائمًا وأتموا لأنفسهم فحسن، وإن ثبت جالسًا وأتموا لأنفسهم (فجائز) ثم يأتى بالطائفة الأخرى فيصلى بها ما بقى عليه ثم يثبت جالسًا حتى يقضى ما بقى عليها ثم يسلم بهم.

قال: وإن كانت صلاة حضر فلينتظر جالسًا فى الثانية أو قائمًا فى الثالثة حتى يتم الطائفة التى معه. ثم تأتى الطائفة الأخرى فيصلى بها كما وصفت الأخرى.

قال: وإن كان العدو قليلاً من ناحية القبلة والمسلمون كثيرًا يأمنوهم فى مستوى لا يسترهم شىء إن حملوا عليهم زادهم صلى بهم الإمام جميعًا وركع وسجد بهم جميعًا إلاّ صفًا عليه أو بعض صف الوراء وإذا قاموا بعد السجدتين سجد الذين حرسوا.

وإذا ركع ركع بهم جميعًا وإذا سجد سجد معه الذين حرسوا أولئك إلاّ صفًا أو بعض صف يحرسونهم فيهم فإذا سجدوا سجدتين وجلسوا سجد الذين يحرسونهم ثم يتشهد ويتشهدون ثم يسلم بهم جميعًا معًا وقال: وهو تأخر منهم يحرسونهم إلى الصف الثانى ويقدم الثانى فحرسوا فلا بأس، وهذا نحو صلاة رسول الله ﷺ يوم عُسفان.

روى شبل عن محمّد بن يوسف عن مجاهد فى قوله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ قال قوم: كان النبى ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا فصلى النبى ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربعًا ركوعهم وسجودهم وقيامهم معًا جميعًا فهمّ بهم المشركون أن يغيروا على صفوفهم، وأثقالهم وأنزل الله تعالى ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ فصلى العصر فصف أصحابه صفين. ثم كبر بهم جميعًا ثم سجد الأولون سجدة فالآخرون ثم سجدوا حين قام النبى ﷺ والصف الأقل ثم كبَّر بهم وركعوا بهم جميعًا فتقدم الصف الآخر وليتأخر الصف الأول فيها فصلوا جميعًا كما فعلوا أول مرة وقصر صلاة العصر فى ركعتين، وتشهد، فهذا حديث جابر فى صلاة الخوف.

عطاء عن جابر قال: صلينا مع الرسول ﷺ صلاة الخوف وكان العدو بيننا وبين القبلة فأقيمت الصلاة فصففنا خلفه صفين. وكبَّر وكبَّرنا معه جميعًا ثم ركع وركعنا معه ثم رفع رأسه فسجد فلما سجد هو والصف الذى يليه قام الصف المؤخر فى نحو العدو.

وكلما قضى رسول الله السجود هو والصف الذى يليه. قاموا بحذاء الصف المؤخّر

بالسجود فسجدوا ثم تأخر الصف المقدم وتقدم الصف المؤخر ثم كبّر رسول الله ﷺ ثم ركع وركعنا جميعًا.

ثم رفع رأسه فاستوى قائمًا فسجد هو والصف الذى يليه الذى كان مؤخرًا فى الركعة الأولى، فلما قضى النبى ﷺ السجود هو والصف الذى يليه سجد الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعًا، كما نصنع وسلم هؤلاء بأقرانهم.

قال الشافعى: ولو صلى بالخلف . . . .[1].

فإذا صلى بالطائفة الأخرى ركعتين ثم يُسلم جائز وهكذا صلاة النبى ﷺ ببطن المحل.

وروى يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله أخبره أنه صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعتين وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فصلى رسول الله أربع ركعات وصلى كل طائفة ركعتين.

قال المزنى: وهذا يدل عندى بوجوب فريضة خلف من يصلى نافلة لأن النبى ﷺ صلى بالطائفة الثانية فريضة لهم ونافلة له ﷺ فهذا مذهب الشافعى فى صلاة الخوف.

وقال أبو حنيفة: السنة أن يفرّق الإمام المسلمين فرقتين، فيصلّى بفرقة ركعة، وفرقة فجاءة العدو ثمّ يتشهّد بالفرقة التى سلّمت فيصلى بركعة وهم فى الصلاة فيقفون وجاءة العدو وجاءت الفرقة الأخرى فصلت مع الإمام الركعة الأخرى. ثم انصرفت وعادت الفرقة الأولى وصلت صلاتها فعادت إلى مواجهة العدو وانصرفت الفرقة الأخرى. وأتمّت صلاتها، وذهب أبو حنيفة فى هذا إلى حديث ابن عمر فى صلاة الخوف.

وهو ما روى ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر كان يحدث أنه صلاها مع النبى ﷺ فَصَفَّ وراءه طائفة وأقبلت طائفة على العدو، فركع (بهم) رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين، (سجد) مثل نصف صلاة الصبح ثم انصرفوا وأقبلوا على العدو وصلت الطائفة الأخرى فصلوا مع النبى ﷺ ففعل مثل ذلك، ثم سلم النبى ﷺ وقام كل رجل من الطائفتين فصلى لنفسه ركعة (وسجدتين).

قال نافع عن ابن عمر: فإن كان خوفًا أشد من ذلك، فليصلوا قيامًا وركبانًا حيث جهتهم وهذه صلاته بذى قردة.

وروى عن أبى بكر بن أبى الجهم عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بذى قرد فصف صفًا يوازى العدو.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال: فصلى بالصف الذى معه ركعة ثم ذهب هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء فصلوا ركعة ثم سلم فيهم جميعًا ثم انصرف وكان النبى صلى ركعتين ولكل واحد من الفريقين ركعة.

❖ حديث أبى هريرة فى صلاة الخوف:

وروى عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم، فقال مروان: متى؟ قال: عام غزوة نجد، قام رسول الله ﷺ لصلاة العصر. وقامت معه طائفة وطائفة أخرى مما يلى العدو، وأظهرهم إلى القبلة فكبر رسول الله ﷺ وكبّر الذين معه، والذين يقاتلون العدو جميعًا. ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة وركع معه الطائفة التى تليه ثم سجد وسجدت الطائفة التى تليه. والآخرون قيام مما يلى القوم، وقام رسول الله ﷺ وقامت معه الطائفة الذين معه فذهبوا إلى العدو، فقاتلوهم فأقبلت الطائفة التى كانت مقابلة العدو وركعوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو.

ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى وركعوا معه وسجد، وسجدوا ثم أقبلت الطائفة التى كانت مقابلة العدو. فركعوا، وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد كما هو فثم سلم وسلموا جميعًا، فصلى رسول الله ركعتين. ولكل رجل من الطائفتين ركعتان.

واعلم أن صلاة الخوف جائزة بعد رسول الله ﷺ دون خلاف فى هذا بين العلماء إلاّ ما حكى عن أبى يوسف والمزنى أنهما قالا: لا يصلى صلاة الخوف بعد رسول الله ﷺ وليس هذا موضع الكلام عليها، وفى هذا القدر الذى ذكرت فى هذا الموضع ينفع إن شاء الله.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ نزلت هذه الآية فى رسول الله ﷺ خاصة.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ غزا محاربًا وبنى أنمار (فهزمهم الله وأحرزوا الذرارى والمال) فنزل رسول الله والمسلمون معه ولا يرون من العدو واحدًا فوضع الناس أسلحتهم وأمتعتهم من ناحية (وخرج رسول الله) فمشى لحاجات وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى، (والسماء ترش) فحال الوادى بين رسول الله وبين أصحابه وجلس رسول الله وهوى بصخرة ليضربه غويرث بن الحارث المحاربى، ثم الحضرمى، فقال أصحابه: يا غويرث. هذا محمد قد انقطع من أصحابه. قال: قتلنى الله إن تركته ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله ﷺ إلاّ وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سلّه من غمده وقال: يا محمد من يعصمك منى الآن؟ قال الرسول ﷺ: «الله» ثم دعا: اللهم اكفنى غويرث بن الحارث بما شئت. ثم أهوى بالسيف على رسول الله ليضربه فانكبّ لوجهه

من زلخة زلخها من بين كتفيه وبدر سيفه، فقام رسول الله ﷺ وأخذه ثم قال: «من يعصمك الآن يا غويرث» قال: لا أحد.

قال: اشهد أن لا إله إلاّ الله وأني عبده ورسوله، فقال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدًا ولا أعين عليه، فأعطاه رسول الله سيفه فقال غويرث: للنبي ﷺ لأنت خير مني. قال النبي ﷺ: «أجل أنا أحق بك منك ثم رجع غويرث إلى أصحابه». فقالوا: ويلك لقد رأيناك أهويت بالسيف قائمًا على رأسه ما منعك منه؟ قال: والله إني أهويت إليه بالسيف لكني لا أدرى من زلخني من كتفي فخررت لوجهي وخر سيفي من بين يديّ فسبقني فأخذه وقال: يا غويرث من يمنعك مني الآن، فقلت: لا ثم قال: اشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله وأعطيك سيفك فقلت: لا، ولكني أُعطيك موثقًا أن لا أقاتلك أبدًا ولا أعين عليك عدوًا، فردّ السيف إليّ.

قال: وسكن الوادي فقطعه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأخبرهم الخبر، وأقرأهم هذه الآية ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا ضرر ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ من عدوكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهانون فيه.

قال الزجاج: الجناح الإثم وأصله من جنحت إذا عدلت عن المكان وأخذت جانبًا عن القصد ثمّ قال ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا تعدلون عن الحق إن وضعتم أسلحتكم، والأذى مقصور، يقال: أذى يأذى أذًى، مثل فرع يفرع فرعًا ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني صلاة الخوف أي فرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني فصلوا لله ﴿قِيَـٰمًا﴾ للصحيح ﴿وَقُعُودًا﴾ للسقيم ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ للجرحى والمرضى لمن لا يستطيعون الجلوس، ويقال: معناه فاذكروا الله بتوحيده وتسبيحه وشكره على كل حال ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ يعني صلاة الخوف والمرض والقتال، ورجعتم إلى منازلكم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أتموا الصلاة أربعًا ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ أي واجبًا مفروضًا في الحضر والسفر، فركعتان في السفر وأربع في الحضر، وكتبه الله عليهم ووقته أي جعل له أوقات ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ (المرسلات: ١١) ووقتت مخففة.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا

تُجَـٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَـٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ﴾

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ لا تضعفوا فى طلب القوم. أبى سفيان وأصحابه يوم أحد وقد مضت هذه القصة فى سورة آل عمران.

﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ﴾ أى تتوجعون وتشتكون من الجراح ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ﴾ أى يتوجعون ويشتكون من الجراح ﴿كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ وأنتم مع ذلك آمنون ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الأجر والثواب والنصر الذى وعدكم الله وإظهار دينكم على سائر الأديان.

﴿مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ وقيل: (تفسر) الآية: وترجون من الله ما لا يرجون أى تخافون من عذاب الله ما لا يخافون. قال الفراء: لا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلاّ مع الجحد، كقول الله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ (الجاثية: ١٤) أى لا يخافون أيام الله وكذلك قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ (نوح: ١٣) أى لا تخافون لله عظمة، وهى لغة حجازية.

قال الشاعر:

لا ترتجى حين تلاقى الذائذا أسبعة لاقت معًا أم واحدا

وقال الهذلى: يصف (معتار) العسل ذا النوب وهى النحل.

ويروى: فى بيت نوب عوامل:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عوامل

قال: ولا يجوز رجوتك وأنت تريد خفتك ولا خفتك وأنت تريد رجوتك.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار، يقال له طعمة بن أبرق أحد بنى ظفر حى من سليم سرق درعًا من

جار له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق، وكان الدقيق يُنشَر من خرق فى الجراب، حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود، يقال له زيد بن السمين، والتمست الدرع عند طعمة فلم يوجد عنده، وحلف لهم والله ما أخذها وما له بها من علم فقال أصحاب الدرع، بلى والله لقد أولج علينا فأحضرها وعلينا بأثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق منتشراً فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق. حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه وقال اليهودى: دفعها لى طعمة بن البرق، وشهد له ناس من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فنكلمه فى صاحبنا فنعذره ونجادل عنه وإن صاحبنا يُرى معذوراً فأتوا رسول الله ﷺ فكلموه فى ذلك، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إنك إنْ لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح، وبرئ اليهودى فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى، فأنزل الله تعالى يعاتبه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات.

وفى رواية أُخرى عن ابن عباس قال: إن طعمة سرق درعًا من أنصارى وكان الدرع فى جراب فيه نخالة فخرق الجراب حتى كان متناثر النخالة منه طول الطريق، فجاء به إلى دار زيد ابن السمين على أثر النخالة (فأخذه) وحمله إلى رسول الله ﷺ فهم رسول الله أن يقطع يد زيد اليهودى فأنزل الله تعالى هذه الآية.

على بن الضحاك: نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار، استودع درعًا فجحده صاحبها فخوّنه رجال من أصحاب رسول الله ﷺ فجاء قومه فعذروه وأتوا عليه فصدّقهم رسول الله ﷺ وعذرهم وردّ الذين قالوا فيه ما قالوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما تبين خيانته ارتد عن الإسلام ولحق بمكة، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ١١٥) الآية.

وقال مقاتل: إن زيد السمين أودع درعًا عند طعمة بن أبرق فجحده طعمة فلما جاء زيد يطلبه أغلق الباب، فأشرف على السطح، فألقى الدرع فى دار جاره أبى هلال. ثم فتح الباب فلم يجدوا فيه فصعد السطح فقال: أرى درعًا فى دار أبى هلال، فلعله درعكم فنظروا وإذا هو ذاك فرفعوه. ثم جمع طعمة قومه وجاءوا إلى رسول الله ﷺ، فَشكوا وقالوا: إنهم قد فضحونا وسرقونا، فعاتبهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أى بالأمر والنهى والفصل ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أى ما علمك الله وأوحى إليك ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أى معينًا ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ابن عباس قال: واستغفر الله مما هممت به من قطع يد زيد.

الكلبى : واستغفر الله يا محمد من هملك باليهودى أن تضربه .

مقاتل : واستغفر الله من جدالك الذى جادلت عن طعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يعنى يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة ويرمى بها اليهودى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ يعنى خائنًا فى الدرع ﴿أَثِيمًا﴾ فى رميه اليهودى وقوله ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ . قد قيل فيه : إن الخطاب للنبى ﷺ والمراد به غيره ، كقوله ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ (يونس:٩٤) والنبى لا يشك ممّا أنزل الله ، فإن قيل : قد أمر بالاستغفار (قلنا) هو لا يوجب وجود الذنب ولا يجب أن يستغفر كما أمر فى سورة الفتح بالاستغفار من غير ذنب مقدم .

واعلم أن الاستغفار فى جميع الأنبياء يعد وجوه منها ثلاثة أوجه : يكون لذنبه مقدم مثل النبوة ويكون لذنب أمته وقرابته ويكون لترك المباح قبل ورود الحظر ، ومعناه بالسمع والطاعة لما أمرت به ونهيت عنه وحملت التوفيق عليه ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أى يستترون ويستحيون من الناس ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ﴾ أى يستترون ولا يستحيون ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ يعنى علمه .

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : يعنى يقولون ، عن سفيان عن الأعمش عن أبى رزين : يولعون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعنى بأن اليهودى سرقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ يعنى قد أحاط الله بأعمالهم الحسنة .

وتعلقت الجهمية والمعتزلة بهذه الآية ، استدلوا منها على أن الله بكل مكان قالوا لمّا قال ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ ثبت أنه بكل مكان لأنه قد أثبت كونه معهم وقال لهم حق قوله وهو معهم : إنه يعلم ما يقولون ولا يخفى عليه فعلهم لأنه العالم بما يظهره الخلق وبما يستره ، وليس فى قوله ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ ما يوجب أنه بكل مكان لأنه قال : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ (الملك:١٦) ولم يرد قوله إنه فى السماء يَعنى غير الذات لأن القول : إنّ زيدًا فى موضع كذا من غير أن يعتد بذكر فعل أو شىء من الأشياء لا يكون إلاّ بالذات ، وقال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (فاطر:١٠) وقال : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (السجدة:٥) فأخبر أنه (يرفع) الأشياء من السماء ولا يجوز أن يكون معهم بذاته ثم يدبر الأمر من السماء وإليه يصعد الكلم الطيب ، ولو كان قوله (وهو معهم إذ يقولون ما لا يرضى من القول) ثم أقبل على قوم طعمة وقال ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أى يا هؤلاء للتنبيه ﴿جَـٰدَلْتُمْ﴾ أى خاصمتم عن (أبى) طعمة ، ومتى سافر أبى بن كعب ﴿عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمطلب به فى اللغة بشدة (المخاصمة) وهو من

الجدل وهو (شدّة الفتل وفيه: رجل مجدول الخلق، وفيه: الأجدل للصقر)[١] لأنّه من أشدّ الطيور قوّة.

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ﴾ أى عن طعمة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لما أخذه الله بعذابه وأدخله النار ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ كفيلاً.

ثم استأنف وقال ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ يعنى يسرق الدرع ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ برميه البرىء فى السرقة، يقول: ومن يعمل سوءاً أى شركًا أو يظلم نفسه يعنى بما دون الشرك ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أى يتوب إلى الله ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ متجاوزًا ﴿رَّحِيمًا﴾ به حين قبل توبته ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ يعنى يمنه بالباطل ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يقول فإنما يضر به نفسه ولا يُؤخذ غير الآثم بإثم الآثم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بسارق الدرع ﴿حَكِيمًا﴾ حكم القطع على طعمة فى السرقة ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ أى بيمينه الكاذبة، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بسرقته الدرع، وبرميه اليهودى ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ أى يقذف بما جناه من مأمنه ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ والبهتان أى يبهت الرجل بما لم يفعل.

وقال الزجاج: البهتان الكذب الذى يتخير من (عظمه). ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنبًا بينًا.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ عبد الله بن أبى بن سلول ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ يعنى به عائشة أم المؤمنين حيث كذب عليها وكان من ذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ ولم يقل فيها وقد ذكر الخطيئة ولم يقل كفرًا، يجوز أن يكنى عن النفس والثلاثة والأكثر واحدها مؤنث بالتذكير، والتوحيد لأن الأنفس يقع عليها فعل واحد، فذلك جائز وإن شئت ضممت الخطيئة والإثم فجعلتها كالواحد، وإن شئت جعلت الهاء للإثم خاصة كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: ١١) جعله للتجارة ولو أتى بالتذكير فجعله كالفعل الواحد لجاز ثم قال لمحمد ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ نصرك بالوحى ﴿لَهَمَّت﴾ يقول لقد همّت يعنى أضمرت ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ يعنى جماعة ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعنى طعمة ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ أى يخطؤك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول وما يخطئون إلاّ أنفسهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ وكان ضره على من شهد بغير حق ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعنى القرآن والحكمة يعنى القضاء بالوحى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ قبل الوحى ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ منّ الله عليك ﴿عَظِيمًا﴾ بالنبوة.

هذا قول الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ يعنى به

---

(١) ما بين الأقواس من تفسير القرطبى (٥/ ٣٧٨).

الإسلام والقرآن ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعنى من ثقيف ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد قد جئناك نبايعك على أن لا حشر ولا بعث ولا نكسر أصنامًا بأيدينا على أن تمتّعنا بالعزّى سنة، فلم يجبهم إلى ذلك وعصمه الله بمنّه وأخبره بنعمته عليه أنّه فى حفظه وكلاءته فلا يخلص إليه أمر يكرهه، فقال ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعنى وفد ثقيف ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ يعنى لا يستطيعون أن يزيلوا عنك النبوة وقد جعلك الله لها أهلاً ثم قال ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعنى الأحكام ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من الشرائع ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أى منّ الله ﴿عَلَيْكَ﴾ بالإيمان ﴿عَظِيمًا﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس يعنى قوم طعمة ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أى حثّ عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ يعينه بفرض أسباب ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعنى بين طعمة واليهودى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ القرض بمنح أو هدية ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أى طلب رضاه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ فى الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى جنة.

وعن ابن سيرين: معنى النجوى فى الكلام المفرد به الجماعة، والإنسان سرًا كان أو ظاهرًا، ومعنى النجوى فى لغة خاصة ومنه نجوت الجلد عن البعير وغيره أى ألقيته عنه.

قال الشاعر:

فقلت أنجــو منها نجا الجلد أنه ... سيرضيكما منها سنام وغاربه

ويقال: نجوت فلانًا إذا استنكهته.

قال الشاعر:

نجوت مجالدًا فوجــدت منه ... كريح الكلب مات حديث عهد

ونجوت وتراً واستنجيته إذا أخلصه.

قال الشاعر:

فتبازت فتبازخت لها كجلسة الأعسر يستنجى الوتر

وأصله كله من النجوة فهو مرتفع من الأرض.

قال الشاعر:

كمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشى بقرواح

فمعنى ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ يعنى ما دوّن منهم من الكلام ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ يجوز أن يكون فى موضع الخفض والنصب والرفع، فوجه الخفض على قولك: لا خير فى كثير من نجواهم إلاّ فيمن أمر بصدقة.

والنجوى ههنا الرجال المتناجون كما قال: ولا هم نجوى.

وقال قائلون: النجوى لغة فيه فالمنصوب بإلا أن يجعل النجوى فعلاً ويكون قوله إلاّ استثناء من غير الجنس فيكون وجه النصب ظاهراً.

قال النابغة:

إلاّ الأوارى لأيّا ما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

وقد يكون فى موضع رفع فمن نصب على المعرفة.

وقال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس إلاّ اليعافير وإلاّ العيس

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ نزلت فى طعمة بن الأبرق أيضًا وذلك أنه لما نزل القرآن فيه وعلم قومه أنه ظالم وخاف هو على نفسه من القطع والفضيحة، هرب إلى مكة فأنزل الله فيه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ أى يخالف ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أى التوحيد بحدوده ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول غير دين المؤمنين دين أهل مكة عبادة الأوثان ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نكله وما أدخره إلى ما تولى فى الدنيا ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ فلم ينته طعمة ولم يراجع وتعمد فأدلج على الرجل من بنى سليم من أهل مكة فقال له الحجاج: كفَ أخلاط فنقب بيته فسقط عليه حجر من البيت فتسبب فيه فلم يستطع أن يدخل فقال رجّحنى بمعنى أصبح فأخذ يتفل، فقال بعضهم: دعوه فإنه لجأ إليكم، فتركوه وأخرجوه من مكة فخرج مع تجار من قضاعة نحو الشام فرد فراراً منهم فسرق بعض بضاعتهم وهرب فطلبوه وأخذوه فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فصار قبره تلك الأحجار ويقال: إنه ركب البحر إلى جدّة فسرق من

السفينة كيسًا فيه دنانير فأمسكوا به فأخذ وأُلقى فى البحر ، ويقال : إنه نزل فى حرة بنى سليم وكان يعبد صنمًا لهم إلى أن مات ، فأنزل الله فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فنزل فيه ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة : ٣٨) الآية .

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾: نزلت هذه الآية فى نفر من قريش ، قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ودخلوا فى الإسلام ، فأعطاهم رسول الله ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين ورجعوا إلى عبادة الأوثان ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أى يفارق الرسول ، ويعاديه ويحاربه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ يعنى من بعد ما وضح له أن محمد عبده ورسوله ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى غير طريق المسلمين ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أى نكله إلى الأصنام يوم القيامة ، وهى لا تملك ضرًا ولا نفعًا ولا ينجيهم من عذاب الله ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ﴾ بعبادة الأصنام .

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يعنى بئس المنزل حلوا به يوم القيامة .

الضحاك عن ابن عباس : قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ قال : إن شيخًا من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا نبى الله إنى شيخ منهمك فى الذنوب والخطايا إلاّ أنى لم أشرك بالله شيئًا منذ عرفته ، وآمنت به ولم اتخذ من دونه وليًا ولم أواقع المعاصى جرأة على الله ولا مكابرة له ولا توهمت طرفة عين ، أنى أعجز الله هربًا وإنى لنادم تائب مستغفر فما حالى عند الله ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ والشرك ذنب لا يغفر لمن مات عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ يعنى فقد ذهب عن الطريق وحرم الخير كله .

واعلم أن فى قوله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ دليلاً على قوة حجة الإجماع وفى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ دليلاً على فساد قول الخوارج حين زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر وذلك قوله عز وجل قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ ففرّق بين الشرك وسائر الذنوب وحتم على نفسه بأن لا يغفر الشرك .

لو كان الكبيرة كفرًا لكان قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مستوعبًا فلما فرّق بين الشرك وسائر الذنوب بان فساد قولهم ، وقد بيّن الله تعالى بأنه الشرك فى آخر القصة وهو قوله ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ وقد علم أن صاحب الكبيرة غير مستحل لها فلم يجز أن يكون حكمه حكم الكافر ، وفيه دليل على فساد قول المعتزلة فى المنزلة

(بين الشرك والإيمان) إذ الله تعالى لم يجعل بين الشرك والإيمان منزلة ولم يجعل الذنوب ضداً للإيمان.

وكان فيه فساد قول من جعل الكبيرة الكفر، وفيه دليل على فساد قول المرجئة حين قالوا: إن المؤمن لا يعذّب، وإن كان مرتكبًا للذنوب. لأن الله أخرج المشرك من المشيئة وجعل الحكم فيه حتمًا، فلو لم يجز تعذيب المؤمن المذنب لأخرجه من باب الاستثناء وأطلق الحكم فيه كما (علّقه) في الشرك، وفيه دليل على فساد قول الوعيدية وقد ذكرناه من قبل.

ثم نزلت في أهل مكة ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) أي اعبدوني أستجب لكم، يدلّ عليه قوله بعده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ (غافر: ٦٠) من دونه، أي من دون الله وكان في كل واحدة فيهن شيطان يتراءى للسدنة والكهَنة يكلمهم فذلك قوله ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ وكان المشركون يدعون أصنامهم باسمها وكان هذا قول مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين.

ويدل على صحة هذا التأويل قراءة ابن عباس: إن يدعون من دونه إلاّ إناثًا جمع الوثن فصير الواو همزة كقوله أقب ووقب.

وأصله وثن وقرئت إنثا على جمع الإناث كمثل: مثال ومثل وثمار وثمر. قال الحسن وقتادة وأبو عبيدة: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ يعني أمواتًا لا روح فيه خشبة وحجر ومدر ونحوها.

وذلك أن الموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث يقول من ذلك الأصنام متعجبين، فإن يدعون وما تعبدون إلاّ شيطانًا مريداً والمريد المارد فعيل: بمعنى فاعل. نحو قدير وقادر وهو الشديد العاتي الخارج من الطاعة. يقال: مرد الرجل يمرد مروداً ومرادة إذا عتى وخرج من الطاعة وأصل المريد من قول العرب: حدثنا ممرد أي مملس.

ويقال: شجرة مرداً إذا تناثر ورقها، ولذلك سمى من لم تنبت لحيته أمرد، أي أملس موضع اللحية.

فالمراد: الخارج من الطاعة المتملّص منها.

❖ ❖ ❖

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ۝﴾

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ﴾ يعنى إبليس ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ يعنى حظًا معلومًا فما أطاع فيه إبليس فهو مفروضه. قال الفراء: ما جعل عليه سبيل، وهو كالمفروض، فى بعض التفسير وكل ألف الله عز وجل وسائرهم لإبليس.

وأصل الفرض فى اللغة القطع ومنه الفرضة فى النهر وهى الثلمة تكون فيه يقال معناها بالفراض والفرض، والفرض الجز الذى يكون فى الشباك يشد فيه الخيط، والفريض فى القوس الجز الذى يشد فيه الوتر، والفريضة فى سائر ما افترض الله عز وجل. ما أمر به العباد وجعله أمرًا حتمًا عليهم قاطعًا وقوله ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧) يعنى لهن قطعة من المال.

وقد فرضت للرجل أى جعلت له قطعة من المال.

قول الشاعر:

إذا أكلت سمكًا وفرضًا ذهبت طولا وذهبت عرضًا

فالفرض ههنا التمر، وقد سمى التمر فرضًا لأنه يؤخذ فى فرائض الصدقة.

ثم قال إبليس ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ (بمعنى لأوهمنهم) ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث.

وقال بعضهم: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أى ألقى فى قلوبهم (الهيمنة) ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أى يقطعونها ويشقونها وهى البحيرة، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس عن الحسن

وقتادة ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير: يعني دين الله نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٠) أي لدين الله.

وقال عكرمة وقوم من المفسرين: معناه: فليغيرنّ خلق الله (بالخضاب) والوشم وقطع الآذان وفقء العيون.

قال أهل المعاني: معنى قوله ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ أن الله خلق الأنعام لتركبوها وتأكلوها فحرموها على أنفسهم، وخلق الشمس والقمر والحجارة مسخرة للناس ينتفعون بها فعبدها المشركون فغيروا خلق الله ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا﴾ أي ربًّا ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيطيعوه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝ يَعِدُهُمْ﴾ ألا يلقون خيراً ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الفقر ألاّ ينفقون في خير ولا يصلون رحمًا، فقال يمنيهم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي باطلاً ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني مصيرهم جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي منعًا قال عوف: بلغني من المؤمن بكيده من الشيطان بأكثر من مضر لو أبدلهم الله له لمات، وإن قيل خبرونا عن قول إبليس ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ كيف علم ذلك.

يقال: قد قيل في هذا أجوبة، منها: إن قالوا إنّ الله تبارك وتعالى كان خاطبه بقوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: ١١٩) فعلم إبليس أنه ينال من ذرية آدم ما يتمناه.

ومنها: أن قالوا: إنه لما وسوس لآدم نال منه ما نال، طمع في ولده ولم ينل من آدم جميع ما يتمناه من الغواية فكذلك طمع في بعض ولده وأيس من جميعهم.

ومنها: أن قالوا: إن إبليس قد عاين الجنة والنار وعلم أن الله خلقهما لأن يسكنهما من الناس والشياطين، فعلى هذا التأويل قال ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وإن قيل: لخبرونا عن إضلال الشيطان هل إليه نجح فعله وإنفاذ أمره أم لا؟

يقال له: معنى إضلاله الدعاء إلى الضلالة والتزين له ولو كانت الضلالة إليه لأضل الخلق جميعًا ولذلك مَنّ به أباهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي من تحت الغرف والمساكن ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي وهذا ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ﴾.

قال قتادة والضحاك: إن المسلمين وأهل الكتاب تناظروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابكم، ونحن أولى بالله منكم، فقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا (يفي) على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله تعالى ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الآية.

وقال مجاهد: قالت قريش: لا نبعث ولا نحاسب.

وقال أهل الكتاب ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠) فأنزل الله ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

واسم ليس مضمر، المعنى: ليس ثواب الله بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ لا ينفعه يمينه ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية شقّت على المسلمين مشقّة شديدة، وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يعمل سوءًا غيرك وكيف الجزاء؟ فقال: «منه ما يكون فى الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات، ومن يجازى بالسيئة نقصت واحدة من عشرة وبقيت له تسع حسنات، فويل لمن غلب إحداه عشراه.

وأما ما كان جزاؤه فى الآخرة فإنه يؤخر إلى يوم القيامة فيقابل بين حسناته وسيئاته، وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة، فيعطى كل ذى عمل فضله».

وروى إسماعيل عن أبى خالد عن أبى بكر بن أبى زهير عن أبى بكر الصديق قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ «أية آية؟» فقال يقول الله ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ قال: ما عَمِلنا جزينا فقال له النبى ﷺ: «قد هلك يا أبا بكر ألست تمرض ألست تغبْ ألست يصبك القرف» قال: بلى، قال: «فهو ما يجزون به».

وعن عبد الله بن عمر يحدث عن أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) قال: كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فى سورة النساء ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر ألا أقرئك آية نزلت علىّ؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «فأقرأنيها فلا أعلم أنى وجدت انفصامًا فى ظهرى حتى تمطّيت لها» فقال: «ما لك يا أبا بكر».

فقلت: بأبى أنت وأمّى، وأينا لم يعمل سوءًا وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه، فقال النبى ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتُجزون ذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب».

وأما الآخرون فتجمع ذنوبهم حتى يجزوا يوم القيامة.

وقال عطاء: لما نزلت ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر يا رسول الله، قال النبى ﷺ: «إنّما هى المصيبات فى الدنيا».

وروى عبد الله بن أبى مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قلت: إنى لأعلم أى

آية من كتاب الله نزلت ببعض من يعمل سوءاً يجز به. قال: إن المؤمن يجازى بأسوأ عمله فى الدنيا ثم ذكر أشياء منها المرض والنصب وكان آخرون يذكر نصبه إليك كله كل يجازى بعمله، يا عائشة ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا يعذب قالت: فقلت: أليس يقول الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق:٨) قال: ما ذلك (العرض) إنه من نوقش فى العذاب عذّب فقال بيده: على المصيبة كان ينكث.

وروى ابن ميثم بن يزيد عن عبد الله بن الأرقم قال عن أبى هريرة يقول: لما نزلت ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بكينا وحزنّا وقلنا: يا رسول الله ما أبقت هذه الآية من شيء، قال: «أما المذنب فمن يده إنها لكم أنزلت ولكن أبشروا وقاربوا وسدّدوا إلاّ أنه لا يصيب أحداً منكم مصيبة فى الدنيا إلاّ كفّر الله به خطيئة حتى الشوكة يشاكها أحدكم فى قدمه».

وقال الحسن: فى قوله تعالى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال: هو الكافر، لا يجزى الله المؤمن يوم القيامة، ولكن المؤمن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته. ثم قرأ ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (الزمر:٣٥) الآية، وقرأ أيضًا، ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبا:١٧).

قال الثعلبى: وقلت: لولا السيئة لأُتىَ (الجزاء) فى الكفار. لقوله فى سياق الآية ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ومن لم يكن له فى القيامة نصير ولا ولى كان كافرًا فإن الله عز وجل قد ضمن بنصرة المؤمنين فى الدارين بقوله ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر:٥١) الآية.

ولكن الخطاب متى ورد مجملاً وبيّن الرسول (ذلك على) لسانه إذ البيان إليه قال الله تعالى ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ (النحل:٤٤) وأنزل إليهم ثم بين الله تعالى فضل المؤمنين على مخالفيهم فقال ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ الآية يعنى تكون فى ظهر النواة.

عن مسروق قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء حتى نزلت ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ونزل فيهم أيضًا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ (قد علم ربّنا) ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: يعنى أخلص لله عمله، وقيل: فوّض أمره إلى الله، وقيل: مفلح ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى موحد ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعنى دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ مسلمًا مخلصًا.

قال ابن عباس: ومن دين إبراهيم الكعبة والصلاة ويطوفون بها وحولها والسعى بين الصفا

والمروة ورمى الجمرات وحلق الرأس والموقفان، وسائر المناسك فمن صلى نحو القبلة وأقرّ بهذه الصفة فقد اتبع إبراهيم (عليه السلام) ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ .

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، فى قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ صفيًا وخليلاً من (قولهم): أبا الضيفان يضيف من مرّ به من الناس، وكان منزله على ظهر الطريق، فأصاب الناس سنة وجهدوا عنها واجتمعوا على باب داره يطلبون الطعام، وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر فبعث غلمانه بالإبل إلى ذلك الخليل فسأله الميرة. قال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم إنّما يريده لنفسه احتملنا ذلك له فقد دخل علينا ما دخل على الناس من الشدة، فرجع رُسُلُ إبراهيم إليه فمروا بالبطحاء يعنى السهلة، فقالوا: لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة، إنا نستحى أن نمر بهم وإبلنا فارغة، قال: فملئوا تلك الغرائر سهلة ثم إبراهيم (عليه السلام) وسارة نائمة، فأعلموا ذلك، واهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة، وقد ارتفع النهار، فقالت: سبحان الله ما جاء الغلمان فقالوا لها: بلى قالت: فما جاءوا بشىء، قالوا: بلى، فقامت إلى تلك الغرائر ففتحتها فإذا هو أجود حوارى يكون فأمرت الخبازين فخبزوا وطعموا، قال: فلمّا استيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام، فقال: يا سارة من أين هذا الطعام؟ قالت: من عند خليلك المصرى؟

قال: هذا من عند خليلى الله، لا من عند خليلى المصرى. قال: فيومئذ اتخذه الله خليلاً مصافيًا.

وقال الزجاج: الخليل الذى ليس فى محبته خلل فجائز أن يكون سمى خليل الله بأنه الذى أحبه واصطفاه بالجنة تامة.

وجائز أن يسمّى خليل الله أى فقير إلى الله لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلاّ إلى الله مخلصًا فى ذلك.

قال الله ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (فاطر: ١٥) لأن معنى الخليل فى اللغة. قد قيل: هو الفقير.

قال زهير يمدح حرم بن سنان:

فإن أتاه خليــل يوم مسألة   يقول لا غايب مالى ولا حرم

والخلة: الصداقة، والخلة: (الحاجة)، فإذا جعلنا اشتقاق الخليل من الخلة فهو الإخلال الذى يلحق الإنسان فيما يحتاج إليه، وإن جعلنا من الخلة فهو أصل الصداقة ومعناهما جميعًا واحد لأن كل واحد منهما يسد خلل صاحبه فى المودة والحاجة إليه.

والخلل: كل فرجة يقع في شيء، والخلال الذي يتخلل به، وإنما سمي خلالاً لأنه منع به الخلل من الأسنان، والخل: الطريق في الرمل، معناه أنه انفرجت فيه فرجة، فصارت طريقًا في الأرض والخلّ الذي يؤكل إنما سمي خلا لأنه أخل منه طعم الحلاوة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي لبساطة علمه لجميع الأشياء.



﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾.

الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في بنات أم كحة وميراثهن من أمّهن، وقد مضت هذه القصة في أول السورة.

معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: كان الرجل بالجاهلية يكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل بها ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا، فإن كانت جميلة وهواها تزوجها وأكل مالها وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرّم الله تعالى ذلك ونهى عنه وأنزل هذه الآية.

مجاهد والضحاك وقتادة وإبراهيم: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان شيئًا، وكانت المرأة تكون دميمة في الجاهلية، دميمة ولها مال فيكره وليّها أن يتزوجها من أجل دمامتها، ويكره أن يزوّجها غيره من أجل مالها، وكان وليّها لا يتزوجها ويحبسها عنده حتى تموت، ويرثها.

سعيد بن جبير: كان وليّ اليتيمة إذا كانت ذات مال وجمال، رغب فيها ونكحها واستأصل بها، وإذا لم تكن ذات مال ولا جمال لم ينكحها ولم ينكّحها فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعن عبد الله بن عبيدة قال: جاءت امرأة من الأنصار يقال لها خولة بنت حكيم إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أخى توفّى وترك بنات وليس عندهن من الحُسن ما يرغب فيهن الرجال ولا يقسم لهن من ميراث أبيهنّ شيئًا فنزلت فيها: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ أى يستخبرونك ﴿فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ يخبركم ﴿فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ﴾ أى والذى يقرأ ﴿عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أى فى القرآن، وموضع ما رفع معناه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ويفتيكم أيضًا فيهن، ويجوز أن يكون فى موضع الخفض، فيكون معناه قل الله يفتيكم فيهن وفيما يتلى بينكم، وهو بعيد لأن الظاهر لا يعطف على المضمر، ووجه الرفع أبين لأن ما يتلى فى الكتاب ويتلى بين ما سألوه عنه معنى، قل الله يفتيكم فيهن فى كتابه يفتيكم فيهن وهو قوله ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ (النساء: ٢) الآية وقوله ﴿فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ أى لا تعطونهن ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ يعنى فرض لهن من الميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أى وترغبون عن نكاحهن لملكهن، وقيل: ترغبون فى نكاحهن لمالهن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يعنى الصغار من الصبيان وهو فى موضع الخفض والمعنى: قل الله يفتيكم فيهن والمستضعفين ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أى بالعدل ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

وروى شعبة عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب أنّ آخر آية كانت ﴿ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ وآخر سورة براءة ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ نزلت فى عمرة ويقال خويلة بنت محمد بن سلمة فى زوجها رافع بن الرفيع ويقال رافع بن خديج تزوجها وهى شابة فلمّا أدبرت وعلاها يعنى تزوج عليها امرأة شابة وآثر عليها وحفا ابنه محمد ابن سلمة وأتت رسول الله ﷺ فشكت إليه، فنزلت فيها هذه الآية هذا قول الكلبى وجماعة المفسرين، وقال سعيد بن جبير: كان رجل وله امرأة قد كبرت وكان له منها أولاد فأراد أن يطلقها، ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقنى ودعنى أقوم على ولدى واقسم لى فى كل شهرين إن شئت أو أكثر وإن شئت فلا تقسم لى، فقال: إن كان يمنع ذلك فهو أحبّ إلىّ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فقال: قد سمع الله ما تقول فإن شاء أجابك فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أى علمت من زوجها نشوزًا يعنى بغضًا.

قال الكلبى: يعنى ترك مجامعتها ومضاجعتها أو إعراضًا عن مساكنتها، وعن مجالستها وعن محادثتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ يعنى على الزوج والمرأة ﴿أَن يُصْلِحَا﴾ أى يستصلحا ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أى فى القسمة والنفقة وهو أن يقول لها: إنك امرأة دميمة وقد دخلت فى العنّ وأريد أن أتزوج عليك امرأة شابّة جميلة، فيؤثرها فى القسمة عليها لشبابها، فإن رضيت بهذا

فأقيمي، وإن كرهت خلّيت سبيلك، فإن رضيت بذلك كانت هي المحسنة ولا يعسر عليّ ذلك، وإن لم ترض (أُعطيتْ) حقّها، فالواجب على الزوج أن يوفيها حقّها من المقام والنفقة أو يسرّحها بإحسان ولا يحبسها على الخسف، وإن قام عليها وفّاها حقّها مع كراهيته صحبتها، فهو المحسن الذي مدحه الله وأخبره أنه عالم بصنيعه ومجازيه على فعله ولا يجبر الرجل على وطء واحدة لأنه هو الزوج وهو حظه وإذا تركه لم يجبر عليه وليس هو كالمقام والنفقة.

وقوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ يعني إقامتها بعد تخييره إياها ومصالحتها على شيء معلوم في المقام والنفقة، وهكذا فعل رسول الله ﷺ مع زوجته ومكثت معه وذلك أنها كانت امرأة كبيرة فأراد النبي ﷺ أن يسرحها فطلبت إليه أن لا يفعل وقالت: إنّي أُحبّ أن أُبعث في نسائك يوم القيامة، ألا فإنّ يومي وليلتي لعائشة.

وقال علي بن أبي طالب (عليه السلام): في قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال: المرأة تكون عند الرجل فتكون صغيرة أو كبيرة أو لا يحبّها زوجها، فيصطلحان على صلح.

وقال سعيد بن جبير: فهو أن يتراضيا على شيء معلوم في نفسه وماله.

قال الضحاك: الصلح أن ينقصها من حقها إذا تزوج أشبّ منها وأعجب إليه.

وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية: فهو الرجل تكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوّج عليها الشابة، فيقول للمرأة الكبيرة: أُعطيك من زماني نصيبًا على أن أقسم لهذه الشابة أكثر مما أقسم لك من الليل والنهار وترضى الأخرى بما اصطلحا عليه فإن أبت ألا ترضى فعليه أن يعدل بينهما على القسمة.

وروى إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن سليمان بن يسار عن ابن عباس: في قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال: المرأة الكبيرة الدميمة تكون عند الرجل يريد طلاقها والاستبدال بها (فصالحها) هذه على بعض حقها من القسمة والنفقة، فذلك جائز بعدما رضيت، فإن أنكرت بعد الصلح، فذلك لها، ولها حقّها، أمسك أو طلق.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي المرأة تكون عند الرجل وله امرأة غيرها أحبّ إليه منها فيؤثرها عليها، فأمر الله تعالى إذا كان ذلك أن يقول لها: يا هذه إن شئت أن تقيمي على ما ترين من هذه فآويك وأنفق عليك فأقيمي، وأن كرهت خليت سبيلك، فإن هي رضيت أن تقيم بعد أن خيَّرها فلا جناح عليه وهو قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وهو التخيير.

وروى إسرائيل عن سماك بن حرب عن خلد بن عرعرة قال: سأل رجل عليًا عن قوله عز

وجل ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ الآية قال: تكون المرأة عند الرجل فتنبو عينه عنها من دمامة أو كبر فتفتدى منه تكره فرقته، وإن أعطته من ماله فهو حل له أو أعطته من أثاثها فهو حل له ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ يقول: شحت المرأة نصيبها من زوجها وشح الرجل نصيبه من الأخرى.

قال ابن عباس: والشح هو فى الشىء يحرص عليه ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾ يعنى تصلحوا بينهما بالسوية ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجور والميل.

وقيل: هذا الخطاب للزوج يعنى: وإن تحسنوا بالإقامة عليها، مع كراهتكم لصحبتها وتتّقوا ظلمها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيخبركم بأعمالكم.

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يقول: لن تقدروا أن تسووا بينهن فى الحب ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ على العدل ﴿فَلَا تَمِيلُواْ﴾ إلى الشابة الجميلة التى تحبّونها ﴿كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ فى النفقة والقسمة والإقبال عليها (وتدعوا الأخرى كالمعلّقة) أى كالمنوطة لا أيمًا ولا ذات متاع.

قتادة والكلبى: ﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ كالمحبوسة وهى فى امرأة أُبىّ بن كعب كأنها مسجونة.

وقال مجاهد: لن تستطيعوا العدل بينهن فلا يتعمدوا (ذلك).

وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم أما قلبى فلا أملك وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل.

﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ﴾ بالعدل فى القسمة بينهن ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجور ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بما ملت إلى التى تحبّها بقلبك بعد العدل فى القسمة ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ يعنى عن المرأة بالطلاق ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ أى من النفقة يعنى المرأة بزوج والزوج بامرأة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ لهما فى النكاح ﴿حَكِيمًا﴾ يمكن للزوج إمساكًا بمعروف أو تسريحًا بإحسان.

❖ **حكم الآية:**

إن علم الله عز وجل الرأفة بالعباد وعلمه بأحوالهم فنبّههم على نحو وجب عليهم من حقوق النساء ونهاهم عن الميل فى أفعالهم إذا لم يكن لهم سبيل إلى التسوية بينهن فى المحبة ومتى جمع العبد من الفعل لمال عنه إلى واحدة بعينها دون غيرها كان ذلك جوراً، وقد روى أن النبى ﷺ كان يقسم ويقول: «اللهم هذا قسمى فيما أملك وليس أحكم (فيما لا أملك)».

يعنى به قلبه، وكان يطوف به على نسائه فى مرضه حتى حللنه، فأقام عند عائشة، وعماد القسم الليل، لأنه يسكن فيه قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ (الأنعام: ١٣) فمتى كان عند الرجل حرائر مسلمات وذمّيات فهو فى القسم سواء ويقسم للحرّة ليلتين، وللأمة ليلة إذا خلى

المولى بينه وبينها فى ليلتها ويومها، وللأمة أن تحلله من قسمها دون المولى لأنه حقها فى خاصة نفسها ولا يجامع المرأة فى غير يومها، ولا لرجل أن يدخل فى الليل على التى لم يقسم لها، ولا بأس أن يدخل عليها بالنهار فى حاجة ويعودها فى مرضها فى ليلة غيرها، فإن ثقلت فلا بأس أن يقيم حتى تخف أو تموت ثمّ يوفى من بقى من نسائه مثل ما بقى عندها، وإن أراد أن يقسم بينهن ليلتين ليلتين أو ثلاثًا كان له ذلك.

❖ ذكر استدلال من استدل من هذه الآية على تكليف ما لا يطاق:

قالوا: قال الله عز وجل ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ فأمرهم الله عز وجل أن يعدلوا، وأخبر أنهم لا يستطيعون أن يعدلوا فقد أمرهم بما لا يستطيعون وكلفهم ما لا يطيقون.

إن قال قائل: هل كلف الله الكفار ما لا يطيقون؟ قيل له: إن أردت أنه كلفهم ما لا يطيقون لعجز حائل وآفة مانعة، فلا، لأنه قد صحح أبدانهم وأكمل نطقهم وأوجدهم (فى الأرض) ودفع عنهم العلل والآفات، وإن أردت أنه كلّفهم ما لا يقدرون عليه بتركهم له واشتغالهم بضدّه، فقد كلفهم ذلك.

فإن قالوا: أفيقدر الكافر لا يتشاغل للكفر؟ قيل لهم: إن معنى لا يتشاغل بالكفر هو أن يؤمن فكأنكم قلتم: يقدر أن يؤمن وهو مقيم على كفره فقد قلنا: إنه ما دام مشغولاً بكفر ليس بقادر على الإيمان على ما جوزت اللغة من أن الانسان قادر على الفعل بمعنى أنه إن لم يفرط فأثر فيه كما قالوا: فلان يقدر على رجل يعنى يقدر عليه لو رامه وقصد إلى حمله، نظير قولهم: فلان يفهم أى أنه يفهم الشيء، إذا أُورد عليه، وكذلك يقولون: الطعام مشبع، والماء مروى، ويعنى فى ذلك أن الطعام يشبع إذا أُكل، والماء يروى إذا شرب.

والذى يوضح ذلك ما يتداوله الناس بينهم من قول الرجل: قم معى فى حال كذا، والجواب: لا أقدر على المجيء معك لما أنا فيه من الشغل، وقد قال الله تعالى ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ (هود: ٢٠) يعنى القبول لاستثقالهم إيّاه، ومن المشتبه من (قال:) وهل يقدر الكافر على الإيمان؟ يقول: إن أرادهُ كان قادرًا عليه، فإذا قال له: فيقدر أن يريده؟ قال: إن كره الكفر، وإذا قيل له: هل يقدر على الكفر؟ قال: يقدر على ذلك إن أراد الإيمان، فكلّما كرّر عليه السؤال كرّر هذا الجواب.

❖ ❖ ❖

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ لها مالكًا.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعنى أهل التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة على الإسلام ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يا أهل القرآن فى كتابكم ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ أى وحّدوا الله وأطيعوه ولا تشركوا به شيئًا ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ بما أوصاكم الله به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يعنى فإن لله ملائكة هم أطوع له منكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ عن جميع خلقه غير محتاج إلى شىء ممّا فى أيديهم.

وحقيقة الغنىّ عند أصحاب الصفات من له غنًى.

والغنى هو القدرة على ما يريد، والغنىّ القادر على ما يريد، ثم ينظر فإن كان قادراً على (وصف) الحاجة عليه وَسَمْنَاهُ بذلك، وإن كان الوصف بالحاجة عليه لم يصفه به، والفقر العجز عن ذلك وعدمه. وإلى هذا ذهب (المعتزلة).

وقال الجبائى: إن معنى الوصف لله بأنه غنى هو أنّه لا تصل إليه المنافع والمضار، ولا يجوز عليه اللذات والسرور والآلام، والأول أصوب بذلك فى الشاهد والغائب، وإطلاق المسلمين بعضهم لبعض أنه غنى وفقير، والله أعلم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

الضحاك عن ابن عباس: يعنى دافعًا مجيراً.

عكرمة عن ابن عباس: يعنى شهيداً ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فيميتكم يعنى الكفار ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ يعنى بغيركم خيراً منكم وأطوع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أى مستطيعًا على ذلك.

القادر والقدير عند أصحاب الصفات من له قدرة قائمة به بائن بها عن العاجز ثم يختلف القادرون بعد ذلك فمنهم من تكون قدرته حالّة فى بعضه، ومنهم من تكون قدرته غير موصوفة بالحلول، والقدرة هى التى يكون بها الفعل من غير أن يموت بموته ولا يموت ويعود للعجز معها.

قالت المعتزلة: القادر هو الذى يجوز منه الفعل، والدليل على صحة ما قال أصحاب الصفات: أن القادر رأيناه مخالفًا للمعاجز فيما قدر عليه وقد بطل أن يخالفه من أجل أنه صفة لموصوف يخالف سائر الموصوفين بها أو يخالف من أجل أنه محدث به خلاف العاجز فلما تعلق هذه الأقسام صح أنه إنما يخالفه لأن له قدرة ليست للعاجز فلذلك قلنا: إن القديم جل جلاله قادر بقدرة دون أن يكون قادراً بنفسه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

يقول: من كان يريد بعمله الذى فرضه الله (بقدرته) عرضًا من الدنيا ولا يريد به الله أثابه الله عليه ما أحب الله من عرض الدنيا أو دفع عنه فيها ما أحب الله، وليس له فى الآخرة من ثواب لأنه عمل لغير الله، ومن أراد بعمله الذى افترضه الله عز وجل عليه فى الدنيا ثواب الآخرة أثابه الله عليه من عرض الدنيا ما أحب الله ودفع عنه ما أحب الله وجزاه فى الآخرة الجنة بعمله.

وروى سليمان بن عمرو عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «نيّة المؤمن خير من عمله، وعمل المنافق خير من نيته، وكل يعمل على نيته، وليس من مؤمن يعمل عملاً إلاّ صار فى قلبه صورتان».

فإن كانت الأولى لله فلا يهده الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ الآية يعنى كونوا قوامين بالشهادة ويعنى ﴿بالقسط﴾ العدل.

قال ابن عباس: معناه: كونوا قوّامين بالعدل فى الشهادة على من كانت ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فى الرحم فأقيموها عليهم لله تعالى، ولا تحابوا غنيًا لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره فذلك قوله تعالى ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم فهو يتولى ذلك منهم ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ يعنى أن تتركوا الحق وتتبرءوا.

قال الفراء: ويقال معناه: لا تتبعوا الذنوب لتعدلوا كما يقال: لا تتبعن هواك ليرضى عنك أى أنهاك عن هذا كيما يرضى ربّك.

ويقال: فلا تتبعوا الهوى فراراً من إقامة الشهادة ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ باللسان فتحرفوا الشهادة

لتبطلوا الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عنها فتكتمونها ولا تقيمونها عند الحكام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من إقامتها وكتمانها ﴿خَبِيرًا﴾ ويقال: معناه: وإن تلووا أى تدافعوا فى إقامة الشهادة، يقال: لويت حقّه أى دافعته وبطلته.

وقال ابن عباس: هذه الآية فى (القاضى) وليّه شدقه وإعراضه عن أحد الخصمين. وقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقم شهادته على ما كانت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجحد حقًّا هو عليه، وليؤدّه عفوًا، ولا يلجئه إلى سلطان ليأخذ بها حقه، وأما رجل خاصم إلىّ فقضيت له إلى أخيه بحق ليس هو له عليه، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من جهنم».

❖ **مسألة فى اللغة:**

قال أهل المعانى: معنى القسط العدل، يقال أقسط الرجل يقسط إقساطًا إذا عدل، وقسط يقسط قسوطًا إذا جار.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩) وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن: ١٥).

ويقال: قسط البعير يقسط قسطًا إذا يبست يده، ويد قسطًا أى يابسة، فكان أقسط معناه أقام الشىء على حقيقته فى العدل، وكان معنى قسط أى (خيار) أى يبس الشىء وأفسد جهته المستقيمة.

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ

لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنى كعب وثعلبة بن قيس بن كعب وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام، وسلامة ابن أخيه ويامين بن يامين، فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب. أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك، وبموسى والتوراة، وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال لهم النبى ﷺ: «بل آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله» فقالوا: لا نفعل، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يعنى القرآن ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ يعنى الكتب المتقدمة التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المتقدمة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ يعنى خطأ خطأً بعيداً، فلما نزلت هذه الآية، قالوا: يا رسول الله فإنّا نؤمن بالله ورسوله وبالقرآن وبكلّ رسول وكتاب كان قبل القرآن والملائكة واليوم الآخر لا نفرق بين أحد منهم كما فعلت اليهود والنصارى، ونحن له مسلمون فدخلوا فى الإسلام.

وقال الضحاك: هى فى اليهود والنصارى، ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن.

وقيل: إنه ورد فى اليهود خاصة، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا فى وجه النهار آمنوا فى آخر النهار، وذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ (آل عمران: ٧٢) الآية.

وقال (أبو العالية) وجمع من المفسرين: هذه الآية خطاب للمؤمنين وتأويله: يا أيها الذين أمنوا آمنوا أى أقيموا واثبتوا على الإيمان، وكقوله لنبيه ﷺ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد: ٩) أى اثبت على ما أنت عليه وكقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٩).

ومعناه: وعد الله الذين آمنوا على الإيمان من أصحاب النبى ﷺ الذين هم فى هذه القصة مغفرة وأجراً عظيمًا، ويقال فى الكلام للقائم: قم، وللقاعد: اقعد، والمراد منه الاستدامة.

ويقال: إنها خطاب للمنافقين الذين أصروا التكذيب ومعناها: يا أيها الذين آمنوا فى الملأ

آمنوا فى الخلاء، وقال آخرون: المراد منه الكفار يعنى: يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى والطاغوت آمنوا بالله، ومعناه: إن كان لا بد للإيمان يعنى فالإيمان بالله تعالى ورسله والكتب أحق وأولى من الإيمان بما لا يضر ولا ينفع ولا ينفق ولا يرزق ولا يحيى ولا يميت، والله أعلم.

ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعد عزير بالمسيح وكفرت النصارى بما جاء به موسى وآمنوا بعيسى ابن مريم ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد وبما جاء به.

قتادة: هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفروا وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت وكفرهم هو (تكذيبهم) إياه، ثم ازدادوا كفراً بالقرآن وبمحمد ﷺ.

وقال مجاهد: ثم ازدادوا كفراً أى ماتوا عليه ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ ما أقاموا على ذلك ولا ليهدهم ﴿سَبِيلًا﴾ سبيل هدى.

وقال ابن عباس: يدخل فى هذه الآية كل منافق كان على عهد رسول الله ﷺ.

قال نحو ذكر ما فى هذه الآية من الكلام على أهل القدر.

يقال لأهل القدر: خبرونا عن الكفار هل هداهم الله عز وجل إلى الإسلام؟ فإن قالوا: نعم. قيل كيف يجوز أن يقال إن الله هداهم وقد قال الله تعالى ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾؟ قيل: ومعناه أنه لا يهديهم إلى طريق الجنة يقال لهم كيف يهديه إلى طريق الجنة وقد هداه عندك لأن من أصلك أن العبد إنما يدخل الجنة فمعناه أنه يدخل الجنّة بفعله ويدخل النار بفعله، وقد هداه إلى طريق الجنة بهدايته إلى الإسلام فكيف يصح هذا التأويل على أصلك؟

واعلم أنهم إذا ألزمهم الشىء، فقالوا فى التأويل، فإذا فحصت عن تأويلهم بان لك فساد قولهم.

واعلم أن الله عز وجل قد بيّن لك أنه لا يهديهم سبيلاً ليعلم العبد إنما يقال هُدى بالله عز وجل ويحرم الهدى بإرادة الله عز وجل ثم لا يكون لهم عاذر بنفى الهدى عنهم، ولا مزيلاً للحجة ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نبئهم يا محمّد ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قال الزجاج: ﴿بَشِّرِ﴾ أى اجعل فى موضع بشارتك لهم العذاب الأليم، والعرب تقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، أى تضع الضرب موضع التحية (والسيف موضع العتاب).

وقال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجمع

ثم وصف المنافقين فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أنصاراً وبطانة ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ يعنى الرفد والمعونة والظهور على محمّد وأصحابه.

وقال الزجاج: ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ يعنى المنعة والشدة والغلبة مأخوذ من قولهم: أرض عزاز أى صلبة لا يفيد عليها شىء ويقال: استعز على المريض اشتد وجعه، وقولهم يعز علىّ أى يشتد، وقولهم إذا عز الشىء لم يوجد فتأويله قد اشتد وجود وصف إن وجد ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أى القدرة لله جميعًا وهو سيد الأرباب. ثم قال ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر المسلمين بمكة ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعنى القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أى يأخذوا فى حديث غير الاستهزاء بمحمد وأصحابه والقرآن.

وذلك أن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيستهزئون بالقرآن ويكذبون به ويحرفونه عن مواضعه فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم ومخالطتهم، والذى نزل فى الكتاب قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (الأنعام: ٦٨) الآية.

الضحاك عن ابن عباس: ودخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة.

الكلبى عن أبى صالح: صح هذا القول بقوله عز وجل وما على الذين يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من شىء ولكن ذكرى أى ذكروهم وعظوهم بالقرآن لعلهم يتقون الاستهزاء بمحمّد والقرآن ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ إذا قعدتم عندهم فأنتم إذًا مثلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أى ينتظرون بكم الدوائر يعنى المنافقين ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعنى النصر والغنيمة ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ على دينكم فأعطونا من الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يعنى دولة وظهوراً على المسلمين ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعنى المنافقين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نخبركم بعزيمة محمد ﷺ وأصحابه ونطلعكم على سرّهم.

وقال أهل اللغة: ألم نستحوذ عليكم ويغلب عليكم قال: استحوذ أى غلب.

وفى الحديث كان عمر أحوذنا أى غالب أمرنا فى الحق.

وقال العجّاج: يحوذهن وله حوذى.

(كما يحوذ الفئة) الكمىّ.

الكمىّ: أى يغلب عليها ويجمعها، ويروى بالزاى فيهما.

وقال النحويون: استحوذ خرج على الأصل، فمن قال: حاذ يحوذ لم يقل إلاّ استحاذ

يستحذ وإن كان أحوذ يحوذ كما قال بعضهم: أحوذت (واطّيبت) بمعنى أحذتُ وأطبت. قال استحوذ استخرجه على الأصل ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونمنعكم منازلة المؤمنين ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعنى بين أهل الإيمان وأهل النفاق ثم يفصل بينهم ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

عكرمة والضحاك عن ابن عباس يعنى حجة.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أصحاب محمد ﷺ ﴿سَبِيلًا﴾ يعنى ظهوراً عليهم.

وقال على (رضى الله عنه): ولن يجعل الله الكافرين على المؤمنين فى الآخرة، وفى هذه الآية دليل على أن المنافق ليس بمؤمن وليس الإيمان هو الإقرار فقط، إذ لو كان الإيمان هو الإقرار لكانوا بذلك هم مؤمنين.

وفيه دليل أيضًا على صحة نبوة النبى ﷺ لأن القوم كانوا كاتمين اعتقادهم فأظهر الله عز وجل رسوله على اعتقادهم وكان ذلك حجة له عليهم إذ علموا أنه لا يطلع على ضمائر القلوب إلا البارئ جل وعز.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ قد مرّ تفسيره.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أى يجازيهم جزاء خداعهم، وذلك أنهم على الصراط يعطون نوراً كما يعطى المؤمنين، فإذا مضوا على الصراط (يسلبهم ذلك النور) ويبقى المؤمنون ينظرون بنورهم فينادون المؤمنين ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ (الحديد: ١٣) فيناديهم الملائكة على الصراط ﴿ٱرْجِعُوا۟

وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ (الحديد: ١٣) وقد علموا أنهم لا يستطيعون الرجوع (فيشفق) المؤمنون حينئذ من نورهم أن يطفئ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨) ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ﴾ يعنى (تهيّأوا) ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ يعنى متثاقلين، يعنى لا يريدون بها (وجه) الله فإن رآهم أحد صلّوا وإلاّ انصرفوا ولم يصلّوا ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعنى المؤمنين بالصلاة ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ابن عباس والحسن: إنما قال ذلك لأنهم يصلونها رياء وسمعة ولو كانوا يريدون بذلك وجه الله عز وجل لكان ذلك كثيراً.

قتادة: إنما قلّ ذكر المنافقين لأن الله عز وجل لم يقبله وكما ذكر الله قليل وكلما قبل الله كثير ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أى مترددين متحيرين بين الكفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمسلمين، فليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار فلا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.

(القاسم بن طهمان) عن قتادة: ما هم بمؤمنين مخلصين ولا بمشركين مصرحين بالشرك ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أى طريقًا إلى الهدى.

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن والمنافق والكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن هلمّ إلىّ فإنى أخشى عليك وناداه المؤمن هلمَّ إلى فإن عندى الهدى وكفى له ما عنده، فما زال المنافق يتردد منهما حتّى أتى على أذى فعرفه فإذ المنافق لم يزل فى شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك.

وروى عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما مثل المنافق مثل الشاة العايرة من الغنمين يبدى إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا يدرى أيهما يتبع».

ثم ذكر المؤمنين ونهاهم عن الإتيان بما أتى المنافقون.

فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ ثم ذكر منازل المنافقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يعنى فى أسفل برج من النار، والدُّرك والدَّرك لغتان مثل الطُّعن والطَّعن والنُّهر والنِّهر واليُبس واليبس.

قال عبد الله بن مسعود: الدرك الأسفل من النار توابيت مقفلة فى النار تطبق عليهم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (عونًا).

عن عوف عن أبى المغيرة القواس عن عبد الله بن عمر قال: إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة

ثلة المنافقين، ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون.

قال الثعلبى: وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى فأما أصحاب المائدة فقوله عز وجل ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (المائدة: ١١٥)، وأما آل فرعون فقوله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦)، وأما المنافقون فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من النفاق ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ عملهم ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أى وثقوا بالله ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ على دينهم. قال الفراء: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ تفسيره من المؤمنين. قال القتيبى: حاد عن كلامهم غيظًا عليهم فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فى الآخرة ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهى الجنة وإنما حذفت الياء من: يؤتى فى الخط كما حذف فى اللفظ لأن الياء سقطت من اللفظ لسكونها وسكون اللام فى الله وكذلك قوله ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ (ق: ٤١) حذفت الياء فى (الخط) لهذه العلة وكذلك ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٨) ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ (القمر: ٦) قالوا: والياء هذه حذفت لالتقاء الساكنين.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ (الكهف: ٦٤) حذفت لأن الكسرة دلت على الياء فحذفت لثقل الياء، وقد قيل حذفت الياء من المناد والدّاع لأنك تقول: داعٍ ومنادٍ حذفت اللام بهما كما حذفت قبل دخول الألف واللام.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ (الفجر: ٤) فحذفت الياء لأنها ما بين آية ورءوس الآية يجوز فيها الحذف ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ﴾ نعماه ﴿وَءَامَنتُمۡۚ﴾ به وفى الآية تقديم، وتأخير، تقديرها ما يفعل الله بعذابكم إن آمنتم وشكرتم لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان بالله والله تعالى عرف خلقه بفضله على أن تعذيبه عباده لا يزيد فى ملكه. وتركه عقوبتهم على أفعالهم، لا ينقص من سلطانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ للقليل من أعمالكم ﴿عَلِيمًا﴾ بإضعافها لكم من عشرة إلى سبعمائة ضعف.

قال أهل اللغة: أصل الشكر إظهار النعمة والتحدث بها. قال الله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ (الضحى: ١١) وذكر بعض أهل اللغة أن الشكر مأخوذ من قول العرب لغة شكور إذا كان يظهر سمنها على القليل من العلف فكأن الله تعالى سمّى نفسه شاكرًا إلا أنه يرضى من عباده بالقليل من العبادة، بعد رتبة التوحيد.

وقال بعض المعتزلة: إن الوصف لله بأنه شكور وشاكر على جهة المجاز لأن الشكر فى

الحقيقة هو الاعتراف بنعم المنعم فلما كان القديم تعالى ذكره مجازيًا للمطيعين على طاعتهم سمى مجازاته إياهم عليها شكرًا على التوسعة، وليس الحمد عنده هو الشكر لأن الحمد ضد (الذم) والشكر ضد الكفر، فيقال له: إن لم يجز أن يكون البارى تعالى شاكرًا على الحقيقة لما ذكرته لم يجز أن يكون مثيبًا، لأن المثيب من كافئ غيره على نعمة (قدمت) إليه ابتداءً، (وإلاّ لم يجزه) أن يكون شاكرًا فى الحقيقة، والشكر من الله تعالى الثواب، ومن العباد الطاعة وحقيقة مقابلة الطاعة بغيرها، فإذا قابلت أوامر الله بطاعتك فقد شكرته وإذا قابلك الله طاعتك بثوابه فقد شكرك عليها.



﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعنى القول القبيح ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فقد أذن للمظلوم أن ينتصر بالدعاء على ظالمه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لدعاء المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بعقاب الظالم، نظير قوله ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤١) مجاهد: هذا فى الضيف النازل إذا لم يضف ومنع حقه أو أساءوا قراه فقد رخص الله له أن يذكر منه ما صنع به، وزعم أن ضيفًا نزل بقوم فأساءوا قراه فاشتكاهم، فنزلت هذه الآية رخصة فى أن يشكو. والضيافة ثلاثة أيام وما فوق ذلك فهو صدقة.

وقوله: ﴿مَن ظُلِمَ﴾ من فى محل النصب لأنه استثناء ليس من الأول، وإن شئت جعلت من رفعًا فيكون المعنى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فيكون من بدلاً من معنى أحد والمعنى لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلاّ المظلوم، وقرئ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بفتح الظاء واللام على معنى أن الظالم يجهر بالسوء من القول ظلمًا واعتداءً، ويكون المعنى لكن الظلم الجهر بذلك ظلمًا ومحل من فى ﴿مَن ظُلِمَ﴾ النصب لأنه استثناء من الأول، وفيه وجه

آخر: وهو أن يكون إلاّ من ظلم على معنى لكن الظالم جهروا له بالسوء من القول وهو بعد استثنائه من الأول، وموضعه نصب وهو وجه حسن.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ يعنى حسنة فتعمل بها كتبت له عشر وإن همّ بها ولم يعمل بها كتبت له حسنة واحدة ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وقيل الخير ما صفى المال ومعناه إن تبدوا الصدقة والمعروف أو تصدّقوا بسرّ ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ عن ظلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ يعنى فإنّ الله عز وجل أولى أن يتجاوز عنكم يوم القيام عن الذنوب العظام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية نزلت فى اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى وعزير والتوراة وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمّد والقرآن وذلك قوله ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أى دينًا من اليهودية والإسلام، قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ كلهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى بين الرسل وهم المؤمنون، قالوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) كما علمهم الله، فقال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ إلى قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بإيمانهم بالله وكتبه ورسله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ كما كان منهم فى الشرك.



﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ۝ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ

قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازورا قالا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبيًا حقًا فأتنا بكتاب من السماء كما أتى به موسى فأنزل الله عز وجل ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعنى السبعين الذين خرج بهم موسى (عليه السلام) إلى الجبل ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عيانًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ ولم نستأصلهم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ الآية.

يعنى الآيات التسع ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قتادة: كنا نتحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس، وقيل: إيليا، وقيل: أريحا، وقيل: هى لهم قربة.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أى لا تظلموا باصطيادكم الحيتان فيها ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ يعنى العهد الذى أخذ الله عليهم فى الصيد ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ أى فبنقضهم ميثاقهم كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) و﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ (المؤمنون: ٤٠) و﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ (ص: ١١) أى فبرحمة وعن قليل، والجند هنالك.

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ تقدير الآية، فنقضهم ميثاقهم وكفرهم وقتالهم وقولهم طبع الله على قلوبهم ولعنهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بمعنى من ممن كذب الرسل إلاّ من طبع الله على قلبه وإن من طبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبدًا، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى عبد الله بن سلام، وقيل معناه: فلا يؤمنون لا قليلاً ولا كثيراً ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ حين رموها بالزنا ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: إنّ عيسى (عليه السلام) استقبل رهطًا من اليهود وقالوا: الفاجر بن الفاجرة والفاعل بن الفاعلة، فقذفوه وأُمّه فلما سمع عيسى ذلك دعا عليهم، وقال: اللهم أنت ربى وأنا عبدك من روح نفخت ولم أتهم من تلقاء نفسى «اللهم فالعن من سبّنى وسبَّ أُمّى».

فاستجاب الله دعاءه ومسخ الذين سبّوه وسبّوا أُمّه خنازير، فلما رأى رأس اليهود ما جرى بأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته آنفًا فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى فاجتمعوا عليه وجعلوا يسألونه فقال لهم: كفرتم وإن الله يبغضكم، فغضبوا من مقالته غضبًا شديداً وثاروا

عليه ليقتلوه فبعث الله تعالى جبرائيل، وأدخله خوخة فيها روزنة فى سقفها فصعد به إلى السماء من تلك الروزنة فأمر يهودا رأس اليهود رجلاً من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله فلما دخل ططيانوس الخوخة لم ير عيسى بداخلها فظنوا أنه يقاتله فيها وألقى الله تعالى عليه شبه عيسى، فلما خرج ظن أنه عيسى فقتلوه وصلبوه.

مقاتل: إن اليهود وكّلوا بعيسى رقيبًا عليه يدور معه حيثما دار فصعد عيسى الجبل، فجاء الملك فأخذ ضبعيه ورفعه إلى السماء فألقى الله تعالى على الرقيب شبه عيسى، فلما رأوه ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه، وكان يقول: أنا لست بعيسى، أنا فلان ابن فلان، فلم يصدّقوه فقتلوه.

وقال السدّىّ: إنهم حبسوا عيسى مرّتين فى بيت فدخل عليهم رجل منهم وألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ورفع عيسى إلى السماء من كوّة فى البيت فدخلوا عليه وقتلوه بعيسى.

قتاده: ذكر لنا أن نبى الله عيسى ابن مريم قال لأصحابه: أيّكم يقذف عليه شبهى فإنّه مقتول فقال رجل من القوم: أنا يا نبىّ الله فشبّه الرجل ومنع الله تعالى عيسى ورفعه إليه فلما رفعه الله إليه كساه الريش وألبسه النور وحطّ عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة يدور حول العرش وكان إنسيًا ملكيًا سمائيًا أرضيًا.

وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ثم رفعه الله إليه وهو (أربع) وثلاثين سنة وكانت نبوته (ثلاث سنين).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ يعنى اليهود ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فكذبهم الله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾.

الكلبى: اختلافهم فيه فاليهود قالت: نحن قتلناه وصلبناه. وقالت طائفة من النصارى: بل نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم: ما قتلوه هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إليه (ونحن ننظر إليه) وقال الذين لمّا قتل ططيانوس: ألم تروا أنه قتل وصلب فهذا اختلافهم وشكهم.

قال محمد بن مروان: ويقال: إنّ الله وضع فى شبه من عيسى على وجه ططيانوس ولم يلق عليه شبه جسده وخلقه، فلما قتلوه نظروا إليه، فقالوا: إن الوجه وجه عيسى وإنّما هو ططيانوس، وقد قيل إن الذى شبّه لعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلى وكان يقال له إيشوع ابن مدين.

قال السدى: اختلافهم فيه أنهم قالوا إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى، قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أى ما قتلوا عيسى

يقينًا ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾.

قال الفراء والقتيبى: والهاء فى قوله ﴿إِلَيۡهِ﴾ إلى العلم يعنى: وما قتلوا العلم يقينًا كما يقال قتلته علمًا وقتلته يقينًا للرأى والحديث.

وقال المقنع الكندى:

كذلك نخبر عنها الغانيات . . . .[1] فلكم يقينًا

ويؤيد هذا التأويل ما روى معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يعنى ما قتلوه ظنهم يقينًا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أى قويًا بالنقمة من اليهود فسلط عليه طغرى بن أطسيانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة ﴿حَكِيمًا﴾ حكم عليهم (باللعنة والغضب).

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾ قال الأستاذ الإمام: معناه وما من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ (الصافات: ١٦٤) أى وما منا أحد إلاّ له مقام معلوم.

وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١) المعنى: وما منكم أحد إلاّ واردها. قال الشاعر:

لو قلت ما فى قومها لم تيثم يفضلها فى حسب ومبسم

المعنى: ما فى قومها أحد يفضلها، ثمّ حذف.

عن قتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وابن زيد: هما راجعتان إلى عيسى، المعنى فإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلاّ آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الإسلام، وهو رواية سعيد بن جبير وعطية عن ابن عباس عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة، وروى قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلاّت أُمهاتهم شتّى ودينهم واحد وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، ويوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فإذا رأيتموه وهو رجل مربوع فلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه يقطره وإن لم يصبه بلل بين ممصّرتين، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها غير الإسلام وتكون السجدة واحدة لله تعالى ويهلك الله فى زمانه الرجل الكذاب الدجال يقع الأمنة فى الأرض فى زمانه حتى ترتع الأُسود مع الإبل، والنمور مع البقرة، والذئاب مع

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الغنم، ويلعب الصبيان مع بعضهم بعضًا ثم يلبث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ عيسى ابن مريم» رددها أبو هريرة ثلاث مرات.

عكرمة ومجاهد والضحاك والسدى: الهاء فى قوله تعالى ﴿بِهِۦ﴾، و﴿مَوْتِهِۦ﴾ راجعتين إلى عيسى ابن مريم وإلى الكتابى الذى يؤمن والمعنى وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنَنَّ بعيسى قبل موته إذا عاين الملك فلا ينفعه حينئذ إيمانه، لأن كلَ من نزل عليه الموت يعاين نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل فى دينه وهذه رواية أبى هريرة عن أبى علىّ عن ابن عباس قالوا: لا يبقى يهودى ولا صاحب كتاب حتى يؤمن بعيسى، وإن احترق أو غرق أو تردى أو سلط عليه حيتان أو أكله السبع أو أى ميتة كانت.

قيل لابن عباس: أرأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به فى الهواء، فقال: أرأيت إن ضرب عنق أحدهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه.

يدل على صحة هذا التأويل قراءة أبىّ: (قبل موتهم).

الكلبى: خرجت من الكوفة حتى أتيت طابت وهى قرية دون واسط فنزلتها فإذا أنا بشهر ابن حوشب فتذاكرنا هذه الآية. ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ فقال شهر: خرج العطاء والحجاج يومئذ بواسط فأمر بالعطاء فوضع بين يديه فجعل يدعو الرجل فيدفع العطاء بما قال، فدعا باسمى وجئت على فرس لى عجفاء رثّة الهيئة وعلىّ ثياب رثّة، فلما رآنى الحجاج قال لى: يا شهر ما لى أرى ثيابك رثة وفرسك رثة، فقلت: أصلح الله الأمير أما ما ذكرت من فرسى فإنى قد اشتريتها ولم آل نفسى خيراً، وأما ما تذكر من الثياب فحسب المؤمن من الثياب ما وارى عورته، فقال: لا ولكنك رجل تكره الخز وتعيب من يلبسه، فقلت: إنى لا أكره ذلك ولا أعيب على من يلبسه، قال: فدعا بقطعة له خزّ فأعطانيها فصببتها عليه فلما أردت أن أخرج، قال لى: هلم، فرجعت فقال: آية من كتاب الله تعالى ما قرأتها قط إلاّ اختلج فى نفسى منها شىء، قلت: أصلح الله الأمير، ما هى؟ فقرأ هذه الآية ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ فإنى لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فآمر بضرب أعناقهم فما أسمعه يتكلّم بشىء، فقلت: إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره، وقالت: يا عدوّ الله أتاك عيسى ابن مريم عبدًا نبيًا فكذبت به، فيقول: إنى آمنت به إنه نبى عبد فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه، ويؤتى بالنصرانى فيقولون له: يا عدو الله أتاك عيسى عبد نبى فقلت: إنه الله وابن الله، فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه.

قال شهر: فنظر إلىَّ الحجاج وقال: من حدثك بهذا الحديث؟ فقلت: محمد بن الحنفية، قال: وكان متكئًا فجلس ثم نكث بقضيبه فى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلىّ وقال: أخذتها من عين صافية أخذتها من معدنها.

قال الكلبى: فقلت: يا شهر ما الذى أردت أن تقول: حدثنى محمد بن الحنفية وهو يكرهه ويكره ما جاء من قبلهم، قال: أردت أن أغيظه.

وقال بعضهم: الهاء فى﴿بِهِۦ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ وفى﴿مَوْتِهِۦ﴾ راجعة إلى الكتابى.

وهو رواية حماد بن حميد عن عكرمة قال: لا يموت اليهودى ولا النصرانى حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وقيل الهاء فى﴿بِهِۦ﴾ راجعة إلى الله تعالى، وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنّ به قبل أن يموت عند المعاينة ولا ينفعه إيمانه فى وقت البأس﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ﴾ عيسى﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بأنّه قد بلّغهم رسالة من ربه وأقرَّ له بالعبودية على نفسه، نظير قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ (المائدة: ١١٧) وهو نبى شاهد على أمّته، قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ (النساء: ٤١) الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ (النحل: ٨٤).

❖ ❖ ❖

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ
سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ
وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ
ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ
يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهو ما تقدّم ذكره من نقضهم الميثاق وكفرهم بالآيات وبهتانهم

على مريم وقولهم : إنا قتلنا المسيح .

ونظم الآية ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ﴾ وبصدهم أى صرفهم أنفسهم وغيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله صداً كبيراً ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ مثل الأكل التى كانوا يصيبونها من عوامهم، وما كانوا يأخذونها فى إيمان كتبهم التى كتبوها، وقالوا هذه من عند الله، وما كانوا يأخذون من الرشاء فى الحكم، كقوله تعالى : ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ (المائدة : ٦٣) عاقبناهم بأن حرّمنا عليهم الطيبات وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شيئًا من الطيبات التى كانت حلالاً لهم، يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ (الأنعام : ١٤٦) و﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ (النحل : ١١٨).

نكتة : قال لهم : ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ وقال لنا : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ (الأعراف : ١٥٧)، وقال : ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (المائدة : ٨٨) فلم يحرّم علينا شيئًا بذنوبنا فكما أمننا من تحريم الطيبات التى ذكر فى هذه الآية نرجو أن يؤمننا فى الآخرة من العذاب الأليم وقال الله تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنه جمع بينهما فى الذكر.

نكتة : أطلق فى تحريم الطيبات اللفظ فى العذاب، لأن التحريم شىء قد مضى له والعذاب مستقبل، وقد علم أن منهم من يؤمن فيأمن من العذاب، فقال ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثمّ استثنى مؤمنى أهل الكتاب فقال : ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ يعنى ليس أهل الكتاب كلّهم كما ذكرنا لكن الراسخون التائبون المناجون، فى العلم ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

واختلفوا فى وجه انتصابه :

فقالت عائشة وأبان بن عثمان : هو غلط من الكاتب، ونظيره قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (المائدة : ٦٩) وقوله تعالى : ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه : ٦٣) وقال بعض النحويين : هو نصب على المدح والعرب تفعل ذلك فى صفة الشىء الواحد إذا تطاولت بمدح أو ذم خالفوا من إعراب أوله وأوسطه، نظيره قوله ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ (البقرة : ١٧٧) وقيل : نصب على فعل، تقديره : أعنى المقيمين، على معنى : أذكر النازلين وهم الطيبون.

وقال قوم : موضعه خفض، واختلفوا فى وصفه، قال بعضهم : معناه : لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة، وقيل معناه : يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين

الصلاة، وقال بعضهم: يؤمنون بما أُنزل إليك من الكتاب والمقيمين الصلاة.

ثم اختلفوا فيهم من هم؟ فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم المؤمنون، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب وهم الراسخون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية، نزلت في اليهود وذلك لما أنزل الله تعالى قوله ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (النساء: ١٥٣) إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

لفضحهم وذكر عيوبهم وذنوبهم؛ غضبوا وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء وأنزل ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ جعله الله تعالى ثاني المصطفى ﷺ في موضعين من كتابه في أهل الميثاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ (الأحزاب: ٧) والثاني في الوحي، فقال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ فإن قيل: ما الحكمة في تقديم نوح على سائر الأنبياء وفيهم من هو أفضل منه؟ يقال: لأنه كان أبا البشر قال الله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ (الصافات: ٧٧) وقيل: لأنه أول نبي من أنبياء الشريعة وأول داع ونذير عن الشرك.

وقيل: لأنه أول من عذب أمّته لردّهم دعوته وأهلك كل الأرض بدعائه عليهم لأنه كان أطول الأنبياء عمراً.

وقيل: إنه كبير الأنبياء، وجعل معجزته في نفسه لأنه عُمِّرَ ألف سنة ولم ينقص له سن ولم تنقص له قوة ولم يشب له شعر.

وقيل لأنه لم يبالغ أحد من الأنبياء في الدين ما بالغ نوح ولم يصبر على أذى قوم ما صبر نوح وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً إعلانًا وإسراراً وكان يشتم ويضرب حتى يغمى عليه فإذا فاق دعا وبالغ وكان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه فيقول له: يا بني احذر هذا فإنه ساحر كذاب. قال الله تعالى ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ (النجم: ٥٢).

وقال من عتق عنه .... [1] يوم القيامة بعد محمد ﷺ، وقيل لأن مقامه الشكر قال الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ (الإسراء: ٣) فكما .... [1] القرآن فكذلك نوح (عليه السلام) صدر .... [1] وقال أول من يُدعى إلى الجنة الحمّادون لله على كل حال.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش وحمزة ﴿زُبُورًا﴾ بضم الزاي بمعنى جمع زبر وزبور كأنه قال: قد كتبنا صحفًا من بعده أي مكتوبة،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

والباقون بفتح الزاى على أنه كتاب داود المسمى زبوراً، وكان داود يبرز إلى البرّية فيدعو بالزبور وكان يقوم معه علماء بنى إسرائيل فيقومون خلفه. ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس، الأعظم فالأعظم فى (فلاة) عظيمة ويقوم (الناس) لهذا الجن الأعظم فالأعظم وتجىء الدواب التى فى الجبال، إذا سمعن صوت داود فيقمن بين يديه تعجبًا لما سمعن منه، وتجىء الطير حتى يظللن داود وسليمان والجن والإنس فى كثرة لا يحصيهم إلاّ الله عز وجل يرفرفن على رءوسهم ثم تجىء السباع حتى تخالط الدواب والوحش لما سمعن حتى من لم ير ذلك، فقيل له: ذاك أنس الطاعة، وهذه وحشة المعصية.

وروى طلحة بن يحيى عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «لو رأيتنى البارحة وأنا أستمع لقرآنك، لقد أُعطيت مزماراً من مزامير آل داود» قلت: أما والله يا رسول الله لو علمت أنّك تسمع قراءتى لحسّنت صوتى وزدته (تحبيرًا).

وكان عمر (رضى الله عنه) إذا رآه قال: ذكّرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده.

وعن أبى عثمان (النهدى) وكان قد أدرك الجاهلية، قال: ما سمعت (طنبوراً ولا صنجًا) ولا مزماراً أحسن من صوت أبى موسى وإن كان لَيَؤُمّنا فى صلاة الغداة لنودّ أنه يقرأ سورة البقرة من حسن صوته .... [1] حيث نزع حرف الصفة فالمعنى: كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل.

وقيل معناه وقصصنا عليك رسلاً نصب بعائد الذكر، وفى قراءة ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ بمكة فى سورة الأنعام لأن هذه السورة مدنية أُنزلت من بعد الأنعام ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ سمّى الله تعالى النبيين بهذين الاسمين، فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (البقرة: ٢١٣) ثم سمّى المرسلين خاصة بهذا الاسم، فقال: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ثم سمّى نبينا خاصة بهذين الاسمين، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الفتح: ٨، ٩) ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقول: ما أرسلت إلينا رسولاً فنتبع وما أنزلت علينا كتابًا، وقال فى آية أخرى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغير من الله تعالى». ولذلك ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١) وما (أحسن) إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه جل جلاله وما أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى لذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ الآية.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

اعلم أن الله تعالى شهد على سبعة أشياء: على التوحيد، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (آل عمران:١٨) والثانى على العدل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ (الفتح:٢٨، ٢٩) وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ (العنكبوت:٥٢) وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام:١٩) وقال: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران:٨١) والثالث على أعمال العباد فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ (المجادلة:٦) الآية وقال: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس:٦١)، وقال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران:٩٨)، والرابع على جميع الأشياء فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصّلت:٥٣) والخامس على كذب المنافقين قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ (المنافقون:١)، والسادس على شريعة المصطفى فقال عز من قائل ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام:١٩) والسابع شهيد على القرآن ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ الآية.

وقال ابن عباس: إن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا أولاً عن صفتك ونعتك فى كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك، ودخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم: «إنى والله أعلم أنكم تعرفون أنى رسول الله».

فقالوا: نعلم، فأنزل الله تعالى إن كذبوك وجحدوك لكن الله يشهد ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا
لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟
خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ
وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ يعنى اليهود الذين علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ يعنى دين الإسلام ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ يعنى اليهودية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟﴾ الآية نزلت فى النسطورية والماريعقوبية والملكانية والمرقوسية وهم نصارى نجران وذلك أن الماريعقوبية قالوا لعيسى: هو الله، وقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت المرقوسية: هو روح الله، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعنى يا أهل الإنجيل وهم النصارى ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أى لا تتشددوا فى دينكم فتفتروا علىّ بالكذب، وأصل الغلو مجاوزة الحد فى كل شىء، يقال: غلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها يغلو بها غلواً وغلاء.

خالد المخزومى:

خمصانة فلق موشحها ... رؤد الشباب غلا بها عظَم

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ لا تقولوا: إن لله شركاء أو ابنًا، ثم بين حال عيسى وصفته فقال ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهو الممسوح المطهر من الذنوب والأدناس التى تكون فى الناس كما يمسح الشىء من الأذى الذى يكون فيه فيطهر، عيسى ابن مريم لا ابن الله بل رسول الله (وعبده قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠)) ردَّ بهذا على اليهود والنصارى جميعًا ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ يعنى قوله: كن، فكان بشراً من غير أب وذلك قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩) الآية وقيل: هى بشارة الله مريم بعيسى ورسالته إليها على لسان جبرئيل وذلك قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ (آل عمران: ٤٥) وقال تعالى مصدقًا بكلمة من الله ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ يعنى أعلمها وأخبرها بها كما يقال: ألقيت إليك كلمة حسنة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ الآية.

قال بعضهم: معناه ونفخة منه وذلك أن جبرئيل نفخ فى درع مريم فحملت بإذن الله، فقال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ لأنه بأمره كان المسيح وربما لأنه ريح يخرج من الروح، قال ذو الرمة يصف شرر النار التى تسقط من القداحة:

فقلت له ارمها إليك وأحيها ... بروحك واقتته لها قيتة قدراً

واجعل لها قوتًا بقدر. يدل عليه قوله تعالى ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ (الأنبياء: ٩١) الآية هذا معنى قول عذرتها.

وقال أبو عبيدة: إنّه كان إنسانًا بإحياء الله عز وجل إياه، يدل عليه قول السدّى ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ أى مخلوق من عنده، وقيل: معناه ورحمة من الله تعالى، عيسى رحمة لمن شهد وآمن به، يدل عليه قوله فى المجادلة ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ (المجادلة: ٢٢) أى قوّاهم برحمة منه، فدلّ الروح بالوحى أوحى إلى مريم بالبشارة وأوحى إلى مريم بالمسيح وأوحى أنه ابن مريم يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ يعنى بالوحى، وقال فى حم المؤمن: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ (غافر: ١٥).

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ (الشورى: ٥٢) أى وحينا، وقيل: اهدنا بروح جبرئيل فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ وألقى إليها أيضًا روح منه وهو جبرائيل. يدل عليه قوله فى النحل ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ (النحل: ١٠٢) نظيره فى الشعراء قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ (الشعراء: ١٩٣) وقال ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ (البقرة: ٨٧) وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ (النحل: ٢) يعنى جبرئيل، وقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ (مريم: ١٧) الروح الوحى يعنى من الإضافة إليه على التخصيص كقوله لآدم (عليه السلام): ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر: ٢٩).

قال الثعلبى: وسمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبى يقول: كان لهارون الرشيد غلام نصرانى متطّيب وكان أحسن خلق الله وجهًا وأكملهم أدبًا وأجمعهم للخصال التى يتوسل بها إلى الملوك وكان الرشيد مولعًا بأن يسلم وهو ممتنع وكان الرشيد يمنيه الأمانى (فيأبى) فقال له ذات يوم: ما لك لا تؤمن؟ قال: لأن فى كتابكم حجة على من انتحله، قال وما هو؟ قال: قوله ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ أفغير هذا دين النصارى أن عيسى جزء منه، (فغمّ) قلب الرشيد لذلك فدعا العلماء والفقهاء فلم يكن منهم من يزيل تلك الشبهة حتى قيل: قدم حجاج خراسان وفيهم رجل يقال له على بن الحسين بن واقد من أهل مرو إمام فى أهل القرآن، فدعاه وجمع بينه وبين الغلام، فسأل الغلام فأعاد قوله، فاستعجم على على بن الحسين الوقت جوابه فقال: يا أمير المؤمنين قد علم الله فى سابق علمه أن مثل هذا (الحدث) يسألنى فى مجلسك، وإنه لم يخل كتابه من جوابى وليس يحضرنى فى الوقت لله علىّ أن لا أطعم حتى آتى الذى فيأمن حقها إن شاء الله، فدخل بيتًا مظلمًا، وأغلق عليه بابه (وانشغل) فى قراءة القرآن حتى بلغ سورة الجاثية ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾(الجاثية: ١٣)

فصاح بأعلى صوته: افتحوا الباب فقد وجدت، ففتحوا، ودعا الغلام وقرأ عليه الآية بين يدى الرشيد، وقال: إن كان قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ توجب أن عيسى بعض منه وجب أن يكون ما فى السموات وما فى الأرض بعضًا منه، فانقطع النصرانى وأسلم وفرح الرشيد فرحًا شديدًا ووصل على بن الحسين بصلة فاخرة فلما عاد إلى مرو صنف كتاب «النظائر فى القرآن» هو كتاب لا يوازيه فى بابه كتاب.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ﴾ قال أبو عبيدة: معناه ولا تقولوا هم ثلاثة.

وقال الزجاج: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك أنهم قالوا: أب وابن وروح القدس، ﴿ٱنتَهُواْ﴾ عن كفركم ﴿خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ إلى قوله ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ وذلك أن وفد نجران قالوا: يا محمد لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟

قالوا: عيسى. قال: وأى شىء أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار لعيسى أن يكون عبدًا لله. قالوا: بلى، فنزلت ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ الآية. لم يأنف ولم يتعظّم ولم يختتم وأصله الأنفة، والتجنب وأصله فى اللغة من قولهم نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك.

قال الشاعر:

فباتوا فلولا مـــا تذكر عنهم   من الحلف لم ينكف لعينيك تدمع

﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ هم حملة العرش لا يأبون أن يكونوا عبيدًا لله، لأن من الكفار من اتخذ الملائكة آلهة فلذلك ذكرهم ثم أوعدهم فقال ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ المستكبر والمقر ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ﴾ فى (التضعيف) ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾ عن عبادته ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن السجود ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ثم قال ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

❖ ❖ ❖

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا

وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعنى محمداً ﷺ إلى قوله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

روى محمد بن المنكدر وأبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال: مرضت فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى هو وأبو بكر فلما غشيانى فوجدانى قد أغمى على فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صبّ علىّ من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أصنع فى مالى وكان لى سبع أخوات ولم يكن لى ولد ولا والد؟ قال: فلم يجبنى شيئًا ثمّ خرج وتركنى ثم رجع إلىّ وقال: «يا جابر إنى لا أراك ميّتًا من وجعك هذا، وإن الله عز وجل قد أنزل فى أخواتك وجعل لهن الثلثين»، وقرأ هذه الآية ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ إلى آخرها.

وكان جابر يقول: نزلت هذه الآية فىّ.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى جابر وفى أخته أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لى أُختًا فما لى (وما لها).

فنزلت هذه الآية وابتدأ بالرجل، فيقال: إنه مات قبل أُخته.

سعيد عن قتادة قال: قال بعضهم على الكلالة فقالوا يا نبى الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أى يستخبرونك ويسألونك ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

قال الشعبى: اختلف أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى الكلالة وقال أبو بكر: هو ما عدا الولد، وقال عمر: هو ما عدا الوالد.

ثم قال عمر: إنى لأستحى من الله أن أُخالف أبا بكر.

وقال عمر (رضى الله عنه): لأن يكون النبى ﷺ بينهنّ كان أحب إلينا من الدنيا وما فيها، الكلالة والخلافة وأبواب الربا.

وقال محمد بن سيرين: نزلت هذه الآية والنبى ﷺ فى مسيره إلى حجة الوداع، وإلى جنبه حذيفة بن اليمان (وإلى جنبه عمر) فبلغها النبى إلى حذيفة وبلغها حذيفة إلى عمر وهو يسير خلف حذيفة، فلما استخلف عمر سأل حذيفة عنها ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة: والله إنك لأحمق أن ظننت أنّ إمارتك تحملنى أن أُحدّثك فيها ما لم أُحدّثك يومئذ لما لقّانيها رسول الله ﷺ (والله، لا أزيدك عليها شيئًا أبدًا) فقال عمر: لم أرد هذا رحمك الله، ثم قال عمر: من كنت بيّنتها له فإنها لم تبين لى وما شهدك أفهمتها له فإنى لم أفهمها.

وقال طارق بن شهاب: أخذ عمر كتفًا وجمع أصحاب النبى ﷺ، ثم قال: لأقضينّ فى الكلالة قضاءً تحدّث به النساء فى خدورها فخرجت حينئذ حية من البيت فتفرّقوا، فقالوا: لو أراد الله أن يتم هذا الأمر لأتمّه.

وقال أبو الخير: سأل رجل عتبة عن الكلالة، فقال: ألا تعجبون من هذا، يسألنى عن الكلالة (ما شغل) أصحاب النبى ﷺ شىء مثل ما شغلت بهم الكلالة.

وخطب عمر الناس يوم الجمعة فقال: والله إنى ما أدع بعدى شيئًا هو أهم من الكلالة، قد سألت رسول الله ﷺ عنها فما أغلظ لى فى شىء ما أغلظ لى فيها حتى طعن الناس فىّ وقال: تكفيك الآية التى فى آخر سورة النساء، وقيل لها: آية الصيف لأنها نزلت فى الصيف.

وقال أبو بكر (رضى الله عنه) فى خطبته: ألا إن الآية التى أنزلها الله فى سورة النساء من شأن الفرائض أنزلها فى الولد والوالد، والآية الثانية فى الزوج والزوجة والإخوة منهم، والآية التى ختم بها سورة النساء من ذكر بعضهم.



سورة المائدة

مدنية، فيها من المنسوخ تسع آيات

منها قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٢) نسختها آية السيف

قال رسول الله ﷺ فى خطبته يوم حجة الوداع قال: «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» وهى أحد عشر ألفًا وتسعمائة وثلاثة وثلاثون حرفًا، وألفان وثمانمائة وأربع كلمات، ومائة وعشرون آية.

عن عبد الله بن عمر قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو على راحلة فلم تستطع أن تستحمله حتى نزل عنها.

أبو أمامة عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ : يا نداء أى إشارة، ها تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ نصب على البدل من: أيها ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ يعنى بالعهود.

قال الزجاج: العقود أو كل العهود، يقال: عاقدت فلانًا وعاهدت فلانًا، ومنه ذلك باستيثاق وأصله عقد الشيء بغيره. وهو وصله به كما يعقد الحبل بحبل إذا وصل شدًا قال الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقدًا لجارهم ... شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكربا

واختلفوا فى هذه العقود ما هى، قال ابن جريج: هذا الخطاب خاص لأهل الكتاب وهم الذين آمنوا بالكتب المقدسة والرسل المتقدمين.

أوفوا بالعهود التى عهد بها بينكم فى شأن محمد، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ (آل عمران: ٨١). وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٨٧). وقال الآخرون: فهو عام.

قال قتادة: أراد به الذين تعاقدوا عليه فى الجاهلية دليله قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ (النساء: ٣٣).

ابن عباس: هى عهود الأيمان والفراق، غيره: هى العقود التى عقدها الناس بينهم، ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ اختلفوا فيها، فقال الحسن وقتادة والربيع والضحاك والسدى: هى الأنعام كلها وهى اسم للبقر والغنم والإبل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ (الأنعام: ١٤٢) ثم بيّن ما هى، فقال: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٣) وأراد بها ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام.

وقال الشعبى: بهيمة الأنعام: الأجنّة التى توجد ميتة فى بطن أمهاتهم إذا ذُبحت.

وروى عطية العوفى عن ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ قال ما فى بطونها، قلت: إن خرج ميتًا آكله. قال: نعم هى بمنزلة رئتها وكبدها.

وروى قابوس عن أبيه عن ابن عباس أن بقرة نُحرت فوجد فى بطنها جنين، فأخذ ابن عباس بذنب الجنين وقال: هذا من بهيمة الأنعام التى أحلت لكم.

وقال أبو سعيد الخدرى: سألنا رسول الله ﷺ عن الجنين، فقال: «ذكاته ذكاة أمّه».

قال الكلبى: بهيمة الأنعام وحشها، كالظباء وبقر الوحش مفردين، وإنما قيل لها بهيمة لأن كل حى لا يميز فهو بهيمة، سمّيت بذلك لأنها أُبهمت عن أن تميّز.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: يقول: عليكم فى القرآن لأنه حاكم وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ وقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١).

﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قال الأخفش: هو نصب على الحال يعنى أوفوا بالعقود منسكين غير محلى الصيد وفيه معنى النهى.

وقال الكسائى: هو حال من قوله ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ كما يقول: أُحل لكم الطعام غير معتدين فيه.

معناه أنّه أحلت لكم الأنعام كلها إلاّ ما كان منها وحشيًا فإنه صيد ولا يحل لكم إذا كنتم محرمين. فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قرأه العامة بضم أوّله وهى من حرم يحرم حرامًا فى الحركات وهما جميعًا جمع حرام، ويقال: رجل حرام وحُرم ومحرِم، وحلال وحِلّ ومحلّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: الآية نزلت فى الحطم واسمه شريح بن ضبيعة بن هند بن شرحبيل البكرى، وقال: إنه لما أتى المدينة وخلف خيله خارج المدينة ودخل وحده على النبى ﷺ، فقال له: إلى ما تدعو الناس؟ فقال: «إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة». فقال: حسنٌ إلاّ أن لى مَنْ لا أقطع أمرًا دونهم ولعلى أُسلم وآتى بهم.

وقد كان النبى ﷺ قال لأصحابه: يدخل عليكم بعض من ربيعة يتكلم بلسان الشيطان، ثم خرج شريح من عنده، فلما خرج، قال رسول الله ﷺ لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقب غادر، فمرّ بسرح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز:

لقد لفها الليل بسواق حطم ... ليس براعى إبل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر الوضم باتوا نيامًا وابن هنـد لم ينم

بات يقاسيها غـلام كالزلم خلج الساقين مسموح القدم

فلما كان فى العام القابل خرج حاجًا فى حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلّدوا الهدى فقال ناس من أصحابه للنبى ﷺ: هذا الحطم خرج حاجًا فحل بيننا وبينه، فقال النبى ﷺ: «مه قد قلد الهدى».

فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما هذا شىء كنا نفعله فى الجاهلية. فأبى النبى ﷺ. فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

ابن عباس ومجاهد: هى مناسك الحج، وكان المشركون يحجّون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله تعالى عنها، (وقال الحسن دين الله كله) يدل عليه قوله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).

عطية عن ابن عباس: هى أن تصيد وأنت محرم، يدل عليه قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾.

عطاء: شعائر حرمات الله اجتناب سخطه واتباع طاعته بالذى حرم الله.

أبو عبيدة: هى الهدايا المشعرة وهى أن تطعن فى سنامها ويحلل ويقلّد ليعلم أنها هدى، والإشعار العلامة، ومنه الحديث: حين ذبح عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أشعر أمير المؤمنين بها كأنه أعلم بعلامة، وهى على هذا القول فعيلة، بمعنى مفعّلة.

قال الكميت:

نقتلهم جيلا فجيلاً تراهم شعـائر قربان بهم يتقرب

ودليل هذا التأويل قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ (الحج: ٣٦) وقيل الشعائر المشاعر.

وقال القتيبى: شعائر الله واحدتها شعيرة، وهى كل شىء جعل علمًا من أعلام طاعته.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾: بالقتال فيه فإنه محرم لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقال: النّسىء، وذلك أنهم كانوا يحلّونه عامًا ويحرمونه عامًا، دليله قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ (التوبة: ٣٧) ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وهو كل ما يهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة.

﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾: قال أكثر المفسّرين هى الهدايا، والمراد به المقلدات وكانوا إذا أخرجوا إلى الحرم فى الجاهلية قلّدوا السمر فلا يتعرض لهم أحد وإذا رجعوا تقلّدوا قلادة شعر فلم يتعرّض

لهم أحد فهي عن استحلال واجب منهم .

وقال مطرف بن الشخير وعطاء : هى القلائد نفسها وذلك أنّ المشركين كانوا يأخذون من لحاء شجر مكّة ونحوها فيقلدونها فيأمنون بها فى الناس فنهى الله عز وجل أن ينزع شجرها فيقلدوه كفعل أهل الجاهلية ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ﴾ قاصدين ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعنى الكعبة .

وقرأ الأعمش : ولا آمّى البيت الحرام بالإضافة كقوله تعالى : ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ .

﴿يَبْتَغُونَ﴾ : يطلبون ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ : يعنى الرزق بالتجارة ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ معناه على زعمهم وعدهم لأن الكافر لا نصيب له فى الرضوان ، وهذا كقوله ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ﴾ (طه : ٩٧) فلا يرضى الله تعالى عنهم حتى يسلموا .

قتادة : هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها .

وقيل : ابتغاء الفضل للمؤمنين والمشركين عامّة ، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة لأن الناس كانوا يحجون من بين مسلم وكافر ، يدل عليه قراءة حميد بن قيس (يبتغون فضلاً من ربكم) على الخطاب للمؤمنين ، وهذه الآية منسوخة بقوله : ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة : ٥) وقوله : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ (التوبة : ٢٨) .

فلا يجوز أن يحجّ مشرك ، ولا يأمن الكافر بالهدى والقلائد والحج .

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ : من إحرامكم ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ : أمر إباحة وتخيير كقوله ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة : ١٠) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ .

روح بن عبادة عن شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : أقبل رجل مؤمن كان حليفًا لأبى سفيان بن الهذيل يوم الفتح بعرفة لأنه كان يقتل حلفاء محمد ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «لعن الله من قبل ذحل الجاهلية ما شىء كان فى الجاهلية إلاّ وهو تحت قدمى هاتين إلاّ سدانة الكعبة وسقاية الحج فإنّهما مردودتان إلى أهليهما» .

وقال الآخرون : نزلت فى حجاج كفار العرب ، وقوله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ ، قرأ الأعمش وعيسى ويحيى بن أبى كثير : يجرمنكم بضم الياء وقرأ الباقون بالفتح ، وهما لغتان ولو أن الفتح أجود وأشهر وهو اختيار أبى محمد وأبى حاتم ، قال أبو عبيد : لأنها اللغة الفاشية وإن كانت الأُخرى مقبولة .

واختلفوا فى معناه ، فقال ابن عباس وقتادة : لا يحملنكم . قال أبو عبيد : يقال جرمنى فلان على أن صنعت كذا أى حملنى .

قال الشاعر ، وهو أبو أسماء بن الضرية :

يا كرز إنك قــد فتكت بفارس | بطل إذا هاب الكمــاة مجرّب
ولقــــد طعنت أبا عيينة طعنة | جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

والمؤرخ: لا يدعونكم. الفرّاء: لأكسبنكم، يقال فلان جُرمة أهله أى كافيهم.
وقال الهذلى يصف عقابًا:

جرمــة ناهض فى رأس نيق | ترى العظام ما جمعت صليبًا

وقال بعضهم وهو الأخفش: قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ (النحل: ٦٢): أى حق لهم النار.
﴿شَنَئَانُ قَوْمٍ﴾: أى بغضهم وعداوتهم وهو مصدر شنئت.

قرأ أهل المدينة والشام، وعاصم والأعمش: بجزم النون الأول، وقرأ الآخرون بالفتح، وهما لغتان إلاّ أن الفتح أجود لأنه أفخم اللغتين. فهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم لأن المصادر نحوه على فعلان بفتح العين مثل الضربان والنزوان والعسلان ونحوها.

﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾: قرأ ابن كثير وابن أبى إسحاق وأبو عمر: إن صدّوكم بكسر الألف على الاستئناف والجزاء واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة عبد الله: أن يصدّوكم، وقرأ الباقون بفتح الألف أى لأن صدّوكم، ومعنى الآية لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء لأنهم صدّوكم، واختاره أبو حاتم ومحمد بن جرير، قال ابن جرير: لأنه لا يدافع بين أهل العلم أن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية فإذا كان كذلك فالصدّ قد تقدم.

﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾: عليهم فتقتلوهم وتأخذوا أموالهم.

﴿وَتَعَاوَنُواْ﴾: أى ليعين بعضكم بعضًا، ويقال للمرأة إذا كسى لحمها وتراجمها: متعاونة ﴿عَلَى الْبِرِّ﴾: وهو متابعة الأمر ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾: وهو مجانبة الهوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾: يعنى المعصية والظلم.

عن واصب بن معبد صاحب النبى ﷺ قال: جئت إلى النبى ﷺ أسأله عن البر والإثم قال: «جئت إلىّ تسألنى عن البر والإثم»؟ فقلت: والذى بعثك بالحق ما جئت أسألك عن غيره، فقال: «البر ما انشرح به صدرك، والإثم ما حاك فى صدرك وإن أفتاك عنه الناس».

عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى، قال: حدّثنى أبى قال: سمعت النواس بن سمعان الأنصارى، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى نفسك فكرهت أن يطلع عليه الناس». ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾: وهى كل ما له نفس سائلة مما أباح الله عزّ وجلّ أكلها، فارقتها روحها بغير تذكية، وإنما قلنا: نفس سائلة لأن السمك والجراد دمان وهما حلال.

﴿وَٱلدَّمُ﴾ : أُجْمل ههنا وفسر في آية أخرى فقال عزّ من قائل: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ (الأنعام: ١٤٥) فالدم الملطخ فهو كاللحم في أكله لأن الكبد والطحال دمان وهما حلال.

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحلّت لنا ميتتان ودمان فالميتتان الحوت والجراد وأما الدّمان فالطحال والكبد».

﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ : وكل شيء منه حرام وإنما خصّ اللحم لأنّ اللحم من أعظم منافعه. ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾ : ذبح ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ : وذكر عليه غير اسم الله.

قال أبو ميسرة: في المائدة ثمان عشرة فريضة ليس في سورة من القرآن وهي آخر سورة نزلت ليس فيها منسوخ.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ ، ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ ، ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ .

﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ إلى قوله ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (المائدة: ٩٥) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ (المائدة: ١٠٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ (المائدة: ١٠٦).

فأما المنخنقة فهي التي تختنق فتموت، قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها، والموقوذة: التي تضرب بالخشب حتّى تموت.

قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصا حتى إذا ماتت أكلوها. فقال فيه: قذّه يقذّه وقذ إذا ضربه حتى شفى على الهلاك.

قال الفرزدق:

شغارة تقذ الفصيل برجلها طـارة لقوادم الأبكـار

والمتردية: التي تتردى من مكان عال أو في بئر فتموت.

والنطيحة: التي تنطحها صاحبتها فتموت، و«هاء» التأنيث تدخل في الفعيل بمعنى الفاعل فإذا كان بمعنى المفعول استوى فيها المذكر والمؤنث نحو لحية دهين، وعين كحيل، وكف خضيب، فإنما أُدخل الهاء ههنا لأن الاسم لايسقط منها ولو أسقط الهاء منها لم يدر أهي صفة لمؤنث أو مذكر، والعرب تقول لحية دهين، وعين كحيل، وكف خضيب فإذا حذفوا الاسم وأفردوا الصفة أدخلوا الهاء، قالوا: رأينا كحيلة وخضيبة ودهينة، وأكيلة السبع فأدخلوا الهاء مثل الذبيحة والسكينة وما أكل السبع غير المعلم.

وقرأ ابن عباس: وأكيل السبع، وقرأ ابن أبى زائدة: وأكيلة السبع، وقرأ الحسن وطلحة ابن سليمان: وما أكل السبع بسكون الباء.

قال حسّان بن ثابت فى عتبة بن أبى لهب:

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

قال قتادة: كان أهل الجاهلية إذا أكل السبع مليًا أو أكل منه أكلوا ما بقى ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يعنى إلاّ ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء، والتذكية تمام فرى الأوداج، وإنهار الدم، ومنه الذكاة فى السنّ وهو أن يأتى على قروحه سنة، وذلك تمام استكمال القوة ومثله المثل السائد: جرى المذكيات غلاب.

قال الشاعر:

يفضله إذا اجتهدوا عليه تمـام السن منه والذكاء

ومنه الذكاء فى الفهم إذا كان تام العقل سريع القبول.

ويقول فى الذكاة إذا أتممت إشعالها، فمعنى ذكيتم أدركتم ذبحه على التمام.

وقال ابن عباس وعتبة بن عمير: إذا طرفت بعينها أو ظربت بذنبها أو ركضت برجلها أو تحركت فقد حلت لك.

وعن زيد بن ثابت: أن ذئبًا نيب فى شاة فذبحوها بمروة فرخص النبى ﷺ فى أكله.

أبو قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

قال عاصم عن عكرمة: إن رجلاً أضجع شاته وجعل يحدّ شفرته ليذبحها، فقال له النبى ﷺ: «تريد أن تميتها موتات قبل أن تذبحها!».

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾: قال بعضهم: فهو جمع واحدها نصاب، وقيل: هو واحدة جمعها أنصاب مثل عنق وأعناق.

وقرأ الحسن بن صالح وطلحة بن مصرف: النصب بجزم الصّاد.

وروى الحسن بن على الجعفى عن أبى عمرو: النصب بفتح النون وسكون الصّاد.

وقرأ الجحدرى: بفتح النون والصّاد جعله اسمًا موحدًا كالجبل والجمل والجمع أنصاب كالأجمال والأجبال وكلها لغات وهو الشيء المنصوب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج: ٤٣) واختلفوا فى معنى النصب ههنا:

فقال مجاهد وقتادة وابن جريج: كان حول البيت ثلاثمائة وستون حجراً وكان أهل الجاهلية يذكّون عليها يشرّحون اللّحم عليها وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها ويذبحون لها، وكانوا مع هذا يبدلونها إذا شاءوا لحجارة من قبالهم منها: قالوا: وليست هى بأصنام إنما الصنم ما يصوّر وينقش.

وقال الآخرون: هى الأصنام المنصوبة.

قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تستكنّه لعاقبة والله ربك فاعبدا

ثم اختلفوا فى معناها. فقال بعضهم: تقديره على اسم النصب.

ابن زيد ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ هما واحدة.

قطرب: معناه: ما ذبح للنصب أى لأجلها على معنى اللام وهما يتعاقبان فى الكلام. قال الله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ (الواقعة: ٩١) أى عليك، وقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧) أى فعليها، ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ﴾ معطوف على ما قبله، وأن فى محل الرفع أى وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، والاستقسام طلب القسم والحكم من الأزلام وهى القداح التى لا ريش لها ولا نصل، واحدها زلم مثل عمل، وزلم وهى القداح.

قال الشاعر:

فلئن جذيمة قتّلت سرواتها فنساؤها يضربن بالأزلام

وكان استقسامهم بالأزلام على ما ذكره المفسّرون أن أهل الجاهلية إذا كان سفراً أو غزواً أو تجارة أو تزويجًا أو غير ذلك ضرب القداح وكانت قداحًا مكتوب على بعضها: نهانى ربى، وعلى بعضها: أمرنى ربى، إن خرج الآمر مضى لأمره، وإن خرج الناهى أمسك.

وقال سعيد بن جبير: الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها.

أبو هشام عن زياد بن عبد الله عن محمد بن إسحاق قال: كانت هبل أعظم أصنام قريش بمكة، وكانت على بئر فى جوف الكعبة وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة وكانت عند هبل أقداح سبعة كل قدح منها فيه كتاب، قدح فيه: العقل، إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فإن خرج العقل حمله، وقدح فيه: نعم، للأمر، إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القداح فإن خرج ذلك القدح فعلوا ذلك الأمر.

وقدح فيه: لا، إذا أرادوا أمراً يضربون فإن خرج قدح «لا» لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه: منكم وقدح فيه: ملصق وقدح فيه: من غيركم، وقدح فيه: المياه إذا أرادوا أن يحفروا

للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القداح فحيثما خرج عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختتنوا غلامًا أو أن ينكحوا امرأة أو يدفنوا ميتًا أو شكّوا فى نسب خصمهم ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وبجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضربها ثم قرّبوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ثم قالوا: يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق، ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب فيضرب، فإن خرج عليه: منكم، كان وسيطًا منهم وإن خرج عليه: من غيركم، كان حليفًا، وإن خرج عليه: ملصق، كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حليف، وإن كان فى شىء مما سوى هذا مما يعملون به كنعم عملوا به، فإن خرج: لا، أخّروا عامهم ذلك حتى يأتوا مرة أخرى ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

قال مجاهد: هى كعاب فارس والرّوم التى يتقامرون بها.

قال سفيان بن وكيع: الشطرنج.

رجاء بن حيوة عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكهّن أو استقسم أو تطيّر طيرة تردّه عن سفره لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة».

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾: يعنى عن أن يرجعوا إلى دينهم كفّارًا، وفيه لغتان قال الشعبى: وائس يايس إياسًا وإياسة.

قال النضر بن شميل: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نزلت الآية فى يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر للهجرة والنبى ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء وكادت عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت.

وقال طارق بن شهاب: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فقال: آية نقرؤها لو علينا نزلت فى ذلك اليوم لاتخذناه عيدًا، قال: آية قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ﴾، قال عمر: قد علمت فى أى يوم نزلت وفى أى مكان، إنها نزلت يوم عرفة فى يوم الجمعة ونحن مع رسول الله ﷺ وقوفًا بعرفات وكلاهما بحمد الله لنا عيد، ولا يزال ذلك اليوم عيدًا للمسلمين ما بقى منهم أحد وقد صار من ذلك اليوم خمسة أعياد جمعة وعرفة وعيد اليهود والنصارى والمجوس ولا يجمع أعياد أهل الملل فى يوم قبله ولا بعده.

وروى هارون بن عنترة عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية بكى عمر (رضى الله عنه) فقال له النبى ﷺ: «ما يبكيك يا عمر» قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأمّا إذا كمل فإنه لم يكمل شىء إلاّ نقص، فقال: «صدقت».

وكانت هذه الآية نعى رسول الله ﷺ وعاش بعدها أحداً وثمانين يومًا أو نحوها.

واختلف المفسّرون فى معنى الآية فقال ابن عباس والسّدى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ وهو يوم نزول هذه الآية ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أى الفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شىء من الفرائض. فهذا معنى قول ابن عباس والسدى.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ فلم يحج معكم مشرك، وقيل: هو أن الله تعالى أعطى هذه الأمة من أنواع العلم والحكمة جميع ما أعطى سائر الرسل والأُمم فزادهم.

وقيل: إن شرائع الأنبياء زالت ونقصت وشريعة هذه الأمة باقية لا تنمحى ولا تتغيّر إلى يوم القيامة . . . .[1] هو بايعك ثم فرّقوه، يكن هذا لغيرهم، وقيل: لم يكن إلاّ هذه الأُمة، وقيل: هو أن الله تعالى جمع بهذه الآية جميع . . . .[1] الولاية وأسبابها.

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم بن حبيب قال: سمعت أبا جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرّازى قال: سمعت العباس بن حمزة قال: سمعت ذا النون يقول يعلمنا من سياسة فيقول أربعة أشياء: الكتاب والرسول، والخلعة والولاية.

قال: كتاب جعله أشرف الكتب وأكثرها يسراً وأخفّها أمرًا وأعزرها علمًا وأوفرها حكمًا، ورسول الله جعله أعظم الرسل وأفضلهم، والخلعة جعله عطاءً ولم يجعلها عارية، والولاية جعلها دائمة إلى نفخ الصور.

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾: حققت وعدى فى قولى ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ (البقرة: ١٥٠) فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين وحجوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين.

وقال الشعبى: نزلت هذه الآية بعرفات حيث هدم منار الجاهلية ومناسكهم واضمحل الشرك ولم يحج معهم فى ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت غيرهم.

السّدى: أظهرتكم على العرب.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾: اجتهد ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾: مجاعة يقال: هو خميص البطن إذا كان طاويًا خاويًا، ورجل خمصان وامرأة خمصانة إذا كانا ضامرين مضيمين والخَمص والخُمص الجوع.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال الشاعر:

يرى الخمص تعذيبًا وإن يلق شبعة ... يبت قبله من قلّة الهمّ مبهمًا

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾.

قال أبو عبيدة: غير متحرف مائل، قطرب: مائل، المبرّد: زايغ وقرأ النخعى: متجنف وهما بمعنى واحد يقال: تجنّف وتجانف مثل تعهد وتعاهد.

قتادة: غير متعرض بمعصية فى مقصده وهو قول الشافعى.

وقال أبو حنيفة: ما أكل فوق الشبع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إضمار، تقديره: فأكله، ويكتفى بدلالة الكلام عليه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى غفور له غفور كما يقول عبد الله: ضربت، فيريد ضربته. قال الشاعر:

ثلاث كلّهن قتلت عمدًا ... فأخزى الله رابعة تعود

وقد فسر رسول الله ﷺ المخمصة بما رواه الأوزاعى عن حسان بن عطية عن أبى واقد قال: سألت رسول الله ﷺ: إنا بأرض يصيبنا بها مخمصة فمتى تحل لنا الميتة؟

قال ﷺ: «إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقلاً فشأنكم بها».

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية.

قال أبو رافع: جاء جبرئيل إلى النبى ﷺ فاستأذن عليه فأذن له فأبطأ وأخذ رسول الله ﷺ رداءه فخرج فقال: قد أذنا لك يا رسول الله، قال: أجل يا رسول الله ولكنا لا ندخل بيتًا فيه صورة ولا كلب فنظروا فإذا فى بعض بيوتهم جرو.

عن عبد الله بن يحيى عن أبيه عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ قال: «الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ولا كلب ولا جنب».

رجعنا إلى حديث أبى رافع قال: فأمرنى أن لا أدع كلبًا بالمدينة إلاّ قتلته وقتلت حتى خفت العوالى فأتيت إلى امرأة فى ناحية المدينة عندها كلب يحرس عنها فرحمته فتركته، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته بأمرى، فأمرنى بقتله فرجعت إلى الكلب فقتلته.

وقال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول رافعًا صوته: «اقتلوا الكلاب».

قال: وكنا نلقى المرأة تقدم من المدينة بكلبها فنقتله، فأمر النبى ﷺ بقتلها وحرم ثمنها.

وروى على بن رباح اللخمى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل ثمن الكلاب ولا حلوان الكاهن ولا مهر البغى».

ونهى عن اقتنائها وإمساكها وأمر بغسل الإناء من ولوغها سبع مرات أُولاهنّ بالتراب.

نرجع إلى الحديث الأول.

قال: فلما أمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب جاء ناس فقالوا: يا رسول الله ماذا يحلّ لنا من هذه الأمة التي نقتلها، فسكت رسول الله فأنزل الله هذه الآية وأذن رسول الله في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها، وأمر بقتل الكلب العقور وما يضر ويؤذي ورفع القتل عمّا سواها ممّا لا ضرر فيه.

وروى الحسن عن عبد الله بن معقل قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أنّ الكلاب أُمّة من الأُمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم وأيما قوم اتخذوا كلبًا ليس بكلب حرث أو صيد أو ماشية نقصوا من أجورهم كل يوم قيراطًا».

عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من اقتنى كلبًا ليس كلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينتقص من أجره قيراطان كل يوم».

والحكمة في ذلك ما روى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الرزاق السريعي قال: قيل لعبد الله ابن المبارك: ما تقول في قول المصطفى ﷺ: «من اقتنى كلبًا لا كلب صيد ولا ماشية نقص من عمله كل يوم كذا وكذا من الأجر».

فقال حدّثني الأصمعي قال: قال أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد: ما بلغك في الكلب؟ قال: بلغني أن من أخذ كلبًا لغير زرع ولا حراسة نقص من أجره كل يوم قيراط. فقال له: ولم ذلك؟ قال: هكذا جاء الحديث، قال: خذها بحقّها إنّما ذلك لأنّه ينبح على الضيف ويروع السائل.

وكانت أسخياء العرب تبغض الكلاب لهذا المعنى وتذم من ربطه وهمّ بقتله.

قال الثعلبي: أنشدني أبو الحسن الفارسي قال: أنشدني أبو الحسن الحراني البصري أنّ بعض شعراء البصرة نزل بعمّار فسمع لكلابه نبحًا فأنشأ يقول:

نزلنا بعمـار فأشلى كلابه ... علينا فكـدنا بين بيتيه نؤكل
فقلت لأصحابي أسر إليهم ... إذا اليوم أم يوم القيامة أطول

قال عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: نزلت في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير وذلك أنهما جاءا إلى النبي ﷺ قالا: يا رسول الله إنّا قوم نصيد الكلاب والبزاة فإن الكلاب آل درع وآل حورية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب فمنه ما يدرك ذكاته ومنه ما يقتل فلا يدرك ذكاته وقد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنا منها فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ يعني

الذبائح التى أحلها الله ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ يعنى وصيد ما علمتم ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ .

واختلفوا فى هذه الجوارح التى يحل صيدها بالتعليم غير المدرك ذكاته وما أدركت ذكاته فهو لك ، وإلاّ فلا يطعم ، وهذا غير معمول به .

وقال سائر العلماء : هى الكواسب من السباع والبهائم والطير مثل النمر والفهد والكلب والعقاب ، والصقر ، والبازى ، والباشق ، والشاهين ونحوها مما يقبل التعليم ، فسميت جوارح لجرحها أربابها أقواتهم من الصيد أى كسبها . يقال : فلان جارحة أهلها أى كاسبهم ولا جارحة لفلان إذا لم تكن لها كسب ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ منصوب على الحساب فى المعنى وصيد ما علمتم من الجوارح مكلبين إلى هذه الحال أى فى حال صيدكم أصحاب كلاب ، والتكليب إغراء الصيد وإشلاؤه على الصيد .

قال الشاعر :

باكره عند الصباح مكلّب　　　أزلّ كسرحان القصيمة أغبر

قرأ ابن مسعود وأبو رزين والحسن : مكلبين بتخفيف اللام على هذا المعنى ، وهى قراءة الحسن والقتيبى أيضًا ، ويجوز أن يكون من قولهم : أكلب الرجل ، إذا كثرت كلابه ، مثل : أمشى إذا كثرت ماشيته ، وذكر الكلاب لأنها أكثر وأعم والمراد به جميع الجوارح .

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ : آداب الصيد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أى من العلم الذى علمكم الله ، وقال السدى : من بمعنى الكاف ، أى كما علّمكم الله ، وهو أن لا يجثمن ولا يعضنّ ولا يقتلن ولا يأكلن ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند إرسال البهم والجوارح .

❖ **حكم الآية:**

والمعلم من الجوارح الذى يحلّ صيده هو أن يكون إذا أرسله صاحبه وأشلاه استشلى وإذا أخذ أمسك ولم يأكل . فإذا دعاه أجابه ، وإذا أراده لم يفرّ منه ، فإذا فعل ذلك مرّات . فهو معلّم فمتى كان بهذا الوصف . فاصطاد جاز أكله فإذا أمسك الصيد ولم يأكل منه جاز أكله ، وكان حلالاً ، فإن أكل منه ، فللشافعى فيه قولان : أحدهما : لا يحلّ ولا يؤكل وهو الأشهر والأظهر من مذهبه لأنّ الله عزّ وجلّ قال : ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو لم يمسك علينا وإنما أمسك على نفسه ، وهذا قول الحسن وطاوس والشعبى وعطاء والسدّى .

وقال ابن عباس : إذا أرسلت الكلب فأكل من صيد فهى ميتة لا يحل أكله لأنه سبع أمسكه على نفسه ، ولم يمسك عليك ولم يتعلم ما علّمته ، فاضربه ولا تأكل من صيده .

يدل عليه ما روى الشعبى عن عدى بن حاتم أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصيد فقال : «إذا

أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه فإن أدركته لم يقتل، فاذبح واذكر اسم الله عليه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل فكل فقد أمسك عليك، فإن وجدته قد أكل منه فلا تطعم منه شيئًا، فإنما أمسك على نفسه، فإن خالط كلبك كلابٌ فقتلن ولم يأكلن فلا تأكل منه فإنك لا تدرى أيّها قتل). (وإذا رميت سهمك فاذكر اسم الله، فإن أدركته فكل، إلاّ أن تجده وقع فى ماء فمات فإنك لا تدرى الماء قتله أو سهمك) فإن وجدته بعد ليلة أو ليلتين ولم تر فيه سهمك فإن شئت أن تأكل منه فكل».

والقول الثانى: أنه يحلّ وإن أكل وهو قول سلمان الفارسى، وسعد بن أبى وقّاص، وابن عمر، وأبى هريرة، قال حميد بن عبد الله وسعد بن أبى وقّاص: لنا كلاب ضوارى يأكلن ويبقين، قال: كل وإن لم يبق إلاّ نصفه أو ثلثيه فكل ميتة.

وروى ذلك عن النبى ﷺ ولا فرق فى حمله على ما ذكرنا من الطيور والسباع المعلمة.

وروى أبو قلابة عن ثعلبة الخشنى: أنه جاء إلى النبى ﷺ قال: يا رسول الله إن أرضنا أرض صيد فأرسل سهمى وأذكر اسم الله وأرسل كلبى المعلم وأذكر اسم الله وأرسل كلبى الذى ليس معلم فقال النبى ﷺ: «ما حبس عليك سهمك، وذكرت اسم الله فكل، وما حبس عليك كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل، وما حبس عليك كلبك الذى ليس معلم فأدركت ذكاته فكل وإن لم تدرك ذكاته فلا تأكل».

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ يعنى الذبائح ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾ يعنى ذبائح اليهود والنصارى، ومن دخل فى دينهم من سائر الأمم قبل أن يبعث محمد ﷺ حلال لكم، فمن دخل فى دينهم بعد بعث النبى ﷺ فلا تحل ذبيحته، فأما إذا سمّى أحدهم غير الله عند الذبح مثل قول النصارى: باسم المسيح، اختلفوا فيه.

فقال ربيعة: سمعت ابن عمر يقول: لا تأكلوا ذبائح النصارى، فإنهم يقولون: باسم المسيح، فإنهم لا يستطيعون أن تهدوهم وقد ظلموا أنفسهم، دليله قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ (الأنعام: ١٢١).

والقول الثانى: إنّه يجوّز ذبيحتهم، الكتابى، وإن سمّى غير الله فإن هذا مستثنى من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ وهى إنما نزلت فى ذبائح المشركين وما كانوا يذبحونها لأصنامهم، وعلى هذا أكثر العلماء.

قال الشعبى وعطاء: فى النصرانى يذبح فيقول: باسم المسيح قالا: يحلّ. فإنّ الله عزّ وجلّ قد أحل ذبائحهم وهو أعلم بما يقولون.

وسئل الزهرى ومكحول عن ذبائح عبدة أهل الكتاب، والمربيات لكنائسهم وما ذبح لها فقالا : هى حلال، وقرأ هذه الآية.

وقال الحسن والحارث العكلى : ما كنت أسأله عن ذبحه فإنه أحل الله لنا طعامه، فإذا ذبح اليهودى والنصرانى فذكر غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكله، فإذا غاب عنك فكل، فقد أحل الله لك ما فى القرآن، فذبح اليهود والنصارى ونحرهم مكروه.

قال على (رضى الله عنه) : «لا يذبح ضحاياكم اليهود ولا النصارى ولا يذبح نسكك إلاّ مسلم».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها، فقال قوم : عنى بالإحصان فى هذه الآية الحرية وأجازوا نكاح كل حرّة، مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة وحرّموا إماء أهل الكتاب أن يتزوجهن المسلم بحال، وهذا قول مجاهد وأكثر الفقهاء، والدليل عليه قوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الآية (النساء: ٢٥)، فشرط فى نكاح الإماء الإيمان.

وقال آخرون : إنما عنى الله تعالى بالمحصنات فى هذه الآية العفائف من الفريقين إماءً كنّ أو حرائر، فأجازوا نكاح إماء أهل الكتاب بهذه الآية، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهذا قول أبى ميسرة والسّدى.

وقال الشعبى : إحصان اليهودية والنصرانية أن تغتسل من الجنابة، وتحصن فرجها.

وقال الحسن : إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة فاستيقن فإنه لا يمسكها، ثم اختلفوا فى الآية أهى عامة أم خاصة. فقال بعضهم : هى عامة فى جميع الكتابيات حربيّة كانت أو ذميّة، وهو قول سعيد بن المسيّب والحسن.

وقال بعضهم : هى الذميّات، فأما الحربيات فإنّ نساءهم حرام على المسلمين، وهو قول ابن عباس.

السدى عن الحكم عن مقسم عنه قال : من نساء أهل الكتاب من تحلّ لنا ومنهم من لا تحل لنا، ثم قرأ : ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله : ﴿صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩) فمن أعطى الجزية حلّ لنا نساؤه ومن لم يعط الجزية لم يحل لنا نساؤه.

قال الحكم : فذكرت ذلك لإبراهيم فأعجبه، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات، ويفسر هذه الآية بقوله : ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١) يقول : لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى.

وروى المبارك عن سليمان بن المغيرة قال: سأل رجل الحسن: أيتزوّج الرجل المرأة من أهل الكتاب؟ قال: ما له ولأهل الكتاب وقد أكثر الله المسلمات: فإن كان لا بدّ فاعلاً فليعمد إليها حصانًا غير مسافحة. قال الرجل: وما المسافحة؟ قال: هى التى إذا ألمح الرجل إليها بعينه أتبعته ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أن رجالاً قالوا لما نزل قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: كيف نتزوّج نساء لسن على ديننا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال مقاتل بن حيّان: نزلت فيما أحصن المسلمون من نساء أهل الكتاب، يقول: ليس إحصان المسلمين إيّاهنّ بالذى يخرجهنّ من الكفر يعنى عنهن فى دينهن . . . .(١) وجعلهن ممن كفر بالإيمان، فقد حبط عمله وهو بعد للناس عامّة، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعنى من أهل النّار.

وقال ابن عباس: ومن يكفر بالله قال الحسن بن الفضل: إن صحت هذه الرواية كان معناه برب الإيمان وقيل: بالمؤمنين به. قال الكلبى: ومن يكفر بالإيمان أى بما أنزل على محمد ﷺ.

قال الثعلبى رحمه الله: سمعت أبا القاسم الجهنى قال: سمعت أبا الهيثم السنجرى يقول: الباء صلة كقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٦) ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٠) والمعنى ومن يكفر بالإيمان أى يجحده فقد حبط عمله.

وقرأ الحسن بفتح الباء، قرأ ابن السميقع: (فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين).

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ الآية، أمر الله تعالى بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، واختلف العلماء فى حكم الآية، فقال قوم: هذا من العام الذى أريد به الخاص. والمجمل الذى وكل بيانه إلى رسول الله ﷺ ومعنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر، يدلّ عليه ما روى عن عكرمة أنه سأل عن هذه الآية قال: أوكلّ ساعة أتوضأ؟ فقال: إن ابن عباس قال: لا وضوء إلاّ من حدث.

وقال الفضل بن المبشر: رأيت جابر بن عبد الله يصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد. فإن بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل مائه الخفين. فقيل: أى شىء تصنعه برأيك؟ فقال: بل رأيت رسول الله ﷺ يصنعه وأنا أصنع كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع.

وروى محارب بن دثار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بوضوء واحد.

وقال المسور بن مخرمة لابن عباس: هل لك فى عبيد بن عمير إذا سمع النداء خرج من المسجد. فقال ابن عباس: هكذا يصنع الشيطان، فدعاه فقال: ما يحملك على ما تصنع إذا سمعت النداء خرجت وتوضأت، قال: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية. قال: ليس هذا إذا توضأت فإنك على طهر حتّى تحدث، ثم قال: هكذا يصنع الشيطان إذا سمع النداء ولّى وله ضراط.

وروى الأعمش عن عمارة قال: كان للأسود قعب قدر رى رجل وكان يتوضأ به ثم يصلى بوضوئه ذلك الصلوات كلها.

وقال زيد بن أسلم والسّدى: معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم، وقال بعضهم: أراد بذلك كل قيام العبد إلى صلاته أن يجدّد لها طهراً على طريق الندب والاستحباب، قال عكرمة: كان على يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾.

عن أبى عفيف الهذلى أنه رأى ابن عمر يتوضأ للظهر ثم العصر ثم المغرب، فقلت: يا أبا عبد الرحمن أسنّة هذا الوضوء؟ قال: إنه كافيًا وضوئى للصلاة كلها ما لم أُحدث ولكنى

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» ففى ذلك رغبت يا ابن أخى.

وقال بعضهم: بل كان هذا أمرًا من الله عزّ وجلّ لنبيه وللمؤمنين حتمًا وامتحانًا أن يتوضأ لكل صلاة، ثم نسخ للتخفيف.

وقال محمد بن يحيى بن جبل الأنصارى: قلت لعبيد الله بن عمر: أخبرنى عن وضوء عبد الله لكل صلاة طاهرًا كان أو غير طاهر عمّن هو؟ قال: حدّثتنيه أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن أبى عامر الغسيلى حدثها أن النبى ﷺ أُمر بالوضوء عند كل صلاة، فشق ذلك عليه فأُمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلاّ من حدث، وكان عبد الله يرى أن به قوّة عليه فكان يتوضأ.

وروى سليمان بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم فتح مكّة صلّى الصلوات الخمس كلها بوضوء واحد، فقال عمر (رضى الله عنه): إنك تفعل شيئًا لم تكن تفعله! قال: «عمدًا فعلته يا عمر».

وقال بعضهم: هذا إعلام من الله تعالى لرسوله ﷺ أن لا وضوء عليه إلاّ إذا قام إلى صلاته دون غيرها من الأعمال.

وذلك أنه إذا كان أحدث امتنع من الأعمال كلها حتّى يتوضأ فأذن الله عزّ وجلّ بهذه الآية أن يفعل كل ما بدا له من الأفعال بعد الحدث غير الصلاة.

وروى عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ونسلم عليه فلا يرد علينا حتى يأتى منزله فيتوضأ لوضوء الصلاة حتى نزلت آية الرخصة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

وحد الوجه من منابت شعر الرأس إلى طرف الذقن طولاً، وما بين الأذنين عرضًا، فأما ما استرسل من اللحية عن الذقن؛ فللشافعى هنا قولان:

أحدهما: أنه لا يجب على المتوضئ غسله، وهو مذهب أبى حنيفة واختيار المزنى، واحتجّوا بأن الشعر النازل من الرأس لا يحكم بحكم الرأس. وكذلك من الوجه.

والثانى: أنه يجب غسله، ودليل هذا القول من ظاهر هذه الآية، لأن الوجه ما يواجه به، فكلّ ما تقع به المواجهة من هذا العضو يلزمه غسله بحكم الظاهر.

ومن الحديث قول النبى ﷺ حيث نهى عن تغطية اللحية فى الصلاة لأنها من الوجه، ومن

اللغة قول العرب بدل وجه فلان وخرج وجهه إذا نبتت لحيته.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ : غسل اليدين من المرفقين واجب بالإجماع واختلفوا فى المرفقين.

فقال الشعبى ومالك والفراء ومحمد بن الحسن ومحمد بن جرير: لا يجب غسل المرفقين فى الوضوء، وإلى ههنا بمعنى الحدّ والغاية، ثم استدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧) والليل غير داخل فى الصوم، وقال سائر الفقهاء: يجب غسلهما و(إلى) بمعنى مع واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢)، وقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ (التوبة: ١٢٥)، وقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٥٢).

﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلف الفقهاء فى القدر الواجب من مسح الرأس.

فقال مالك والمزنى: مسح جميع الرأس فى الوضوء واجب.

وجعلوا الباء بمعنى التعميم، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩).

وقال أبو حنيفة: مسح ربع الرأس واجب. أبو يوسف: نصف الرأس، الشافعى: يجوز الاقتصار على أقل من ربع الرأس، فإذا مسح مقدار ما يسمى مسحًا أجزأه، واحتج بقوله ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾، وله فى هذه الآية دليلان، أحدهما: مسح بعض رأسه وإن قلّ فقد حصل من طرفى اللسان ماسحًا رأسه. فصار مؤديًا فرض الأمر.

والثانى: أنه قال فى العضوين اللذين أمر بتعميمها بالطهارة ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ فأطلق الأمر فى غسلهما وقال فى الرأس ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ فأدخل الباء للتبعيض لأنّ الفعل إذا تعدى إلى المفعول من غير حرف الباء كان دخول الباء للتبعيض، كقول القائل: مسحت يدى بالمنديل وإن كان مسح ببعضه.

قال عنترة:

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

ويدل عليه من السنة ما روى عمرو بن وهب النقعى عن المغيرة بن شعبة أن النبى ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى عمامته وخفّيه، فاقتصر فى المسح على الناصية دون سائر الرأس.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ : اختلف القرّاء فيه، فقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام ومجاهد، وإبراهيم التيمى وأبو وائل، والأعمش، والضحّاك وعبد الله بن عامر، وعامر ونافع، والكسائى وحفص وسلام ويعقوب: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب وهى قراءة على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وروى عاصم بن كليب عن أبى عبد الرحمن السّلمى، قال: قرأ علىّ الحسن والحسين فقرأا: (وأرجلِكم) بالخفض، فسمع علىّ ذلك وكان يقضى بين الناس، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب، وقال: هذا من المقدم والمؤخر من الكلام.

وقراءة عبد الله وأصحابه. قال الأعمش: كان أصحاب عبد الله يقرءون: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ نصبًا فيغسلون.

وقراءة ابن عباس، روى عكرمة عنه أنه قرأها: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب وقال: عاد الأمر إلى الغسل وهو اختيار أبى عبيد، وقرأ الباقون بالكسر، وهى قراءة أنس والحسن وعلقمة والشعبى، واختيار أبى حاتم، فمن نصب فمعناه واغسلوا أرجلكم، ومن خفض فله وجوه ثلاثة: أحدها أن المسح يعنى الغسل والباء بمعنى التعميم، يقول تمسّحت للصلاة أى توضأت، وذلك أن المتوضئ لا يرضى أن يصيب وجهه وذراعيه وقدميه حتّى يمسحها فيغسلها فلذلك سمى الغسل بها، وهذا قول أبى زيد الأنصارى وأبى حاتم السجستانى.

وقال أبو عبيدة والأخفش وغيرهما: إن الأرجل معطوفة على الرءوس على الاتباع بالجواز لفظًا لا معنًى. كقول العرب (جحر ضب خرب) قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

قال الشاعر:

ورأيت زوجك فى الوغى   متقلدًا سيفًا ورمحًا

والرمح لا يتقلد إنّما يحمل.

وقال لبيد:

وأطفلت بالجلهتين   ظباؤها ونعامها

والنعام لا تطفل وإنما تفرخ.

وقال بعضهم: أراد به المسح على الأرجل لقرب الجوار. كقوله: غمر الردا أى واسع الصدر. ويقال: قبّلَ رأس الأمير ويده ورجله، وإن كان فى العمامة رأسه وفى الكم يده وفى الخف رجله. وفى الحديث أن النبى ﷺ كان إذا ركع وضع يده على ركبتيه. وليس المراد أنه لم يكن بينهما حائل. قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤) قال كثير من المفسرين: أراد به قلبك فطهر.

قال همام بن الحارث: بال جرير بن عبد الله فتوضأ ومسح على خفيه فقيل له فى ذلك، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يفعله.

قال الأعمش: كان إبراهيم يعجبه هذا الحديث، وهو أن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة.

وأجرى قوم من العلماء الآية على ظاهرها، وأجازوا المسح فى القدمين، وهو قول ابن عباس قال: الوضوء مسحتان وغسلتان.

وقول أنس: روى ابن عليّة عن حميد عن موسى بن أنس أنه قال لأنس ونحن عنده: إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم، فإنه ليس شىء من ابن آدم أقرب إلى خبثه من قدميه فاغسلوا بطونهما وكعبهما وعراقيبهما.

فقال: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما.

وروى حماد عن عاصم الأحول عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، والسنّة بالغسل.

وقول الحسن والشعبى: نزل جبرائيل بالمسح، ثم قال: ألا ترى المتيمم يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحًا.

وقول عكرمة قال يونس: حدّثنى من صحب عكرمة إلى واسط قال: فما رأيته غسل رجليه إنما كان يمسح عليهما حتى خرج منها.

وقول قتادة قال: افترض الله غسلين ومسحين، ومذهب داود بن على الأصفهانى ومحمد ابن جرير الطبرى وأبى يعلى وذهب بعضهم إلى أن المتوضئ يتخير بين غسلهما ومسحهما، والدليل على وجوب غسل الرجلين فى الوضوء قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فتحديده بالكعبين دليل على الغسل كاليدين لما حدّهما إلى المرفقين كان فرضهما الغسل دون المسح.

ويدل عليه من السّنة ما روى عن عثمان وعلى وأبى هريرة وعبد الله بن زيد أنهم حكوا وضوء رسول الله ﷺ فغسلوا أرجلهم.

وروى خلاد بن السائب عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقبل الله صلاة امرئ حتّى يضع الوضوء مواضعه فيغسل وجهه ويديه ويمسح برأسه ويغسل أرجله».

وروى عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء عن جابر أنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسل أرجلنا إذا توضأنا.

وقال ابن أبى ليلى: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على وجوب غسل الرجلين.

أبو يحيى عن عبد الله بن عمرو قال: مرّ النبى ﷺ على قوم عراقيبهم تلوح فقال: «أسبغوا الوضوء ويل للعراقيب من النار».

وقال حميد الطويل: رأى رسول الله ﷺ أعمى يتوضأ فقال: «اغسل باطن قدميك» فجعل يغسل حتى سمّى أبا غسيل.

روى أبو قلابة أن عمر (رضى الله عنه) رأى رجلاً يتوضأ فترك باطن قدميه فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة.

وقالت عائشة رضى الله عنها: لئن تقطعا أحبّ إلىّ من أن أمسح على القدمين بغير خفين إلى الكعبين.

وهما النابتان من جانبى الرجل ومجمع مفصل الساق والقدم. وسمّتهما العرب المنجمين، وعليهما الغسل كالمرفقين، هذا مذهب الفقهاء وخالفهم محمد بن الحسن فى الكعب فقال: هو الناتئ من ظهر القدم الذى يجرى عليه الشراك. قال: وسمى ذلك لارتفاعه ومنه الكعبة.

ودليلنا قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فجمع الأرجل وثنى الكعبين فلو كان لكل رجل كعب واحد لجمعهما فى الذكر كالمرافق لما كان فى كل يد مرفق واحد، بجمع المرافق فلما جمع الأرجل وثنّى الكعبين ثبت أن لكل رجل كعبين ويدل عليه قوله ﷺ للمحرم: «فليلبس النعلين فإن لم يجد النعلين فليلبس خفّين وليقطعهما أسفل من الكعبين».

فدل على أن الكعبين ما قلنا، إذ لو كان الكعب هو الناتئ من ظهر القدم لكان إذا قُطع الخف من أسفله لم يكن استعماله ولا المشى فيه، والنبى ﷺ لا يأمر بإضاعة المال وإتلافه.

ويدل عليه ما روى أيضًا عنه ﷺ أنه مرّ فى سوق مكّة يقول: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا».

وأبو لهب يرميه من ورائه بالحجارة حتّى أدمى كعبيه.

فلو كان ما ذهب إليه محمد بن الحسن، ما قيل: حتى أُدمى، إذ رميت منْ ورائه.

ويدل عليه ما روى أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم»، حتّى كان الرجل منا يلزق كعبه بكعب صاحبه ومنكبه بمنكبه، فيدل عليه قوله ﷺ: «ويل للأعقاب والعراقيب من النار» أصل الأعقاب والعراقيب إنما يحصل لمن غسل المنجمين.

وروى أبو إدريس عن أبى ذر عن علىّ كرم الله وجهه قال: بينا رسول الله ﷺ فى ملإ من المهاجرين إذ أقبل إليه عشرة من أحبار اليهود فقالوا: يا محمد إنا أتيناك لنسألك عن أشياء لا يعلمها إلاّ من كان نبيًا مرسلاً وملكًا مقربًا. فقال ﷺ: «سلونى تفقهًا ولا تسألونى تعنتًا» فقالوا: يا محمد أخبرنا لمَ أمر الله بغسل هذه الأربعة المواضع وهى أنظف المساجد؟ فقال النبى ﷺ: «إنّ آدم لمّا نظر إلى الشجرة قصد إليها بوجهه ثم مشى إليها وهى أوّل قدم مشت إلى المعصية ثمّ تناول بيده وشمّها فأكل منها فسقطت عنه الحلى والحلل فوضع يده الخاطئة على

رأسه فأمر الله عزّ وجلّ بغسل الوجه لما أنه نظر إلى الشجرة وقصدها وأمر بغسل الساعدين وغسل يده وأمر بمسح رأسه، ابتلته الشجرة ووضع يده على رأسه وأمر بغسل القدمين لما مشى إلى الخطيئة فلمّا فعل آدم ذلك كفّر الله عنه الخطيئة فافترض الله على أمتى ليكفّر ذنوبهم من الوضوء إلى الوضوء».

قالوا: صدقت، فأسلموا.

فاختلف الفقهاء فى حكم الروايات المذكورة فى الآية. فجعلوها بمعنى الترتيب والتعقيب وأوجبوا الترتيب فى الوضوء وهو أن يأتى بأفعال الوضوء تباعًا واحدًا بعد واحد. فيغسل وجهه ثم يديه ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه، وهو اختيار الشافعى، فاحتج بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:١٥٨).

قال جابر بن عبد الله: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى الحج ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ: فخرج رسول الله ﷺ إلى الصفا وقال: «ابدءوا بما بدأ الله به» فدل هذا على شيئين: أحدهما: أن الواو يوجب الترتيب، والثانى: أن البداية باللفظ توجب البداية بالفعل إلاّ أن يقوم الدليل.

واحتج أيضًا بقوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ (الحج:٧٧) فالركوع قبل السجود، واحتج أيضًا بقوله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة امرئ حتّى يضع الوضوء مواضعه فيغسل وجهه ثم يغسل يديه ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه». و(ثم) فى كلام العرب للتعقيب.

عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أنه قال لعبد الله بن زيد الأنصارى قال: أتستطيع أن ترى كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله: نعم، فدعا بوضوء وأفرغ على يديه فغسل وجهه ثلاثًا ويديه ثلاثًا ومسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثمّ ذهب بهما إلى المكان الذى بدأ منه، ثم غسل رجله.

وقال مالك: إن ترك الترتيب فى الوضوء عامدًا، أعاد وضوءه فإن تركه ناسيًا لم يعد، وهو اختيار المزنى.

وقال سفيان الثورى وأبو حنيفة وصاحباه: الترتيب فى الوضوء سنّة فإن تركه ساهيًا أو عامدًا فلا إعادة عليه، وجعلوا الواو بمعنى الجمع، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ (التوبة:٦٠) ولا خلاف أن تقديم بعض أهل السهمين على بعض فى الإعطاء بتمايز. وبقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٦). ويحرم تقديم أحدهما على الآخر.

❖ **وأما فضل الوضوء:**

فروى يحيى بن أبى كثير عن زيد عن ابن سلام عن أبى مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان».

وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن عثمان النهدى قال: كنت مع سلمان فأخذ غصنًا من شجرة يابسة فحتّه ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأحسن الوضوء ثمّ صلى الصلوات الخمس تحاتت عنه خطاياه كما تحات هذا الورق».

وروى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: قيل: يا رسول الله ﷺ كيف تعرف من لم تر من أمتك يوم القيامة؟ قال: «هم غر محجلون من آثار الوضوء».

وروى أبو أمامة عن عمرو بن عبسة قال: قلت: يا رسول الله ما الوضوء حدّثنى عنه؟ قال: «ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق ويستنثر إلاّ جرت خطايا فيه وخياشيمه مع الماء ثم إذا غسل وجهه كما أمر الله إلاّ جرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم إذا غسل يديه من المرفقين إلاّ جرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلاّ جرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلاّ جرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإذا هو قام فصلى وحَمِدَ الله وأثنى عليه ومجّده وفرّغ قلبه لله إلاّ انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أُمه».

وعن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله ﷺ وأنا ابن ثمانى سنين وكان أول ما علّمنى أن قال: «يا أنس يا بنى أحسن وضوءك لصلاتك يحبك الله ويزد فى عمرك».

وروى سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن حمزة الأنصارى قال: خرجَ علينا رسول الله ﷺ ونحن فى مسجد المدينة فقال: «لقد رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً من أُمتى قد بُسِط عليه عذاب القبر فجاء وضوءه فاستنقذه من ذلك».

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾: فاغتسلوا.

روى أبو ذر عن على (عليه السلام) فقال: أقبل عشرة من أحبار اليهود، فقالوا: يا محمد لماذا أمر الله بالغسل من الجنابة ولم يأمر من البول والغائط وهما أقذر من النطفة؟ فقال النبى ﷺ: «إنّ آدم لما أكل من الشجرة تحوّل فى عروقه وشعره، وإذا جامع الإنسان نزل من أصل كل شعرة فافترضه الله عز وجل علىّ وعلى أمتى تكفيراً وتطهيراً وشكراً لِما أُنعم عليهم من اللذة التى يصيبونها منه».

قالوا: صدقت يا محمد، فأخبرنا بثواب ذلك من اغتسل من الحلال، فقال ﷺ: «إنّ

المؤمن إذا أراد أن يغتسل من الحلال بنى الله له قصرًا فى الجنة وهو سرّ بين المؤمن وبين ربه، والمنافق لا يغتسل من الجنابة فما من عبد ولا أمة من أمتى قاما للغسل من الجنابة تيقنًا أنى ربهما، أُشهدكم أنى غفرت لهما كتبت لهما بكل شعرة على رأسه وجسده ألف سنة ومحى عنه مثل ذلك ورفع له مثل ذلك». قالوا: صدقت، نشهد أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله.

وعن أبى محمد الثقفى قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال لى النبى ﷺ: «يا بنى الغسل من الجنابة فبالغ فيه فإنّ تحت كلّ شعرة جنابة». قلت: يا رسول الله كيف أبالغ؟ قال: «نقّوا أصول الشعر وأنق بشرتك تخرج من مغتسلك وقد غفر لك كل ذنب».

وقال عبد الرحمن بن حمزة: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة. قال: «إنى رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً من أُمتى والنبيون قعود حلقًا حلقًا كلما دنا إلى حلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعد إلى جنبى».

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾: أى من الصعيد ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾: بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾: من ضيق ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: من الأحداث والجنابات والذنوب والخطيئات ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾: فيما أباح الله لكم من التيمم عند عدم الماء وسائر نعمه التى لا تحصى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: الله عليها.

وروى محمد بن كعب القرظى عن عبد الله بن دارة مولى عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) عن عمران مولى عثمان قال: مرّت على عثمان فخارة من ماء فدعا به فتوضأ فأسبغ وضوءه ثم قال: لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلاّ مرة أو مرّتين أو ثلاثًا ما حدّثتكم به.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما توضّأ عبد فأسبغ وضوءه ثم قام إلى الصلاة إلاّ غفر الله له ما بينه وبين الصلاة الأخرى».

قال محمد بن كعب: فكنت إذا سمعت الحديث من رجل من أصحاب رسول الله ﷺ التمسته فى القرآن فالتمست هذا فى القرآن فوجدته ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ (الفتح: ١، ٢) فعلمت أن الله لم يتم عليه النعمة حتّى غفر له ذنوبه.

ثم قرأت الآية التى فى المائدة ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حتّى بلغ قوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ فعرفت أنّ الله لم يتم عليهم النعمة حتى غفر لهم.

قتادة عن شهر بن حوشب عن الصّدى بن عجلان وهو أبو أمامة عن النبى ﷺ أنه قال:

«الطهور يكفر ما قبله ثمّ تصير الصلاة نافلة».

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ : يعنى النعم كلها ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ : عهده ﴿ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ : عاهدتم به أيها المؤمنون ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ : وذلك حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا. هذا قول أكثر المفسرين.

وقال مجاهد: من الميثاق الذى أخذ الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم (عليه السلام) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ : عليم ما فى القلوب من خير وشر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أمرهم بالصدق والعدل فى أقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ ولا يحملنكم بغض قوم ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ أي على ترك العدل فيهم لعداوتهم، ثم قال: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ بين أوليائكم وأعدائكم ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ : يعنى إلى التقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾ : عالم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ : مجازيكم به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ : تقديرها: وقال لهم مغفرة، لأنّ الوعد قول، فلذلك جمع الكلام ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ : بالدفع عنكم ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ : بالقتل ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ .

نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو ببطن نخل فى الغزوة السابعة فإذا بنو ثعلبة، وبنو محارب أرادوا أن يمسكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة، قالوا: إن لهم صلاة هى أحب

إليهم من آبائهم وأمهاتهم فإذا سجدوا فيها أوقعنا بهم، فأطلع الله نبيّه على ذلك، وهى صلاة الخوف.

وقال الحسن: كان النبى ﷺ محاصراً بطن نخلة. فقال رجل من المشركين: هل لكم فى أن أقتل محمداً، قالوا: فكيف تقتله؟ قال أمسك به، قالوا: وددنا أنّك فعلت ذلك. فأتى النبى ﷺ وهو متقلد سيفه، فقال: يا محمد أرنى سيفك فأعطاه إياه فجعل الرجل يهز السيف وينظر مرّة إلى السيف ومرة إلى النبىّ ﷺ وقال: من يمنعك منى يا محمد؟ قال: الله، فتهدّده أصحاب النبى ﷺ وأغلظوا له فشام السيف ومضى. فأنزل الله هذه الآية.

الزهرى عن ابن سلام عن جابر بن عبد الله: أنّ النبى ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس فى العضاة يستظلون تحتها فعلّق النبىّ ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله ﷺ فسلّه ثمّ أقبل على النبى ﷺ فقال: من يمنعك منى؟ قال: «الله»، قال الأعرابى مرّتين أو ثلاثًا، من يمنعك منى؟ والنبى ﷺ يقول: «الله»، فشام الأعرابى السيف، فدعا النبى ﷺ أصحابه فأخبرهم بخبر الأعرابى وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه.

وقال مجاهد وعبد الله بن كثير وعكرمة والكلبى، وابن يسار عن رجاله: بعث النبى ﷺ المنذر بن عمرو الأنصارى الساعدى وهو أحد النقباء ليلة العقبة فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين والأنصار بنى عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر على بئر معونة وهى من مياه بنى عامر، فاغتسلوا فقتل المنذر بن عمرو الأنصارى الساعدى وأصحابه إلاّ ثلاثة نفر كانوا فى طلب ضالة لهم أحدهم: عمرو بن أميّة الصيمرى، فلم يرعهم إلاّ والطير تحوم فى السماء تسقط من بين خراطيمها علق الدّم، فقال أحد النفر: قتل أصحابنا، ثم تولى يشتد حتّى لقى رجلاً فاختلفا ضربتين فلما خالطت الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال: الله أكبر الحمد لله ربّ العالمين. ورجع صاحباه، فلقيا رجلين من بنى سليم وبين النبى ﷺ وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بنى عامر فقتلاهما وقدم قومهما إلى النبى ﷺ يطلبون الدية فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتّى دخلوا على كعب بن الأشرف وبنى النضير فاستعانهم فى عقلهما، فقال: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة. اجلس حتّى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا، فجلس النبى ﷺ وأصحابه فخلا بعضهم ببعض، وقالوا: إنّكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيرتحل عنا. فقال عمرو بن جحش بن كعب: أنا، فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله أيديهم وجاء جبرائيل (عليه السلام) وأخبره بذلك

فخرجِ النبى ﷺ ثمّ دعا عليًا فقال: لا تبرح من مكّة، فمن خرج عليك من أصحابى فسألك عنّى فقل توجه إلى المدينة، ففعل ذلك على (عليه السلام) حتّى قاموا إليه ثم لقوه فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

قال الثعلبى: وهذ القول أولى بالصواب لأنّ الله تعالى عقّب هذه الآية بذم اليهود، وذكر قبح أفعالهم وأعمالهم فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ الآية، وذلك أنّ الله تعالى وعد موسى أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهى الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون، ووعده أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مساكن بنى إسرائيل، فلما تركت بنو إسرائيل الدّار بمصر أمرهم الله تعالى المسير إلى أريحا أرض الشام وهى الأرض المقدسة.

وقال: يا موسى إنى قد كتبتها لكم داراً قراراً فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فإنى ناصركم عليهم، وخذ من قومك اثنى عشر نقيبًا من كلّ سبط نقيبًا يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أُمروا به فاختار موسى (عليه السلام) النقباء وهذه أسماؤهم: من سبط روبيل: شامل بن ران، ومن سبط شمعون: شاقاط بن حورى، ومن سبط يهودا: كالب بن يوقنا، ومن سبط آبين: مقايل بن يوسف، ومن سبط يوسف، وهو سبط إفراهيم ويوشع بن نون، ومن سبط بنيامين: قنطم بن أرقون ومن سبط ريالون: مدى بن عدى، ومن سبط يوسف وهو ميشا بن يوسف: جدى بن قامن، ومن سبط آهر: بيانون بن ملكيا ومن سبط تفتال: نفتالى محر بن وقسى، ومن سبط دان: حملائل بن حمل، ومن سبط أشار: سابور ابن ملكيا.

فسار موسى ببنى إسرائيل حتى إذا قربوا من أرض كنعان وهى أريحا. بعث هؤلاء النقباء إليها يتجسّسون له الأخبار ويعلمونه فلقيهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة وثلاثين ذراعًا وثلث ذراع.

قال ابن عمر: كان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من أقرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله.

ويروى له أنه رأى نوحًا يوم الطوفان فقال: احملنى معك فى سفينتك، فقال له: أُخرج يا عدو الله فإنّى لم أُؤمر بك وطبق الماء ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتى عوج، وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة ثم أهلكه الله على يد موسى، وكان لموسى (عليه السلام) عسكر فرسخًا فى فرسخ، فجاء عوج حتى نظر إليهم ثم جاء فنحت الجبل فأخذ منه بصخرة على قدر

العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى إليه الهدهد ومع المص يعنى منقاره حتّى نقر الصخرة فانثقبت فوقعت فى عنق عوج فطوقته وأقبل موسى (عليه السلام) وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع وتراقى السماء عشرة أذرع فما أصاب إلاّ كعبه وهو مصروع بالأرض فقتله.

قالوا: فأقلت جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتّى جزّوا رأسه فلما قتل وقع فى نيل مصر فجسرهم سنة وكانت أمّه عنق ويقال عناق إحدى بنات آدم، ويقال: إنّها كانت أوّل من بغت على وجه الأرض وكان كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع وذراعين، وفى كل إصبع ظفران حديدان مثل المنجلين. وكان موضع مجلسها جريبًا من الأرض. فلمّا بغت بعث الله عزّ وجلّ عليها أسدًا كالفيلة وذئبًا كالإبل ونسورًا كالحمر وسلّطهم عليها فقتلوها وأكلوها.

قالوا: فلما لقيهم عوج وعلى رأسه حزمة حطب أخذ الاثنى عشر فجعلهم فى حجزته. وحجزة الإزار معقد السراويل التى فيها التكّة. فانطلق بهم إلى امرأته وقال: انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا، فطرحهم بين يديها.

وقال: ألا أطحنهم برجلى، فقالت امرأته: لا بل خلِّ عنهم حتّى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك فجعلوا يتعرّفون أحوالهم، وكان لا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة أنفس منهم فى خشبة ويدخل فى شطر الرّمانة إذا نزع حبّها خمسة أنفس أو أربعة، فلمّا خرجوا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنّكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم ارتدوا عن نبى الله ولكن اكتموا وأخبروا موسى (عليه السلام) وهارون فيكونان هما يريان رأيهما، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك. ثم انصرفوا إلى موسى وحاول بحبّة من عنبهم وفرّ رجل منهم، ثم إنّهم نكثوا العهد، وكل واحد منهم نهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى، إلاّ رجلين منهم يوشع وكالب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ لبنى إسرائيل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ناصركم على عدوكم.

ثم ابتدأ الكلام فقال عزّ من قائل: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ يا معشر بنى إسرائيل ﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أى ونصرتموهم ووقرتموهم.

وأشعر أبو عبيدة:

وكم من ماجد منهم كريم ومن ليث يعزّر فى الندى

ويروى: وكم من سيّد يُحصى نداه ومن ليث.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: ولم يقل إقراضًا، وهذا مما جاء من المصدر بخلاف المصدر

كقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: لأستبرئنّ ولأمحونّ ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أى أخطأ قصد السبيل وهو لكل شىء وسطه، ومنه قيل للظهر: سواء ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أى فبنقضهم وما فيه ما المصدر، وكلّ ما ورد عليك من هذا الباب فهو سبيله.

قال قتادة: نقضوه من وجوه: كذّبوا الرسل الذين جاءوا بعد موسى فقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيّعوا فرائضه.

قال سليمان: إنما هلكت هذه الأمّة بنكثها عهودها.

﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾: قال ابن عباس: عذّبناهم بالجزية. الحسن ومقاتل: بالمسخ عطاء أبعدناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾.

قرأ يحيى بن رئاب وحمزة والكسائى قسية بتشديد الياء من غير ألف. وهى قراءة النخعى، وقرأ الأخفش: قسية بتخفيف الياء على وزن فعلية نحو عمية وشجية من قسى يقسى لا من قسى يقسو، وقرأ الباقون: قاسية على وزن فاعلة، وهو اختيار أبى عبيدة، وهما لغتان مثل العلية والعالية والزكية والزاكية.

قال ابن عباس: قاسية يائسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل: متكبرة لا تقبل الوعظ، وقيل: ردية فاسدة، من الدراهم القسية وهى الودية المغشوشة ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ﴾ قرأه العامّة بغير ألف، وقرأ السلمى والنخعى: الكلام بالألف ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعمته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾.

واختلفوا فى الخائنة:

قال المبرّد: هى مصدر، كالكاذبة، واللاّغية، وقيل: هى اسم كالعاقبة والمعاقبة، وقيل: هى بمعنى المبالغة، والهاء هنا للمبالغة مثل: راوية وعلامة ونسابة. قال الشاعر:

حدّثت نفسك بالوفاء ولم تكن … للغدر خائنة مغلّ الإصبع

ويجوز أن يكون جمع الخائن كقولك فرقة كافرة وطائفة خارجة.

قال ابن عباس: خائنة أى معصية، وقيل: كذب وفجور، وكانت خيانتهم نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ وهمهم بقتله وسمّه ونحوها من عمالتهم وخيانتهم التى أخبرت ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾ لم يخونوا أو لم ينقضوا العهد، من أهل الكتاب ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا منسوخ بآية السيف.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ : فى التوحيد والنبوة ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا﴾ : بالعهد ﴿بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ : ألا وهو الخصومات والجدال فى الدين.

قال معاوية بن قرة: الخصومات فى الدين تحبط الأعمال واختلفوا فى المعنى بالهاء والميم فى قوله ﴿بَيۡنَهُمُ﴾.

فقال مجاهد وقتادة والسدّى وابن زيد: يعنى بين اليهود والنصارى.

وقال ابن زيد: كما تغرى بين البهائم. وقال الربيع: هم النصارى وحدها، وذلك راجع إلى فرق النصارى النسطورية واليعقوبية والملكية، ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ (الزخرف: ٦٧)، ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ فى الآخرة ويجازيهم به وهذا وعيد من الله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التوراة والإنجيل مثل صفة محمد ﷺ وآية الرجم ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ ويترك أخذكم بكثير ممّا تخفون ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ : يعنى محمداً ﷺ ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ بيّن، وقيل: مبين وهو القرآن ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ مجاهد وعبيد بن عمير ومسلم بن جندب: يهدى به الله بضم الهاء على الأصل لأن أصل الهاء الضمة، وقرأ الآخرون بكسر الهاء إتباعًا ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ رضاه ومعنى رضاه بالشىء قبوله ومدحه له فأثابه عليه وهو خلاف السخط والغضب ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لطرف السلم وهو الله تعالى وسبيله دينه الذى شرع لعباده وبعث به رسله ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أى من ظلام الكفر إلى نور الإيمان ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بتوفيقه وهدايته وإرادته ومشيئته ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

مُسْتَقِيمٍ۝ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أى من يطيق أن يدفع من أمر الله شيئًا فيرده إذا قضاه، وهو من قول القائل: ملكت على فلان أمره إذا ضلّ لا يقدر أن ينفّذ أمرًا.

الآية ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ﴾ ولم يقل: وما بينهنّ لأنّ المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ۝١٨ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

قال السدّى: قالت اليهود: إنّ الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدًا من ولدك أدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يومًا حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فأخرجهم فذلك قولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ﴾ (البقرة: ٨٠)، وأمّا النصارى، فإن فرقة منهم قالت: المسيح ابن الله.

فأخرجهم الخبر عن الجماعة ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ كان لأمر ما زعمتم أنكم أحباؤه وأولياؤه فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مقرّون أنّه معذبكم ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ كسائر بنى آدم، ثم قال بالإحسان والإيتاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فضلاً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ عدلاً.

وقال السدّى: يهدى منكم من يشاء فى الدنيا فيغفر له، ويميت من يشاء منكم على كفره فعذّبه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ۝ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أعلام الهدى وشرائع الدين ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ انقطاع ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ واختلفوا فى قدر مدّة تلك الفترة.

وروى عبيد بن سلمان عن الضحاك قال: الفترة فيما بين عيسى ومحمد (عليهما السلام) ستمائة سنة.

معمّر عن قتادة قال: كان بين عيسى ومحمد (عليهما السلام) خمسمائة وستون سنة.

قال معمّر وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون سنة، الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

حمّاد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلّهم يدلي على الله يوم القيامة بحجة وعذر، رجل مات في الفترة ورجل أدرك الفترة الأخيرة، ورجل أصم أبكم ورجل معتوه، فيبعث الله عزّ وجلّ إليهم ملكًا رسولاً فيقول أطيعوه فيأتيهم الرسول فيؤجج لهم ناراً فيقول: اقتحموها فمن اقتحمها كانت عليهم بردًا وسلامًا ومن قال لا حقت عليه كلمة العذاب».



﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ اختلفوا في معنى الملوك.

فروى أبو الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكًا».

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن والحكم: من كان له بيت وخادم وامرأة فهو ملك.

وقال أبو عبد الرحمن: قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك

مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إنّ لي خادمًا ومالاً. قال: فأنت من الملوك.

وروى أبو عبلة عن أم الدرداء عن أبي العامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح معافى في بدنه آمنًا في سربه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، يا ابن جعشم يكفيك منها ما يسدّ جوعك ويواري عورتك فإن كان بيت يواريك فذاك، وإن كان دابة تركبها فبخ، فلق الخبز وماء البحر وما فوق ذلك حساب عليك».

وقال الضحّاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمن كان مسكنه واسعًا وفيه ماء جار فهو ملك.

وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم وأول من سخّر لهم الخدم من بني آدم.

قال السدي: يعني وجعلكم أحرارًا تملكون أنفسكم بعد أن كنتم في أيدي القبط بمنزلة أهل الجزية فينا فأخرجكم الله من الذّل ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يعني عالمين من غيركم.

وقال مجاهد: يعني المن والسلوى والحجر والغمام ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ اختلفوا في الأرض المقدسة ما هي.

فقال مجاهد: هي الطور وما حوله. وقال الضحّاك: هي إيليا وبيت المقدس الحرام محرم مقداره، السموات والأرض بيت المقدس مقدّس مقداره من السموات والأرض.

عكرمة والسدّي وابن زيد: هي أريحا.

الكلبي: دمشق وفلسطين وبعض الأردن.

قتادة: هي الشام كلها.

قال زيد بن ثابت: بينما نحن حول رسول الله ﷺ يؤلف القرآن من الرقاع إذ قال: «طوبى للشام» قيل: يا رسول الله ولم ذاك؟ قال: «إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم».

نصير بن علقمة الحمصي عن علقمة عن جبير بن نقير عن عبد الله بن حوالة قال: كنّا عند النبي ﷺ فقال: «والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله أرض فارس والروم وأرض حمْير وحتى تكونوا أجنادًا ثلاثة، جندًا بالشام، وجندًا بالعراق وجندًا باليمن».

فقال ابن حوالة: يا رسول الله إن أدركني ذلك، قال: «أختار لك الشام فإنها صفوة الله من بلادكم وإليها يجتبي صفوته من عباده، يا أهل الإسلام فعليكم بالشام فإن صفوة الله من أرض الشام فمن أبى فليلحق بيمينه وليستق من غدره إن الله قد تكفّل لي بالشام وأهله».

روى الأعمش عن عبد الله بن صبّار عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال: قسّم الخير عشرة أعشار فجعل منه تسعة بالشام وواحد بالعراق. وقسم الشّر عشرة أعشار فجعل منه تسعة بالعراق وواحد بالشام. ودخل الشام عشرة آلاف عين رأت النبى ﷺ ونزل خمس وسبعمائة من أصحاب النبى ﷺ فيهم سبعون صحابيًا ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى كتبه فى اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن.

وقال ابن إسحاق: ذهب الله لكم. السّدى: أمركم به يدعو لها، وقتادة: أمروا بها كما أمروا بالصلاة ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أعقابكم بخلاف الله ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾.

قال الكلبى: صعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام جبل لبنان فقيل له: انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريّتك من بعدك، قالوا: يعنى بنى إسرائيل، يا موسى اكتموا أمرهم لا تخبروا به أحدًا من أهل العسكر فيفشيانه فذهب كل رجل منهم فأخبر قريبه وابن عمّه إلاّ رجلين وفيا. فقال لهم موسى: وهما يوشع بن نون بن أفرائيتم بن يوسف فتى موسى وكالب ابن يوفنا ختن موسى على أخته مريم ابنة عمران وهما من إيليا فعلمت جماعة بنى إسرائيل ذلك، ورفعوا أصواتهم بالبكاء، وقالوا: يا ويلتنا متنا فى أرض مصر، وليتنا نموت فى هذه البرية ولا يدخلنا الله لدينهم فيكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمة لهم، وجعل الرجل يقول لأصحابه: تعالوا نجعل علينا رأسًا وننصرف إلى مصر وذلك قوله عزّ وجلّ إخبارًا عنهم: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾.

وقال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيب ليست لغيرهم ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾: فلما قالوا ذلك وهمّوا بالإنصراف إلى مصر خرّ موسى وهارون (عليهما السلام) ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله عزّ وجلّ عنهما فى قوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾: أى يخافون الله.

قرأ سعيد بن جبير يخافون بضم الياء وقال: كانا من الجبّارين فأسلما واتّبعا موسى.

﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾: بالتوفيق والعصمة ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾: يعنى قرية الجبّارين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ﴾: لأن الله منجز وعده ولا ينساهم فكانت أجسامهم عظيمة قوية، وقلوبهم ضعيفة فلا يخشونهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

روى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية حين صدّ عن البيت: إنى ذاهب بالهدى

فناحره عند البيت. فقال المقداد بن الأسود: أما والله لا نقول لك ما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون، ولكنّا نقاتل عن يمينك وشمالك ومن بين يديك ومن خلفك فلو خضت البحر لخضناه معك، ولو تسنّمت جبلاً لعلوناه معك فسر بنا على بركة الله، فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ بايعوه على ذلك وأشرق وجه رسول الله ﷺ بذلك وسرّه.

قال ابن مسعود: لأن أكون صاحب هذا المسجد أحبّ إليّ مما عدل بى.

فلمّا فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم وهمتهم بيوشع وكالب، غضب موسى ودعا عليهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ﴾ أى فافصل واقض.

وقرأ عبيد بن عمير: فافرق بخفض الرّاء ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ العاصين. وكانت عجلة عجلها موسى وظهر الغمام على باب قبة الزمر موضع مناجاته وأوحى الله تعالى إلى موسى: إلى متى يعصينى هذا الشعب وإلى متى لا يصدّقون بالآيات لأهلكنّهم جميعًا ولأجعلنّ لك شعبًا أشد وأكثر منهم، فقال موسى (عليه السلام): إلهى لو أنّك قتلت هذا الشعب كلّهم كرجل واحد لقالت الأمم الذين سمعوا: إنمّا قتل هذا الشعب لأنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة فقتلهم فى البرية، وإنّك طويل صبرك كثير نعمك وإنك تغفر الذنوب وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء، فاغفر لهم توبتهم، فقال الله لموسى: قد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعدما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم لأحرّمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولأتيهنّهم فى هذه البرية أربعين سنة فكان كل يوم من الأيام الذى يحتسبون فيه سنة وليلقين حتفهم فى هذه القفار وأما بنوهم الذين لم يعلموا الخير والشر فإنهم يدخلون الأرض المقدسة فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يتحيرون فى الأرض فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ يسيرون فى كل يوم جادّين حتّى إذا أمسوا وباتوا فإذا هم فى الموضع الذى ارتحلوا عليه، وكانوا ستمائة ألف مقاتل ومئات من النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر بغتة فكل من دخل التيه ممن جاوز عشرين سنة مات فى التيه غير يوشع وكالب، ولم يدخل أريحا أحد ممن قالوا ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ فلمّا هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشى من ذرياتهم ساروا إلى حرب الجبارين.

واختلف العلماء فيمن تولى ذلك الحرب وعلى يد من كان الفتح، فقال القوم: إنّما فتح أريحا موسى (عليه السلام) وكان يوشع على مقدمته فسار موسى إليهم بمن بقى من بنى إسرائيل فدخل بهم يوشع وقاتل الجبابرة التى كانوا بها ثم دخلها موسى (عليه السلام) وبنى

إسرائيل فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم فيه ثم قبضه الله إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلائق، وهذا أصح الأقاويل، لإجماع العلماء أن عوج ابن عناق قتله موسى، والله أعلم.

وقال الآخرون: إنّما قاتل الجبّارين يوشع ولم يسر إليهم إلاّ بعد موت موسى، وهلاك جميع من أبى المسير إليه فقالوا: مات موسى وهارون فى التيه.

قصة وفاة هارون عليه السلام

قال السّدى: أوحى الله عز وجل إلى موسى: أنى متوفى هارون، فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو الجبل، فإذا هما بشجرة لم ير شجر مثلها وإذا بيت مبنى فيه سرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك بجنبه أعجبه وقال: يا موسى إنّى أحب أن أنام على هذا السرير، قال: فنم عليه، فقال: إنّى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب علىّ، قال له موسى: لا، أنا أكفيك رب هذا البيت فنم، قال: يا موسى بل نم معى فإن جاء رب البيت غضب علىّ وعليك جميعًا، فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد حتفه قال: يا موسى خذ عينى فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هارون، قالوا: إنّ موسى قتل هارون وحسده لحبّ بنى إسرائيل له، فقال موسى: ويحكم فإنّ أخى أُمر ولن أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه.

وقال عمرو بن ميمون: كان وفاة موسى وهارون فى التيه، ومات هارون قبل موسى، فكانا خرجا فى التيه إلى بعض الكهوف، فمات هارون ودفنه موسى، وانصرف إلى بنى إسرائيل، فقالوا: ما فعل هارون؟ قال: مات، قالوا: كذبت ولكنك قتلته لمحبّتنا إياه، وكان محجبًا فى بنى إسرائيل.

فتضرع موسى إلى ربّه وشكا ما لقى من بنى إسرائيل فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن انطلق بهم إلى قبر هارون حتى تخبرهم أنه مات موتًا ولم تقتله، وانطلق بهم إلى قبر هارون فنادى: يا هارون فخرج من قبره ينفض من رأسه فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا والله ولكنّى متّ قال: فعد إلى مضجعك، وانصرفوا.

وأما وفاة موسى عليه السلام

فقال ابن إسحاق: كان صفى الله موسى قد كره الموت وأعظمه فلما كرهه أراد الله أن يحبّب إليه الموت ويكرّه إليه الحياة فالتقى يوشع بن نون وكان يغدو ويروح عليه فيقول له

موسى: يا نبى الله ما أحدث الله؟ فيقول له يوشع: يا نبى الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة وهل كنت أسألك عن شىء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذى تهتدى به وتذكره ولا تذكر له شيئًا؟ فلما رأى ذلك موسى كره الحياة وأحبّ الموت، ثم اختلفوا فى صفة موته.

فروى همام بن منبه عن أبى هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال: «جاء ملك الموت إلى موسى (عليه السلام) فقال له: أجب ربك، قال فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها فرجع ملك الموت إلى الله تعالى فقال: إنّك أرسلتنى إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عينى، قال: فردّ الله عينه وقال: ارجع إلى عبدى، فقل له: الحياة تريد فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بعدد كل شعرة من ذلك سنة قال: ثم ماذا، قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب قال: ياربّ أدننى من الأرض المقدسة قدر رمية حجر»، فقال رسول الله ﷺ: «والله لو أنى عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطور الطريق عند الكثيب الأحمر».

قال الثعلبى: سمعت أبا سعيد بن حمدون قال: سمعت أبا حامد المقرى قال: سمعت محمد بن يحيى يقول: قد صحّ هذا من رسول الله ﷺ معنى قصة ملك الموت وموسى لا يردّها إلاّ ضال. وفى حديث آخر: أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ ملك الموت كان يأتى النّاس عيانًا حتّى أتى موسى ليقبضه فلطمه ففقأ عينه فرجع ملك الموت، فجاء بعد ذلك خفية».

وقال السدى: فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن رسول الله ﷺ: «كان موسى (عليه السلام) يمشى وفتاه يوشع إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى. فقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم لموسى نبى الله فاستل موسى من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل. وقالوا: أقتلت نبى الله؟ قال: لا والله ما قتلته ولكن استل منى، فلم يصدقوه وأرادوا قتله، قال: فإذا لم تصدقونى فأخّرونى ثلاثة أيام فدعا الله عزّ وجلّ فأتى كل رجل ممّن كان يحرسه فى المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه».

وقال وهب: خرج موسى (عليه السلام) لبعض حاجته فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً فعرفهم فأقبل إليهم حتى وقف عليهم فإذا هم يحفرون قبراً لم ير شبيهًا قط أحسن منه ولم ير مثل ما فيه الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ قالوا: نحفره والله لعبد كريم على ربّه، قال: إنّ لهذا العبد من الله لمنزلة فإنى ما رأيت كاليوم مضجعًا، فقالت الملائكة: يا صفى الله أتحب أن يكون لك؟ قال: وددت، قالوا: فانزل

فاضطجع فيه وتوجّه إلى ربك ثم تنفس أسهل تنفس تنفّسته قط ، فنزل فاضطجع فيه وتوجّه إلى ربه ثم تنفس فقبض الله روحه ثم سوّت عليه الملائكة .

وقيل : إن ملك الموت أتاه فقال له : يا موسى أشربت الخمر؟ قال : لا ، فاستكرهه فقبض روحه . وقيل : بل أتاه بتفاحة من الجنّة فشمها فقبض روحه .

ويروى أن يوشع بن نون رآه بعد موته فى المنام فقال : كيف وجدت الموت . قال كشاة تُسلخ وهى حيّة ، وكان عمر موسى (عليه السلام) مائة وعشرين سنة ، عشرون سنة منها فى ملك إفريدون ومائة فى ملك منوچهر فلما انقضت الأربعون سنة مات .

ولما مات موسى بعث الله تعالى إليهم يوشع نبيًا فأخبرهم أنه نبى الله وأن الله أمرهم بقتال الجبارين فصدقوه وبايعوه فتوجه ببنى إسرائيل إلى أريحا ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحا ستة أشهر فلما كان فى السابع نفخ فى القرون وضجّ الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوا وقاتلوا الجبّارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم وكانت الغلبة من بنى إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها حتى يقطعوها وكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب ودخل ليلة السبت فخشى أن يعجزوا فقال : اللهم اردد الشمس على فقال للشمس : إنّك فى طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقم حتى ينتقم من أدعائه دخول السبت فردت عليه الشمس وزيد له فى النهار ساعة حتى قطعهم أجمعين ثمّ أرسل ملوك الأرمانيين بعضهم إلى بعض فكانوا خمسة فجمعوا كلمتهم على يوشع وقومه وهزمت بنو إسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى هبطة خوران ورماهم الله تعالى بأحجار مبردّ وكان من قتله البرد أكثر مما قتله بنو إسرائيل بالسيف ، وهرب الخمسة الملوك فاختفوا فى غار فأمرهم يوشع فأخرجوا فقتلهم وصلبهمّ ثم أنزلهم فطرحهم فى ذلك الغار وتتّبع سائر ملوك الشام فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكًا حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت الشام كلها لبنى إسرائيل ، وفرق عمّاله فى نواحيها ثم جمع الغنائم فلم ينزل النار .

فأوحى الله تعالى إلى يوشع أنّ فيها غلولاً فمرهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده ، فقال ﷺ : هلمّ لما عندك فأتاه برأس الثور مكلل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه فجعله فى القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأحنث الرجل والقربان .

معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعنى رجل قد ناكح امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن ولا آخر قد بنى بناءً له ولما يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر ولادها . قال : فغزا فدنا للدير

حين صلى العصر أو قريبًا من ذلك. فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ ساعة فحبست له ساعة حتى فتح الله عليه.. قال: من علمى أنها لم تُحبس لأحد قبله ولا بعده. ثم وضعت الغنيمة فجمعوا فجاءت النار ولم تأكلها فقال: إنّ فيكم غلول فليبايعنى من كل قبيلة منكم رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده. فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم، قال: فأخرجوا مثل رأس بقرة من ذهب فألقوه فى الغنيمة وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلتها» قال النبى ﷺ: «فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا وذلك لأن الله تعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيّبها لنا».

قالوا: ثم مات يوشع (عليه السلام) ودفن فى جبل أفرايم وكان عمره مائة وستًا وعشرين سنة. وتدبر أمر بنى إسرائيل بعد وفاة موسى سبعًا وعشرين سنة.



﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ﴾: خبر ﴿ٱبْنَىْ﴾: وهما هابيل وقابيل، فهابيل فى اسمه ثلاث لغات: هابيل وهابل وهابن. وقابيل فى اسمه خمس لغات: قابيل وقابين وقابل وقبن وقابن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ وكان سبب تقرّبهما القربان على ما ذكره أهل العلم بالقرآن. أن حوّاء كانت تلد لآدم (عليه السلام) توأمًا فى كل بطن غلامًا وجارية إلاّ شيسًا فإنها ولدته مفردًا وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى فى عشرين بطنًا أولهم قابيل وتوأمته أقليما وآخرهم عبد المغيث

وتوأمته أمة المغيث ثم بارك الله فى نسل آدم (عليه السلام).

قال ابن عباس: لم يمت آدم (عليه السلام) حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفًا. ورأى آدم (عليه السلام) فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد.

واختلف العلماء فى وقت مولد قابيل وهابيل، وموضع اختلافهما. فقال بعضهم: غشى آدم حوّاء بعد هبوطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته أقليما فى بطن، ثم هابيل وتوأمته فى بطن.

وقال محمد بن إسحاق: عن بعض أهل الكتاب، العلم الأول أنّ آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت له فيها بقابيل وتوأمته فلم يجد عليها وحمًا ولا وصبًا ولم يجد عليها حين ولدتهما ولم تر معهما دمًا، لطهر الجنّة فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوصب والوحم والطلق والدم.

وكان آدم إذا شبّ أولاده تزوّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وتزوج بجارية هذا البطن غلام البطن الآخر وكان الرجل منه يتزوّج أى أخواته يشاء إلاّ توأمته التى ولدت معه فإنها لا تحل له، وذلك أنه لم يكن يومئذ نساء إلاّ أخواتهم وأمهم حوّاء، فلما ولد قابيل وأقليما، ثم هابيل وتوأمته ليوذا فى بطن، وكان بينهما سنتين. فى قول الكلبى. وأدركوا أمر الله عزّ وجلّ آدم (عليه السلام) أن ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل. ونكح هابيل أقليما أخت قابيل، وكانت أخت قابيل من أحسن الناس، فذكر ذلك آدم لولده فرضى هابيل وسخط قابيل، وقال: هى أختى ولدت معى فى بطن. وهى أحسن من أخت هابيل وأنا أحق بها منه. لأنّها من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض. وأنا أحق بأختى فقال له أبوه: إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك منه وقال: إن الله لم يأمر بهذا وإنما هو من رأيه. فقال لهما آدم: فقربا قربانًا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها.

وقال معاوية بن عمار: سألت الصادق عليه سلام الله عن آدم (عليه السلام) أكان زوّج ابنته من ابنه، فقال: معاذ الله والله لو فعل ذلك آدم ما رغب عنه رسول الله ﷺ وما كان دين آدم إلاّ دين رسول الله ﷺ إنّ الله تبارك وتعالى لما نزل آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حوّاء بنتًا وسمّاها ليوذا فبغت وهى أول من بغت على وجه الأرض فسلط الله عليها من قتلها فولدت لآدم على أثرها قابيل، ثم ولد له هابيل، فلما أدرك قابيل أظهر الله جنية من ولد الجان يقال لها جهانة فى صورة إنسية وأوحى الله تعالى إلى آدم (عليه السلام) أن زوجها من قابيل فزوجها منه فلما أدرك هابيل أهبط الله تعالى حوراء إلى آدم (عليه السلام) فى صورة

إنسية وخلق لها رحمًا وكان اسمها نزلة، فلما نظر إليها قابيل ومقها، وأوحى الله تعالى إلى آدم (عليه السلام) أن زوج نزلة من هابيل، ففعل ذلك، فقال قابيل له: ألست أكبر من أخي وأحق بما فعلت به منه. فقال له آدم: يا بني إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. فقال: لا ولكنّك آثرته عليّ بهواك. فقال له آدم: إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقرّبا قربانًا فأيكما تقبل قربانه فهو أولى بالفضل من صاحبه.

قالوا: وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار من السماء فأكلتها. وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلتها الطير والسباع، فخرجا ليقرّبا وكان قابيل صاحب زرع وقرّب حبرة من طعام من أردى زرع وأضمر في نفسه: ما أبالي أيقبل مني أم لا لأتزوج أختي أبدًا، وكان هابيل راعيًا صاحب ماشية فقرّب حملاً سمينًا من بين غنمه ولبنًا وزبدًا وأضمر في نفسه الرضا لله عزّ وجلّ.

وقال إسماعيل بن رافع: بلغني أن هابيل أمنح له غنمه وكان في جملتها حمل فأحبه حتى لم يكن له مال أعظم له منه وكان يحمله على ظهره فلما أمر بالقربان قرّبه، قال: فوضعا قربانيهما على الجبل، ثم دعا آدم (عليه السلام) فنزلت نار من السماء وأكلت الحمل والزبد واللبن، ولم تأكل من قربان قابيل حبًا، لأنه لم يكن زاكي القلب. وقُبل قربان هابيل لأنه كان زاكي القلب.

فما زال يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ فنزلوا عن الجبل وعرفوا وغضب قابيل لمّا ردّ الله قربانه وظهر فيه الحسد والبغي وكان يضمر ذلك من نفسه، إلى أن أتى آدم مكّة ليزور البيت فلمّا أراد أن يأتي مكّة قال للسماء: احفظي ولدي بالأمانة فأبت، وقال ذلك للأرض فأبت، وللجبال فأبت، فقال: ذلك لقابيل فقبل منه وقال: نعم ترجع وترى ولدك كما يسرّك، فرجع آدم وقد قتل قابيل أخاه وفي ذلك قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ (الأحزاب: ٧٢) يعني قابيل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) حين حمل أمانة أبيه ثم خانه. قالوا: فلمّا غاب آدم أتى قابيل وهابيل وهو في غزة قال: لأقتلك. قال: ولم؟ قال: لأن الله قبل قربانك، وردّ عليّ قرباني وتنكح أختي الحسناء، وأنكح أختك الدميمة وتحدث الناس أنّك خير مني وأفضل ويفتخر ولدك على ولدي، فقال له هابيل: وما ذنبي ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال عبد الله بن عمر: ايم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده.

وقال مجاهد: كتب عليهم فى ذلك الوقت، إذا أراد رجل قتل رجل أن يتركه ولا يمتنع منه ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ يعنى بإثم قتلى إلى إثمك الذى عملته قبل قتلى، هذا قول عامة المفسرين.

وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: معناه أنى أريد أن يكون عليك خطيئتي التى عملتها أنا إذا قتلتنى وإثمك فتبوء بخطيئتى ودمى جميعًا ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفى هذا دليل على أنهم كانوا فى ذلك الوقت مكلفين قد لحقهم الوعد والوعيد ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾ أى طاوعته وبايعته فى ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ﴾.

وقال مجاهد: شجعت. قتادة: زيّنت. ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾.

قال السدى: فلما أراد قتل هابيل راغ الغلام فى رءوس الجبال. ثم أتاه يومًا من الأيام وهو يرعى غنمًا له وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات.

وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل، فتمثل له إبليس وأخذ طيرًا فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلّمه القتل، فوضع قابيل رأس أخيه بين حجرين. وكان لهابيل يوم قُتِل عشرون سنة فاختلفوا فى مصرعه وموضع قتله.

قال ابن عباس: على جبل نود، وقال بعضهم: عند عقبة حرّا.

حكى محمد بن جرير، وقال جعفر الصادق: بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم.

فلما قتله بالعراء لم يدر ما يصنع به، لأنه كان أوّل ميت على وجه الأرض من بنى آدم فقصده السباع، فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى أروح وعلقت به الطير والسباع تنظر متى يرمى به فتأكله. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله عليه حتى مكّن له ثم ألقاه فى الحفيرة وواراه. وقابيل ينظر إليه فلما رأى ذلك ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي﴾ أى جيفته وفيه دليل على أن الميت كلّه عورة ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على حمله لا على قتله، وقيل: على موت أخيه لا على ركوب الذنب.

يدل عليه ما أخبر الأوزاعى عن المطلب بن عبد الله المخزومى قال: لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء، فناداه الله: أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدرى، ما كنت عليه رقيبًا، فقال الله عزّ وجلّ: إن صوت دم أخيك

ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ فأين دمه إن كنت قتلته؟ ومنع الله عزّ وجلّ على الأرض يومئذ أن تشرب دمًا بعدها أبدًا.

مقاتل الضحّاك عن ابن عباس قال: لما قتل قابيل هابيل وآدم بمكة اشتال الشجر وتغيّرت الأطعمة وحمضت الفواكه: وأمرّ الماء واغبرّت الأرض.

فقال آدم (عليه السلام): قد حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا بقابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول: وهو أوّل من قال الشعر:

تغيرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه الصبيح

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: من قال إن آدم قال شعراً فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمآثم، إنّ محمداً ﷺ والأنبياء كلهم صلوات الله عليهم في النهي عن الشعر سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس: ٦٩) ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، وإنما يقول الشعر من تكلّم بالعربية فلمّا قال آدم مرثية في ابنه هابيل، وهو أوّل شهيد كان على وجه الأرض. قال آدم لابنه شيث: وهو أكبر ولده ووصيّه: يا بني إنّك وصيي، احفظ هذا الكلام ليتوارث فلم يزل يقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط بالعربية، وكان يقول الشعر فنظر في المرثية فإذا هو سجع، فقال إن هذا ليقوّم شعراً فردّ المقدم إلى آخره والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعراً وما زاد فيه ولا نقص حرفًا من ذلك قال:

تغيّرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغبرّ قبيح
تغير كل ذي طعم ولون وقلّ بشاشة الوجه الصبيح
وقابيل أذاق الموت هابيـ ـل فواحزني لقد فقد المليح
وما لي لا أجود بسكب دمع وهابيل تضمّنه الضريح
بقتل ابن النبي بغير جرم قلبي عند قلبه جريح
أرى طول الحياة عليّ غما وهل أنا من حياتي مستريح
فجاورنا عدوّا ليس يفنى عدو ما يموت فنستريح
دع الشكوى فقد هلكا جميعًا بهالك ليس بالثمن الربيح
وما يغني البكاء عن البواكي إذا ما المرء غيّب في الضريح
فبكّ النفس منك ودع هواها فلست مخلداً بعد الذبيح

فأجابه إبليس فى جوف الليل شامتًا :

تنحّ عن البــلاد وساكنيهـا فتًى فى الخلد ضاق بك الفسيح
فكنت بها وزوجك فى رخــاء وقلبك من أذى الدنيـا مريح
فما انفكت مكايدى ومكرى إلى أن فاتـك الخلد الرّبيـح
فلولا رحمـة الجبّار أضحى بكفـك من جنان الخلد ريح

وقال سالم بن أبى الجعد : لما قتل هابيل مكث آدم (عليه السلام) مائة سنة لا أكثر . ثم أتى فقيل : حيّاك الله وبياك أى ضحّكك ، ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له حوّاء شيئًا وتفسيره : هبة الله ، يعنى أنه خلف من هابيل ، وعلّمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وأعلمه عبادة الخلق فى كل ساعة منها وأنزل عليه هبة الله وصار وصى آدم عليهما السلام وولى عهده ، وأما قابيل فقيل له : اذهب طريدًا شريدًا فزعًا مرهوبًا لا يأمن من يراه فأخذ بيد أخته هبة الله ذهب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتاه إبليس ، فقال له : إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبد النّار ويخدمها فانصب أنت نارًا يكون لك ولعقبك فنصب نارًا وهو أوّل من نصب نارًا وعبدها .

قالوا : كان لا يمرّ به أحد من ولده إلاّ رماه ، فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابن له فقال الأعمى : إنّ هذا أبوك قابيل فرمى الأعمى ابن قابيل فقتله . فقال ابن الأعمى : قتلت أباك . فرفع يده فلطم ابنه فمات قال الأعمى : ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى .

قال مجاهد : فعلقت إحدى رجل قابيل إلى فخذه وساقه وعلقت يومئذ إلى يوم القيامة ، ووجهه إلى الشمس حيث أدارت عليه بالصيف حظيرة من نار وفى الشتاء حظيرة من ثلج ، قالوا : واتّخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطنبور ، والمزامير ، والعيدان ، والطنابر ، وانهمكوا فى اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى طوّفهم الله عزّ وجلّ بالطوفان أيام نوح (عليه السلام) وبقى نسل شيث .

قال عبد الله بن عمر : إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم .

الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن مسروق بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : «لا تقتل نفس مسلمة ظلمًا إلاّ كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمه ، لأنه أوّل من سنّ القتل» .

مسلم بن عبد الله عن سعيد بن منصور عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم الثلاثاء فقال : «يوم دم» قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال : «فيه حاضت حوّاء وقتل ابن

آدم أخوه».

وعن يحيى بن زهدم قال: حدّثنى أبى عن أبيه عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «امتن الله عزّ وجلّ على ابن آدم بثلاث بعد ثلاث، بالريح بعد الروح فلولا أن الريح يقع بعد الروح ما دفن حميم حميمًا، وبالدودة فى الحبة فلولا أن الدودة تقع فى الحبة لأكنزها الملوك وكانت حبًا من الدنانير والدراهم. وبالموت بعد الكبر، فإن الرجل ليكبر حتى يمل نفسه ويملّه أهله وولده وأقرباؤه فكان الموت أيسر له».

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: يعنى من جرّاء ذلك القاتل ووحشيّته، يقال: أجل فلان يأجل أجلاً، مثل أخذ يأخذ أخذًا.

قال الشاعر:

وأهل خباء صالح ذات بينهم قد احتربوا فى عاجل أنا آجله

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: قتله فسادًا منه ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾: يعنى قوله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المائدة: ٣٣) الآية ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

مجاهد: اختلف الناس بينهما فقال ابن عباس: فى رواية عكرمة وعطية: من قتل نبيًا وإمامًا عادلاً فكأنما قتل الناس جميعًا ومن عمل على عضد نبى أو إمام عادل ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

مجاهد: من قتل نفسًا محرّمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها لو قتل الناس جميعًا، ومن أحياها من سلم من قتلها فقد سلم من الناس جميعًا.

السدى: من قتل فكأنما قتل الناس جميعًا عند المقتول فى الإثم ومن أحياها واستنقذها من هلكة من غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك فكأنما أحيا الناس جميعًا عند المستنقذ.

الحسن وابن زيد: فكأنما قتل الناس جميعًا يعنى أنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذى نوى بقلبه لو كان قتل الناس جميعًا ومن أحياها من عفا عمّن وجب له القصاص منه فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعًا.

قتادة والضحّاك، عظم الله قتلها أو عظم وزرها فمعناها من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما قتل الناس جميعًا لأنهم لا يسلمون منه. ومن أحياها فحرمها وتورع من قتلها فكأنما أحيا الناس جميعًا لسلامتهم منه.

وقال سليمان بن على الربعى: قلت للحسن: يا أبا سعيد هى لنا كما كانت لبنى إسرائيل، قال: إى والذى لا إله غيره لئن دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ .

روى محمد بن الفضل عن الزيات بن عمرو عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سقى مؤمنًا ماء على ظمأ فكأنما أعتق سبعين رقبة، ومن سقى فى غير موطنها فكأنما أحيا نفسًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا».

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ **الآية.**

قال الضحاك: نزلت فى قوم من أهل الكتاب، كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الأرض.

الكلبى: نزلت فى قوم هلال بن عويمر وذلك أن رسول الله ﷺ وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين لم يهج.

قال: فمرّ قوم من بنى كنانة يريدون الإسلام، بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدًا فانهدّوا إليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزل جبرئيل (عليه السلام) بالقضية فيهم.

وقال سعيد بن جبير: نزلت فى ناس من عرينة وغطفان أتوا رسول الله ﷺ وبايعوه على

الإسلام وهم كَذَبَة وليس الإسلام يريدون. ثم قالوا: إنا نجتوى المدينة لأن أجوافنا انتفخت، وألواننا قد اصفرّت فقال النبى ﷺ: «اخرجوا إلى لقاحنا واشربوا أبوالها وألبانها» فذهبوا وقتلوا الرعاة واستاقوا الإبل. وارتدّوا عن الإسلام فنودى فى الناس: يا خيل الله اركبى فركبوا لا ينتظر فارس فارسًا فخرجوا فى طلبهم فجىء بهم. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم بالحرّ حتى ماتوا، ثم اختلفوا فى حكم الآيتين. فقال بعضهم: هى منسوخة لأن المثلة لا تجوز وشرب بول الإبل لا يجوز.

وقال آخرون: حكمه ثابت إلاّ السمل والمثلة. قال الليث بن سعد: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺ وتعليمًا منه إيّاه عقوبتهم فقال: «إنما جزاؤهم هذا» أى المثلة.

ولذلك ما قام رسول الله ﷺ خطيبًا إلاّ نهى عن المثلة، واختلفوا فى المحارب الذى يستحق هذا الحد.

فقال بعضهم: اللص الذى يقطع الطريق والمكابر فى الأمصار والذى يحمل السلاح على المسلمين ويقصدهم فى أى موضع كان حتى كان بالغيلة. وهو الرجل يخدع الرجل والمرأة والصبى فيدخله بيتًا ويخونوا به فيقتله ويأخذ أمواله وهذا قول الأوزاعى ومالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة والشافعى. وقال بعضهم: فهو قاطع الطريق، وأما المكابر فليس بالمحارب وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بالفساد أى بالزنا والقتل إهلاك الحرث والنسل ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ﴾ اختلفوا فى حكم الآية.

فقال قوم: الإمام فيهم بالخيار فأى شىء من هذه الأشياء شاء فعل. وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب والنخعى ومجاهد ورواية الوالبى عن ابن عباس.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦) وبقوله تعالى فى كفّارة اليمين ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (المائدة: ٨٩) الآية.

وقال آخرون: هذا حكم مختلف باختلاف الجناية، فإن قتل قُتل، وإن قتل وأخذ المال قتل وصلب، وإن أخذ المال ولم يقتل قطع، وإن أخاف السبيل ولم يقتل وأخذ المال نفى. وهذا قول سعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، والنخعى والربيع. ورواية العوفى عن ابن عباس.

واختلف العلماء فى معنى النفى، فقال ابن عباس: هو حكم من أعجز فإذا أعجزك أن تدركه وخرج من لقيه، قتله.

وقال آخرون: والمقبوض عليه ثم اختلفوا فى معناه، فقال طائفة: هو أن ينفى من بلدته

إلى بلدة أخرى غيرها وهو قول سعيد بن جبير، وعمر بن عبد العزيز. وإليه ذهب الشافعى.

وقال الآخرون والحسن، وهو مذهب أبى حنيفة، وقال محمد بن الحسن: هو نفيه من بلده إلى غيره وحبسه فى السجن فى البلد الذى نُفى إليه حتى يظهر توبته وهو المختار يدل عليه ما روى ابن وهب عن أبى صيعة عن يزيد بن أبى حبيب، أن حبان بن شريح كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أن ناسًا من القبط قامت عليهم البيّنة بأنهم حاربوا الله ورسوله وسعوا فى الأرض فسادًا وأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾. وسكت عن النفى فإن رأى أمير المؤمنين أن يمضى قضاء الله فيهم فليكتب بذلك فلمّا قرأ عمر كتابه، قال: لقد اجترأ حبّان، ثم كتب: أنه بلغنى كتابك وفهمت ولقد اجترأت حين كتبت بأوّل الآية وسكت عن آخرها تريد أن تجترئ للقتل والصلب فإنك عبد بنى عقيل يعنى الحجاج فإن الله يقول: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ﴾ آخر الآية، فإن كانت قامت عليهم البيّنة فاعقد فى أعناقهم حديدًا فانفهم إلى شعب وبدا وأصل النفى الطرد.

وقال أوس بن حجر:

ينفون عن طرق الكرام كما ... ينفى المطارق ما يلى القردا

أى ما يليه القرد وهو الصوف الردىء. ومنه قيل: الدراهم الرديئة نفاية ولما تطاير من الماء عن الدلو نفى.

قال الراجز:

كأن متنيه من النفى ... مواقع الطير على الصفى

﴿ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرتم من الحد ﴿لَهُمْ خِزْىٌ﴾ عذاب وهوان ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾.

قال أكثر العلماء: إلاّ الذين تابوا من شركهم وحربهم وفسادهم وآمنوا وأصلحوا من قبل القدرة عليهم فإنه لا سبيل عليهم بشىء من الحدود التى ذكرها الله فى هذه الآية لأحد قبله فيما أصاب فى حال كفره لا فى مال ولا فى دم ولا حرمة، هذا حكم المشركين والمحاربين.

فأما المسلمون المحاربون فاختلفوا فيهم:

فقال بعضهم: سقط عنه بتوبته من قبل أن يقدر عليه حدّ الله ولا يسقط عنه بها حقوق بنى آدم وهو قول الشافعى.

وقال بعضهم: يسقط عنهم جميع ذلك ولا يؤخذ شىء من أمواله إلاّ أن يوجد عنده مال بعينه فيرده إلى صاحبه ويطلبه ولىّ دم بدم يقوم عليه البينة فيه فيقاد به، وأما الدماء والأموال

التى أصابها ولـم يطلبها أولياؤه فلا يتبعه الإمام، على هـذا قول مالك، والأوزاعى والليث بن سعد.

وقال بـعضهم: إذا استأمن من وصايانا من قبل أن يقـدم عليه قبل الله توبته ولا يؤخذ بشيء من جناياته التى سلفت فلا يكون لأحد قبله معه فى دم ولا مال.

وهـذا قول السدى يدل عليه. وروى الشـعبى أنّ حارثة بن يزيد خرج محـاربًا فى عهد على ابن أبى طالب (رضى الله عنه) فأخاف السبل وسفك الدّماء وأخذ الأموال ثم جاء تائبًا من قبل أن يقدر عليه فأتى الحسن بن علـى بن أبى طالب (رضى الله عنه) فطلب إليه أن يستأمن له فأتى ابن جعفر فأتى عليه فأتى سعيد بن قـيس الهمدانى فقبّله وضمّه إليه فلما صلّى على (رضى الله عنه) الغداة أتاه سعيد بن قيس. فقال: يا أمير المؤمنين مـا جزاء الذين يحـاربون الله ورسوله؟ قال: أن يقتلـوا أو يصلبوا أن تقـطع أيديهم وأرجلهم مـن خلاف أو ينفوا من الأرض قـال: ما تقول فـيمن تاب قبل أن يقدر عليه فقال أقول: كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

فقال سعـيد: وإن كان حـارثة بـن بدر، قـال: نعم فجـاء إليه فـبايعه وآمنه وكتب له أمـانًا منشورًا.

فقال حارثة:

ألا أبلغا همـدان إمـا لقيتها ... على النأى لا يسلم عدوٌ يعيبها

لعمر أبيها إن همــدان تتقى الإ ... له ويقضى بالكتـاب خطيبها

قال الشعبى: جاء رجل من مراد إلى أبى موسى وهو على الكوفة فى إمارة عثمان بن عفّان (رضى الله عنـه) بعدما صلّى المكتـوبة فقال: يا أبا مـوسى هذا مقام العـائذ بك أنا فلان بن فلان المهدى وإنى كـنت حاربت الله ورسوله وسعـيت فى الأرض وإنى تبـت من قبل أن يقدر علىّ، فقـام أبو موسـى فقال: إن هذا فـلان بن فلان وإنه كان يحارب الله ورسـوله وسعى فى الأرض بـفساد فـإنه تاب مـن قبل أن يقدر علـيه فمن لقـيه فلا يعرضن إلاّ بـخير فإن يك صـادقًا فـسبيله سـبيل من صـدق. وإن يك كاذبًا تدركه ذنـوبه، فأقـام الرجل فـاستأذن وأنه خـرج فأدركه الله بذنوبه فقتله.

وروى الليـث بن سعـيد عن محمـد بن إسحاق أن علـيًا الأسـدى حارب وأخـاف السبيل وأصـاب الدم والمال فطلبته الأئمّة والعـامّة فامتنع ولـم يقدر عليه حـتى جاء تائبًا وذلك أنّه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ (الزمر: ٥٣) الآية فوقف عليه، فقال: يا عبد الله

أعد فأعادها عليه فغمد سيفه ثم جاء تائبًا حتى قدم المدينة من السَّحر ثم اغتسل وأتى مسجد رسول الله ﷺ فصلّى الصبح ثم مضى إلى أبى هريرة وهو فى غمار أصحابه فلما استغفر عرفة الناس فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم علىّ جئت تائبًا من قبل أن تقدروا علىّ.

فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم فى إمرته على المدينة فى زمن معاوية، فقال: هذا علىّ جاء تائبًا ولا سبيل لكم عليه فترك، وخرج علىّ تائبًا مجاهدًا فى سبيل الله فى البحر فلقوا الروم فقربوا سفينة إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم فى سفينتهم فهربوا إلى شقها الآخر فمالت ثم أوقعهم فغرقوا جميعًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: واطلبوا إليه القربة وهى فى الأصل ما يتوصّل به إلى الشىء ويتقرّب به، يقال: وسل إليه وسيلة وتوسّل، وجمعها وسائل.

قال الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافى بيننا والوسائل

قال عطاء: الوسيلة أفضل درجات الجنة. وقال رسول الله ﷺ: «الوسيلة أفضل درجات الجنة». وقال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لى الوسيلة فإنها أفضل درجة فى الجنة لا ينالها إلاّ عبد واحد وأرجو أن أكون أنا هو».

وروى سعيد بن طريف عن الأصمعى عن على بن أبى طالب (عليه السلام) قال: «فى الجنة لؤلؤتان إلى بطنىْ العرش إحداهما بيضاء والأخرى صفراء فى كل واحد منهما سبعون ألف غرفة أبوابها وأكوابها من عرق واحد فالبيضاء. واسمها الوسيلة. لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته والصفراء لإبراهيم (عليه السلام) وأهل بيته».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: روى أنس عن النبى ﷺ قال: «يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبٌ تفتدى به فيقول: نعم، فيقال: قد سألت أيسر من ذلك».

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: قرأه العامة بفتح الياء كقوله ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: قائم.

وقرأ أبو واقدة والجرّاح: يخرجوا بضمّ الياء كقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ (المؤمنون: ١٠٧) ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٨) ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ الآية. نزلت فى طعمة بن الأبرق سارق الدرع وقد مرّت قصته فى سورة النساء.

والسبب فى وجه رفعهما. فقال بعضهم: هو رفع بالابتداء، وخبره فيما بعد. وقال

بعضهم: هو على معنى الجزاء، تقديره من سرق فاقعطوا أيديهما الآية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة. ولو أراد سارقًا وزانيًا بعينهما لكان وجه الكلام النصب.

وقال الأخفش: هو الرفع على الخبر وابتداء مضمر كأنه قال: مما يقص عليك ويوحى إليك والسارق والسارقة فاقعطوا أيديهما.

وقال أبو عبيدة: هو رفع على لغة . . . .(١) من رفع . . . .(١) فيقول: الصيد غارمه، والهلال فانظر إليه، يعنى أمكنك الصيد غارمه، وطلع الهلال فانظر إليه.

وقرأ عيسى بن عمرو: والسارق والسارقة منصوبين على إضمار اقطعوا السارق والسارقة. ودليل الرفع قراءة عبد الله، والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ومستثنًى فى هذا السارق الذى عناه الله عزّ جلّ بقطع يده وفى القدر الذى يقطع به يد السارق.

فقال قوم: يقطع إذا سرق عشرة دراهم فصاعداً، ولا يقطع فيما دون ذلك.

وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه، واحتجوا بما روى عطاء ومجاهد عن أيمن بن أم أيمن قال: يقطع السارق فى ثمن المجن وكان ثمن المجن على عهد رسول الله ﷺ ديناراً أو عشرة دراهم.

وروى أيّوب بن موسى عن عطاء عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد رسول الله ﷺ عشرة دراهم.

وروى عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال: أدنى قيمة عن المجن هو ثمن المجن عشرة دراهم.

قال سليمان بن يسار: لا يقطع الخمس إلاّ بالخمس.

واستدل بما روى سفيان عن عبد الله أن النبى ﷺ: قطع فى قيمة خمسة دراهم.

وروى سفيان عن عيسى عن الشعبى عن عبد الله أن النبى ﷺ قطع فى خمسة دراهم.

وروى شعبة عن داود بن فراهج قال: سمعت أبا هريرة وأبا سعيد الخدرى قالا: تقطع الكف فى أربعة دراهم فصاعداً، ولا تقطع فى ثلاثة دراهم فصاعداً.

واحتج بما روى عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع سارقًا فى مجن ثمنه ثلاثة دراهم فقال بعضهم: يقطع فى ربع دينار فصاعداً، وهو قول الأوزاعى، والشافعى وإسحاق الحنظلى وأبو ثور. واحتجوا بما روى سفيان عن الزهرى عن حمزة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «يقطع فى ربع دينار فصاعداً».

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وروى أبو بكر بن محمد عن عمر عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلاّ فى ربع دينار فصاعدًا».

وقال بعضهم: يقطع سارق القليل والكثير، ولو سرق دانق، وهو قول ابن عباس، قال: لأن الآية عامّة ليست خاصّة.

وقول الزبير: يروى أنه يقطع فى درهم وحجة هذا المذهب ما روى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده».

وروى ثوبان أنّ النبى ﷺ أُتى بسارق سرق شملة قال: أسرقت؟ ما أخالك سرقت؟ قال: نعم. قال: اذهبوا به فاقطعوه. ثم ائتونى به، ففعل فقال: «ويحك تُب إلى الله».

فقال: اللّهم تُب عليه، ثم اختلفوا فى كيفية القطع: فقال عمرو بن دينار: كان النبى ﷺ يقطع اليد من الكوع وكان يقطع من المفصل وكان على يقطع الكف من الأصابع والرجل من شطر القدم.

فإذا قطع ثم عاد إلى السرقة فهل يقطع أم لا؟ قال أهل الكوفة: لا تقطع واحتجّوا بحديث عبد خير، قال: أتى على سارق فقطع يده ثم أتى وقطع رجله ثم أتى فضربه وحبسه وقال: إنى لأستحى أن لا أدع له يدًا يستنجى بها ولا رجلاً يمشى بها. وقال أهل الحجاز: يقطع، وكان قد احتجوا فى ذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ على الإجماع.

ويروى حماد بن سلمة عن يوسف بن سعد عن الحارث بن حاطب أن رسول الله ﷺ أُتى بلصّ فقال: «اقتلوه» فقالوا: يا رسول الله إنما سرق، قال: «اقتلوه» قالوا: يا رسول الله إنما سرق، قال: «اقطعوا يده». قال: ثم سرق فقطعت رجله ثم سرق على عهد أبى بكر حتى قطعت قوائمه كلها ثم سرق أيضًا الخامسة فقال أبو بكر: كان رسول الله ﷺ أعلم بهذا حين قال اقتلوه، ثم دفعوه إلى قبيلة من قريش ليقتلوه فى عهد عبد الله بن الزبير وكان يحب الإمارة فقال: أمّرونى عليكم فأمّروا عليه فكان إذا ضرب ضربوا حتى قتلوه.

ثم إذا قطع السارق فهل يغرم السرقة أم لا؟ فقال سفيان وأهل الكوفة: إذا قطع السارق فلا يغرم عليه إلاّ أن يعيد المسروق فيعيدها إلى صاحبها.

وروى المسور بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «لا يغرم صاحب السرقة إذا أُقيم عليه الحد» قيل: هذا حديث مرسل أنس بن ثابت، وقال الزهرى ومالك: إذا كان السارق موسرًا غُرّم.

وقال الشافعى : ثم يغرّم قيمة السرقة معسراً كان أو موسراً .

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ : نصب جزاء على الحال والقطع قاله الكسائى . وقال قطرب : على المصدر ومثله ﴿نَكَٰلًا﴾ أى عقوبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : ما سرق سارق سرقة إلاّ نقص من رزقه المكتوب له ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أى سرقته ، نظيره فى سورة يوسف ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (يوسف : ٧٥) أى السارقين ﴿وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾ هذا ما بينه وبين الله تعالى فأما القطع فواجب . يدل عليه ما روى يحيى بن عبد الله عن أبى عبد الرحمن الحنبلى عن عبد الله ابن عمرو : أنّ امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها الذين سرقتهم . فقالوا : يا رسول الله إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها : فنحن نفديها بخمسمائة دينار ، فقال رسول الله : «اقطعوا يدها» فقطعت يدها اليمنى ، فقالت المرأة هل لى من توبة ؟ .

قال : «نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك» . فأنزل الله فى سورة المائدة ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ الآية .

معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبى ﷺ بقطع يدها فأتى أهلها أسامة فكلمته وكلم أسامة النبى ﷺ فيها فقال له النبى : «يا أسامة لا أزال تكلمنى فى حدّ من حدود الله» ثم قام النبى ﷺ خطيبًا فقال : «إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» .

قال : فقطع يد المخزومية ، وكان الشعبى وعطاء يقولان : إذا ردّ السرقة قبل أن يقدر عليه لم يقطع لقوله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْۖ﴾ الآية ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ .

قال السدّى والكلبى : يعذب من يشاء منهم من مات على كفره ويغفر لمن يشاء من تاب من كفره .

وقال الضحّاك : يعذب من يشاء على الصغير إذا قام عليه ويغفر لمن يشاء على الكبير إذا نزع عنه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وقرأ السلمي يسارعون في الكفر أي في هؤلاء الكفار ومظاهرتهم فلم يعجزوا الله ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون نظيره قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يعني قوّالين به يعني بني قريظة ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يعني يهود خيبر وذلك عين ما قاله أهل التفسير وذلك أن رجلاً وامرأة من أشراف أهل خيبر زنيا، واسم المرأة بسرة وكانت خيبر حربًا لرسول الله ﷺ وكان الزانيان محصنين، وكان حدّهما الرّجم في التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فقالوا: إن هذا الرجل النبي بيثرب ليس في كتابه الرّجم ولكنه الضرب فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم صلح له وجيرانه، فليسألوه، فبعثوا رهطًا منهم مستخفين. فقالوا لهم: سلوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدهما فإن أمركم بالجلد فاقبلوا منه وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه وأرسلوا الزانيين معهم فقدم الرهط حتى نزلوا على قريظة والنضير، فقال لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده، وقد حدث فينا حدث زنيا وقد أحصنا فيجب أن تسألوا لنا محمداً عن قضائه، فقال لهم بنو قريظة والنضير: إذاً والله يأمركم بما تكرهون من ذلك ثم انطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وسعد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وعباس بن قيس وأبو نافع وأبو يوسف وعازار وسلول إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدّهما وكيف تجد في كتابك؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «وهل ترضون قضائي في ذلك؟».

قالوا: نعم، فنزل جبرئيل بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبرئيل:

اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له، فقال النبى ﷺ: «هل تعرفون شابًا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا» قال: فأى رجل فيكم؟.

قالوا: هو أعلم يهودى بقى على ظهر الأرض بما أنزل الله تعالى على موسى فى التوراة، قال: أرسلوا إليه، ففعلوا فأتاهم عبد الله بن صوريا، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت ابن صوريا؟» قال: نعم، قال: «فأنت أعلم اليهود؟»، قال: كذلك يزعمون، قال: «أتجعلونه بينى وبينكم؟» قالوا: نعم قد رضينا به إذ رضيت به، فقال له رسول الله ﷺ: «فإنى أنشدك بالله الذى لا إله إلاّ هو القوى إله بنى إسرائيل الذى أنزل التوراة على موسى الذى أخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذى ظلل الغمام فأنزل عليكم المنّ والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه فهل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن».

قال ابن صوريا: نعم والذى ذكرنى به لولا خشيت أن تحرقنى التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعترفت لك ولكن كيف هو فى كتابك يا محمد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم». قال ابن صوريا: والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فقال له رسول الله ﷺ: «فماذا كان أوّل ما ترخصتم به أمر الله؟».

قال: كنّا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد وكثر الزنا فى أشرافنا حتى زنا ابن عم ملك لنا فلم نرجمه ثم زنا رجل آخر فى أسوة من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه، فقال والله لا ترجمون حتى يرجم فلانًا ابن عم الملك. فقال: تعالوا نجتمع فلنضع شيئًا دون الرجم يكون مكان الرجم فيكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلى بالقار ثم يسوّد وجوههما ثم يحملان على حمارين فحوّل وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما فجعلوا هذا مكان الرجم. قال اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به وما كنت لما اتهمتنا عليك بأهل، ولكنّك كنت غائبًا فكرهنا أن نغتابك فقال لهم: نشدنى التوراة لولا ظننت التوراة أن تهلكنى لما أخبرته به، فأمر بهما النبى ﷺ فرجما عند باب مسجده، وقال: «أنا أول من أحيا أمره إذ أماتوه».

قال عبد الله بن عمر: شهدت رسول الله ﷺ لما أمر برجم اليهوديين فرأيته حنا عليها ليقيها الحجارة ونزلت ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

﴿ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ (المائدة: ١٥) فلا يخبركم به، فوضع ابن صوريا يده على ركبة رسول الله ﷺ وقال: أنشدك بالله وأُعيذك بالله أن تخبرنا بالكثير الذى أمرت أن تعفو عنه فأعرض رسول الله ﷺ عنه فقال له ابن صوريا: أخبرنى عن ثلاث خصال أسألك عنهنّ، قال: ما هى؟ قال: أخبرنى عن نومك، فقال النبى ﷺ: «تنام عيناى وقلبى يقظان» قال له: صدقت، فأخبرنى عن شبه الولد بأبيه ليس فيه من شبهه أمه شىء أو شبهه أمه فيه ليس فيه من شبهه أبيه شىء، قال: «أيّهما علا وسبق ماؤه ماء صاحبه، كان الشبه له» قال له: صدقت، فأخبرنى ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ قال: فأغمى على رسول الله ﷺ طويلاً ثم خلى عنه محمرًا وجهه يفيض عرقًا فقال ﷺ: «اللحم والدّم والظفر والشعر للمرأة والعظم والعصاب والعروق للرجل» قال له: صدقت أمرك أمر نبى فأسلم ابن صوريا عند ذلك وقال: يا محمد من يأتيك من الملائكة؟ قال: جبرئيل.

قال: صفه لى، فوصفه له النبى ﷺ فقال: أشهد أنه فى التوراة كما قلت وأنّك رسول الله حقًا فلما أسلم ابن صوريا وقعت فيه اليهود وشتموه فلما أراد أن ينهضوا تعلقت بنو قريظة ببنى النضير، فقالوا: يا محمد إخواننا بنو النضير أبونا واحد وديننا واحد ونبيّنا واحد إذا قتلوا منا قتيلاً لم يفدونا وأعطونا ديته سبعين وسقًا من تمر وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقًا من تمر وإن كان القتيل امرأة. يفدوا بها الرجل، وبالرجل منهم الرجلين منّا، وبالعبد منهم الحرّ منّا، وجراحتنا بالنصف من جراحتهم فأمعن بيننا وبينهم، فأنزل الله تعالى فى الرجم والقصاص ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ﴾ رفع الخبر بحرف الصفة يعنى ومن الذين هادوا فهم سمّاعون، وإن شئت جعلته خبر ابتداء مضمر أى فهم سمّاعون للكذب، وقيل: اللام بمعنى إلى.

كان أبو حاتم يقول: اللام فى الكذب لام كى يسمعون لكى يكذبوا عليك. واللام فى قوله لام أجل من أجل قوم آخرين: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهم أهل خيبر ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ جمع الكلمة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أى من بعد وضعه مواضعه كقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ (البقرة: ١٨٩) الله وإنما ذكر الكتابة ردًا إلى اللفظ وهو الكلم. وقرأ على: يحرّفون الكلام من بعد مواضعه ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أى إن أفتاكم محمد بالجلد والرجم فاقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ كفره وضلالته.

قال مجاهد: دليله قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال: ٣٩) الآية.

وقال الضحّاك: هلاكه، قتادة: عذابه نظيره ولم يأمرهم على من يؤمنون ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ أى بالهداية على القدرة ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ﴾ للمنافقين الفضيحة وهتك الستر وخوف القتل، ولليهود الجزية والقتل والسبى، .... [1] عن محمد (عليه السلام) وأصحابه وفيهم ما يكرهون ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الخلود فى النار.

﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾: فيه أربع لغات: السُّحت بضم السين والحاء وهى قراءة أهل الحجاز والبصرة، واختار الكسائى: سَحت مخففة وهى قراءة أهل الشام وعاصم وحمزة وخلف. والسَّحت بفتح السين وجزم الحاء وهى رواية العباس عن نافع، والسُّحت بضم السين وجزم الحاء وهى قراءة عبيد بن عمير وهو الحرام. قال رسول الله ﷺ: «كل لحم نبت من السحت فالنار أولى به» وأصله ما أشدّ أشدّه، وقال الله تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ﴾ (طه: ٦١).

قال الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلاّ مسحتًا أو مجلف

قال: من تخلّف إذا استأصل الشجر سحت.

وقال الفراء: أصله كلب الجوع، فيقال: رجل سحوت المعدة إذا كان أكولاً لا يُلقى أبدًا إلا جائعًا، فكأن بالمسترشى وآكل الحرام من الشره إلى ما يعطى مثل الذى بالمسحوت المعدة من النهم. ونزلت هذه الآية فى حكام اليهود، كعب بن الأشرف وأمثاله كانوا يرتشون ويفضلون لمن رشاهم.

وروى أبو عقيل عن الحسن: فى قوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾ قال: تلك الحكام تسمع كذبًا وتأكل رشوة.

وعنه فى غير هذه الرواية. قال: كان الحاكم منهما إذا أتى أحد برشوته جعلها بين يديه فينظر إلى صاحبها ويتكلم معه ويسمع منه ولا ينظر إلى خصمه فيأكل الرشوة ويسمع الكذب، وعنه أيضًا قال: إنما ذلك فى الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقًا فأما أن يعطى الرجل الوالى يخاف ظلمه شيئًا ليدرأ به عن نفسه فلا بأس.

والسحت هو الرشوة فى الحكم على قول الحسن. ومقاتل وقتادة والضحّاك والسدّى.

وقال ابن مسعود: هو الرشوة فى كل شىء.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال مسلم بن صبيح: صنع مسروق لرجل فى حاجة فأهدى له جارية فغضب غضبًا شديدًا، وقال: لو علمت أنّك تفعل هذا ما كلّمت فى حاجتك، ولا أكلم لما بقى من حاجتك، سمعت ابن مسعود يقول: من يشفع شفاعة ليرد بها حقًا أو ليدفع بها ظلمًا فأهدى له فقبل فهو سحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما كنّا نرى ذلك إلاّ الأخذ على الحكم، قال: الأخذ على الحكم كفر. قال الله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقال أبو حنيفة: إذا ارتشى الحاكم انعزل فى الوقت وإن لم يُعزل.

وقال عمر وعلى وابن عباس رضى الله عنهم: السحت خمسة عشر: الرشوة فى الحكم ومهر البغى وحلوان الكاهن، وثمن الكلب والقرد والخمر والخنزير والميتة والدم وعسيب الفحل وأجر النائحة والمغنية والقايدة والساحر وأجر صور التماثيل وهدية الشفاعة.

وعن جعفر بن كيسان قال: سمعت الحسن يقول: إذا كان لك على رجل دين فما أكلت فى بيته فهو سحت. وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنة الله على الراشى والمرتشى».

قال الأخفش: السحت كل كسب لا يحل.

ثم قال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ خير الله سحته بقوله فى الحكم بينهم إن شاء حكم وإن شاء ترك.

واختلفوا فى حكم هذه الآية هل هو ثابت وهل للحكّام اليوم من الخيار فى الحكم من أهل الذّمة إذا اختلفوا إليهم، مثل ما جعل الله لنبيه ﷺ أم منسوخ؟

فقال أكثر العلماء: هو حكم ثابت لم ينسخه شيء وحكام الإسلام بالخيار وذلك إن شاءوا بين أهل الكتاب وجميع أهل الذّمة، فإن شاءوا أعرضوا ولم يحكموا بينهم وإن حكموا يحكموا بحكم أهل الإسلام. هو قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة: ٣٣) هو جريان حكمنا عليهم. وهذا قول النخعي والشعبى وعطاء وقتادة. وقال آخرون هو منسوخ نسخه قوله تعالى ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩) وإليه ذهب الحسن ومجاهد وعكرمة والسدّى، وروى ذلك ابن عباس قال: لم ينسخ من المائدة إلاّ هاتان الآيتان وقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٢) نسختها ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة: ٥) وقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ نسختها ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩).

فأما إقامة الحدود عليهم فأهل العراق يرون إقامة الحدود عليهم إلاّ أنهم لا يرون الرجم

وقالوا: لأنهم غير محصنين وتأولوا رجم النبى ﷺ اليهوديين أنه رجمهما بكتابهم التوراة لما اتفقوا على رضاهم بحكم التوراة ثم أنكروا الرجم، فكان فى التوراة فأخفوا وأظهر رسول الله ﷺ من ذلك ما كتموه. وأهل الحجاز لا يرون إقامة الحدود عليهم ويظهرون إلى أنهم صولحوا على شركهم. وهو أعظم من الحدود التى يأتون وتأولوا رجم النبى ﷺ اليهوديين أن ذلك قبل أن يؤخذ عنهم الجزية إلاّ أن على الإمام أن يمنعهم من المظالم والفساد فأما إذا كان أحد الطرفين مسلمًا مثل أن يزنى رجل من أهل الذمّة بمسلمة أو سرق من مسلم أقيم عليه الحد وحكم عليه بحكم الإسلام ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أى بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العاملين.



﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦﴾

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ تعجّب وفيه اختصار أى: وكيف يجعلونك حاكمًا ويرضون بمحمد ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ وهو الرجم فلا يرضون بذلك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: إلى قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: فإن قيل: وهل فينا غير مسلم؟ فالجواب أن هؤلاء نبيو الإسلام لا على أن غيرهم من النبيين لم يتولوا المسلمين وهذا كقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ (الفتح: ٢٩) ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٥٨) لا يريد أن غيره من الأنبياء لم يؤمنوا بالله وكلماته. وقيل: لم يرد به الإسلام

الذى هو ضد الكفر. وإنما المراد به الذين انقادوا لحكم الله فلم يكتموه كما كتم هؤلاء، يعرّض بأهل الكتاب.

وهذا كقوله ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ٨٣).

وقال يزيد بن عمرو بن نفيل: أسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالاً، وأسلمت وجهى لمن أسلمت له العيون تحمل عذبًا زلالاً. وقيل: معناه الذين أسلموا أنفسهم إلى الله. كما روى أن النبى ﷺ كان يقول إذا أوى إلى فراشه: «أسلمت نفسى إليك».

وقيل: معناه: يحكم بها النبيون الذين أسلموا بما فى التوراة من الشرائع ولم يعمل به كمثل عيسى (عليه السلام) وهو قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) وهو معنى قول ابن حيان يحكم بما فى التوراة من لدن موسى إلى عيسى عليهما السلام.

وقال الحسن والسّدى أراد محمداً ﷺ حكم على اليهود بالرجم وذكره بلفظ الجمع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠) وقال: أم تحسدون الناس فى الحياة ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ يعنى العلماء وهم ولد هارون (عليه السلام) وأحدهم محبر وحبر وهو العالم المحكم للشيء ومنه الكعب بن قانع كعب الأحبار وكعب الحبر.

قال الفراء: أكثر ما سمعت العرب تقول فى واحد الأحبار بكسر الحاء واختلفوا فى اشتقاق هذا الاسم.

فقال الكسائى وأبو عبيدة: هو من الحبر الذى يكتب به. وقال النضر بن شميل: سألت الخليل عنه، فقال: هو من الحبار وهو الأثر الحسن. فأنشد:

لا تملأ الدلو وعرق فيها ألا ترى حبّار من يسقيها

قال قطرب: هو من الحبر وهو الجمال والهيئة يدل عليهم قول النبى ﷺ: «يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره». أى جماله وبهاؤه.

وقال العباس لرسول الله ﷺ: يا ابن أخى فيم الجمال؟ قال: «فى اللسان».

وقال مصعب بن الزبير لابنه: يا بنى تعلم العلم فإن كان لك مال كان جمالاً وإن لم يكن عندك مال كان لك مالاً، ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ استودعوا ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ إنه كذلك ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ إلى قوله ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ واختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها.

فقال الضحّاك وأبو إسحاق وأبو صالح وقتادة: نزلت هذه الآيات الثلاث فى اليهود وليس فى أهل الإسلام منها شيء فأما هذه الأمّة فمن أساء منهم وهو يعلم أنه قد أساء وليس بدين.

يدلّ على صحة هذا التأويل. ما روى الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن البرّاء بن عازب عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ والظالمون والفاسقون. قال: كلها في الكافرين.

وقال النخعي والحسن: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضًى لهذه الأمة بها فهي على الناس كلّهم واجبة.

عن ابن عباس وطاوس ليس بكفر ينقل عن الملة بل إذا فعل ذلك وهو به كفر، وليس كمن يكفر بالله واليوم الآخر.

عطاء: هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق.

عكرمة: معناه ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر. ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وهذه رواية الوالبي عن ابن عباس قال: وسمعت أبا القاسم الحبيبي، قال: سمعت أبا زكريا العنبري، يحكي عن عبد العزيز بن يحيى الكناني أنه سئل عن هذه الآيات، قال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق.

فأما من يحكم ببعض ما أنزل الله من التوحيد وترك الشرك ثم لم يحكم بهما فيما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات.

قالت الحكماء: هذا إذا ردّ بنص حكم الله عيانًا عمداً، فأما من جهله أو أخفى عليه أو أخطأ في تأويل ابتدعه أو دليل اتّجه له فلا، وأجراها بعضهم على الظاهر.

وقال ابن مسعود، والسدّي: من ارتشى في الحكم وحكم فيه بغير حكم الله فهو كافر ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي وأوحينا في بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلمًا ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ بقلعها ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ يجدع به ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ يقطع به أذنه.

﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ يقلع به وسائر الجوارح قياس على العين والأنف والأذن ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وهذا مخصوص فيما يمكن القصاص فيه، فأما ما كان من هيضة لحم أو هيضة عظم ويعده ركن لا يحيط العلم به وقياس أو حكومة.

واختلف الفقهاء في هذه الآية، فقرأ الكسائي: ﴿ وَٱلْعَيْنَ﴾ رفعًا إلى آخره. واختار أبو عبيد لما روى ابن شهاب عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأه ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ نصبًا، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص، كله رفع.

وأما أبو جعفر وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو فكانوا يرفعون الجروح وينصبون سائرها. وقتادة، أبو حاتم قالوا: لأن لهما نظائر فى القرآن قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: ٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾ (الجاثية: ٣٢).

وقرأ نافع وعاصم والأعمش وحمزة ويعقوب بالعطف كلها نصبًا ودليلهم قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وأن العين بالعين وأن الأنف بالأنف وأن الأذن بالأذن فإن الجروح قصاص.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ اختلفوا فى الهاء فى قوله ﴿به﴾، فقال قوم: هى كناية عن المجروح وولى القتيل، ومعناه فمن تصدّق به فهو كفّارة له، للمتصدق يعدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدّق.

وهو قول عبد الله بن عباس والحسن والشعبى وقتادة وجابر بن زيد، دليل هذا القول لحجة ما روى الشعبى عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدّق عن جسده بشىء كفّر الله عنه بقدر ذلك من ذنوبه».

وروى وكيع عن يوسف بن أبى إسحاق عن أبى السهر قال: كسر رجل من قريش سنّ رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية، فقال القريشى: إن هذا داق سنى.

قال معاوية: كلا أما تسترضيه، فلمّا ألحَّ عليه الأنصارى، قال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس.

فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيتصدّق به إلاّ رفعه الله به درجة وحطّ به عنه خطيئة».

فقال الأنصارى: أأنت سمعت بهذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم سمعته أُذناى ووعاه قلبى فعفى عنه.

وروى عوف عن علقمة بن وائل الحضرمى عن أبيه قال: جىء بالقاتل الذى قتل إلى رسول الله ﷺ جاء به ولى المقتول، فقال رسول الله ﷺ: «أتعفو؟» قال: لا، قال: «أتأخذ الدية؟» قال: لا قال: «القتل»، قال: نعم قال اذهب فذهب فدعاه فقال: «أتعفو؟» قال: لا، قال: «أتأخذ الدية؟» قال: لا، قال: «القتل»، قال: نعم، قال: «اذهب»، فلما ذهب قال: «أما لك إن عفوت فإنه يبوء بإثمك، وإثم صاحبك». قال: فعفى عنه فأرسله ورأيته وهو يجر شسعيه.

وروى عمران عن عدى بن ثابت الأنصارى قال: طعن رجل رجلاً على عهد معاوية،

فأعطوه ديتين على أن يرضى. فلم يرضَ وأعطوه ثلاث ديات فلم يرض.

وحدث رجل من المسلمين عن النبي ﷺ أنه قال: «من تصدّق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولد إلى يوم تصدق».

وعن عمر بن نبهان عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء وتزوج من الحور العين حيث شاء من أدى دينًا خفيًا وعفا عن قاتل وقرأ دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات ﴿قل هو الله أحد﴾.

قال أبو بكر: وإحداهن يا رسول الله؟ قال: وإحداهن.

وقال آخرون: عنى بذلك الجارح والقاتل، يعني إذا عفا المجني عليه عن الجاني فعفوه عن الجاني كفّارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة كما أن القصاص كفّارة له كما أن العافي المتصدق فعلى الله تعالى، قال الله تعالى ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠) وهذا قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم، وروى ذلك عن ابن عباس. والقول الأوّل أجود لأنّه ربما تصدّق من عليه ولم يتب الخارج من فعله فإنه كفّارة له والدليل عليه قراءة أُبي: فمن تصدّق به فهو كفّارة له. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾: على آثار النبيين المسلمين للتوراة العالمين به ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ قرأه العامة مجزوم اللام والميم على الأمر، وحمزة: بكسر اللام وفتح الميم أى ولكى يحكم أهل الإنجيل.

مقاتل بن حيّان: أمر الله تعالى الأحبار والربانيين أن يحكموا بما فى التوراة وأمر القسّيسين والرهبانيين أن يحكموا بما فى الإنجيل فكفروا وكذبوا بمحمد ﷺ وقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمر الله، وقال ابن زيد: الكاذبون. نظيره قوله ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ (الحجرات: ٦) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أى الكتب ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أى شاهداً. قال السدّى والكسائى: وهى رواية الوالبى عن ابن عباس، قال حسان:

إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب

أى مصدق.

وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة: مؤمنًا وهى رواية أبى إسحاق عن التميمى عن ابن عباس، الحسن: أمينًا وهى رواية العوفى عن ابن عباس ومعنى أمانة القرآن ما قال ابن جريج: القرآن أمين على ما قبله من الكتب فيما أخبر أهل الكتاب فى كتابهم بأمر فإن كان فى القرآن فصدّقوا وإلاّ فكذّبوا، المبرد: أصله مؤيمن فقلبت الهمزة هاء كما قيل: أرقت الماء وهرقت، ولمّا ينثر عن الرأس عند الدلك أبرية وهبرية ونهاة وهيهات. وأتاك وهياك فهو مبنى آمن أمين كما بيطر ومبيطر من بيطار.

قال النابغة:

❖ شك المبيطر إذ شفا من العضد ❖

وقال الضحّاك: ماضيًا، عكرمة: دالاً عليه، ابن زيد مصدّقًا، الخليل: رقيبًا وحافظًا، يقال: هيمن فلان على كذا إذا شاهده وحفظه.

قلت: سمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت المنصور بن محمد بن أحمد بن منصور البستى يقول: سمعت أبا عمر محمد بن عبد الواحد اللغوى يقول: تقول العرب: الطائر إذا جعل يطير حول وكره وخاف على فرخه صيانة له، هيمن الطائر مهيمن. وكذلك يقول للطائر إذا أرخى جناحيه فألبسهما بيضه وفرخه مهيمن. وكذلك جعل اختباؤه ومنه قيل: الله تعالى المهيمن كان معناه الرقيب الرحيم. قال: ورأيت فى بعض الكتب أنها بلغة العجمانية فعرّبت، وقرأ عكرمة: هيمن ومهيمن. بقولهم الملوك ﴿فَٱحْكُم﴾ يا محمد ﴿بَيْنَهُم﴾ بين أهل الكتاب، إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالقرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

﴿وَمِنْهَاجًا﴾ ، أى سبيلاً وسنّة وجمع الشرعة الشرع وكل ما شرعه فيه فهو شرعة وشريعة، ومنه شريعة الماء ومشرعته، ومنه شرائع الإسلام شروع أهلها فيها، ويقال: من شرع شرعًا إذا دخلوا فى أمر وساروا به. والمناهج والمنهج والنهج الطريق البين الواضح.

قال الراجز:

من يك فى شك فهلا ولج فى طريـــــق المهـــج

قال المفسرون: عنى بذلك جميع أهل الملل المختلفة جعل الله لكل أهل ملة شريعة ومنهاجًا، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، يحل فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، والدين واحد والشرائع مختلفة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كلّكم ملّة واحدة ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم وهو أعلم وقد مضى معنى الابتلاء ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الكتب وبين لكم من السنن فبين المطيع من العاصى والمواظب من المخالف ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فبادروا بالطيّبات والأعمال الصالحات ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

قال ابن عباس: قال كعب بن لبيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قبيص بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنّا أعيان اليهود وأشرافهم وإنّا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى إما عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ وأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أى فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يجعل لهم العقوبة فى الدنيا ببعض ذنوبهم أى شؤم عصيانهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ : يعنى اليهود ﴿لَفَٰسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ : قرأ ابن عامر بالتاء، وفى الباقون بالياء.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ : الآية.

❖ ❖ ❖

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ

فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ۝٥٣ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝٥٦﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾: اختلفوا في نزول هذه الآية، فإن كان حكمها عامًا لجميع المؤمنين.

فقال العوفى والزهرى: لما انهزم أهل بدر، قال المسلمون لأوليائهم من اليهود اهربوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر. فقال مالك بن الصيف: أغرّكم أن أصبتم رهطًا من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقتلونا.

فجاء عبادة بن الصامت الخزرجى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لى أولياء من اليهود كثير عددهم، قويّة أنفسهم، شديدة شوكتهم كثير سلاحهم وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وولاية اليهود، ولا مولى لى إلا الله ورسوله، قال عبد الله بن أُبى: لكنى لا أبرأ من ولاية اليهود لأنى أخاف الدوائر ولا بد لى منهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الحباب ما نفست من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه» قال: قبلت فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. قال السدى: لما كانت وقعة أحد اشتد على طائفة من الناس وتخوفوا أن يدل عليهم الكفار.

فقال رجل من المسلمين: أما أنا فألحق بدهلك اليهودى وأخذ منه أمانًا فإنى أخاف أن يدل علينا اليهود.

وقال رجل آخر: أما أنا فألحق بفلان النصرانى ببعض أهل الشام فآخذ منه أمانًا وأنزل الله هذه الآية ينهاهما.

وقال عكرمة: نزلت فى أبى لبانة بن عبد المنذر حين قال للنبى ﷺ إذا رضوا بحكم سعد إنه الذبح ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فى العون والنصرة، ويدهم واحدة على المسلمين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ : فيوافقهم على دينهم ويعينهم ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ : يقول ابن سيرين : عن رجل يبيع داره من النصارى ، يتخذونها بيعة فتلا هذه الآية ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية ، يعنى عبد الله بن أُبى وصحبه من المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود ويصانعونهم ويناصحونهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أى فى موالاتهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ دولة يعنى أن يدور الدهر فنحتاج إلى نصرهم إيّانا فنحن نواليهم بذلك .

قال الراجز :

يرد عنك القدر المقـدورا ودائرات الدهر أن تدورا

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ : أى القضاء وقيل : النصر . وقال السدى : فتح مكّة .

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ﴾ : يعنى هؤلاء المنافقين ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ : وحينئذ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ : اختلف القرّاء فيه :

فقرأ أهل الكوفة : (ويقول) بالواو والرفع على الاستئناف وقرأ أهل البصرة : (ويقول) نصبًا والواو عطفًا على ﴿أن يأتى﴾ وقرأ الباقون : رفع اللام وحذف الواو ، وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ﴾ وقرأ أهل المدينة والشام يرتدد بدالين على إظهار التخفيف ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ فيرجع إلى الكفر وهذا إعجاز للقرآن وللمصطفى ﷺ إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك فى عهده وكان عهده وكان على ما أخبره بعد مدّة ، وأهل الردّة كانوا أحد عشر قومًا ثلاثة على عهد رسول الله ﷺ فى آخر عمره وسبعة على عهد أبى بكر وواحد فى عهد عمر .

فأما الثلاثة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ فمنهم بنو مذحج ورئيسهم ذو الخمار عيهلة بن كعب القيسى فلقّب بالأسود وكان كاهنًا مشعبذًا فتنبأ باليمن وكان (عليه السلام) ولّى باذان اليمن بجميع نواحيها وكان أوّل من أسلم من ملوك العجم وأول أمير لبلاد اليمن فى الإسلام فمات ، وولى رسول الله مكانه شهرًا فقتل الأسود الكذاب شهر بن باذان وتزوج امرأته لباد واستولى على بلاد اليمن وأخرج عمّال رسول الله ﷺ منها ، وكتب عليه إلى معاذ ابن جبل ومن معه من المسلمين ، وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسّك بدينهم والنهوض إلى حرب الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، وكتب (عليه السلام) بمثل ذلك إلى حمير من سادات اليمن عامر ابن سهو ، وذى رود وذى مران وذى الكلاع وذى ظلم ففعلوا ما أمرهم رسول الله ﷺ وقاموا بحرب الأسود حتى أهلك الله الأسود على يدى فيروز الديلمى ، وذلك أنه رماه وقتله على رأسه .

قال ابن عمر: أتى الخبر النبى ﷺ من السماء الليلة التى قتل فيها العنسى.

فقال (عليه السلام): قتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك، قيل: ومن هو؟ قال: فيروز: فاز فيروز فبشر أصحابه اليوم بهلاك الأسود وقبض رسول الله ﷺ من أخذ وأتى خبر مقتل العنسى المدينة فى آخر شهر ربيع الأول بعد مخرج أسامة وكان ذلك أول فتح أتى أبا بكر، والفرقة الثانية: بنو حنيفة واليمامة، ونبيهم مسيلمة الكذّاب، وكان تنبأ فى حياة رسول الله ﷺ فى آخر سنة عشر وزعم أنه أشرك مع محمد فى النبوة.

فكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك، وبعث بذلك رجلين من أصحابه الرجال بن شهب والحكم بن الطفيل وكان من سادات أهل اليمامة، فقال لهما رسول الله: «أتشهدان أن مسيلمة رسول الله؟ قالا: نعم، فقال: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما». ثم أجاب: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، أما بعد ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

ومرض رسول الله ﷺ وتوفى، وجعل مسيلمة يعلو أمره باليمامة يومًا بعد يوم، فبعث أبو بكر (رضى الله عنه) خالد بن الوليد إليه فى جيش كثير حتى أهلكه الله على يدى وحشى غلام مطعم بن عدى الذى قتل حمزة بن عبد المطلب بعد حرب صعب شديد وكان وحشى: يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية وقتلت شر الناس فى الإسلام.

والفرقة الثالثة: بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد وكان طليحة آخر من ارتدّ فادعى النبوة فى حياة رسول الله ﷺ، وأول من قُتل بعد وفاته (عليه السلام) من أهل الردة، فعسكر واستكشف أمره فبعث إليه أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) خالد بن الوليد فهزموهم بخالد بعد قتال شديد وأفلت طليحة ومرّ على امرأته هاربًا نحو الشام فلجأ إلى بنى جفنة فأجاروه ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، فهذه الثلاث الذين ارتدّت على عهد رسول الله ﷺ وأما السبعة الذين ارتدّوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فى خلافة أبى بكر (رضى الله عنه)، لما مات رسول الله عليه السلام شمتت اليهود والنصارى وأظهر النفاق من كان يخفيه وماج الناس وكثر القيل والقال. وارتدت العرب على أعقابها، فارتدت فزار ورأسوا عليهم عيينة بن عين ابن بدر، وارتدت غطفان، وأمّروا عليهم قرّة بن سلمة القسرى، وارتدت بنو سليم ورأسوا عليهم النجاخ ابن عبد ياليل، وارتدت بنو يربوع ورأسوا عليهم مالك بن نويرة. وارتدت طائفة أخرى من بنى تميم ورأسوا امرأة منهم يقال لها: سجاح بنت المنذر وادّعت النبوّة ثم إنها

زوّجت نفسها من مسيلمة الكذّاب.

وارتدت كندة ورأسوا على أنفسهم الأشعث بن قيس. وارتدت بنو بكر بن وائل بأرض البحرين ورأسوا عليهم الحطم بن زيد فلقى الله أمر هؤلاء المرتدين ونصر دينه على يدى أبى بكر (رضى الله عنه) وأما الذى كان على عهد عمر (رضى الله عنه) رأسهم الغانى وأصحابه، وأخبار أهل الردة مشهورة فى التواريخ مسطورة يطول بذكرها الكتاب.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال على بن أبى طالب والحسن وقتادة: هم أبو بكر وأصحابه، مجاهد: هم أهل اليمن، وقال غياض بن غنم الأشعرى: لما نزلت هذه الآية أومى رسول الله ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى فقال: هم قوم هذا.

قال النبى عليه الصلاة والسلام: «أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبًا وأرق أفئدة الإيمان يمانى والحكمة يمانية».

الكلبى: هم أحياء من اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من سائر الناس فجاهدوا فى سبيل الله بالقادسية.

السدى: هم الأنصار، ويروى أنّ رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فضرب يده على عاتق سلمان الفارسى فقال: هذا وذووه، ثم قال: «لو كان الدين معلقًا بالثريا لناله من أبناء فارس».

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يعنى أرقاء رحماء، كقوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٤) وقيل: هو من الذل، من قولهم دابّة ذلول بينة الذل يعنى أنهم متواضعون كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أى أشداء غلظاء من قول العرب عز جانبه عزاً.

وقرأ ابن مسعود: (أذلةً على المؤمنين) غلظًا على الكفّار بالنصب على الحال.

وقال عطاء: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كالولد لوالده وكالعبد لسيده، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كالسبع على فريسته، ونظيره الآية: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

عبد الله بن حمدون نا أحمد بن محمد بن الحسين نا محمد بن يحيى نا أحمد بن شبيب، عن يونس عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبى هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «يرد علىّ يوم القيامة رهط من أصحابى فيُجلون عن الحوض فأقول ربّ أصحابى أصحابى فيقال لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى».

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

أبو عبد الله الحسين عن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان عن شبر بن موسى الأسدى عن إسماعيل بن خليل الكوفى عن سلمة بن رجاء عن سلمة بن سابور قال: سمعت عطية العوفى يقول: قال ابن عباس: أسلم عبد الله بن أُبى بن سلول، ثم قال: بينى وبين قريظة والنضير حلف وأنا أخاف الدوائر، فارتد كافرًا. وقال عبادة بن الصامت: أبرأ إلى الله عزّ وجلّ من حلف قريظة والنضير، وأتولى الله والرسول والذين آمنوا فأنزل الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى قوله ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يعنى عبد الله بن أُبى بن سلول إلى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعنى عبادة بن الصامت، وأصحاب رسول الله ثم قال: ولو كانوا يؤمنون بالله ورسوله وما أُنزل إليه، ما اتخذوه أولياء، وقال بعض المفسّرين: لما أراد رسول الله أن يقتل يهود بنى قينقاع حين نقضوا العهد، وكانوا حلفًا لعبد الله بن أبى بن سلول وسعد بن عبادة بن الصامت، فأما عبد الله بن أُبى فعظم ذلك عليه، وقال: ثلاثمائة دراع وأربعمائة منعونى من الأسود والأحمر أفأدعك تجدهم فى غداة واحدة، وأما سعد وعبادة فقالا: إنا برآء إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وعهدهم فأنزل الله هذه الآية.

وقال جابر بن عبد الله: جاء عبد الله بن سلام إلى النبى عليه السلام فقال: يا رسول الله إن قومنا من قريظة والنضير، قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل وشكى ما يلقى من اليهود من الأذى. فنزلت الآية فقرأها رسول الله ﷺ فقال: رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين إخوة على هذا التأويل أراد بقوله ﴿راكعون﴾ صلاة التطوع بالليل والنهار.

قال ابن عباس، وقال السدى، وعتبة بن حكيم، وثابت بن عبد الله: إنما يعنى بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية. على بن أبى طالب (رضى الله عنه) مرّ به سائل وهو راكع فى المسجد وأعطاه خاتمه.

أبو الحسن محمد بن القاسم بن أحمد، أبو محمد عبد الله بن أحمد الشعرانى، أبو على أحمد بن على بن رزين، المظفر بن الحسن الأنصارى، السدى بن على العزاق، يحيى بن عبد الحميد الحمانى عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن عبادة بن الربعى، قال: بينا عبد الله ابن عباس جالس على شفير زمزم إذ أقبل رجل متعمم بالعمامة فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله إلاّ قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ قال:

فكشف العمامة عن وجهه، وقال: يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا جُندب بن جنادة البدرى، أبو ذر الغفارى: سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمّتا ورأيته بهاتين وإلاّ فعميتا يقول: علىّ قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله أما إنى صليت مع رسول الله يومًا من الأيام صلاة الظهر فدخل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطنى أحد شيئًا وكان على راكعًا فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين النبى ﷺ فلما فرغ النبى ﷺ من الصلاة فرفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إن أخى موسى سألك، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ (طه: ٢٥- ٣١) الآية، فأنزلت عليه قرآنا ناطقًا ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ (القصص: ٣٥) اللهم وأنا محمد نبيّك وصفيّك اللهم فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واجعل لى وزيراً من أهلى عليًا اشدد به ظهرى».

قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله الكلمة حتى أنزل عليه جبرئيل من عند الله، فقال يا محمد اقرأ، فقال: وما اقرأ؟ قال: اقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إلى ﴿رَٰكِعُونَ﴾.

سمعت أبا منصور الجمشادى، سمعت محمد بن عبد الله الحافظ، سمعت أبا الحسن على ابن الحسن، سمعت أبا حامد محمد بن هارون الحضرمى، سمعت محمد بن منصور الطوسى، سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل مثل ما جاء لعلى بن أبى طالب (عليه السلام).

أبو عبد الله بن فنجويه، عمر بن الخطاب، إبراهيم بن سهلويه، محمد بن رجاء العبادانى. حدّثنى عمر بن أبى إبراهيم، حدّثنى المبارك بن سعيد وعمار بن محمد عن سفيان بن أبيه عن ابن عباس قال: نزلت فى أبى بكر ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيتان الخبر.

عن محمد بن عبد الله، أحمد بن محمد بن إسحاق البستى، حامد بن شعيب، شريح بن يونس، هشيم بن عبد الملك قال: سألت أبا جعفر عن قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال: هم المؤمنون بعضهم أولياء بعض ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ يعنى أنصارى من الله. قال الراجز:

❖ وكيف أضوى وبلال حزبى ❖

أى ناصرى. ﴿هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ الآية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ قال الكلبى: كان منادى رسول الله إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا، ركعوا لا ركعوا، سجدوا لا سجدوا، على طريق الاستهزاء والضحك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال السدى: نزلت فى رجل من النصارى كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم وأهله نيام فتطاير منها شرارة فى البيت فأحرق البيت وأحرق هو وأهله.

وقال الآخرون: إن الكفار لما سمعوا الأذان كذبوا رسول الله والمسلمين على ذلك فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد لقد ابتدعت شيئًا لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية فإن كنت تدّعى النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياءَ قبلك ولو كان فى هذا الأمر خير لكان بادئ ما تركه الناس بعد الأنبياء والرسل قبلك فمن أين لك صياح كصياح البعير فما أقبح من صوت ولا أسمج من كفر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ (فصلت: ٣٣).

فأما بعد الأذان: قال أبو الحسن أحمد بن محمد بن عمر، أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، زياد بن أيوب وأبو بكر بن أبى النضير الأسدى، حجاج بن محمد قال: قال ابن

جريج عن نافع عن ابن عمر أبو الحسين قال: أبو العباس السراج، محمد بن سهيل بن عسكر، أبو سعيد الحداد، خالد بن عبد الله الواسطى، عن عبد الرحمن بن يحيى عن الزهرى عن سالم عن أبيه، وحدث عن الحسن بن شقيق، إسماعيل بن عبيد الخزاعى، محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى عن أبيه قال: كان المسلمون حيث قدموا المدينة يجتمعون فيجيبون الصلاة وليس ينادى بهن فتكلموا فى ذلك فاستشار رسول الله ﷺ المسلمين فيما يجيبهم الصلاة. فقال بعضهم: يقلب راية فوق رأس المسجد عند الصلاة فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا فلم يعجبه ذلك، وقيل: بل نؤجج ناراً، وقال بعضهم: بل قرن مثل قرن اليهود فكرهه من أجل اليهود وقيل: الناقوس فكرهه من أجل النصارى ولكن عليه قاموا وأمر بالناقوس حتى يجيب.

قال عبد الله بن زيد: فرأيت تلك الليلة رجلاً فى المنام عليه ثوبان أخضران ويحمل ناقوسًا فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به الناس إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير منه؟ قلت: بلى، قال: قل: الله أكبر، الله أكبر إلى آخر الأذان ثم استأخر غير بعيد، وقال: إذا قامت الصلاة فقل: الله أكبر، الله أكبر فوصف له الإقامة فرادى، فلما استيقظت أتيت النبى ﷺ وأخبرته بذلك فقال: «إنها رؤية حق إن شاء الله فاتلها على بلال فإنه أندى منك صوتًا، قال: فخرجنا إلى المسجد فجعلت ألقيها على بلال وهو يؤذن فسمع عمر فى بيته فخرج يجر رداءه فقال: رأيت مثل الذى رأى ففرح النبى ﷺ وقال: ذلك أثبت.

وروى أبو الزاهرية عن أبى شجرة عن رسول الله ﷺ قال: أوّل من أذّن فى السماء فسمعه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

فأما فضل الأذان، فحدثنا أبو الحسن بن محمد بن القاسم الفارسى، عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى، أبو جعفر بن عبد الله بن الصباح، أبو عمر الدورى، أبو إبراهيم البرجمانى عن سعيد بن سعيد عن نهشل أبى عبد الله القرشى عن الضّحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكترثون للحساب ولا يفزعهم الصيحة ولا يحزنهم الفزع الأكبر: حامل القرآن يؤديه إلى الله بما فيه يقدم على ربّه سيّداً شريفًا، ومؤذن أذن سبع سنين يأخذ على أذانه طمعًا وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ومؤدى حقّ مولاه».

أحمد بن محمد بن جعفر، أبو الحسن على بن محمد القاضى، على بن عبد العزيز أبى عمرو ابن عثمان حدثهم أبو ثميلة عن أبى حمزة عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذّن سبع سنين محتسبًا كتب له براءة من النار».

أبو الحسن الفارسى ، أبو العلاء أحمد بن محمد بن كثير ، . . . .[1] بن محمد ، محمد بن سلمة الواسطى ، حميد بن سلمة الواسطى ، حميد الطوسى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «من أذن سنة من نية صادقة لا يطلب عليه أجرًا دعى يوم القيامة ووقف على باب الجنة وقيل له : اشفع لمن شئت» .

أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد التمار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن دينار محمد بن الحجاج بن عيسى ، إبراهيم بن رستم ، حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن ابن سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أذّن خمس صلوات إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن أمّ أصحابه خمس صلوات إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه» .

أبو العباس سهل بن محمد بن سعيد المروزى ، الحسن بن محمد بن جشم أبو الموجة ، عبدان ، عبد الوارث ، ومرّة الحنفى ، يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إذا كان عند الأذان فتحت أبواب السماء فاستجيب الدعاء وإذا كان عند الإقامة لم يردّ دعواه» .

أبو القاسم طاهر بن المعرى ، أبو محمد عبد الله بن أحمد المقرى بالبصرة ، عبد الله ابن أحمد الجصاص ، يزيد بن عمر وأبو البر الغنوى ، نائل بن نجيح ، محمد بن الفضل عن سالم عن مجاهد عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : «المؤذن المحتسب كالشهيد يتشحّط فى دمه حتى يفرغ من أذانه ويشهد له كل رطب ويابس فإذا مات لم يدود فى قبره» .

أبو محمد بن عبد الله بن حامد الصفيانى ، محمد بن جعفر الطبرى قال : حماد بن الحسن ، صالح ابن سليمان صاحب القراطيس ، عتاب بن عبد الحميد السدوسى عن مطر عن الحسن عن أبى الوقّاص أنه قال : سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المهاجرين .

وقال عبد الله بن مسعود : لو كنت مؤذنًا لما باليت ألاّ أحج ولا أعتمر ولا أجاهد ، قال : وقال عمر بن الخطاب : لو كنت مؤذنًا لكمل أمرى وما باليت أن لا أنتسب لقيام ليل ولا لصيام نهار . سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم اغفر للمؤذنين ، اللهم اغفر للمؤذنين ، اللهم اغفر للمؤذنين» .

فقلت : يا رسول الله لقد تركنا ونحن خيار على الأذان بالسيوف . قال : «كلاّ يا عمر إنه سيأتى على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم وتلك لحوم حرمها الله على النار لحوم المؤذنين» .

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ﴾ الآية.

قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود، أبو ياسر بن الخطاب ورافع بن أبى رافع وعازار وزيد بن خالد وأزاريل أبى واشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال: «أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم - إلى قوله مسلمون»، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته قالوا: والله ما نعلم أهل دين أولى حظًا فى الدنيا والآخرة دينًا ولا دنيا شرار دينكم. فأنزل الله هذه الآية ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذين ذكرت يعنى قولهم لم نر أهل دين أولى حظًا فى الدنيا والآخرة منكم فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شرًا كقوله تعالى للكفار ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (الحج: ٧٢) ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ثوابًا وجزاءً وهو نصب على التفسير كقوله ﴿أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف: ٣٤) وأصلها مثووبة على وزن مفعولة وقد جاءت مصادر على وزن المفعول نحو المفعول والمسيور فأسقط عين الفعل استثقالا على الواو ونقلت حركتها إلى فاء الفعل وهى الثاء فصار مثوبة مثل معونة ومغوثة ومقولة ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ويجوز أن يكون محل (من) خفضًا على البدل ومن قوله بشر أو على معنى لمن يلعنه الله ويجوز أن يكون رفعًا على إضمار هو.

ويجوز أن يكون نصبًا على إيقاع أُنبئكم عليه ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة: أصحاب السبت. والخنازير: كفّار أهل مائدة عيسى.

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس: أن المسخين كلاهما من أصحاب نقبائهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير، ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ فيه عشر قراءات، وعبد الطاغوت بفتح الباء والعين والتاء على الفعل وهى قراءة العامة، وجعل منهم من عبد الطاغوت، وتصديقها قراءة ابن مسعود ومن عبد والطاغوت. وقرأ ابن وثاب وحمزة. عَبُد الطاغوت بفتح العين وضم الباء وكسر الدال آباد العبد وهما لغتان عَبد وعَبُد مثل سبْع وسبُع وقرْد وقرُد.

وأنشد حمزة فى ذلك: كيف الصقيل القرد، بضم الراء ووجه آخر وهو أنه أراد الجمع أى خدم الطاغوت. فجمع العبد عباد ثم جمع العباد عبدًا جمع الجمع مثل ثمار وثمر منهم استقبل الضمّتين المتواليتين فعرض من الأولى فتحه ولذلك فى قراءة الأعمش وعبد الطاغوت بضم العين والتاء وكسر الدال.

قال الشاعر:

انسب العبـد إلى آبائه أسود الجلدة من قوم عبد

وذكر عن أبى جعفر القارى: أنه قرأ وعبد الطاغوت على الفعل المجهول، وقرأ الحسن:

وعبد الطاغوت على الواحد.

قرأ أبو بردة الأسلمي: وعابد الطاغوت باختلاف على الواحد.

وقرأ ابن عباس: وعبيد الطاغوت بالجمع، وقرأ أبو واقد الليثي: وعباد الطاغوت مثل كافر وكفار، وقرأ عون العقيلي وأبان بن ثعلب: وعبد الطاغوت مثل ركع وسجد. وقرأ ابن عمير: وأعبد الطاغوت مثل كلب وأكلب ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فلما نزلت هذه الآية تنذّر اليهود وقالوا إخوان القردة والخنازير فسكتوا وأُفحموا، وفيهم يقول الشاعر:

فلعنة الله على اليهـود إن اليهود إخوة القرود

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية، فهؤلاء المنافقون قاله المفسرون.

وقال ابن زيد: هؤلاء الذين قالوا: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ (آل عمران: ٧٢) الآية.

وهذا التأويل أليق بظاهر التنزيل لأن هذه الآيات نزلت في اليهود ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يعني من اليهود ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ إلى قوله ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ يعني العلماء وقيل: الربانيون علماء النصارى، والأحبار علماء اليهود.

وقرأ أبو واقد الليثي، وابن الجراح العقيلي: الربيون كقوله ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

﴿قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾: وهذه أشد آية على ما أتى النهي عن المنكر حيث أنزلهم منازلة من يرتكبه وجمع بينهم في التوبيخ.

الحسن بن أحمد بن محمد، وشعيب بن محمد بن شعيب عن إبراهيم بن عبد الله بن محمد ابن عدي، الأحمسي، البخاري عن عبد الحميد بن جعفر عن أبي إسحاق عن عبد الله بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يجاور قوماً فيعمل بالمعاصي بين ظهرانيهم فلا يأخذون على يديه إلاّ وأوشك الله أن يعمهم منه بعقاب».

أبو عبد الله محمد، أحمد بن محمد بن يعقوب، عبد الله بن أسامة، أسيل بن زيد الجمال، يحيى بن سلمى بن مهنا عن أبيه عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الفاسق في القوم مثل قوم ركبوا سفينة فاقتسموها فصار لكل إنسان فيها نصيب، فأخذ رجل منهم فأساً فجعل يضرب في موضعه فقال أصحابه: أي شيء تصنع تريد أن تغرق وتغرقنا؟ فقال: هو مكاني فإن أخذوا على يديه نجوا ونجا وإن تركوه غرقوا وغرق».

وقال مالك بن دينار: أوصى الله إلى الملائكة أن عذّبوا قرية كذا فصاحت الملائكة إلى

ربها: يا رب إن فيهم عبدك العابد. فقال: أسمعونى ضجيجه فإن وجهه لم يتغير غضبًا لمحارمى وأوحى الله إلى يوشع بن نون: إنى مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم وستين ألفًا من شرارهم. فقال: يارب فهؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبى وواكلوهم وشاربوهم.



﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

قال ابن عباس وعكرمة والضحّاك وقتادة: إن الله كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله فى محمد عليه السلام وكذبوا به كفى الله عنهم ما بسط عليهم من السعة فعند ذلك قال فنحاص بن عازورا: يد الله مغلولة لم يريدوا إلى عنقه ولكنهم أرادوا أنها مقبوضة بمعنى منه ممسكة عن الرزق فنسبوه إلى البخل.

وقال أهل المعانى: إنما قال هذه المقالة فنحاص فلم ينهوا الآخرون ورضوا بقوله فأشركهم الله فيها وأرادوا باليد العطاء لأن عطاء الناس بذل معروفهم فى الغالب بأيديهم واستعمل الناس اليد فى وصف الإنسان بالرد والبخل.

قال الشاعر:

يداك يدا مجد فكف مفيد وكف إذا ما ضن بالمال ينفق

ويقال للبخيل: جعد الأنامل، مقبوض الكف، كز الأصابع، مغلول اليدين، قال الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ (الإسراء: ٢٩) الآية.

قال الشاعر:

كانت خراسان أرضًا إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت بعـده جعدًا أنامله كأنما وجهـه يأكل منضـــوج

وقال الحسن: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلاّ بما يقرّبه قيمة قدر ما عبد آباؤنا العجل. وهو سبعة أيام.

وقال مجاهد والسدى: هو أن اليهود قالوا إن الله لما نزع ملكنا منا وضع يده على صدره يحمد إلينا ويقول: يا بنى إسرائيل، يا بنى أحبارى لا أبسطها حتى أرد عليكم الملك. والقول الأول أولى بالصواب لقوله ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وقيل: هو استفهام تقديره: أيد الله مغلولة عنا؟ حيث قتّر المعيشة علينا قال الله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى مسكت أيديهم عن الخيرات وقبضت عن الانبساط بالعطيات.

وقال يمان بن رئاب: شدد وثقل عليهم الشرائع، بيانه قوله ﴿وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧) وقيل: هو من الغل فى النار يوم القيامة كقوله ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ﴾ (غافر:٧١) ﴿وَلُعِنُوا۟﴾ عذبوا ﴿بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ اختلفوا فى معنى يد الله سبحانه، فقال قوم: إن له يدًا لا كالأيدى وأشاروا باليد إلى الجارحة ثم قصدوا نفى التشبيه بقوله لا كالأيدى وهذا غير مرضى من القول وفساده لا يخفى.

وقال الآخرون: يده قدرته لقوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ (ص:٤٥).

وقيل: هو ملكه كما يقال لمملوك الرجل، هو ملك يمينه. قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ (البقرة:٢٣٧) أى إنه يملك ذلك، وعلى هذين القولين يكون لفظه مشبه ومعناه واحد لقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:٤٦) أراد به جنة واحدة. قاله الفراء: وأنشدنى بعضهم:

ومنهم يدين قدمين مرتين قطعة بالألم لا بالسمينين

أراد منهما واحدًا وسمنة واحدة:

قال وأنشدنى آخر:

يمشى مكبدًا ولهزمين قد جعل الأرطا جنتين

أراد لهزمًا وجنة.

وقيل: أراد بذلك نعمتاه. كما يقال: لفلان عندى يد نعمة، وعلى هذا القول يكون بعضه تشبيه ومعناه جمع كقوله ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم:٣٤). والعرب تضع الواحد موضع الجمع كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ (الفرقان:٥٥). ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البلد:٤) و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ (العصر:٢) ونحوها، ويقول العرب: ما أكثر الدرهم والدينار

فى أيدى الناس، ويضع التشبيه أيضًا موضع الجمع كقوله ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ (ق:٢٤) فأراد الجمع. قال امرؤ القيس:

❖ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ❖

يدل عليه:

❖ وقوفًا بها صحبى على مطيهم ❖

يقول بأنه أخذ الجمع. قال محمد بن مقاتل الرازى: أراد نعمتين مبسوطتين نعمته فى الدنيا ونعمته فى الآخرة، وهذه تأويلات مدخولة لأن الله عزّ وجلّ ذكر له خلق آدم بيده على طريق التخصيص والتفضيل لآدم على إبليس، ولو كان تأويل اليد ما ذكروا لما كان لهذا التخصيص والتفضيل لآدم معنى لأن إبليس أيضًا مخلوق بقدرة الله وفى ملك الله ونعمته.

وقال أهل الحق: إنه صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه، قال الحسن: إن الله سبحانه يداه لا توصف، دليل هذا التأويل أن الله ذكر اليد مرّة بلفظ اليد فقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٧٣) ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ (آل عمران:٢٦) ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح:١٠) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ (الملك:١).

وقال (عليه السلام): «يمين الله ملئى لا يغيضها نفقة فترد به» وقال عزّ وجلّ مرّة وقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:٧٥) ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

وقال (عزّ وجلّ): (وكلتا يديه يمين) وجمعه مرّة فقال: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ (يس:٧١) قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بإنكارهم ومخالفتهم وتركهم الإيمان ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ يعنى من اليهود والنصارى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ يعنى اليهود والنصارى أفسدوا وخالفوا حكم التوراة فغضب الله عزّ وجلّ فبعث عليهم بختنصّر ثم أفسدوا فبعث الله عليهم وطرس الرومى ثم أفسدوا فسلّط الله عليهم المجوس ثمّ أفسدوا فسلّط الله عليهم المسلمين وكانوا كلما استقام أمرهم شتتهم الله تعالى وكلما جمعوا أمرهم على حرب رسول الله وأوقدوا نارًا للحرب ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وقهرهم ونصر نبيه ودينه ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يعنى أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى القرآن. وقيل: كُتب بنى إسرائيل ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعنى المطر ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعنى النبات.

وقال الفراء: إنما أراد به التوسعة كما يقال: فلان فى خير من قرنه إلى مقدمه، نظيره ﴿وَلَوْ

أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأعراف: ٩٦) ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ : يعنى مؤمنى أهل الكتاب. ابن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون رجلاً من النصارى وهم النجاشى وبحيرا وسلمان الفارسى وخير مولى قريش وأصحابهم.

قال ابن عباس: هم العاملة غير العالية ولا الحافية ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ : كعب بن الأشرف وأصحابه، وأهل الروم. ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ .



﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ .

اختلفوا فى تنزيل هذه الآية وتأويلها فروى محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة فينزل تحتها ويقيل، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه عليها فأتاه أعرابى وأخذ السيف من الشجرة واخترطه ثم أتى النبى ﷺ وهو نائم، فقال: يا محمد من يمنعك منى؟ فقال: الله. فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف منه وضرب برأسه الشجرة حتى انفرد ساعة فأنزل الله الآية.

وقال أنس: كان النبى ﷺ يحرس، قال: وقالت عائشة: فكنت ذات ليلة إلى جنبه فهر تلك الليلة، فقلت: يا رسول الله ما شأنك؟ فقال: «ليت رجل صالح يحرسنى الليلة» قالت: فبينما نحن فى ذلك حتى سمعت صوت السلاح. فقال: من هذا؟ قال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطة فنزلت الآية فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة أديم وقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله عزّ وجلّ».

وروى الحسن مرسلاً إلى النبى ﷺ قال: «لمّا بعثنى الله برسالته فضقت بها ذرعًا وعرفت أن من الناس من يكذبنى» وكان عتابه قريشًا واليهود والنصارى فأنزل الله الآية، قلت: ولما نزل قوله ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٠٨) سكت النبى عليه السلام عن عيب آلهتهم فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى معايب آلهتهم.

وقيل: نزلت فى عيوب اليهود وذلك أنه (عليه السلام) دعا اليهود إلى الإسلام وقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون: تريد أن نتّخذك عيانًا كما اتخذت النصارى عيانًا عيسى، فلما رأى النبى عليه السلام ذلك سكت فحرضه الله على دعائهم إلى الإسلام وأمره

أن يقول لهم.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ (المائدة:٦٨) الآية.

قال الحسين بن الفضل: وهذا أولى الأقاويل لأنه ليس بين قوله ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وبين قوله: ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ فصل.

فلما نزلت الآية قال (عليه السلام): «لا يأتى من عندى ومن نصرنى».

وقيل: نزلت فى قصة عيينة بن حصين وفقراء أهل الصفة وقيل: بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص ومرّ فى قصة. وقيل: بلغ ما أنزل إليك من أمر نسائك. وذلك أن رسول الله لما نزلت آية التخيير لم يكن يعرضها عليهن خوفًا من اختيارهن الدنيا فأنزل الله، وقيل: بلغ ما أنزل إليك من أمر زينب بنت جحش، وقيل: نزلت فى الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوه، قال الله ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ (محمّد:٢٠) الآية، وكرهه أيضًا بعض المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ (النساء:٧٧) الآية، وكان (عليه السلام) يمسك فى بعض المسلمين عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة القوم فأنزل الله الآية.

وقال أبو جعفر محمد بن على: معناه: بلّغ ما أنزل إليك فى فضل على بن أبى طالب، فلما نزلت الآية أخذ (عليه السلام) بيد على، فقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه».

أبو القاسم يعقوب بن أحمد السرى، أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن محمد، أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله الكعبى، الحجاج بن منهال، حماد عن على بن زيد عن عدى بن ثابت عن البراء قال: لما نزل مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع كنّا بغدير خم فنادى إن الصلاة جامعة وكسح رسول الله عليه الصلاة والسلام تحت شجرتين وأخذ بيد على، فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا مولى من أنا مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

قال: فلقيه عمر فقال: هنيئًا لك يا ابن أبى طالب أصبحتَ وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

روى أبو محمد عبد الله بن محمد القاينى نا أبو الحسن محمد بن عثمان النصيبى نا أبو بكر محمد بن الحسن السبيعى نا على بن محمد الدّهان، والحسين بن إبراهيم الجصاص قالا: نا الحسن بن الحكم نا الحسن بن الحسين بن حيان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ قال: نزلت فى على (رضى الله عنه) أمر النبى ﷺ أن يبلغ فيه فأخذ

(عليه السلام) بيد علي، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه».

وبلغ ما أنزل إليك في حقوق المسلمين فلما نزلت الآية خطب رسول الله ﷺ أي يوم هذا الحديث في خطبة الوداع، ثم قال: هل بلّغت؟

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قرأ ابن محيصن وابن قفال وأبو عمرو والأعمش وشبل: رسالته، على واحدة، وهي قراءة أصحاب عبد الله. الباقون جمع.

فإن قيل: فأي فائدة في قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ولا يقال: كل من هذا الطعام وإن لم تأكل فما أكلته.

الجواب فيه ما سمعت فيه أبا القاسم بن جندب سمعت علي بن مهدي الطبري يقول: أمر رسول الله ﷺ تبليغ ما أنزل إليك في الوقت والإتيان فيه. حتى تكثر الشوكة والعدة وإن لم يفعل على كل ما أوصى الله إليه وحكم الله أن حرّم بعضها لأنه كمن لم يبلغ لأن تركه إبلاغ البعض محبط لإبلاغ ما بلغ. كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ﴾ (النساء: ١٥٠) الآية.

فاعلم أن إيمانهم بالبعض إلى بعضهم وأن كفرهم بالبعض يحبط الإيمان بالبعض. وحاشا لرسول الله أن يكتم شيئًا مما أوحى الله.

قالت العلماء: الدعوة بقراءة الصلاة إذ البعض ركن من أركانها.

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبا بكر بن الأخدش يحكي عن الحسن بن الفضل أنّه قال: معنى الآية بلغ ما أنزل إليك في الوقت حتى تكثر الشوكة والعدّة، ومن لم يفعل هذا كنت كمن لم يبلغ، وقيل: بلغ مجاهدًا محتسبًا صابرًا غير خائف، وقيل: بلغ ما أنزل إليك من ربك إلى جميع الناس ولا تخاف.

وهذه من الحدود التي يدل مقام القطع عليه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾: يحفظك ويمنعك ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: ووجه هذه الآية، وقد شجّ جبينه وكسرت رباعيته وأوذي في عدة مواطن بضروب من الأذى، فالجواب أن معناها والله يعصمك منهم فلا يصلون إلى مثلك، وقيل: نزلت هذه الآية بعدما شجّ جبينه وكسرت رباعيته لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن.

وقيل: معناه والله يعصمك يخصك بالعصمة من بين الناس لأنه كان نبي الوقت والنبي معصوم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ : عن عبد الله الحسين بن محمد الديلمى، محمد بن إسحاق السبتى، أبو عروة، عمرو بن هشام، محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم عن أبى عبد الملك عن القاسم عن أبى أُمامة قال: كان رجل من بنى هاشم يقال له ركانة وكان من أفتك الناس وأشدهم بأسًا وكان مشركًا وكان يرعى غنمًا له ويقال له أقسم فخرج نبى الله ﷺ من بيت عائشة ذات يوم متوجهًا قِبَل ذلك الوادى فلقيه ركانة وليس مع نبى الله أحد فقام إليه ركانة وقال: يا محمد أنت الذى تشتم آلهتنا اللات والعزى وتدعو إلى إلهك العزيز الحكيم؟ ولولا رحم بينى وبينك ما كلمتك حتى أقتلك ولكن أدع إلهك العزيز الحكيم يخلصك منى اليوم وسأعرض عليك أمرًا هل لك أن أصارعك وتدعو إلهك العزيز الحكيم يعينك علىّ وأنا أدعو اللات والعزى فإن أنت صرعتنى فلك عشرة من غنمى وتختارها فقال (عليه السلام): قم إن شئت واتخذ العهد ودعا النبى ﷺ إلهه العزيز الحكيم أن يعينه على ركانة، ودعا ركانة إلهه - اللات والعزى - أن أعنّى اليوم على محمد فأخذه النبى (عليه السلام) فصرعه وجلس على صدره.

فقال ركانة: يا محمد قم فلست الذى فعلت هذا بى إنما إلهك العزيز الحكيم وخذله اللات والعزى وما وضع أحد جنبى قبلك، فقال ركانة: عد فإن أنت صرعتنى فلك عشرة أخرى ومن خيارها. فقام النبى (عليه السلام) ودعا كل واحد منهما إلهه كما فعلا أول مرّة فصرعه النبى ﷺ وجلس على كبده، فقال له ركانة: فلست أنت الذى فعلت فىّ هذا إنما فعله إلهك العزيز الحكيم وخذله اللات والعزى وما وضع جنبى أحد قبلك، فقال له ركانة: عد فإن أنت صرعتنى فلك عشرة أخرى تختارها فأخذ منى الله ودعا كل واحد منهما إلهه فصرعه نبى الله الثالثة، فقال له ركانة: لست أنت الذى فعلت بى هذا إنما فعله إلهك العزيز الحكيم وخذله اللات والعزى فدونك ثلاثين شاة من غنمى فأخسرها.

فقال له النبى ﷺ: لا أريد ذلك ولكن أدعوك إلى الإسلام وأركانه وأنفس بك أن تصير إلى النار، إنك إن تُسلم تسلم فقال له ركانة: ألا ترينى آية، فقال له نبى الله (عليه السلام) الله شهيد عليك لئن أنا دعوت ربى عز وجل لهذا لتجيبنى إلى ما دعوتك إليه؟ قال: نعم، وقريب منهما شجرة ذات فروع وقضبان فأشار نبى الله (عليه السلام)، فقال لها: أقبلى بإذن الله فانشقت اثنتين وأتت على نصف شقها وقضبانها وفروعها حتى كانت بين يدى النبى ﷺ وبين ركانة فقال له ركانة: أريتنى عظيمًا، فمرها فلترجع، فقال (عليه السلام) الله شهيد عليك لئن أنا دعوت ربى عز وجل فأمرها فرجعت لتجيبنى إلى ما دعوتك إليه؟

قال: نعم، فأمرها النبى (عليه السلام) فرجعت بقضبانها وفروعها حتى التأمت فلما قال النبى ﷺ: أسلم تسلم، فقال له ركانة: فما لى ألاّ أكون أما أنا فقد رأيت عظيمًا، ولكنى أكره أن يتحدث فينا أهل المدينة وفتيانهم فىّ إنما أجيبك لرعب دخل قلبى منك، ولكن قد علمت فى أهل المدينة وصبيانهم أنه لم يوضع جنبى قط ولم يدخل قلبى رعب ساعة قط ليلاً ولا نهاراً فلك دونك فاختر غنمك، فقال (عليه السلام): ليس فى حاجة إلى غنمك إذ أبيت أن تسلم، فانطلق رسول الله ﷺ راجعًا فأقبل أبو بكر وعمر يسألانه فى بيت عائشة فأخبرتهما أنه قد توجه قِبَل وادى أضم وقد عرفا أنه وادى ركانة لا يخطيه، فخرجا فى طلبه وأشفقا أن يلقاه ركانة فيقتله، فجعلا يصعدان على كل شرفة ونظرا فإذا هما كذلك إذ نظر نبى الله (عليه السلام) مقبلاً، فقالا: يا نبى الله كيف تخرج إلى هذا الوادى وحدك وقد عرفت أنه جهة ركانة وأنه من أفتك الناس وأشدهم تكذيبًا لك، فضحك إليهما النبى ﷺ وقال: «أليس الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إنه لم يكن يصل إلىّ والله معى» وأنشأ يحدثهما حديث ركانة والذى فعله به والذى أراه فعجبا من ذلك وقالا: يا رسول الله عرفت ركانة فلا والذى بعثك بالحق ما نعلم أنه وضع جنبيه إنسان قط، فقال (عليه السلام): «إنى دعوت ربى عزّ وجلّ فأعاننى عليه، وإن ربى قال خذ عشرة لك وبقوة عشرة».



﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾
وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ

وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ : من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ : يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ﴾ : حيث أمرهم بالقرآن مع قيام الدلالة والحجة عليهم ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ : فلا تحزن ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ : كان حقه والصابئين وإنما رفعه عطفًا على الذين قبل دخول أنّ فلا يحدث معنى كما تقول: زيد قائم، وإن زيداً قائم معناها واحد، وقرأ الحسن إن الله وملائكته برفع التاء ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ : الآية.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ : في التوحيد والنبوة ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ﴾ : إلى قوله ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ : وظنوا أن لا يكون ابتلاء واختبار. ورفع نونه بعض قرّاء العراق فمن نصب فعلى ترك المبالاة بلا ومن رفع فعلى معنى لا يكون ﴿فَعَمُواْ﴾ ، عن الحسن: فلم يبصروه ﴿وَصَمُّواْ﴾ : عنه فلم يسمعوه وكان ذلك عقوبتهم ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ : بعد ذلك بخذلانهم أيًا منهم في قتال ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ﴾ : وهم كفار أهل الكتاب ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ : يعني الملكانية ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ : الآية.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ : هي النسطورية وذلك أنهم قالوا أبًا وابنًا وروحًا قدسيًا ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾ إلى قوله ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ لتصيين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ : خص الكفر لعلمه أن بعضهم لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ الآية.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ الآية، تصدق، وقال مقاتل: إنما سميت صديقة لأنها لما أتاها جبرئيل، وهي في منجم وقال لها: إنما أنا رسول ربك صدّقته ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ في هذا المعنى هذه عبارة عن الحدث ومن أكل وأحدث لا يستحق أن يكون إلهًا ﴿ٱنظُرْ﴾ : يا محمد ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ إلى قوله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يرتدون عن الحق ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ﴾

الآية﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعنى النصارى﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لا تجاوزوا الحق إلى غيره﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟﴾ الآية.



﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ : أى عذبوا بالمسيح فقال: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ .

يعنى أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت، قال داود: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ يعنى كفّار أصحاب المائدة لمّا لم يؤمنوا، قال عيسى: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ الآية﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أى لا ينهى بعضهم بعضًا﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ الآية.

الحسن بن محمد بن الحسين، موسى بن محمد بن على بن عبد الله، عبد الله بن سنان، عبد العزيز بن الخطاب، خالد بن عبد الله، العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرّة عن أبى عبيدة عن ابن مسعود، الحسن بن محمد، أحمد بن محمد بن إسحاق، أبو على الموصلى، وهب بن منبه، خالد عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرّة عن أبى عبيدة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من كان قبلكم من بنى إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهى تعذيرًا فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه وكأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض وجعل منهم القردة والخنازير ولعنه على لسان داود وعيسى ابن مريم، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرنه على الحق إطرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم».

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ : أى من اليهود، كعب بن الأشرف وأصحابه﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فى المنكر حين خرجوا إليها يعينون على محمد (عليه السلام) ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ

ٱللَّهُ﴾ عذاب الله ﴿عَلَيۡهِمۡ وَفِى ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَـٰلِدُونَ ۝ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ محمد ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾ من القرآن ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ فَـٰسِقُونَ﴾ يعنى من لم يسلم.

❖ ❖ ❖

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٨٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٨٨ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِىٓ أَيۡمَـٰنِكُمۡ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَـٰنَۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَـٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٨٩﴾

﴿لَتَجِدَنَّ﴾: يا محمد ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾ يهود أهل المدينة.

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين، أبو جعفر على بن محمد بن أحمد الصفار الهمدانى، أبو على عبد الله بن على بن الزبير النخعى، إسماعيل بن بهرام الأشجعى، عباد ابن العوّام عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ما خلا يهوديان بمسلم إلاّ همّا بقتله».

﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾: مشركى العرب ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰۚ﴾ لم يرد به جميع النصارى مع ما فيهم من عداوة المسلمين وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وقتلهم وأسرهم وإحراق مصاحفهم لا ولا كرامة لهم وإنما نزلت هذه الآية فى النجاشى وأصحابه.

قال المفسرون : ائتمرت قريش بأن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على محمد فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم فأفتن ما أفتن وعصم الله منهم من شاء ومنع الله رسوله بعمّه أبى طالب فلما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة وقال : «إن بها ملكًا صالحًا لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد» .

فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجًا وأراد به النجاشى واسمه أصحمة وهو بالحبشية عطية فإنما النجاشى اسم الملك كقوله قيصر وكسرى فخرج إليها سرًا عشرون رجلاً وأربع نسوة وهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ والزبير بن العوام وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى أمية وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى خيثمة وحاطب بن عمرو وسهيل بن البيضاء فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك فى رجب فى السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ وهذه الهجرة الأولى ، ثم خرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون إليها وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان فلما علمت قريش بذلك وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشى وإلى بطارقته ليردهم إليه فيعصمهم الله وقد ذكرت هذه القصة فى سورة آل عمران ، فلما انصرف عمرو أقام المسلمون هناك بخير دار وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ هجرته إلى المدينة وذلك فى سنة ست من الهجرة كتب رسول الله (عليه السلام) إلى النجاشى على يدى عمرو ابن أمية الضمرى يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت هاجرت مع زوجها فمات زوجها وبعث إليه من عنده من المسلمين .

فأرسل النجاشى إلى أم حبيبة جارية له يقال لها أبرهة تُعْلمها بخطبة رسول الله ﷺ إياها وأعطتها أوضاحًا لها سرورًا بذلك وأمر بها أن يوكل من زوجها فوكلت خالد بن الوليد بن العاص حتى أنكحها على صداق أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله النجاشى فدعا النجاشى بأربعمائة دينار وأخذها إلى أم حبيبة على يدى أبرهة فلما جاءتها بها أعطتها منها خمسين دينارًا فقالت أبرهة : قد أمرنى الملك أن لا آخذ منك شيئًا فإنى أرد الذى أخذت منك وأنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمدًا رسول الله ﷺ وآمنت به وحاجتى إليك أن تقرئه منّى السلام قالت : نعم ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر

وكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره، فقالت أم حبيب: فخرجنا في سفينتين وبعث النجاشي معنا الملاحين حتى قدمنا الجار ثم ركبنا الظهر إلى المدينة فوجدنا رسول الله ﷺ بخيبر فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ فدخلت عليه وكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه من أبرهة السلام فرد رسول الله ﷺ وقال: «لا أدرى أنا بفتح خيبر أشد أم بقدوم جعفر» وأنزل الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ (الممتحنة: ٧) يعنى أبا سفيان مودة بتزويج أم حبيبة فقيل لأبى سفيان وهو يومئذ مشرك يحارب النبى ﷺ: إنّ محمّداً قد نكح ابنتك قال: ذاك الفحل لا يقرع أنفه».

وبعث النجاشي بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ﷺ ابنه أرها بن أصحمة مع ستين رجلاً من الحبشة، وكتب إليه: يا رسول الله أشهد أنّك رسول الله صادقًا مصدقًا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين. وقد بعثت إليك أرها وإن شئت أن آتيك بنفسى فعلت والسلام عليكم يا رسول الله.

فركبوا سفينة مع جعفر وأصحابه، حتى إذا كانوا فى وسط البحر غرقوا ورأى جعفر وأصحابه رسول الله فى سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم خيرة الحبشة الراهب وأبرهة وإدريس وأشرف وتمام ومريد وأيمن فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس إلى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: جئتنا بما كان ينزل على عيسى (عليه السلام) فأنزل الله تعالى فيهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ إلى قوله ﴿نَصَٰرَىٰ﴾ يعنى وفد النجاشي الذين غرقوا مع جعفر بن أبى طالب وهم السبعون وكانوا أصحاب الصوامع.

وقال مقاتل والكلبى: كانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من أهل الشام.

عطاء: كانوا ثمانين رجلاً أربعون رجلاً من أهل نجران من بنى الحارث بن كعب واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميّون من أهل الشام.

وقال قتادة: نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من أهل الحق وكانوا لعيسى يؤمنون به وينتهون إليه فلما بعث الله محمداً صدّقوه وآمنوا به فأثنى الله عليهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، أى علماء.

قال قطرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم.

وقال ورقة:

بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا

وقال عروة بن الزبير حرّفت النصارى الإنجيل فأدخلوا فيه ما ليس منه وكان الذى غير ذلك أربعة نفر لوقاس ومرقوس ويحنس وميتوس، وبقى قيس على الحق وعلى الاستقامة والاقتصاد فمن كان على هديه ودينه فهو قسيس.

عبد الله بن يوسف بن أحمد، محمد بن حامد بن محمد التميمى الحسن بن الهيثم السمرى، عبد الله بن محمد، يحيى بن الحمامى، نصير عن زياد الطائى عن الصلت الدهان عن حامية بن رئاب عن سلمان قال: قرأت على رسول الله ﷺ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا فاقرأ فى ذلك بأن منهم صديقين ورهبانًا والرهبان العبّاد وهم أصحاب الصوامع واحدهم راهب مثل فارس وفرسان، وراكب وركبان، وقد يكون واحدًا وجمعه رهابين، مثل قربان وقرابين، وجردان وجرادين، وأنشد فى الواحد:

لو كلمت رهبان دير فى القلل لانحدر الرهبان يسعى فنزل

وأنشد فى الجمع:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا العصم من شعف العقول الغادر

وهو من قول القائل: رهب الله أى خافه، يرهبه رهبة ورهبًا ورهبانًا ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبرون عن الإيمان والإذعان للحق ﴿سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

أبو عثمان بن أبى بكر الزعفرانى، شيخى، أبو جعفر بن أبى خالد عبد الرحمن بن عمر ابن يزيد، ابن أبى عدى، سعيد عن عمرو بن مرّة قال: قدم على أبى بكر الصديق وفد من اليمن. فقالوا: اقرأ علينا القرآن فقرأ عليهم القرآن فجعلوا يبكون فقال أبو بكر: كذا كنا حتى قست القلوب، وكان أبو بكر لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعنى أمة محمد (عليه السلام) دليله قوله ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿الصَّالِحِينَ﴾ أى فى أمة محمد (عليه السلام) دليله قوله ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾جازاهم الله ﴿بِمَا قَالُوا﴾ إلى قوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ على قولهم بالإخلاص بدليل قوله ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ﴾ الآية.

قال المفسرون: جلس رسول الله ﷺ يومًا فذكّر الناس يوم القيامة ولم يزدهم على التخويف فرقّ الناس وبكوا فاجتمع عشرة من أصحابه فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى وهم: أبو بكر وعلى، وابن مسعود، وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفارى، وسالم مولى أبى

حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى، ومعقل بن مقرن، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على فرشهم، ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا فى الأرض فيذهبوا ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون، فلم يصادفه فقال لامرأته أم حكم بنت أبى أمية: أين الحولاء وكانت عطارة: أحقّ ما بلغنى عن زوجك وأصحابه؟ فكرهت أن تكذب رسول الله وكرهت أن تبدى على زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان فقد صدقك فانصرف رسول الله ﷺ فلما دخل عثمان أخبرته بذلك، فأتى رسول الله هو وأصحابه.

فقال لهم: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا»، قالوا: بلى يا رسول الله وما أردنا إلاّ الخير، فقال (عليه السلام): إنى لم أؤمر بذلك ثم قال: «إن لأنفسكم عليكم حقًا صوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء ومن رغب عن سنتى فليس منى».

ثم جمع الناس وخاطبهم ثم قال: «ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانًا فإنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء واتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقيم لكم فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم باطلاً بإقدامهم فى الديرات والصوامع فأنزل الله تعالى هذه الآية».

وروى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: ضاف عبد الله بن رواحة ضيفًا فانقلب ابن رواحة ولم يتعشّ فقال لزوجته: ما عشيتيه؟ فقالت: كان الطعام قليلاً فانتظرتك، فقال: حبستِ ضيفى من أجلى؟ طعامك علىّ حرام فقالت: وهو علىّ حرام إن لم تأكله. وقال الضيفَ: وهو حرام إن ذقته إن لم تأكلوه، فلما رأى ذلك ابن رواحة، قال: قرّبى طعامك كلوا بسم الله وجاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، فقال (عليه السلام): أحسنت ونزلت هذه الآية.

روى عكرمة عن ابن عباس: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنى صمت من اللحم فأشريت، وأخذتنى شهوة فحرمت اللحم، فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى اللذات التى تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، وما أحل الله

لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام.

وقيل: هو جبّ المذاكير وقطع آلة التناسل ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه والطيب ما غذا ونما فأما الجوامد والطين والتراب، وما لا يغذى فمتروك إلاّ على جهة التداوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

روى عن عائشة وأبى موسى الأشعرى أن النبى (عليه السلام) كان يأكل الفالوذج والدجاج وكان يعجبه الحلواء والعسل وقال: «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة». وقال: «فى بطن المؤمن زاوية لا يملأها إلاّ الحلواء».

ورى أن الحسن كان يأكل الفالوذج فدخل عليه فرقد السبخى فقال: يا فرقد ما تقول فى هذا؟ فقال فرقد: لا آكله فلا أحب أكله فأقبل الحسن على غيره كالمتعجب وقال: يا هذا أتحب لباب البر مع سمن البقر؟ هل يعيبه مسلم.

وجاء رجل إلى الحسن فقال: إن لى جاراً لا يأكل الفالوذ، وقال: ولم؟ قال: يقول: لا يروى شكره. قال الحسن: ويشرب الماء البارد؟ قال: نعم، قال: جارك جاهل إن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكثر من نعمته عليه فى الفالوذ.

قال ابن عباس: لما نزلت ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ الآيتين، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها؟ وكانوا حلفوا على ما عليه اتفقوا فأنزل الله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة ﴿عَقَّدتُّمُ﴾ مشدداً بمعنى وكّدتم، واختار أبو حاتم فقرأها أهل الكوفة بالتخفيف واختاره أبو عبيدة. و لتشديد التكرير مرّة بعد مرّة، . . . . أمن أن يلزم من قرائتك. الفراء: أن لا يوجب الكفارة عليه فى اليمين الواحدة متى يرددها مراراً وهذا خلاف الإجماع. وقرأ أهل الشام: عاقدتم بالألف، يكون من واحد مثل: جاياك الله ونحوها.

وقرأ الأعمش (عقدت الأيمان) بما جعل الفعل الإتيان.

ومعنى الآية بما قصدتم وتعمدتم وأردتم ونويتم كقوله ﴿بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ (البقرة: ٢٢٥).

﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾: أى كفّارة ما عقدتم من الأيمان إذا حلفتم ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ واختلفوا فى قدرها.

فقال الشافعى: مدّ وضوء النبى (عليه السلام) والمدّ رطل وثلث، وكذلك فى جميع الكفارات، وهو قول ثابت وابن عباس وابن عمر وابن المسيب والقاسم وسالم وسليمان بن يسار وعطاء والحسن واحتجوا بها.

أبو بكر الجورقى، أبو العباس بن منصور الفيروزآبادى، أحمد بن حفص حدّثنى أبى حدّثنى إبراهيم بن طهمان عن منصور بن المعتمر عن الزهرى عن حمد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال: رجل أتى رسول الله ﷺ فقال: إنى وقعت على أهلى وذلك فى رمضان، فأمره أن يعتق رقبة، قال: ما أجدها، قال: «فصم شهرين متتابعين» قال: ما أطيقه، قال: «فأطعم ستين مسكينًا»، قال: ما أجد، قال: فأتى رسول الله ﷺ بكيل فيه خمسة عشر صاعًا من تمر، قال: «خذ هذا فأطعمه»، قال: والذى بعثك بالحق ما بين لابتيها أدلّ شىء هو منها فقال رسول الله ﷺ: «خذه فى أطعمة أهلك» . . . .[1] وخمسة عشر صاعًا إذا قسم على ستين مسكينًا خص كل مسكين له مد.

وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة نصف صاع وإن أطعم من الشعير والتمر والزيت ونحوها فإنه يعطى صاعًا كاملاً لا يجزئ أقل من ذلك، وقول عمر بن الخطاب وابنه والنخعى والشعبى وابن جبير ومجاهد والحكم والضحّاك واحتجوا بحديث النبى ﷺ أنه أُتى بوسق صاعًا فأعطى رجلاً وجبت عليه كفّارة، وقال: «أعطه لستين مسكينًا».

وقال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ومحمد بن كعب: غداء وعشاء، وعند الشافعى لا يجوز أحد القيم فى الزكوات والكفارات، وأجاز أبو حنيفة فاعتبر الشافعى النص. وأبو حنيفة المنفعة والمصلحة، وعند الشافعى لا يجوز أن يعطى أقل من عشرة مساكين وأبو حنيفة إن أعطى مسكينًا فى عشرة أيام جاز، وقال الشافعى: لا يجوز أن يعطى الكفارة إلاّ حرًّا مسلمًا محتاجًا ولا يجوز أن يعطى العبيد والكفار ولا الأغنياء.

فقال أبو حنيفة: إن أعطى الكفارة أهل الذمة جاز فأما الزكاة فلا يجوز أن يعطى أهل الذمة بلا خلاف، ودليل الشافعى قوله ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ (النساء: ٥) والكافر من أسفه السفهاء قال الله ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣) وحجة أبى حنيفة قوله ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (الإنسان: ٨) الآية. والأسير لا يكون إلاّ من الكافرين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى من خير قوت عيالكم فلو أنه يقتات الحنطة لم يخوله أن يعطى الشعير.

وقرأ الصادق: أهاليكم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قرأه العامة: بكسر الكاف، وقرأ السلمى نصبه وهما لغتان مثل إسوة وأسوة، ورِشوة ورَشوة.

وقرأ ابن جبير أو كأسوتهم يعنى كأسوة أهلك فى الطعام والأسوة الميل والتمايل أى يطعمون المساكين كما يطعمون أهليكم، واختلف العلماء فى الكسوة التى تجرى فى الكفارات

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال قوم: هى ثوب واحد مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو سراويل أو كساء أو عمامة ونحوها. وهو قول ابن عباس والحكم والحسن ومجاهد وعطاء والباقر وإليه ذهب الشافعى. وقال آخرون: ثوب جامع لا تجزئ فيها العمامة، وهو مذهب النخعى وأبى حنيفة وقال مالك كل ما يجوز فيه الصلاة.

وقال ابن المسيب والضحّاك: لكل مسكين ثوبان، واحتجا بأن أبا موسى الأشعرى كان بذمته كفارة فكسا عشرة مساكين لكل واحد ثوبين ظهرانيًا ومعقدًا من معقد البحرين.

وقال شهر بن حوشب: ثوب ثمنه خمسة دراهم ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

قال الشافعى: لا يجوز فى كفارة واجبة إلاّ رقبة مؤمنة، مثل كفارة القتل واليمين والظهار والجماع فى نهار رمضان.

والسدى: والوصيفة ووافقه أبو حنيفة فى كفارة القتل وأجاز فى غيرها الرقبة الكافرة، ودليل الشافعى أن الله عزّ وجلّ قاله فى كفارة القتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء:٩٢) فقيّد وأطلق فى سائرها والمطلق محمول على المقيّد واحتج أيضًا بما روى: أن رجلاً جاء إلى النبى (عليه السلام) فقال: أوجبت يا رسول الله، فقال: اعتق رقبة فجاء برقبة أعجمية إلى النبى (عليه السلام)، فقال لها رسول الله: «من ربك؟» ففهمها الله فأشارت أنه واحد، فقال: «من أنا؟» فأشارت إلى السماء أى أنك رسول الله، فقال (عليه السلام): «أعتقها فإنها مؤمنة» وأوجبت لفظة مطلقة يحتمله.

وروى أبو سلمة عن الشديد أن أمه أوصت أن يعتق عنها رقبة فجاء رسول الله ﷺ، وقال: إن أمى أوصت أن يعتق عنها رقبة وعندى جارية نوبية سوداء أفأعتقها؟ قال: ادع بها فجىء بها، فقال: «من ربك؟» قالت: الله، قال: «من أنا»، قالت: رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، واتبع أبو حنيفة ظاهر الآية.

ويجوز فى الكفارة من الرقاب الصغير والكبير والذكر والأنثى، وأما إذا كان معيوبًا فاعلم أن العيب عيبان عيب يمنعه من العمل. فلا يجوز مثل الأعمى والأشل والمقعد والمجنون المطبق والأخرس. فإن كان عيبًا خفيفًا لا يمنعه من العمل فيجوز مثل الأجدع والمقطوع الخنصر ونحوها وهذا كما يقول فى الكسوة. فإن كان الثوب لبيسًا قد بلى وانقطع منه جل المنفعة لم يجز وإن لبس خفيفًا لم ينقطع منه جل المنفعة. والمكفّر بالخيار، مخير بين هذه الأشياء لأن الله ذكره بلفظ التخيير وهو أو ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واختلف الفقهاء فى صفة من لم يجد متى يجوز له الصيام.

فقال أبو حنيفة: إذا كان عندهم مائتا درهم وعشرون مثقالاً أو أقل ما يجب فيه الزكاة لم يجز له الصيام، فإن كان أقل من ذلك فهو غير واجد وجاز له الصوم.

وقال متأخرو الفقهاء: إذا كان له كفاية من المال يتصرف فيها لمعاشه. فإن فضل عن رأس ماله مقدار ما يكفر منه بالإطعام فليس له أن يصوم وإن لم يفضل عن رأس ماله مقدار ما يطعم فله أن يصوم.

وقال الشافعى: إذا كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته ومن الفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالطعام وإن لم يكن عنده هذا القدر فله الصيام.

وقال بعضهم: إذا ملك ما يمكنه الإطعام فليس له الصيام وإن لم يفضل له من الكفاية شيء. وهو قول ابن جبير والحسن قالا: إذا كان عنده درهمان وثلاثة فهو واجد وإن لم يجد شيئًا من هذا ﴿فَصِيَامُ﴾ أى فعليه أى فكفارته صيام ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ﴾ واختلفوا فى كيفية الصيام.

فللشافعى فيه قولان، أحدهما: أنها متتابعة وإن فرده لم يجز، وهو مذهب أبى حنيفة والثورى واختيار المزنى قياسًا على الصوم فى كفارة الظهار واعتباراً بقراءة عبد الله وأُبى، فصيام ثلاثة أيام متتابعات وهذا قول ابن عباس وقتادة. والقول الثانى: إنه بالخيار إن شاء تابع وإن يشاء فرق والمتابعة أحسن وأفضل وهو مذهب مالك.

﴿ذَٰلِكَ﴾: الذى ذكرت ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ﴾: قسمتم كقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ (البقرة: ١٨٤و١٨٥) وقوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ (البقرة: ١٩٦) يعنى فأقصر وأحلق ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ﴾ فلا تحلفوا فإذا حلفتم فلا تحزنون ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾
لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ

بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ : وقد مرّ تفسيره ، فإن جمعه تحريمها وسنذكر أخبارًا فى الوعيد الوارد فى شربها واتخاذها وبيعها وبالله التوفيق .

عن الشيخ أبى عمرو أحمد بن أبى الفرانى ، الحاكم أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الله المروزى حدثنى عبد الله بن يحيى حدثنى الحسين بن المبارك حدثنى عتبة بن الوليد عن عبد الله ابن حبيب عن الزهرى عن ابن المسيب عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يجمع الخمر والإيمان فى امرئ أبدًا» .

أحمد بن أبى ، عمران بن موسى ، ومارود بن بطن ، عثمان بن أبى شيبة ، محمد بن أبى سلمى الأصفهانى عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «مدمن الخمر كعابد الوثن» .

أحمد بن أُبى ، محمد بن يعقوب ، الربيع بن سليمان ، الشافعى ، مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «من شرب الخمر فى الدنيا ، ثم لم يتب منها حرمها فى الآخرة» .

أحمد بن أُبى ، أبو عبد الله بن محمد بن موسى الرازى ، الحارث بن أبى أسامة البغدادى ، داود بن المحسن الواسطى ، ميسر بن عبد ربه ، عن أبى عائشة السعدى ، عن يزيد بن عمر بن عبد العزيز عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة وابن عباس جميعًا قالا : قال رسول الله ﷺ : «من شرب الخمر فى الدنيا سقاه الله من سم الأساود وسم العقارب ، من شربها تساقط لحم وجهه فى الإناء قبل أن يشربها فإذا شربها تفسخ لحمه ينادى به أهل الجمع ثم يؤمر به إلى النار إلا وشاربها وعاصرها ومعتصرها وبايعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وكل فيها سواء فى إثمها وحاد بها ، ولا يقبل الله منه صلاة ولا صيامًا ولا حجًا ولا عمرة حتى يتوب فإن مات قبل أن يتوب منها كان حقًا على الله يعاقبه فيه بكل جرعة شربها فى الدنيا شربة من صديد

جهنم ألا وكل مسكر خمر وكل خمر حرام».

أحمد بن أُبى، أبو العباس الأصم، أحمد بن إسحاق الصنعانى، أبو نعيم، عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز عن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من أهل مصر عن ابن عمر أنه قال: أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها».

أحمد بن أُبى، أبو العباس الأصم، محمد بن إسحاق بن جعفر الصنعانى، نعيم بن حماد، عبد العزيز بن محمد عن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر ولا يموتن أحدكم وعليه دين فإنه ليس هناك دينار ولا درهم وإنما يقتسمون هناك الحسنات والسيئات واحد بيمينه وواحد بشماله».

أبو بكر أحمد بن محمد القطان، محمد بن الحسين بن محمد الدهقان، عثمان بن سعيد الدارمى، الربيع بن الروح أبو توبة الحلبى، محمد بن الحرمى عن حكم بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر بعد أن حرمها الله على لسانى فليس له أن يزوج إذا خطب ولا يصدق إذا حدث ولا يشفع إذا شفع ولا يؤتمن على أمانة فمن ائتمنه على أمانة فاستهلكها فحق على الله عزّ وجلّ أن لا يخلف عليه».

أنشدنا أبو القاسم الحبيبى، أنشدنا أبو العباس عبد الله بن محمد الجبائى، أنشدنا رضوان ابن أحمد الصيدلانى شعرًا:

تركت النبيذ لأهل النبيذ ... وصرت حليفًا لمـا عابه

شرابًا يدنس عرض الفتى ... ويفتـح للشـر أبوابـه

﴿وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾: أى الأوثان، سميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها، واحدها: نصب بفتح النون وجزم الصاد، ونصب منهم النون مثقلاً ومخففًا ﴿وَٱلْأَزْلَـٰمُ﴾ يعنى القداح التى كانوا يقتسمون بها ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ يزينه ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ رد الكناية إلى الرجس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ﴾ يلقى ﴿بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ كما فعل الأنصارى الذى شج سعد بن أبى وقاص بلحى الجمل ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أى انتهوا لفظه استفهام ومعناه أمر كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ المحارم والملاهى ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فأما التوفيق

والخذلان، والثواب والعقاب فإلى الله سبحانه، فلما نزل تحريم الخمر والميسر، قالت الصحابة: يا رسول الله ما تقول في إخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ شربوا الخمر نظيره قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ (البقرة: ٢٤٩) وفيما أكلوا من الميسر ذلك ذكر المنعم لأنه لفظ جامع ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ الشهوات ﴿وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ الخمر والميسر بعد تحريمهما ﴿وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ ما حرم الله عليهم كله ﴿وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الحسين بن محمد بن فنجويه، عمر بن الخطاب، محمد بن إسحاق المسوحي، أبو بكر ابن أبي شيبة، محمد بن بكر عن سعد بن عوف عن محمد بن حاطب قال: ذكر عثمان قال الحسن بن علي: هذا أمير المؤمنين يأتيكم خبركم فجاء علي فقال: إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ الآية، نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله بالصيد فكان الوحش يغشى رحالهم كثير وهم محرمون فبينما هم يسيرون بين مكة والمدينة إذ عرض إليهم حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه فقتله فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت حرم فأتى رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ليختبرنكم الله ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ وإنما بعض فقال بشيء لأنه ابتلاهم بصيد البرّ خاصة ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ وهي الفراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفر من الصيد الوحش ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ وهي الوحش وكبار الصيد ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ ليرى الله من يخافه بالغيب ولم يره ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فلا يصطاد في حال الإحرام ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي صاده بعد تحريمه فاستحله ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي محرمون بالحج والعمرة وهو جمع إحرام يقال رجل حرام وامرأة حرام ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ اختلفوا في صيغة العمد الموجب للجزاء والكفارة في قتل الصيد، قال: حرموا العمد في قتل الصيد مع نسيانه لإحرامه في حال قتله فأما إذا قتله عمداً وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه وأمره إلى الله لأنه أعظم من أن يكون له كفارة.

قرأ مجاهد والحسن وقال آخرون: هو العمد من يحرم بقتل الصيد ذاكر الحرمة فيحكم عليه في العمد والخطأ وهو اختيار الشافعي وأكثر الفقهاء.

وقال الزهري: نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ.

وقال ابن عباس: إن قتله متعمداً مختاراً سئل: هل قتلت شيئًا من الصيد؟ فإن قال: نعم

لم يحكم عليه وقيل له : اذهب فينتقم الله منك . وإن قال : لم أقتل قبله شيئًا حكم عليه فإن عاد وقتل الصيد محرمًا بعدما حكم عليه لم يحكم عليه ولكن يملأ ظهره وصدره ضربًا وجيعًا ، وكذلك حكم رسول الله (عليه السلام) فى وج وهو وادٍ بالطائف ، وعندنا إذا عاد يحكم عليه وعليه الجمهور بذلك .

قوله : ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ نوّنها يعقوب وأهل الكوفة ورفعوا المثل على البدل من الجزاء كأنه فسّر الجزاء فقال : مثل ما قتل من النعم وأضافها الآخرون لاختلاف الاسمين ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أى بالجزاء ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أى فقيهان عدلان فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به حتى يفديه ويهديه إلى الكعبة فإن قتل نعامة فعليه بدنة فإن قتل بقرة أو إبلاً أو حمارًا عليه بقرة وإن قتل بقرة وحشية فعليه عجل إنسى وفى الضبع كبش لأنه صيد وأكله حلال .

وأما السباع فلا شىء فيها وإن قتل ظبيًا فعليه شاة ، وفى الغزال والأرنب جمل ، وفى الضب واليربوع سخلة ، وفى الحمام والفواخت والقمرى والدبسى وذوات الأطواق وكل ما عبث وهدر شاة ، واختلفوا فى الجراد وروى عن عمر أنّه قال لكعب وقد قتل جرادتين : ما جعلت على نفسك ، قال : درهمًا قال : بخ ، قال : درهم خير من مائة جرادة .

وروى عن عمر أيضًا فى الجرادة تمرة .

قال ابن عباس : قبضة من طعام فإن أصاب فرخًا أو بيضًا أو شيئًا لا يبلغ بهيمة فعليه قيمته طعامًا ، وهو قول عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وابن عباس وابن عمر وإليه ذهب الشافعى ، وعليه جمهور أهل العلم ، قال النخعى : يقوم الصيد المقتول قيمته من الدراهم فيشترى بثمنه فداء من النعم ويهديه إلى الكعبة .

وروى عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجًا وكنا إذا صلينا الغداة أفسدنا رواحلنا نتماشى ونتحدث ، فبينا نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبى فابتدرناه فابتدرته ورميته بحجر فأصاب حشاه فركب ردعه فمات فلما قدمنا مكة سألنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وكان حاجًا وكان جالسًا وإلى جنبه عبد الرحمن بن عوف فسألته عن ذلك ، فقال عمر لعبد الرحمن : ما ترى؟ فقال : عليه شاة قال : وأنا أرى ذلك . قال : اذهب فأهد شاة فخرجت إلى صاحبى فقلت : إن أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره ، قال : فلم يفجأنا إلاّ وعمر معه درّة فعلانى بالدرّة فقال : أتقتل فى الحرم وتسفه الحكم ، قال الله : ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فأنا عمر وهذا عبد الرحمن .

محمد بن عبدوس عن محمد بن الحسن عن على بن عبد العزيز عن القاسم بن علام عن أبى أمية عن أبى صوليه عن عبد الملك بن عمير: أو كفارة طعام مساكين إذا لم يكن واجداً للفدية أو لم يكن للمقتول مثل من النعم فكفارته حينئذ الإطعام، يقوم الصيد المقتول دراهم ثم يقوّم الدراهم طعامًا فتصدق على مساكين الحرم فإن لم يجد فصيام لكل نصف صاع يومًا عند أبى حنيفة، وقال الشافعى: لكل مدّ وعنده أنه يخير من هذه الأشياء الثلاثة فإنه ذكرها تلفظًا وهو قول مجاهد وعطاء، واختلفوا فى تقويم الطعام.

فقال الشافعى وأبو حنيفة وأكثر الفقهاء: يقوم الصيد قيمة الأرض التى أصابه بها.

وقال الشعبى: يقوّم بسعر الأرض التى يكفر بها. قال جابر: سأل الشعبى عن محرم أصاب صيداً بخراسان. قال: يكفر بمكة بثمن مكة.

واختلفوا فى الإطعام أين يُطعم؟

فقال قوم: يُطعم بمكة فلا يجزى إلاّ بها، وهذا قول عطاء وإليه ذهب الشافعى.

فأما الهدى فلا يجوز إلاّ بمكة بلا خلاف. فأما الصوم فيجوز بأى موضع صام بلا خلاف فلو أكل من لحم صيد فلا جزاء عليه إلاّ فى قتله أو جرحه ولو دلّ على صيد كان مسيئًا جزاء عليه كما لو أمر بقتل مسلم لا قصاص عليه وكان مسيئًا.

واعلم أن الصيد الذى لا يجوز قتله فى الحرم وفى حال الإحرام هو ما حلّ أكله.

أبو عبد الله الحسين بن محمد الدينورى، أبو بكر البستى، أبو عبد الرحمن البستى، قتيبة ابن سعد عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خمس ليس على المحرم فى قتلهن جناح: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة والكلب العقور».

وبه عن عبد الرحمن عمرو بن على عن يحيى عن شعبة عن قتادة عن ابن المسيّب عن عائشة عن النبى ﷺ قال: «خمس يقتلهن المحرم: الحية والفأرة والحدأة والغراب الأبقع والكلب العقور».

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾: جزاء معصيته ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾: فى الجاهلية ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فى الإسلام ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ فى الآخرة.

وقال ابن عباس: يملأ ظهره سوطًا حتى يموت.

السدى: عاد رجل بعدما حكم عليه بالتحريم وأحرقه الله بالنار.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ على المحرم والحلال. وهو على ثلاثة أوجه: الحيتان وأجناسها وكلها حلال، والثانى: الضفادع وأجناسها وكلها حرام. والثانى فيه

قولان، أحدهما: حلال، والثانى: حرام، وهو مذهب أبى حنيفة.

وقال بعضهم: كل مكان مثاله فى البر فهو حلال فى البحر وما كان مثاله جزاء ما فى البر فهو حرام فى البحر.

فأراد بالبحر جميع المياه لقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الروم: ٤١).

﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ قال بعضهم: هو ما مات فى الماء فقذفه الماء إلى الساحل ميتًا وهو قول أبى بكر وعمر وابنه وأبى هريرة وابن عباس، وقال بعضهم: هو المليح منه، وهو قول ابن جبير وعكرمة والنخعى وابن المسيب وقتادة ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يعنى المارة.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾: لا يجوز للمحرم أكل الصيد إذا صاد هو وصيد له بأمره فأما إذا صاده حلال بغير أمره ولا له فيجوز له بلا خلاف.

فأما إذا قتله المحرم فهل يجوز أكله أم لا؟.

قال الشافعى: يجوز لأنه ذكاة مسلم، وعند أبى حنيفة لا يجوز فأحلّه محل ذكاة المجوس، ودليل الشافعى، أبو عبد الله النفجوى، أبو بكر السنى، النامى، محمود بن عبد الله، أبو داود، سعيد عن عثمان بن عبد الله موهب سمعت عبد الله بن أبى قتادة حدث عن أبيه أنهم كانوا فى مسير لهم فى بعضهم ليس بمحرم، قال: فرأيت حماراً وحشيًا، فركبت فرسى وأخذت الرمح واستعنتهم فأبوا أن يعينونى فاختلست سوطًا من بعضهم فشددت على الحمار وأخذته فأكلوا منه فأشفقوا فسئل عن ذلك النبى (عليه السلام) فقال: هل محرم عنيتم؟ قالوا: لا، قال: فكلوا.

وبإسناده عن النسائى قال: حدّثنا قتيبة بن سعيد عن يعقوب وهو ابن عبد الرحمن بن عمرو عن المطلب عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه أو صيد لكم».

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ
لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ۝ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا
سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ
أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ الآية.

قال ابن عباس: كانوا يتغادرون ويتقاتلون فأنزل الله ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾.

قال مجاهد: سميت كعبة مربع والعرب تسمى كل بيت مربع كعبة.

وقال مقاتل: سميت كعبة لانفرادها من البنيان.

قال أهل اللغة: أصلها من الخروج والارتفاع وسمّى الكعب كعبًا لخروجه من جانبى القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرجت ثدياها: قد تكعبت، فسميت الكعبة كعبة لارتفاعها من الأرض، وثباتها على الموضع الرفيع، وسميت البيت الحرام لأن الله حرّمه وعظم حرمته.

وفى الحديث: «مكتوب فى أسفل المقام: إنى أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض. ويوم وضعت هذين الجبلين وحففتهما بسبعة أملاك حفًا من جاءنى زائرًا لهذا البيت عارفًا بحقه مذعنًا لى بالربوبية حرّمت جسده على النار».

﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾: أى قوامًا لهم فى أمر دينهم ودنياهم وصلاحًا لمعاشهم ومعادهم لما يحصل لهم من الحج والعمرة والزيارة والتجارة وما يجبى إليه من الثمرات ويظهر فيه من أنواع البركات.

فقال ابن جبير: من أتى هذا البيت يريد شيئًا للدنيا والآخرة أصابه ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أراد به الأشهر الحرم يأمن فيها الناس ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ الآية.

اعتُرض على هذه الآية وقيل: كيف يليق أول الآية بآخرها؟ فالجواب أن مجاز الآية إن الله يعلم صلاح الناس كما يعلم ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الآيتين ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ يعنى الحلال والحرام.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ : نزلت فى شرح بن صبيعة وحجاج بكر بن وائل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تتعرضوا للحجاج وإن كانوا مشركين.

وقد مضت القصة فى أول السورة ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ الآية، اختلفوا فى نزولها، فروى الزهرى وقتادة عن أنس وأبو صالح عن أبى هريرة قالا: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى ألحوا بالمسألة فقام مغضبًا خطيبًا وقال: سلونى فوالله لا تسألونى عن شيء فى مقامى هذا لآتيته لكم، فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدى أمر قد مضى، قال أنس: فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالاً إلاّ وجدت رجلاً لافًا رأسه فى ثوبه يبكى، فقام إليه رجل من قريش من بنى تميم يقال له عبد الله بن حذافة: وكان يطعن فى نسبه وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبى الله من أبى؟ قال: أبو حذافة بن قيس».

قال الزهرى: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدًا بأعق منك قط أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس.

فقال: والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته، فقام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله أين أنا؟ قال: فى النار.

فقام عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقبل رجل رسول الله وقال: رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا وبالقرآن إمامًا، إنّا يا رسول الله حديثو عهد بالجاهلية والشرك فاعف عنا عفا الله عنك فسكن غضبه وقال: «أما والذى نفسى بيده لقد صورت لى الجنة والنار آنفًا فى عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم فى الخير والشر».

وقال ابن عباس: كان قوم يسألون رسول الله (عليه السلام) امتحانًا بأمره، واستهزاءً به، فيقول له بعضهم من أبى؟ ويقول الآخر: أين أنا؟ ويقول الآخر إذا حلّت ناقته: أين ناقتى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال على وأبو أمامة الباهلى: خطب بنا رسول الله ﷺ وقال: «إن الله كتب عليكم الحج». فقام رجل من بنى أسد يقال له عكاشة بن محصن فقال: أفى كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثًا، فقال (عليه السلام): «ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو أوجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركونى كما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية حين قالوا لرسول الله عن البحيرة والسائبة ألا ترى يقول بعد ذلك ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ الآية ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ تسؤكم لأن القرآن إنما ينزل بإلزام فرض فيشق عليكم أو شىء كان حلالاً لكم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ كما سألت ثمود صالحًا الناقة، وقوم عيسى المائدة ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾ فأهلكوا.

روى مكحول الشامى عن أبى ثعلبة الخشنى قال: إن الله فرض فرائض فلا تسبقوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحدّ حدودًا فلا تعتدوها وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: ما أنزل الله ولا من الله ولا أمر به نظيره قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ (الزخرف: ٣) أى أنزلناه، ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبى صالح السمّان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأكثم بن الجون: يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا بك منه، وذلك أنه أول من غيّر دين إسماعيل ونصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى، ولقد رأيت فى النار يؤذى أهل النار ريح قصبه» فقال أكثم: تخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله، قال: «لا أنت مؤمن وهو كافر».

قال: وذلك أن الناقة إذا تابعت ثنتى عشرة إناثًا سيبت فلم يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلاّ ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم يخلى سبيلها مع أنها فى الإبل يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلاّ ضيف كما فعل بأمها وهى البحيرة بنت السائبة.

وقال ابن عباس: على أنهم كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن نظروا فى البطن الخامس، فإن كان ذكرًا نحروه، فأكله الرجال والنساء جميعًا وإن كانت أنثى شقوا أُذنها فتلك البحيرة ولا يجز لها وبر، ولا يذكر عليها اسم الله إن ذكيت ولا يحمل عليها وحرّمت على النساء لا يذقن من ألبانها ولا ينتفعن بها وكانت لبنها ومنافعها خاصة للرجال دون النساء حتى تموت، وإذا ماتت اشترك الرجال النساء فى أكلها. وقيل: هو أنهم كانوا إذا ولد السقب بحروا أذنها وقالوا: اللهم إن عاش ففتى وإن مات فذكى، فإذا مات أكلوه.

وأما السائبة فكان الرجل يسيب من ماله فيجىء به إلى السدنة فيدفعه إليهم فيطعمون منه

أبناء السبيل من ألبانها ولحمانها إلاّ النساء فإنهم كانوا لا يعطونهن منها شيئًا حتى يموت فإذا مات أكلها الرجال والنساء جميعًا.

وقال علقمة: هى العبد يسيب على أن لا يكون له ولاء ولا عقل، وله ميراث. فقال (عليه السلام): «إنما الولاء لمن أعتق». وإنما أخرجها بلفظ الفاعلة وهى بمعنى المفعولة وهى المسيبة والمخلاة على مذهب قوله ماء دافق وعيشة راضية، وأما الوصيلة فهى الشاة إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان البطن السابع ذكراً ذبحوه وأهدوه للآلهة، وإن كانت أنثى استحيوها، فإن كانت ذكراً أو أنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى.

وقالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوه، وأما الحامى فهو الفحل إذا ركب ولد فيلده قبل حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا رعى إلا أن يموت فيأكله الرجال والنساء قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فى قولهم: والله أمرنا بها ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فى تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من الذين قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ نظيرها فى سورة البقرة ولقمان.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ۝ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية، اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فأجراها بعضهم على الظاهر.

وقال ضمرة بن ربيعة: تلا الحسن هذه الآية، وقال: الحمد لله لها والحمد لله عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله.

وقال بعضهم: معناها عليكم أنفسكم فاعملوا بطاعة الله ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر.

أبو البحترى عن حذيفة فى هذه الآية: إذا أمرتم ونهيتم.

وروى إسماعيل بن أبى خالد عن أبى ظبيان عن قيس بن أبى حازم قال: قال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) على المنبر: إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هى وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه عمّهم الله بعقاب، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فيقول أحدكم: علىّ نفسى، والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فليس منكم هو فى العذاب، ثم ليدعنّ الله خياركم فلا يستجيب لهم» يدل عليه حديث أبى هريرة قال: قلنا: يا رسول الله إن لم نأمر بالمعروف ولم ننه عن المنكر حتى لا يبقى من المعروف شىء إلا عملنا به ولا من المنكر شىء إلاّ انتهينا عنه ولا نأمره ولا ننهى أبداً.

فقال (عليه السلام): «فمروا بالمعروف فإن لم يقبلوا به كله ما نهوا عن المنكر وإن لم ينتهوا عنه كله» وقيل: معنى الآية: عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم.

قال شقيق بن عقد: قيل لابن عمر: لو جلست فى هذه الأيّام فلم تأمر ولم تنه فإن الله قال ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾.

فقال ابن عمر: إنها ليست لى ولا لأصحابى، لأن رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب» فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم تقبل منهم.

وروى سهل بن الأشهب عن الحسين والربيع عن أبى العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، فقال ابن مسعود: ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم فإذا رُدت عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل حين نزل فمنه آى قد

مضى تأويلهن ومنه آى وقع تأويلهن على عهد رسول الله ومنه آى يقع تأويلهن بعد النبى ﷺ يسير ومنه من يقع آى لا ينهض بعد اليوم ومنه آى يقع فى آخر الزمن ومنه آى يقع تأويلهن يوم القيامة ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعًا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء وأُلبستم شيعًا وذاق بعضكم بأس بعض فامْرُؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية.

قال أبو أميّة السمعانى: سمعت أبا ثعلبة الخشنى عن هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾.

فقال أبو ثعلبة: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «ائمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت دينًا مؤثرًا وشحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك وذر عوامهم فإن وراءكم أيامًا أيام الصبر فإذا عمل العبد بطاعة الله لم يضره من ضل بعده وهلك وأجر العامل يومئذ بمثل الذى أنتم عليه كأجر خمسين عامل».

قالوا: يا رسول الله كأجر خمسين عاملاً منهم؟ قال: «لا بل كأجر خمسين عاملاً منكم».

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية فى أهل الأهواء.

وقال أبو جعفر الرازى: دخل على صفوان بن حارث شاب من أصحاب الأهواء فذكر شيئًا من أمره، فقال صفوان: ألا أدلك على خاصة الله التى يخص بها أولياءه، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية.

وقال الضحاك: عليكم أنفسكم إذا اختلفت الأهواء ما لم يكن سيف أو سوط.

وقال ابن جبير: نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب يعنى عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل من أهل الكتاب.

وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل هجر وعليهم المنذر ابن ساوى التميمى يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا فليؤدوا الجزية فلما أتاه الكتاب عرضه على من عنده من اليهود والعرب والنصارى والمجوس فأقرّوا بالجزية وكرهوا الإسلام، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «أما العرب فلا تقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فاقبل منهم الجزية». فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله عليه السلام أسلمت العرب وأما أهل الكتاب والمجوس أعطوا الجزية، فقال فى ذلك: منافقو أهل مكة وقالوا: عجبًا من محمد يزعم أن الله تعالى بعثه ليقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، وقد قبل من مجوس هجر وأهل الكتاب الجزية، هلاّ أكرههم على الإسلام وقد ردّها على إخواننا من العرب؟ فشقّ

ذلك على المسلمين مشقة شديدة فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعنى بعد أن بلغ محمد فاحذر، وأنزل بعدما أسلم العرب ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال ابن عباس: نزلت فى جميع الكفار وذلك أن الرجل كان إذا أسلم قالوا: سفهت أباك، وضللت، وفعلت وفعلت فأنزل الله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ وهذه لفظة إغراء، والعرب تغرى من الصفات بعليك ولبيك وإليك وعندك ودونك.

ثم قال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الضال والمهتدى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية نزلت فى ثلاثة نفر خرجوا تجاراً من المدينة إلى الشام، عدى بن فدى، وتميم بن أوس الدارى وهما نصرانيان وبديل مولى عمرو بن العاص السهمى وكان مسلمًا مهاجراً واختلفوا فى كنية أبيه.

فقال الكلبى: بديل بن أبى مازنة. وقال قتادة وابن سيرين وعكرمة: هو ابن أبى مارية، ومحمد بن إسحاق بن يسار وابن أبى مريم، فلما قدموا إلى الشام مرض بديل وكتب كتابًا فيه جميع ما معه وطرحها فى متاعه ولم يخبر صاحبه بذلك، فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدى وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، ومات بديل ففتشا متاعه فأخذا منه إناء من فضة منقوشًا بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة مموّهة بالذهب فغيباه ثم قضيا حاجتهما وانصرفا وقدما المدينة فدفعا المتاع إلى أهل الميت ففتشوا فوجدوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه وما فيها الإناء فجاءوا تميمًا وعديًا. فقالوا: هل باع صاحبنا شيئًا من متاعه؟ قالا: لا، قالوا: فهل خسر تجارة؟ قالا: لا، قالوا: فهل طال مرضه فأنفق على نفسه؟ قالا: لا. قالوا: فإنا وجدنا فى متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وإنا فقدنا فيها إناء من فضة مموّهة بالذهب فيها ثلاثمائة مثقال فضة، قالا: لا ندرى إنما أوصى إلينا بشىء وأمرنا أن ندفعه إليكم ودفعناه وما لنا إلاّ من حكم، فرفعوها إلى النبى ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾.

قال أهل الكوفة: معناه ليشهد اثنان لفظ الآية خبر ومعناها أمر. قال أهل البصرة: معناه شهادة بينكم شهادة اثنين فألقيت الشهادة وأقيمت الاثنان مقامهما كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) أى أهل القرية ما بقى أهل وأقام القرية مقامه فنصبها.

وقال بعضهم: معناه شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت أن يشهد اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أمانة وعقل ﴿مِّنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين من أهل دينكم وملتكم.

قال جميع المفسرين إلاّ عكرمة وعبيد فإنهما قالا: معناه من حى الموصى.

واختلفوا فى صفة الاثنين، فقال قوم: هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصى.

وقال آخرون: هما الوصيان أراد الله تأكيد الأمر فجعل الوصى اثنين دليل هذا التأويل أنه عقَّبه بقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ﴾ ولا يلزم الشاهد يمين، ولأن الآية نزلت فى الوصيين، وعلى هذا القول تكون الشهادة بمعنى الحضور، كقولك: شهدت فلانًا أى حضرت، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ (البقرة:١٣٣) الآية، فقال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:٢).

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: ملّتكم وهو قول ابن المسيب والنخعى وابن جبير ومجاهد وعبيدة ويحيى بن يعمر وأبى محجن قالوا: إذا لم يجد مسلمين فليشهد كافرين.

قال شريح إذا كان الرجل بأرض غربة فلم يجد مسلمًا يشهده على وصيته فليشهد يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا أو عابد وثن وأىّ كافر كان فشهادته جائزة ولا يجوز شهادة الكافرين على المسلمين إلاّ فى سفرة ولا يجوز فى سفر إلاّ فى وصية فإن جاء رجلان مسلمان وشهدا بخلاف شهادتهما أجيزت شهادة المسلمين فأبطلت شهادة الكافرين.

وعن الشعبى: أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة فأوصى ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته، فقال الأشعرى: هذا أمر لم يكن بعد، الذى كان فى عهد رسول الله فأحلفهما وأمضى شهادتهما.

قال آخرون: معناه من غير حيّكم وعشيرتكم. وهذا قول الحسن والزهرى وعكرمة قالوا: لا يجوز شهادة كافر فى سفر ولا حضر.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: سرتم وسافرتم فى الأرض ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم إليهما فلم يأمنان الارتياب بحق الورثة فاتهموهما فى ذلك فادعوا عليهما خيانة، فإن الحكم حينئذ أن ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أى تستوقفونهما ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقال ابن عباس: هذا من صلة قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الكفار فأما إذا كان مسلمين، فلا يمين عليهما، واختلفوا فى هذه الصلاة ما هى.

فقال النخعى والشعبى وابن جبير وقتادة: من بعد صلاة العصر. وقال السدى: من بعد صلاة أهل دينهما وملتهما لأنهما لا يباليان بصلاة العصر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ فيحلفان ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ يقول لا نحلف بالله كاذبين على عرض نأخذه عليه ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان الذى يقسم له به ذا قربى ذا قرابة معنا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ قرأ الشعبى لا نكتم

شهادة الله بالتنوين، الله بخفض الهاء على الاتصال أراد الله على القسم.

وروى عن أبى جعفر (شهادة الله) بقطع الألف وكسر أولها على معنى ولا نكتم شهادة ثم ابتدأ يمينًا فقال: الله أو والله . . . .[1] يعقب بتنوين الشهادة، (الله) بالألف واللام وكسر الهاء وجعل الاستفهام حرفًا من حروف القسم، فروى عن بعضهم شهادة منونة، الله بنصب الهاء يعنى ولا نكتم شهادة الله أما إن فعلنا ذلك ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ فلما نزلت الآية على رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعا بعدى وتميم، فاستحلفا عند المنبر بالله الذى لا إله إلاّ هو أنهما لم يخونا شيئًا مما دفع إليهما فحلف على ذلك وخلى رسول الله ﷺ سبيلهما حين حلفا فكتما الإناء ما شاء الله أن يكتما ثمّ ظهر واختلفوا فى كيفية ظهور الإناء.

فروى ابن جبير عن ابن عباس أن الإناء وجد بمكة فقالوا: اشتريناه من عدى وتميم.

قال الآخرون: لما طالت المدة أظهر الإناء وبلغ ذلك بنى تميم فأتوهما فى ذلك. فقالا: إنا كنّا قد اشترينا منهم هذا وقالوا: ألم تزعما بأن صاحبنا لم يبع شيئًا من متاعه؟ قالا: لم يكن عندنا ثمنه فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناكموه لذلك فرفعوهما لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ أى أطلع وظهر وأصل العثر الوقوع والسقوط على الشىء ومنه قوله: عثرت بكذا إذا أصبته وصدمته ووقعت عليه.

قال الأعمش:

بذات لوث عفرناه إذا عثرت   فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

يعنى بقوله: عثرت أصاب ميم خفها مجر أو غيره، ثمّ يستعمل فى كل واقع على شىء كان عنه خفيًا كقولهم فى أمثالهم: عثرت على الغزل بأخرة فلم تدع بنجد قردة.

﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾: يعنى الوصيين ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾: أى استوجبا إثمًا بأيمانهما الكاذبة وخيانتهما ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾: من أولياء الميت ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾: يعنى مقام الوصيين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ﴾.

قرأ الحسن وحفص بفتح التاء وهى قراءة على وأُبى بن كعب أى وجب عليهم الإثم يقال حق واستحق بمعنى وقال: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَـٰنِ﴾ رجع إلى قوله: فآخران الأوليان ولم يرتفع بالاستحقاق.

وقرأ الباقون: بضم التاء على المجهول يعنى الذين استحق فيهم ولأجلهم الإثم وهم ورثة الميت، استحق الحالفان بسببهم وفيهم الإثم على المعنى كقوله: ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَـٰنَ﴾ (البقرة: ١٠٢).

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال صخر الغي :

متى ما تنكروها تعرفوها على أقطارها علق نفيث

﴿ٱلۡأَوۡلَيَـٰنِ﴾ : بالجمع قرأه أكثر أهل الكوفة واختيار يعقوب أي من الذين الأولين. وقرأ الحسن : الأولون ، وقرأ الآخرون الأوليان على لغة الآخرين وإنما جاز ذلك ، الأولان معرفة والآخران بكثرة لأنه حين قال من الذين وحدهما ووصفهما صار كالمعرفة في المعنى .

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾ : أي والله لشهادتنا ﴿أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ : يعني يميننا أحق من يمينهما . نظيره قوله : ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَـٰدَٰتِۭ﴾ (النور:٦) في قصة اللعان أراد الأيمان، وهذا كقول القائل : أشهد بالله وله أقسم ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ في يميننا ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن وداعة السهميان حلفا بالله بعد العصر مرّة فدفع الجام إليهما وإلى أولياء الميت ، وكان تميم الداري بعدما أسلم وبايع النبي ﷺ يقول : صدق الله عزّ قوله أنا أخذت الجام فأتوب إلى الله وأستغفره .

وإنما انتقل اليمين إلى الأوليان ، لأن الوصيين صح عليهما الإناء ثم ادعيا أنهما ابتاعاه ، وكذلك إذا ادعى الوصي أن الموصي أوصى له بشيء ولم يكن ثم بينة ، وكذلك إذا ادعى رجل قبل رجل مالاً فأقرّ المدعى عليه بذلك ثم ادعى أنه اشتراها من المدعي أو وهبها له المدعي ، فإن في هذه المسائل واشتباهها يحكم برد اليمين على المدعي .

روى محمد بن إسحاق عن أبي النضير عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري ، قال : بعنا الجام بألف درهم فقسمناه أنا وعدي فلما أسلمت تأثمت من ذلك بعدما حلفت كاذبًا وأتيت موالي الميت فأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فوثبوا إليه فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا . فأمر الموالي أن يحلفوا فحلف عمرو والمطلب فنزعت الخمسمائة من عدي ورددت أنا الخمسمائة فذلك قوله : ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ أي ذلك أجدر وأحرى أن يأتي الوصيان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم إذا خافوا ردّ اليمين وإلزامهم الحق .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ الآية . واختلفوا في حكم الآية . فقال بعضهم : هي منسوخة وروى ذلك ابن عباس . وقال الآخرون : هي محكمة وهي الصواب ﴿يَوۡمَ﴾ أي اذكروا واحذوا يوم ﴿يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ أي ما الذي أجابتكم أمتكم وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي ﴿قَالُواْ﴾ أي فيقولون ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾ قال ابن عباس : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا .

وقال ابن جريج: معنى قوله ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ أى ما حملوا ويصدقوا بعدكم فيقولوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾.

الحسن ومجاهد، السدى ممن يقول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب، ثم يحتسبون بعدما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمتهم.



﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ
وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ
وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ
بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ
يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن
نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى
ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ
وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ
عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ
ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن
كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا
تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن
تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ : يعنى حين قال الله يا عيسى ابن مريم ، محل عيسى نصب لأنه نداء المنصوب إذا جعلته نداء واحداً ، فإن شئت جعلته ندائين فيكون عيسى فى محل الرفع لأنه نداء مفرد وابن فى موضع النصب لأنه نداء مضاف ، وتقدير الكلام يا عيسى يا بن مريم . نظيره قوله :

يا حكم بن المنذر بن الجارود أنت الجواد ابن الجواد ابن الجود

ذلك فى حكم الرفع والنصب ، وليس (ابن المنذر) عن النصب ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾ قال الحسن : ذكر النعمة شكرها وأراد بقوله نعمتى نعمى لفظه واحد ومعناه الجمع كقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم : ٣٤) أراد نعم الله لأن العدد لا ينفع على الواحد ﴿عَلَيْكَ﴾ يا عيسى ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ مريم ، ثم ذكر النعم ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويّتك وأعنتك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعنى جبرئيل ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ صبيًا ﴿وَكَهْلًا﴾ نبيًا ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ قال ابن عباس : أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة فمكث فى رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه .

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ : يعنى الخط ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنى العلم والقيم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ تجعل وتصوّر وتقدر إلى قوله : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون : ١٤) أى المصورين من الطين ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ كصورة الطير .

﴿بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ : حيًا يطير بإذنى ﴿وَتُبْرِئُ﴾ تصح وتشفى ﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِى﴾ فأحيا سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ منعت وصرفت ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعنى اليهود ﴿عَنكَ﴾ حين همّوا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ يعنى الدلالات والمعجزات التى ذكرتها ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنى ما جاءتهم من البينات ومن قال ساحر بالألف فإنه راجع إلى عيسى (عليه السلام) .

محمد بن عبد الله بن حمدون ، مكى بن عبدان ، أبو الأزهر عن أسباط عن مجاهد بن عبد الله بن عمير قال : لما قال الله لعيسى : ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئًا لغد ولم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أدركه الليل بات .

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ : أى ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم الوحى . والوحى على أقسام ، وحى بمعنى إرسال جبرئيل إلى الرسول ، ووحى بمعنى الإلهام كالإيحاء إلى أم موسى

والنحل ووحى بمعنى الأحلام فى حال اليقظة فى المنام.

قال أبو عبيدة: أوحى لها: أى إليها، وقال الشاعر:

ومن لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت

يعنى أمرت (وإلى) صلة يقال: أوحى ووحى. قال الله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة: ٥).

قال العجاج: أوحى لها القرار فاستقرّت.

أى أمرها بالقرار فقرت. والحواريون خواص أصحاب عيسى.

قال الحسن: كانوا قصارين. وقال مجاهد: كانوا صيادين.

وقال السدى: كانوا ملاحين.

وقال قتادة: الحواريون الوزراء.

وقال عكرمة: هم الأصفياء. وكانوا اثنى عشر رجلاً، بطرس ويعقوب ويحنس وأندرواسى خيلبس وأبرثلما ومتى، وتوماس، ويعقوب بن حلقيا، وتداوسيس، وفتاتيا، وتودوس، ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ عيسى ﴿قَالُوٓاْ﴾ حين لقيتهم ورفقتهم ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

قرأ على وعائشة وابن عباس وابن جبير ومجاهد: هل تستطيع بالتاء، ربك بنصب الباء، وهو اختيار الكسائى وأبى عبيدة على معنى هل تستطيع أن تدعو ربّك كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) وقالوا: لأن الحواريين لم يكونوا شاكّين فى قدرة الله تعالى. وقرأ الباقون بالياء قيل: يستطيع ربك برفع الباء فقالوا: إنهم لم يشكوا فى قدرة الله تعالى وإنما معناه هل ينزل أم لا كما يقول الرجل لصاحبه. هل تستطيع أن تنهض معى وهو يعلم أنه يستطيع وإنّما يريد هل يفعل أم لا، وأجراه بعضهم على الظاهر، فقالوا: غلط قوم وكانوا مشوا، فقال لهم عيسى عند الغلط استعظامًا لقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى أن تشكوا فى قدرة الله تعالى أو تنسبوه إلى عجز أو نقصان ولستم بمؤمنين والمائدة هى الخوان الذى عليه الطعام وهى فاعلة إذا أعطاه وأطعمه، كقولهم: ماد يميد، وغار يغير، وامتاد افتعل ومنه قول رؤبة:

تهدى رءوس المترفين الأنداد إلى أمير المؤمنين المتاد

أى المستعطى.

قال رؤبة: والمائدة هى المطعمة المعطية الآكلين الطعام وسمى الطعام أيضًا مائدة على الخوان لأنه يؤكل على المائدة كقولهم للمطر سماء، وللشحم ثرى.

وقال أهل الكوفة: سميت مائدة لأنها تميد الآكلين أى تميل ومنه قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥).

قال الشاعر:

وأقلقنى قتل الكنانى بعــــده وكادت بى الأرض الفضاء تميد

فقال أهل البصرة: هى فاعلة بمعنى المفعول أى تميد بالآكلين إليها، كقوله عيشة راضية أى مرضية، قال عيسى مجيبًا لهم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تشكوا فى قدرته. وقيل: اتقوا الله أن تسألوه شيئًا لم يسأله الأمم قبلكم ﴿قَالُواْ﴾ إنما سألنا لأنا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ نستيقن قدرته ﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾: لله بالوحدانية والقدرة ولك بالنبوة والرسالة، وقيل: ونكون عليها من الشاهدين لك عند بنى إسرائيل، إذا رجعنا إليهم، قال عيسى عند ذلك ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ حال ردّ إلى الاستقبال أى كائنة وذلك كقوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى﴾ (مريم: ٥، ٦) يعنى يصدقنى فى قراءة من رفع.

وقرأ عبد الله والأعمش: تكن لنا بالجزم على جواب الدعاء.

﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: أى عائداً من علينا وحجة وبرهانًا والعيد اسم لما اعتد به وعاد إليك من كل شىء ومنه قيل: أيام الفطر والأضحى عيد لأنهما يعودان كل سنة.

ويقال: لطيف الخيال عيد.

قال الشاعر:

يا عيد ما لك من شوق وإيراق ومرّ طيف على الأهوال طراق

فقال آخر:

اعتاد قلبك من جبينك عود شق عنـاك فأنت عنه تذود

وأنشد الفراء:

فوا كبدى من لاعج الحب والهوى إذا اعتاد قلبى من أميمـة عيدها

وأصله عود بالواو ولأنه من عاد يعود إذا رجع فقلبت الواو بكسرة ما قبلها مثل النيران والميقات والميعاد.

قال السدى: معناه نتخذ اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا.

وقال سفيان: نصلى فيه.

وقال الخليل بن أحمد: العيد كل يوم مجمع كأنهم عادوا إليه.

وقال ابن الأنصارى: سمى العيد عيداً للعود من الترح إلى الفرح فهو يوم سرور للخلق كلهم ألا ترى أن المسجونين لا يطالبون ولا يعاقبون ولا تصطاد فى الوحوش والطيور ولا ينفذ الصبيان إلى المكتب، وقيل: سمى عيداً لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته ألا ترى اختلاف ملابسهم وأحوالهم وأفعالهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف ومنهم من يظلم ومنهم من يرحم، وقيل: سمى بذلك لأنه يوم شريف فاضل تشبيهاً بالعيد وهو فحل نجيب كريم ومشهور فى العرب وينسبون إليه فيقال: إبل عيدية. قال الراعى:

عيد به طويت على زفراتها طى القناطر قد نزلن نزولا

وقوله: ﴿لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: يعنى قبل زماننا ولمن يجىء بعدنا.

وقرأ زيد بن ثابت: لأولنا وآخرنا على الجميع.

وقال ابن عباس: يعنى نأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾: دلالة وحجة ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ۝ قَالَ ٱللَّهُ﴾: مجيبًا لعيسى ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾: يعنى المائدة.

وقرأ أهل الشام والمدينة، وقتادة وعاصم: منزلها بالتشديد لأنها نزلت وقرأت والتفعل يدل على الكثير مرة بعد مرة لقوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

وقرأ الباقون بالتخفيف لقوله: أنزل علينا ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾: أى بعد نزول المائدة فمسخوا قردة وخنازير.

وقال عبد الله بن عمران: أشد الناس عذابًا يوم القيامة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

واختلف العلماء فى المائدة هل نزلت عليهم أم لا؟

فقال مجاهد: ما نزلت المائدة وهذا مثل ضربه الله.

وقال الحسن: والله ما نزلت مائدة إن القوم لما سمعوا الشرط وقيل لهم ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ الآية استغفروا وقالوا: لا نريدها ولا حاجة فيها فلم ينزل، والصواب أنها نزلت لقوله: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقع فى خبره الخلف، وتواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين وغيرهم من علماء الدين فى نزولها، قال كعب: نزلت يوم الأحد، لذلك اتخذه النصارى عيداً.

واختلفوا فى صفتها وكيف نزلوها وما عليها.

فروى قتادة عن جلاس بن عمرو عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المائدة

خبزًا ولحمًا وذلك أنهم سألوا عيسى طعامًا يأكلون منه لا ينفد، قال، فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخونوا أو تخبوا أو ترفعوا فإن فعلتم ذلك عذبتكم، قال: فما مضى يومهم حتى خبوا ورفعوا وخانوا».

وقال إسحاق بن عبد الله: إن بعضهم سرق منها، وقال لعلها لا تنزل أبدًا فرفعت ومسخوا قردة وخنازير.

وقال ابن عباس: إن عيسى ابن مريم قال لبنى إسرائيل: صوموا ثلاثين يومًا ثم سلوا الله ما شئتم يعطكموه فصاموا ثلاثين يومًا فلما فرغوا قالوا: يا عيسى إنا لو عملنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعامًا ولأصبحنا من وجعنا، فادع لنا الله أن ينزل علينا مائدة من السماء فنزل الملائكة بمائدة يحملونها، عليه سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم وأكل منهم آخر الناس كما أكل أولهم.

وروى عطاء بن سائب عن باذان وميسرة قالا: كانت إذا وضعت المائدة لبنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى من السماء بكل طعام إلاّ اللحم.

وقال ابن جبير عن ابن عباس: أنزل على المائدة كل شىء إلاّ الخبز واللحم.

قال عطاء: نزل عليها كل شىء إلاّ السمك واللحم.

قال العوفى: نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شىء.

وقال عمار وقتادة: كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة.

وقال وهب بن منبه: أنزل الله أقرصة من شعير وحيتانًا، فقيل لوهب: ما كان ذلك يغنى عنهم، قال: لا شىء ولكن الله أضعف لهم البركة، فكانوا يأكلون ثم يخرجون فيجىء آخرون فيأكلون حتى أكلوها جميعهم وفضل.

وقال الكلبى ومقاتل: استجاب الله لعيسى (عليه السلام) فقال إنى منزلها عليكم كما سألتم فمن أكل من ذلك الطعام ثم لا يؤمن جعلته مثلاً، ولعنة لمن بعدهم، قالوا: قد رضينا فدعا شمعون وكان أفضل الحواريين، فقال: هل لكم طعام؟ قال: نعم معى سمكتان صغيرتان وستة أرغفة، فقال: علىّ بها فقطعهن عيسى قطعًا صغارًا، ثم قال: اقعدوا فى روضة فترفقوا رفاقًا كل رفقة عشرة، ثم قام عيسى ودعا الله فاستجاب الله له ونزل فيها البركة فصار خبزًا صحاحًا وسمكًا صحاحًا، ثم قام عيسى فجعل يلقى فى كل رفقة ما عملت أصابعه ثم قال: كلوا باسم الله فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا ما شاء الله وفضل خمس الذيل، والناس خمسة آلاف ونيف.

وقال الناس جميعًا: نشهد أنك عبده ورسوله ثم سألوا مرة أخرى فدعا عيسى (عليه السلام) فأنزل الله خبزاً وسمكًا وخمسة أرغفة وسمكتين فصنع بها ما صنع فى المرة الأولى فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهدوا وقالوا لهم: ويحكم إنما سحر أعينكم. فمن أراد به الخير بتَّه على بصيرته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره، فمسخوا خنازير ليس فيهم صبى ولا امرأة فمكثوا بذلك أيامًا ثم هلكوا ولم تبق ولم يأكلوا ولم يشربوا فكذلك كل ممسوخ.

وقال كعب الأحبار: نزلت مائدة منكوسة من السماء تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلاّ اللحم.

وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرة وعشية حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى إسرائيل.

فقال يمان بن رئاب: كانوا يأكلون منها ما شاءوا.

وروى عطاء بن أبى رباح عن سلمان الفارسى أنه قال: والله ما اتبع عيسى (عليه السلام) شيئًا من المآذى قط ولا انتهر شيئًا ولا قهقه ضحكًا ولا ذبّ عن وجهه ولا أخلف على أنفه من أى شىء قط ولا عتب إليه. ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم المائدة لبس صوفًا وبكى، وقال: اللهم أنزل علينا مائدة من السماء الآية وارزقنا عليها طعامًا نأكله وأنت خير الرازقين فنزل الله سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهى تجىء مرتفعة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى فقال: اللهم اجعلنى من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة.

واليهود ينظرون إلى شىء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحًا أطيب من ريحه، فقال عيسى: أيكم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها؟

فقال شمعون ـ رئيس الحواريين ـ: أنت بذلك أولى منا، فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيراً ثم كشف المنديل عنها وقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشوية ليس عليها ضلوعها ولا شوك فيها سيل سيلاً من الدم وعند رأسها ملح ويمتد ذنبها خل وجهها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد.

فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال عيسى: ليس شىء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شىء فعله الله بالقدرة العالية فكلوا مما سألتم منى فى دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منكم فى الآخرة.

وقال محمد بن كعب: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد.

وقال عبد العزيز بن يحيى: تعلم سرّى ولا أعلم سرّك لأن السرّ هو موضعه الأنفس.

قال الزجاج: يعلم جميع ما أعلم ولا أعلم ما يعلم من النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته وذاته ولا أنه ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدوه وأطيعوه ولا تشركوا به شيئًا ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أقمت فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ قبضتنى إليك.

قال الحسن: الوفاة فى كتاب الله على ثلاثة أوجه، وفاة الموت وذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) يعنى وجعل نقصان أجلها، ووفاة النوم، وذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ (الأنعام: ٦٠) يعنى ينيمكم، ووفاة بالرفع كقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ (آل عمران: ٥٥).

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾: وقرأ الحسن: فإنهم عبيدك وإن يتوبوا فتغفر لهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقال السدى: إن تعذبهم وتميتهم بنصرانيتهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام فإنك الرب العزيز الحكيم فى الملك والنقمة، الحكيم فى قضائك.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فى الآخرة.

قال قتادة: متكلمان خطبا يوم القيامة وهو ما قص الله عليكم وعدو الله إبليس وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ (إبراهيم: ٢٢) فصدهم عن ذلك يومئذ وكان قبل ذلك كاذبًا فلم ينفعه صدقه يومئذ، وأما عيسى فكان صادقًا فى الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

وقال عطاء: هذا يوم من أيام الدنيا لأن الآخرة ليس فيها عمل إنما فيها الثواب والجزاء، ويوم رفع على خبر هذا، ونصبه نافع على الحرف يعنى إنما تكون هذه الأشياء فى يوم ينفع الصادقين صدقهم، وقرأ الحسن: هذا يوم بالتنوين، ثم بيّن لهم ثوابها فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فازوا بالجنة ونجوا مما خافوا، ثم عظّم نفسه عمّا قالت النصارى من بهتان بأن معه إلهًا فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.

❖ ❖ ❖

سُورَةُ الأَنْعَامِ

مكية كلها غير ست آيات منها نزلت فى المدينة ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الأنعام:٩١) إلى آخر ثلاث آيات وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣) فهذه الست مدنيات وباقى السورة كلها نزلت بمكة مجملة واحدة ليلاً ومعها سبعون ألف ملك وقد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فقال النبى ﷺ: «سبحان الله العظيم» وخر ساجدًا ثم دعا الكتّاب فكتبوها من ليلتهم.

وهى مائة وخمس وستون آية وكلها حجاج على المشركين، كلماتها ثلاث آلاف واثنتان وخمسون كلمة وحروفها اثنا عشر ألفًا وأربعمائة وعشرون حرفًا.

روى ابن عباس عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال: «أنزلت على سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ سورة الأنعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من الأنعام يومًا وليلة».

مسلم عن أبى صالح عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال: «من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام:٣) وكل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد، فإذا أراد الشيطان أن يوسوس له ويوحى فى قلبه شيئًا ضربه بها ضربة كان بينه وبينه سبعون حجابًا فإذا وكان يوم القيامة يقول الرب تبارك وتعالى أبشر فى ظلى وكُل من ثمار جنتى واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السبيل وأنت عبدى فأنا ربك».

قال سعيد بن جبير: لم ينزل من الوحى شىء إلاّ ومع جبرئيل أربعة من الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وهو قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ (الجن:٢٨) إلا الأنعام فإنها تنزل ومعها سبعون ألف ملك.

وروى سفيان عن أبى إسحاق عن عبد الله بن خليفة قال: قال عمر (رضى الله عنه): الأنعام من نواجب القرآن.

❖ ❖ ❖

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ
تَمۡتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣
وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ
فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ
مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي
قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا
وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ قُل
لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية.

قال مقاتل: قال المشركون للنبى ﷺ من ربك؟ قال: الذى خلق السموات والأرض فكذبوه فأنزل الله عز وجل حامداً نفسه دالاً بصفته على وجوده وتوحيده. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فى يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ (فصلت: ٩) يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ قال السدى: يعنى ظلمة الليل ونور النهار.

وقال الواقدى: كل ما فى القرآن من الظلمات والنور يعنى الكفر والإيمان.

وقال قتادة: يعنى الجنة والنار وإنما جمع الظلمات ووحد النور لأن النور يتعدى والظلمة لا تتعدى.

وقال أهل المعانى: جعل ههنا صلة والعرب تريد جعل فى الكلام.

وقال أبو عبيدة: وقد جعلت أرى الاثنين أربعة والواحد اثنين لمّا هدَّني الكبر مجاز الآية: الحمد لله الذى خلق السموات والأرض والظلمات والنور، وقيل: معناه خلق السموات والأرض وقد جعل الظلمات والنور لأنه خلق الظلمة والنور قبل خلق السموات والأرض.

وقال قتادة: خلق الله السموات قبل الأرض والظلمة قبل النور والجنة قبل النار.

وقال وهب: أول ما خلق الله مكانًا مظلمًا ثم خلق جوهرة فصارت ذلك المكان، ثم نظر إلى الجوهرة نظر الهيئة فصارت دمًا فارتفع بخارها وزبدها، فخلق من البخار السموات ومن الزبد الأرضين.

وروى عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه يومئذ من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ» ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

قال قطرب: هو مختصر يعنى الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون الأوثان أى يشركون وأصله من مساواة الشىء بالشىء يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به.

وقال النضر بن شميل: الباء فى قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ بمعنى عن، وقوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدول، أى يكون ويعرفون.

وأنشد:

وسائلة بثعلبة بن سير — وقد علقت بثعلبة العلوق

وأنشد:

شربن بماء البحر ثم ترفعت — متى لجج خضر لهن نئيج

أى من البحر قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ (الإنسان: ٦) أى منها.

محمد بن المعافى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: فتح أول الخلق بالحمد لله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وختم بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الزمر: ٧٥).

حماد عن عبد الله بن الحارث عن وهب قال: فتح الله التوراة بالحمد فقال: الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وختمها بالحمد فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الإسراء: ١١١) الآية. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعنى آدم (عليه السلام) فأخرج ذلك مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده.

وقال السدى: بعث الله جبرئيل إلى الأرض ليأتيه بطينة منها فقالت الأرض: إنى أعوذ بالله

منك أن تنقص مني فرجع ولم يأخذ، وقال: يا ربِّ إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله فقال: أنا أعوذ بالله أن أخالف أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط التربة الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بني آدم ثم عجنها بالماء العذب والمالح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم فقال الله عز وجل لملك الموت رَحِمَ جبرئيل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لا جرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب جعله طينًا ثم تركه حتى كان حمأ مسنونًا خلقه وصوّره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار فكان إبليس يمرّ به فيقول خلقت لأمر عظيم ثم نفخ الله فيه روحه» ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾.

قال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت. والأجل الثاني ما بين أن يموت إلى أن يبعث وهو البرزخ.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ يعني أجل الدنيا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ وهو الآخرة.

عطية عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ هو النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع إلى صاحبها حين اليقظة. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ هو أجل موت الإنسان. ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ يعني جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها لا تجاوزونها، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني وهو أجل مسمى عنده لا يعلمه غيره، الأجل المسمى هو الأجل الآجل.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: تشكون في البعث ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾: يعني وهو إله السموات وإله الأرض.

مقاتل: يعلم سر أعمالكم وجهرها، قال: وسمعنا أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد، محمد بن أحمد البلخي يقول: هو من مقاديم الكلام وتقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات والأرض فلا يخفى عليه شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ تعملون من الخير والشر ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ يعني كفار أهل مكّة ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مثل انشقاق القمر وغيره ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لها تاركين وبها مكذبين ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن وقيل: محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي أخبار استهزائهم وجزاؤه فهذا وعيد لهم فحاق بهم هذا الوعيد يوم يرونه ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني الأمم الماضية والقرن الجماعة من الناس وجمعه قرون، وقيل: القرن مدة من الزمان، يقال: ثمانون سنة، ويقال: مائة سنة، ويكون معناه على هذا القول من أهل قرن

﴿مَكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ يعنى أعطيناهم ما لم نعطكم.

قال ابن عباس: أمهلناهم فى العمر والأجسام والأولاد مثل قوم نوح وعاد وثمود ويقال: مكنته ومكنت له فجاء . . . .[1] جميعًا ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ يعنى المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾.

تقول العرب: ما زلنا نطأ السماء حتى آتيناكم مدراراً أى غزيرة كثيرة دائمة، وهى مفعال من الدر، مفعال من أسماء المبالغة، ويستوى فيه المذكر والمؤنث.

قال الشاعر:

وسقاك من نوء الثريا مزنة　　　سعراً تحلب وابلاً مـدرارا

وقوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ من خطاب التنويه كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (يونس: ٢٢).

وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وفيهم محمد وأصحابه ثم خاطبهم، والعرب تقول: قلت لعبد الله: ما أكرمه، وقلت لعبد الله: أكرمك، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا وابتدأنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۞ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا﴾ الآية.

وقال الكلبى ومقاتل: أنزلت فى النضر بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية ونوفل بن خويلد قالوا: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسول فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ فى صحيفة مكتوبًا من عند الله ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ عاينوه معاينة ومسوه بأيديهم ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لما سبق فيهم من علمى ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أى لوجب العذاب وفرغ من هلاكهم لأن الملائكة لا ينزلون إلاّ بالوحى والحلال ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ الكافرون ولا يمهلون.

قال مجاهد: لقضى الأمر أى لقامت الساعة.

وقال الضحاك: لو أتاهم ملك فى صورته لماتوا.

وقال قتادة: لو أنزلنا المكارم ولم يؤمنوا لعجل لهم العذاب ولم يؤخروا طرفة عين ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا﴾ يعنى ولو أرسلنا إليهم ملكًا ﴿لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا﴾ يعنى فى صورة رجل آدمى لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ ولشبهنا وخلطنا ﴿عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ يخلطون ويشبهون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدرى أملك هو أم آدمى.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقال الضحاك وعطية عن ابن عباس: هم أهل الكتاب فرقوا دينهم وكذبوا رسلهم وهو تحريف الكلام عن مواضعه فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم.

وقال قتادة: ما لبس قوم على أنفسهم إلاّ لبس الله عليهم.

وقرأ الأزهرى: ولـلبسنا بـالتشديد على التكرير يقال: ألبست العرب ألبسه لبسًا والتبس عليهم الأمر ألبسه لبسًا.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ كما استهزئ بك يا محمد يعزى نبيه ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ قال الربيع ابن أنس: نزل. عطاء: أحل.

مقاتل: دار. الضحّاك: إحاطة.

قال الزجاج: الحيق فى اللغة ما اشتمل على الإنسان من مكروه فعله ومنه: يحيق المكر السيّئ.

وقيل: وجب. والحيق والحيوق الوجوب.

﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾: هزئوا ﴿مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾. فحاق بالذين سخروا من المرسلين العذاب وتعجيل النقمة ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين ﴿سِيرُواْ﴾ سافروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معتبرين ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أى آخر أمرهم وكيف أورثهم الكفر والكذب والهلاك والعذاب، يخوّف كفار أهل مكة عذاب الأمم الماضية ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإن أجابوك وإلاّ ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ يقول يفتنكم بعدد الأيام (. . . .) والأصنام ثم قال ﴿كَتَبَ﴾ ربكم أى قضى وأوجب فضلاً وكرمًا ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾.

وذكر النفس ههنا عبارة عن وجوده وتأكيد وحدانيته وارتفاع الوسائط دونه وهذا استعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وإخبار بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم الإنابة والتوبة.

هشام بن منبه قال: حدثنا أبو عروة عن محمد رسول الله ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب وهو عنده فوق العرش «إن رحمتى سبقت غضبى»».

وقال عمر لكعب الأحبار: ما أول شىء ابتدأه الله من خلقه؟ فقال كعب: كتب الله كتابًا لم يكتبه بقلم ولا مداد ولكنّه كتب بإصبعه يتلوها الزبرجد واللؤلؤ والياقوت: إنى أنا الله لا إله إلاّ أنا سبقت رحمتى غضبى.

وقال سليمان وعبد الله بن عمر: إن لله تعالى مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض فأهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا فبها يتراحم الإنس والجان وطير السماء

وحيتان الماء وما بين الهواء والحيوان وذوات الأرض وعنده مائة وسبعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة أضاف تلك الرحمة إلى ما عنده.

ثم قال ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: اللام فهى لام القسم والنون نون التأكيد، مجازه: والله ليجمعنكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: يعنى فى يوم القيامة إلى يعنى فى، وقيل: معناه ليجمعنكم فى غيركم إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ غلبوا على ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ والتنوين فى موضع نصب مردود على الكاف والنون من قوله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: ويجوز أن يكون رفعًا بالابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فأخبر الله تعالى أن الجاحد للآخرة هالك خاسر.



﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية.

قال الكلبى: إن كفار مكة قالوا للنبى ﷺ: يا محمد إنا قد علمنا أنه ما يحملك على ما تدعونا إليه إلاّ الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا ما نغنيك حتى تكون من أغنانا فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾: أى استقر ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: من خلق.

قال أبو روحى: إن من الخلق ما يستقر نهاراً وينتشر ليلاً ومنها ما يستقر ليلاً وينتشر نهاراً.

وقال عبد العزيز بن يحيى ومحمد بن جرير: كلّ ما طلعت عليه الشمس وغيبت فهو من ساكن الليل والنهار والمراد جميع ما فى الأرض لأنه لا شىء من خلق الله عز وجل إلا هو ساكن فى الليل والنهار، وقيل: معناه وله ما يمر عليه الليل والنهار.

وقال أهل المعانى: فى الآية لغتان واختصار مجازها: وله ما سكن فى الليل والنهار كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ (النحل: ٨١) وأراد فى كل شىء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لأصواتهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: بأسرارهم.

وقال الكلبى: يعنى هو السميع لمقالة قريش العليم بمن يكسب رزقهم ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿أَغَيۡرَ

اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ : ربًا معبوداً وناصراً ومعينًا ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى خالقها ومبدعها ومبدئها وأصل الفطر الشق ومنه فطر ناب الجمل إذا شقق وابتدأ بالخروج.

قال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر. فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا أحدثتها ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ : أى وهو يَرْزق ولا يُرْزق وإليه قوله عزّ وجلّ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧).

وقرأ عكرمة والأعمش: ولا يَطعم بفتح الياء أى وهو يرزق ولا يأكل.

وقرأ أشهب العقيلى: وهو يُطعِم ولا يُطعِم كلاهما بضم الياء، وكسر العين.

قال الحسن بن الفضل: معناه هَو القادر عَلى الإطعام وترك الإطعام كقوله ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا منصور الأزهرى بهراة يقول: معناه وهو يطعم ولا يستطعم، يقول العرب: أطعمت غيرى بمعنى استطعمت.

وأنشد:

إنّا لنطعم من فى الصيف مطعمًا وفى الشتاء إذا لم يؤنس القرع

أى استطعمنا وقيل: معناه وهو يطعم يعنى الله ولا يطعم يعنى الولى ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ : أخلص ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ : يعنى وقيل لى: ولا تكونن ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ : تعبدت غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : وهو يوم القيامة.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ : يعنى من يُصرف الغضبُ عنه.

وقرأ أهل الكوفة: يصرف بفتح الياء وكسر الراء على معنى من صرف الله عنه العذاب، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقوله (من الله): بأن قيل فيما قبله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢)، ولقوله فيما بعده ﴿رَحِمَهُۥ﴾ ولم يقل: فقد رحم، على الفعل المجهول. ولقراءة أُبىّ: من يصرفه الله عنه. يعنى يوم القيامة، وهو ظرف مبنى على الخبر لإضافة الوقت إلى إذ كقولك: حينئذ وساعتئذ ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ : يعنى نجاة البينة ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلية وفقر ومرض ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ : دافع وصارف ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ : عافية ورخاء ونعمة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ : من الخير والشر ﴿قَدِيرٌ﴾.

روى شهاب بن حرش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس قال: أهدى للنبى ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها جهل بن شعر ثم أردفنى خلفه وسار بى مليًا ثم احتنا لى وقال لى: يا

غلام، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد مضى القلم بما هو كائن فلو عمل الخلائق أن ينفعوك بما لم يقض الله لك لما قدروا عليه ولو جهدوا أن ينصروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر فإن مع الكرب الفرج وإن مع العسر يسراً».

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾: القادر الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾: وفى القهر معنى زائد على القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾: فى أمره ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: بما جاء من عباده.

❖ ❖ ❖

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ﴾ الآية.

قال الكلبى: أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا: ما وجد الله رسولاً غيرك وما نرى أحداً يصدقك فيما تقول ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنك رسول الله كما تزعم، فأنزل الله ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾: فإن أجابوك وإلاّ فقل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: على ما أقول ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم﴾: وخوفكم يا أهل مكة ﴿بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾: يعنى ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم.

قال الفراء: والعرب تضمر الهاء فى مصطلحات التشديد (من) و(ما) فيها وإن الذى أخذت مالك، ومالى أخذته، ومن أكرمت أبرّ به بمعنى أكرمته.

قال النبى ﷺ: «يا أيها الناس بلغوا عنى ولو آية من كتاب الله فإن من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذه أو تركه».

وقال الحسن بن صالح: سألت ليثًا: هل بقى أحد لم يبلغه الدعوة.

قال: كان مجاهد يقول حيثما يأتى القرآن فهو داع وهو نذير، ثم قرأ هذه الآية.

فقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له.

وقال محمد بن كعب القرظى: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدًا (عليه السلام) وسمع منه ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾: ولم يقل أخر والآلهة جمع لأن الجمع يلحق التأنيث كقوله تعالى ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (طه: ٥١). ﴿قُل﴾: يا محمد إن أشهدوكم أنتم ﴿لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعنى التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: يعنى محمد ﷺ ونعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾: أى من الصبيان.

قال الكلبى: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) لعبيد الله ابن سلام: إن الله قد أنزل على نبيّه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله: يا عمر قد عرفته فيكم حين رأيته بنعته وصفته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان يلعب ولأنا أشدّ معرفة بمحمّد ﷺ منى بابنى، قال: وكيف؟ قال: نعته الله عزّ وجلّ فى كتابنا، فلا أدرى ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾: غبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وذلك أن لكل عبد منزلاً فى الجنة ومنزلاً فى النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله لأهل الجنة منازل أهل النار فى الجنة وجعل لأهل النار منازل أهل الجنة فى النار ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أكفر.

قال الحسن: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾: اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: فأشرك به غيره ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾: يعنى القرآن.

قال الحسن: كل ما في القرآن بآياتنا وآياته يعني به الدين بما فيه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: الكافرون ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾: العابدين والمعبودين ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: إنما يشفع لكم عند ربكم ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾: يعنى قولهم وجوابهم، وقيل: معذرتهم، والفتنة: الاختبار، ولمّا كان سؤالهم يخبر به لإظهار ما فى قلوبهم قيل: فتنة.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: وذلك أنهم يوم القيامة إذا رأوا مغفرة الله عزّ وجلّ وتجاوزه عن أهل التوحيد. قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد ويقولون ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: فيقول الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: وتدعون أنهم شركائى ثم نختم على أفواههم وتشهد جوارحهم عليهم بالكفر وذلك قوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ﴾: زال وبطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: من الأصنام ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال: اجتمع أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأُبى ابنا خلف والحارث بن عامر استمعوا حديث رسول الله ﷺ فقالوا للنضر: يا أبا فتيلة ما يقول محمد، قال: والذى جعلها بيته. يعنى الكعبة. قال: ما أدرى ما يقول إلاّ أنه يحرك لسانه ويقول: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كتب الحديث عن القرون وأخبارها.

فقال أبو سفيان: إنى لأرى بعض ما يقول حقًا، فقال أبو جهل: كلا فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وإلى كلامك ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: غشاوة وغطاء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: يعلموه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: ثقلاً وصممًا ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: يعنى حكاياتهم إسطورة وإسطارة.

وقال بعض أهل اللغة: هى التُّرَّهات والأباطيل والبسابس وأصلها من سطرت أى كتبت ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

قال مقاتل: نزلت فى أبى طالب واسمه عبد مناف وذلك أن النبى ﷺ كان عند أبى طالب يدعو إلى الإسلام فاجتمعت قريش إلى أبى طالب يريدون سوءًا بالنبى ﷺ، فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسّد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذلك وقر منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وفرضت دينًا لا محالة إنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة ... لوجدتنى سمحًا بذاك مبينا

فأنزل الله تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾ : أي يمنعون الناس عن أذى النبي ﷺ وينأون عنه أي يبتعدون عما جاء له من الهدى فلا يصدقونه وهذا قول القاسم بن محمد وعطاء بن دينار وإحدى الروايتين عن ابن عباس وعن محمد بن الحنفية والسدي والضحّاك قالوا: نزلت في جملة كفار مكة يعني وهم ينهون الناس عن اتباع محمد والإيمان به ويتباعدون بأنفسهم عنه.

قال مجاهد: وهم ينهون عنه قريشًا ينهون عن الذكر ويتباعدون عنه.

وقال قتادة: وينهون عن القرآن وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ : لأن أوزار الذين يصدونهم عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ : إنما كذلك ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ : يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ : حبسوا ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ : يعني في النار كقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ (البقرة: ١٠٢) يعني في ملك سليمان.

وقرأ ابن السميقع ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ : بفتح الواو والقاف من الوقوف والقراءة الأولى على الوقف. فقال: وقفت بنفسي وقوفًا ووقفتم وقفًا، وجواب لو محذوف معناه لو تراهم في تلك الحالة لرأيت عجبًا ﴿فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ : قرأه العامة ويكون بالرفع على معنى يا ليتنا نرد ونحوَ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين أردنا أم لم نرد. وقرأ ابن أبي إسحاق وحمزة: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ وتكون نصبًا على جواب التمني، والعرب تنصب جواب التمني بالواو كما تنصبه بالفاء.

وقرأ ابن عامر: نرد ولا نكذب: بالرفع، ﴿وَنَكُونَ﴾ : بالنصب قال: لأنهم تمنوا الرد وأن يكونوا من المؤمنين وأخبروا أنهم لا يكذبون بآيات ربهم إن ردّوا إلى الدنيا ﴿بَلْ بَدَا﴾ : ظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾ : يسترون في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم.

وقال السدي إنهم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ : فذلك إخفاؤهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ : فأنطق الله عزّ وجلّ جوارحهم فشهدت عليهم بما كتموا فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ وهذا أعجب إليَّ من القول الأول لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا إلاّ أن تجعل الآية في المنافقين.

قال المبرد: بدا لهم (جزاء ما كانوا يخفون من قبل).

وقال النضر بن شميل: معناه بل بدا لعنهم، ثم قال ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم: لو ردونا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ : فيه تقديم وتأخير، وكان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: هذا من قولهم: لو ردوا لقالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ : بعد الموت ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ : قيل: على حكم الله . . . .[1] فهم وتكلمنا اليدان بأمر الله ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ : العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ : إنّه حق ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ : أي بكفركم ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ : وكس وهلك ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ : بالبعث بعد الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، ﴿بَغْتَةً﴾ : فجأة ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ : ندامتنا ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ : قصرنا ﴿فِيهَا﴾ : في الطامة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة.

وقال محمد بن جرير: الهاء راجعة إلى الصفقة، وذلك أنه لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر والآخرة بالدنيا، قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها، أي في الصفقة فترك ذكر الصفقة كما يقول ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ : لأن الخسران لا يكون إلاّ في صفقة بيع.

قال السدي: يعني على ما ضيعنا من عمل الجنة، يدل عليه ما روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «يرى أهل النار منازلهم من الجنة فيقولون: يا حسرتنا» ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ : آثامهم وأفعالهم.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال أبو عبيد: يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع: احمل وزرك ووزرتك واشتقاقه من الوزر الذى يعتصم به ولهذا قيل: وزر لأنّه كأنّه الذى يعتصم به الملك أو النبى ومنه قوله تعالى ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي﴾ (طه: ٢٩، ٣٠) ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾.

قال السدى وعمرو بن قيس الملائى: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شىء صورة وأطيب ريحًا، يقول: هل تعرفنى؟ يقول: لا، إلاّ أن الله عزّ وجلّ قد طيب ريحك وحسّن صورتك، فيقول: كذلك كتب فى الدنيا أنا عملك الصالح طالما ركبتك فى الدنيا فاركبنى اليوم أنت.

وقرأ ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ (مريم: ٨٥): أى ركبانًا، فإن الكافر تستقبله أقبح شىء صورة وأنتنه ريحًا فيقول: هل تعرفنى؟ فيقول: لا إلاّ أن الله عزّ وجلّ قد قبح صورتك وأنتن ريحك، فيقول: لما كان عملك فى الدنيا، أنا عملك السيئ طالما ركبتنى فى المساء فأنا أركبك اليوم وذلك قوله ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

قال الزجاج: لا يزر إليهم أوزارهم، كما يقول الضحّاك: نصب عيني وذكرك محيى قلبى ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: أى يحملون ويعملون ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾: باطل وغرور لا يبقى، وهذا تكذيب من الله للكفار فى قولهم ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ قرأتها العامة رفعًا على نعت الواو، وإضافة أهل الشام لاختلاف اللفظين كقوله: ربيع الأول، ومسجد الجامع ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ (ق: ٩) سميت الدنيا لدنوّها، وقيل: لدناءتها وسميت الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾: من الشرك ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: أى الآخرة أفضل من الدنيا ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ الآية.

قال السدى: التقى الأخفش بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الأخفش لأبى جهل: يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيرى؟ فقال له أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال أبو يزيد المدنى: لقى رسول الله ﷺ أبا جهل فصافحه فلقيه بعض شياطينه فقال له: يأتيك تصافحه؟ قال: والله إنى أعلم أنه لصادق ولكنا متى كنا تبعًا لعبد مناف، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبى ﷺ: ما نتهمك ولا نكذبك ولكن نتهم الذى

جئت به ونكذبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصى كان يكذب النبى ﷺ فى العلانية فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب فلا أحسبه إلاّ صادقًا، وقال للنبى ﷺ: إنا لنعلم أن الذى له حق وأنه لا يمنعنا أن نتبع الهدى معك إلاّ مخافة أن يتخلفنا البأس من أرضنا يعنى العرب فإنا ثمن أكلة رأس ولا طاقة لنا بهم فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ بأنك كاذب وساحر ومجنون ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أى لا ينسبونك إلى الكذب ولا يقولون لك: كذبت.

وقرأ نافع والكسائى: (يكذبونك) بالتخفيف وهى قراءة على رضى الله عنه يعنى: ولا يجدونك كاذبًا، يقول العرب: أجدبت الأرض وأخصبتها وأحييتها وأهجتها إذا وجدتها جدبة وخصبة ويعيدون ناتجة للنبات.

قال رؤبة:

❖ وأهيج الخلصاء من ذات البرق ❖

أى وجدتها ناتجة للنبات.

قال الكسائى: يقول العرب: أكذبت الرسل إذا أخبرت أنه قول الكذب فرواه وكذبته إذا أجزت أنه كاذب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية نبيه يقولون: كذبهم قومهم كما كذبتك قريش ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: قال الكلبى: يعنى القرآن.

وقال عكرمة: يعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾: إلى قوله: ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١ - ١٧٣) وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (غافر: ٥١) وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ (المجادلة: ٢١) العدل يعنى لأخلفهما لعذابه ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من قبل كما يقول: أصابنا من مطر أى مطر.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: قال الكلبى: قال الحارث بن عامر: يا محمد ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتى بها فإن أتيت بها آمنا بك وصدقناك، فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عنه وكبر عليه ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ عظم وضاق ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: عنك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ﴾: تطلب وتتخذ ﴿نَفَقًا﴾: سربًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مثل اليربوع وهو أحد حجرته فيذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾: درجًا ومصعدًا إلىّ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: يصعد فيه.

قال الزجاج: السلم من السلامة وهو الذى يسلمك إلى مصعدك ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾: فافعل

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: فآمنوا كلّهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أن يؤمن بك بعضهم دون بعض وأن الله لو شاء لجمعهم على الهدى، وأن من يكفر إنما يكفر بسائر علمه فيه.

❖ ❖ ❖

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧ وَمَا مِن
دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن
شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ
ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن
شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ
أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: يعني المؤمنين الذي يسمعون الذكر فيتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه فلا يصغى إلى الحق ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾: يعني الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾: مع الموتى ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ وَقَالُوا۟﴾: يعني الحارث بن عامر وأصحابه. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: حالهم في نزولها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾: على التأكيد، كما يقال: أخذت بيدى، مشيت برجلى ونظرت بعينى.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾: يعنى بعضهم من بعض والناس أمة والطير أمة والسباع أمة والدواب أمة، وقيل: ﴿إلاّ أمم أمثالكم﴾ جماعات أمثالكم.

وقال عطاء: أمثالكم في التوحيد ومعرفة الله وقيل: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في التصور والتشخيص ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: يعنى في اللوح المحفوظ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

قال ابن عباس، والضحّاك: حشرها: موتها.

وقال أبو هريرة: فى هذه الآية يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شىء فيبلغ من عذاب الله يومئذ أن يأخذ الجماء من القرناء ثم يقول: كونى ترابًا فعند ذلك ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ (النبأ: ٤٠).

وقال عطاء: فإذا رأوا بنى آدم وما فيه من الجزية، قلت الحمد الله الذى لم يجعلنا مثلكم فلا جنة نرجو ولا ناراً نخاف، فيقول الله عزّ وجلّ لهم كونوا ترابًا فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون ترابًا.

وعن أبى ذر قال: بينا أنا عند رسول الله إذ انتطحت عنزان فقال النبى ﷺ: «أتدرون فيما انتطحا» قالوا: لا ندرى، قال: لكن الله يدرى ويقضى بينهما ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: محمد والقرآن ﴿صُمٌّ﴾: لا يسمعون الخبر ﴿وَبُكْمٌ﴾: لا يتكلمون، الخبر ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾: فى ظلالات الكفر ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾: يموتون على كفرهم ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: قائم وهو الإسلام ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾: أى هل رأيتم والكاف فيه للتأكيد، ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾: يوم بدر وأحد والأحزاب وحنين، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾: فى صرف العذاب، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾: ثم قال ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: تخلصون ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ﴾: تتركون ﴿مَا تُشْرِكُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: فكفروا ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: الفقر والجوع ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض والزمانة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: يؤمنون ويتوبون ويخضعون ويخشعون.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾: عذابنا ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾: فآمنوا فكشف عنهم ﴿وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: من الكفر والمعصية ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾: أى أنكروا ما عظوا وأمروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: أى بدلناهم مكان البلاء والشدة بالرخاء فى العيش والصحة فى الأبدان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾: أعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾: فجأة أمن ما كانوا بالعجب ما كانت الدنيا لهم، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾: يئسون من كل خير.

قال السدى: هالكون، ابن كيسان: خاضعون، وقال الحسن: منصتون.

وقرأ عبد الرحمن السلمى: (مبلسون) بفتح اللام مفعولاً بهم أى مؤيسون. وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم.

وقال مجاهد: الإبلاس الفضيحة. قال ابن زيد: المبلس الذى قد نزل به الشر الذى لا يدفعه.

قال جعفر الصادق: فلما نسوا ما ذكروا به من التعظيم فتحنا عليهم أبواب كل شىء من النعم حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الترفيه والتنعيم جاءتهم بغتة إلى سوء الجحيم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ

﴿ٱلْقَوْمِ﴾: قال السدي: أصل القوم.

قال قطرب: أخذهم يعني استؤصلوا وأهلكوا ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: على إهلاكهم.

روى عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله أعطى العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم». ثم تلا هذه الآية ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ الآية.

❖ ❖ ❖

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾: فذهب بها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾: وطبع عليها يعنى لا يفقهوا قولاً ولا يبصروا حجة ﴿مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾: يعنى بما أخذ منكم ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾: نبين لهم ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾: يعرضون عنها مكذبين بها ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾: فجأة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾: معاينة ورؤية على ما أشركوا ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾: بالعذاب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: المشركون ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾: العمل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: حين يخاف أهل النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: إذا حزنوا ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: بمحمد والقرآن ﴿يَمَسُّهُمُ﴾: يصيبهم ﴿ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾: يرتكبون ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: يعنى رزق الله ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: ما يخفى عن الناس ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾: فتنكرون قولى وتجحدون أمرى ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾: وذلك غير منكر ولا مستحيل فى العقل مع وجود الدلائل والحجة البالغة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: الكافر والمؤمن والضال والمهتدى ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾: لا يستويان ﴿وَأَنذِرْ﴾: خوّف ﴿بِهِ﴾: بالقرآن.

قال الضحّاك: ﴿بِهِ﴾ أى بالله ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾: يبعثوا ويحيوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: وقيل: يعلمون أن يحشروا لأن خوفهم بما كان من عملهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾: من دون الله ﴿وَلِىٌّ﴾: يعنى قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾: يشفع لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية، قال سليمان، وخباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية.

جاء الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصين الفزارى وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب فى ناس من ضعفاء المسلمين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست فى صدر المجلس ويغيب عنا هؤلاء وأرواح جبابهم. وكانت عليهم جباب من صوف لم يكن عليهم غيرها. لجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن يرانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم وإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: اكتب لنا بذلك كتابًا، قال: فدعانا لصحيفة ودعا عليًا ليكتب.

قال: ونحن قعود فى ناحية إذ نزل جبرائيل (عليه السلام) بقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾: إلاّ بشىء فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤) فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام

وتركنا فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، قال: وكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعمد وندنو منه حتى كادت ركبنا تمسّ ركبه فإذا بلغ الساعة التى يقوم قمنا وتركناه حتى يقوم وقال: «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات».

وقال الكلبى: قالوا له: اجعل لنا يومًا ولهم يوم، قال: لا أفعل، قالوا: فاجعل المجلس واحدًا وأقبل إلينا وولّ ظهرك عليهم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى الأشعث بن سواد عن إدريس عن عبد الله بن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ، صهيب وخباب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعًا لهؤلاء أهؤلاء الذين قال: منّ الله عليهم من بيننا، اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، قال: بها قد قالت قريش: لولا بلال وابن أم عبد لتابعنا محمدًا فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال عكرمة: جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن أمية ومطعم بن عدى والحارث بن نوفل وقرظة ابن عبد وعمرو بن نوفل فى أشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدًا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنهم عبيدنا كان أعظم فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتّباعنا إيّاه. وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبى ﷺ فحدثه بالذى كتموه، فقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذى يريدون وإلى ما يصيرون فنزلت من قولهم هذه الآية فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته.

وقال جبير بن نفيل: إن قريشًا أتوا رسول الله ﷺ فقالت: أرسلت إلينا فاطرد هؤلاء السقاط عنك فنكون أصحابك فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ الآية.

قال ابن عباس: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ يعنى يعبدون ربهم بالصلاة المكتوبة بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر، وذلك أن ناسًا من الفقراء كانوا مع النبى ﷺ فقال قوم من الأشراف: إذا صلينا فأخّر هؤلاء وليصلوا خلفنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾ الآية.

وقال حمزة بن عيسى: دخلت على الحسن فقلت له: يا أبا سعيد أرأيت قول الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، قال: لا ولكنهم المحافظون على الصلوات فى الجماعة.

وقال مجاهد: صليت الصبح مع سعيد بن المسيب (رضى الله عنه) فلما سلم الإمام، ابتدر الناس القاص، فقال سعيد ما أسرع الناس إلى هذا المجلس.

فقال مجاهد: فقلت: يتأوّلون قول الله عزّ وجلّ ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾، فأراد فى هذا هو إنما ذلك فى الصلاة التى انصرفا عنها الآن، وقلنا إنهم يذكرون ربهم.

وقال أبو جعفر: يعنى يقرءون القرآن ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ جواب لقوله ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وقوله ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب لقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ لا أحد هو جواب نفى والله جواب النهى ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: من الضارين لنفسك بالمعصية والنفس الطرد فى غير موضعه ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: التعريف الوضيع والعرفى بالمولى والغنى الآية ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ يعنى الأشراف الأغنياء ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنى الفقراء والضعفاء ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾: قال الكلبى: كان الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد آمن قبله حمى أنفًا أن يسلم ويقول: سبقنى هذا بالإسلام فلا يسلم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: يعنى المؤمنين وهذا جواب لقوله ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾: وقيل: أليس الله أعلم بالشاكرين، من يشكر على الإسلام إذا هديته له.

العلاء بن بشير عن أبى بكر الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال: كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم يستر بعضًا من العرى وقارئ يقرأ علينا ونحن نستمع إلى قراءته فقال النبى ﷺ حتى قام علينا فلما رأى القارئ سكت، فسلم وقال: ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله كان قارئ يقرأ علينا ونحن نستمع إلى قراءته، فقال النبى ﷺ: الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أُصبر نفسى معهم ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال هكذا بيده هكذا، فحلق القوم وبرزت وجوههم فلم يعرف رسول الله ﷺ منهم أحدًا وكانوا ضعفاء المهاجرين. فقال النبى ﷺ: «أبشروا صعاليك المهاجرين بالفوز التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء المؤمنين بنصف يوم مقداره خمسمائة سنة».

هشام بن سليمان عن أبى يزيد الرقاشى عن أنس قال: قال النبى ﷺ: «يا معشر الفقراء إن الله رضى لى أن أتأسى بمجالسكم وأن الله معنا فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ (الكهف: ٢٨): فإنها مجالس الأنبياء قبلكم والصالحين».

معاوية بن مرّة عن عائذ بن عمرو: أن سلمان وصهيبًا وبلالاً كانوا قعدوا فمر بهم أبو سفيان فقالوا له: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها بعد. فقال لهم أبو بكر (رضى الله عنه): يقولون هذا لشيخ قريش وسيّدها ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر

لعلك أغضبتهم إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك» فوقع أبو بكر فيهم فقال: لعلى أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر يغفر الله لك.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: اختلفوا فيما نزلت هذه الآية. فقال عكرمة: نزلت فى الذين نهى الله عزّ وجلّ نبيه ﷺ عن طردهم وكان النبى ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام».

وقال الكلبى: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ جاء عمر (رضى الله عنه) للنبى ﷺ فاعتذر إليه من مقالته واستغفر الله تعالى منها، وقال: يا رسول الله ما أردت بهذا إلاّ الخير فنزل فى عمر (رضى الله عنه) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وقال عطاء: نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وبلال وسالم وأبى عبيدة وصهيب بن عمير وعمر وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر، والأرقم بن الأرقم وأبى سلمة بن الأسد رضى الله عنهم أجمعين.

وقال أنس بن مالك (رضى الله عنه): أتى رسول الله ﷺ رجال فقالوا: إنا أصبنا ذنوبًا كثيرة عظيمة فسكت عنهم رسول الله ﷺ فأنزل الله على الرجال الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾: قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر وكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل، وقيل: جاهل بما يورثه ذلك الذنب، يقال: جهل حين آثر المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: فرجع عن دينه ﴿وَأَصْلَحَ﴾: عمله، وقيل: أخلص توبته ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: واختلف القراء فى قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ﴾: الكوفيون بفتح الألف منها جميعًا. ابن كثير والأعمش وابن عمر وحمزة والكسائى على الاستئناف، ونصبها الحسن وعاصم ويعقوب بدلاً من رحمة، وفتح أهل المدينة الأولى على معنًى وكتب (إنّه) وكسروا الثانية على الاستئناف لأن ما بعدها لا يخبر أبداً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أى هكذا، وقيل: معناه وفصلنا لك فى هذه السورة والآية.

وجاء فى أعلى المشروح فى المنكرين من كذلك ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾: أى نميز ونبين لك حجتنا وأدلتنا فى كل من ينكر من أهل الباطل ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: مرّ رفع السبيل ومعناه وليظهر وليتضح طريق المجرمين. يقال بان الشىء وأبان وتبيان وتبين إذا ظهر ووضح والسبيل يذكر ويؤنث، فتميم تذكر، وأهل الحجاز يؤنثه، ودليل المذكر قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (الأعراف: ١٤٦): ودليل التأنيث قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ (آل عمران: ٩٩) وقوله عزّ

وجلّ: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف:١٠٨): ولذلك قرأ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء، وقرأ أهل المدينة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالتاء، سبيل بالنصب على خطاب النبى ﷺ معناه ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين، يقال واستبين الشىء وتبينته إذا عرفته ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾: فى عبادة الأوثان وطرد بلال وسلمان ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: يعنى إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير الهدى.

وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رجاء: (قد ضللت) بكسر اللام وهما لغتان ضلّ يضلّ مثل قلّ يقلّ. وضلّ يضلّ مثل ملّ يملّ، والأولى هى الأصح والأفصح لأنها لغة أهل الحجاز ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾: بيان وبرهان وبصيرة وحجة ﴿مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾: أى بربى ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾: يعنى العذاب، نزلت فى النضر بن الحارث ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾: ما القضاء ﴿إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾: قرأ أهل الحجاز، وعاصم ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بالصاد المشددة أى يقول الحق قالوا: لأنه مكتوب فى جميع المصاحف بغير ياء ولأنه قال الحق فإنما يقال قضيت بالحق. وقرأ الباقون: بالضاد أى يحكم بالحق دليله قوله ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ﴾: والفصل جلب القضاء، والقرّاء إنما حذفوا الياء للاستثقال ثم (. . .) كقوله ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات:١٦٣) وقوله ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ (الرعد:٣٩) و﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر:٥) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق:١٨) ونحوها وحذفوا الباء من الحق لأنه صفة المصدر فكأنه يقضى القضاء الحق.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾: بيدى ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾: هو العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: أى فرغ من العذاب وأهلكتم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.



﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ۝ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ

ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ : المفاتح جمع المفتح.

وقرأ ابن السميقع : (بمفاتيح) على جمع المفتاح، يعني ومن عنده معرفة الغيب وهو يفتح ذلك بلطفه، واختلفوا في ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

فروى عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال : «مفاتح الغيب خمسة : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير».

وقال السدي : مفاتح الغيب خزائن الغيب. مقاتل، والضحاك : يعني خزائن الأرض. وعلم نزول العذاب متى ينزل بكم.

عطاء : يعني ما غاب من الثواب والعقاب وما يصير إليه أمري وأمركم، وقيل : هي الآجال ووقت انقضائها، وقيل : أحوال العباد من السعادة والشقاوة، وقيل : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال، وقيل : هي ما لم يكن بعد أنه يكون أم لا يكون وما يكون كيف يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون.

وقال ابن مسعود : أوتي نبيّكم علم كل شيء إلاّ مفاتيح الغيب ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

قال مجاهد : البر القفار والبحر كل قرية فيها ماء ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

قال ابن عباس : ما شجرة في بر ولا بحر إلاّ وبها ملك وكل يعلم من يأكل وما يسقط من ورقها وقل منكم عندما بقي من الورق على الشجر وما سقط منها.

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا بكر بن عبدوس يقول : معناها يعلم كما تقلبت ظهراً لبطن إلى أن سقطت على الأرض ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ : أي في بطون الأرض، وقيل : تحت الصخرة في أسفل الأرضين ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ قال ابن عباس : الرطب الماء، واليابس البادية. وقال عطاء : يريد ما ينبت وما لا ينبت.

وقال الحسن : يكتبه الله رطبًا ويكتبه يابسًا لتعلم يا بن آدم أن عملك أولى بها من إصلاح تلك الجنة.

وقال: الرطب لسان المؤمن رطب بذكر الله، واليابس لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله وبما يرضى الله عزّ وجلّ. وقيل: هى الأشجار والنبات.

وروى الأعمش عن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث، فقال: ما فى الأرض من شجرة ولا كمغرز إبرة إلاّ عليها ملك وكل يأتى الله بعلمها ويبسها إذا يبست ورطوبتها إذا رطبت.

محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على أشجار ولا حبة فى ظلمات الأرض إلاّ عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، رزق فلان ابن فلان وذلك قوله تعالى فى محكم كتابه ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾.

﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾: أى يقبض أرواحكم فى منامكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: وأصله من جارحة اليد.

ثم قيل لكل عليك جارح أى عضو من أعضائه عمل ومنه الزرع الجيد، ويقال لا ترك الله له جارحًا أى عبدًا ولا أمة يكسب له ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾: أى ينشركم ويوقظكم ﴿فِيهِ﴾: فى النار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: يعنى أجل الحياة إلى الممات حتى ينقضى أثرها ورزقها.

فقرأ أبو طلحة وأبو رجاء (لنقضى): بالنون المفتوحة (أجلاً) نصب، وفى هذا إقامة الحجة على منكرى البعث يعنى كما قدرت على هذا فكذلك أقدر على بعثكم بعد الموت.

وقال: مكتوب فى التوراة: يا ابن آدم كما تنام كذلك تموت وكما توقظ كذلك تبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: فى الآخرة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾: يخبركم ويجازيكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم وهو جمع حافظ، ونظيره قوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ (الانفطار: ١٠) قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): ومن الناس من يعيش شقيًا جاهل القلب، غافل اليقظة، فإذا كان ذا وفاء ورأى حذر الموت واتقى الحفظة، إنما الناس راحل ومقيم الذى راح للمقيم عظة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾: يعنى أعوان ملك الموت يقبضونه ثم يدفعونه إلى ملك الموت ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾: لا يعصون ولا يضيعون.

وقرأ عبيد بن عمر: (لا يفرطون) بالتخفيف معنى لا يجاوزون الحد ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يعنى الملائكة وقيل: يعنى العباد ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء فى خلقه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ﴾ يعنى لا يحتاج إلى رويّة ولا تقدير ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا ضللتم الطريق وخفتم الهلاك ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: وقرأ عاصم: (وخِفية) وهما لغتان.

وقرأ الأعمش وخفية من الخوف كالذى فى الأعراف ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ﴾ : أى ويقولون لئن أنجيتنا من هذه يعنى الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ : من المؤمنين ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ : حزن ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ : يعنى الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ : يعنى الخسف كما فعل بقارون.

وقال مجاهد: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ السلاطين، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ العبيد السوء.

الضحاك: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من قبل كباركم ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من أسفل منكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ : أو يخلقكم ويفرق ويبث فيكم الأهواء المختلفة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ : يعنى السيوف المختلفة بقتل بعضكم بعضًا كما فعل ببنى إسرائيل، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «يا جبرائيل ما بقاء أمتى على ذلك؟ فقال له جبرائيل: إنما أنا عبد مثلك» فسل ربك؟ فقام رسول الله ﷺ وتوضأ وصلى يسأل ربه فأعطى آيتين ومنع واحدة، قال رسول الله ﷺ: «سألته أن يبعد عن أمتى عذابًا من فوقهم ومن تحت أرجلهم فأعطانى ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى، وأخبرنى جبرائيل (عليه السلام) أن فناء أمتى بالسيف».

وقال الزهرى: راقب خباب بن الأرت رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلى فلما فرغ، قال: وقت الصباح لقد رأيتك تصلى صلاة ما رأيتك صليت مثلها، قال: «أجل إنها صلاة رغبة ورهبة سألت ربى فيها ثلاثًا وأعطانى اثنتين، وزوى عنى واحدة، سألته أن لا يسلط على أمتى عدوًا من غيرهم فأعطانى، وسألته أن لا يرسل عليهم سنة فتهلكهم فأعطانى، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فزواها عنى».

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝ وَكَذَّبَ﴾ : قرأ إبراهيم بن عبلة (وكذبت) بالتاء ﴿بِهِۦ﴾ : أى بالقرآن وقيل: بالعذاب ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ : أى حفيظ ورقيب وقيل: مسلط إنما أنا رسول ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ : موضع قوله وحقيقة ومنتهى ينتهى إليه فيتبين صدقه من كذبه وحقه من باطله.

قال مقاتل: لكل خبر يخبره الله تعالى وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير.

قال الكلبى: لكل قول أو فعل حقيقة ما كان منه فى الدنيا فستعرفونه. وما كان منه فى الآخرة فسوف يبدو لهم ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وقال الحسن: لكل عمل جزاء فمن عمل عملاً من الخير جوزى به الجنة، ومن عَمِل عَمَل سوء جوزى به النار، ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يا أهل مكة.

وقال السدى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أى ميعاد وحد تكتمونه، فسيأتيكم حتى تعرفوه.

وقال عطاء: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ يؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فإذا عمل ذنبه عاقبه.

قال الثعلبى: ورأيت فى بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع عليه السن.



﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾: يعنى القرآن بالاستهزاء والكذب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: فاتركهم ولا تجالسهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟﴾: يدخلوا ﴿فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾: غير القرآن، وذلك أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى رسول الله ﷺ فسبوا واستهزءوا بالقرآن، فنهى الله المؤمنين عن مجالستهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾.

قرأ ابن عباس وابن عامر: (ينسونك) بالتشديد ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: فقم من عندهم بعدما ذكرت ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: الخوض ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾: من أيام الخائضين ﴿مِّن شَىْءٍ﴾.

قال ابن عباس: قال المسلمون: فإنا نخاف الإثم حين نتركهم فلا ننهاهم فأنزل الله عز

وجل هذه الآية.

وقال ابن عباس فى رواية أخرى: قال المسلمون: لئن كنا كلما استهزأ المشركون فى القرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لم نستطع أن نجلس فى المسجد الحرام وأن نطوف بالبيت فنزل ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾: أى ذكروهم وعظوهم وهى فى محل النصب على المصدر أى ذكروهم ذكرى والذكر والذكرى واحد ويجوز أن يكون فى موضع الرفع أى هو ذكرى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الخوض إذا وعظتموهم، وقيل: وإذا قمتم يسعهم فى ذلك من الاستهزاء والخوض. وقيل: لعلهم يستحيون ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾: باطلاً وفرحًا ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: وذلك أن الله تعالى جعل لكل قوم عيدًا يعظمونه ويصلون فيه فكان قوم اتخذوا عيدهم لهوًا ولعبًا إلاّ أمة محمد ﷺ فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة لله وذكرًا مثل الجمعة والفطر والنحر ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾: وعظ بالقرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: يعنى أن لا تبسل كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ (النساء: ١٧٦). ومعنى الآية ذكرهم ليؤمنوا فلا تبسل نفس بما كسبت.

قال ابن عباس: تهلك، قتادة: تحبس.

الحسن، ومجاهد، وعكرمة، والسدى: تسلم للهلكة. على بن أبى طلحة عن ابن عباس: تفضح.

الضحاك: تفضح وتحرق. المؤرج، وابن زيد: تؤخذ.

قال الشاعر:

وإبسالى بنى بغير جرم بعونًا ولا بدم مراق

العوف بن الأحوص: وكان رهن بيته وحمل عن غنى لبنى قشير دم السحقية. فقالوا: لا نرضى بك، فدفعهم رهنًا، وقوله بعونًا أى جنينًا، والبعو الجناية.

وقال الأخفش: ﴿تُبْسَلَ﴾ أى تجزى. وقال الفراء: ترتهن.

وأنشد النابغة الجعدى:

ونحن رهنًّا بالأفاقة عامرًا بما كان فى الدرداء رهنًا فأبسلا

وقال عطية العوفى: يسلم فى خزية جهنم.

وقال أهل اللغة: أصل الإبسال التحريم، يقال: أبسلت الشىء إذا حرمته، والبسل الحرام.

قال الشاعر:

بكرت تلومك بعد وهن فى الندى بسل عليك ملامتى وعتابى

فقال: أنشدنا بسل أى شجاع لا يقدّر موته كأنه قد حرم نفسه ثم جعل ذلك نعتًا لكل شديد. يترك، ويبقى ويقال: شراب بسل أى متروك.

قال الشنفرى:

هنالك لا أرجو حياة تسرنى   سمير الليالى مبسلاً بالجرائر

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا﴾: أى لتلك الأنفس ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ﴾: حميم وصديق ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾: يشفع لهم فى الآخرة ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾: تفد كل فداء، ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾.

قال أبو عبيدة: وإن يقسطه كل قسط لا يقبل منها لأن التوبة فى الحياة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ۝ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر حين دعا أباه إلى الكفر فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ٧١)، ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾: إن عبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾: إن تركناه ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾: إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وتقول العرب لكل راجع خائب لم يظفر بحاجته: ردّ على عقبيه ونكص على عقبيه فيكون مثله ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾: أى أضلته.

وقال ابن عباس (رضى الله عنه): كالذى استغوته الغيلان فى المهامه وأضلوه وهو حائر بائر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾: و(حيران) نصب على الحال.

وقرأ الأعمش، وحمزة: كالذى استهوا به، بالباء. وقرأ طلحة: (استهواه) بالألف.

وقرأ الحسن: (استهوته الشياطون)، وفى مصحف عبد الله وأُبى (استهواه الشيطان) على الواحد.

﴿لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾: يعنى أتوا به، وقيل: أصحاب محمد ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾: أى لأن نسلم ﴿لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إلى قوله ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

قال أبو عبيدة: هو جمع صورة مثل سورة وسور.

قال العجاج:

ورب ذى سرادق محجور   سرت إليه فى أعالى السور

وقال آخرون: هو قرن ينفخ فيه بلغة أهل اليمن. وأنشد العجاج:

نطحناهم غـــــداة الجمعين   بالضابحـات فى غبار النقعين

نطحًا شديدًا لا كنطح الصورين

يدل على هذا الخبر المروى عن النبى ﷺ كيف أنعم صاحب القرن قد أكتم القرن وحنى حنينه وأصغى سمعه فنظر متى يؤمر فنفخ، ثم قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا
ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ
قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا
وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ
حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبى: وآزر أبو إبراهيم وهو تارخ مثل إسرائيل.

ويعقوب وكان من أهل كوثى قرية من سواد الكوفة.

وقال مقاتل بن حيان: لأبى إبراهيم.

وقال سليمان التيمى: هو سب وعيب. ومعناه فى كلامهم المعوج وقيل: معناه الشيخ الهنم بالفارسية وهو على هذه الأقاويل فى محل الخفض على البدل أو الصفة ولكنه نصب لأنه لا ينصرف.

وقال سعيد بن المسيب، ومجاهد، ويمان: آزر اسم صنم وهو على هذا التأويل فى محل نصب.

وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره أتتخذ آزر أصنامًا آلهة.

وقرأ الحسن وأبو يزيد المدنى ويعقوب الحضرمى: آزر بالرفع على النداء بالمفرد يعنى يا آزر ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾: من دون الله إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يعنى كما أريناه البصيرة فى دينه والحق فى خلاف قومه نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى ملكهما والملكوت الملك وبدت فيه وجدت التاء للتأنيث فى الجبروت والرهبوت والرحموت.

وحكى عن العرب سراعًا له مليكوت اليمن والعراق.

وقال الكسائى: زيدت فيه التاء للمبالغة. وأنشد:

❖ وشر الرجال الخالب الخلبوت ❖

وقال عكرمة: هو الملك غير أنها بالنبطية ملكوتًا. وقرأها بالياء المعجمة مليًا.

وقال ابن عباس: يعنى خلق السموات والأرض.

مجاهد وسعيد بن جبير: يعنى آيات السموات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخرة وكشفت له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرض ونظر إلى مكانه فى الجنة. وذلك قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: (العنكبوت: ٢٧) يعنى أريناه مكانه فى الجنة.

قال قتادة: إن إبراهيم (عليه السلام) حدث نفسه أنه أرحم الخلق. فرفعه الله عزّ وجلّ حتى أشرف على أهل الأرض وأبصر أعمالهم فلما رآهم يعملون بالمعاصى قال لله: دمر عليهم، وجعل يلعنهم. فقال له ربه: أنا أرحم بعبادى منك، اهبط فلعلّهم يتوبوا.

قيس بن أبى حازم عن على كرم الله وجهه عن النبى ﷺ قال: «لما أرى الله تعالى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل على معصية من معاصى الله فدعا الله عليه فهلك، ثم أشرف على آخر فدعا الله عليه فهلك، ثم أشرف على آخر فلما أراد أن يدعو عليه أوحى الله عزّ وجلّ إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فإنهم منى على ثلاث خصال: إما أن يتوب إلىّ فأتوب عليه، وإما أن أُخرج منه نسمة تسبّح، وإما أن يعود إلى فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته».

وقال الضحاك: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الشمس والقمر والنجوم. وقال قتادة: خبئ إبراهيم (عليه السلام) من جبار من الجبابرة فحول له رزق فى أصابعه فإذا مص إصبعًا من أصابعه وجد فيها رزقًا فلما خرج أراه الله ملكوت السموات والأرض وكان ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ : إلى آخر الآية.

قال المفسرون: إن إبراهيم (عليه السلام) ولد فى زمن نمرود بن كيفان وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه وقلد التاج عليه ودعا الناس (. . .) وكان له كهان ومنجمون. وقالوا: إنه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه. ويقال إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء عليهم السلام.

وقال السدى: رأى نمرود فى منامه كأن كوكبًا اطلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعًا شديدًا ودعا السحرة والكهنة والحازة القافة فسألهم عن ذلك فقالوا: مولود يولد فى ناحيتك فى هذه السنة يكون هلاك ملكك وأهل بيتك على يديه. قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد فى ناحيته تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشر رجلاً، فإذا حاضت امرأة خليت بينها وبينه، فإذا طهرت عزل بينها، فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فلقفت فحملت إبراهيم (عليه السلام).

قال محمد بن إسحاق: بعث النمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده، إلاّ ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحمل فى بطنها.

قال السدى: خرج نمرود بالرجال إلى المعسكر ونحاهم عن النساء خوفًا من ذلك المولود أن يكون فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحدًا من قومه إلاّ آزر فبعث إليه ودعاه. فقال: إن لى إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولا أبعثك إلاّ لثقتى بك بما أقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك ولا تواقعها، فقال آزر: أنا أشحّ على دينى من ذلك، فأوصاه بحاجته ثم بعثه فدخل المدينة وقضى حاجته، ثم قال: قد دخلت على أهلى ونظرت إليه فلما نظر إلى أم إبراهيم لم يتمالك حتى وقع عليها فحملت بإبراهيم.

قال ابن عباس: لما حملت أم إبراهيم، قالت الكهان لنمرود: إن الغلام الذى أخبرناك به قد حملته أمه الليلة، فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعته فى نهر يابس، ثم لفته فى خرقة فوضعته فى حلفاء فرجعت فأخبرت بأنها ولدت وأن الولد فى موضع كذا فانطلق آزر يأخذه من ذلك المكان وحفر له سربًا عند نهر فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه.

وقال السدى : لما أعظم بطن أم إبراهيم خشى آزر أن يذبح فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها أورمة فأنزلها فى سرب من الأرض وجعل عندها ماء يصلهما وجعل يتعمدها ويكتم ذلك من أصحابه فولدت فى ذلك السرب وشب وكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين وصار من الشباب مخافة أن يسقط فى طمع الذباحين ثم ذكر آزر لأصحابه أن لى ابنًا كبيراً فانطلق به إليهم .

وقال ابن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبًا منها فولدت فيها إبراهيم فأصلحت من شأنه ما يصنع من المولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه فى المغارة لتنظر ما فعل فتجده حيًا يمص إبهامه .

وقال أبو روق : كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم وجدته يمص أصابعه ، فقالت ذات يوم : لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من إصبع ماء ومن إصبع عسلاً ومن إصبع لبنًا ومن إصبع تمرًا ومن إصبع سمنًا .

قال محمد بن إسحاق : وكان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل . فقالت : ولدت غلامًا فمات ، فصدقها فسكت عنها وكان اليوم على إبراهيم فى الشباب كالشهر ، والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم فى المغارة إلاّ خمسة عشر شهراً ثم رجع إلى أبيه آزر فأخبره أنه ابنه . وخبرته أم إبراهيم أنه ابنه وأخبرته بما كانت صنعت فى غيابه فسر بذلك آزر وفرح فرحًا شديداً ، قالوا : فإنما شب إبراهيم وهو فى السرب بعدما قال لأمه : من ربى؟

قالت : أنا ، قال : فمن ربك؟ قالت : أبوك ، قال : فمن ربّ أبى؟ قالت له : اسكت ، فسكت ، فلما رجعت إلى زوجها قالت : أرأيت الغلام الذى كنّا نتحدث أنه بغير دين أهل الأرض فإنه ابنك ثم أخبرته بما قال لها ، فأتاه أبوه آزر فقال له إبراهيم : يا أبتاه من ربى؟ قال : أمك ، قال : فمن رب أمى؟ قال : أنا ، قال : من ربك أنت؟ قال : نمرود ، قال : فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال : اسكت وقم ، قال لأبويه : أخرجانى . فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل ، والخيل ، والغنم ، فقال : أباه ما هذه؟ قال : إبل وخيل وغنم ، فقال : ما لهذه بدّ من أن يكون لها رب وخالق ثم نظر وتفكر فى خلق السموات والأرض . فقال : إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى ربى ما لى إله غيره . ثم نظر فإذا المشترى قد طلع ويقال الزهرة وكانت تلك الليلة فى آخر الشهر فرأى الكوكب قبل القمر . فقال : هذا ربى فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ : أى دخل يقال : جن الليل وأجن وجنه الليل وأجنه وجن عليه الليل يجن جنونًا وجنانًا إذا أظلم ومضى كل شىء ، وإنما سميت

الجن لاجتنانها فلا ترى.

قال أبو عبيدة: جنون الليل سواده، وأنشد:

فلولا جنـــان الليـــل أدرك ركضنا بذى الرمث والأرطى عياض بن ناشب

ورأى كوكبًا فـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ اختلفا فيه فأجراه بعضهم على الظاهر. وقالوا: ما كان إبراهيم (عليه السلام) مسترشداً متحيراً طالبًا من التوفيق حتى وفقه الله تعالى، وآتاه رشده، فإنما كان هذا منه فى حال طفولته، وقبل قيام الحجّة عليه وفى تلك يقول: لا يكون كفر ولا إيمان.

يدل عليه ما روى عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: لما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى فعبده حتى غاب فلما غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾: فعبده حتى غاب فلما غاب ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾: فعبدها حتى غابت الشمس فلما غابت ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: غير جائز أن يكون لله عزّ وجلّ رسول يأتى عليه وقت من الأوقات وهو غير موحد وعارف ومن كلّ معبود سواه برىء.

قالوا: وكيف قولهم هذا على عصمة الله وطهره فى مستقره ومستودعه وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته فقال: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ (الصافات: ٨٤)، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥) رأى كوكبًا فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾: على الاعتقاد والحقيقة هذا ما لا يكون أبدًا.

ثم قيل فيه أربعة أوجه من التأويل: الوجه الأول: أن إبراهيم (عليه السلام) أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم فى تعظيم ما عظموا ويقيم عليهم الحجة ويريهم أنه معظم ما يعظمونه ويلتمس الهدى من حيث التمسوا فلما أفل رأيهم النقص الداخل فى النجوم ليتبينوا خطأ ما يدعون وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمونها.

قالوا: ومثل هذا مثل الحوارى الذى ورد على قوم يعبدون بدًّا لهم ـ وهو الصنم ـ وأظهر فعظمه فأراهم الاجتهاد .... [1] كرموا وصدوا فى كثير من الأمور عن رأيه إلى أن ذمهم عدو لهم خافه الملك على ملكه فشاور الحوارى فى أمره.

فقالوا الرأى أن تدعو إلهنا حتى يكشف ما قد أضلنا فإنا لمثل هذا اليوم مجتمعون فاجتمعوا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

حوله يجأرون ويتضرعون وأمر عدوهم يستعجل ويتوكل فلما تبين لهم أن ربّهم لا ينفع ولا يرفع فقال على جهة الاستفهام والتوبيخ لفعلهم ﴿هَـٰذَا رَبِّى﴾ : ومثل هذا يكون ربًا؟ أى ليس هذا ربى كقول الله تعالى : ﴿تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ (الأعراف : ٢٠) يعنى أنهم الخالدون.

وكقول موسى (عليه السلام) لفرعون : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ (الشعراء : ٢٢) يعنى أوتلك نعمة نعمتها.

قال الهذلى :

رفعونى وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

وقال آخرون :

لعمرك ما أدرى وإن كنت داريا شعيث بن سهم أم شعيث بن منقر

والوجه الثالث : أن إبراهيم (عليه السلام) قال هذا على وجه الاحتجاج على قومه لا على معنى الشك فى ربه كأنه قال : هذا ربى عندكم فلمّا أفل قال : ـ وكان الهلال ـ قال : هذا أكبر منه فنظر إلى الذى عكفت عليه ههنا يعنى عندك وقوله : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ (الدخان : ٤٩) بقوله حزنه فى النار لأبى جهل يعنى إنك كذا عند نفسك وأما عندنا فلا عزيزًا ولا كريمًا ، فى الآية اختصار وإضمار ومعناها قال : يقولون هذا ربى كقوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا﴾ (البقرة : ١٢٧) أى يقولون ربنا تقبل منا . فلما أفل غاب وزال قال : لا أحب الآفلين ربًا ، لا يدوم ، فلما رأى القمر بازغًا طالعًا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين عن الهدى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى .

قال محمد بن مقاتل الرازى : إنما قال هذا ولم يقل هذه لأنه رأى ضوء الشمس ولم ير عين الشمس . فرده إلى الشعاع .

وقال الأخفش : أراد هذا الطالع ربى أو هذا الآتى أراه ربى هذا أكبر لأنه رآه أضوأ وأعظم فلما غربت ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ الآية . وكان آزر يصنع الأصنام فلما ضم إبراهيم إلى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليصرفها فيذهب بها إبراهيم فينادى : من يشترى ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد ، فإذا زادت عليه ذهب بها إلى نهر فصوّب فيها رءوسها وقال : اشربى استهزاءً بقومه وبما هم عليه من الضلالة حتى فشى عيبه إياها واستهزاؤه بها فى قومه وأهل قريته ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾ : أى خاصمه ﴿قَوْمُهُۥ﴾ : فى دينه ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ : عرّفنى التوحيد والحق ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ :

وذلك أنهم قالوا له: أما تخاف أن تمسك آلهتنا بسوء من برص أو خبل لعيبك إيّاها؟ فقال لهم: ولا أخاف ما تشركون به من الأصنام ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى﴾ سواء فيكون بما شاء ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يعنى أحاط علمه بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾: يعنى الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾: حجة وبرهانًا وهو القاهر القادر على كل شيء ثم قال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أولى بالأمن أنحن ومن اتّبع ديني ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: فقال الله عزّ وجلّ قاضيًا وحاكمًا بينهما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾: ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال عبد الله بن مسعود: لما نزلت هذه الآية طبق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه» ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣). (إنما هو الشرك).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: يعنى خصمهم وغلبهم بالحجة قال هي قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢). قال بعبادة الأوثان ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم.

وقرأ أهل الكوفة ويحيى بن يعمر وابن محيصن: ﴿دَرَجَـٰتٍ﴾ بالتنوين يعنى نرفع من نشاء درجات، مثله في سورة يوسف، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨٦ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٨ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ۝٨٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٠ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ وفقنا وأرشدنا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾: إبراهيم وولده ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: يعنى ومن داود ونوح لأن داود لم يكن من ذرية إبراهيم وهو داود بن أيشا ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ يعنى ابنه ﴿وَأَيُّوبَ﴾: وهو أيوب بن أموص بن رانزخ بن روح ابن عيصا بن إسحاق بن إبراهيم ﴿وَيُوسُفَ﴾: وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الذى قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» ﴿وَمُوسَىٰ﴾: وهو موسى بن عمران بن صهر بن فاعث بن لادى ين يعقوب.

﴿وَهَٰرُونَ ۚ﴾ وهو أخو موسى أكبر منه بسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أى كما جزينا إبراهيم على توحيده وثباته على دينه بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: على إحسانهم ﴿وَزَكَرِيَّا﴾: وهو زكريا بن أزن بن بركيا ﴿وَيَحْيَىٰ﴾: وهو ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾: وهو ابن مريم بنت عمران بن أشيم بن أمون بن حزقيا ﴿وَإِلْيَاسَ ۖ﴾.

واختلفوا فيه، فقال عبد الله بن مسعود: هو إدريس مثل يعقوب وإسرائيل.

وقال غيره: هو إلياس بن بستى بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران نبى الله (عليه السلام) وهو النصيح لأن الله تعالى نسب فى هذه الآية الناس إلى نوح وجعله من ذريته ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس ومحال أن يكون جدّ أبيه منسوبًا إلى أنه من ذريته ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: يعنى الأنبياء والمؤمنين ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: وهو ابن إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾: وهو اليسع بن إخطوب بن العجون ﴿وَيُونُسَ﴾: وهو يونس بن متى ﴿وَلُوطًا ۚ﴾: وهو لوط بن هارون أو ابن أخى إبراهيم (عليه السلام) ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: يعنى عالمى زمانهم ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: اختبرناهم واصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: سددناهم وأرشدناهم، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾: يعنى ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم بربهم تعالى ذكره فعبدوا معه غيره ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم﴾: بطل عنهم وذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعنى تلك الكتب ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾: يعنى قريشًا ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا

بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾: يعنى الأنصار وأهل المدينة. وقال قتادة: يعنى الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾: بسنّتهم وسيرتهم ﴿ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ الهاء فيه هاء الوقف ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾: جعلاً ورزقًا ﴿إِنْ هُوَ﴾: ما هو يعنى محمداً ﷺ ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾: عظة ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: أى ما عظموا الله حق عظمته. وما وصفوا الله حق صفته ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾.

قال سعيد بن جبير: جاء رجل من يهود الأنصار يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبى ﷺ، فقال النبى: أتشرك بالله الذى أنزل التوراة على موسى؟ ما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سمينًا فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شىء، فقال لأصحابه الذين معه ويحك ولا موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شىء. فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال السدى: إنها نزلت فى فنحاص بن عازورا، وهو قائل بهذه المقالة.

محمد بن كعب القرظى: جاء ناس من اليهود إلى النبى ﷺ وهو محتب وقالوا: يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى (عليه السلام) ألواحًا يحملها من عند الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الآية (النساء: ١٥٣).

فجاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئًا. فأنزل الله هذه الآية.

وقال ابن عباس: قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: نعم. قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

معلى بن أبى طلحة عن ابن عباس: نزلت فى الكفار أنكروا قدرة الله تعالى عليهم فمن أقرّ أن الله على كل شىء قدير فقد قدر الله حق قدره. ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقال مجاهد: نزلت فى بشر من قريش. قالوا: ما أنزل الله على بشر شىء.

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ قال: هم اليهود.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ قال هذه المسلمين وهكذا.

روى أيوب عنه أنه قرأ: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ معشر العرب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ وقوله:

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ : أى دفاتر كتبنا جمع قرطاس أى تفرقونها وتكتبونها فى دفاتر مقطعة حتى لا تكون مجموعة لتخفوا منها ما شئتم ولا يشعر بها العوام، تبدونها وتخفون كثيراً من ذكر محمد وآية الرجم ونحوها مما كتبوها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء: يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً كلها بالياء على الإخبار عنهم.

وقرأها الباقون: بالتاء على الخطاب، ودليلهم قوله تعالى ممّا قبله من الخطاب: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وقرأ بعده: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فإن أجابوك وقالوا: الله، وإلاّ فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فعل ذلك ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ : حال وليس بجواب تقديره ذرهم فى خوضهم لاعبين.

❖ ❖ ❖

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ : يعنى القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ : أى وهذا كتاب مبارك أنزلناه ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ﴾ : تخبر.

وقرأ عاصم: بالياء أى ولينذر الكتاب ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعنى مكة سمّاها أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ : تحمل الأرض كلها شرقًا وغربًا ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ : بالكتاب ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ : يعنى الصلوات الخمس ﴿يُحَافِظُونَ﴾ : يداومون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ : أى أخطأ قولاً وأجهل فعلاً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ : اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ : فزعم أنه بعثه نبيًا ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ : نزلت فى مسيلمة الكذاب الحنفى وكان يستمع ويتكهن

ويدعي النبوة ويزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رجلين، فقال لهما النبي ﷺ: «أتشهدان أنّ مسيلمة نبي؟» فقالا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لولا أنّ الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما».

وقال رسول الله ﷺ: «رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يدي سوارين من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحى الله إليّ أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي».

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: نزلت في عبد الله بن سعيد بن أبي سرح القرشي، وكان يكتب للنبي ﷺ فكان إذا قال سميعًا عليمًا كتب هو عليمًا حكيمًا، وإذا قال عليمًا حكيمًا كتب غفورًا رحيمًا، وأشباه ذلك فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢) الآية. أملاها رسول الله ﷺ عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله ﷺ: «اكتبها فهكذا نزلت» فشك عبد الله وقال: لئن كان محمد صادقًا لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه ولئن كان كاذبًا لقد قلت كما كتب فارتدّ عن المسلمين ولحق بالمشركين، وقال لهم: عليكم بمحمد لقد كان يملي عليّ فأغيره وأكتب كما أُريد.

ووشى بعمار وجبير عبد لبني الحضرمي فأخذوهما وعذبوهما حتى أعطياهما الكفر وجذع أذن عمار يومئذ فأخبر عمار النبي ﷺ بما لقي وبما أعطاهم من الكفر فأبى النبي ﷺ أن يتولاه هؤلاء فأنزل الله عزّ وجلّ فيه، وفي خبر: وابن أبي سرح ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ (النحل: ١٠٦).

يعني عبد الله بن سعيد بن أبي سرح ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي ﷺ بمرط هران ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: وهم الذين ذكرهم الله ووصفهم قبل ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾: سكراته وهي جمع غمرة وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه وأصل الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ومنه غمرة الماء ثم استعملت في معنى الشدائد والمكاره ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾: بالعذاب والضرب وجوههم وأدبارهم كما يقال بسط يده بالمكروه ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾: أي يقولون أخرجوا ﴿أَنفُسَكُمُ﴾: أرواحكم كرهًا لأنّ نفس المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه، والجواب محذوف يعني ولو تراهم في هذا الحال لرأيت عجبًا.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾: تثابون ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: أي الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾: يعني محمدًا ﷺ والقرآن ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: تتعظمون.

قال النبي ﷺ: «من سجد لله سجدة فقد برئ من الكبر» ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾: هذا خبر

من الله تعالى أنه يقول للكفار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فرادى وحدانًا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم ولا حشم.

قال الحسن: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ كل واحدة على حدة.

وقال ابن كيسان: مفردين من المعبودين، وفرادى جمع فردان مثل سكران وسكارى، وكسلان وكسالى. ويقال أيضًا في واحد فرد بجزم الراء وفرد بكسرها وفرَد بالفتح وأفرد وجمعها أفراد مثل أحاد وفريد وفردان مثل قضيب وقضبان وكثيب وكثبان.

وقرأ الأعرج: فردى بغير ألف مثل كسرى وكسلى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: عراة حفاة غرلاً بهم ﴿وَتَرَكْتُم﴾: وخلفتم ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾: أعطيناكم ومكنّاكم من الأموال والأولاد والخدم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾: خلف ظهوركم في الدنيا.

روى محمد بن كعب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملئت ما بين السماء والأرض فيقول الجبار جل جلاله: وعزّتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأجساد وإنما يدخل في الخياشم كما يدخل السم في اللديغ ثم يشق عليكم الأرض وأنا أول من يشق عنه الأرض فينسلون عنهم سراعًا إلى ربكم على سن ثلاثين مهطعين إلى الداعي فيوقفون في موقف منه سبعين عامًا حفاةً عراةً غرلاً بهم لا يناظر إليكم فلا يقضى بينكم فتبكى الخلائق حتى ينقطع الدمع ويجف العرق».

وقال الفرضي: قرأت عائشة زوج النبي ﷺ قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقالت: يا رسول الله وا سوءتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعًا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال رسول الله ﷺ: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض».

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا﴾: وذلك أن المشركين زعموا أنهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

قرأ أهل المدينة، والحسن، ومجاهد، وأبو رجاء، والكسائي: بينكم نصبًا.

وقرأ أهل المدينة، والحسن، ومجاهد: وهي قراءة أبي موسى الأشعري على معنى لقد تقطع ما بينكم وكذلك هو في قراءة عبد الله وقرأ الباقون: بالرفع على معنى لقد تقطع وصلكم فالبين من الأضداد يكفي وصلاً وهجراً وأنشد:

لعمرك لولا البين لا يقطع الهوى ولولا الهوى ما حنّ للبين آلف

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾: أى فلق الحب عن النبات، ومخرج منها الزرع وشاق النوى عن الشجر والنخل ومخرجها منها.

وقال مجاهد: يعنى الشقين اللذين عناهما.

وقال الضحاك: فالق الحب والنوى، الحب جمع الحبة وهى كل ما لم يكن لها نواة مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها.

﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾: جمع النواة وهى كل ما يكون له حب مثل الخوخ والمشمش والتمر والأجاص ونحوها.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: تصدون عن الحق ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾: شاق عمود الصبح من ظلمة الليل وكاشفه.

وقال الضحاك: خالق النهار، والإصباح مصدر كالإقبال والإدبار وهى الإضاءة.

وقرأ الحسن والقيسى: فالق الأصباح بفتح الهمزة جعله جمع مثل قرص وأقراص.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾: سكن فيه خلقه. وقرأ النخعى: فلق الأصباح وجعل الليل سكنًا.

وقرأ أهل الكوفة: فالق الأصباح وجعل الليل سكنًا على الفعل إتباعًا للمصحف.

وقرأ الباقون: كلاهما بالألف على الاسم.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾: أى جعل الشمس والقمر بحساب لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما.

وقرأ يزيد بن قعنب: والشمس والقمر بالخفض عطفًا على اللفظ، والحسبان مصدر

كالنقصان والرحمان وقد يكون جمع حساب مثل شهاب وشهبان، وركاب وركبان.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾: أى خلقها ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾: خلقكم وابتدأكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: يعنى آدم (عليه السلام).

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: فمستقر بكسر القاف على الفاعل يعنى فلكم مستقر.

وقرأ الباقون: بفتح على معنى فلكم مستقر.

واختلف المفسرون فى المستقر والمستودع. فقال عبد الله بن مسعود: فمستقر فى الرحم إلى أن يوادع مستودع فى القبر إلى أن يبعث.

وقال مقسم: مستقر حيث يأوى إليه، ومستودع حيث يموت.

وقال سعيد بن جبير: فمستقر فى بطون الأمهات، ومستودع فى أصلاب الآباء.

وقال: قال لى ابن عباس (رضى الله عنه) أتزوجت يا بن جبير؟ فقلت: لا وما أريد ذلك بوجه. قال: فضرب ظهرى وقال: إنه مع ذلك ما كان مستودعًا فى ظهرك فسيخرج.

عكرمة عن ابن عباس: المستقر الذى قد خلق واستقر فى الرحم، والمستودع الذى قد استودع فى الصلب مما لم يخلق بعد وهو خالقه.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: المستقر فى الرحم، والمستودع ما استودع فى أصلاب الرجال والدواب.

مجاهد: فمستقر على ظهر الأرض فى الدنيا. ومستودع عند الله تعالى فى الآخرة.

وقال أبو العالية: مستقرها أيام حياتها، ومستودعها حيث تموت وحيث يبعث.

وقال كريب: دعانى ابن عباس (رضى الله عنه) فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عباس إلى فلان حبر تيماء، أما بعد فحدثنى عن مستقر ومستودع: قال: ثم بعثنى بالكتاب إلى اليهودى فأعطيته إياه، فقال: مرحبًا بكتاب خليلى من المسلمين فذهب إلى بيته ففتح أسفاطًا له كثيرة فجعل يطرح تلك الأشياء لا يلتفت إليها. قال: قلت له: ما شأنك؟ قال: هذه أشياء كتبها اليهود، حتى أخرج سفر موسى فنظر إليه مرتين فقال: مستقر فى الرحم ومستقر فوق الأرض ومستقر تحت الأرض ومستقر حيث يصير إلى الجنة أو إلى النار، ثم قرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ (الحج: ٥). وقرأ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦).

فقرأ الحسن: المستقر فى القبر، والمستودع فى الدنيا، وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة فى أهلك يوشك أن تلحق بصاحبك، وأنشد قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بد يومًا أن تردّ الودائع

وقال سليمان بن يزيد العدوى فى هذا المعنى:

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا ... فالناس مفجوع به ومفجع

ومستودع أو مستقر مدخلاً ... فالمستقر يزوره المستودع

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾: من الماء، وقيل: من النبات ﴿خَضِرًا﴾: يعنى أخضر، وهو رطب البقول، يقول: هو لك خضرًا مظرًا أى هنيئًا مريئًا.

وقال نخلة: خضيرة: إذا كانت ترمى ببسرها أخضر قبل أن ينضج، وقد اختضر الرجل واغتضر إذا مات شابًا مصححًا ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾: أى ثمرها وكثيرًا منها وما يطلع منها ﴿قِنْوَانٌ﴾: جمع قنو وهو العذق مثل صنو وصنوان.

قال أبو عبيدة: ولا ضير بهذا الكلام.

وقرأ الأعرج: قنوان بضم القاف، وهى لغة قيس، مثل قضبان. ولغة تميم: قنيان. وجمعه القليل أقنا مثل حنو وأحنا، ﴿دَانِيَةٌ﴾: قريبة ينالها القائم والقاعد. وقال مجاهد: متدلّية.

وقال قتادة: متهدّلة.

وقال الضحاك: قصار ملتزقة بالأرض. ومعنى الآية ومن النخل قنوانها دانية ومنها ما هى بعيدة فاكتفى بالقريبة عن البعيدة كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (النحل: ٨١). والبرد ﴿وَجَنَّاتٍ﴾: يعنى وأخرجنا منه جنات.

وقرأ يحيى بن يعمر والأعمش وعاصم: وجنات رفعًا نسقيًا على قنوان لفظًا وإن لم يكن فى المعنى من جنسها ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾: يعنى وشجر الزيتون والرمان، فاكتفى بالتمر عن الشجر كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨١)، ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾: قتادة: متشابه ورقه يختلف بثمره، وقيل: مشتبهًا فى المنظر غير متشابه فى المطعم. وقال الحسن: الفعل منها ما يشبه بعضه بعضًا ومنها ما يخالف، وقيل: مشتبهًا فى الخلقة من منشئه من الحكمة ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾.

قرأ أهل الكوفة: بضم الثاء والميم على جمع الثمار. وقرأ الباقون بفتحهما على جمع

الثمرة مثل بعر وبر ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾: نضجه وإدراكه.

وقرأ أبو رجاء ومحمد بن السميقع: ويانعه بالألف على الاسم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَجَعَلُواْ﴾: يعنى الكافرين ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾: يعنى وجعلوا لله الجن شركاء، وإن شئت نصبته على التفسير ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾: يعنى وهو خلقهم وخلق الجن.

وقرأ يحيى بن معمر: وخلقهم بسكون اللام وفتح القاف أراد إفكهم وادّعاءهم ما يعبدون من الأصنام حيث جعلوها شركاء لله عزّ وجلّ يعنى وجعلوا له خلقهم.

وقرأ يحيى بن وثاب: وخلقهم بسكون اللام وكسر القاف، يعنى جعلوا لله شركاء وخلقهم أشركوهم مع الله فى خلقه إياهم.

وقال الكلبى: نزلت فى الزنادقة قالوا: إن الله وإبليس شريكان، والله خالق النور والناس والدواب والأنعام. وإبليس خالق الظلمة والسباع والعقارب والحيّات، وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ (الصافات: ١٥٨) يعنى فى الجنة، وهم صنف من الملائكة خزان الجنان أشق لهم منهم صنف من الجن ﴿وَخَرَقُواْ﴾: أى اختلفوا وخرصوا.

وقرأ أهل المدينة: بكثرته وخرّقوا على التكثير ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾: وهم كفار مكة، قالوا: الملائكة والأصنام بنات الله. واليهود قالوا: عزير ابن الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله ثم نزّه نفسه. وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ

لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أجراه بعضهم على العموم فقال: معناه لا تحيط به الأبصار بل تراه وهو يحيط بها.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٠) فكما تعرفه فى الدنيا لا كالمعروفين فكذلك تراه فى العقبى لا كالمرئيين.

قالوا: وقد ترى الشىء ولا تدركه كما أخبر الله تعالى عن قول أصحاب موسى (عليه السلام) حين قرب منهم فرعون ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١) وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لأن الله تعالى قد وعد نبيه موسى (عليه السلام) أنهم لا يدركون بقوله: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ (طه: ٧٧).

وكذلك قال سعيد بن المسيب: لا تحيط به الأبصار. وقال عطاء: كلّت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به.

وقال الحسن: لا تقع عليه الأبصار ولا تدل عليه العقول ولا يدركه الإذعان.

يدلّ عليه ما روى عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾. قال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفًا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدًا.

وأجراه بعضهم على النصوص. قال ابن عباس ومقاتل: معناه لا تدركه الأبصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾: لا يخفى عليه شىء ولا يفوته.

وقيل: معناه لا تدركه أبصار الكافرين، فأما المؤمنون فيرونه، والله أعلم ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

قال أبو العالية: لطيف باستخراج الأشياء خبير بها.

وقال أكثر العلماء فى معنى اللطيف. فقال الجنيد: اللطيف: من نوّر قلبك بالهدى وربى جسمك بالغدا، وجعل لك الولاية فى البلوى ويحرسك من لظى ويدخلك جنة المأوى.

وقيل: اللطيف الذى أنسى العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا. وقيل: الذى ركّب من النطفة من ماء مهين وقيل: هو الذى يستقل الكثير من نعمه ويستكثر القليل من طاعة عباده.

قتادة: وقيل: اللطيف الذى يُغيِّر ولا يُغيَّر. وقيل: اللطيف الذى إن رجوته لبّاك وإن قصدته آواك، وإن أحببته أدناك وإن أطعته كافاك، وإن عصيته عافاك وإن أعرضت عنه دعاك، وإن أقبلت إليه عداك.

وقيل: اللطيف: الذى لا يطلب من الأحباب الأحساب والأنساب. وقيل: اللطيف:

الذى يغنى المفتقر إليه ويعز المفتخر به . وقيل : اللطيف : من يكافى الوافى ويعفو عن الباقى . وقيل : اللطيف : من أمره تقريب ونهيه تأريب .

وقيل : اللطيف : الذى يكون عطاؤه خيراً ومنعه ذخيرة . وأصل اللطيف دقة النظر فى جميع الأشياء ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ : يعنى الحجج البينة التى يبصرون بها الهدى من الضلال والحق من الباطل .

قال الكلبى : يعنى بينات القرآن .

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ : يعنى عرفها وآمن بها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ : عمل وحظه أصاب وإياها بغى الخير ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ : عنها فلم يعرفها ولم يصدقها .

وقرأ طلحة بن مصرف : ومن عُمِّى بضم العين وتشديد الميم على المفعول التى تدل عليها ، يقول : فنفسه أضر وإليها أساء لا إلى غيره ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ رقيب أحصى إليكم أعمالكم وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى وهو الحفيظ عليكم الذى لا يخفى عليه شىء من أفعالكم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ : نبينها فى كل وجه لندعوكم بها ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ : وليلاً يقولوا إذا قرأت عليهم القرآن ﴿دَرَسْتَ﴾ : أى تلوت وقرأت يا محمد بغير ألف قرأه جماعة منهم أبو رجاء وأبو وائل والأعرج ومعظم أهل العراق وأهل الحجاز ، وكان عبد الله بن الزبير يقول : إن صبيانًا يقرأونها دارست بالألف وإنما هى درست .

وقرأ على ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو : دارست بالألف يعنى قارأت أهل الكتاب وتعلمت منهم تقرأ عليهم يقرءوا عليك .

وقال ابن عباس : يعنى جادلت وخاصمت ، وكذلك كان يقرأها ، وقرأ قتادة : درست بمعنى قرئت وتليت .

وقرأ الحسن وابن عامر ويعقوب : درست بفتح الدال والراء وجزم التاء بمعنى تقادمت وانمحت وقرأ ابن مسعود وأبى طلحة والأعمش : درس بفتحها يعنون النبى درس الآيات ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ : يعنى القول والتحريف والقرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ٱتَّبِعْ﴾ : يا محمد ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ : يعنى القرآن اعمل به ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ : فلا تجادلهم ولا تعاقبهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ : رقيبًا . ويقال ربًا .

قال عطاء : وما جعلناك عليهم حفيظًا تمنعهم منى ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ : والإعراض منسوخ بآية السيف . وهذه الآية نزلت حين قال المشركون لرسول الله ﷺ : إلى دين آبائك .

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: ٩٨) قال المشركون: يا محمد لتنهينّ عن سبّ آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم.

قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فنهاهم الله عن ذلك كيلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة.

وقال السدي: لما حضرت أبا طالب الوفاة، قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ولنأمرنّه أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فيقول العرب: كان يمنعه فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمية وأبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمرو بن العاص، والأسود بن البختري، إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه، فدعاه فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله ﷺ: «ما يريدون؟» قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك.

قال: قد أنصف قومك، فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم».

قال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشراً أمثالها فما هى؟ قال: قولوا: لا إله إلاّ الله، فأبوا واشمأزّوا.

وقال أبو طالب: قل غيرها يا ابن أخى، فإن قومك قد فزعوا منها. فقال: «يا عم ما أنا بالذى أقول غيرها ولو أتونى بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها».

فقالوا: لتكفّنّ عن شتمك آلهتنا أو لنشتمن من يأمرك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًا﴾.

وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة ويعقوب: عدواً بضم العين والدال وتشديد الواو أى أعداء الله.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: فلما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تسبوا ربهم». فأمسك المسلمون عن سبّ آلهتهم.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾: يعنى كما زيّنا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، الحرمان والخذلان كذلك زيّنا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾: يخبرهم ويجازيهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

قال محمد بن كعب القرظى والكلبى: قالت قريش: يا محمد تخبرنا بأن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك. قال رسول الله ﷺ: «أى شىء تحبون أن آتيكم به؟».

قالو: تجعل لنا الصفا ذهبًا وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً، فقال رسول الله ﷺ: «لئن فعلت بعض ما تقولون تصدقونى» قالوا: نعم والله لئن فعلت نتبعك أجمعين.

وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله ﷺ يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبًا، فجاء جبرئيل عليه السلام فقال له: إن شئت أصبح ذهبًا ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم فإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم» فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعنى أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وحدها.

قال الكلبى ومقاتل: إذا حلف الرجل بالله سبحانه فهو جهد بيمينه. ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾: كما جاء من قبلهم من أمم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ﴾: يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: وهو القادر على إتيانها دونى ودون كل من خلقه. ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم فحذف المفعول وما

أدريكم، واختلفوا فى المخاطبين، بقوله ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: حسب اختلافهم فى قراءة قوله ﴿أَنَّهَآ﴾. فقال بعضهم: إن الخطاب للمشركين الذين أقسموا وتمّ الكلام عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ثم استأنف، فقال: إنها يعنى الآيات ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون.

وقرءوا: (إنها): بالكسر على الابتداء، وهو فى قراءة مجاهد وقتادة وابن محيصن وابن كثير وشبل وأبى عمر والجحدرى.

وقال آخرون: الخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه وقرءوا: ﴿أَنَّهَآ﴾ بالفتح وجعلوا «لا» صلة يعنى وما يدريكم يا معشر المؤمنين أنها إذا جاءت المشركين لا يؤمنون كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (الأعراف: ١٢) يعنى: أن تسجد، وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥) يعنى أنهم يرجعون. وقيل: معنى إنها: لعلها وكذلك هى قراءة أُبىّ، تقول العرب: اذهب إلى السوق إنك تشترى شيئًا بمعنى لعلك تمر.

وقال عدى بن زيد:

أعـــازل مـــا يدريك أن منيتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

يعنى: لعلّ منيّتى.

وقال دريد بن الصمة:

ذرينى أطوف فى البلاد لأنّنى أرى ما ترين أو بخيلاً مخلدا

يعنى: لعلّنى.

وقال أبو النجم:

قلت لسينان ادن من لقائه إنا نغدى القوم من سرائه

أى ثعلبًا تغدى.

وقرأ ابن عامر والسدى وحمزة: (لا تؤمنون) بالتاء على حساب الكفار وما يشعركم، واعتبر بقراءة أبىّ: (لعلكم إذا جاءكم لا يؤمنون).

وقرأ الباقون: بالياء على الخبر وتصديقها قراءة الأعمش (إنّها إذا جاءتهم لا يؤمنون).

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

قال ابن عباس وابن زيد: يعنى نحول بينهم وبين الإيمان. لو جئناهم بالآيات التى سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا بالتى قبلها مثل انشقاق القمر وغيره عقوبة لهم على ذلك.

وقيل: كما لم يؤمنوا به فى الدنيا قبل مماتهم. نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ

عَنۡهُ﴾ (الأنعام: ٢٨).

﴿وَنَذَرُهُمۡ﴾: قرأ أبو رجاء: ويذرهم بالياء. وقرأ النخعى: ويقلب ويذرهم كلاهما بالياء ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾: فرأوهم عيانًا ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: بإحيائنا إياهم فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا ﴿وَحَشَرۡنَا﴾: وجمعنا ﴿عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلًا﴾: بكسر القاف وفتح الباء أى معاينة وهى قراءة أكثر القراء، قرأ أبو جعفر: التى فى الأنعام قبلاً بالكسر والتى فى الكهف قبلاً عيانًا بالضم. أبو عمرو بالنصب وكذلك اختار أبو عبيد وأبو حاتم لأنها فى قراءة أُبىّ قبيلاً بجمعها القبل. والتى فى الكهف قبلاً يعنى عيانًا.

وقرأ أهل الكوفة: بضم القاف والباء، ولها ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون جمع قبيل وهو الكفيل ضمنًا وكفلاً. والقبالة الكفالة، يقال: قبيل وقبل مثل رغيف ورغف، وقضيب وقضب.

والثانى: جمع قبيل هو القبيلة يعنى فوجًا فوجًا وصنفًا صنفًا.

والثالث: أن يكون بمعنى المقابلة والمواجهة من قول القائل: أتيتك قبلاً لا دبرًا إذا أتاه من قبل وجهه ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذلك لهم. وقيل: الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم فى علم الله الإيمان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾: أن ذلك كذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا﴾: يعزى نبيه ﷺ يعنى كما أتيناك بهؤلاء القوم وكذلك جعلنا ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾: قبلك ﴿عَدُوّٗا﴾: أعداء وفسّرهم فقال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾.

عكرمة والضحاك والسدى والكلبى: معناه: شياطين الإنس التى مع الإنس وشياطين الجن التى مع الجن وليس للإنس شياطين.

وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين، بعث منهم فريقًا إلى الإنس وفريقًا إلى الجن، شياطين الإنس والجن فهم ملتقون فى كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبى بكذا فأضل صاحبك بمثله، ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك يوحى بعضهم إلى بعض.

وقال آخرون: إنّ من الإنس شياطين ومن الجن شياطين، والشيطان: العاتى المتمرد من كل شىء.

قالو: إن الشيطان إذا أغوى المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان من الإنس فأغراه المؤمن.

قال أبو طلحة ما روى عوف بن مالك عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر هل

تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: يا رسول الله فهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم هم شر من شياطين الجن.

وقال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلاّ وقد وكّل قرينه من الجن» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلاّ أن الله قد أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلاّ بخير».

وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يحبني فيجرني إلى المعاصي عيانًا ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي يلقي ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾: وهو القول المموّه والمزين بالباطل، وكل شيء حسّنته وزينته فقد زخرفته ثم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰٓ﴾: أي ولكي تميل.

وقال ابن عباس: ترجع يقال: صغى يصغى صغًا وصغى يصغى ويصغو صغواً وصغواً إذا مال.

قال القطامي:

أصغت إليه هجائن بنحورها آذانهن تلى الحداة السوق

ترى عينها صغواء في جنب ماقها تراقب كفي والقطيع المحرما

﴿إِلَيْهِ﴾: يعني إلى الزخرف والغرور، ويقال: صغو فلان معك، وصغاه معك أي ميله وهواه.

وقرأ النخعي: ولتصغى بضم التاء وكسر الغين أي تميل، والإصغاء الإمالة. ومنه الحديث إن رسول الله ﷺ كان يصغي الإناء للهرة.

﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾: الأفئدة جمع الفؤاد مثل غراب وأغربة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾: أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون.

وقال ابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون. يقال: اقترف فلان مالاً أي اكتسبه، وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه وعمله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ (الشورى: ٢٣).

قال لبيد:

وإني لآتي ما أتيت وإنني لما اقترفت نفسي عليّ لراهب

وقيل: هو من التهمة يقال: قرفه بسوء إذا اتهمه به.

قال رؤبة:

أعيا اقتراف الكذب المقروف تقوى التقيّ وعفّة العفيف

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ
يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن
يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ
مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ فيه إضمار أى قل لهم يا محمد أفغير الله ﴿أَبْتَغِى حَكَمًا﴾: قاضيًا بينى وبينكم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾: مبينًا يعنى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعنى التوراة والإنجيل وهم مؤمنو أهل الكتاب.

قال عطاء: هم أصحاب النبى ﷺ أبو بكر، وعمر وعثمان وعلى وأتباعهم رضى الله عنهم والكتاب هو القرآن.

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾: يعنى القرآن ﴿مُنَزَّلٌ﴾.

وقرأ الحسن والأعمش وأبى عامر: وخص بالتشديد من التنزيل لأنه أنزل نجومًا مرة بعد مرة.

وقرأ الباقون: بالتخفيف من الإنزال لقوله عز وجل يعنى أنزل إليكم الكتاب ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرأ أهل الكوفة كلمة: على الواحد والباقون: كلمات على الجمع، واختلفوا فى الكلمات.

فقال قتادة: هى القرآن لا مبدل له لا يزيد المفترون ولا ينقصون.

وقال بعضهم: هى أقضيته وعدالته ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: لا مغير لها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يعنى الكفار ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن دين الله ثم قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يكذبون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

قال بعضهم: موضع من نصب لأنّه ينزع الخافض وهو حرف الصفة أى بمن.

وقيل: موضعه رفع لأنه بمعنى أى والرافع ليضل.

وقيل: محله نصب لوقوع العلم عليه وأعلم بمعنى يعلم كقول حاتم الطائي:

فحالفت طيء من دوننا حلفا والله أعلم مـا كنا لهم خذلا

وقالت الخنساء:

القــوم أعلم أن جفنتــه تغدو غداة الريح أو تسرى

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

قال ابن عباس: قال المشركون للمؤمنين: إنكم تعبدون الله فما قبل الله لكم الحق أن تأكلوا مما قتلتم بسكاكينكم فنزل الله ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: وقت الذبح يعنى المذكاة باسم الله ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾: وما يمنعكم أن لا تأكلوا ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: من الذبائح ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

قرأ الحسن وأبو رجاء الأعرج وقتادة والجبائي وطلحة ومجاهد وحميد وأهل المدينة: بالفتح فهما على معنى فصل الله ما حرمه عليكم لقوله ﴿اسْمُ اللَّهِ﴾ جرى ذكره تعالى.

وقرأ محمد بن عامر وأبو عمرو: بضمهما على غير تسمية الفاعل لقوله ﴿ذُكِرَ﴾.

وقرأ أصحاب عبد الله وأهل الكوفة: فصل بالفتح يحرم بالضم.

وقرأ عطية العوفي فصل مفتوحًا خفيفًا بمعنى قطع الحكم فيما حرم عليكم وهو ما ذكر في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ (المائدة: ٣) الآية. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾: من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾: قرأ الحسن وأهل الكوفة: بضم الياء كقوله: يضلوك.

وقرأ الباقون: بالفتح كقوله: من يضل ومن ضل ﴿بِأَهْوَائِهِم﴾: بمرادهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: حين دعوا إلى أكل الميتة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾: المتجاوزين من الحلال والحرام.



﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ۝ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا

بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾»

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: يعنى الذنوب كلها لا يخلو من هذين الوجهين.

واختلفوا فيها فقال قتادة: سرّه وعلانيته، عطاء: قليله وكثيره. مجاهد: ما ينوى وما هو عامله. الكلبى: ظاهر الإثم الزنا وباطنه المخالة.

السدى: الزوانى اللاتى فى الحوانيت وهو بيت أصحاب الرايات وباطنه الصديقة يتخذها الرجل فيأتيها سراً. وقال مرّة الهمدانى: كانت العرب تجوز الزنا وكان الشريف إن يزنى يستر ذلك وغيره لا يبالى إذا زنا ومتى زنا فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: كان أهل الجاهلية يسترون الزنا ويرون ذلك حلالاً ما كان سراً، فحرم الله تعالى لهذه الأمة السرّ منه والعلانية.

وروى حيان عن الكلبى: ظاهر الإثم طواف الرجال بالنهار عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة.

وقال سعيد بن جبير: الظاهر ما حرم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٢٢) وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣) الآية والباطن منه الزنا.

وقال ابن زيد: ظاهر الإثم التعرّى والتجرّد من الثياب فى الطواف والباطن الزنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾: فى الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾: بما يكسبون فى الآخرة ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: فاقد التسمية ولم يدرك ذكاته أو ذبح لغير الله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: يعنى الأكل ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾: ليوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾: من المشركين ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾. وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ قال: الله قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر والكلب حلال وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال عكرمة: معناه ولى الشياطين يعنى مردة المجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى

قريش وكانوا أولياءهم فى الجاهلية وذلك أن المجوس من أهل فارس لما أنزل الله تعالى تحريم الميتة كتبوا إلى مشركى قريش. وكانت بينهم مكاتبة. إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال، وما ذبحه الله فهو حرام ولا يأكلونه، فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾: فى أكل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾: هو ألف الاستفهام والتقدير دخلت على واو النسق فبقيت على فتحها يعنى أومن كان كافراً ميتًا بالضلالة فهديناه واجتبيناه بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾: يستضىء به ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾: على قصد السبيل ومنهج الطريق.

قال ابن زيد: يعنى بهذا النور الإسلام نيابة قوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وقال قتادة: هذا المؤمن معه من الله نور وبينة يعمل بها ويأخذ وإليها ينتهى كتاب الله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

قال بعضهم: المثل زائد تقديره كمن فى الظلمات.

وقال بعضهم: معناه كان أو شبه بشىء كان يشبهه من فى الظلمات من ظلمة الكفر والجهل والضلالة والمسير.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾: لا يبصر شيئًا ولا يعرف طريقًا كالذى ضل طريقه فى ظلمة الليل فهو لا يجد مخرجاً ولا يهتدى طريقًا.

وقيل: إن هذه الآية نزلت فى رجلين بأعيانهما، ثم اختلفوا فيهما.

فقال ابن عباس: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾: يريد حمزة ابن عبد المطلب ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾: أبو جهل وذلك أن أبا جهل رمى النبى ﷺ بالحجارة وحمزة لم يؤمن بعد فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع كعبد مسكين يقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا.

فقال حمزة: ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك ويمان: نزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل.

قال عكرمة والكلبى: نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ : من الكفر والمعصية ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ : أى وكما زيّنا للكافرين أعمالهم كذلك جعلنا .

وقيل : وكما جعلنا فسّاق مكة أكابرها كذلك ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ﴾ : يعنى عظماء ، جمع أكبر مثل أفضل وأفاضل وأحمر وأحامر وأسود وأساود ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ : إن شئت نصبته على التقديم تقديره وكذلك جعلنا فى كل قرية مجرميها أكابر ، كما تقول : جعلت زيداً رئيسها وإن شئت خفضته على الإضافة ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ : لأن وبال مكرهم وجزاءه راجع إليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ : أنه كذلك ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ : من النبوة ، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقًا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سنًا وأكثر منك مالاً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل بن هشام وذلك أنه قال : زاحمنا عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحى كما يأتيه وأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ : حجة على صدق محمد ﷺ وصحة نبوته . ﴿قَالُواْ﴾ : يعنى أبو جهل . قالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ : يعنى محمداً رسول الله ﷺ ثم قال : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ : فخص بها محمداً ﷺ : ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ﴾ ذل وهوان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ : أى من عند الله نصب بنزع حرف الصفة .

قال النحاس : ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ على التقديم والتأخير ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ .

وقال أبو روق : صَغَار فى الدنيا وهذا العذاب فى الآخرة .

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ : أى يوسّع عقله أو ينوّره ليقبل الإسلام فأنزل الله تعالى الآية .

سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر ما هو؟ قال : «نور يقذفه الله تعالى فى قلب المؤمن فينشرح له صدره وينفسح» قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال : نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» .

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ : قرأ ابن كثير : ضيقًا بالتخفيف . والباقون : بالتشديد وهى لغتان مثل هين وهيّن ، ولين وليّن ، ﴿حَرَجًا﴾ كسر أهل المدينة راءه وفتحها الباقون وهما لغتان مثل الأَنْف والأَنَف ، والفَرْد والفَرَد ، والوَعْد والوَعَد .

وقال سيبويه : الحرج بالفتح المَصدر كالصلب والحلب ومعناه ذا حرج ، والحرج بالكسر

الاسم وهو أشد الضيق، يعنى قلبه ضيقًا لا يدخله الإيمان.

وقيل: أثيمًا لقول العرب: حرج عليك ضلمى أى ضيق وأثم. وقال السدى: حرجها شاكًا. وقال قتادة: ملتبسًا. وقال النضر بن شميل: ملقًا. وقال ليس للخير فيه منفذ.

وقال عبيد بن عمير. قرأ ابن عباس هذه الآية، فقال: هل ههنا أحد من بنى بكر؟ فقال رجل: نعم، قال: ما الحرج فيكم؟ قال: الوادى الكثير الشجر المتمسك الذى لا طريق فيه. قال ابن عباس: كذلك قلب الكافر.

وقال أبو الصلت الثقفى وعمر بن الخطاب (رضى الله عنه): هذه الآية ضيقًا حرجًا بنصب الراء. وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ حرجًا بالكسر. فقال عمر: ابعثوا إلى رجل من كنانة وجعلوه راعيًا فأتوه به فقال له عمر: يا فتى ما الحرجة فيكم؟ قال الحرجة فينا الشجرة التى تكون بين الأشجار التى لا يصل إليها راعية ولا وحشية ولا شىء.

فقال عمر (رضى الله عنه): كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: يعنى يشق عليه الإيمان، ويمتنع ويعجز عنه كما يشق عليه صعود السماء.

واختلف القراء فى ذلك، فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحمزة والكسائى: يصعّد بتشديد الصاد والعين بغير ألف أى يتصعد فأدغمت التاء فى الصاد.

فاختاره أبو حاتم وأبو عبيد اعتزازًا بقراءة عبد الله كأنما يتصعد فى السماء.

وقرأ طلحة وعاصم وأبو عبيد والنخعى ومجاهد: بالألف مشددًا بمعنى تصاعد.

وقرأ ابن كيسان وابن محيصن، والأعرج وأبو رجاء: يصعد حقيقة.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: قال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه.

ابن زيد: الرجس العذاب مثل الرجز. وقال ابن عباس: هو الشيطان الذى يسلطه عليه.

وقال الكلبى: هو المأثم، وقيل: هو النجس. ويقال: رجس رجاسة ونجس نجاسة.

وكان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «اللهم إنى أعوذ بك من نجس منجس الخبث المخبث الشيطان الرجيم».

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾: أى هذا الذى بيّنا طريق ربّك والذى ارتضاه لنفسه دينًا وجعله مستقيمًا لا عرج فيه وهو الإسلام.

وقال ابن مسعود: هو القرآن. وقال: إن الصراط محتضر يحضره الشياطين ينادون: يا عبد الله هلم هذا الطريق ليصدوا عن سبيل الله فاعتصموا بحبل الله وهو كتاب الله ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾: يعنى الجنة فى الآخرة.

قال أكثر المفسرين: السلام هو الله عزّ وجلّ وداره الجنة. وقيل: سميت الجنة دار السلام لسلامتها من الآفات والعاهات.

وقيل: لأن من دخلها سلم من البلايا والرزايا أجمع.

وقيل: لأنها سلمت من دخول أعداء الله كيلا ينتغص أولياء الله فيها كما يُنغّص مجاورتهم فى الدنيا.

وقيل: سميت بذلك لأن كل حالة من حالات أهلها مقرونة بالسلام فاما ابتداء دخولها فقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ (الحجر:٤٦)، وبعد ذلك قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ (الرعد:٢٣) الآية، وبعده قوله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ﴾ (يونس:١٠)، وبعده قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ﴾ (مريم:٦٢)، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ (الواقعة:٢٥، ٢٦)، وبعده قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ﴾ (الأحزاب:٤٤)، وبعد ذلك ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس:٥٨). فلما كان حالات أهل الجنة مقرونة بالسلام إما من الخلق وإما من الحق سمّاها الله دار السلام ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾: ناصرهم ومعينهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال الحسن بن الفضل: يعنى يتولاهم فى الدنيا بالتوفيق وفى الآخرة بالجزاء. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: الجن والإنس يجمعهم فى يوم القيامة فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾: أى من إضلال الناس وإغوائهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

قال الكلبى: استمتاع الإنس بالجن: هو أن الرجل إذا سافر أو خرج فمشى بأرض قفر أو أصاب صيداً من صيدهم فخاف على نفسه منهم. فقال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه فيثبت جواز منهم، واستمتاع الجن بالإنس هو أن قالوا: قد سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفًا فى قومهم وعظمًا فى قومهم وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية (الجن: ٦).

وقال محمد بن كعب وعبد العزيز بن يحيى: هو طاعة بعضهم بعضًا وموافقة بعضهم بعضًا وقيل: استمتاع الإنس بالجن بما كانوا يأتون إليهم. من الأراجيف والسحر والكهانة، واستمتاع الجن بالإنس إغراء الجن الإنس واتباع الإنس إياهم ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾: يعنى الموت والبعث. قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: يعنى قدّر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم.

قال ابن عباس: هذا الاستثناء هو أنه لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه لا يولهم جنة ولا نارًا.

وقال الكلبى: إلا ما شاء الله وكان ما شاء الله أبدًا.

وقيل: معناه النار مثواكم خالدين فيها سوى ما شاء الله من أنواع العذاب وقيل: إلا ما شاء الله من إخراج أهل التوحيد من النار.

وقيل: إلا ما شاء الله أن يزيدهم من العذاب فيها.

وقيل: إلا ما شاء الله من كونهم فى الدنيا بغير عذاب.

وقال عطاء: إلا ما شاء الله من الحق فى عمله أن يؤمن فمنهم من آمن من قبل الفتح ومنهم من آمن من بعد الفتح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

روى عن قتادة: يجعل بعضهم أولياء بعض. والمؤمن ولى المؤمن والكفار ولى الكافر حيث كان.

وروى معمر عن قتادة: تبع بعضهم بعضًا فى النار من الموالاة.

وقيل: معناه نولى ظلمة الإنس ظلمة الجن ونولى ظلمة الجن ظلمة الإنس، يعنى نَكِلُ بعضهم إلى بعض كقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ (النساء: ١١٥).

قال ابن زيد: نسلط بعضهم على بعض. يدل عليه قوله ﷺ: «من أعان ظالمًا سلّطه الله عليه».

وقال مالك بن دينار: قرأت فى كتب الله المنزلة: إن الله تعالى قال: أُفنى أعدائى بأعدائى ثم أُفنيهم بأوليائى.

وروى حيان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: تفسيرها: هو أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم.

وفى الخبر: يقول الله: إنى أنا الله لا إله إلاّ أنا مالك الملوك قلوبهم ونواصيهم بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشتغلوا بسبّ الملوك ولكن توبوا إلى الله تعالى بعطفهم عليكم.

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

قال الأعرج وابن أبى إسحاق: تأتكم بالتاء كقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف: ٤٣).

قرأ الباقون: بالياء كقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، ﴿يَقُصُّونَ﴾ يقرءون ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ وهو يوم القيامة.

واختلف العلماء فى الجن هل أُرسل إليهم رسول أم لا؟ فقال عبيد بن سليمان: سئل الضحاك عن الجن هل كان فيهم مؤمن قبل أن يبعث النبى ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يعنى بذلك رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن.

قال الكلبى: كان الرسل قبل أن يبعث النبى ﷺ يبعثون إلى الجن والإنس جميعًا.

قال مجاهد: الرسل من الإنس. والنذير من الجن ثم قرأ ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

قال ابن عباس: هم الذين استمعوا القرآن وأبلغوه قومهم.

وقال أهل المعانى: لم يكن من الجن رسول وإنما الرسل من الإنس خاصة وهذا كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من المالح دون العذب.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ (الحج: ٢٨) وهى أيام العشر وإنما الذبح فى يوم واحد من العشر فهو يوم النحر. وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح: ١٦) وإنما هو فى سماء واحدة. ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ﴾: أقروا ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ۝ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾: أى بشرك من أشرك ﴿وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ﴾: حتى يبعث إليهم رسلاً ينذرونهم. وقيل: معناه: لم يكن ليهلكهم دون البينة والتذكير بالرسل والآيات فيكون قد ظلمهم ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾: يعنى بالثواب والعقاب على قدر

أعمالهم فى الدنيا منهم من هو أشد عذابًا ومنهم من هو أجزل ثوابًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾: بعلمه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾: بهم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: ثم يميتكم ويهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾: يخلق ﴿مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾: خلقًا غيركم أمثل وأطوع منكم.

وقال عطاء: يريد الصحابة والتابعين. ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: قرنًا بعد قرن، وقال مقاتل: يعنى أهل سفينة نوح. وقرأ زيد بن ثابت: ذرية بكسر الذال مشدّدة.

وقال أبان بن عثمان: ذرية بفتح الذال وكسر الراء خفيفة على قدر فعله، الباقون: بضم الذال مشددة، وهى لغات صحيحة. وقال ثعلب: الذرية بالكسر الأصل، والذرية بالضم الولد ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ لجاءٍ كائن ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين سابقين أى حيث كنتم يدرككم. والإعجاز أن يأتى بالشىء يعجز عنه خصمه ويقصر دونه فيكون قد قهره وجعله

عاجزًا عنه ﴿قُلْ﴾ : يا محمد لهم ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ .

قال ابن عباس : على ناحيتكم . قال ابن زيد : على حيالكم . يمان : على مذاهبكم . عطاء : على حالتكم التى أنتم عليها . مقاتل : على جديلتكم . مجاهد : على وتيرتكم . الكلبى : على منازلكم . وقيل : اعملوا ما أمكنكم .

قرأ السلمي وعاصم : مكانًا لكم على الجمع فى كل القرآن .

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ : يقول اعملوا ما أنتم عاملون فإنى عامل ما أمرنى ربى ، وهذا أمر وعيد وتهديد لا أمر إباحة وإطلاق كقوله : ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ (فصلت : ٤٠) .

وقال الكلبى : معناه اعملوا ما أمكنكم من أمر فإنى عامل فى أموركم بإهلاك .

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ﴾ : قرأ مجاهد وأهل الكوفة : يكون بالياء ، الباقون : بالتاء ، ﴿لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ : يعنى الجنة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ : أى لا يأمن الكافرون .

قال عطاء : لا يبعد . وقال الضحاك : لا يفوز . وقال عكرمة : لا يبقى فى الثواب .

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ .

قال المفسرون : كانوا يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبًا وللأوثان نصيبًا فما كان للصنم أنفق عليه ، وما كان لله أطعم الضيفان والمساكين ولا يأكلون من ذلك كله شيئًا فما سقط مما جعلوا لله فى نصيب الأوثان تركوه . وقالوا : إن الله غنى عن هذا ، وإن سقط مما جعلوه للأوثان فى نصيب الله التقطوه فردوه إلى نصيب الصنم وقالوا : إنه فقير . وكانوا إذا بذروا ما وقع من بذر الله فى حصة الصنم تركوه ، وما وقع من حصّة الصنم فى حصّة الله تعالى ردوه وإن انفجر من سقى ماء جعلوه للشيطان فى نصيب الله ، شدّوه ، وإن انفجر من سقى ماء جعلوه لله فى نصيب الشيطان تركوه . فإذا هلك الذى سموا لشركائهم أو أجدب وكثر الذى لله ، قالوا : ليس لآلهتنا بدّ من نفقة فأخذوا الذى لله وأنفقوا على آلهتهم فإذا أجدب الذى لله وكثر الذى لآلهتهم قالوا : لو شاء الله لأزكى الذى له فلا يردون عليه شيئًا مما للآلهة فإذا أصابتهم السنة استعانوا بما جزوا منه ووفروا ما يجزون لشركائهم وذلك قوله تعالى ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ : أى مما خلف من الحرث والأنعام نصيبًا ، وفيه إضمار واختصار مجازه : وجعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا ﴿فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ .

يحيى بن رثاب والسلمى والأعمش والكسائى : بالضم .

وقرأ الباقون : بالفتح وهما لغتان وهو القول من غير حقيقة .

سمعت الحسين يقول : سمعت العنبرى عن أبى العباس الأزهرى عن أبى حاتم أنه قال :

قال شريح القاضي: إن لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا، والزعم أيضًا في الطمع ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾: يعني الأوثان ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: أي بئس ما كانوا يقضون ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾: أي كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام كذلك زين ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾: (ساء) موضع فرفع والمعنى: ساء الحكم حكمهم ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾: يعني شياطينهم زيّنوا وحسّنوا لهم وأد البنات خيفة العيلة.

وقال الكلبي: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ سدنة آلهتهم هم الذين كانوا يزينون للكفار قتل أولادهم. وكان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا غلامًا لينحرنَّ أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله.

وقرأ أهل الشام: ﴿زَيَّنَ﴾: بالضم، ﴿قَتْلَ﴾: رفع، ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾: نصب، ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾: بالخفض على التقديم، كأنه قال: زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم. ففرّقوا بين الفعل وفاعله.

يقول الشاعر:

يمر على ما يستمر وقد شقت غلائل غير نفس صــدورها

يريد شقت.

عبد القيس: غلايل صدورها.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: زين بضم الزاي، قتلُ رفعًا، أولادِهم خفضًا، شركاؤهم رفعًا على التوضيم والتكرير.

كأنه لما قال: زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم. تم الكلام. ثم قال: من زيّنه؟ فقال: شركاؤهم أي زيّنه شركاؤهم فارتفع الشركاء بفعل ضمير دل عليه زُين، كما تقول: أكل اللحم زيد، كأنه قيل: من الآكل فتقول زيد.

قال الشاعر:

ليبك لزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

فزيد مفعول مستقل بنفسه غير مسمّى فاعله، ثم بيّن فقال: ضارع.

أي ليبكيه ضارع، وقوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: ليهلكوهم ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟﴾ أي: ليخلطوا ويشبهوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هداهم ووفقهم وعصمهم عن ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾: ذلك من تحريم الأنعام والحرث، وقيل: الأولاد ﴿فَذَرْهُمْ﴾: يا محمد ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾: يختلقون على الله الكذب فإن الله لهم بالمرصاد ولا يخلف الميعاد

﴿وَقَالُواْ﴾: يعنى المشركين ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾: يعنى ما كانوا جعلوه لله ولآلهتهم التى قد مضى ذكرها.

وقال مجاهد: يعنى بالأنعام، البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والحجر: الحرام. قال الله تعالى ويقولون ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان: ٢٢) أى حرامًا حرمًا.

قال الليث:

حنّت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهـــاريس

وأصله من الحجر وهو المنع والحظر، ومنه: حجر القاضى على المفسد.

وقرأ الحسن وقتادة: وحرث حجر بضم الحاء وهما لغتان: وقرأ أُبى بن كعب وابن عباس وابن الزبير وأبو طلحة والأعمش: وحرث حرج بكسر الحاء والراء قبل الجيم وهى لغة أيضًا مثل جذب وجبذ.

وأنشد أبو عمرو:

ألم تقتلوا الحرجين إذ أعرضا لكم يمران بالأيدى اللحـــاء المضفرا

﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾: يعنون الرجال دون النساء ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: يعنى الحامى إذا ركب ولد ولده. قالوا: حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾.

قال مجاهد: كانت لهم من أنعامهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن نتجوا ولا إن باعوا ولا إن حملوا.

وقال أبو عاصم: قال لى أبو وائل: أتدرى ما أنعامٌ حرمت ظهورها؟ قلت: لا. قال: لا يحجّون عليها.

وقال الضحاك: هى التى إذا ذكوها أهلوا عليها بأصنامهم ولا يذكرون اسم الله عليها ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ يعنى أنهم كانوا يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾.

قال ابن عباس والشعبى وقتادة: يعنى ألبان النحائر كانت للذكور دون النساء فإذا ماتت اشترك فى لحمها ذكورهم وإناثهم.

وقال السدى: يعنى أخذ النحائر ما ولد منها أُخذ خالصًا للرجال دون النساء وأما ما ولد ميتًا فيأكله الرجال والنساء، ودخل الهاء فى (خالصة) على التأكيد والمبالغة، كما فعل ذلك بالراوية والنسابة والعلامة.

قال الفراء: أُهلت الهاء لتأنيث الأنعام، لأن ما في بطنها مثلها، فأنث لتأنيثها قال: وقد يكون الخالصة كالعاقبة ومنه قوله ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ (ص: ٤٦)، وقرأ عبد الله والأعمش: خالص لذكورنا بغير الهاء ردًا إلى ما، وقرأ ابن عبّاس: خالصة بالإضافة ويخلص والخالصة والخليصة والخلصان واحد. قال الشاعر:

كنت أمينى وكنت خالصتى   وليس كل امرئ بمؤتمن

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾: يعنى النساء ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾: قرأ أهل المدينة: تكن بالتاء، ميتةٌ بالرفع على معنى: وإن تقع الأنعام ميتة، وقرأها أهل مكّة: يكن بالياء، ميتة بالرفع على معنى: وإن يقع ما فى بطون الأنعام ميتةً، وقرأ الأعمش: تكن بالتاء، ميتة نصبًا على معنى: وإن يكن، وقرأ الباقون: يكن بالياء، ميتة بالنصب، ردّوه إلى ما يؤيّد ذلك قوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ ولم يقل: فيها. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾: أى بوصفهم وعلى وصفهم الكذب على الله كقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ (النحل: ٦٢) والوصف والصفة واحد كالوزن والزنة والوعد والعدة، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا﴾: الآية نزلت فى ربيعة ومضر وفى العرب الذين يدفنون بناتهم أحياء مخافة السبى والفقر، إلاّ ما كان من بنى كنانة فإنّهم كانوا لا يفعلون ذلك.

وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن وأهل مكّة والشام: قتّلوا، مشددًا على التكثير والباقون بالتخفيف: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: يعنى البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ حين قالوا: إنّ الله أمرهم بها ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.



﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾: اخترع وابتدع ﴿جَنَّٰتٍ﴾: بساتين.

﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾: مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات قال ابن عباس: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ ما انبسط على وجه الأرض وانتشر ممّا يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ وغيرها، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ما كان على ساق مثل النخيل وسائر الأشجار وما كان على نسق، مثل البروج، وقال الضحاك: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ الكرم خاصة منها ما عرش ومنها ما لم يعرش.

وروى عن ابن عباس أيضًا أنّ المعروشات ما عرش الناس، وغير معروشات ما خرج فى البرارى والجبال من الثمار.

يدل عليه قراءة على (مغروسات وغير مغروسات) بالغين والسين. ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ يعنى وأنشأ ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾: ثمره وطعمه الحامض والمرّ والحلو والجيّد والردىء وارتفع معنى الأكل ومختلفًا نعته إلاّ أنّه لمّا تقدّم النعت على الاسم وولى منصوبًا، نصب كما تقول: عندى طبّاخًا غلام وأنشد:

الشر منتشر لقاءك من مرض   والصالحات عليها مغلقًا باب

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾: فى المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾: فى الطعم مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف، إحداهما حلوة والأخرى حامضة وقد مرّ القول فيه ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾: ولا تحرّموه كفعل أهل الجاهلية ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: قرأ أهل مكّة والمدينة والكوفة (حصاده) بكسر الحاء والباقون بالفتح، وهما واحدة كالجَداد والجِداد والصَّرام والصِّرام واختلف العلماء فى حكم هذه الآية، فقال ابن عباس وطاوس والحسن وجابر بن زيد ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب والضحاك وابن زيد: هى الزكاة المفروضة العُشْر ونصف العشر.

وقال علىّ بن الحسين وعطاء وحمّاد والحكم: هو حق فى المال سوى الزكاة.

قال مجاهد: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل، وإذا جذذت فألف لهم من المشاريخ، وإذا درسته ودسته وذرّيته فاطرح لهم منه، وإذا كدسته ونقيته فاطرح لهم منه، وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته.

وقال إبراهيم: هو الضغث، قال الربيع: لقاط السنبل. قال مجاهد: كانوا يعلّقون العذق

عند الصرام فيأكل منه الصيف ومن مرَّ به .

قال زيد بن الأصم : كان أهل الجاهليّة إذا صرموا يجيئون بالعذق فيُعلّقونه فى جانب المسجد فيجىء المسكين فيضربه بعصاه فيسقط منه ويأخذه .

وقال سعيد بن جبير وعطيّة : كان هذا قبل الزكاة فلمّا فرض الزكاة نسخ هذا .

وقال سفيان والسدى : سألت عن هذه الآية فقال : نسخها العشر ونصف العشر ، قلت : ممّن؟ فقال : من العلماء مقسّم عن ابن عباس : نسخت الزكاة كلّ صدقة فى القرآن .

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ : كان رجال ينفقونها بالحرام فيقول الرجل لا أمنع سائلاً حتّى أمسى فعمد ثابت بن قيس بن شمّاس إلى خمسمائة نخلة فجذها ثمّ قسّمها فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيئًا فنزلت ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أى لا تعطوا كلّه ، وقال السدى : ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء ، وقال سعيد بن المسيّب : لا تمنعوا الصدقة ، وقال يمان بن رئاب : ولا تُبذّروا تبذيرًا ، مجاهد وعطية العوفى : ولا تتركوا الأصنام فى الحرث والأنعام .

وقال الزهرى : فوقعوا فى المعصية ، وقال مجاهد : لو كان أبو قبيس ذهبًا لرجل فأنفقه فى طاعة الله لم يكن مسرفًا ولو أنفق درهمًا أو مدًا فى معصية الله كان مسرفًا ، وفى هذا المعنى قيل لحاتم الطائى : لا خير فى السرف فقال : لا سرف فى الخير .

وقال محمد بن كعب : السرف أن لا يعطى فى حق ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لا يقدر على ردّه إلى الصلاح ، والفساد ما يقدر على ردّه إلى الصلاح .

قال النضر بن شميل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال الشاعر :

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ... ما فى عطائهم من ولا سرف

قال إياس بن معاوية : ما تجاوز أمر الله فهو سرف ، وروى ابن وهب عن ابن زيد قال : الخطاب للمساكين يقول : لا تأخذوا فوق حقّكم . ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ : يعنى أنشأ من الأنعام ﴿حَمُولَةً﴾ : بمعنى كلّ ما محمّل عليها ويركب مثل كبار الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، سمّيت بذلك لأنّها تحمل أثقالهم ، قال عنترة :

ما دعانى إلا حمولة أهلها ... وسط الديار تسف حب الخمخم

والحمولة الأحمال .

وقال أهل اللغة : الفعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل استوى فيه المذكّر والمؤنث نحو قولك : رجل فروقة وامرأة فروقة للجبان والخائف ، ورجل صرورة وامرأة صرورة إذا لم يحجا ، وإذا كانت بمعنى المفعول فرّق بين الذكر والأُنثى بالهاء كالحلوبّة والذكوبّة ﴿وَفَرْشًا﴾ :

والفرش ما يؤكل ويجلب ولا يحمل عليه مثل الغنم والفصلان والعجاجيل، سمّيت فرشًا للطافة أجسامها وقربها من الفرش. هى الأرض المستوية، وأصل الفرش الخفة واللطافة ومنه فراشة العقل وفراش العظام، والفرش أيضًا نبت ملتصق بالأرض تأكله الإبل قال الراجز:

❖ كمفشر الناب تلوك الفرشا ❖

والفرش: صغار الأولاد من الأنعام.

وقال الراجز:

أورثنى حمولة وفرشًا أمشها فى كلّ يوم مشًا

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: ما حرم الحرث الأنعام ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ثمّ بيّن الحمولة والفرش فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: نصبها على البدل من الحمولة بالفرض يعنى واحد من الأنعام ثمانية أزواج أى أصناف ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: فالذكر زوج والأُنثى زوج والضأن والنعاج جمعه، واحده: ضائن، والأنثى: ضائنة، والجمع: ضوائن.

قرأ الحسن وطلحة بن مصرف: الضأن مفتوحة الهمزة، والباقون ساكنة الهمزة، تميم بهمزة وسائر لا بهمزة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾: والمعز المعزى لا واحد له من لفظه، وأمّا الماعز فجمعه معيزة وجمع الماعزة مواعز، وقرأ أهل المدينة والكوفة: من المعز ساكنة العين والباقون بالفتح، وفى مصحف أُبّى: من المعزى، وقرأ أبان بن عثمان: من الضأن اثنان ومن المعز اثنين، ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾: حرّم الله عليكم ذكر الضأن ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: والمعز؟ أم أُنثييهما والنصب قوله ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: منهما ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

وذلك أنّهم كانوا يقولون هذه أنعام وحرث حجر، وقالوا: أمّا فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا، فحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. فلما قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبى ﷺ وكان خطيبهم يومئذ مالك بن عوف وأبا النضر النصرى فقال: يا محمد رأينا أنّك تحرّم ما كان آباؤنا يفعلونه؟

فقال لهم رسول لله ﷺ: إنكم حرّمتم أصنافًا من النعم على غير . . . .[1] إن الله خلق هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها فمن أين حرمت ذكران هذه النعم على نسائكم دون رجالكم؟

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فإن زعمتم أن تحريمه من أجل الذكران وجب أن تحرموا كل ذكر، لأن للذكر فيها حظًا، وإن زعمتم أنّ تحريمه من جهة الأنثى وجب أن تحرموا كل أنثى لأن للإناث فيها حظًا، وإن زعمتم أن تحريمه لاجتماع الذكر والأنثى فيه وما اشتمل الرحم عليه وجب أن تحرّموا الذكر والأنثى والحى والميّت، لأنّه لا يكون ولد إلاّ من ذكر وأنثى ولا يشتمل الرحم إلاّ على ذكر وأنثى، فَلم تحرمون بعضًا وتحلون بعضًا؟ فسكت.

فلما لزمته الحجّة أخذ بالافتراء على الله فقال: كذا أمرنا الله فقال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.



﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ثمّ بيّن المحرمات فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ أى شيئًا محرّمًا ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾: آكل يأكله. وقرأ على بن أبى طالب كرم الله وجهه: يطعمه مثقلة بالطاء أراد يتطعّمه فأدغم، وقرأت عائشة على طاعم طعمه ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: مهراقًا سائلاً. قال عمران بن جرير: سألت أبا مجلز عمّا يتلطخ من اللحم بالدم وعن القدر تعلوها حمرة الدم. قال: لا بأس به إنّما نهى الله سبحانه عن الدم المسفوح.

وقال إبراهيم: لا بأس الدم فى عروق أو مخ إلاّ المسفوح الذى تعمّد ذلك، قال عكرمة: لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾: خبيث ﴿أَوْ فِسْقًا﴾: معصية ﴿أُهِلَّ﴾: ذُبح ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: يعنى اليهود ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير. مثل الإبل والنعام والأوزة والبط.

قال ابن زيد: هو الإبل فقط. وقال القتيبى: هو كلّ ذى مخلب من الطيور وكل ذى حافر من الدواب، وقد حكاه عن بعض المفسّرين، وقيل: سمّى الحافر ظفرًا على الاستعارة وأنشد قول طرفة:

فما رقد الولدان حتّى رأيته ... على البكر يمريه بساق وحافر

فجعل الحافر موضع القدم.

وقرأ الحسن (كل ذى ظِفْر) مكسورة الظاء مسكنة الفاء. وقرأ أبو سماك (ظِفِر) بكسر الظاء والفاء وهى لغة.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾: يعنى الشروب وشحم الكليتين ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أى ما علق بالظهر والجانب إلاّ منْ داخل بطونها ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾: يعنى الماعز ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: مثل لحم الإلية ﴿ذَٰلِكَ﴾: التحريم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾: بظلمهم عقوبة لهم بقتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: فى إخبارنا عن هؤلاء اليهود عمّا حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾: لمّا ألزمنا بينهم الحجّة وتبيّنوا وتيقنوا باطل ما كانوا عليه ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا﴾: ما حرّمنا من التغاير والسوايب وغير ذلك لأنّه قادر على أن يحول بيننا وبين ذلك حتّى لا نفعله ولكنّه رضى منا ما نحن عليه من عبادة الأصنام وتحريم الحرث والأنعام وأراد منا وأمرنا به فلم يحل بيننا وبين ذلك فقال الله تعالى تكذيبًا لهم وردًا عليهم ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ولو كان كذلك خيراً من الله تعالى عن مَنْ كذّبهم فى قولهم ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾: لقال (كذلك كَذَبَ الذين من قبلهم) بتخفيف الذال وكان نسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب.

وقال الحسن بن الفضل: لمّا خبّروا بهذه المقالة تعظيمًا وإجلالاً لله سبحانه وتعالى وصفة منهم به لمّا عابهم ذلك، لأن الله قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ (الأنعام:١٠٧) وقال سبحانه: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأنعام:١١١) وقال: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والمؤمنون يقولون

هذا ولكنّهم قالوا ذلك تكذيبًا وتخرصًا وبدلاً من غير معرفة بالله تعالى وبما يقولون نظيره قوله ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ (الزخرف: ٢٠)، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف: ٢٠) بقولهم هذا من غير علم بيّنهم بآية: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٥) وبقوله و﴿عِلْمٍ﴾: منهم بالله عزّ وجلّ ثمّ قال ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾: من حظ وحجّة على ما يقولون من غير علم ويقين ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذّبون ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾: التامة الكافية على خلقه ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾: أي أحضروهم وأتوا بهم فقالوا: نحن نشهد، فقال الله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يشركون.



﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾

ثمّ قال ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ أقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾: حقًا يقينًا كما أوحى إليّ ربي وأمرني به لا ظنًا ولا تكذيبًا كما يزعمون ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: اختلفوا في محل أن فقال بعضهم: محلّه نصب، ثمّ اختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه: حرّم أن تشركوا ولا صلة كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (الأعراف: ١٢).

وقيل: إنّك ألاّ تشركوا، وقيل: أوحى ألا تشركوا، وقيل: ﴿مَا﴾ بدل من ﴿مَا حَرَّمَ﴾، وقيل: الكلام عند قوله ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾: ثمّ قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ على الكفر، وقال

بعضهم: موضع من معناه: وهو أن لا تشركوا جهراً بكفركم، وأما بعده فيجوز أن يكون فى محل النصب عطفًا على قوله ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ وأن . . . .[1] لأنه يجوز أن يكون جزم على الأقوى كقوله ﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام: ١٤) عطف بالنهى على الخبر قال الشاعر:

حج وأوصى بسليمى إلا عبدا أن لا ترى ولا تكلم أحـدا

ولا يزال شرابهـــا مبـــردا

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: ولا تئدوا بناتكم خشية العيش فإنى أرزقكم وإياهم والإملاق الفقر ونفاد الزاد.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: يعنى علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: يعنى السرّ قال المفسّرون: كانوا فى الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به بأسًا فى السرّ فحرّم الله تعالى الزنا فى العلانية والسر وقال الضحاك: ما ظهر الخمر وما بطن ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: نهى وهى نفس مؤمن أو معاهد ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: يعنى بما أباح قبلها وهى الارتداد والقصاص والرجم.

وروى مطر الوراق عن نافع بن عمر عن عثمان رضى الله عنه أشرف على أصحابه وقال: علام يقتلوننى فإنّى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مُسلم إلاّ بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل عامداً فعليه القود، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل»، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام ولا قتلت أحداً فأقيد نفسى، ولا ارتددت منذ أسلمت إنّى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

﴿ذَلِكُمْ﴾: الـذى ذكـرت ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: يعنى بما فيه صلاحه وتثميره، وقال مجاهد: هو التجارة فيه، وقال الضحاك: أموال يبتغى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئًا.

وقال ابن زيد: وأن يأكل بالمعروف إن افتقر، وإن استغنى لم يأكل، وقال الشعبى: مَنْ خالط مال اليتيم حتّى يفصل عليه فليخالطه، ومَنْ خالطه ليأكل منه وليدعه حتّى يبلغ أشده.

وقال يحيى بن يعمر: بلوغ الحلم، وقال الشعبى: الأشد الحلم حيث يكتب له الحسنات وعليه السيئات، وقال أبو العالية: حتّى يعقل ويجتمع قوّته.

وقال الكلبى: الأشد ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة. وقال السدّى: هو ثلاثون سنة ثمّ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

جاء بعدها حتّى بلغوا النكاح.

والأشد جمع شدّ، مثل قدّ وأقدّ، وهو استحكام قوة الفتى وشبابه وسنه، ومنه شد النهار وهو ارتفاعه، يقال: أتيته شدّ النهار ومد النهار وقال الفضل بن محمد فى شد بيت عنترة:

عهدى به شدّ النهار كأنّما خضب اللبان ورأسه بالعظلم

وقال آخر:

تطيف به شد النهار ضعينة طويلة أنقاء اليدين سحوق

وليس بلوغ الأشد ممّا يدع قرب ماله بغير الأحسن وقد تمّ الكلام.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: على الأبد ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: فادفعوا إليه ماله إن كان رشيداً ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: أى طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن، وقال أهل المعانى: معناه: إلاّ يسعها ويحلّ لها ولا يخرج عليه ولا يضيق عنه وذلك أنّ الله تعالى من عباده أنّ كثيراً منهم ضيق نفسه عن أن يطيّب لغيره بما لا يجب عليها له فأمر المعطى بإيفاء الحق ربّه الذى هو له ويكلّفه الزيادة لما فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها، وأمر صاحب الحق بأخذ حقّه ولم يكلفه الرضا بأقل منه لما فيه من النقصان عليه من ضيق نفسه، فلم يكلّف نفساً منهما إلاّ ما لا حرج فيه ولا يضيق عليه.

قال ابن عباس: إنكم معشر الأعاجم فقد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾: أى فاصدقوا فى الحكم والشهادة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: محذوف الاسم يعنى ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قربة ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون.

قال ابن عباس: هذا الآيات محكمات لم ينسخهنّ شىء فى جميع الكتب وهنّ محرّمات على بنى آدم كلّهم وهنّ أُمّ الكتاب مَنْ عمل بهن دخل الجنّة ومَنْ تركهن دخل النار.

قال كعب الأحبار: والذى نفس كعب بيده إنّ هذا لأوّل شىء فى التوراة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات.

وقال الربيع بن خيثم لأصحابه: ألا أقرأ عليكم صحيفة عليها خاتم محمد ﷺ لم يُفك فقرأ هذه الآية ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾: يعنى وصّاكم به فى هاتين الآيتين ﴿صِرَٰطِى﴾: طريقى ودينى ﴿مُسْتَقِيمًا﴾: مستوياً قويماً ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾: يعنى الطرق المختلفة التى عداها مثل اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ﴾: فيمتدّ وتخالف وتشتت ﴿بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: عن طريقه ودين النبىّ الذى ارتضى وبها وصّى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذى: ذكرت

﴿وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾: يعني ثمّ قل يا محمد لهم آتينا موسى الكتاب، لأنّ موسى أوتى الكتاب قبل محمد عليهما الصلاة والسلام. وقيل: ثمّ بمعنى الواو لأنّهما حرف عطف قال الشاعر:

قل لمن ساد ثمّ ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

﴿تَمَامًا﴾: نصب على القطع، وقيل: على التفسير ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾: قال بعضهم: معناه تمامًا على المحسنين. ويكون ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ بمعنى (من) وتقديره على الذين أحسنوا، لفظه واحد ومعناه جمع كما تقول: أُوصى بمالي للذى غزا وحج يريد الغازين والحاجين.

وقال الشاعر:

❖ شبّوا علىَّ المجد وشابوا واكتهل ❖

يريد: واكتهلوا.

يدلّ عليه قراءة عبد الله بن مسعود (على الذين أحسنوا).

وقال أبو عبيد: معناه على كل مَنْ أحسن، ومعنى هذا القول أتممنا طلب موسى بهذا الكتاب، على المحسنين يعنى أظهرنا فضله عليهم، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون. وقيل: معناه: ثمّ آتينا موسى الكتاب متممًا للمحسنين يعنى تتميمًا منّا للأنبياء والمؤمنين الكتب ﴿عَلَى﴾: بمعنى (اللام) كما تقول أتم الله عليه فأتم له. قال الشاعر:

رعته أشهرًا وخلا عليها فطار التى فيها واستعارا

أراد: وخلا لها.

وقيل: (الذى) بمعنى (ما)، يعنى آتينا موسى الكتاب تمامًا على ما أحسن موسى من العلم والحكمة أى زيادة على ذلك.

وقال عبد الله بن بريدة: معناه تمامًا منّى على مَنّى وإحسانى إلى موسى، وقال ابن زيد: معناه تمامًا على إحسان الله إلى أنبيائه وأياديه عندهم، وقال الحسن: فمنهم المحسن ومنهم المسيء فنزل الكتاب تمامًا على المحسنين، وقرأ يحيى بن يعمر: على الذى أحسن، بالرفع أى على ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾: بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: يحتاج إليه من شرائع الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾: هذا يعنى ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾: واعملوا بما فيه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾: وأطيعوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: فلا تعذبون.

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝﴾

أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾: يعني لئلاّ تقولوا كقوله ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ (النساء: ١٧٦) وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ﴾ (المائدة: ١٩) يعني أي لا تقولوا يعني لئلاّ تقولوا.

وقيل: معناه أنزلناه كراهة أن يقولوا، وقال الكسائي: معناه: اتقوا أن تقولوا: يا أهل مكّة، وقرأ ابن محيصن والأعمش كلاهما والقراءة بالياء بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمْ﴾، ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾: يعني اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا﴾: وقد كنّا ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾: قراءتهم ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾: لا نعلم ما هي وإنّما قال: دراستهم، ولم يقل: دراستهما، لأن كل طائفة جماعة، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ﴾ (الحج: ١٩) وأن ما يقال ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾، ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: يعني أصوب من اليهود والنصارى دينًا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: حجّة واضحة لمن يعرفونها ﴿وَهُدًى﴾: وبيان

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ : ونعمة لمن اتبعه وعمل به ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ﴾ : وأعرض ﴿عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ : شدة العذاب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ : يعرضون ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ : وينتظرون ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ : لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ : بلا كيف لفصل القضاء من خلقه فى موقف القيامة ، وقال الضحاك : يأتى أمره وقضاؤه ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ : يعنى طلوع الشمس من مغربها ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ : وقرأ ابن عمر وابن الزبير : يوم تأتى بعض آيات ربّك بالتاء ، قال المبرّد : على التأنيث على المجاورة لا على الأصل ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه . قال جرير :

لمّا أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

فأنث فعل السور ، وهو مذكّر لاتصاله بمؤنّث .

روى عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾» الآية .

وروى مقاتل بن حيّان عن عكرمة عن ابن عباس : قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة فى سرعة طيران الملائكة وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع إلى مغربها أو من مطلعها فكسى ضوءها ، وإن كان القمر منوّرًا على مقادير ساعات الليل والنهار ثمّ ينطلق بها ما بين السماء السابعة العليا وبين أسفل درجات الجنان فى سرعة طيران الملائكة فتنحدر جبال المشرق من سماء إلى سماء ، فإذا ما وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الصبح ويضىء النهار فلا يظل الشمس والقمر ، كذلك حتّى يأتى الوقت الذى وقت الله التوبة للعباد وتكثر المعاصى فى الأرض ، ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد ، فإذا فعلوا ذلك حبست الشمس مقدار ليلة تحت العرش كلما سجدت واستأذنت من أن تطلع لم يجئ لها جواب حتّى يراقبها القمر فيجىء معها ويستأذن من أن يطلع فلا يجاب لهما بجواب حتى تحبسا مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف طول تلك الليالى إلاّ المتهجّدون فى الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين فى هوان من الناس وذلّة من أنفسهم ، فينام أحدهم تلك الليلة قدر ما كان ينام قبلها من الليالى ، ثمّ يقوم ويتوضأ ويدخل مصلاّه فيصلى ورده ، فلا يصبح نحو ما كان يصبح كلّ ليلة فينكر ذلك فيخرج فينظر إلى السماء فإذا هو بالليل فكأنه والنجوم قد استدارت مع السماء فصارت إلى أماكنها من أول الليل ، فينكر ذلك ويظن فيها الظنون

فيقول: قد خففت قراءتي وقصرت صلواتي أم قمت قبل حيني.

قال: ثمّ يقوم فيعود إلى مصلاّه فيصلي نحو صلاته الليلة الثانية ثمّ ينظر فلا يرى الصبح فيخرج أيضًا فإذا بالليل مكانه فيزيده ذلك إنكارًا ويخالطه الخوف ويظن في ذلك الظنون من السوء، ثمّ يقول فلعلّي قصّرت صلواتي ثم خفّفت قراءتي أم قمت في أوّل الليل ثمّ يعود وهو وجل مشتت خائف لما توقّع من هول تلك الليلة فيقوم فيصلّي أيضًا مثل ورده كلّ ليلة قبل ذلك، ثمّ ينظر فلا يرى الصبح فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فإذا بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت في أماكنها عند أوّل الليل فيشفقه عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيستحييه الخفّة ويستخفّه الندامة، ثمّ ينادي بعضهم بعضًا وهم كانوا قبل ذلك يتعارفون ويتواصلون فيجتمع المتهجدون من كل بلدة في تلك الليلة في مسجد من مساجد ويجأرون إلى الله تعالى بالبكاء ويصلّون بقيّة تلك الليلة.

فإذا ما تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله إليهما جبرئيل فيقول: إنّ الرب تبارك وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه وإنّه لا ضوء لكما عندنا ولا نور فيبكيان عند ذلك وَجَلاً من الله عزّ وجلّ وخوف يوم القيامة بكاءً يسمعه أهل سبع سموات ومن دونها وأهل سرادقات العرش وحملته ومن فوقهما، فيبكون جميعًا لبكائهما من خوف الموت والقيامة، فيرجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما فبينما المتهجّدون يبكون ويتضرّعون إلى الله عزّ وجلّ، والغافلون في غفلاتهم إذ نادى مناد: ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من المغرب فينظر الناس فإذا هم بهما أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما في كسوفهما قبل ذلك. فذلك قوله ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ (القيامة: ٩) وقوله ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ (التكوير: ١) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين يُنازع كلّ واحد منهما صاحبه اشتياقًا، ويتصايح أهل الدنيا وتدخل الأُمهات على أولادها والأحبّة عن غمرات قلوبها، فتشتغل كلُّ نفس بما ألمها، فأمّا الصالحون والأبرار فإنّه ينفعهم بكاؤهم يومئذ فيكتب لهم ذلك عبادة، وأمّا الفاسقون والفُجّار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب ذلك حسرة عليهم فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرّت السماء وهي منصفها جاءهما جبرائيل (عليه السلام) فأخذ بقرونهما فردّهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة».

فقال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله وما باب التوبة؟

فقال ﷺ: «يا عمر خلق الله تعالى بابًا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكلّلان بالدرّ والجوهر ما بين المصراع إلى المصراع الآخر أربعون سنة للراكب المسرع فذلك الباب

مفتوح منذ خلق الله خلقه إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحًا منذ خلق الله آدم إلى ذلك اليوم إلاّ ولجت تلك التوبة فى ذلك الباب. لم يرفع إلى الله تعالى».

فقال له معاذ بن جبل: بأبى أنت وأُمى يا رسول الله وما التوبة النصوح؟

قال: «أن يندم المذنب على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله عزّ وجلّ ثمّ لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع».

قال: فيغربهما جبريل فى ذلك الباب ثمّ يرد المصراعين ثمّ يلتئم ما بينهما فيصير كأنّه لم يكن بينهما صدع قط، فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل من العبد بعد ذلك توبة ولم ينفعه حسنة يعملها فى الإسلام، إلاّ مَنْ كان قبل ذلك مُحسنًا فإنّه يجرى عليه ما كان يجرى عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾.

فقال أُبى بن كعب: بأبى أنت وأُمّى يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر يومئذ بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا.

فقال: «يا أُبى إنّ الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك الضوء والنور، ثمّ يطلعان على الناس ويغربان، كما كانا قبل ذلك يطلعان ويغربان، فإنّ الناس رأوا ما رأوا فى فظاعة تلك الآية يلحون على الدنيا حتّى يجروا فيها الأنهار ويغرسوا فيها الأشجار ويبنوا البنيان. وأمّا الدنيا فلو نتج لرجل مُهرًا لم يركبه حتّى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن يُنفخ فى الصور».

قال حذيفة بن أسيد والبراء بن عازب: كنّا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما تذاكرون؟». قلنا: نتذاكر الساعة. قال: «إنها لا تقوم حتّى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفًا بالمشرق، وخسفًا بالمغرب، وخسفًا بجزيرة العرب، ويأجوج ومأجوج، ونارًا تخرج من قعر عدن، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها».

ويقال: إنّ الآيات تتابع كالنظم فى الخيط عامًا فعامًا.

وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى: والحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أنّ إبراهيم (عليه السلام) قال لنمرود: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وأن الملحدة والمنجّمة عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون هو غير كائن فيطلعها الله تعالى

يومًا من المغرب ليرى المنكرين قدرته فإنّ الشمس من ملكه إن شاء أطلعها من المطلع وإن شاء من المغرب.

وقال عبد الله بن عمر: يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتّى يغرسوا النخل.

قال الله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ العذاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ قرأه حمزة والكسائى: فارقوا بالألف أى خرجوا من دينهم وتركوه وهى قراءة علىّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه -، ورواه معاذ عن النبى ﷺ وقرأ الباقون مشدّدًا بغير ألف وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى ابن كعب أى جعلوا دين الله - وهو واحد دين الحنفية - أديانًا مختلفة فتهوّد قوم وتنصّر آخرون يدلّ عليه قوله ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: أى صاروا فرقًا مختلفة وهم اليهود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة والسدى والضحاك.

وروى ليث عن طاوس عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ وليسوا منك، هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل من هذه الأُمّة لست منهم فى شىء»، أى نفر منهم ورسول الله.

قالوا: وهذه اللفظة منسوخة بآية القتال.

وقال زادان أبو عمر قال لى على (عليه السلام): «يا أبا عمر أتدرى كم افترقت اليهود؟.

قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «افترقت على إحدى وسبعين فرقة كلّها فى الهاوية إلاّ واحدة وهى الناجية. أتدرى على كم افترقت النصارى؟».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «افترقت على ثنتين وسبعين فرقة كلّها فى الهاوية إلاّ واحدة هى الناجية».

«أتدرى على كم تفترق هذه الأُمّة؟».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «تفترق على ثلاث وسبعين فرقة فى الهاوية إلاّ واحدة فهى الناجية».

ثمّ قال على - رضى الله عنه - أتدرى على كم تفترق فىّ؟

قلت: وإنّه لتفترق فيك يا أمير المؤمنين؟

قال: نعم تفترق فىّ اثنتا عشرة فرقة كلها فى الهاوية إلاّ واحدة وهى الناجية وأنت منهم يا أبا عمر».

ومنهم فرق الروافض والخوارج.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾: يعنى التوحيد: لا إله إلاّ أنت ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: قرأ الحسن وسعيد بن جبير. ويعقوب عشر منون أمثالها رفع على معنى فله حسنات عشر أمثالها، وقرأ الباقون بالإضافة على معنى: فله عشر حسنات أمثالها، وإنما لم يقل عشرة والمثل مذكر فأنث العدد لأنه مضاف إلى مؤنث فرده إلى الحسنة والدرجة ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: فى الشرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾: النار ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: وقيل: هو عام فى جميع الحسنات والسيّئات.

روى المقدوس بن يزيد عن أبى ذر: قال: حدّثنى الصادق المصدّق أنّ الله عزّ وجلّ قال: «الحسنة عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو أغفرها فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة ثمّ لا يشرك بى شيئًا جعلت له مثلها مغفرة».

قال ابن عمر وابن عباس: هذه الآية فى الأحزاب وأهل البدو، قيل: فما لأهل القرى قال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠) وأقلها سبعمائة ضعف، وقال قتادة: فى هذه الآية ذكر لنا أنّ رسول الله ﷺ قال: «الأعمال ستة فموجبة وموجبة مضاعفة ومثل وبمثل فأمّا الموجبتان فمن لقى الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنّة ومَنْ لقى الله يُشرك به دخل النار، فأمّا المضاعفتان فنفقة الرجل على أهله عشر بعشر أمثالها ونفقة الرجل فى سبيل الله سبعمائة ضعف، وأمّا مثل بمثل فإنّ العبد إذا همّ بحسنة ثمّ لم يعملها كُتبت واحدة وإذا عملها كُتبت عشرة».

وعن سفيان الثورى لمّا نزلت: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قال النبى ﷺ: «ربّى زدنى» فنزلت ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ (البقرة: ٢٦١) الآية قال: يا رب زدنى فنزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: ٢٤٥) قال: ربّ زدنى فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ قرأ أهل الكوفة والشام: قِيَمًا بكسر القاف وفتح الياء مخففًا. وقرأ الباقون: قَيِّمًا بفتح القاف وكسر الياء مشددًا وهما لغتان وتصديق التشديد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (التوبة: ٣٦، الروم: ٣٠، يوسف: ٤٠). و﴿دِينًا قِيَمًا﴾: معناهما: ذلك الدين القويم المستقيم.

واختلف النحاة فى وجه انتصابه فقال الأخفش: معناه هدانى دينًا قيّمًا، وقيل: عرفت دينًا قيّمًا لله أعنى دينًا قيّمًا، وقيل: نصب على الآخر يعنى ابتغوا دينًا قيّمًا.

وقال قطرب: نصب على الحال وضع ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل من الدين ﴿حَنِيفًاۚ﴾ نصب على الحال ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال أهل التفسير يعنى ذبيحتى فى الحج والعمرة.

وقيل: دينى ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾: يعنى حياتى ووفاتى قال: يمان: محياى بالعمل الصالح ومماتى إذا مت على الإيمان. وقرأ أهل المدينة ومحياى بسكون الياء.

وقرأت العامة بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان. وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى: ومحييّ بتشديد الياء الثانية من غير ألف وهى لغة عليا مضر يقولون: قفى وعصى وقرأ السلمى نسكى بجزم السين والباقون بضمّتين ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة أوّل المسلمين من هذه الأمة، قال الكلبى: أوّل مَنْ أطاع الله من أهل زمانه.

وروى سعيد بن جبير عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة قومى واشهدى أُضحيّتك فإنّه يغفر لك فى أوّل قطرة من دمها كل ذنب عملته ثمّ قولى: إنّ صلاتى ونُسكى - إلى قوله - المسلمين». قال عمران: يا رسول الله هذه الآية لأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامّة».

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾: سوى الله أطلب سيّدًا ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾: لا تؤخذ مما أتت من المعصية وارتكبت من الذنوب سواها.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾: يعنى ولا تحمل نفس حمل طبق محل أُخرى ما عليها من الذنوب ولا تأثم نفس آثمة بإثمّ أُخرى، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾: يعنى أهل القرون الماضية والأُمم الخالية وأورثكم الأرض من بعدهم ثمّ جعلكم خلايف منهم فيما يخلفونهم فيها ويعمرونها بعدهم والخلاف جمع خليفة، كالوصيف يجمع وصيفة فكل مَنْ جاء من بعد مَنْ مضى فهو خليفة يقال: خلف فلان فلانًا فى داره يخلفه خلافةً فهو خليفة كما قال الشماخ:

تصيبهم وتخطئنى المنايا وأخلف فى ربوع عن ربوع

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾: يعنى وخالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض فى الخلق والرزق والقوّة والبسطة والعلم والفضل والمعاش والمعاد ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾: يعنى الغنى والفقير والشريف والوضيع والحر والعبد ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: يعنى ما هو آت

قريب، وقيل: الهلاك في الدنيا.

وقال الكلبي: إذا عاقب فعقابه سريع، وقال عطاء: سريع العقاب لأعدائه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: لأوليائه.



انتهى بفضل الله تعالى الجزء الثاني من تفسير الثعلبي

ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث وأوله: سورة الأعراف



فهرس الموضوعات